مجلة المجمع العلمي العربي

دمشق

١ كانون الثاني سنة ١٩٥٩ م

٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٨ هـ

مد

مجلة
المجمع العلمي العربي
دمشق

انشئت سنة ١٣٣٩ ﻫ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

تصدر أربعة أجزاء في السنة

قيمة الاشتراك السنوي	في جميع البلاد العربية	١٠٠٠ قرش سوري
	وفي سائر الاقطـــار	١٢٠٠ قرش سوري

تدفع مقدماً

مد

قصيـــدة

منصور النَّمَري في الرشيد

منصور بن الزِّبْرِقان[1] بن سَلَمَة النمري[2]، ينتسب إلى قبيلة النَّمِر بن قاسط من ربيعة بن نزار، من العرب العدنانية. وهو من رأس العين في الجزيرة؛ وتلميذ كلثوم بن عمرو العتّابي وراويته، عنه أخذ ومن بحره استقى، معدود من فحول شعراء الدولة العباسية في القرن الثاني. قرّظه العتّابي عند الفضل بن يحيى البرمكي فاستقدمه من الجزيرة إلى بغداد واستصحبه ثم وصله بهرون الرشيد، فمدحه بالمدائح الجياد ونال كثيراً من عطاياه، وكان يمتّ إلى الرشيد بالخؤولة من جهة نُتَيْلة النمرية أم العباس بن عبد المطلب. وتوفي بالرقة[3] في خلافة الرشيد (١٧٠ — ١٩٣).

كان علي بن الجهم يقول: «أنا أشعر من امرئ القيس، والنمري أشعر مني[4]». وأحسن شعره قصيدته العينية التي مدح بها الرشيد، فهي من أحسن القصائد في الشعر العربي في جميع عصوره. قال ابن المعتز في طبقات الشعراء: «هذه القصيدة عجيبة، وتشبيبها في الشيب لم يقل مثله أحد». وقال أيضاً: «قد أقام القيامة في تشبيب هذه القصيدة بالشباب». والنقاد الذين قرظوا هذه القصيدة واستشهدوا بعدد من أبياتها وجعلوها أمثلة في الإحسان كثيرون.

---

(١) وقيل منصور بن سلمة بن الزبرقان. الأغاني ١٣/١٤٠

(٢) النسبة إلى النمر بن قاسط نَمَري.

(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٤

(٤) طبقات الشعراء ص ٤٣٨

وهذه القصيدة ـ على حسنها ـ لا يعرف منها حتى الآن إلا أبيات موزعة في كتب الأدب والتراجم . ولا توجد كاملة إلا في مخطوطة «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود بن رسلان الشيزري [1] .

وعدد أبيات هذه القصيدة تسعة وستون بيتاً لا يعرف منها إلا نحو من عشرين بيتاً متفرقة هنا وهناك غير مسلسلة ولا مرتبة ، فلما ظفرنا بها كاملة بذلنا الجهد في تحقيقها ونشرها ، وتصحيح ما حرّف من ألفاظها .

أما مصادر ترجمة منصور النمري التي أخذنا منها هذه النبذة المختصرة في التعريف به فهي :

طبقات الشعراء لابن المعتز ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ص ٢٤٣ — ٢٤٨ وص ٤٣٨

الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني طبعة دار الكتب المصرية ج ١٣ ص ١٤٠ — ١٥٧

تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ ص ٦٥ — ٦٩

ونرجو أن نعود الى ترجمة هذا الشاعر وأخباره وما بقي من شعره ونستعين بها على كتابة دراسة وافية له في وقت قريب إن شاء الله .

خليل مردم بك

(١) انظر مقالنا في التعريف بهذه المخطوطة في مجلة المجمع العلمي العربي م٣٣ ص ٣،

قال منصور النمري يمدح هرون الرشيد :

ما تَنْقضي حَسْرَةٌ مِنّي وَلاَ جزَعُ ... إذا ذكرتُ شَبَاباً[١] لَيْسَ يُرْتجَعُ[٢]
بَانَ[٣] الشّبابُ وفاتَتْني بِشِرّتِهِ[٤] ... صُرُوفُ دَهْرٍ وأيّامٌ[٥] لَهَا خُدَعُ
ما كُنتُ أوفي شبابي كُنْهَ عِزّتِهِ[٦] ... حتّى انْقَضَى فإذا الدّنيا لَهُ تَبَعُ
تَعجّبَتْ أنْ رَأَتْ أسْرابَ دَمْعَتِهِ ... في حَلْبَةِ الخَدِّ أجْرَاها حَشًا وَجِعُ
إنْ كُنتِ لِمْ تطعَمِي ثُكْلَ الشّبابِ وَلَمْ ... تَشْجَي بِغُصّتِهِ فَالعُذْرُ لاَ يَقعُ
لَوْ قَدْ لَبِسْتِ قِنَاعَ الشّيْبِ كانَ لَنَا ... عُذْرٌ لَدَيْكِ وَرَاحَ اللّوْمُ والوَلَعُ[٧]
أبْكِي شَبَاباً سُلِبْنَاهُ وكانَ ولاَ ... تُوفِي بِقِيمَتِهِ الدُّنْيَا وَمَا تَسَعُ
ما كُنْتَ أوّلَ مَسْلُوبٍ شَبِيبَتَهُ ... مَكْسُوِّ شَيْبٍ فَلاَ يَذْهَبْ بِكَ الجَزَعُ

---

(١) في الأصل : سباباً .

(٢) في الأصل : ترتجع .

(٣) أودى الشباب .... طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٤٥

(٤) شِرّةُ الشباب : نشاطه ، وفي الأغاني : بلذته .

(٥) ... وأيامٌ لنا خدَعُ . ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ٢/١٥٣ .

(٦) غِرّتِهِ ، طبقات الشعراء والأغاني والإعجاز والإيجاز للثعالبي ص ١٦٦ وديوان المعاني .

(٧) وَلِع فلان بفلان يوْلَعَ وَلَعاً : إذا لجّ في أمره وحرص على إيذائه :

تِلْكَ الأُسَى(١) مِنْ لِداتي(٢) في ذوي سِيَمٍ عَمائِمُ الشَّيْبِ مُنْجَابٌ(٣) لَها الصَّلَعُ
لاَ تَعْذُلِيني فَإِنِّي غَيْرُ كاذِبَتِي عَنْكِ الكَذُوبُ(٤) ولاَ في وُدِّكِمْ طَمَعُ
قَدْ كُنْتُ فِيكُنَّ ذَا جاهٍ وذا مِقَةٍ(٥) أَيَّامَ غُصْنُ شَبَابِي لَيِّنٌ تَرِعُ(٦)
إِنِّي لَمُعْتَرِفٌ ما فِيَّ مِنْ أَرَبٍ لِلْغَانِيات فَمَا لِلنَّفْسِ تَنْخَدِعُ
ما وَاجَهَ الشَّيْبَ مِنْ عَيْنٍ وإِنْ وَمِقَتْ(٧) إِلاَّ لَهَا نَبْوَةٌ عَنْهُ وَمُرْتَدَعُ(٨)
قَدْ كِدْتَ تَقْضِي عَلَى فَوْتِ الشَّبَابِ أَسًى لَوْلاَ تَعَزِّيكَ أَنَّ العَيْشَ مُنْقَطِعُ
لاَ بَلْ بَقاءُ أَمِيرِ المُؤْمِنينَ لَنَا فِيهِ الغِنَى وَحَيَاةُ الدِّينِ وَالرِّفَعُ
إِذا أَخْلَفَ الغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ مَخايِلُهُ(٩) أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ
إِنَّ الخَلِيفَةَ هرُونَ الَّذِي امْتَلأَتْ مِنْهُ القُلُوبُ رَجاءً تَحْتَهُ فَزَعُ

(١) الأُسى والإِسى : جمع أُسوة وهي القدوة وما يتعزى به الحزين .

(٢) اللِّدات : جمع لِدَة وهو التِّرب الذي وُلِدَ معك وتربّى .

(٣) انجاب : انشق وانكشف .

(٤) الكَذُوبُ : النفس لأنها تحدث الإنسان بالأمور التي لا يبلغها وسعه . وفي الأصل : اللدوب وهو من سهو الناسخ .

(٥) المِقَة : المحبة .

(٦) التَّرِع : الغض . يقال عشبٌ ترع إذا كان غضًّا (التاج) .

(٧) وَمِقَتْ : أحبت .

(٨) في الأصل : ومرتجع ، والتصحيح من أمالي القالي ١١٢/١ وحماسة ابن الشجري ص ٢٣٩ .

(٩) المَخايِلُ من السحب : المنذرة بالمطر . أنامله : العمدة ٢/ ١١٠ .

مَفْرُوضَةٌ في رِقابِ ٱلنَّاسِ طاعَتُهُ ... عَاصِيهِ مِنْ رِبْقَةِ ٱلإِسْلامِ مُنْقَطِعُ (١)
أيُّ ٱمْرِيءٍ (٢) باتَ مِنْ هَرُونَ في سَخَطٍ ... فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
أُثْنِي عَلَى ٱللهِ إِحساناً وَأَشْكُرُهُ ... أَنْ لَيْسَ لِي عَنْ وَلِيِّ ٱلأَمْرِ مُنْقَطَعُ (٣)
أَصْفَيْتُ وُدِّي لِهٰرُونٍ وَشيعَتِهِ ... لَمَّا تَفَرَّقَتِ ٱلأَحزابُ وَٱلشِّيَعُ
لَمَّا أَخَذْتُ بِكَفِّي حَبْلَ (٤) طاعَتِهِ ... أَيقَنْتُ أَنِّي مِنَ ٱلأَحْداثِ مُمْتَنِعُ
هُوَ ٱلإِمَامُ ٱلَّذي طابَ ٱلْجِهادُ بِهِ ... وَٱلْحَجُّ لِلنَّاسِ وَٱلأَعْيادُ وَٱلْجُمَعُ
حِصْنٌ بَنَتْهُ يَمِينُ ٱللهِ يَسْكُنُهُ ٱلْـ ... إِسلامُ صَعْبُ ٱلْمَراقي لَيْسَ يُطَّلَعُ
يَقْرِي ٱلْعَدُوَّ ٱلْمَنايا وَٱلْعُفَاةَ نَدىً ... مِنْ كُلِّ ذاكَ ٱلنَّدَى (٥) أَخْواضُهُ تُرَعُ
صَبٌّ إِلى ٱللهِ زَوَّارٌ لِكَعْبَتِهِ ... في كُلِّ عَامٍ وَإِنْ زُوَّارُها شَسَعُوا
لا يَحْفِلُ ٱلْبُعْدَ مِنْ دارٍ وَلاَ وَطَنٍ ... إِذَا سَرَى بِوُفُودِ ٱللهِ وَٱتَّبَعُوا
عَزَّافَةُ (٦) ٱلنَّفْسِ لاَ يَلْوِي عَلَى دَعَةٍ ... وَقَدْ يَرَى خَفْضَ مَنْ يَلْهُو وَيَتَّدِعُ (٧)

---

(١) كذا ولعل الصواب مُنْخَلِعُ .
(٢) من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس . . . . العمدة ٢/١١٠ .
(٣) كذا ولعل الصواب مُنْتَجَعُ .
(٤) في الأصل : جُلَّ طاعته .
(٥) القِرَى . ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ١/٥٩ .
(٦) في الأصل : عرّافه .
(٧) يَتَدِعُ : يسكن الى الدعة والخفض والراحة . وفي الأصل : يبندع . وهو تحريف .

يَمُّ بِمَكَّةَ لَمْ يُجْمَعْ إِلَى بَلَدٍ ... إِلاَّ تَخَرَّقَ (١) فِيهِ ٱلرِّيُّ وَٱلشِّبَعُ

تُزْهَى بِهِ عَرَفَاتٌ (٢) حِينَ يَنْزِلُهَا ... وَٱلْمَشْعَرَانِ (٢) وَتَأْسَى حِينَ يَنْدَفِعُ

تِلْكَ ٱلْمَنَازِلُ إِنْ غِبْتَ زِيَارَتَهُ ... حَنَّتْ كَمَا يَسْتَحِنُّ ٱلْوَالِهُ ٱلنَّزِعُ

يَقْظَانُ لاَ يَتَعَايَا بِٱلْخُطُوبِ إِذَا ... نَابَتْ وَلاَ يَعْتَرِيهِ ٱلضِّيقُ وَٱلزَّمَعُ (٣)

مُسْتَحْكِمُ ٱلرَّأْيِ مُسْتَغْنٍ بِوَحْدَتِهِ ... عَنِ ٱلرِّجَالِ بِرَيْبِ ٱلدَّهْرِ مُضْطَلِعُ

لاَ يَمْلِكُ ٱلْبُخْلُ مِنْ هَرُونَ أَنْمُلَةً (٤) ... وَٱلْجُودُ يَمْلِكُهُ وَٱلْمَالُ يَنْتَزِعُ

إِذَا بَلَغْنَا جَمَالَ (٥) ٱلدِّينِ لَمْ تَرَنَا ... لِلْحَادِثَاتِ بِحَمْدِ ٱللَّهِ نَخْتَشِعُ

أَدَّى إِلَيْكَ مَطَايَانَا وَأَرْحُلَنَا (٦) ... تَقَاذُفُ ٱلسَّيْرِ إِنَّ ٱلْخَيْرَ مُتَّبَعُ

مِنْ كُلِّ سَمْحِ ٱلْخُطَى أَوْ كُلِّ يَعْمَلَةٍ (٧) ... خُرْطُومُهَا بِٱللُّغَامِ ٱلْجَعْدِ مُلْتَفِعُ

---

(١) تَخَرَّقَ : توسع .

(٢) عرفات : موقف الحاج على اثني عشر ميلاً من مكة . وأراد بالمشعرين : المشعر الحرام وهو مزدلفة وجَمْع وهو من مناسك الحج .

(٣) الزَّمع : الدهش .

(٤) كذا ولعلها أَنْمُلَة " لأن جمع أنملة أنامل وأنْمُلات لا أَنْمُل .

(٥) اذا بلغنا جمال الأرض .... ديوان المعاني ١ / ٥٩ .

(٦) في الأصل : وأرجلنا وهو تحريف .

(٧) اليعملة : الناقة النجيبة .

وَكْبٌ مِنَ النَّمْرِ (١) عَاذُوا بِأَبْنِ عَمَّتِهِمْ (٢) | مِنْ هَاشِمٍ حِينَ لَجَّ الأَزْلَمُ الْجَذَعُ (٣)
مَتُّوا إِلَيْكَ بِقُرْبَى مِنْكَ تَعْرِضُهَا (٤) | لَهُمْ بِهَا فِي سَنَامِ الْمَجْدِ مُطَّلَعُ
قَوْمٌ هُمُ وَلَدُوا الْعَبَّاسَ وَالِدَكُمْ | وَأَنْتَ بَرٌّ وَعِنْدَ الْمَرْءِ مُصْطَنَعُ
يُغْشِي (٥) الْعُيُونَ إِذَا هُرُونُ وَاجَهَهَا | نُورٌ تَكَادُ لَهُ الأَبْصَارُ تَلْتَمِعُ (٦)
مُبَاشِرٌ لِأُمُورِ الْمُلْكِ مُبْتَذِلٌ (٧) | فِيهَا قَرِيحَةَ رَأْيٍ مَا بِهِ طَبَعُ (٨)
تَهْدِيهِ فِي ظُلُمَاتِ الرَّأْيِ تجربه (٩) | عَيْنٌ مِنَ الْحَزْمِ مَا فِي مَاقِهَا قَمَعُ (١٠)
إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ | أَحَلَّكَ اللّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ (١١)

---

(١) النَّمِر : قبيلة الشاعر وتسكين الميم للضرورة ·

(٢) يشير بذلك إلى أن أم العباس بن عبد المطلب جد بني العباس كانت نمرية واسمها نُتَيْلَة النمرية (طبقات الشعراء ص ٢٤٤) ·

(٣) الأزلم الجذع : الدهر الشديد الكثير البلايا ·

(٤) كذا ولعلها (تفرضها) أي توجبها وتقدرها أو (تعرفها) ·

(٥) في الأصل : يغشى ·

(٦) تلتمع : تذهب ·

(٧) كذا ولعلها مُبْتَدِهٌ ·

(٨) الطَّبَعُ : الشين والعيب والكسل ·

(٩) كذا ولعلها تَجْرُبُهُ أي تشتد عليه والضمير راجع الى ظلمات الرأي ·

(١٠) القَمَعُ : فساد في موق العين وقلة النظر عمشاً ·

(١١) تتسع ، الأغاني ·

إِذَا رَفَعْتَ امْرَأً فَاللهُ يَرْفَعُهُ(١) وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ الْأَقْوَامِ يَتَّضِعُ(٢)
نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْأَبْطَالُ مُعْلَمَةٌ يَوْمَ الْوَغَى وَالْمَنَايَا(٣) بَيْنَهُمْ قُرَعُ
كَمْ ضَرْبَةٍ لَكَ تَحْكِي فَا(٤) قُرَاسِيَةٍ(٥) مِنَ الْمَصَاعِبِ فِي أَشْدَاقِهَا شَنَعُ
أَوْ طَعْنَةٍ نَفَذَتْ حَتَّى بَدَا وَضَحٌ مِنَ السِّنَانِ وَرَاءَ الْمَتْنِ مُذَّرِعُ(٦)
يَارُبَّ قِرْنٍ تَخَطَّيْتَ الْحُتُوفَ إِلَى حَوْبَائِهِ(٧) وَعَجَاجُ الْمَوْتِ يَرْتَفِعُ
كَمْ شَدَّةٍ لَكَ لَوْ كَانَتْ عَلَى جَبَلٍ لَانْهَدَّ مِنْ دَزْنِهَا(٨) أَوْ كَادَ يَنْقَلِعُ
لَيْلٌ مِنْ النَّقْعِ لَا نَجْمٌ وَلَا قَمَرٌ إِلَّا جَبِينُكَ وَالْمَذْرُوبَةُ الشُّرُعُ(٩)
أَلْقَى بَنُو(١٠) الْأَصْفَرِ الْأَذْقَانَ وَاشْتَمَلُوا ذُلَّ الْخُنُوعِ وَكَانُوا قَطُّ مَا خَنَعُوا

---

(١) رافعه . العمدة .

(٢) مُتَّضِعُ ، الأغاني وتاريخ بغداد والعمدة .

(٣) في الأغاني : « والمنايا صابها فزع » ؟

(٤) أي تشبه فم قراسية .

(٥) في الأصل « قُراشية » وهو تحريف والصواب ما أثبتناه والقراسية : الضخم الشديد من الإبل ، والمصاعب : جمع مُصْعَب وهو الفحل .

(٦) في الأصل : مُدَّرَعُ والصواب ما أثبتناه . يقال : اذَّرَعَ ذراعيه من الجبة : أخرجهما .

(٧) الحوباء : النفس .

(٨) المراد بالوزن : الثقل ، يقال رَزَنَهُ رَزْناً : رفعه لينظر ما ثقله .

(٩) في الأصل : الشُّرُعُ . وهو تحريف . والمذروبة الشرع : الأسنة المشرعة .

(١٠) بنو الأصفر : الروم .

وَالَيْتَ حَوْلاً[١] مُغاراً في بِلادِهِمِ ... وَالْمَنَايَا سَحَابٌ لَيسَ يَنْقَشِعُ
لَمَّا أَنَاخَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِهِمْ ... وَالْخَيْلُ عَابِسَةٌ وَٱلْمَوْتُ مُكْتَنِعُ[٢]
خَاضَتْ إِلَيْهِمْ خَلِيجَ ٱلْبَحْرِ هَيْبَتُهُ ... فَأَذْعَنُوا بِأَداء ٱلْخَرْجِ وَٱنْتَجَعُوا
عَاذُوا بِسَبْعَةِ حِيطَانٍ فَسَوَّرَهَا ... جُنْدٌ مِنَ ٱلرُّعْبِ لَمَّا نَالَهُمْ خَضَعُوا
حُكْمُ ٱلْخَلِيفَةِ هرُونٍ يُذَكِّرُنَا ... أَحكَامَ أَحْمَدَ بَلْ أَخلاَقُهُ جُمَعُ
مَشَابِهٌ مِنْ نَبِيِّ ٱللهِ تَنْزِعُهُ[٣] ... إِلَى ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْأَشْبَاهُ تُنْتَزَعُ
وَمِنْ إِمَامِ ٱلْهُدى ٱلْمَنْصُورِ يَلْحَقُهُ ... قَهْرُ ٱلْأُمُورِ وَحَزْمٌ حِينَ يَقْتَرِعُ
وَتُشْبِهُ ٱلْقَائِمَ ٱلْمَهْدِيَّ مَرْحَمَةٌ ... مِنْهُ وَبَحْرُ نَوَالٍ حِينَ يُنْتَجَعُ
وَمَا أَخَلَّ وَصِيٌّ ٱلْأَوْصِيَاء بِهِ ... مُحَمَّدُ بنُ[٤] عَلِيٍّ نُورُهُ ٱلصَّدِعُ
ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ٱصْطُنِعَتْ ... فَٱلْحَقُّ مَا نَطَقُوا وَٱلْحَقُّ مَا شَرَعُوا
يَابْنَ ٱلْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِ ٱلنَّبِيِّ وَيَابْـــنَ ٱلْأَوْصِيَاءِ أَقَرَّ ٱلنَّاسُ أَمْ[٥] دَفَعُوا

---

(١) في الأصل : جولاً معاراً .
(٢) مكتنع : حاضرٌ دانٍ .
(٣) نَزَعَ الولد أباه وإلى أبيه : أشبهه .
(٤) محمد بن علي : هو والد السفّاح والمنصور .
(٥) في الأصل : «أو» واخترنا رواية طبقات الشعراء .

إنّ ٱلخلافةَ كانتْ إرثَ والدِكُمْ ... مِنْ دُونِ تيمٍ (١) وعفوُ ٱللهِ مُتّسِعُ (٢)

لولا عديٌّ (٣) وتيمٌ لم تكنْ وصلتْ ... إلى أميّةَ تمريها (٤) وترتضعُ

تسعينَ عاماً إلى عشرٍ مُجَرَّمَةٍ (٥) ... مِنَ ٱلسِّنينَ وأنفُ ٱلحقِّ يُجتدعُ

وما لآلِ عليٍّ في إمارتِكُمْ ... حقٌّ وما لهُمُ في إرثكُمْ طمعُ

يا أيّها ٱلنّاسُ لا تعزُبْ عقولُكُمُ ... ولا تُضفكُمْ إلى أكنافِها ٱلبِدَعُ

ٱلعمُّ أولى مِن ٱبنِ ٱلعمِّ فٱستمِعُوا ... قولَ (٦) ٱلنّصيحِ فإنّ ٱلحقَّ يُستمَعُ

قال أبو العباس (٧) : هذه القصيدة من نادر شعره ، وسيد مدحه ، وفيها أشياء نحن ذاكروها إن شاء الله ، ومنبهون على ما فيها ، ومفسرون ذلك أجمع .

أما ما ذكره فيها من البكاء ، فكلام متقدم لا يعرف لمحدث مثله ، من ذلك قوله :

ما تنقضي حسرةٌ [مني ولا جزعُ ... إذا ذكرتُ شباباً ليس يرتجعُ]

---

(١) بنو تيم بن مُرّة : من قريش منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(٢) في الأصل : « بتسع » واخترنا رواية طبقات الشعراء وموضع هذا البيت في الطبقات بعد الذي يليه هنا .

(٣) بنو عدي بن كعب : من قريش منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٤) مرَى الناقة : مسح ضرعها لتدر .

(٥) في الأصل : « محرمة » والصواب ما أثبتناه . ومعنى المجرّمة : التامة .

(٦) في الأصل : « قولَ النصيحة إنّ الحقّ مُستَمَعُ » واخترنا رواية طبقات الشعراء .

(٧) لعله عبد الله بن المعتز فقد كان يكني بأبي العباس .

وقوله :

ما كنت أوفي شبابي [كنه عزته حتى انقضى فإذا الدنيا له تَبَعُ]

وقوله :

إن كنت لم تطعمي [ثكل الشباب ولم تشجي بغصته فالعذرُ لا يقعُ]

معنى هذا البيت : أني وإن اعتذرت من جزعي عليه ، ووصفت الرزية فأسهبت وأطنبت ، فغير بالغ حقيقة وصفه ، وإنما يفهم منه مثل ما فهمت ، من بلي بمثل ما بليت ، فكأنه شيء لا يعرف حقيقته إلا من شاهده ، دون من وصف له .

ومما يستحسن من خروجه قوله :

قد كدتَ تقضي على فوت الشباب [أسىً لولا تعزيك أنَّ العيشَ منقطعُ]

يقول : إن الناس ماضون ، فإما خارجون عن الشباب من السن ثم الموت ، وإما ميتون قبل ذلك .

وقوله : لولا تعزيك أن العيش منقطع [1] .

وخروجه أيضاً :

لا بل بقاء أمير المؤمنين لنا فيه الغنى وحياة الدين والرِّفَعُ

الرِّفَعُ : جمع رفعة .

وقوله : يمين الله [2] : قوة الله وكذلك قيل في تفسير هذه الآية « والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه » .

انتهى من « الجمهرة »

---

(١) كذا ولعل هذا السطر زائد .

(٢) في قوله :

حصنٌ بنته يمين الله يسكنه الـ إسلام صعب المراقي ليس يُطَّلَعُ

أسماء الشهور في العربية[1]

كثيراً ما تساءل الذين يؤرخون بالتأريخ الميلادي ، عن حقيقة أسماء الشهور التي تُستعمل في الأقطار العربية الشرقية ، وأسماء الشهور التي تُستعمل في الأقطار العربية الإفريقية . وكثيراً ما تساءلوا عن أيها أصلح للبقاء .

وهذا الموضوع واسع ربما ملأ كتاباً برأسه . وانني ألخصه بالكلمات التالية ، وأنهيها برأيي في جواب ما سأل السائل عنه .

أسماء الشهور العربية :

كان أجدادنا العرب الأقدمون ، سواء في جنوبيّ جزيرة العرب أو في شماليّها ، قبل الميلاد وبعده ، يستعملون للشهور أسماء شتى منها (ذو مجتنين وذو تمنع وذو برم الخ .) في الجنوب ، ومنها (المُؤتمِر وناجِر وخَوّان وصوان الخ) في الشمال . وقد دثرت هذه الأسماء وأشباهها .

ولم تعش الا أسماء الشهور العربية التي كانت شائعة عند عرب الحجاز خاصةً قُبيل ظهور الإسلام فاستعملها المسلمون في التأريخ الهجري وهي : (المحرم وصفر وربيع الأول وربيع الآخر الخ) وكلها اليوم معروفة وشائعة في جميع البلاد العربية والإسلامية . وهي خارجة عن نطاق بحثنا هذا .

أسماء الشهور السامية الأصول :

من المعلوم أن السنة الهجرية هي سنة قمرية ، وأن الفصول لا تثبت إلا في السنة الشمسية . فعندما شملت الفتوحات الإسلامية الشأم والعراق مست الحاجة ،

---

(١) سألت وزارة التربية والتعليم عن رأي المجمع في موضوع أسماء الشهور السامية الأصول ، وأسماء الشهور اللاتينية النجار التي تستعمل في التأريخ الميلادي ، فوضع الأمير مصطفى الشهابي هذا البحث ووافق المجمع عليه .

في الأعمال الزراعية خاصةً ، الى استعمال أسماء شهور تساير التقويم الشمسي ، فاقتُبست الأسماء التي كان يستعملها السريان والكلدان وغيرهم من الأقوام السامية وهي : كانون الثاني وشباط وآذار ونيسان وأيار وحزيران وتموز وآب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول .

وعندما نُقلت كتب الفلك والزراعة وغيرها من اليونانية ومن السريانية الى العربية استُعملت فيها أسماء الشهور المذكورة ، ثم عَمّ استعمالها الكتب التي ألفها القدماء فصار المرء يراها حتى في كتب الأدب وفي الأبيات الشعرية . وسكان البلاد العربية الآسيوية لا يعرفون اليوم غيرها . وهي ذائعة على ألسنتهم وفي كتبهم .

وهذه الأسماء ليست عربية . وقد سمتها الأمهات من معجماتنا أسماء رومية . والصحيح أنها أسماء سريانية ، وأنها تمت الى أصول سامية قديمة ، وأن كثيراً منها اشتركت فيها الآرامية والسريانية والعبرية وغيرها . والبحث في أصل كل اسم من هذه الأسماء طويل . وكذلك البحث في التقويم وفي بدء السنة لدى الأقوام القديمة المذكورة وغيرها .

أسماء الشهور اللاتينية في البلاد العربية الافريقية :

ليست أسماء الشهور اللاتينية النجار مقتبسة من الفرنسية أو الانكليزية على ما ظنه صاحب الاقتراح ، بل هي قديمة اقتبسها العرب في الأندلس من أعجمية سكانها أي من اللهجة الأندلسية للغة قشتالة القديمة وهي لغة متحدرة من اللاتينية . ثم عمّ استعمال تلك الألفاظ الأقطار العربية الإفريقية لصلات الأقطار المذكورة بالشعوب اللاتينية ، ولبعدها يومذاك عن الشرق العربي الذي ظل مقتصراً على استعمال أسماء الشهور السامية أي كانون الثاني وشباط وآذار الخ .

وقد وردت أسماء الشهور اللاتينية في كتب زراعية أندلسية ومغربية قديمة ، وذكرها المسعودي (٣٤٦ هـ) في (مروج الذهب) ، والبيروني (٤٤٠ هـ) في (الآثار الباقية عن القرون الخالية) فقال نقلاً عن غيره : إن المغاربة يسمون الشهور بالأسماء الآتية : (مايه ، يونيه ، يوليه ، أغست ، ستنبر ، أكتوبر ، نونبر ، دخيبر ، ينير ، فبرير ، مرسه ، ابريز) . وقال : أما الروم فأسماء شهورهم (ينواريوس ، فبراريوس ، مرطيوس ، افريليوس ، مايوس ، يونيوس ، يوليوس ، أغسطس ، سبطمبريوس ، طمبريوس ، نوابريوس ، دمبريوس) . وممن ذكروا أسماء الشهور اللاتينية الأصل القلقشندي (٨٢١ هـ) في (صبح الأعشى) وسماها شهور الروم ، وبدأها بتشرين الأول وهي : (أكتوبر ، نوفمبر (وكذلك نونبر) دجنبر ، ينير ، فبرير ، مارس ، أبريل ، مايه ، يونيه ، يوليه ، أغشت ، ستنبر ، (وكذلك شتنبر) .

ويتضح من ذلك أن العربية اقتبست من القديم في الأندلس والمغرب أسماء الشهور اللاتينية مثلما اقتبستها الفرنسية والإسبانية والبرتغالية والايطالية وغيرها من اللغات . أما الأسماء اللاتينية التي تستعمل اليوم في مصر فهي أحدث تعريبا ، وقد اختلف في نطقها عن الأسماء المغربية القديمة على ما هو واضح . وهاكم الأصول اللاتينية للأسماء المعربة التي تستعمل اليوم في الإقليم المصري :

الاسم المعرب في مصر	الأصل اللاتيني	الملاحظات
ينـاير	Januārius	حرف j (ج) الفرنسي والانكليزي حديث وهو يلفظ ياء باللاتينية .
فبراير	Febrārius	وهو Februārius باللاتينية الكلاسيكية .
مارس	Martius	وهو Marzo بالايطالية والاسبانية و Mars بالفرنسية .

الاسم المعرب في مصر	الأصل اللاتيني	الملاحظات
ابريل	Aprīlis	وهو Aprile بالإيطالية و Abril بالإسبانية .
مايو « وكذلك مايه »	Majus	حرف j يلفظ ياء . وهو بالإسبانية Mayo .
يونيو « وكذلك يونيه »	Junius	حرف j يلفظ ياء . وهو بالبرتغالية Junho .
يوليو « وكذلك يوليه »	Julius	على اسم يوليوس قيصر لأنه ولد في هذا الشهر .
أغسطس	Agustus	باللاتينية الشائعة و Augustus باللاتينية الكلاسيكية .
سبتمبر	September	الشهر السابع لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .
اكتوبر	October	الشهر الثامن Octo أي ثمانية لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .
نوفمبر	November	الشهر التاسع لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .
ديسمبر	December	الشهر العاشر (Decem أي عشرة) لأن السنة الرومانية كانت تبدأ في مارس .

الخلاصة :

يتضح مما مرّ ذكره أن أسماء الشهور المستعملة في الأقطار العربية في التأريخ المسيحي كلها غير عربية ، تستوي في ذلك الأسماء السامية الأصول والأسماء اللاتينية الأصل . ولكنها جميعاً معرّبات قديمة دخلت في العربية وأصبح لها حكم الكلمات العربية الصحيحة .

ومن المعلوم أن الأولى (كانون الثاني ، شباط ، آذار الخ .) هي أقدم تعريباً ، وأعم وروداً ، وألصق بتراثنا العلمي والأدبي القديم من الثانية . فجميع الكتب التي ترجمها أو ألفها علماؤنا وأدباؤنا القدماء في الشرق العربي لا تذكر غير تلك الأسماء الشرقية . وقد ذكرت أيضاً إلى جانب الشهور القبطية (طوبة ، أمشير ، برمهات الخ .) في كتب ألفت في مصر في زمن الفاطميين والأيوبيين ككتاب قوانين الدواوين لابن مماتي وغيره .

ومهما يكن الأمر في الماضي فالعالم العربي في أيامنا هذه فريقان : فريق في جزيرة العرب والشام والعراق لا يعرف ولا يستعمل في التأريخ الميلادي إلا الشهور السامية الأصول ، وفريق في الأقطار العربية الإفريقية لا يستعمل إلا أسماء الشهور التي هي من أصل لاتيني . ومن أشق الأمور حمل أحد هذين الفريقين على إهمال ما ألِفَ استعماله من الأسماء .

ولا أرى من الحكمة ، في الجمهورية العربية المتحدة على الأقل ، أن تجنح الحكومة في أعمالها الرسمية الى ترجيح أحد النوعين من الأسماء على النوع الآخر فتكتفي بواحد وتهمل الثاني . بل أرى أن فكرة توحيد الثقافة في الأقطار العربية كافةً تقتضينا استعمال النوعين من الأسماء المذكورة في المراسلات الرسمية والتدريس الرسمي والإذاعات والكتب والمجلات والجرائد التي للحكومة سلطة عليها . فاذا أرّخت إحدى الوزارات في سورية مثلاً رسالة في نيسان تضع الى جانبها كلمة (أبريل) بين حاصرتين . والعكس بالعكس عندما تصدر إحدى الوزارات في مصر رسالة من رسائلها ، حتى لو كانت تلك الرسالة مختصة بالإقليم الجنوبي دون الشمالي .

وأرى أنه لا يجوز في القوانين خاصةً إلا ذكر الاسمين لكي لا يستغلق التأريخ على أحد من أبناء الإقليمين في الجمهورية . ولعله من المفيد إحالة

الموضوع على المراجع العليا لكي تنظر في أمر إصدار قرار جمهوري يحتم على الوزارات والمؤسسات الحكومية استعمال اسم الشهر الشرقي واسم الشهر الغربي جميعاً في التأريخ الميلادي ، بحيث يذكر في الإقليم الشمالي الاسم الشرقي مضافاً اليه الاسم الغربي بين حاصرتين ، ويذكر في الإقليم الجنوبي الاسم الغربي مضافاً اليه الاسم الشرقي بين حاصرتين وهكذا .

وربما كان من الوسائل الناجعة إصدار تعليمات الى محطات الإذاعة في الجمهورية خاصةً بأن تستعمل التسميتين ، على غرار ما تفعل بعض المحطات الأجنبية للإذاعة . ومن المعلوم أن أسماء الشهور العربية في التأريخ الهجري هي مشتركة يعرفها ويستعملها أبناء جميع الأقطار العربية . وهي خارجة عن نطاق هذا البحث على ما مرّ ذكره .

مصطفى الشهابي

العلاقات الجوهرية (*)

بين اللغتين العربية والآرامية « السريانية »

في النواحي التاريخية والفنية واللغوية والأدبية

- ٢ -

وهنا يجدر بنا الإلماع الى اللهجتين الآراميتين الكبيرتين ، واللهجات المتفرعة عنها ، واليك ذلك :

١ — اللهجة الشرقية :

إن اللهجة الآرامية الشرقية هي اللهجة الفصحى النقية التي انتشرت يوماً ما في بلاد بابل ، وما جاورها من الأمصار ، وفيها نزل جانب من سفر النبي دانيال وغيره من أسفار العهد القديم [١] . وهي عينها التي تعلمها اليهود في السبي أيام نبوخذنصر ق ٠ م ٠ بسبعة قرون ، واستعملوها كذلك بعد رجوعهم من الجلاء [٢] .

إلا أن هذه اللهجة عينها تفرعت الى لهجتين متباينتين : الأولى ، وهي الفصحى ، وكانت لغة الخاصة ، والثانية ، وهي لغة العامة ، وتمازجها ألفاظ واصطلاحات غريبة كثيرة [٣] .

ويسمي الكتاب المقدس هذه اللهجة عامة (آرامية) [٤] . وسماها ربانيو اليهود (سريانية) [٥] . ودعاها العهد الجديد (العبرانية) [٦] .

(*) انظر القسم الأول من هذا المقال في ص ص ٥٦٨ — ٥٨٧ من المجلد السابق (٣٣) من هذه المجلة .

(١) اللمعة الشهية ص ٥١ .

(٢) فيه أيضاً .

(٣) تاريخ شعوب الشرق القديم لمسبيرو ص ٧٧٥ .

(٤) سفر الملوك الثاني ١٨ ، ٢٦ وسفر أشعيا ٣٦ ، ١١ وسفر عزرا ٤ ، ٦ و ٧ ، وسفر دانيال ٢ ، ٤ .

(٥) اللمعة الشهية ص ٥١ .

(٦) اللمعة الشهية ص ٥١ .

وأم اللهجات المتفرعة عن اللهجة الشرقية في بلاد بابل هي اللهجة المانوية [١]، واللهجة الماندية وهي لهجة الصابئة في بلاد بابل . ومازالت موجودة الى الآن بتغيير ضئيل [٢]، ويلحق علماء الساميات بها اللهجة النبطية أيضاً [٣] .

ومن فروع اللهجة الشرقية أيضاً اللهجة اليهودية بقسميها ، القسم اليهودي والقسم الجليلي ، ثم اللهجة السامرية واختص بها سكان مدينة السامرة وما جاورها ، وقد أشبعنا هذا الموضوع درساً في مقال (الثقافة السريانية) الذي نشرناه تباعاً في مجلتنا (المشرق) سنة ١٩٤٦ ص ٧٥٠ — ٧٥٦ .

٢ — اللهجة الغربية :

كانت هذه اللهجة منتشرة في سورية كلها اعتباراً من مدينة الرها الشهيرة ، ومن نهر الفرات شرقاً الى البحر المتوسط غرباً ، وتشمل ربوع لبنان كلها ، وكانت لغة الآداب منذ أول عهد الأدب الآرامي ، وفيها تركت المؤلفات النفيسة ، وقد ظهرت آثار هذه اللهجة قبل العصر المسيحي بقرون عديدة ، ونقلت عن الهيا كل الوثنية والتماثيل والصخور والأسطوانات وغيرها ، ولم نجد لها فروعاً هامة خلافاً للهجة الشرقية .

ويحدثنا العلامة ابن العبري عن تشعب اللغة الآرامية على أثر انتشار أبنائها في الأصقاع ، واختلاطهم بالأمم المجاورة لهم ، وابتعاد اللهجات الآرامية بعضها عن بعض ابتعاداً عظيماً ، يقول : «يجب أن نعلم أن اللغة الآرامية انتشرت في بلاد قاصية أكثر من جميع اللغات ، وهو الذي سبب تشعبها حتى إن الذين كانوا يتكلمونها كانوا لا يتفاهمون إلا بترجمان . وكأنهم يسمعون

(١) شابو ص ٣٢ .
(٢) المشرق السنة الأولى ص ٦٩٥ .
(٣) المشرق السنة الأولى ص ٦٩٧ — ٧٠٠ .

بعضهم من بعض لغة غريبة ، فان سكان سورية يتكلمون لهجة غريبة عن لهجة فلسطين ، وكذلك المشارقة الذين ابتعدوا كثيراً عن الأصل أكثر من هؤلاء واتبعوا اللهجة الكلدانية وانتسبوا اليها » (١) .

واذا اعتبرنا هذه الناحية حسبما يرويها هذا اللغوي الفيلسوف نجد الفروق التي نشأت بين اللهجات الآرامية أكثر تأثيراً من الفروق الناشئة بين اللهجات العربية ، ونقر أن هذه اللهجات ابتعدت بعضها عن بعض بعداً شديداً ، إلا أننا نعتقد أن الفروق نشأت بين اللهجات المحكية فقط دون لغة الكتابة والأدب ، لأن الآثار الآرامية المكتشفة تدل على ان تلك الفروق لم تكن فاصلة بين اللهجات الآرامية المختلفة بالشكل الذي شرحه الفيلسوف اللغوي . ومهما يكن فانا نجد أن جميع اللهجات تلاشت ولم يبق إلا اللهجتان المعروفتان ، وهاتان أيضاً لا تختلفان إلا باللفظ فقط ، وهما تتفقان في كل شيء سواه .

ومن مراكز الثقافة الآرامية التي أفاد منها أكثر ما يكون الفكر العربي مدينة حران الآرامية الوثنية التي ازدهرت في كثير من نواحي المعرفة الإنسانية من علم وأدب ودين ، واتصلت بالفلسفة اليونانية القديمة ، واستخدمها علماؤها في البلاط العباسي في نقل القسم الكبير من الفلسفة اليونانية ، من اللغتين اليونانية والآرامية (السريانية) الى العربية (٢) .

ونصيبنا من بحث اللهجات العربية والآرامية في موضوعنا هذا هو النظر الى التطورات المتماثلة التي طرأت على هاتين اللغتين الشقيقتين من جهة ، والتأثير الذي خلّفته إحداهما في الأخرى ، وعلى الأخص في القسم الشمالي من الجزيرة

(١) المدخل لابن العبري في الكلام عن اختلاف الحركات السريانية – الشرح –

(٢) أخبار العلماء وأخبار الحكماء لابن القفطي ص ٧٧ – ٨٠ و ص ١٣٠ – ١٣٣ ، والفهرست لابن النديم ص ٣٨٠ .

العربية ، وفي أنحاء فلسطين والشام وتدمر ، بتأثير مملكتي تدمر والبطراء ، وهو ما كان سبباً في حيازة اللغة العربية مفردات كثيرة ليس في الشمال فقط بل في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، على ما أنبأنا به علماء الساميات [1] .

ومما تجب الإشارة اليه أن اللغة العربية الشمالية ، القريبة من العمران والمدنية ، استطاعت ابتلاع بقية اللهجات المنتشرة في أواسط الجزيرة وفي جنوبيها ، وانفردت بالسيادة المطلقة آخذة مادتها الغزيرة من جميع اللهجات القديمة البائدة ، ومستفيدة من شقيقتيها القريبتين الآرامية والعبرية ، مما أغناها بالألفاظ الغزيرة ، وجمّلها بالمادة اللغوية التي لا تنضب ، إلا أن الآرامية وإن تلاشت لهجاتها الفرعية ، فان لهجتيها الأساسيتين الشرقية والغربية لم تزالا في قيد الحياة ، وفيهما مادة لغوية وأدبية صالحة ، وهما تسيران جنباً الى جنب منذ العصور الأولى للمسيحية لما أفادتاه من غذاء أمدهما به العلماء الكبار الذين نبغوا في شتى العصور .

والشيء المهم الذي نقرره ، بعد المرور على جميع اللهجات العربية والآرامية ، هو أن هاتين اللغتين خضعتا لظروف واحدة ، وسارتا تحت تأثيرات متشابهة ، وتعاونتا في جميع عصورهما ، على ما نراه في السطور التالية ، ولذلك لا يمكن دراسة نشوء كل منهما بمفردها ما لم يُبحث في نشوء الثانية منذ مطلع وجودها الى عصر النضج والازدهار والانتاج .

وما خلا امتزاج لهجات كل من اللغتين وتكوين لغة عربيـة موحدة ، ونشوء لغة آرامية واحدة أيضاً في المادة مختلفة في اللفظ ، نجد اللغتين الكبيرتين العربية والآرامية تتقاربان في فترات كثيرة من فترات تاريخها ، وذلك بتأثير الاتصالات التجارية وغيرها ، فتؤثر إحداهما في الأخرى وتكوّن فيهـا مادة جديدة ، وقد تكوّن أيضاً أساليب جديدة في اللفظ والتعبير . ولولا انتشارهما

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ٧٩ — ٨٩ .

الواسع وتزاورهما المستمر لما رأينا هذه الوحدة الى الآن بينهما ، ولحرمنا أموراً وفوائد جنيناها من ذلك التزاور وذياك التقارب ، ولا يخفى أن كثرة لهجات كل من اللغتين ، واستمدادها مواد جديدة بفعل الزمن كل ذلك أسعفهما بالقوة والحياة ، ووسع نطاقها ، وسما بهما الى مستوى أرقى اللغات في العالم القديم .

وبعد هذه النظرات العاجلة نتقدم الى تحري موضوعنا بأقسامه الكبرى ، واليك ذلك :

٤ ــ العلاقات التأريخية بين العربية والآرامية

علمنا سابقاً أن هاتين اللغتين أبصرتا الوجود كلتاهما في نحو مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، ولا يمكن تقديم احداهما على الأخرى تاريخياً ، وإن كانت الآرامية تركت آثاراً نفيسة سبقت فيها الآثار العربية بعهد طويل ، وذلك لأسباب اجتماعية تخص الأمتين الساميتين العربية والآرامية ، فان العربية بقيت وقتاً طويلاً منعزلةً في فلواتها الواسعة بعيدة عن أعين التاريخ ، ويظهر أن العرب في تلك الأيام لم يميلوا الى تدوين أخبارهم لأسباب نجهلها ، وربما كان ذلك لعدم انتشار الكتابة عندهم الى حين ظهور مدنيات عربية في أعماق الجزيرة العربية ، حيث تركت لنا آثاراً وإن كانت قليلة إلا أنها تدل على مستوى هام في الحضارة والمدنية ، وأما اللغة الآرامية فقد تبعت أهلها الآراميين ، فاحتكت بالأمم المجاورة ، ونشأت فيها حضارات باذخة في وادي الرافدين وسهول سورية ، وأصبحت لغة دولية بالمعنى الصحيح منذ منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، وهذا هو السبب في ظهور آثارها سابقةً للآثار العربية بزمن طويل .

لما كانت العربية والآرامية تنحدران من أصل سامي واحد كان لا بد لهما من التعاون التاريخي في مختلف عصورهما [١] . وفعلاً تمَّ الاتصال بين القبائل

(١) محاضرة الأستاذ ديبون سومر في الجامعة السورية سنة ١٩٥١ .

العربية الشمالية وبين أمم سورية والعراق الناطقين بالآرامية منذ أقدم العصور التاريخية ، لأسباب كثيرة قد تكون حربية أو تجارية أو اجتماعية ، وبهذه الواسطة تبادلت اللغتان القوة والحيوية من الوجهتين العلمية والأدبية ، وتوثقت بينهما العلاقات اللغوية ، وهو ما أكسب اللغة العربية على الأخص مادة غزيرة لا نستطيع حصرها الآن لتقادم العهد عليها [١] .

ونجد ، عدا ذلك ، قبائل جمة آرامية تتوغل في الجزيرة العربية ، وتمتزج بالعرب أنفسهم حاملةً معها لغتها وحضارتها وساكبة إياها في جدول اللغة العربية ، وقد وجد علماء الساميات في اللهجات العربية المنتشرة عصرئذ مادة لغوية غزيرة جزموا أنها ليست عربية لأنها تدل على معان دينية وعلمية وعمرانيــة لم تكن مألوفة عند العرب ، بل هي خاصة بالأقوام العبرية والآرامية ، وقد أفادت العربية من ذلك قوة جديدة [٢] .

على أن أقدم ذكر لبدء العلاقات بين القبائل العربية القديمة وسكان سورية الآراميين والعبريين ، ورد في النصوص الآشورية ، وتسميهم هذه النصوص باسم « قدري » كما يسميهم العهد القديم باسم قيدر او بني قيدار ، وهم من ذرية اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، وكانوا رعاة يربون قطعان الضأن والإبل ويبيعونها لأهل صور خصوصاً ، ويسكنون الخيام السود المؤلفة من الشقق ، وذكر أشعيا النبي بعض مساكنهم (أش ٤٢ ، ١) وذكر أرميا النبي العبراني قبائل أخرى من بني قيدار فسماها (حاصور) مستمدة من الكلمة العبرية (حصيريم — الحضائر) وهم سكان حضائر حجرية مغطاة بالعوسج والشوك لحماية السكان والقطعان من الوحوش واللصوص .

(١) اسرائيل ولفنسون ص ١٦٢ .

(٢) Die aramäirchen Fremdiwörter in Altarabischen : S. Fraenkal

وتذكر النصوص الآشورية قبائل أخرى وتسميهم (بني قدم) ومعنى ذلك بالعبرية القديمة (بني المشرق) . ويطلق هذا الاسم على البدو الضاربين عصرئذ في الصحراء السورية العراقية . وأطلق عليهم فيما بعد اسم (Sarakimai) وهي مشتقة من كلمة (الشرقيين) العربية ، ومثلها كلمة ܡܕܢܚܝܐ الآراميـة ، وقد رافقوا النبطيين دهراً طويلاً . ويذكر بنو قيدار أيضاً في الرقم الآشورية في أخبار حروب أسرحدون (٦٨١ — ٦٦٩ ق . م) ، وفي أخبار ابنه وخلفه اشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٢٦ ق . م) ويتتابع ذكر القبائل العربية في الرقم الآشورية ، وكثيراً ما سموا بالعرب (أرْبي Aribi) . ويتوارد ذكرهم في العصور التالية [١] .

ومن هذه اللمحة الوجيزة نستنتج حصول علاقات متواصلة بين القبائل العربية ، والأمم الآرامية التي كانت منتشرة في تلك العصور على ضفاف دجلة والفرات وفي سهول سورية وما جاورها من المناطق [٢] ، وهو ما أوجد علاقات متواصلة بين اللغتين العربية والآرامية منذ أقدم عصورهما .

هذا ما رأيناه في شمالي الجزيرة العربية ، أما في الجنوب فمن الراهن ازدهار أربع ممالك متحضرة فيه أقدمها معين ، ثم سبأ وحضرموت ، ثم قتبان . وأقدم اتصال يذكره لهم المؤرخون بسكان وادي الرافدين ـ ومنهم الآراميون ـ كان في الألف الثاني ق . م ، وقد اتصلت لغتهم بلغة أولئك الأقوام وروحيتهم بروحيتهم ، فقد رأيناهم يعبدون آلهة عبدها الآراميون وغيرهم قبلهم ، وأكبرها الإله (سين) أي القمر ، ولا نذكر أن اللغة العربية عرفت (القمر) باسم (سين) ، والمعلوم أن هذه التسمية للقمر قديمة جداً وما زالت موجودة في

(١) مقال الأستاذ M. Rodenson : الكتابات الصفوية ، سومر المجلد الثاني سنة ١٩٤٦ ص ١٣٧ — ١٤٢ .

(٢) Barton, op. cit, P. 204.

اللغة الآرامية الحاضرة . وقد سموه أيضاً (سهر) والمعلوم أن القمر بالآرامية الحاضرة يسمى (سهرو أو سهرا) . وما عدا ذلك فقد وجد المنقبون معبداً للإله (سين) في موضع من حضرموت يدعى (حريضة) ، ووجدوا بعض النقوش الحضرموتية تشير الى أنه معبد الإله (سين) [١] ، وكذلك عبد القتبانيون الإله (عم حمّ) ومعناه شعب وقوم في الآرامية ، وهو أيضاً من آلهتهم .

ومما يؤيد علاقة العرب بالآراميين أكثر من هذا محالفة الأمير العربي (جندب Gindibu) لهدد عزيز ملك دمشق الآرامي على الملك الآشوري شلمناصر الثالث الذي حاربهم سنة ٨٥١ ق . م في موقعة (القرقار) شمالي حماة [٢] . ومما لا شك فيه أن محالفة مثل هذه تخلق وحدة وألفة بين المتحالفين سواء من الوجهة الحربية أو الاجتماعية أو اللغوية الأمر الذي يؤيد اتصال العربية بأختها الآرامية اتصالاً متواصلاً .

واذا وجهنا أنظارنا الى الرقم التأريخية التي ظهرت نتيجة تنقيبات العلماء في خرائب المدن العربية المندرسة وغيرها ، نجد ما يدهشنا من العلاقات الوثقى بين العربية والآرامية ، وهو ما يؤيد تعاون هاتين اللغتين الشقيقتين في جميع عصورهما ، ويبرهن على استمرار الاتصال اللغوي والديني والاجتماعي بين ذينك الشعبين العظيمين .

هذه قبائل ثمود وداراتها في شمال الحجاز ، فهي قد تركت لنا كتابات هامة تفيدنا في بحثنا هذا ، وقد تركتها إما في مواطنها هذه أو في غيرها ، ولوحظ أن خطوطها وتعابيرها كانت مستعملة عند قبائل عربية أخرى ، كبلاد نجد وهضاب طور سيناء ، ولا يعلم هل انتقل هذا الخط من الثموديين

(١) G. Gaton Thompson : The Tompes and Temble of Horeidha « Hadramaut » 1944

(٢) Luckenbill. op. cit. 1. sec 611.

الى تلك المناطق أو القبائل ، أو أن الثموديين أخذوه منهم . ومهما يكن الأمر فالمهم في موضوعنا وجودها لا أماكنه .

وأهم رقيم من الرقم الثمودية ، وتأريخه سنة ١٥٦ م[1] ، نراه مزيجاً من الكلمات العربية والآرامية . واليك ذلك حسبما حله العالم ليتمان ونثبته بالحروف العربية . « دنه قبور صنعه كعبو بر حرثب للقص برث عبد منوتي أمه دو هلكت في الحجر شنة ماه وشتين وترين بيرح تموز ، ولعن مرى عما من يشنا القبور دا ، ومن يفتحه حشى بلده ، ولعن من يغير دا على منه » .

وترجمته في العربية : « هذا القبر صنعه كعب بن حارثة للقيظ بنت عبد مناة أمه التي هلكت في الحجر سنة مئة واثنتين وستين من شهر تموز ، ولعن رب العالمين من غيَّر هذا القبر ، ومن فتحه يس بأولاده (يحس) ولعن من غير الذي كتب أعلاه .... » .

في هذا الرقيم ثمان وثلاثون كلمة ، عشر كلمات منها آرامية صرفة ، والبقية عربية وثمودية ، وذلك يؤيد ما نحن بصدده ، فكلمات « بر وبرث وشنة وشتين وترين وبيرح وشنا وحشى » كلها آرامية ، وما عدا ذلك ففي هذا النص ورد عدد السنين بالأسلوب الآرامي وهو تقديم العدد الكبير على الصغير كقوله « شتين وترين » ، وعن الآرامية أخذت العربية هذا الأسلوب في العدد واستعمله العرب القدماء كثيراً .

ولدى تأمل بسيط في هذا الرقيم نجد العربية والآرامية متحدتين فيه كأنهما لغة واحدة . وقد نجد رقماً أخرى غيره جرت هذا المجرى ، وربما جرى غيرها مجرى اللغة العبرية ، فمزج بين اللغات الثلاث العربية والآرامية والعبرية[2] .

---

(١) أي سنة ٢٦٢ وفقاً لتاريخ بصرى ، وكانت بصرى تؤرخ حوادثها من تاريخ انقراض مملكة النبط سنة ١٠٦ م .

(٢) ١١٥ – ١١٩ Semitic Inscriptions وفي كتابه ص٢٨ Thamudenische Inschriften

ولكن مما لا شك فيه أنه في القرن الرابع الميلادي كانت اللغة الأدبية لم تزل اللغة الآرامية [١] .

هذا ما يلزمنا قوله في صدد الرقم الثمودية . وهو كاف ليدلنا على التلاقي المكين بين اللغتين العربية والآرامية ، ويفسر لنا تأثر العربية بأختها الآرامية .

وهنالك في منطقة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا (تسمى الحرة) وُجدت كتابات عربية كثيرة اتفق علماء الساميات على أن يسموها (الكتابات الصفوية) نسبةً الى الصفا حيث ساح كثيرون من المستشرقين فجمعوا قسماً عظيماً من هذه الكتابات وحلوا أبجديتها ، ولكنها بقيت غامضة الى أن زارها العالم (ليتمان) وجمع منها أكثر من ألف وأربعمائة كتابة ، وعاد الى بلاده ودرسها ، فتوصل الى نتائج هامة عجز عنها غيره ، فحل جميع رموزها وفك معميات أبجديتها التي تتألف من ثمانية وعشرين حرفاً ، كما هي في العربية . ويعتقد الأستاذ ليتمان أن هذه الكتابات ترجع الى القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد ، وعرف أن أصحابها كان لهم اتصال بالمدنيات المعاصرة لأنهم يؤرخون بحوادث مشهورة كحروب النبط ، أو حرب الفرس مع الروم ، أو تاريخ بصرى [٢] .

ان الكتابات الصفوية هذه هي بلا شك كتابات عربية إلا أنها تحوي كلمات آرامية كثيرة ، وتذكر آلهة آرامية واصطلاحات آرامية لا عهد للعربية بها .

ففي أحد النقوش الصفوية مثلاً كلمة (داد) معناها (عم) [٣] وهذه مادة آرامية قديمة وإن كان لها نفس المعنى بالعربية .

---

(١) اللغات السامية ص ١٧٨ .

(٢) Littman (1) Zur Enturiferung der Safa Inschriften
(2) Semitic inscriptions.

(٣) ص ١٣٨ Dussaud : Les Arabes en Syrie avant l'Islam

وكذلك نجد في نقش آخر أسماء آلهة آرامية مثل (بعل شمين ، ودشر ، وشيع القوم) . ومعنى (بعل شمين : الهة السموات) و (أوشر دمر : حارس النبات) ، و (شيع القوم) من آلهة الأنباط وهو لايشرب الخمر (دي لاشتا حمر) ، وقد اختلف المستشرقون في معنى هاتين الكلمتين ، فذهب (ليتمان) الى أن الأولى (آرامية) والثانية (عربية) . وقال غيره إنهما عربيتان ، أما نحن فنقول إنهما كلمتان آراميتان ، الأولى مستمدة من فعل (ܫܘܝܥ سيع) ومعناها عضد كـ (أيد ، نصر) لتساوي السين والشين في الأبجديات الصفوية . والثانية (قوم) هي آرامية أيضاً وبالمعنى العربي المعروف (قوم ، شعب ، جماعة) [1] ومعنى الجملة المركبة (نصير القوم) .

وأنت ترى في هذه النقوش مادة آرامية لا تمت الى العربية بصلة ، وهذا ما يؤيد تلاقي اللغتين الشقيقتين في هذه المنطقة أيضاً شأنها في غيرها . ومصداقاً لما ذهبنا اليه ان الأستاذ ليتمان وجد في تحرياته الكثيرة للهجة الصفوية هذه مادة غزيرة غير مألوفة في العربية ، أخذت من الآرامية والعبرية ، ولاحظ أسماء أعلام كثيرة غير معروفة في العربية ، كما وجد أفعالاً غريبة عن العربية ، وأساليب أعجمية كلها استمدت من الآرامية أو العبرية أحياناً [2] .

واكتشف الأثريان الفرنسيان فردريك ماكلير Frederic Macler ورينه دوسو René Dussaud نقشاً مهماً آخر في منطقة الحرة نفسها ، في وادي السوط الذي يصب في وادي الشام بالنمارة وذلك في الرابع من نيسان سنة ١٩٠١ ، وهذا النقش بالأبجدية النبطية وباللغة العربية تتخلله بعض كلمات آرامية واليك كلماته بنفسها ومقاطعها :

---

(١) قاموس منا السرياني العربي ص ٦٦٤ .

(٢) لتمان Semitic Inscriptions

(١) تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج •
(٢) وملك الاسدين ونزارو وملوكهم وهرب مذ حجو عكدى وجاء •
(٣) بزجاى في حبج نجران مدينت شمر وملك معدو وبين بنيه •
(٤) الشعوب وكاهن فارسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه •
(٥) عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده •

وهذه ترجمتها العربية كما قرأناها نحن بعد تجريات ومقابلات كثيرة باللغة السريانية الحاضرة وهي ولا شك الآرامية بثوبها الجديد :

(١) هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي عقد له التاج •
(٢) وأخضع الأسدين ونزاراً وملوكهم وهزم مذحج و (منعه أو عطله أو صده) وجاء •
(٣) شنت (بزج) وأسقط نجران مدينة شمر وأخضع معداً وسلط بنيه •
(٤) (على) الشعوب فسموا الى العلى فلم يبلغ ملك مبلغه •
(٥) وذريته وهلك سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من شهر كسلول (كانون الأول)• فليسعد الذين خلفهم (فليسعد ولده) •

واليك شرح ذلك وتعليل مخالفتنا في قراءة هذا النص لجميع علماء الساميات الذين استعرضوه وترجموه حسبما تراءى لهم :

ان كلمة (تي) من استعمال قبيلة طيء وهي ضمير الإشارة القريب للمؤنث ، و (نفس) بمعنى (قبر) في اللغة النبطية ، (وامرؤ القيس لا حاجة لنا ببحث من هو لأنه خارج عن نطاق موضوعنا) ، و (بر) كلمة آرامية بمعنى (ابن) و (ذو) بمعنى (الذي) في لهجة طيء ، و (اسر تاج) هي المعنى الدقيق للعبارة الآرامية ܐܣܪ ܬܐܓܐ أي ربط التاج أو عقد له التاج •

وقد خالفنا العلماء بخمس نقاط من هذه القراءة ، واليك تعليل ذلك نقطة فنقطة :

(١) ان الكلمة التي قبل الأخيرة من السطر الثاني في النقش (عكدى) أثبتها الدكتور ولفنسون[١] كما يلي :

«وهزم مذحج بقوته» ، تبعاً لما قرأها الأستاذ ليدزبارسكي[٢] ، وأثبتها الاستاذ م . رودنسون «تماماً» ، وقد أورد الأستاذ المشار إليه رأي جوزيف هالفي بأن لا تقرأ (عكدى) بل (كمدى) مقابلةً لكلمة الترجوم العبراني التي معناها حتى الآن (عد كدون) . إلا أنه نبذ هذا الرأي وقرأها تبعاً للأستاذ ليدزبارسكي (عكرى) ، وذهب الى أن (عكرى) في النص في محل (عكارى) وهي ـ عنده ـ كلمة على وزن (فعال) من الأسماء المستعملة في معنى «الحال» . وهكذا تكون ـ بحسب رأيه الأخير ـ «عكار» تعادل «عكرا» أي أصلاً[٣] .

أما نحن فنخالف الأستاذين ليدزبارسكي وولفنسون بكونها بمعنى «القوة» . وكذلك نخالف «هالفي» بكونها مستمدة من الكلمة الترجومية «كمـدى» (حتى الآن) ونوافق الأستاذ رودنسون بقراءتها «عكرى» . ولكننا نخالفه بكون معناها (أصلاً أو تماماً) ، ولدينا كلمة سريانية هي (ܚܟܪ) بمعنى حجز ، منع ، عطل ، صد ، عاق[٤] الخ . وما عدا ذلك نجد تقارباً شديداً بين (الراء والدال) في النبطية ، فيمكن أن تقرأ هذه الكلمة (عكدى أو عكرى) وهو الأصح .

٢ — هناك كلمة (بزجي أو بزجاي) ، لقد ألحق بها الأستاذ ولفنسون الكلمة الأخيرة من السطر الثاني وأثبتها هكذا : (وجاء الى بزجي أو مزجي)[٥] ،

(١) اللغات السامية ص ١٩٠

(٢) ج ٢ ص ٣٥ Lidzbarski : Ephemeris

(٣) مقالة في سومر ، الكتابات الصفوية ص ١٤٧ العدد الثاني لسنة ١٩٤٦ .

(٤) قاموس منا السرياني العربي ص ٥٤١ .

(٥) اللغات السامية ص ١٩٠ .

بينما قال الأستاذ م . رودنسون إن كلمة (بزجي) ليست قراءتها مؤكدة ، إلا أنه يأخذ برأي دوسو الذي يقرأها (بزجاي) أي (بتوفيق) ، إلا أننا لم نرتح لما أورداه ، ولدينا كلمة سريانية هي (ܫܢܬܐ) ومعناها (فرد . فرق . شنت)[1] فاذا جعلنا مطلع هذا السطر على النحو الذي أثبتناه أي (شنت) ، (نجران الخ) يستقيم المعنى ، أو اذا أردنا أن نقول غير ذلك لدينا كلمتان سريانيتان يمكن تركيب كلمة منهما ويستقيم المعنى أيضاً وهما كلمة (ܒܙ) بمعنى نهب ، سلب (ذل) ، وكلمة (ܓܐܐ) بمعنى (تعجرف ، تكبر) ، فنستطيع أن نقول أيضاً (أذل عجرفة نجران الخ) .

وتصر على رأينا بقراءتها (شنت) لأن الكلمة السريانية مطابقة للمعنى ، ولأن الأستاذ رودنسون يؤكد أن قراءتها السابقة ليست مؤكدة بعد .

٣ — في السطر الثالث نفسه نجد كلمة (حبج) ، وقد أثبتها الأستاذ ولفنسون (في حبج نجران) ، بينما قرأها الأستاذ رودنسون (حبج) بمعنى (حاصر) استناداً على ما ورد في شرح المحيط الذي يفسرها (دنا . اكتنف سار شديداً . حبق) (في محاصرة نجران) . أما نحن فنخالف الدكتور ولفنسون ونوافق الأستاذ رودنسون على كونها (حاصر) ، ونزيد على ذلك كلمة سريانية بمعناها ، وهي (ܣܚܦ) أي (صرع . أسقط . جندل) ، إذ يمكن أن تقرأ هكذا أيضاً لتقارب صورتي (الجيم) و (الطاء) في الأبجدية النبطية .

٤ — في السطر الرابع نجد جملة هي (وكلهي فرسو لروم) أثبتها الأستاذ ولفنسون بقوله : (ووكله الفرس والروم) ، بينما قرأها الأستاذ رودنسون (ونظمهم فوارس للروم) . ونجد اختلافاً بين القراءتين ، فالأولى تجعل (امرأ القيس) (وكله الفرس والروم) فعلى ماذا وكله ؟ لا ندري . وفي

(١) منا ص ٥٩ .

الثانية نجد (امرأ القيس) ينظم بنيه (فوارس للروم) . ولا يستبعد أن تكون علاقة لهذه القبائل العربية بالفرس أو الروم ، أو أن يجعلها أحد الجانبين حليفة له ضد الجانب الثاني ، إلا أن مما قيل عنه في الجملة التالية (فلم يبلغ ملك مبلغه) لا يظنه يجعل بنيه (فوارس) للروم أو لغيرهم ، وقد تخبط علماء الساميات في قراءة هذه الجملة ، وأورد الأستاذ رودنسون آراءهم فقال : إن بيدو ومارتين وهارتيان وكليرمون غانو ، وتبعهم دوسو أحياناً ، ذهبوا الى أن (فرسو) تعني الفرس ، وعلل بيزر ذلك بقوله « لأن الفرس كانوا قد خذلوا القبائل العربية أمام الرومان » ، وترجم كليرمون غانو ذلك بقوله : « وانتدبهم لدى الفرس والرومانيين » ، والرأي الأول يفترض أن امرأ القيس كان تابعاً للرومانيين ، ويفترض الرأي الثاني أن هذا الأمير العربي كان يمثل دوراً مستقلاً على وجه المعادلة بين الفرس والروم ، ولكن « ليدز بارسكي » رفض الرأي القائل بأن (فرسو) تعني الفرس ، بل رأى أن كلمة (فرسو) تعني (الفوارس) جمع فارس ، واعتنق دوسو هذا الرأي أولاً ، وترجم الاثنان هذه الجملة بما ترجمها الأستاذ رودنسون .

(يتبع) (الموصل) غريغوريوس بولس بهنام

مهرجان أحمد شوقي

درج مجمعنا العلمي العربي بدمشق على سنة حميدة في الاحتفاء بعلماء العربية وأدبائها ، وتكريمهم وتأبينهم ، من قدماء ومحدثين ، فأحيا لهم حفلات عدّد فيها محاسنهم وخدماتهم للغة العربية وآدابها ، وذكر أياديهم على الثقافة ، ووفاهم حقهم في التعريف والتكريم والنقد . وقد قام بتأبين الأساتذة الشيخ طاهر الجزائري ، وأحمد كمال المصري ، ومحمود شكري الآلوسي ، ومصطفى لطفي المنفلوطي ، ومحمد حافظ ابرهيم ، وأحمد شوقي ، ومحمد رشيد رضا [1] .

وخصّ من القدماء المتنبي والمعري بحفلات ألفية ، كانت مهرجاناً للشعر والأدب ، تكلم فيها المستشرقون والعرب في فضل الرجلين خلال أسبوع لكل منهما ، فكان الأسبوعان عكاظ الشعر والخطابة . وقد طبع المجمع مهرجان المعري في كتاب جمع فيه ما قيل عن فيلسوف المعرة وشاعر العرب سنة ١٩٤٥ ، يعدّه النقاد مرجعاً نافعاً في هذا الباب ، ويذكره القراء للمجمع بالحمد والثناء ؛ ويرجون أن يعمد إلى طبع ما قيل في المتنبي لمهرجانه ، في كتاب مستقل خدمة للأدب وتخليداً للشاعر الفحل الذي ينطق شعره بكل جنان ، ويتحدث بكل لسان ، ويرفع للشعر العربي مناراً بين الأمم على الأزمان والأوطان .

ودرج المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالقاهرة ، على خطة حميدة كذلك ، فعمل على تكريم الشعراء والأدباء والفنانين الذين

(١) راجع « تاريخ المجمع العلمي العربي » تأليف الأستاذ أحمد الفتيح ، دمشق ١٩٥٦ ، بالصفحات ٨٢ – ١٠٨ .

رفعوا للغتنا وآدابنا وفنوننا علماً بين أعلام العالم . فقام باحياء ذكرى الشاعر محمود سامي البارودي ، ثم باحياء ذكرى محمد حافظ ابرهيم (١) ، ونشر ما كان في المهرجانين من كلمات ودراسات وقصائد في كتابين اثنين .

وقام المجلس هذا العام باحياء ذكرى الشاعر الخالد أحمد شوقي في مهرجان حافل ، لمرور خمس وعشرين سنة على سكوت هذا البلبل الذي غردت قوافيه بفضل العرب والإسلام ، وجلجلت قصائده في ذكرى مصائبهم وأفراحهم ، فكان ديوان العرب في كل قطر . ودعا المجلس إلى إقامة هذا المهرجان في القاهرة من ١٥ — ٢٢ تشرين الأول ١٩٥٨ (اكتوبر) ، وندب له من الأقطار العربية خطباء يتكلمون في عميد الشعر العربي للقرن العشرين (٢) . وكانت القاهرة خلال هذا الأسبوع موضعاً لتلاقي رجالات الأدب من العراق ولبنان واليمن والجزائر والمغرب والسعودية والسودان والجمهورية العربية المتحدة باقليميها السوري والمصري .

وكان موضع المهرجان القاعة الذهبية بقصر محمد علي السابق (في المنيل) ، وهي قاعة جميلة مونقة ، تزينت جدرانها بالذهب ، وطليت أعمدتها بأجمل النقوش الفنية والمصابيح الزاهية ، وكتبت على جدرانها أبيات البوصيري في مدح النبي الأعظم ، وزها سقفها برائع الوشي والحلي ، فكأن شوقي يعيش بروحه من جديد في قصور الملوك من أبناء اسماعيل ، يشهد تكريم الأدباء لنبوغه واحتفاءهم بذكراه .

وكانت ساعات الاحتفال من السادسة مساء حتى الثامنة أو التاسعة ،

(١) طبع ذكرى حافظ ابرهيم ، سنة ١٩٥٧ بالقاهرة ، في ٢٥٤ صفحة متوسطة .
(٢) اعتذر عن المشاركة في هذا المهرجان الدكتور جميل صليبا بسبب انشغاله في رئاسة الجامعة بدمشق آنذاك ، لحرم المستمعين من كلمة رصينة في هذا الباب .

خلال أربعة أيام ، تكلم فيها الأدباء في موضوعات معينة من جوانب الشاعر ، كلّ فيما خصّ به ، من غير أن يكون ترديد أو إعادة على قدر ما يستطيع المتحدث في شوقي التزام جانب دون العدوان على جانب آخر .

وكانت حفلة الافتتاح برعاية الوزير المركزي للتربية والتعليم ورئيس المجلس الأعلى سيادة كمال الدين حسين ، فافتتح المهرجان بكلمة قوية ، تحدث فيها عن أثر شوقي في العرب والعروبة ، ورأى في ديوان الشاعر برهاناً من براهين قوميتنا ، ودليلاً لأمانينا ، ورائداً لكثير من المكافحين في أقطارنا فقد كان نداء الثورة الصحيحة ، وكان على قربه من الحكم ينتهز كل فرصة خيّرة في خدمة أمته ، يعبر عن أمانيها وإحساسها فيرسم الصورة التي ينبغي أن تكون للمثل الأعلى العربي ، ولم يكن في العربية منذ عهد المتنبي والمعري شاعر مثل شوقي يتغنى بشعره كل عربي ، لأنه كان شاعر العرب في كل قطر من أقطار هذا الوطن .

وتكلم بعده الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد ، عضو مجمعنا العلمي ومقرر الشعر في المجلس الأعلى ، فالتفت إلى شوقي ليقول فيه : « كان علماً للمدرسة التي انتقلت بالشعر من دور الجمود والمحاكاة الآلية إلى دور التصرف والابتكار ؛ فاجتمعت له جملة المزايا والخصائص التي تفرقت في شعراء عصره » وبذلك فضله على شعراء زمانه بعد أن ذكر مزاياهم جميعاً . وتحدث الناقد الشاعر عن فضل شوقي في التاريخ والمسرحية والمواعظ والأمثال ، وشهد بأنه « كان علماً لمدرسة الشعر في مطلع النهضة الأدبية » . ولكنه رأى أن شوقي كان رسول « شعر النماذج » ، وآيته « تلك القدرة البارعة في تجويد الصناعة التي لا تفوقها قدرة في عصره ، ونكاد نقول في عصور الأقدمين والمحدثين » .

وانبرى مندوبو الدول العربية ، يفتتحون باسم أقطارهم هذا المهرجان

فيذكرون فضل شوقي وأياديه على أهليهم وربوعهم ، فكانت كلمة لمندوب الجزائر الشيخ محمد بشير الإبراهيمي ، عضو مجمعنا ، الذي أثنى على فضل شوقي وعتب عليه « مدحه لفرنسا وافتنانه بحضارتها المزيفة » . ثم تعاقبت كلمات لبنان واليمن والجامعة العربية ، والعراق والسودان والمغرب والسعودية ، فقصيدة للشاعر محمود عماد ، ثم دراسة للأستاذ أحمد التاجي مندوب الجامعة العربية في « شوقي والعروبة » تحدث فيها عن فترات النضال وموقف شوقي من الاستعمار ومن كفاح العرب في الوطن والمنفى ، وأياديه على الأبطال المكافحين من العرب ، وخدمته للقومية العربية وتحسسه بجراح أمته في نوائبها . ثم جاءت قصيدة شاعر الشام الأستاذ شفيق جبري ، عضو مجمعنا العلمي ، وعنوانها « شاعر العرب » فهزت القلوب وأثارت الإعجاب ، فقد كرمت شوقي وأشارت إلى عبقريته في ديوانه وصنيعه للعرب وموضعه من الشعر العربي (وهي منشورة في هذا العدد) .

وفي اليوم الثاني ، تكلم الأستاذ جمال الآلوسي مندوب العراق ، عن « شوقي في الشعر العراقي » فذكر ما وقع من تكريم وقبول وحفاوة بشعر شوقي وأدبه على ألسنة الأدباء والشعراء في العراق ، وما تحدثت عنه الصحف خلال الأحداث التي مرت بشوقي بعد وفاته ، فنقل في أمانة ودقة وجميل سعي صدى الشاعر في الرافدين وأثره في أدب العرب بهذه الجمهورية الفتية . وتحدث الأستاذ عادل الغضبان عن « نشأة شوقي وأطوار حياته » فرسم شريطاً حيًّا في ألوان زاهية من الأدب ، مراحل الشاعر منذ الفجر ومطلع الشباب ، فالجهاد في سبيل الوطن ، فعودة البلبل إلى مغناه ، فرحلة الأصيل حيث غاب في هوة العدم . وأنشد خلال هذه المراحل شعر الشاعر في حنان وموسيقا وبراعة كما ينشد الشاعر قصائد أبيه الشاعر ، ويفتقد مكانه من سدة الشعر . ودرس الدكتور محمد مندور « مسرحيات شوقي » وعرض للتاريخ والمراجع والمزايا ، وأثار رأي الغرب في المسرحية وموقع شوقي من الفن الدرامي ، وكان في ذلك

مثال الأستاذ المحاضر والدارس المتمكن والناقد الفني . وعرض الأستاذ عبد الرحمن صدقي «حياة الشاعر من شعره» منذ ولادته حتى الوفاة ، فاستخلص ما كان للرجل من قوة وتجديد في أبواب الشعر والمسرحية ، وما كان من أثر الغرب في قصائده وآثاره في تفصيل طويل وشواهد شعرية كثيرة أنشدها عنه الأستاذ عادل الغضبان . وتكلم بعده الدكتور علي جواد الطاهر مندوب العراق عن «اللوحة في الشوقيات» فقال ان شوقي كان يستعين بالمبالغة ، وان وصف الطبيعة عنده ليس على درجة عالية «وان كثيراً من لوحاته التي حاول أن يجمع على سطحها أكثر من منظر واحد أقرب إلى الكليشة والفوتوغراف منها باللوحة» . ورجع إلى النقاد القدامى فرأى أن همهم كان ينحصر في الجزء الصغير من الصورة مما ينطوي عليه البيت الواحد ، وأن هذا ظل قائماً في دراساتنا الحديثة . وشوقي «لا يبدو أنه تأثر بالشعر الغربي وبالرسم الغربي» «وانما هي مبالغات تكاد تكون تعليمية ، يقولها التلميذ في وصف أي واد بل أي منظر من الطبيعة يطلبه المعلم في درس الإنشاء» .

وفي اليوم الثالث ، تكلم الأستاذ علي الجندي عن «الفنون البلاغية في شعر شوقي» فعدد الألفاظ والمفردات والصور التي تدل على هذه الفنون ، وعدد الحلى البديعية ، وأخذ على شوقي بعض أخطائه في هذا الباب . ثم كانت كلمة الأستاذ طاهر الطناحي «ذكريات عن شوقي» روى فيها أخباراً أدبية جمعها عن شوقي ، فقد عرفه منذ ثلاثين عاماً ، وفي هذه الأخبار أحاديث طريفة وآراء جديرة بالذكر والتنويه والجمع ، وخاصة فيما كان بين شوقي ومصطفى كامل . وفي كلمة الدكتور محمد صبري عن «التاريخيات والوطنيات في شعر شوقي» تطرق الباحث إلى دراسة الديوان من ناحية التاريخ والآثار المصرية ، ووازن بين الشعر والعلم ، وعرض الأحداث التاريخية ونظر إلى ما يطابقها في الديوان . وجمع ما قال الغربيون وما وصفوا من هذه الآثار ، ثم رسم ما كان في المسرحية ،

فاستوفى دراسته وأطال البحث في تتبعه ، فجمع بيان الأديب إلى دقة المؤرخ في موضوع ليس باليسير ولا بالهين .

وفي اليوم الرابع ، تكلمتُ عن « الوصف والغزل في شعر شوقي » فعرضتُ لألواح الوصف عنده من أشجار وأنهار وآلات ، وبسطت الغزل على ألوانه في الديوان والمسرحيات (وهي منشورة في غير هذا المكان) . وأنشد الشاعر ابراهيم الوائلي مندوب العراق قصيدة في الوفاء لمصر والربوع التي عاش فيها ودرس في جنباتها وتغنى بالثورة في العراق ومصر ، وأثنى على يد شوقي في خدمة العرب والرافدين . وكانت كلمة الأستاذ كامل الشناوي « ذكريات عن شوقي » صفحات طيبة اقتطفها من فصول الحيـاة لا ترويها صحيفة ولا يوردها كتاب ولا يحويها إلاّ صدر هذا الأديب ، وهي تنير السبيل إلى كثير من دقائق عيشه وظروف نظمه ، وصلات شوقي بمجتمعه ، فهي جديرة بالجمع والحفظ . وتكلم الدكتور شكري فيصل عن « نثر شوقي » فتحدث عن النثر المطلق ، وأبرز صفات السجع وألوانه ، وما يثير في نفسه من نفرة ، ورأى « أن شوقي الشاعر غطى على شوقي الناثر ، كما كسف عصر شوقي المطلق المرسل شمس السجع التي كانت متوهجة » ؛ وعلى هدي هذا راح يتحدث عن مسالك النثر عند شوقي في آثاره ، وعرض لأسواق الذهب ووازن بينها وبين مقامات الزمخشري ، ثم مال إلى بواعث السجع وموضوعاته وعناصره ، فقسم العناصر ووصفها ، ورسم الأسلوب في الآثار الفنية ، فانتهى إلى « أن شوقي أراد من السجع كما قال حلاوة الفواصل وهديل الحمام بأكثر مما أراد إلى القيد والتكلف والالتزام » (مما تجده في غير هذا المكان) .

وختم المهرجان بزيارة بيت شوقي « كرمة ابن هاني » والحج إلى قبره بالقرافة قرب المقطم ، وانتهى بحفلة شاي خطب فيها سيادة يوسف السباعي سكرتير

المجلس الأعلى فاقترح بأن يكرم الأحياء كالعقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وأم كلثوم ليروا بأنفسهم وفاء الأمة لصنيعهم وأقلامهم ، وانفضت الوفود على اقتراحات مكتوبة في العمل للديوان وصاحبه وفاء لأياديه وإكباراً لشاعريته .

وهكذا ، كان الحديث في شوقي منشعباً يمثل أدب القائلين وآراءهم ومذاهبهم ، ونظراتهم إلى الشعر والنقد والدراسة والخطبة ، بحيث تصلح أقوالهم أنفسها موضوعاً لتعليق أو بحث لسنا في صدده الآن ؛ وإنما همنا أن نصور المهرجان كما كان ، وأن نرجو للعربية شاعراً يسد المكان ، ويقوم في غمرة الأحداث التي يمر بها العرب من ثورة وانتفاضة ونهضة بما قام به شوقي في ظل الأسوار والأغلال والكبت والجور ، فيعيد على مسامعنا شعراً كشعره خالداً على الزمان .

الدكتور سامي الدهان

شاعر العرب[1]

ما الذي هيّج الحمى والعربا ... أنسيم من شاعر العرب هبّا
فمشوا في مواكب الفنّ زهوا ... وتهادوا على المواكب عجبا
أخذت فيهم الأغاريد والالحـ ... ـن فراحوا منها نشاوى شربا
سائل العرب يوم كان دويّ الشعـ ... ـر يزجي الى المعالي العربا
كتبوا المجد بالسيوف وبالشعر فكـ ... ـان القريض أخلد كتبا
لغة القلب طالما خاطب القلـ ... ـب فهزّ الشعور جنباً جنبا
تارة يملأ المدارك جدّا ... وتراه يفيض حينا لعبا
يبسط السلم إن أردت سلاما ... ويشبّ الحروب إن شئت حربا
قد تحول الصحراء في روعة الشعـ ... ـر فتغدو منه حدائق غلبا
كرّم الله دولة كرّمته ... فنما في ظلالها واستتبّا

***

ايه شوقي ! لو كان للشعر ربّ ... جعلتك الأذواق للشعـر ربّا
يا غذاء القلوب إن تجدب الأر ... ض فلسنا نظنّ فيك الجدبا

---

(١) قصيدة الأستاذ السيد شفيق جبري عميد كلية الآداب في الجامعة السورية وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق ألقاها في مهرجان أسبوع شوقي في القاهرة في تشرين الأول ١٩٥٨ .

شاعر العرب كان شعرك حينا كنسيم الصبا وحيناً عضبا
كلما طال عهده وتراخى رفّ في مسمع الزمان وشبّا

٭٭٭

كم هززت الرجال في ثورة الشام فثاروا ولم يبالوا الخطبا
نفخت فيهم القلائد روحا جعلت في الشدائد الموت عذبا
فاستطاروا مثل الرياح إلى الموت فكانوا فيه رياحاً نكبا
فنفضنا عن المرابع ضيماً سال فيه النجيع مزناً وسحبا
غصبوا الشام واستباحوا حماه ثم طاحوا وما تملّوا غصبا
كيف ننسى في غوطة الشام يوماً كنت فيه نوراً وكنت اللهبا
جلت بالشعر جولة فحسبنا طيف مروان في النواظر دبا
وكأنا نرى الخلافة تختال وملكاً مع الخلافة صلبا
هكذا الشعر ثورة كلما هاجت شعوب أوحى اليهم غلبا

٭٭٭

ضحك الشعر في بيانك وابيضت حواشيه ما نشاهد كربا
فغدا مسرح الظباء اذا ما ندّ سرب فتنت منها سربا
غزل ينفذ القلوب فتلقي بهواها فيصبح القلب صبّا
فتظلّ العيون تغمز غمزاً وتظلّ الشفاه ترضب رضبا

ويكاد النسيب ينطق سحراً ويكاد الهوى يشقّ الحجبا
وترى قبلة الثغور على الخدّ وتلقى مزاحها والدعبا
يتلاقى العناق والضمّ والشمّ وهدب يلزّ فيها هدبا
لا تلمّ الشباك من كل درب لم تغادر في غمرة الحب دربا
لو يسيل الهوى خلال القوافي سلسبيلاً غمرت منه الهضبا
قد ملأت الشباب حباً وفاضت جارة الوادي في فؤادك حبا
فاذا جئت في الشيوخ هواهم هجت فيهم هوى الشيوخ فأبا
فتنادوا إلى الكؤوس وصاحوا هاتها يا نديم صرفاً وصبا
أنت لا تدري ما تكنّ الليالي ان توالت وما تكون العقبى !

***

أدموع بأرض أندلس جـدت بها ، روّت روضها والتربا
فكأن العيون تلمح شجواً وكأن الآذان تسمع ندبا
أم غناء كالعندليب طوى الأر ض فخلنا بعد المنازل قربا
فكأن السنين لمّا ترامت وثبت نصب أعين القوم وثبا
فرأينا القصور تلمع في الليـل فتهدي فوق البطاح الركبا
وقطعنا الرياض بين رفيف الدوح نجتاز سروه والدلبا
ولمسنا النعيم في جنة الأرض يروّي الشعاب شعباً شعبا

فبكينا ملكاً تقاذفتــه الليالي غرسوا فوقه القنا والقضبــا
ركبوا الموج والعباب وطاروا يقطعون العباب كثباً كثبا
رفعوا الملك والحضارة والفنّ وكانوا الرحى لها والقطبــا
فهوى الملك والدموع ترويه وساءت تلك الأوائل غبّــا
وكذاك الأيام تعصف بالنـــاس ويبقى ما أودعوه الكتبا
صور تقطر البلاغــة حتى تحسب الصدق في البلاغة كـذبا
كلما رثّ أو تقادم عهــد جــدّد الشعر وشيه والعصبا

***

كذب الدمع ما وفي حقك الدمع وان ماج كالخضـم وأربى
قد حبوت التاريخ ما ليس يبلى لؤلؤاً من لآلئ الشعر رطبــا
فشهدنا فرعون قد نفض القبـــر وهزّ الأحقاب حقباً حقبــا
وأتوه بالأكل والشرب حتى وأت العـين أكله والشربا
لبست مصر من بيانك برداً لم ترده الأيام إلا رحبــا
هدرت كالعبــاب تحطم قيداً أنقض الظهر حمله والصلبــا
فتغنيت بالهدير فهــاجت لم يفل الحديد منهـا غربا
وقفت كالأهرام في ثورة الضيم وطالت سماءها والشهبــا
وانثنى الضيم عن حماها ونالت من رقاب العدو طعناً وضربا

ثورة في الديار غنّى بها الشعر وألقى غراسها والحبا
فزكا غرسها وطاب ثراها وسقاها الإيمان هطلاً وسكبا
أكلتك الذئاب إن لم تكن في ثورة العرب والعروبة ذئبا

***

ايه شوقي ! أسامع صيحة العرب وقد دوّى الصوت شرقاً وغربا
ما دعونا إلهامك السمح إلاّ حشد السحر والبيان ولبّى
ليتك اليوم في الجماهير والشعب تغنّي جمهورنا والشعبا
فإذا ما سجا فؤاد ولبّ هجت منا فؤادنا واللبا
إرم عنك الأكفان واطرح ثرى القبر وشاهد ملكاً على النيل رحبا
تلتقي الشام فيه ترباً لمصر كلّ ترب يشدّ في الملك تربا
وغداً ترحف الديار ديار العرب تحت الدرفس روحاً وقلبا
انما العرب وحدة فاذا صال عدو كانوا عليه إلبا

***

درجوا حقبه وأوطانهم أيدي سبا والخيرات في الأرض نهبى
وعليهم سلاسل من حديد تمنع الأسد صولة ومهبا
فكأن التاريخ لم يملأوه روعة أو لم يملأوا الدهر رعبا

لا تعدّ السيوف غير فتوح لهـــم في مناكب الأرض ذنبا
صحبوا اليمّ والبطـاح وهمّـوا أن تكون الجوزاء يوماً صحبا

***

سيّد الشعر ! هل ترى ربعك اليـــوم يشقّ الحـديد إرباً إربا
بعثوا من مدافن العزّ تاريخاً نمـــا عزه غنـاء وخصبـا
فـكأنّا نرى ابن حمدان يثني الـــروم جرًّا عن الحمى أو سحبا
هكذا المجد هبّـة سلك العرب اليهـــا درباً على النـار صعبـا

***

نم هنيئاً يا مرسل الشعر نوراً شبع القلب من سناه وعبّـا
أرأيت البيان والسحر منـه أيّ مجد بنى وجيل ربّى !

شفيق جبري

الوصف والغزل

في شعر شوقي (١)

ولدت دنيانا من سحر خالد ، وفتنة لا تنفد ، فعشقها الناس على العصور ، وتعلقوا بها تقديساً وإكباراً ، وهتفوا باسمها سرًّا وجهاراً . استبدت بعقول الفلاسفة والمفكرين وعبثت بقلوب الشعراء ، فحملوا قيثاراتهم يغنون على أوتارها اناشيدهم كترانيم تتصاعد عبر التاريخ شذى يعطّر الكون ، وموسيقا تسحر الآذان ، فكأنها جوقات من لغات تتآلف بالسحر والإلهام ، وتخلد بالخلود والعبقرية لأنها لغات القلوب ، نبعت من اللهجات واجتمعت على صلوات .

وهذه اللغات العالمية تجمع الشعراء من كلّ حدب وصوب ، في ذرى (أولمب) الشعر حيث تتلاقى أرواحهم وتتحدث ، في جوّ عطر مسحور ، ثم تعود الى الأرض لتحمل من أجوائها أناشيد علوية ، نفهمها حيناً على وجهها وحيناً آخر على وجه مختلف ، فتتباين نظراتنا ومقاييسنا في الإحساس بها وفي تذوقها ، ومن هنا جاء الاختلاف بين النقاد ، فليس للشعر العالمي تعريفات أو موازين يقاس بها الشعر ، كتعريفات الأشياء الجامدة الملموسة أو موازين الآلات الموسيقية .

وقد اجتمع في رحاب الشعر العالمي عرب وعجم ، مشارقة ومغاربة ، قدماء ومحدثون ، لأن الشعر يعلو على الأجناس والعروق ، والأوطان والأزمان ، واشتركت بذلك أمتنا منذ قرون على ألسنة النوابغ الخالدين ، ودوّت أغانينا في تقديس الطبيعة الفاتنة ووصف المرأة الجميلة فخلف أجدادنا ألواحاً خالدة في الطبيعة الميتة والطبيعة الحيّـة ، سمّاها النقاد وصفاً وسموها غزلاً ، ولكنها

(١) الكلمة التي ألقيت في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة .

في واقع الأمر الى باب واحد يفد إلى تقديس الجمال أنى وجد وتصيّده أنى كان .

وهذه الألواح العربية تشير إلى أن العرب فتحوا قلوبهم للطبيعة والمرأة وتملّوا منها جميعاً ، كما فعل شعراء الأمم ، فأرسلوا الدموع في بكاء الديار والأحبة ، وسكبوا نفوسهم على ترائب الحجر وترائب الغيد ، وخفقت قلوبهم لنسائم الغدران ولقاء الحسان ، فكان منهم ديوان ضخم موسيقي جميل ، منسجم في معناه ، متقارب في مبناه ، كأنه خرج من عشيرة واحدة وقبيلة واحدة على تعدد أقطارنا وسعة أمصارنا ووفرة عصورنا .

وهذا الديوان في الوصف والغزل واضح الملامح ، بسيط ليس فيه تعقيد أو التواء أو تفلسف أو تشكّك ، تسيل فيه نفوس المحبين جزعاً للبعد وحرقة للوجد ، وحذراً من الحسّاد ، وخوفاً من الوشاة ، وإعجاباً بالروعة ، ونشوة بالدهشة ، واكباراً للنقش والفن ؛ يصور القرون الأولى في جمال الحب وبساطة الرسم ، على خطوط لا ظلال لها في أكثر الأحيان ، وسطور ناصعة لا غموض وراءها ، لأنه غناء وإنشاد ، والفن يفسده التعقيد والشرح والتفلسف .

ولعل شوقياً فُتن مبكراً بجمال الشعر وجلاله ، فعكف على قيثارته بأوتار ضعيفة أول الأمر ، عكوف العاشق العابد ، يتمنى أن يصبح في الشعراء ، فقدّم قلبه قرباناً ، وسفح روحه على مذبح الشاعرية ، وراح ينشد ويترنم ، فيتعثر ويتعثر ، ثم ينهض ويستوي ، ثم يقف للفحول ، فيقع منه ديوان كبير فيه الرفيع والعادي ، كما في دواوين غيره من الفحول . فمن الخير أن يُنتقى وأن يُنتخل ، وأن نستشهد بالخيّر منه في يوم ذكراه . فقد كسب العرب قانونياً طلّق الأحكام ، وترديد الدساتير والمواد ، ليدخل في ربوع الخيال ، ويعيش بين مرابع الجمال ، ويكون منه في الحب والوصف ما كان .

ولقد وهبه الله لساناً لافظاً ، وروحاً ملهمة ، فعاش بقلب كثير الخفوق ، وعينين حالمتين في رجرجة وفي حركة عجيبة ، وصدر عامر بالشعر يعج بما يحفظ ، ويثور بما يضطرم في نفسه ، حتى سالت في أحناء قلبه معاني القدماء مع المعاني الجديدة ، فأصبح كأنه صورة للجيل من الأدباء الذين عاصروه ، بل صورة للأدب الذي يعيش في أيامنا ، يتجاذبه تياران يتأرجح عليهما بين الشرق والغرب .

ولقد حاول شوقي أن ينطلق بالأدب العربي الى ميادين الشعر الغربي ، ووعد مخلصاً بأن ينقلنا إلى مرابعه ، ولكن الشعر العباسي كان يجذبه إلى أحضانه ويلفه بخياله ، فعاد به إلى تاريخ العرب وأمجادهم وصورهم أكثر الأحيان ، فكان لثقافته في الصبا والشباب على أيدي العباسيين أثر بعيد فيما نظم وفيما أبدع .

لذلك وقف أمام مشاهد الغرب كما وقف أمام مشاهد الشرق ينظر إلى القصور والأشجار والحدائق والأنهار ، والى السماء والماء ، بعينين يدفعهما الحنين أكثر ما يدفع الى الماضي العربي ، فيقفان عنده ، ويستعيدان صوره العزيزة الغالية ، سواء حين نظر شوقي الى تماثيل مصر وقصورها أو تماثيل الغرب في باريس ومدريد واستانبول . حتى قيل : إنه لم يفد كثيراً من مقامه بين الشعراء الغربيين في قلب الحي اللاتيني إلا كما يفيد المتنقل في قطار مسرع من مشاهد الطريق .

ونحن حين نسعى إلى جمع ألواحه في الغزل والوصف واختيارها من متحفه الواسع ، نقع على أناشيده في أمنا الأرض (١) ، وفي بناتها الحسان العبقات قد انتثرت في سماء ديوانه كالنجوم . وصوره الوصفية كثيرة في هذا الديوان ، لأنه كان في أكثر شعره يركب على عبارة مجنحة الخيال وصفية التركيب ضخمة الصورة .

ولهذا سننتخذ بعض المقاطع الخالصة للوصف والغزل شواهد للحديث عن

(١) انظر « لزوم ما لا يلزم » لأبي العلاء المعري ، في صدر الكتاب .

توفيقه في هذين البابين ، نحشدها باقة لذكراه ، بعد أن قضى الجسد ، ومات الحسد ، ودُفن الحقد ، وأصبحت روحه في الخالدين ، ترفرف في مرابع الشعر العربي وقممه ، مع رصيفاتها من عهد الوليد وسليمان بدمشق ، والرشيد والمأمون ببغداد ، وآل حمدان ومرداس في حلب ، وملوك الطوائف في الأندلس .

والغربيون يقولون : يحسن أن ينبغ في القطر شاعر ولو تأخر به الزمان فيحسب من خيراته ويعدّ من حسناته يوم الحساب .

ولعلكم تأذنون في رحلة قصيرة الى متحف شوقي ، نستعرض فيها أجنحة الوصف ، فننظر الى ألواحه في القصور والأحجار قبل كل شيء ، لنرى كيف صنع وكيف رسم . فقد وقف أمام أبي الهول يتغنّى[1] :

أبا الهول ويحك لا يستقلّ مع الدهر شيء ولا يحتقر
تهزّأت دهراً بديك الصباح[2] فنقّر عينيك فيما نقر
أسالَ البياضَ وسلّ السوادَ وأوغل منقارَه في الحُفَر
فعدتَ كأنك ذو المحبسيْنِ قطيعَ القيام سليب البصر
كأنّ الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوبُ البشر
كأنكَ فيها لواءُ القضاء على الأرض أو ديدبانُ القَدَر

فرسم أبا الهول في قلب الصحراء الصامتة على مقربة من أبواب الأهرام ، رابضاً يحرس الكنز المخبوء والأجساد الغالية ، ناشب الظفر في هدوء المتوثب ، والقرون تمر ، والعوادي تجري ، والحروب تنشب حوله ، فتجدع أنفه وتسلب عينيه ، ويغدو قطيع القيام ، قعيداً ، لا يريم يسمع اللّغط الدائر حوله في

(١) الشوقيات ١ / ١٥٥ .
(٢) ديك الصباح يريد به الزمن .

لغات ما عرفها حين كان أصحابه ، واستبيح حماه وكان السيّد المهيب فأصبح منالاً لكلّ زائر .

فاتخذ منه العبرةَ الجميلة والصورة البديعة ، وكان يستطيع ، إلى ذلك ، أن يرسم الأسد وجثومه ، وأن يصف الروعة الهائلة التي يلقاها زائر أبي الهول ، وأن يأسى له ، وأن يرثي لحاله وقد شدّ إلى الصخر أسطورة خالدة على الأيام . فلما عاد اليه بالذكرى وهو في الأندلس صنع لوحةً أخرى لهذا التمثال يقول فيها [1] :

ورهينُ الرمال أفطسُ الآ أنّه صنع جنة غير فطس
تتجلّى حقيقة الناس فيه سبع الخلق في أسارير إنسي
رَكبتْ صُيّدُ المقادير عينيه لنَقْد ومخلبيه لفَرْس

فأكمل في هذه اللوحة ما نقص في الأولى ، ورسم الأنف وذكر المخلبين ، وقربنا من الأسد ، ثم عاد ليقول مع البحتري إنه صنع جنة لهوله وعظمته وبارع صنعه ، كما قال العرب حين أذهلهم البنيان وأدهشهم أن يكون من صنع الإنسان . وليس من سبيل الى لوم شوقي ، فقد أراد أن يقف للقدماء وأن يعارضهم ، وأن يعدّ فيهم ، وليس ذلك بالقليل ولا الهيّن في مثل عصره .

فاذا وقف أمام حمراء الأندلس ، لبس ثوب البحتري حيال إيوان كسرى ، فاتّعظ كذلك بالتاريخ ، وتأسّى للأحداث ، وبكى الماضين ، فرسم الأعمدة المستوية كألفات الوزير في طرس ، وقاعة السباع خالية إلاّ من أشبال تجمعت حول فوارة جميلة ترسل الماء حبيا ، تنشد على الزمان حزينة كئيبة فيقول [2] :

(١) الشوقيات ٢ / ٥٦ .
(٢) الشوقيات ٢ / ٦٠ .

وترى مجلسَ السباع خلاءً مقفر القاع من ظباء وخُنس
مرمرٌ قامتِ الأسودُ عليه كَلَّةَ الظُّفْر لينات المَجَسِّ
تنثر الماء في الحِياض جماناً يتنزّى على ترائب مُلسِ

وهذا جانب واحد من الصورة ، لم يعرض فيها شوقي ما قام من نقوش على الجدران ، وما اختلف الى الأعمدة من جمال اللون وتعاقب النور والظلّ ، وما سال تحتها من ماء ، وما حفّها من خرير وهمس ، فكأنه لم يستوح الأندلسيات وقد رتعت أشباحهن في كلّ زاوية ، وتصاعد غناؤهن بموشحات تسمعه الآذان عبر التاريخ . ولكن الشاعر ـ كما نرى بعد قليل ـ لا يرسم كلّ شيء ، وإنما يركز عدسته على أمر واحد دون سائر الأمور ، فكأنه يرسم الأشياء من وجه واحد مسطّحة ـ كما يقول المهندسون ـ .

واذا دلف الى «أسوان» ووقف أمام «قصر أنس الوجود» ، ترك في لوحته عنه ما أدهشه من جمال وجلال فقال[1] :

أيها المنتحي بأسوان داراً كالثريّا تريد أن تنقضا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع لا تحاول من آية الدهر غضا
قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكاً بعضُها من الذُّعر بعضا
كعذارى أخفين في الماء بضّاً سابحات به وَأبدَيْنَ بضّا
مشرفات على الزّوال وكانت مشرفات على الكواكب نهضا
شاب من حولها الزمان وشابت وشباب الفنون ما زَالَ غضّا
رب نقشٍ كأنما نفض الصّا نعُ منه اليدين بالأمس نَفْضا

(١) الشوقيات ٢ / ٦٨ .

وهي صورة جميلة بارعة تصف الأحجار تتماسك من الذعر خوفاً من الغرق ، وقد أشرفت على الزوال ، فكأنها عذارى أخفين إضاً وأظهرن بضاً . ثم عرض للفن فرأى أنه لا يشيب مع الزمان ولا يهرم مع الدهر ، ومهارة الصانع ما تزال تبهر العين على تقدم الفنون ، وتستبد بالاكبار والدهشة . وهذه اللوحة من أجمل ما يزين متحف شوقي في الوصف ، بل هي آية أوصافه في الحجر والنحت ، تشير إلى حبه العظيم وإخلاصه لهذه التربة التي حضنت أباه ورعت مجده وحفظت بيته ، فهو يحتفي بتاريخها ويقول :

وأنا المحتفي بتاريخ مصر   من يَصُنْ مجدَ قومه صانَ عرضا

فصان التاريخ بهذه الألواح وخلّد الأمجاد بهذه الأوصاف ، واقتعد الى جانب القدماء من وصافينا مكاناً لا يقلّ عنهم ولا يزل عن عروشهم ، في بيان يختلط ببيانهم ، وأساليب تمتزج بأساليبهم فكأنه النسلُ عبر الزمان فاستعار ريشتهم وفنونهم ليرسم ما لم يرسموا .

ولعلكم توازنون بعد هذا بين ألواحه في القصور والأحجار وبين ألواح القدماء لتجدوا مبلغ التوفيق عنده ، مما لا نستطيعه في هذه الدقائق ، لأننا نحب أن نطوف بكم جناحاً آخر من متحف شوقي في وصف الآلات ، فقد رسمها كذلك كما رسم الحجر ، وخصها بشعره فجعل للمراكب البخارية والغواصات والطائرات ألواحاً تنطلق مع أوصاف الشعر الحديث خطى غير قليلة ، ولكنها تجمع في برديها صوراً موروثة للحيوان ، برع في نقلها حين وصف الطائرة فقال [1] :

مركب لو سلف الدهر به   كان إحدى معجزات القدماء
نصفه طير ونصف بشر   يا لها إحدى أعاجيب القضاء

(١) الشوقيات ٢ / ٢ .

مسرجٌ في كلّ حين ملجم   كامل العدّة مرموق الرُّواء
كبساط الريح في القدرة أو   هدهد السيرة في صدق البلاء

فقلّب على الطائرة الصور التي تخطر على البال ، فهي مركب نصفه طير ونصفه بشر ، وهي فرس ملجم ، بل إنها بساط الريح أو الهدهد المعروف أو الحوت في الماء أو الكوكب المذنب أو الطاوس يجر ذيله على الأرض تيهاً وخيلاء . والطائرة معجزة العصر ، فأين معجزة الشعر ، تصفها بأكثر مما وصف ! انّ « بساط الريح » راجت وأعجبت فاستعارها فوزي المعلوف شعاراً لملحمته وهو في المهجر . والغربيون لا يجدون غير الطير شبيهاً للطائرة ، بل يردّون اختراعها الى الطيور الكاسرة حين تحلّق باسطة في السماء جناحين من حديد .

وبرع حين رسم الغواصة [1] ، فشبهها بالحوت تدبّ تحت الموج تَرى ولا تُرى ، وتبث الموت في كلّ مكان ، وهي خئون ملعّنة لأنها تزرع الشرّ والفناء . ونحن حتى الساعة لا نجد من الصور ما نسلمه الى أبنائنا في الاستظهار غير أبيات شوقي ، فهي في موسيقا وبساطة ويسر بحيث تدخل على الآذان بغير استئذان – كما يقول القدماء – ، وهذا كسبٌ للجيل على اختلاف أسنانه ، ننتظر من شعرائنا المجددين يداً يضيفونها إلى أياديه في غنى المتحف الأدبي للعرب .

* * *

واذا ما انتهينا من جناح الحجر والحديد في ألواحه انقلبنا الى جناح الطبيعة في رياضها وأنهارها وأشجارها ، لنرى الى صوره ورسومه عنها ، فقد خلّف شوقي ألواناً بديعة كما خلّف القدماء ، فرسم الماء والسماء وما بينهما ، ولبث يتصيّد الجمال في كلّ درب ، فلننظر الى قوله في نهار جميل [2] :

(١) الشوقيات ٢ / ١٣٣ .
(٢) الشوقيات ٢ / ٢٥ .

وترى الفضاء كحائط من مرمر نضدت عليه بدائع الألواح
الغيم فيه كالنعام بدينة بركت وأخرى حلقت بجناح
والشمس أبهى من عروس برقعت يوم الزفاف بعسجد وضاح
والماء بالوادي يخال مساربا من زئبق أو ملقيات صفاح(١)

رسم فيه الفضاء والسماء والشمس ثم عرض للسواقي فقال :

وجرت سواق كالنوادب بالقرى رعن الشجيّ بأنة ونواح
الشاكياتُ وما عرفن صبابة الباكيات بمدمع سحّاح
من كلّ بادية الضلوع غليلة والماء في أحشائها ملواح(٢)
تبكي اذا ونيتْ وتضحك إن هفت كالعين بين تنشّط ورَزَاحِ(٣)
هي في السلاسل والغلول وجارها أعمى ينوء بنيره الفداح

وهذا شعر جميل يذكرنا بأخيه في العراق والشام ، لا يكاد ينخفض عنه في بيان ورقة وعذوبة وتوفيق ، أكثرنا من روايته عامدين وأفضنا في أبياته لنشهد السامعين معنا أن الشاعر جرى في ميادين الشعر الفحل ، واستطاع على تأخر الزمان ، وسكوت الحناجر المبدعة ، وقلق الشعر أن يلحق بركب الفحول من شعرائنا ، وأن يرفع لمصر راية عالية بين شعراء العرب ، وأن يدفع إلى تكريمه وفاء لشاعريته ، فهذا الجديد يصبح في التراث العظيم إذا تقلب الزمان ، وافتقد الناس الشعر الجميل الجزل .

(١) الصفاح : عرض السيف .
(٢) ملواح : سريع العطش .
(٣) رزاح : رزحت الناقة ألقت نفسها إعياء .

فالمدهش في شوقي - كما قلنا - أنه نجح في قطر غلب عليه الركود ، وفي مصر صمت قروناً في الشعر ، فلم يلهم ولم يبدع ، وانما روّج لنوابغ الشعراء من جيرانه ، فلما غنى شوقي ولصق بالفحول ضحكت في قوافيه أماني الأدباء ، وتهلّلت في أوصافه متانة الشعر ، فأعاد للناس شراباً معتّقاً في الوصف وفي الغزل ، فتوجهت الى مصر أنظار العرب وأصغت اليها أفئدتهم وقدمت اليها وفودهم تبارك القبيلة التي نبغ فيها ، وتهنئ العشيرة التي لمع في ربوعها ، كما كان العرب يهنئون في عكاظ سواء بسواء ٠

وقد رأينا أنه استعرض صور القدماء ، وطمع أن يكون أميراً في الشعراء ، وأن يصبح لعصره كما كان جرير والبحتري وأبو نواس لعصورهم ، فلم يقصره عرقه ، ولم يفسده القانون ، ولم يحبسه زمانه وحساده ونقاده عن امتلاك مكان رحب في جنان الخلود ، فكسب المعركة سواء أوقع في التقليد أم انفرد في الإبداع ، وذلك لأنه شقّ الطريق ، ومهد لشعراء قومه سبيل الابتكار بعده ، فلم نسمع بمن ينسينا ذكره ، حتى لكأن الشواغل صرفت شبابنا عن هذا اللون من متع الشعر ولذائذه المترفة الى شعر الكفاح والنضال ، فكأنهم آمنوا بالالتزام وحده ، فهبوا إلى ينبوعه ينهلون منه لنسمع منهم بعد قليل ، وإنّا لغنائهم لمنتظرون ٠

وسيبقى شوقي وتبقى هذه القصائد وأمثالها منضودة كبدائع الألواح في متحف الشعر العربي ، وفي مكان رحب منه هو « جناح شوقي » اذا صحّ التعبير ، يمرّ به الأدباء معجبين يستعرضون الجمال والجلال ٠ ويقرءون شعره مثلاً في الربيع فيجدون أن الطبيعة هي الطبيعة وأن الغيم هو الغيم ، نرسمه كالنعام حين نستسلم لأحلام الطفولة ، ونشبه الشمس بمسجد وضاح أو كعروس يوم الزفاف ، ونجد السواقي نوادب تشكو خلودها على الزمان ، تدور وتدور فما تعرف الهدوء والقرار ، تغرف الماء وتسكبه ، وما تدري ما تفعل ، لأنها كالعبيد في العصور

الوسطى أو كالأسرى في وحول الفولغا القيصرية ، تغني باكية حظها . بل هي كهذا الحيوان معصب العينين ينوء بنيره الثقيل .

ويقرأون شعره كذلك في وصف القمر ، وقد رسمه متهللاً في الماء قد بدا نصفه ، وأسفر عن قفل ماس في سوار نضار ، ورسم الفلك على الماء يتبعها ذيل من الأنوار تخطر في لجين مائج أو عسجد زخار .

فاذا وقفنا أمام وصفه للنيل ، رأينا الألوان والأصباغ حين يسودّ النهر أو يخضرّ ، فيحوك بردة على الضفتين لا تخلق على الأيام لأنه شريان مصر ، وغذاء أرضها وأهلها ، وهبة الخير والنماء التي لا تعدلها هبة[1] :

ومن السماء نزلتَ أم فجّرتَ من عُليا الجنـان جداولاً تترقرقُ
وبأي عـين أم بأية مزنة أم أي طوفان تفيض وتفهق

فاذا حفظ المصريون يد النيل ، فهم يحفظون يد شوقي ويردّدون شعره ، وينقشونه في قاعاتهم شارة على الوفاء لشاعر النيل ، وينشدون أبياته كما ينشد الغربيون أغانيهم في الدانوب الأزرق وفي الفولغا وغيرهما ، فالنهر ماء الحياة ودفقة العزة وشراب الخصب ونعمة الدهر .

ونحن في الشام نحفظ لشوقي يده علينا حين خصّنا بألواح في هذا المتحف الجميل ، فرسم من اقليمنا ما وصف ، وخلّد من آثارنا ما خلّد ، فسكب الجمال في قوافيه وأراق في أبياته من مسجدنا ومآذننا ما أراق . فلما دخل دمشق عاصمة العروبة ومسرح الوليد ومروان ، هبت دمشق لاستقباله ، وجرى « بردى » يصفق للقائه ، فكأنه رضوان يستقبل اليوم شاعرنا في جنان الخلد ، والشمس فوق لجين الماء كأنها عقيان ، وشجر الحَور في قرية دمر أو في

(١) الشوقيات ٢ / ٧٦ .

« الهامة » كالحُور في الجنان قد كشفت عن ساقها وخفّت ترقصُ لمقدمه ، ولعلّ شوقي قد عرف أن النهر صغير قليل ، ولكنه نشيط جميـل ، يكاد يكون صورة للشعب ، يضجّ بالحركة ويثور بالسعي ، ويتعلق بالحرية والنفع ، يندفع على صغره كما يندفع النيل والفرات ودجلة ، ليغذي العرب بآياته ويعمهم بخصبه ؛ فنحن نتغنى بقوله [1] :

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنته   دمشقُ رَوْحٌ وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هبّت خمائلها   الأرضُ دارٌ لها الفيحاءُ بستان
جرى وصفّق يلقانا بها « بردى »   كما تلقاكَ دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيهــا زمردة   والشمس فوق لجين الماء عِقْيانُ
والحورفي«دمر»أوحول«هامتها»   حُور كواشف عن ساق وولدان

لأننا لم نقرأ لنهر دمشق وصفاً كوصف شوقي منذ حسّان بن ثابت فنعترف لذلك بيده على أبنائنا منذ أرسل فينا هذه الأنغام العلوية .

والألواح في المتحف ما تزال كثيرة ، في الربيع والشرب والشاربين ، تشبه ما في ديواننا من البحتري وابن المعتز وأبي نواس ، بل تزيد عليها فتثير البلابل وتحركِ الورق كأنها جوقة من راهبات في صحن كنيسة يوم عيد الفصح ، وقد انتشر البخور وعلا النشيد الجميل . وأحمد شوقي يستعير صوره من الاديان جميعا ، وفيها الدين المسيحي ، كما فعـل الحمدانيون . ويعدّد النبات وألوانه والزهر وأصنافه كما عدّدها أولئك في روضياتهم ، فيرسم الخمائل مرحة ، والنرجس والأقاح ، والمنثور والورد والزهر ، كأنها في موكب جميل تتهادى في أوضاعها ، هذه خفضت رأسها ، وتلك تعالت شامخة ، وثالثة ضحكت مرحة ،

(١) الشوقيات ٢ / ١٢٣ .

وهذه عبثت في العرس الحافل ، فكأنه يرسم عرس الطبيعة ، ويحرك الزهر على المسرح كما يحرك الفنانون دماهم بخيوط خفية يرقصونها وينطقونها بأجمل الحديث في مسارح باريس وموسكو .

* * *

وهذه الألواح خالية في أكثرها من التوقيت والتأريخ ، لا تدلنا على صبى أو كهولة ، فلن نستطيع أن نصف منها أطواره ، ولن نصور تقلبه وتقدمه في شعره . ولعلها ليست أجمل ما قال ، ولكنها في رأينا من أجمل ما يقال ، بل اننا نراه يحاول أن ينطقها كما فعل دهفنشي في لوحته عن موسى الكليم صلوات الله عليه ، ولكنه عجز في باب الألوان والأصباغ والحركة فنظر اليها كما ينظر الفوتوغراف من وجه واحد - كما قلنا - .

وقد نظر إليها نقادنا المعاصرون على اختلاف غير يسير في الرأي فانتقصها بعضٌ على أنها تقليد ونقل ، وأكبرها بعض على أنها آية الآيات . فقال الرافعي : «ان شوقي صاحب الآيات البديعة في الوصف ، وهذه الناحية هي أقوى نواحيه» . ونقدها العقاد وعرّف التشبيه : «أن تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك» . ورأى غيرهما أن الشاعر أخفق في مجاراة عصره فاستعار آلات القدماء وأوصافهم .

ونحن لا نحمّل شوقي معرة تقصيره في اللحاق بشعراء الغرب في العصر الحديث ، وقد عاش بينهم في باريس وغير باريس ، فلم يرسم أثر المشاهد في نفسه ولم يحاول أن يطبعها في نفوس قرائه ، ولم يجعل كالشاعر لامارتين من الخليج ساعدين يضمان الماء كما يضم العاشق حبيبه في نفور حيناً وفي استسلام أحياناً . وذلك لأن شاعرنا كان يديم النظر الى الشعر العربي القديم أكثر ما يديم ويسعى في اللحاق به وخاصة في الوصف .

فلما أراد أن يصف دقات قلبه من جمال النساء بعدما وصف من جمال الأرض والسماء وقف أول الأمر عند غزل القدماء ، وتعلّق بصور القرنين الثالث والرابع ، ولاذ حيناً بأسباب المدرسة العذرية ، وأخذ أحياناً بالغزل الصناعي ، ولكنه كان في ذلك كله يجاري الفحول من الغزلين القدماء ، فلما أوغل في الفن استطاع أن يولد وأن يبتكر ، فكانت منه تعابير وصور بلغت مبلغاً عظيماً من الصيغة والموسيقا ، فكان شعره في هذا الباب موضع الغناء في عصرنا لحن كله أو كاد ، ودار على الأسماع لرقته وعذوبته .

أما أنه وقف عند غزل القدماء أول الأمر ، فهو واضح في ألفاظه يكرر ذكر البان والعلم والريم والمها والمرض والبعاد والقتل والفتك ، في مطالع قصائده وفي المقطعات الخاصة بالنسيب والتشبيب . فوصف ماء الخد يشفّ عن اللهب ، والشادن في غلائل قشب ، قد قرّ منه النهد واضطرب ، فاذا مشى أخجل القضب ، بين عينيه والمها نسب ، يميس قده ، ويسفر عن البدر وجهه ، ويقتل بجفنه وفيه سقم ، ويدمي عشاقه بالسيف والسحر والطلى ، يرمي الشباك ويصيد العشاق يبسم عن نضيد ، ويرنو بطرف أحور . وكان في هذا مقلّداً من غير شك حتى اذا انطلق الى باريس وغير باريس راح ينشد شعراً جيلاً ينبعث من قرارة نفسه ، فيقول [1] :

نظرةٌ فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيب تعبت في مراسه الأهواء

فصوّر الحب جنيناً منذ ولادته حتى بلغ أشده ، وأثمر الثمر المرجو ، فكان

(١) الشوقيات ٢ / ١٣٩ .

لقاء وما وراء اللقاء . وهو في غزله عفيف حيناً ، وغير عفيف أحياناً ، أمين على الحب وخئون في العشق ، يقسم ويقسم ، ويجعل للحبيب من قلبه معبداً وسفحاً وملعباً ومنهلاً عذباً ومرعىً طيباً .

وكم تغنينا في شبابنا بألحان شعره في قصيدته السائرة التي وصف فيها لقاء الحبيب وما وقع بينه وبينه فقال (١) :

لم أدر ماطيب العناق على الهوى ... حتى ترفق ساعدي فطواك
ودخلت في ليلين فرعك والدجى ... ولثمت كالصبح المنور فاك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت ... عيني في لغة الهوى عيناك
لا أمس من عمر الزمان ولا غد ... جمع الزمان فكان يوم رضاك

وأعجبنا آنذاك بلغة الكلام حين تعطلت ، وذهبت الكلمة فينا مثلاً ، ورددناها في سن كانت ترقص لهذه المعاني والصيغ ، ولعلها تبعث فينا اليوم ما يبعث الناقوس في النسّاك - كما قال شوقي - ولكنها لم تفقد عذوبتها في أفواهنا ، ورقتها في أسماعنا ، لأنها تصوّر الغزل الجميل وقد سكت الكونُ وتكلّمت الأنفاسُ في الصدور ، وتقطعت الحسرات بالقبل ، وبرقت العيون في الظلام ، وازداد حديث القلوب كلما سادت العتمة - كما يقول بول جيرالدي - في باريسياته ، فكيف نصدّق الخبثاء من النقاد حين يرمون شوقي بالبعد عن هذا ، ويرون أنه ما تكلّفه ولا سعى اليه . وكيف يستطيع شاعر لم يذق الجوى والألم أن يقول :

اذا طاف قلبي حولها جنّ شوقه ... كذلك يطفي الغلة المنهل العذب
يحنّ اذا شطّت ويصبو إذا دَنَتْ ... فياويح قلبي كم يحنّ وكم يصبو

---

(١) الشوقيات ٢ / ٢٢٥ .

ولو عرفوا أية حسناء سفح عليها حنينه وشكواه ، وأراق على نحرها دمعه وبكاه ، لآمنوا بما يقول ، ولكنّ شوقي سكت عن ذكرياته في هذا الباب فلم يحدّث عن باريس ومونبليه وغيرهما كما فعل غيره . وانما رأوا أن الرجل كان يتقمص ثياب الأبطال العشاق في مسرحياته ، فيغني باسمهم ألم قلبه وجروح صدره وذكريات أيامه ، ويوفق في التعبير والتصوير حتى ليقع من ألسنتهم موقع الشقيق الرفيق ، فيختلط شعره بشعرهم ، ويصبح مع المجنون في صيغة واحدة :

مُنى النفس ليلى قربي فاكِ من فمي كما لفّ منقاريهما غردان
نذقْ قبلة لا يعرفُ البؤسَ بعدها ولا السقمَ روحانا ولا الجسدان
فكلُّ نعيم في الحياة وغبطة على شفتينا حين تلتقيان
ويخفقُ صدرانا خفوقاً كأنما مع القلب قلبٌ في الجوانح ثان

ولعلّ ليلى المجنون هي ليلى شوقي لقيها في الشرق أو الغرب ، فما نظن أنه خلا من حبّ عنيف فاتك ، لأن أشعاره تصور عاشقاً لقي الحب وخبر الفراق ، وأحسّ بهذا لكل جارحة من جوارحه كما أحسه العباسيون والأمويون قبلهم ، فاستطاع أن يقف اشعرهم لا عن تقليد بل عن إحساس وشعور وفهم وذوق ، وبرع في وصف الغرام في الصبا والشباب فرسم في المسرحية مشهداً رائعاً نظن أنه بلغ فيه الذروة تصويراً وتعبيراً حين قال :

هـذه الربوة كانت ملعباً لشبابينا وكانت مرتعـا
كم بنينا من حَصاها أربعاً وانثنينا فمحونا الأربعـا
وخططنا في نقا الرمل فلم تحفظ الريح ولا الرمل وعى

لم تزل ليلى بعيني طفلة لم تزدْ عن أمس إلا أصبعا
قد يهون العمر إلا ساعة وتضيق الأرض إلا موضعا

وهذه الأبيات تقع من موسيقا الشعر الغزلي وروعته وجماله بحيث تشهد لشوقي ببراعة الغزل فهي تنضح بالحب البريء ، وتصف الهوى في أجمل صفحاته ، حين يرسم العاشق على الرمل ويخط على الماء ويبني على الهواء ، فتحمل الريح أحلامه وقصوره الى كل مهب وفي كل سبيل ، فاذا شبّ ذكر ماكان من الصبا في أسي جميل ولوعة صادقة ، وحرقة يعرفها المحبون ، لأنها صورة الحب في الإنسانية . وهذا هو الشعر الإنساني الذي وفق شوقي إلى رسمه وبلغ الغاية فيه فلم يصح مع « موسه » : أن الأماني لا تبنى على الرمال ولا تعتمد على الرياح .

والنقاد يرون أن شوقي لم يلح على الغزل إلحاحه على الأبواب الأخرى فلم يعالج منه لوصف حياته ومَن حوله ومَن عرفه ، ومَن أحبه ، ولذلك جاء قليلاً بالنسبة الى شعره في الألوان الأخرى ، ويرون أنه سكت لموقعه من السلطان والمجتمع ، ولو قد فعل لكان له في الغزل ديوان كبير ، ولكنه صرف أكثره الى المسرحية فوفق فيه وبرع به ، ورفع فيه لواء مصره وعصره .

على أننا نجد أنه صرّح بهذا الغزل حين تحمَّل الى لبنان ، ووقع في « بكفيا » على صيد جميل ، فجرى وراءه وخادعه وخادعه حتى انتصر عليه ، ومشى الصيد اليه وليس أول جؤذر وقعت عليه حبائله[1] :

قد جاء من سحر العيون فصادني وأتيت من سحر البيان فصدته
لما ظفرتُ به على حرم الهدى لابن البتول وللصلاة وهبته

(١) الشوقيات ٢ / ١٨٨ .

ولكننا لا ندري بعد ذلك كم وهب وكم اصطاد ، وكم من الشباك ألقى وكم لمّ ؟
حتى إذا تعبت يداه ترك الشباك وألقى القيثار ، وعزف عن الغناء في الغزل ، وجلس يرقب الصيد والصيادين ويذكر أيامه الحلوة في بسمة راضية وعيشة هانية ، حتى دلف اليه الملاك بين سحر المناظر وعطر المفاتن ، فاحتمله الى جنان النعيم حيث الحور والولدان المخلدون ، قرير العين بما كسب للشعر العربي ، ناعم النفس بما وهب من صور وألوان ، عظيم الشهرة فيما خلد من وصف كان تاج شعره ، ومن غزل كان موضع الغناء في مطارح أنسنا ونجوى نفوسنا ، حلّق فيهما كما حلق الفحول من قدمائنا فاستحق الإعجاب والتكريم والذكر العطر ، على مرّ الدهر وتقلّب الأجيال .

الدكتور سامي الدهان

نثر شوقي (*)

أكان شوقي الشاعر الذي ملأ شعره مسمع الدنيا ، وخفقت له قلوب الناس، وردّ إلى الشعر العربي رونقه وبهاءه ، وجلا عنه - بعد البارودي وصبري - ظلمةَ عصور الانحطاط ، أكان شوقي هذا الذي فعل الأعاجيب في الحياة الفنية الشعرية ، ناثراً من الناثرين الذي يقف عندهم تاريخ الأدب مشيراً إلى أثرهم في سواهم ، دالاً على مكانتهم فيمن حولهم ، مُبيناً عما كان من تجديدهم في الأسلوب العربي أو تثقيفهم له ، أو دفعه في مساربه الجديدة ؟

أغلب الظن أننا لن نستطيع أن نكتشف شوقي الناثر في شيء من اليسر .. لا لأنه لم تكن له هذه القدرة على النثر الفني المتمكن من الصنعة حتى لتكاد تكون فيه عفواً .. ولا لأن نثره لم تكن فيه هذه القدرة على الإمتاع .. لا لشيء من هذا أو ذاك ، وإنما يتجاوز الأمرُ شوقي نفسه إلى العصر الذي عاش فيه ، وإلى العصر الذي نعيش فيه ، وإلى المواضعات التي نطمئن اليها في العمل الفني ، والأسس التي نرتكز عليها في التقدير والتقويم .. فنحن نحيا في عصر هو أقرب إلى الإطلاق منه إلى التحديد ، والى العفوية منه إلى التصنع ، وإلى الإرسال منه إلى القيد ، وإلى الانسجام مع المعنى بأكثر من الانسجام مع اللفظ .. ونحن اليوم نحبّ النثر رهواً ، رخاءاً ، طلقاً ، كهذه الأشرعة الخفيفة التي تجري مع النيل ، لا تسمع لها صلصلة ولا جلجلة ، ولا تحس لها ضجيجاً ولا عجيجاً ، وانما هي وسوسة ناعمة كأنما هي همس الموج إلى المجداف ، وتحية المجداف إلى الموج ، ثم لا يكون بعد ذلك إلاّ هذا التقدم المنطلق على صفحة الماء .

(*) الكلمة التي ألقيت في مهرجان أحمد شوقي بالقاهرة .

كذلك نحن نحب النثر اليوم ، وانما تولد عندنا هذا الاعجاب بهذا اللون من النثر المطلق ، وتكوّن فينا الميل إليه ، واستقر عندنا الأخذ به بعد ذلك والتزامه والانصياع إليه والرضا به ـ أثراً لسلسلة طويلة متشابكة من العوامل والأسباب ... بعضها يعود إلى تراثنا العربي النثري في القرون الأولى قبل أن تطغى الصناعة ، وبعضها يعود إلى طبيعة العصر وروحه العامة ، وبعضها يعود إلى غلبة الفكرة وتقهقر اللفظة التي لا ترتبط بالفكرة ارتباطاً وثيقاً ، وبعضها يعود إلى عوامل أخرى اصطلحت جميعاً على أن تكون عندنا ذوقاً جديداً ، ومقاييس جديدة ، وأساليب تخضع لهذا الذوق وتمضي مع هذه المقاييس .

وأبرز ما في ذلك أننا أدرنا ظهورنا للسجع .. بل أوشك أن أقول إننا كرهنا هذا السجع في كل ما يكون من صوره وألوانه .. وسواء أكان السجع طرياً ندياً أم كان جافاً قاسياً فنحن لا نؤخذ به ولا نطرب له إلا أن يكون ذلك عارضاً أو كالعارض . وعلى ذلك لا تكاد تتعاقب سجعتان في أسلوب كاتب من كتابنا ، أبرز كتابنا إن شئت ، حتى نتوقف وتثور في نفوسنا النفرة من السجعة قبل أن يثور عندنا الإحساس بجمالها .. إننا حين تمر بنا السجعة في صفحة من الصفحات ينبعث عندنا من الإحساس بانكار السجع كله أكثر مما ينبعث من الاطمئنان اليها .

ولقد مضى السجع في طريقه إلى أن ننكره ونفرق منه في مرحلة الصحافة اليومية أولاً ، ثم في مرحلة الأدب الانشائي كله بعد ذلك في أي لبوس بدا هذا الأدب الإنشائي .. ولم يبق للسجع إلا مجال الخطابة يحتمي بها ويحفظ على نفسه بعض مكانته عند الخطباء الموفقين .. فلما اضمحلت الخطابة من نحو ، واتخذت سبيلها إلى التبسيط الذي يقرّبها من العامية ، وغلبت فيها حرارة المشكلة السياسية أو الاجتماعية على اللبوس الفني ، كما نلاحظ في الأعوام الأخيرة ،

خسر السجع آخر معاقله التي التجأ إليها واحتمى بها ، فلم يبق هنالك من ينشئ فيه أثراً فنياً جديداً .

وحين نقول السجع لا نعني السجع وحده ، وانما نعني كلّ هذه الطاقة من المحسنات البديعية التي تواكب السجع في كثير من الأحيان : الطباق والمقابلة ومراعاة النظير والجناس والتورية وهذا الحشد من ألوان البديع في معناه الذي نعرفه به في كتب البلاغة المجمَّدة .. فقد ارتبطت هذه كلها بالسجع فكان لا يكون ـ غالباً ـ إلاّ معها .. فعافتها أذواقنا أو عافت أكثرها بصورها القديمة مع ما عافت من أمر السجع سواء بسواء .

وفي هذا الانصراف عن المقيد إلى المطلق ، وعن المسجوع إلى المرسل ، تمثّل أكبر منعطف في طريق النثر الفني في حياتنا العربية المعاصرة .. ومن المؤكد أن هذا الانعطاف كان من القوة ومن التأثير في نثرنا الحديث وفي تذوقنا الحديث بحيث نملك أن نفترض مطمئنين أن أقوى نص ٍ أدبي مُعجب من إنشاء أدبائنا المتميزين لو قدر له أن يُصاغ سجعاً لانصرف الناس عنه ولفتشوا عن غيره ، ولقالوا في أنفسهم مُسِرّين وفي ألسنتهم جاهرين : إنه السجع .. كأنما يركزون في هذه الجملة كل أثقال عصور الانحطاط يلبسونها هذا النص ، ويحمّلونه كل ركاكات اللفظ ونقر المعنى الذي نعرفه في إنتاجنا الأدبي خلال أكثر فترات الضعف والتردّي .

ومن هذا ، فيما أحسب ، كان أعظم الغبن الذي لحق نثر شوقي .. واذا كانت مواضعات العصر ومقاييسه هي التي ألقت على نثر شوقي ، أعني على النثر المسجوع ، هذه الظلال الكثيفة التي تحول بيننا وبين أن نتذوقه ، وبيننا وبين أن نستجيب له ، وبيننا وبين أن نتفاعل معه ـ اذا كان هنالك هذا السبب الخارجي الذي لا سلطان لشوقي عليه .. فثمة سبب آخر كان شوقي نفسه هو مردّه وهو مصدره .. هو فيه المبدأ وهو فيه النهاية ، وأعني به شعر شوقي ..

فقد طغى هذا الشعر حتى ما يكاد يذكر معه نثر ، وعُني الناس بالقصائد ولكنهم ما ردّدوا المقالات ، ونهلوا من الشوقيات ولكن «أسواق الذهب» كان - في شيء من التجاوز - كالأخ المنفيّ بين أجزاء ديوان شوقي ، عليه شكل إخوته وله مثل طابعهم الخارجي ، ولكنه لا ينزل من قلوب الناس وأفئدتهم ولا يكون له في تقديرهم مثل منزلة أخيه ولا قريب منها .

ومن المؤكد أنه لو لم يكن هنالك الديوانُ ، والشاعرُ الانسانُ الذي غنّى روائع النشيد وبارع النغم .. وكان هنالك شوقي الذي تحدث عن الحياة والأمس واليوم والغد ، وعن الأمومة والقلب ، وعن الشهادة والصلاة والزكاة والحج ، وعن القناة والجندي المجهول ، وعن الشمس والظبي - لو كان هنالك شوقي هذا فحسب لكان له في حساب الحياة الأدبية شيء آخر ...

ولكن شوقي الشاعر غطّى على شوقي الناثر ، كما كسف عصرُ شوقي المطلق المرسل شمس السجع التي كانت متوهجة .

وكذلك نرى أننا نستطيع أن نقول في الشعر : هذا عصر شوقي .. في كثير من الاطمئنان .. ولكننا لا نملك بحال أن نقول في النثر : هذا عصر شوقي ... فللنثر أمراؤه الآخرون : طه حسين والعقاد والمازني والرافعي والزيات ومن في طبقتهم في اقليمهم والأقاليم الأخرى ..

* * *

على هدي من هذه الحقائق الأولى نستطيع أن نتحدث عن نثر شوقي ، وأن نتساءل ماذا كان من أمر هذا النثر وما سبيله فيه ؟ ما هي مسالكه التي اتخذها وألوانه التي تسربل بها ؟ ... أهناك وراء هذا النثر مذهب معين يتجه إليه شوقي ويبشر به أم كان الأمر لا يخضع لغاية ولا يمضي في مذهب ؟ ... أهنالك مراحل مرّ بها هذا النثر ؟ وماذا كانت دوافع شوقي إليه وعناصره في تكوينه وأسلوبه في بنائه وموضوعاته التي صبّها فيه ؟ .

وليس في وسعنا أن نعرض كل آثار شوقي النثرية ، فبعض هذه الآثار يعود إلى مطالع حياته ، وتلك خُطىً قد يُعنى بهـا مؤرخو حياة الأديب وراصدو مسالكه . . ولكننا نريد اليوم أن نكتفي بالإشارة إليها دون الوقوف عندها . . ونعني بها هذه الآثار التي كتبها أو ترجمها في صدر حياته : لادياس ـ عذراء الهند ـ دلّ وتيمان ـ وبعض هـذه الآثار هي التي تتوج اتجاهه النثري وتعبر عنه في أكمل صوره وتلك هي التي سنتوقف عندها ونعني بها « أميرة الأندلس » وأسواق الذهب . . . غير أن أميرة الأندلس عمل مسرحي خاص فيه شوقي من نثره المسجوع إلى النثر المطلق فليس لها إلاّ هذه الدلالة الضخمة على تطور نثر شوقي ولذلك لن نقف عندها إلاّ من هذا النحو .

وقد كان لا بدّ لهذا البحث ، كي يأخذ أبعد آفاقه ، ويسير في أصدق اتجاهاته ، أن يظفر بشيء من رسائل شوقي الخاصة فيما كتب إلى خُلّص أصدقائه في الشؤون العامة أو في شؤونه الخاصة ، ولكننا لا نزال في دراسة الأدب من هذه الغاية على بعد . . لأننا لم نتعود أن نجمع كل آثار أدبائنا ، ولم نتمكن بعدُ من النظر اليهم ـ من خلال آثارهم الخاصة ـ في غير الصورة التي أرادوا أن يظهروا بها للناس في آثارهم العامة التي نشروها .

* * *

ما الذي نجده في أسواق الذهب ، أبرز آثار شوقي النثرية ؟

حين قدم شوقي لكتابه هذا أشار إلى كتابين آخرين : أحدهما أطواق الذهب للزمخشري والآخر أطباق الذهب للأصفهاني فقال : « فهذه فصولٌ من النثر ما زعمت أنها غرر زياد ، أو فِقَر الفصيح من إياد . . . ولا توهمت حين أنشأتها أني صنعت أطواق الذهب للزمخشري ، أو طبعت أطباق الذهب

للأصفهاني ، وإن سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميها ، ووسمته بما يقرب في الحسن من وسميها . . »

هذه الجملة التي جاءت في مقدمة أسواق الذهب دفعت بعض الذين كتبوا عن شوقي إلى القول بأنه جرى في كتابه على نمط أطواق الذهب وأطباق الذهب . . أو أن عمله في الأسواق يتطابق مع المقامات وانه يذهب فيه مذهب الزمخشري من حيث الوعظ والارشاد [1] .

فهل ذهب شوقي مذهب الزمخشري والأصفهاني ، وهل جرى على نمط الأطباق والأطواق ؟ أكان عمله يتطابق مع المقامات ؟

قد نستطيع أن نجاري الذين قالوا بهذا اذا نحن تناولنا الأمور تناولاً عاماً ، ووقفنا لا نتجاوز الشكل إلى ما وراءه . . إن الأطباق والأطواق قائمة في مظهرها الخارجي على السجع ، وكذلك أسواق شوقي . . غير أن هذا وحده لا يتيح لنا أن نغرق في المقارنة حتى نصل إلى حدّ المطابقة بين هذه الأعمال الثلاثة .

وصحيح أن شوقي أشار إلى الأصفهاني والزمخشري ، ولكننا يجب أن لا ننسى أنه أشار كذلك إلى زياد بن أبيه وقسّ بن ساعدة الإيادي ، وأنه مرد هذه الأسماء كلها لا على أساس فني ، بمعنى أنه لم يقصد إلى أن يقيم هذه المقارنة أو المطابقة بين صنيعه وبين صنيع هؤلاء الذين تحدث عنهم ، وإنما قصد إلى شيء من الزينة الفنية فحسب حين سمّى غرر زياد وفقر الفصيح من إياد . . إنه في الواقع كان في نطاق تعدادٍ هو إلى ذكر طائفة من

(١) انظر ما كتبه العلامة المرحوم الأستاذ محمد كردعلي في كتاب ذكرى الشاعرين « الأستاذ أحمد عبيد — ج ٢ ص ٤٣٦ » ، واشارة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في كتابه الرائع عن شوقي ص ٢٩٢ « الطبعة الثانية » .

الأسماء اللامعة في النثر العربي ، بعضها إسلامي وبعضها من القرون المتأخرة ـ أقرب منه إلى أي شيء آخر .

وإذن فليس هنالك هذا النمط المشترك ـ إن شئنا الدقة ـ بين الأسواق وبين الأطواق والأطباق .. وليس هنالك هذه الرغبة في تقليد أثر بعينه .. إن لكلّ من هذين بناءه وأساسه ووجهه التي يخالف بهـا عن وجهة الآخر وبنائه وأساسه .

ولذلك ، أعني لهذه المقارنة بين شوقي وبين الزمخشري والأصفهاني فضل حديث ندّخره لكتاب عن نثر شوقي فلنتجاوزه إلى ما وراءه متسائلين ـ في سبيل التعرف الأصيل على أسلوب شوقي ـ عن الدوافع التي دفعت بالشاعر أن يقول هذا النثر المسجوع .

بواعث السجع

في ذهن كلّ الذين يقرأون نثر شوقي تحوك هذه الأسئلة المختلفة : لِمَ لجأ شوقي الى هذا النثر وقد عُرف تميّزه بالشعر وتقدمه فيه سائر طبقات المحدثين ؟ ما الذي كان وراء هذا الطريق الذي شقه من بواعث ؟ ألم يكن له في المجال الشعري ما يسدّ كل ظمأه الفنيّ ؟ .. أكان يحسّ أن ثمة دفقة من نفسه في حاجة إلى أن تبدو للناس في غير القالب الشعري الذي ارتضاه سبيلاً ومضى فيه وصقله أروع صقل في تاريخنا الأدبي الحديث ؟ .. ألم يكن يجزيء شوقياً أن يقال عنه إنه أمير الشعراء ، وأن يقال بحق عن عصره في التاريخ الأدبي إنه عصر شوقي ؟ أكان هنالك دوافع خاصة تدفعه إلى هذه المزاوجة بين الشعر وبين النثر ؟ .

وقفتُ طويلاً عند هذه الأسئلة التي كانت تجلجل في صدري وأنا أعالج

نثر شوقي ، ولكني لم أجد الجواب الذي أطمئن اليه وأرتضيه . . وأحسب أنه ما لم يُتَحْ للذين عاصروا شوقياً وخالطوه أن يتحدثوا عن كلّ ما عرفوا من سيرته أو خبروا من سريرته أو شهدوا من تشابك العلائق في حياته أن يقولوا هذا الذي عرفوا أو خبروا أو شهدوا ، وأن يكشفوا عن كل وجوه هذه السيرة والسريرة والعلائق ـ فان حديث المحدثين اليوم وغداً لن ينكشف عن شيء وإنما سيظل يدور حبيس الحدس والتظنّي .

ومردّ ذلك إلى ما نعرف جميعاً من أمر شوقي . . كان شوقي للناس كما يكون البحر إذ تراه هادئ الصفحة على حين يضطرم داخله بالموج ، ويثور بالحركة ، ويغلي بالانفعال . . والموجة التي تضطرب في داخله لم يكن شوقي ليكبتها وانما كان يتيح لها أن تتحرك هنا وهناك ذات اليمين وذات الشمال . . ولكن ما أقل ما أتاح لها أن تنطلق فتملأ سطح هذا البحر الذي يراه الناس فيأخذهم انبساطه الهادئ وانطلاقه البعيد ووسوسته الناعمة ـ ضجيجاً وصخباً وحركة . . . ويبدو كأنه في حكم المؤكد أن شوقي كان لا يخرج على الناس إلاّ بالجانب الحليم العاقل من ذاته العاقلة وذاته الثائرة . . إن نفس شوقي جوهر واحد للذين يلمسونها من هذا السطح الظاهري فقد استطاع أن يخفي جواهره الأخرى .

وكما كان في سلوكه الاجتماعي كان كذلك في سلوكه الفنيّ . . فالذين عاصروا شوقياً مجمعون على أن سلوكه الاجتماعي كان غاية في اللين والدماثة ، والرقة والسلاسة . . وما نحسب أن انساناً ، بله أن يكون شاعراً ، شهد كل أحداث الوطن العربي والاسلامي ، ومدّ يده إلى ما وراء الأفق الإنساني فاقتطف هذا الشعر الخالد ، ما نحسب أن انساناً هذا شأنه كان حلماً خالصاً ورقة خالصة . . فمؤكد أنه كان كذلك ثورة داخلية عارمة بمعانيها ، وبتكيف بها ، وتنال من عقله ، وتأخذ نفسه انفعالاً مبهجاً أو محزناً . . . غير أن شوقي

الذي استطاع أن يخلّص سلوكه الاجتماعي من الغضب والطيش والجاهلية وفلتات القول ، وأن يصفّي حقد الناس بحلمه ، وطولَ لسانهم بتهذيب لسانه ، وتطاولهم إلى أن ينالوا منه بمحاولته أن يبلغ الهم نَيْلُهُ ، هو شوقي الذي استطاع كذلكْ في سلوكه الفني أن يحيل كل انفعالاته الداخلية صنيعاً فنّياً معجباً تغطيه الحكمة على حين كانت حروف هذه الحكمة تشتعل أطرافها بالقلق كما تشتعل أطراف الشموع بالنور .

ومن هنا تعذّر التعرّف إلى سرّ هذا المنعطف النثري في طريق شوقي الشاعر .. وليس لنا بعد هذا إلاّ سلسلة من الافتراضات .

فنحن نستطيع أن نرى في صنيعه هذا امتداداً لما استقر ، تقريباً ، في تراثنا الأدبي القديم من الجمع بين الشعر والنثر عند كثيرين .. حتى الذين عرفناهم شعراء كان لهم نثر لم يصلنا منه شيء ، وأبو الفرج في الأغاني يحدثنا أن بشاراً كان صاحب منثور ومزدوج ورسائل ... ويبدو أن جمهرةً من أدبائنا على مدى تاريخنا الأدبي الطويل حرصوا على أن يجمعوا بين هذين القالَبيْن .. وكأنما استقر عند شوقي أن من تمام التميز في الأدب العربي أن يماشي موكبَ الشعر عنده موكبٌ من النثر ، وأن تحفه من حوله ، من يمينه وشماله آلهة الشعر وربات النثر .. وذاك كله - فيما أحسب - استمرار للتقاليد الأدبية العربية .. وما من شاعر كشوقي استطاع أن يمدّ خيوط هذه التقاليد من نحو ، وأن يوجهها وجهة جديدة من نحو آخر ، وأن يقيم هذا التوازن بين القديم والجديد من نحو ثالث .. بل لعلّ حياته ، سيرةً وانتاجاً ، ليست إلاّ هذا الجمع المتوازن .

وقد لا يكون هذا التقليد الأدبي هو الذي دفع شوقي في هذا السبيل .. قد يكون في واقع حياته ، حياته الداخلية التي لا نعرف عنها إلاّ القليل ، هذا الدافع .. أتراهم عيّروا شوقي ذات يوم بنقص زاده اللغوي فأراد هذه

المقالات تمثيلاً لغناه في هذا النحو ؟ .. أتراهم عيّروه بالقصور في النثر فردّ عليهم مقالتهم ؟ .. أكان هنالك من حبّب إلى شوقي السجع فمضى فيه ؟ .. من يدري ؟ ولعلّه على كل حال شهد تطور النثر نحو الانطلاق ، ولحظ أن هذا التطور مقرون بالكره للسجع والانحراف عنه والعيب عليه فأراد أن يعيد لهذا اللون الأدبي ألقه ، وأن يردّ عليه حرمته ، وأن يجعل منه هذه القصائد المنثورة ، وأن يخرج به عن نطاقه التقليدي وعن موضوعاته التقليدية في المقامات أو ما في حكمها . فوسّع ساحته ، ونوّع موضوعاته ، وأراد أن يتسع لكل هواتف النفس ، وأصوات المجتمع ، ومشاكل العصر .

ويبدو أن هذا هو الذي كان .. فقد كتب شوقي نفسه في « أسواق الذهب » يكشف عن صنيعه ، ويبرره ، ويعرض لهذا السجع الذي صبّ فيه بعض انتاجه الأدبي ، ويبين عن مكانته وقيمته ، ويقول عنه إنه يقف على الطرف الآخر من الشعر ليلتقي به لقاء لونين فنيين متماثلين « السجع شعر العربية الثاني » .

وفي هذه القطعة التي كتبها شوقي نلمح قصة السجع في العصر الحاضر كلها . كيف كان ، وكيف دال ، وما الذي رُمي به .. ولكنها قصة موجزة مركزة وقف شوقي عند خطوطها الكبرى .. أبان عن مكانة السجع ، ثم تحدث عن دوره في الأدب ، ثم بدأ يصور إنكار الناس في عصره له ويقول ان مردّ ذلك إلى الخلط بين السجع المشرق والسجع المظلم ، بين ما سمّاه الجميل المتفرد وما سماه القبيح المرذول .. وهو على كل حال يريد أن يكون السجع منطوياً على فكرة ، متصلاً برأي ، بعيداً عن الحشو والثرثرة :

« السجع شعر العربية الثاني ، وقواف مرنة ريّضة خصت بها الفصحى ، يستريح اليها الشاعر المطبوع ، ويرسل فيها الكاتب المتفنن خياله .... وقد ظلم العربية رجال قبّحوا السجع وعدّوه عيباً فيها ، وخلطوا الجميل المتفرد بالقبيح المرذول منه بوضع عنواناً لكتاب ، أو دلالة على باب ، أو حشواً في رسائل السياسة ، أو ثرثرة في المقالات العلمية ..... »

ونلمح في تبرير شوقي للسجع شيئين اثنين أساسيّين ربما كان فيهما بعض التعبير عن الدوافع التي حدت به إلى اصطناعه والأخذ به ، وهما الحفاظ الديني والحفاظ اللغوي ... إنه يرى ان القرآن الكريم لجأ الى هذه الفواصل (١) وما كان أحلاها ، وفي الحديث الشريف من هذا اللون مثل ما في سجع الحمام من حلاوة ، وفي كلام السلف الصالح منه المأثور الخالد ، فما ينفع الناشئة أن تتخلّى عنه أو تتنكر له : « فيانشء العربية ، ان لغتكم لسرية مثرية ، ولن يضيرها عائب ينكر حلاوة الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحمام في الحديث الشريف ، ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح » .

الموضوعات

لم تكن الموعظة والزهد الغرض الأساسي عند شوقي ، ولم تكن الحكمة والمثل كذلك من هدفه الأول وان أشار اليهما وأشاد بهما في مقدمة الأسواق « الحمد لله الذي علّم بالقلم ، وألهم نوابغ الكلم ، وجعل الأمثال والحكم ، أحسن آداب الأمم » على كثرة ما تقع له الحكمة .. وواضح

(١) كان شوقي شديد الدقة شديد البراعة حين استعمل هذا التعبير في مقطوعة عنوانها : السجع .. لم يشأ أن يسمي ما في القرآن سجعاً ارتفاعاً به عن أسلوب البشر من نحو ، وتنزيهاً له عما نزه عنه نفسه حين اتهم بأنه قول كهان ..

أن شوقي لم يقصد كذلك الى موضوع واحد ـ أو موضوعات متقاربة ـ يمثله أو يعبّر عنه عدد من الشخصيات على مثال ما أنشأ بديع الزمان والحريري في القرن الرابع والخامس والمويلحي واليازجي في العصر الحاضر مقاماتهم .. وإنما نوّع شوقي بين موضوعاته تنويعاً كبيراً ، وكان في أسواق الذهب ، مثله في الشوقيات ، يتراوح بين الموضوعات الذاتية والموضوعات الاجتماعية في ألوانها المختلفة .. ويطالعُ الإنسانَ في كتابه صورٌ من المدّعي العمومي إلى حديث عن الزهرة ، ووصف للشمس وحديث عن الطلاق ، ووقفة طويلة عند الحياة ووقفة قصيرة عند الموت .. إن آفاق شوقي في الأسواق من التنوّع ومن الامتداد في هذه الوجهة أو تلك بحيث تدفعنا الى القول بأنه لم يكن يقصد إلى الإنشاء من حيث هو إنشاء بقدر ما كان يقصد إلى التعبير عما حوله وعما في نفسه .

على أن هذه الموضوعات لم ترتب وفاق شكل معين ، فلم تفرد الموضوعات ذات الصبغة المعينة في قسم خاص وانما جاءت ، شأنها في ذلك شأن الشوقيات ، متداخلة متعاقبة .

وليست هذه الموضوعات جديدة كلها ، وليست كذلك قديمة كلها .. بعضها من هذه الموضوعات الانسانية المشتركة التي لا يغنى فيها القول ، وبعضها من هذه الموضوعات الطارئة التي توحي بها الساعة وإن كان شوقي ، على ما نعرف من أمره في الشعر ، أقدر الناس على أن يستخلص من الحادثة الطارئة المعنى الثابت ، وأن يعتصر من البارقة الخاطفة الضوء المديد .

وقد وفق شوقي في تجديد موضوعاته النثرية توفيقاً بارعاً ... تجاوز النطاق التقليدي أو الذي آل أن يكون تقليدياً في اختيار الموضوع ، فاستمدّ موضوعاته من كلّ ما حوله : من الدين ، ومن المجتمع ، ومن

السياسة ، ومن صراع الفكر ، ومن هذه القضايا التي كانت تثيرها روح العصر ... فتحدث عن الشهادة والصلاة والصيام والزكاة والحج ، وعن العدل والظلم وشاهد الزور ، وشهادة الدراسة وشهادة الحياة ، وعن الأهرام والبحر المتوسط والجندي المجهول ، وعن الظبي والأسد والشمس ، وأشار الى الوطن والوطنية ، والاشتراكية والشيوعية ، والحرية والاستقلال .

ولكن يجب ان نستدرك .. فشوقي حين طرق هذه الأشياء كلها إنما طرقها ليصنع منها عملاً فنياً لا ليعالجها أو يشرحها ... إن بناء الأثر الفني هو الذي كان يستبد بكل قواه ؛ ومن هنا مصدر أكبر الفرق بينه وبين الذين عاصروه من الناثرين المرسلين .

العناصر

واذا كانت موضوعات شوقي في هذا التنوع فما هي العناصر التي كانت تدخل في تركيب مقالات شوقي وفي إقامة بنائها .

العنصر التاريخي :

نستطيع أن نلمح بوضوح أن ثقافة شوقي التاريخية تؤلف عنصراً أساسياً في تكوين موضوعاته .. بل ان هذه الثقافة التاريخية هي التي كانت تبيح لبعض مقالاته أن يطول ... وحيث يكون التاريخ يتند نفس شوقي ، كأن التاريخ نبعة يرتوي منها ويتزوّد ما وسعه الارتواء والتزود .

ونحن نظفر بهذا العنصر التاريخي في شكلين :

أحدهما هذا الشكل الاستعراضي الذي يمضي فيه شوقي مع مراحل الزمن ، كما فعل في قطعة القناة وفي الجندي المجهول إذ ينشئ المشاهد ويعرض الصور .

والآخر هذا الشكل الموجز الذي يكتفي فيه ببعض الأقباس فيذكر بعض

الأشخاص أو يلفت إلى بعض الأمكنة ، أو يلقي بعض الأسماء ، ليكون لهذه الأسماء والأمكنة والأشخاص دور الإيحاء والإثارة .

وهذا الاحتفاء بالعنصر التاريخي في نثر شوقي ليس بدعاً جديداً .. فنحن إذا كنا نراه أو نلمحه في نثر شوقي فقد لمحناه كذلك من قبل في شعره . إنه ركيزة أساسية من ركائز العمل الفني عند شوقي الشاعر وشوقي الناثر .

العنصر اللغوي :

إفراغ الأثر الفني في قالب السجع يقتضي بطبيعته مادة لغوية ثرة .. ونحن لا نستطيع أن نتصور نثراً مسجوعاً لا يكون لغزارة اللغة ووفرة مفرداتها نصيب كبير فيه .

واذا كان هذا صحيحاً فنحن لا نحتاج أن نقف وقفة طويلة عند هذا العنصر الذي يدخل في عمل شوقي النثري .. غير اننا لا نملك السكوت عن ملاحظة أن شوقي استطاع أن يجاري الفحول في استخدام المادة اللغوية واستثمارها .. ان مقالاته في أسواق الذهب كشفت عن مقدرته اللغوية البارعة .. واذا كان هذا شيئاً طبيعياً من أمثال الحريري وبديع الزمان والزمخشري واليازجي من الذين نشأوا في رحاب المعاجم العربية واتصلوا بالثقافة اللغوية اتصالاً مستمراً دائباً ـ فإنه من الأمر الخارق الذي يلفت النظر حقاً أن استطاع شوقي ـ وبيئته هي بيئته التي تتمازج فيها العناصر الأعجمية وتتغلب فيها اللغات الاجنبية : التركية والفرنسية ـ أن يستعلي على هذه البيئة من نحو وأن يمسك بزمام اللغة العربية وأن يسخرها كيف يشاء ، فتلين له بين يديه وتطاوعه في نثره في انطلاق واستساغة وشيء من عفوية كثير ، وأن يضرب في هذه اللغة يطلب ما يقتضيه السجع فلا يفوته اللفظ وانما يسلس له كما يريده في نطاق الصنيع الفني الذي أخذ نفسه به .

إنه ليس شيئاً عادياً أن يمتلك شوقي كلّ هذه القدرة اللغوية التي دلّ عليها نثره بأكثر مما دل عليها شعره نتيجة لتتبعه الشخصي ومطالعاته الخاصة وحسه المرهف، دون أن يكون واحداً من الذين نشأوا في رحاب الأزهر أو درسوا على أساتذته أو كانوا قريبين من معاقل الفصحى .

العنصر التأملي :

وتأملات شوقي عنصر ثالث من عناصر مقالاته .. واذا كان بعض هذه المقالات كما يقول هو «من شؤون المجتمع وأحواله ، وصفات الانسان وأفعاله، أو ماله علاقة بأشياء الزمن ورجاله — ص ٤» فان بعضها كذلك كما يقول «قد نبع من القلب وهو عند استجمام عفوه ، وطلع في الذهن وهو عند تمام صحوه وصفوه» .

وليس معنى هذا العنصر التأملي في بعض هذه المقالات أنها تتجرد عن الدافع الاجتماعي او الباعث النفسي ، فما إلى ذلك قصدت .. وإنما أردت أن حظّها من التأمل الفكرى واستملائه أكثر من حظها من مشاهدة الواقع واستمداده .. إن الكثرة الكاثرة من مقالات الزمخشري تعود إلى هذا التأمل ، ولكن بعضها كالحديث عن الوطن مردّ التأمل فيه الى باعث نفسي ، وبعضها يعود إلى دافع من الحياة .. ومقالات شوقي يرجع بعضها إلى هذا العنصر التأملي كما في حديثه عن البيان ، واللسان ، والمال ، والحياة ، والموت وما إلى ذلك .

العنصر الواقعي :

ومع ذلك فان الجانب الأكبر من مقالات شوقي يرتد، في أصله الذي نجم عنه أو في تفاصيله التي يتشعب فيها، إلى هذا العنصر الواقعي من حياة الشاعر أو مما يشاهد في مجتمعه، مما يفرح به أو يشكو منه ، مما ينكره أو مما يتمناه .. ولو رحنا نستقصي هذا العنصر من مواضيع شوقي لطال بنا الطريق، ذلك أنك

نجده في أكثر المقالات .. وقد يكون هو الذي يولّد بعض معانيه أو يلوّن الحديث عنه .. ففي قطعته عن «الجندي المجهول» نستطيع أن نلمح بوضوح كيف انعكس بعض العنصر الواقعي في حياة شوقي أو مجتمعه على هذه القطعة فولد فيها بعض معانيها .. إن شوقي يشهد كيف يسير الناس في الجنائز ، وينالون وهم يشيّعون الأموات ، من الأموات والأحياء على السواء ، ويلغون في الأعراض والحرمات وهم يرون عاقبة الحياة .. إن هذه الصورة الاجتماعية المنفّرة ولّدت عند شوقي في حديثه عن الجندي المجهول هذه الفكرة : (... إلاّ هذا الجندي المجهول ، فقد خلت جنازته من الهامس والهامز ، والغامط والغامز ، فقل لمن لم يعرفه الناس : طوبى لك ، ما أنعم بالك ، وما أنقى كفنك وسربالك ــ ص ٢٤) .

وشوقي كذلك يشهد في مجتمعه كيف يكون تجنّي الشيع والأحزاب ، وكيف يتسلح غير ذي مجد بأذيال ذوي المجد ، وكيف يحاول الفاشلون من الأبناء أن يستغلوا سمعة آبائهم .. فاذا ذلك كله ينعكس كذلك في مقالاته ويولّد عنده هذا المعنى الذي صاغه في الجمل التالية : (.. ذهب رحمه الله لا عن ولدٍ يرمينا بجنادل أبيه ، ولا أخ يسحب علينا أكفان أخيه ، وكفانا تجني الشيعة ، وإدلال الصنيعة ، وكلّ حرباء يتسلق الناس شجراً إلى الشمس ، يعبدها على مناكبهم من المهد إلى الرمس ــ ص ٢٥» .

الأسلوب

حين نتحدث عن الآثار الفنية التي أنشئت في قالب السجع يغلب على أذهاننا معنيان اثنان : أحدهما هذه المحسنات البديعية المختلفة التي تواكب السجع من مثل الجناس والطباق والتورية ومراعاة النظير وما إلى ذلك .. والآخر هذا الفقر المعنوي الذي نلمحه في كثير من الآثار المسجوعة ، وهذا التغليب للجانب

اللفظي الذي يخرج الأثر الفنيّ عن هدفه الأول الى شيء من الثرثرة أو الحشو كما عبر عن ذلك شوقي نفسه .

أفنجد مثل هذا عند شوقي حين نقرأ أسواق الذهب ؟ وهل استطاع أن يتجنب العيوب التي رمي بها السجع أو التي أضفيت عليه ؟ وما بلغ من أمره في هذا السبيل ؟

من الحق أن ننبه قبل كل شيء إلى أن شوقي استطاع أن ينجو عمّا سماه الثرثرة ، وارتفع بأثره الأدبي عن مستوى الآثار المسجوعة التي سيطرت في بعض فترات الانحطاط .. وبوجه خاص استطاع أن يسوّد المعنى ، وأن لا يغمط الفكرة ، وأن يجعل نقطة انطلاقه التعبير عما في نفسه ، لا مجرّد التعبير ... إن كثيرين من الذين كتبوا سجعاً لم تكن تعيش في أذهانهم فكرة معينة ، وإنما كانت تعيش في ذاكرتهم ثروة لغوية خصبة تتيح لهم هذا السجع وما يتصل به من محسنات .. فلما أرادوا لهذه الثروة اللغوية أن تبدو ، ولهذه القدرة أن تتضح للناس ، أخذوا ينشئون .. بمعنى أن الدافع الأول - أغلب الظن - كان يكمن في الرغبة في استعمال هذه الثروة والإبانة عنها ، وكان يتمثل بعد ذلك في هذا الأثر الأدبي أو ذاك .. إن نقطة الانطلاق كانت في كثير من المرات اللغةَ نفسها .. ولكن شوقي لم يكن كذلك ، فلم تكن الرغبة في الإدلال بقوته اللغوية - فيما يبدو حقاً - مصدر هذا العمل الفني ، وانما كان هنالك فكرة معينة تطيف بذهنه ، أو تأمل يسيطر عليه ، أو انفعال يخامر فؤاده ويغمره ، فاذا هو يعبر عنه هذا التعبير المسجوع ، تماماً كما كان يعبر عن هذه الأشياء بالشعر .

ولكي نؤكد هذه الحقيقة يكفي أن نذكر ما فعله الأصفهاني في أطباق الذهب .. إن مقاماته كانت عرضاً لغناه اللغوي .. ذلك لأننا نعدم عنده الفكرة فأفكاره هي أفكار الزمخشري ، ونعدم عنده الانفعال فانفعاله يأتي طارئاً ،

يأتي متأخراً لا ينبع من ذاته وإنما يأتيه من قراءة الزمخشري عن طريق العدوى ، ولا نكاد نجد عنده إلا هذه التوسعة اللغوية - إن صحت التسمية - لما قاله الزمخشري .

ولعلّ شيئاً من هذا أو هذا كله هو الذي فعله اليازجي في مقاماته « مجمع البحرين » فقد كانت عرضاً لبراعته اللغوية في أكثر المرات ، وفي مقامة كالمقامة اللبنانية مثلاً نجد أنه استعرض الأفعال التي تدل على معاني القطع والأفعال التي تدل على معاني الكسر والفروق الدقيقة بينها ثم نظمها ..

ومهما يكن من أمر فنحن لا نستطيع أن ننفي - حتى في الآثار التقليدية الصرفة - وجود الفكرة ووجود الانفعال أحياناً .. غير أننا نفرق بين فكرة وفكرة وانفعال وانفعال بالدرجة أولاً والأصالة والتقدم ثانياً .. فالزمخشري أعدى الأصبهاني بانفعاله ، ولكن من المؤكد أن الأصبهاني عانى نوعاً من الانفعال ، هو على الأقل انفعال الرغبة في إنجاز الأثر الفني ، وانفتح له بعض الجديد في المعنى ، هو على الأقل الشرح والتوسعة .. ولكننا في تقويم الأثر الفني لا ننظر الى وجود هذا العنصر أو ذاك وانما نلتفت إلى درجته من نحو كما نلتفت الى أصالته ومكانته من نحو آخر : أكان عنصراً أصيلاً دافعاً أم كان عنصراً ثانوياً لاحقاً ؟ .. أكان له دور الإثارة والتفتيح أم كان له دور التقليد والمتابعة .. ومن هنا نؤكد ما لاحظناه من أن شوقي وضع الرغبة في إنشاء أثر فنيّ بكل ما يحتاج اليه هذا الأثر من فكر وانفعال وصُنع ، قبل أن يضع الرغبة في اظهار البراعة اللغوية .. على حين كانت البراعة اللغوية موَجّهاً أول في بعض الآثار المسجوعة الأخرى .

ومن هنا يصحّ لنا أن نلاحظ أن شوقي كان ينظر بعينيه الى السماء أو الطبيعة أو النفس أو المجتمع ثم ينظر الى المعجم أو ينثال المعجم على لسانه .. أما بعض

الذين سلكوا السجع فقد كانوا ، أغلب الظن ، ينظرون الى المعجم اللغوي ، ولا يتركون لعقولهم وأحلامهم وأهوائهم دورها أن تنهض بمهمتها في انشاء الأثر الفني .

واذن فقد وفق شوقي في انتشال السجع من وهدته التي رُدّي فيها حين بدأ انطلاقه فيه من الفكرة .. ولم تكن الفكرة أو الحادثة أو الشيء الذي يراه بعينيه ليصفه ، مجالاً لتصيّد الألفاظ اللغوية التي يمكن أن تدور في فلك هذه الحادثة أو هذا الموصوف ولكنها كانت لتعبّر عنها ولتتلاءم معها ، لا لتتلاءم مع التعبير الجاهز أو التعبير المجتلب .

ولهذا فنحن نجد أن لمقالات شوقي عناوين : الأسد ـ الجمال ـ الذكرى ـ الأهرام ـ الطلاق ... ولكننا لا نجد لمقامات الزمخشري عنواناً وبالتالي لا نجد عنواناً كذلك لمقامات الأصفهاني .. وفي مقامات الحريري لا يغني العنوان دائماً .. وعناوين « مجمع البحرين » غريبة جداً لأنها مصطنعة اصطناعاً واضحاً (المقامة المصرية ـ الرشيدية ـ الفراتية ـ اللبنانية ـ الحموية) فهي لا تدل على شيء مما وراءها ، ولذلك لما صنعوا فهرس هذه المقامات كتبوا العنوان وكتبوا الى جانبه ما تتضمنه المقامة .. ان العنوان الصحيح يعبر عن الحادثة أو الفكرة التي أراد الكاتب أن يتحدث عنها لا الحادثة المفتعلة التي أراد الكاتب أن يجمع حول نواتها الألفاظ اللغوية المختلفة .

والحق أننا ، في سلسلة الآثار المسجوعة في الأدب العربي ، نستطيع أن نلمح هذه الأنواع المختلفة : آثار تقوم على تغليب اللفظ ـ وآثار تقوم على تغليب الحادثة ـ وآثار تقوم على تغليب الفكرة مع رعاية مقام اللفظ .

في الأولى تتضاءل الفكرة وتختفت ، وتبدو من وراء ضباب ، ويسيطر

اللفظ بكل ما يتصل به من جناس وطباق ومراعاة نظير .. كما في بعض مقامات اليازجي .

وفي الثانية تحاول الحادثة أن تخفف من سيطرة اللفظة ولكنها توفق أحياناً في مفاجآتها أو طرافتها شأن بعض مقامات البديع والحريري ، وتفشل أحياناً في رتابتها وتكرار شخوصها وضيق أفقهم وتناولهم التناول الخارجي .

وفي الثالثة تسيطر الفكرة ولكنها لا تحجب جمال اللفظ ، وتبدو الفاصلة وكأنما جاءت لتمكن لما يحس به المنشئ أو للذي يجول في ذهنه .

وأغلب الظن أن سجع شوقي كان من هذا النوع .

. . .

ولم يوفق شوقي في أن ينجو بالسجع من الفقر في الفكرة والتفاهة في المعنى ، وانما وفق كذلك في أن ينجو من سيطرة المحاسن اللفظية التي تواكبه .. ان الطباق والجناس بأنواعها يشغلان حيزاً كبيراً في الآثار الأدبية المسجوعة ، ويقصد اليها في بعضها قصداً ، ويتولد المعنى الصغير حيناً منها ، وقد يلفتان الحديث عن مجراه .. وما أكثر ما كانت هذه الأشياء تجتلب اجتلاباً يتضح للقارئ دون ريب أنه اجتلاب مفتعل ...

أما شوقي فالذي تيسر له من ذلك ينبئ عن أنه لم يكن مقصوداً اليه كل القصد وبصورة خاصة ما يسميه البديعيون مراعاة النظير .. وأحسب أن الذي جاء عنده من الطباق والجناس إنما كان أثراً من آثار نشدان السجع نفسه .. فاللفظة المسجوعة تستدعي لفظة أخرى قد لا تشاركها في الحرف الأخير فحسب ، ولكنها تشاركها في أكثر من حرف فيتولد هذا الجناس الناقص .. ولعلنا حين نقرأ مثلاً حديثه عن اليوم « ص ٧٢ » وعن الغد « ص ٧٣ » نجد أبرز القطع التي تجمع منها هذه العناصر البديعية .

وما نعفي شوقي من قدرٍ من التكلف في اصطناع هـذا البديع اللفظي ، ولكننا ننفي عن سجعه أن يكون قد غرق في المحسنات فضلّت به المحسّنات عن معناه .. إن وجود هذه المحسنات التي تواكب السجع أمر لا مفرّ منه عنـد اصطناع هذا الأسلوب .. ولكن كثرتها وغلبتها هي التي تقيم المخالفـة بين أثر وأثر : تجعل من أحدهما أثراً مقبولاً أو محبوباً ، ومن الآخر أثراً ممجوجاً أو مرفوضاً .

ان شوقي أراد من السجع كما قال حلاوة الفواصل وهديل الحمام بأكثر مما أراد إلى القيد والتكلف والالتزام .

. . .

على أن شوقي لم يلتزم هذا السجع دائماً ، ولعلّ من الغريب أن نلاحظ أنه في الأقسام الأخيرة من أسواق الذهب انحرف عن التزام السجع .. بل انه حتى في القطعة التي كتبها للدفاع عن السجع في الأسواق تحرّر من هذا القيد وبدا أشدّ ميلاً إلى الأسلوب المرسل وان كان التزم الازدواج وتوازن الفواصل .

إن هذا التحلل كان بداية طريق جديدة في نثر شوقي .. كان بداية الطريق الى النثر المطلق الذي بدا في أميرة الأندلس .

وكذلك يتضح أن نثر شوقي جرى مع شعره في طريقين متوازيين : كان شوقي أول الأمر شديد الصلة بالقديم وكان نثره شديد الارتباط بالسجع .. فلما مضى شعره في موضوعاته وأساليبه حرًّا خالصاً من قيود القصر ، انطلق كذلك نثره حرًّا خالصاً في أميرة الأندلس .

ومهما يكن من تقديرنا لهذا النثر فلسنا نملك أن نقول الذي قاله الأستاذ المرحوم شكيب أرسلان من أن نثر شوقي قتل شعره أو فتك به فلبس في

الحياة الأدبية هذا .. لكنا نميل إلى القول ان آلهة الشعر التي قامت عن ميامنه «كما قال الشيخ بشارة الخوري في رثائه» قد استبدت به فلم تترك لربات النثر التي قامت عن مياسره أن تستقل بهذا الشاعر الملهم .. شدته الى موسيقاها ، موسيقى الخليل ، فلما تغاضت عنه بعض الأحيان شدّه النثر الى أساليبه وفواصله .

ان نثر شوقي في مثل منزلة الشعر .. بل انه شعر اذا نحن التزمنا تعبيره .. إنه شعره الثاني[1] .

الدكتور شكري فيصل

أستاذ الأدب العربي بجامعة دمشق

---

(١) يرجو صاحب البحث كل الذين يملكون بعض النصوص او الرسائل من نثر شوقي ، مما لم يطبع ، أن يتفضلوا بهدايته اليها أو اطلاعه عليها .

معجم المصطلحات الطبية

الكثير اللغات

للدكتور ا . ل . كليرفيل

نقله الى العربية الأساتذة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط

ومحمد صلاح الدين الكواكبي

(لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطب من الجامعة السورية)

— ١ —

لا تزال كلية الطب في الجامعة السورية هي المدرسة الطبية الوحيدة التي تدرّس الطب باللغة العربية في العالم العربي قاطبةً ، وإن سبقتها في هذا المضمار ، لمدة قصيرة من الزمن ، مدرستنا القصر العيني في مصر والجامعة الأميركية في بيروت . فقد بدئ بتدريس الطب بالعربية في دمشق منذ اعادة افتتاح مدرسة الطب فيها (٢٤ من كانون الثاني سنة ١٩١٩) [١] بعد اتخاذ لغة الضاد لغة التعليم في تلك المدرسة .

---

(١) لقد تم في التاريخ المذكور إعادة افتتاح مدرسة الطب باسم المدرسة الطبية العربية تخلفت مدرسة الطب العثمانية التي يعود تأسيسها الى سنة ١٩٠٣ ، والتي كانت التركية لغة التدريس فيها ، وكان معظم أساتيذها من الأتراك عدا أستاذين كانا من أبناء البلاد العربية أحدهما المرحوم الأستاذ ميشيل شامندي الذي عُهد اليه بتدريس الطب الشرعي ومفردات الطب وفن المداواة . وكان بين مساعدي الأساتيذ الأتراك عدد غير قليل من أبناء سورية ، خلفوا أساتيذهم في التدريس في المدرسة الجديدة . ثم بُدل اسم المدرسة الطبية العربية فصار اسمها المعهد الطبي العربي ، وبدل مرة أخرى فأصبح كلية الطب .

ويعود فضل التدريس بالعربيـة الى أولئك الأساتيذ الذين وسدت اليهم كرامي التدريس (ومعظمهم ممن تخرج من إحدى مدرستي الطب العثمانيتين في دمشق أو في اسطنبول) . وكانت دراستهم بالتركية قد مهدت أمامهم السبيل الى التدريس بالعربية ، لأن المصطلحات الطبية في اللغة التركية معظمها عربية . وليس من الصعب رد الألفاظ التي شوهتها أو حرفتها الصياغة التركية الى وضعها العربي الصحيح ، وانبرى ثلاثة من أساتيذ مدرسة الطب الى ايجاد المصطلحات الطبية العربية ، والى ارشاد زملائهم الى الألفاظ الصحيحة ، فكان لهم القدح المعلى في هذا المضمار ؛ وهم الأساتيذ مرشد خاطر (وهو ممن درس الطب بالفرنسية ، وتخرج من الجامعة اليسوعية في بيروت) ، وأحمد حمدي الخياط ، والمرحوم جميل الخاني . فهؤلاء الثلاثة يعدون رجال الطليعة في هذا الميدان [1] ، يضاف اليهم الأستاذ عبد الوهاب القنواتي الذي أخذ على عاتقه وضع المصطلحات الكيمياوية . واستعان بقية الزملاء بخبرة أولئك فكانوا جميعاً المرجع الأول ، وتلا هذه الطبقة رجال الطبقتين الثانية والثالثة ، وكل منهم جهد في رفع شأن اللغة وايجاد المصطلحات في الفرع الذي اضطلع بأعباء التدريس فيه . ويعد الأستاذ محمد صلاح الدين الكواكبي (وهو من رجال الطبقة الثانية) من المجلين في هذه الحلبة ، إذ ما كاد ينهي دراسته ، ويحوز شهادة الصيدلة حتى رأينا

(١) هذا وإن الأمانة لتقضي بأن ننوه بفضل المرحوم الدكتور حكمة المرادي الذي انبرى الى كتابة سلسلة من المقالات نشرها في مجلة (الصحة العمومية) الأسبوعية التي كانت تصدرها رئاسة ادارة الصحة في دمشق ، مقترحـاً قبول عشرات من المصطلحات الطبية العربية مقابل المصطلحات الفرنسية ، وقد استعمل معظمها أساتيذ كلية الطب كالخَنْزَب والقُلاب والمقلوب والأسر والسلى والنقي والوتين والمشاش والخاصّة والهيضة والشرى وانتشار الحدقة والزحير والزحار والذبحة والخناق والقلاع والسلعة والرعن والعقي والسهادير والشفَع والداغصة والخلب والإبقار (عن العملية القيصرية) والكظر والإباء (عن الد الشهوة) والدوار وارقاء الدم والسادة والمراق وغيرها .

له المقالات المتتابعة في مجلة المعهد الطبي العربي [1] ثم رأيناه يشرع في وضع كتابه الذي سماه «مصطلحات علمية»، وقد أعاد طبعه خمس مرات على ما أعلم.

هذا وإن الأمانة تقضي أيضاً بأن لا نغمط حق أولئك العلماء والرواد الأول من أساتيذ القصر العيني عندما كانت العربية لغة التدريس في الطب، ولا أولئك المؤلفين الأجلاء الذين درّسوا الطب بالعربية في الجامعة الأميركية في بيروت [2].

وأنشئ في مصر سنة ١٩٣٢ مجمع اللغة العربية الملكي، وصار اسمه بعد الثورة مجمع اللغة العربية، وأنيط باحدى لجانه النظر في المصطلحات العلميـة

---

(١) لم تعمر مجلة الصحة العمومية الأسبوعية التي ألمتُ اليها طويلاً، إذ لم يصدر منها سوى ٢٦ عدداً، وكل عدد منها ثماني صفحات، ثم جعل العدد الواحد ست عشرة صفحة بعد أن تولى رئاسة تحريرها الأستاذ مرشد خاطر. وصدرت بعدئذ في أول سنة ١٩٢٤ مجلة طبية شهرية هي مجلة المعهد الطبي العربي، باشراف الأستاذ خاطر وانقطعت عن الصدور بعد سنة ١٩٣٦، وكانت هذه المجلة نبراساً يهتدى به، وميداناً فسيحاً تتبارى فيه أقلام اللغويين والأطباء من سورية ولبنان والعراق، سواء في المصطلحات الطبية أو في الموضوعات الطبية المحلية والمستحدثات المستجدة في بلاد الغرب.

(٢) لم يتح لكاتب هذه السطور الاطلاع على ما ألفه هؤلاء ولا أولئك، الا أني أجلت الطرف عرَضاً في أحد الكتب التي وجدتها في خزانة كتبي، وهو المعروف بالمصباح الوضاح في صناعة الجراح من تأليف وترجمة الدكتور جورج بوست أستاذ الجراحة في المدرسة الكلية في بيروت وقد طبع سنة ١٨٧٣، فوجدت لغته صحيحة لا غبار عليها. وقد سبقنا في استعمال الكثير من المصطلحات الطبية كآكلة الفم والآمة والأدرد والأدرة والارتشاح والتأمور والأستسقاء وأسر البول والإطراق والملتحمة والرغامي وبُرَحاء والتلقيح وتلين الدماغ والجمرة والجهر والحصر وحمى الدق والخَشَم والدشبذ والسبات والسعفة والسلاق والشترة والمقبولة والعَمَش والفَحَج والفَدَع والفرقمة والفَتَم والفَدَج والقاثاتير والقدم العرجاء والقفداء والفدعاء والوكعاء والرحاء والايلة المائية والكمنة واليقين والنسيج الخلوي والوترة والوكع وغيرها.

ومن بينها المصطلحات الطبية لعرضها على مجلس المجمع واقرارها ، فأقر المجمع جملة قرارات تناولت الطريقة الواجب اتباعها في وضع المصطلحات العلمية مما لا يتسع المجال لسرده .

وقد شرع المجمع في وضع المصطلحات في بادئ الأمر وفق الأسس التي أقرّها دون أن يلتفت الى ما فعله أساتيذ كلية الطب في دمشق . وثابر هؤلاء أيضاً على الطريقة التي اختطوها لأنفسهم (ولا أقول اختطها كل منهم لنفسه) دون أن يكون هنالك ما يجمع أو يوحد بين جهود الطرفين . وبدت بوادر التقارب مؤخراً فرأينا بعض لجان المجمع تنظر بعين الاعتبار الى ما سبق لأساتيذ كلية الطب وضعه وإدخاله في صميم لغة الطب المتداولة في سورية وفي معظم البلاد العربية درساً واستعمالاً . ومع ذلك لا يزال ثمة خلاف بيّن لا بين الفريقين المذكورين فحسب ، بل بين أساتيذ كلية الطب أنفسهم ، فنرى للفظ الفرنجي الواحد بضع كلمات عربية بين معرّب ومشتق ومنحوت . وكل واحد من واضعي تلك الكلمات أو من المنتصرين لها يتشبث برأيه ولا يحيد عنه قيد أنملة .

واستبشر خيراً كل من يهمه الأمر عندما طرق مسمعه أن لجنة من خيرة أساتيذ كلية الطب وأطولهم باعاً في وضع المصطلحات الطبية قد تألفت وأخذت على عاتقها مهمة وضع معجم شامل يهدف الى توحيد المصطلحات ، ويكون مرجعاً يعتمد عليه ، وها هو قد صدر المعجم فهل تحققت به الآمال ؟ .

إنه لسفر ضخم عدد صفحاته تقارب الألف ، وقد طبع طبعاً متقناً في مطبعة الجامعة السورية . وهو منقول الى العربية عن معجم ا . ل . كليرفيل الكثير اللغات (فرنسي انكليزي ألماني لاتيني) ، فتكون العربية اللغة الخامسة فيه . والترجمة كانت عن طبعته الثانية التي صدرت سنة ١٩٥٣ ، ورقمت كلماته بأرقام متسلسلة فكان لكل كلمة عربية رقم مماثل لرقم الكلمة الفرنسية ، وقد بلغ مجموع الكلمات ١٤٥٣٤ كلمة .

إن إقدام الأساتذة خاطر والخياط والكواكبي على هذا العمل الجليل ، وما أدوه في تحقيقـه من خدمة لأبناء الضاد عامةً وللطب والأطباء خاصةً سيسجل لهم بمداد الفخر والإجلال . وليسمح الزملاء الأكارم بعد هذا بأن أبدي ملاحظاتي عليه :

١ — المعجم الأصلي المترجَم :

لا يعد هـذا المعجم كاملاً من حيث عدد مفرداته . فاذا ما قيس بالمعاجم الطبية الأخرى كمعجم (Blakiston's) مثلاً نجد أن الطبعة الثانية من هذا المعجم الأخير (وقد صدرت سنة ١٩٥٦) قد زادت على الطبعة الأولى بمقدار ١٢٠٠٠ لفظة ، ونجد أنه جرى فيها تبديل ٨٠٠٠ لفظة من ألفاظ الطبعة الأولى . فأين هذا من معجمنا الذي بلغ مجموع مفرداته ١٤٥٣٤ لفظة فقط . ولاحظ كاتب هذه السطور وهو يطالع في الصيف الماضي كتابين صدرا حديثاً أحدهما انكليزي وهو (The Person Behind the Disease) أي الشخص وراء المرض لمؤلفه (J. Bauer) ، وآخر فرنسي وهو (La douleur et les douleurs) أي الألم والآلام لمؤلفه الأستاذ (Alajouanine) أن عشرات إن لم أقل مئات من الألفاظ الجديدة خلا منها معجمنا الطبي .

٢ — ترتيب المعجم :

لقد جعلت اللجنـة ترتيب المعجم ـ وهو على الحروف الفرنسية ـ من اليمين الى اليسار على غرار ما يكون في المعجمات العربية . والأفضل أن يكون الترتيب من اليسار الى اليمن تسهيلاً للبحث عن اللفظة الفرنجية ، وهو ما درج عليه زميلنا الفاضل الأمير مصطفى الشهابي في معجم الألفاظ الزراعيـة ، ووددت أيضاً لو نسجت اللجنة على منوال هذا المعجم الزراعي الكبير باثبات الألفاظ العربية ، مرتبةً على الحروف الهجائية العربية ، في صفحات ملحقة بالمعجم . وهو عمل سهل ما دام

يوجد لكل لفظة من الألفاظ رقم خاص يمكن رسمه في جانب اللفظ العربي ، فيدل على اللفظ الفرنسي الذي يقابله ، وتصبح فائدة المعجم بذلك مضاعفة . وهذا ما درج عليه مؤلف المعجم الأصلي في الألفاظ اللاتينية .

٣ — الأسلوب المتبع :

لقد ذكرت اللجنة في المقدمة الأسلوب الذى اتبعته ، فقالت إنها تتحرى المعنى الصحيح لكل كلمة من كلمات المعجم بانتقاء الكلمة العربية الصريحة ، من ترجمة سابقة صحيحة ، أو وضع ترجمة صحيحة عند فقد تلك ، مستعينةً ببعض طرق الاشتقاق المقررة لأسماء الآلات والأمكنة . وإن كانت الكلمة مصدراً لعمل ترجمتها بالفعل الماضي لذلك الفعل ؛ ودرجت على اتخاذ وزن فَعَل للدلالة على المرض (كفَيَل ورَقص لداء الفيل وداء الرقص) ؛ وخصصت وزن استفعال بالكلمات التي يقصد منها الاستشفاء (كالاستلقاح) ، ووزن فَعُول وفَعُولة ترجمةً للكلمات المنتهية بالكاسعة (Able) و (Abilité) ، ووزن فُعال للداء في حشو[1] أو عضو ككُباد وعُصاب وقُلاب وما الى ذلك ، وقالت اللجنة إنها تضع كلمة أقرب ما تكون من معناها الصحيح لكل كلمة لم تهتد الى ترجمة صحيحة لها كالحمة والفوعة ، وإنهـا لم تعمد الى التعريب الا فيما ندر ، وكذلك الاشتقاق من تلك المعرّبات ، وإنها اضطرت الى النحت في بعض الكلمات للحاجة الملحة اليه عنـد استعمال النسبة والإضافة الى تلك الكلمات كالكريراء منحوتةً من الكرية الحمراء وجمعها كريراوات ، ومثل كريضة للكرية البيضاء وجمعها كريضات أو كريضاوات . واستدركت اللجنة بعد

(١) كذا ورد في المقدمة ولا أظنه إلا غلطاً مطبعياً لم يُنتبه الى تصويبه . وهو حشى أو حشا . فقد جاء في لسان الحشو البطن لأنه تحشى به الفُرُش وغيرها ، والحشى ما دون الحجاب مما في البطن كله من الكبد والطحال الخ .

ذلك بقولها وكثيراً ما لجأنا الى وضع هذه الكلمات المنحوتة مرادفة للكلمات قبل نحتها ، تاركين الخيار فيها للباحث ، حتى اذا ما استأنس بها أخذ باستعمالها . وتركت اللجنة أكثر الأسماء والمصطلحات الكيمياوية على حالها غالباً ، كما أنها حرصت في أكثر ما أثبتته من كلمات عربية على شكلها على أصح وجوهها بحسب ما عثرت عليه في كتب اللغة الموثوق بها .

إلا أن عمل اللجنة الذي هو حريّ بكل تقدير واعجاب يعوزه بعض الانسجام في انتقاء المصطلحات بعيداً عن التمسك بالآراء الفردية السابقة . فلكل من الأساتيذ الثلاثة طريقته في النقل ، وله ألفاظه الخاصة في المصطلحات العلمية أو الطبية ، منها ما نُشر على حدة وأعيد طبعه مرات (الكواكبي) ، ومنها ما نُشر على حدة نقلاً عما جاء في آخر مصنفات المؤلف (الخياط) ، ومنها ما أثبت في احدى مجلدات مجلة المعهد الطبي العربي ، أو استعمله المؤلف في مقالاته الضافية في المجلة المذكورة أو في مؤلفاته العديدة (خاطر) . وكان ثمة خلاف على بعض تلك المصطلحات . فهل سُوّي الخلاف عليها ، وهل وُحدت طرائق النقل المختلفة ، وصُهرت في هذا المعجم المشترك الجديد ؟

إن ما يظهر لمتصفح كلمات المعجم أن كلاً من الأساتيذ الثلاثة قد التزم نهجه القديم الذي درج عليه فجاء المعجم جامعاً لطريقة كل منهم لا موحداً لها . وعلى ذلك يلمح القارئ التمسك بالنحت في كلمات هي في غنى عنه ، ويرى كلمات قد اجتنبت على حين أنها أصلح من سواها ، ويجد كلمات لم يسبق لغير واضعها أن استعملها ، ولم يجاره في استعمالها أحد من زميليه ولا من غيرهما . وكذلك يلمح الإصرار على اثبات كلمات لا تفي بالمعنى المترجم ، لأن واضعها سبق له أن استعملها . وها كم بعض الأمثلة : لقد جاء في مقدمة المعجم ، كما تكرر في متنه ، استعمال كُرَيرات ، وكُرَيضات (منحوتتين من كُرَيات حمر وكريات بيض) في صيغة الجمع ، وكُرَيرة

وكُرَيضة في صيغة المفرد ، أولسنا في غنى عن أمثال هذه الكلمات المستحدثة لنستبدل بها كلمات لم تعد مجهولة لأحد ، وإن أجازت اللجنة عدها مرادفة للكلمات الدارجة تاركة للطالب الخيار باستعمال احداها ؟ [1] ومع هذا فقد تجاوزت اللجنة عن النحت في ترجمة بعض المصطلحات الفرنسية المنحوتة ، مؤثرة ترجمتها بكلمتين غير قصيرتين ، ومن ذلك مثلاً أسماء بعض الجراثيم كالمكورات العقدية(Streptocoques)والمكورات العنقودية (Staphylocoques) وغيرها.

وعودنا الأستاذ خاطر في كتبه العديدة التي نشرها أن يستعمل كلمة العفونة في ترجمة (Infection) ؛ فاذا باللجنة تقر كلمة خَمَج [2] عوضاً عنها ، ومشتقة منها كلمات مخمج ومخموج والخماج . وعفونة كلمة شائعة وصحيحة وردت في كتب الطب العربية القديمة منها قانون ابن سينا عند بحثه عن حميات العفونة ، ومنها كامل الصناعة للمجوسي [3] في ذكره للحميات العفنية (دلائل الحميات

---

(١) سبق لكاتب هذه السطور أن أبدى ملاحظاته على النحت في تقريظه كتاب علم السموم للأستاذ الكواكبي (الجزء الثاني من المجلد الثلاثين من مجلة المجمع العلمي العربي ص ٣٢٠) .

(٢) في اللسان الخَمَج بفتح الميم الفتور من مَرَض أو تعب ، يمانية . وأصبح فلان خمجاً وخبيجاً أي فاتراً ، الى أن قال : وتخمج اللحم يخمج خمجاً أروح وأنتن . وفي اللسان أيضاً عَفِن الشيءُ يعفَن عَفَناً وعفونة ، فهو عَفِن بيّن العُفونة ، وتعفّن : فَسَد من نُدُوّة وغيرها فتفتت عند مسه .

(٣) وهو علي بن العباس المجوسي من الأهواز . وكان طبيباً مجيداً متميزاً في صناعة الطب ، وهو الذي صنف الكتاب المشهور بالملكي ، صنفه للملك عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة أبي علي حسن بن بويه الديلمي . وهو كتاب جليل يشتمل على أجزاء الصناعة الطبية علمها وعملها (طبقات الأطباء) .
وفي أخبار الحكماء : علي بن العباس المجوسي طبيب فاضل كامل فارسي الأصل يعرف بابن المجوسي ، قرأ على شيخ فارسي يعرف بابن ماهر ، وطالع هو واجتهد لنفسه ، ووقف على تصانيف المتقدمين ، وصنف للملك عضد الدولة فناخسرو بن بويه كناشه المسمى بالملكي ، وهو كتاب جليل وكناش نبيل اشتمل على علم الطب وعمله حسن الترتيب مال الناس اليه في وقته ولزموا درسه الى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا فالوا اليه وتركوا الملكي بعض الترك . والملكي في العمل أبلغ ، والقانون في العلم أثبت .

العفنية وأسبابها وعلاجاتها)[١] . وذكر في مكان آخر حمى العفونة وحمى العفن . أقول هذا وإن اختلف مدلول مصطلح زمننا هذا عنه لدى القدماء . وقد درج كاتب هذه السطور على استعمال كلمة انتان وان كانت دون كلمة عفونة . وهي لم يستعملها قدماء العرب ، إلا أن مدلولها في المعجمات لا يكاد يختلف كثيراً عن (الخمج) وهي أسهل لفظاً وأخف وقعاً في السمع وكانت شائعة في العهد العثماني . وأظنها الآن أكثر رواجاً لهذا المعنى من الكلمات الأخرى . ولم يتح لكلمة خمج ـ وقد استعملها الأستاذ خياط منذ أكثر من خمس وعشرين سنة ـ أن تجتاز امتحان الزمن . وقل من تداولها من تلاميذه . وطغت عليها كل من الكلمتين السالفتين ، ولا أدري هل يكتب لها البقاء بعد أن أثبتها معجم المصطلحات الطبية أم لا ؟

وعندي أنه لا يصح الاعتماد على كتب اللغة وحدها في انتقاء الألفاظ العلمية ، ولا أن ننبش منها ما دُفن من ألفاظ ميتة لا يستسيغها عصرنا الحاضر ، أو يكون لها معان مبهمة أو متضادة ، أو تكون معرفة تعريفاً غير علمي الخ . وقد نبه زميلنا الفاضل الأمير مصطفى الشهابي الى ما تحويه معجمات اللغة الشهيرة من عيوب وأغلاط[٢] في الناحية العلمية ، كما أتى المرحوم الدكتور أحمد أمين[٣] على ذكر بعض هذه العيوب وأسباب كثرة المترادفات في لغتنا . وهاكم على سبيل المثال

(١) الصفحة ٢٩٩ من الجزء الأول لكتاب كامل الصناعة طبع المطبعة الكبرى في القاهرة سنة ١٢٩٤ للهجرة .

(٢) مقدمة الطبعة الثانية من معجم الألفاظ الزراعية ، وكذلك كتابه المسمى « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » .

(٣) أسباب تضخم المعجمات العربية ، وهي محاضرة ألقيت في جلسة افتتاح مؤتمر مجمع اللغة العربية في الدورة التاسعة عشرة ، ونشرت في الجزء التاسع من مجلة المجمع المذكور.

رأي أصحاب المعجمات العربية في كلمة وريد [١] ، فالباحث لا يستطيع أن يستخرج منها فكرة معينة بعد تلاوة ما قيل فيها من المتناقضات ، أما صاحب القانون فقد عرّف الأوردة بالعروق الساكنة ، والجوّمي بالعروق غير الضوارب مطلقاً العروق الضوارب على الشرابين ومثل هذه النصوص في كتب اللغة وغيرها لا تدع مجالاً للشك في أننا لا نستطيع الاعتماد عليها وحدها في انتقاء الألفاظ

(١) في اللسان : وقوله تعالى ونحن أقرب اليه من حبل الوريد قال أهل اللغة الوريد عرق تحت اللسان ، وهو في العضد فليق ، وفي الذراع الأكحل ، وهما فيما تفرق من ظهر الكف الأشاجع ، وفي بطن الذراع الرواهش ، ويقال إنها أربعة عروق في الرأس فنها اثنان ينحدران قدام الأذنين ، ومنها الوريدان في العنق . وقال أبو الهيثم الوريدان تحت الودجين ، والودجان عرقان غليظان عن يمين ثغرة النحر ويسارها . قال : الوريدان ينبضان أبداً من الانسان ، وكل عرق ينبض فهو من الأوردة التي فيها مجرى الحياة . والوريد من العروق ما جرى فيه النَّفَس ولم يجر فيه الدم ، والجداول التي فيها الدماء كالأكحل والصافن وهي العروق التي تفصد . أبو زيد : في العنق الوريدان وهما عرقان بين الأوداج وبين اللَّبتين وهما من البعير الودجان وفيه الأوداج وهي ما أحاط بالحلقوم من العروق ، قال الأزهري والقول في الوريدين ما قال أبو الهيثم . غيره : والوريدان عرقان في العنق والجمع أوردة وورود ، ويقال في الغضبان قد انتفخ وريده . الجوهري : حبل الوريد عرق تزعم العرب أنه من الوتين ، قال : وهما وريدان مكتنفا صفقي العنق مما يلي مقدمه غليظان . وفي حديث المغيرة منتفخة الوريد هو العرق الذي في صفحة العنق ينتفخ عند الغضب وهما وريدان .

وفي القاموس الوريدان عرقان في العنق ، ج أوردة ووُرُود ، ولم يخرج صاحب التاج عما أورده اللسان .

وفي المخصص : الوريدان عرقان مكتنفان لصفحتي العنق وفي مقدّمه متصلان بالوتين يردان من الرأس اليه .

وفي أقرب الموارد : الوريد عرق في العنق يقال له حبل الوريد وهما وريدان ج أوردة ووُرُود ووُرُد ، كبريد وبُرُد . وقيل الوريد هو الوَدَج ، وقيل بجنبه ، وقال الفراء عرق بين الحلقوم وبين العلباوين ، وهو ينبض أبداً ، فهو من الأوردة التي فيها الحياة ولا يجري فيها دم من مجاري النفس .

العلمية ، لاضطراب الكثير من تلك الألفاظ ، ولعدم تحديد المعاجم لمدلولاتها .

وسبق لأستاذنا خاطر أن استعمل كلمات سُهام وخَرَع وهَرَع ترجمة لـ (Tabes) و (Rachitisme) و (Hystérie) ، فلم تعد اللجنة النظر في هذه الكلمات ، ولا فيما كان على شاكلتها فأقرتها ، أما أنا فقد درجت على تعريب هذه الألفاظ الثلاثة بتابس ورخيطس وهيستريا للأسباب التالية :

ان كلمة (Tabes) معناها اللغوي الأصلي هو الذبول والتلف . وحسناً فعلت لجنة مجمع اللغة العربية بترجمتها بالضنى ، فهو أقرب الى المعنى المقصود ، بينما كلمة سُهام قد عنى بها الأستاذ خاطر أحد مظاهر الداء المعروف ، وهو الألم الذي ينتاب العليل بالعلة المذكورة على هيئة طعنة السَّهْم ، وليس من أعراض الداء الملازمة بل يظهر حيناً ويغيب أحياناً ، والأفضل أن يخصص السُهام[1] بأحد أشكال آلام الداء ، وهو المعروف بالألم السهمي (Douleur lancinante) فقط . هذا وقد اتسع نطاق مدلول العلة حتى اذا نظرنا في مادة (Tabes) في المعجمات الطبية الحديثة المعوّل عليها نرى أن لفظة تابس لم تعد مقتصرة على الداء العصبي الأصلي الذي مرده الى الداء الافرنجي والذي ينجم عن تصلب الحبلين الخلفيين للنخاع الشوكي ، بل قد أطلق التابس أيضاً على الحالات الآتية التي لا تمت بصلة الى الداء الافرنجي ولا الى علة عصبية أو ألم اطلاقاً . واليكم ماجاء في معجم (Blakiston) : (Diabetic tabes) التهاب الأعصاب المحيطة في السكريين (Optic T.) ضمور العصب البصري بالداء الافرنجي ، (Spastic T.) التصلب المشترك للحبلين الجنبيين والخلفيين من النخاع الشوكي الذي يحدث عدم الانتظام وتقفعاً في الطرفين السفليين ، (T. coxaria) الضمور من جراء علة الورك ،

---

(١) الساوان في التاج السُهام داء يأخذ الإبل يقال بعير مسهوم وبه سُهام .

(T. diuretica) الداء السكري ، (T. dorsalis) وهو الداء الأصلي الذي ألمعنا اليه آنفاً ، و (T. ergotica) انسمام دموي من استعمال الأرغوت « دابرة الشيلم » ، و (T. mesenterica) الالتهاب السلي للعقد اللنفاوية المساريقية . وزاد (Dorland) في الطبعة العشرين من معجمه الطبي على ما تقدم : (Interstitial T.) تكثف الدبق العصبي البدني من جراء كثافة عروق الحبلين الخلفيين ، و (Peripheral T.) التهاب الأعصاب المحيطية أو التابس الكاذب وغيرهما ، وحيال هذه الكثرة في استعمال كلمة تابس وعدم انحصار مدلولها على الألم وحده لا أرى مسوّغاً لاستعمال سُهام في ترجمتها لذلك درجت على تعريبها وبخاصة لأن الكلمة المعربة خفيفة سمعاً ولفظاً .

ووافقت اللجنة على كلمة خَرَع في ترجمة (Rachitisme) . وهو علة تبدو في الأحداث تمتاز بتشوه العظام ، وارتباك الهضم ، ومردها الى سوء التغذية والحرمان من أشعة الشمس ، ولا أظن أن العرب في بواديهم ، ولا في حواضرهم ، قد عرفوا هذه العلة ، وترجمت لجنة مجمع اللغة العربية اللفظة بكُساحة بينما أثبتت لجنة معجمنا هذه الكلمة ترجمة للفظ (Paraplégie) الذي اعتدنا أن نترجمه بالشلل النصفي السفلي . ولم أعثر على أي نص لاستعمال الخَرَع لعلة تشبه ما تعنيه الكلمة الفرنجية [1] لذا أرجح تعريبها .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

(١) في اللسان تخرّع واخرع : استرخى وضعف ولان وضعف الخوّار . والخَرَع لين المفاصل وشفة خريع لينة ، الى أن قال : واخرعت كتفه اذا في انخلعت ، واخرعت أعضاء البعير وتخرعت زالت عن موضعها .
أما الكساحة ، ففي المخصص الأكسح المقعد وهو من به داء يقعده . وفي اللسان الكساح الزمانة في اليدين والرجلين وأكثر ما يستعمل في الرجلين . الأزهري : الكسح ثقل في احدى الرجلين اذا مشى جرّها جراً . وكسح كسحاً وهو أكسح وكسحان وكسيح ومكسح ، وقيل : الأكسح الأعرج والمقعد أيضاً .
أقول ولا يعد كسيحاً كل مصاب بالشلل النصفي السفلي .

مختارات مما لم ينشر

من شعر البحتري

لا يزال الكثير من أعلام الأدب العربي إلى اليوم في حاجة إلى دراسات مفصلة عنهم، تنير تاريخ الأدب وتعين على فهم تياراته وتطوّرها خلال العصور؛ غير أن مثل هذه الدراسات تظل قصيرة اليد ضيّقة الأفق ما لم يسبقها نشر عليٌّ نقدي لآثار هؤلاء الأعلام، وهذا هو الأساس القويم لكل دراسة علمية منهجية. ومن خير الأدب أن يدرك العالم العربي هذه الحقيقة، فيتجه باهتمامه إلى نشر المخطوطات القديمة نشراً علمياً حديثاً يستعير أساليب من سبقنا من المستشرقين في هذا المضمار، وينهج نهجهم، وكان أن ظهرت أكثر دواوين الشعراء الفحول في طبعات علمية أنفق ناشروها المحققون فيها من الجهود ما لا يمكن تحديده، ولكن البحتريّ لا يزال إلى اليوم يشكو إهماله..

لديوان البحتري ثلاث طبعات:

١ – طبعة القسطنطينية (الجوائب) عام ١٨٨٢، وهي أقدم الطبعات وأصحها، وعليها المعوّل إلى اليوم.

٢ – طبعة القاهرة عام ١٩١١، وهي كثيرة التحريف والتصحيف وإن كانت أكمل من طبعة الجوائب، ذلك أن فيها شعراً كثيراً ليس في تلك الطبعة.

٣ – طبعة بيروت عام ١٩١١ أيضاً وهي طبعة مشكولة، شرح فيها الناشر بعض الألفاظ وحذف ما لم يُرضه من الشعر المخل بالأخلاق والأدب.

وهذه الطبعات الثلاث – بالجملة – تجارية، غاية في السوء، وهي – إلى ذلك – لا تحوي جميع إنتاج البحتري الشعري، ذلك أن هنالك جانباً ضخماً من شعر

البحتري يقرب من ثلاثة آلاف بيت لمّا يزل مخطوطاً ، وبعضه من جيِّد شعره ، وأكثره يلقي أضواء نافعة على مراحل كانت غامضة من حياة الشاعر وفنه .

وعندما كنت في باريس ، قبل ثماني سنوات ، وافقت جامعة السربون على أن يكون موضوع رسالتي الأولى الدكتوراه البحث في حياة البحتري وفنه ، وعرضتُ آنذاك أن يكون موضوع الرسالة الثانية المكمِّلة تهيئة طبعة علمية لديوان البحتري ، وكادت الموافقة تتم لولا أن أحد الأساتذة المستشرقين العائدين من مصر أعلن أن طبعة نقدية علمية للديوان ستصدرها دار المعارف في القاهرة في سلسلتها المعروفة (ذخائر العرب) ، وأن ظهور الجزء الأول لن يتأخر أسابيع قليلة !

أما أنا فاخترت مخطوطة أندلسية للرسالة الثانية ، وأما ديوان البحتري فقد مرّت الأسابيع والشهور والسنوات ولا نزال ننتظر الطبعة الجديدة منه .

ومنذ أيام كنت أبسط لمعالي الأستاذ الرئيس خليل مردم بك طرفاً من هذا الحديث ، فأخبرني بأنه عزم مرة على طبع ديوان البحتري ، كاملاً محققاً ، وبدأ العمل مدة ثم تركه عندما علم أن مصر تهيأت لطبع الديوان ، وانصرف إلى أعمال أخرى ، ولكن الديوان الموعود لا يزال أملاً حلواً يعيش في قلوب المنتظرين ...

وإلى أن يصدر الديوان ، وينشر فيه ما لم ير النور إلى اليوم من شعر البحتري ، رأيتُ أن أقدّم مختارات منه في مجلة المجمع العلمي العربي إلى القراء ، ليسمعوا منها أنغاماً جديدة لشاعر كبير ملأ آذان الأجيال العربية إيقاعاً جميلاً وموسيقى ساحرة . وسنوالي تقديم هذه المختارات إلى أن تفي مصر بما وعدت ، وتحقق آمال المنتظرين .

* * *

- ١ -

قال البحتري [١] يمدح أبا الجيش خُمارَوَيه [٢] بنَ أحمد بن طولون :

يكاد عاذلُنا في الحب يُغرينا ... فما لجاجُكَ في لوم المحبّينا
نُلحى على الوجد من ظُلْمٍ فدَيْدَنُنا [٣] ... وجْدٌ نُعانيه أوْ لاحٍ يُعنِّينا

(١) القصيدة من البسيط ، عدد أبياتها ٣٩ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٠٨٦) الورقة : ٣٩٨ و — ٣٩٩ و ؛ وقد وردت بعض أبيات منها في الكتب المخطوطة والمطبوعة ، مما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري : فالكندي في كتاب الولاة وكتاب القضاة (طبعة بيروت ١٩٠٨) ص ٢٣٩ يذكر الأبيات : ٢٤ و ٢٥ و ٢١ و ٢٢ ، والشريف المرتضى يذكر في طيف الخيال (مخطوطة) الورقة ٤٧ ظ البيتين : ٣ و ٤ ، والمعري في عبث الوليد (مطبعة الترقي بدمشق ١٩٣٦) ص : ٢٢٥ — ٢٢٦ يذكر الشطر الأول من المطلع والبيتين : ١٦ و ٢٩ ، وابن عساكر في تاريخ دمشق (مخطوطة الظاهرية) الجزء ١٧ الورقة ٤٢٧ يورد البيتين : ٢٤ و ٢٥ ، وكذلك يوردهما ابن العديم في زبدة الحلب من تاريخ حلب (بتحقيق الدكتور سامي الدهان) : ج ١ ص ٨٣ .

(٢) خُمارويه (٢٥٠ — ٢٨٢ هـ) صاحب مصر ، وليها بعد وفاة أبيه واتسع ملك الطولونية في أيامه من الفرات إلى بلاد النوبة ، ومات مقتولاً في دمشق (ابن خلكان — طبعة محيي الدين عبد الحميد : ٢ / ٢٠ — ٢٢) .

(٣) في الأصل : قد بدننا ، والفضل في تصويب قراءتها لأستاذنا الرئيس خليل مردم بك .

إذا زَرُودُ (١) دنت منّا صرائمُها (٢) فلا محالةَ من زَوْرٍ (٣) يُوافِينا
بتنا جنوحاً على كُثْبِ اللوى (٤) فأبى خيالُ (٥) ظَمْياء (٦) إلاّ أن يُحَيِّينا
وفي زرودَ تَبِيعٌ (٧) ليسَ يُمْهِلُنا تقاضياً وغريمٌ (٨) ليس يَقْضِينا
منازلٌ لم نُذَمِّمْ عهد مُغْرَمِنا فيها ولا ذُمَّ يوماً عهدُها فينا
تَجَرَّمَتْ (٩) عنده أيّامُنا حِجَجاً معدودةً، وخَلَتْ (١٠) فيها ليالينا

(١) زرود : رمالٌ بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة (ياقوت معجم البلدان طبعة بيروت ٣/ ١٣٩) .

(٢) جمع صريمة وهي القطعة من الأرض الرملية أو الأرض المحصود زرعها .

(٣) الطيف والخيال يُرى في النوم .

(٤) كُثْبِ اللوى والأصل كُثُب جمع كثيب وهو التل من الرمل ، وسكّن الوسط لضرورة الوزن ، واللوى في الأصل منقطع الرمل ، وهو اسم لواد من أودية بني سليم (معجم البلدان ٥/ ٣٣) .

(٥) في طيف الخيال : طيفٌ لظمياء .

(٦) اسم امرأة يذكره البحتري في نسيب قصيدة أخرى يمدح بها خمارويه :

مسرى الطيفُ من ظمياء وَهْناً فرحباً وأهلاً بمسرى طيف ظمياء من مسرى

(الديوان -- طبعة مصر ١/ ١٢) .

(٧) التبيع : الذي يتبعك بحقٍ يطالبك به .

(٨) الغريم : الدائن والمديون ، والمراد هنا الثاني .

(٩) تجرّمت الحجج : انقضت الأعوام بتمامها ، والحول المجرّم : التام .

(١٠) في الأصل : دخَلت .

إنّ الغواني غداةَ الجِزْعِ مِنْ إضَمٍ (١) تَيَّمْنَ قلباً مُعَنَّى اللُّبِّ محزونا
إذا قَسَتْ غِلظَةً أكبادُها جَمَلَتْ تَزدادُ أعطافُها من نعمةٍ لِينا
يلومُنا في الهوى من ليس يَعْذِرُنا فيه ويُسْخِطُنا من ليس يُرْضِينا
وما ظننتُ هوى ظمياءَ مُنزِلَنا إلى مُواتاةِ خِلٍّ لا يُواتينا
لقد بعثْتُ عتاق الخيل ساريةً (٢) مثلَ القطا الجُرْنِ (٣) يَتْبَعْنَ القطا الجُونا
يُكْثِرنَ عن دَيرِ مُرّانَ (٤) السؤال وقد ءارَضْنَ أبنيةً في دير مارونا (٥)

(١) وادٍ بجبال تهامة ، وهو الوادي الذي فيه المدينة (معجم البلدان ١ / ٢١٤) .
(٢) في الأصل : شاربةً ولعل الصواب ما أثبتناه .
(٣) القطا ضربان : كُدْريٌّ وجُونيٌّ ، والجَوْن : الأسود .
(٤) ديرٌ بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع ورياض حسنة ، يذكر ياقوت أنه كان ديراً كبيراً عامراً بالرهبان ، وينقل بعض شعر الصنوبري في وصفه (معجم البلدان ٢ / ٥٣٣ — ٥٣٤) ، وليس في المطبوع من الديارات للشابشتي شيء عن هذا الدير ، وكان لخمارويه قصرٌ بدير مرّان ، ويذكر ابن عساكر أن خمارويه « بعد نزوله القصر وفد إليه الملوك ، وانتجعته العرب ، وقصدته الشعراء من جميع الأمصار ، وقصده البحتري الشاعر فأنشده قصيدته » هذه . (انظر تاريخ دمشق - مخطوطة الظاهرية : ١٧ / ٤٢٧) وفي هذا القصر قُتل خمارويه سنة ٢٨٢ هـ (انظر تهذيب تاريخ ابن عساكر لبدران : ج ٥ ص ١٧٨) .
(٥) دير القديس مارون : دير كان في مدينة الرستن ، أو فيما يجاورها ، على ضفة العاصي ، بين حمص وحماة ، وهو دير مشهور يقول فيه المسعودي : « دير مارون بنيان عظيم حوله أكثر من ثلثمائة صومعة ، فيها رهبان ، وكان فيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم ، فخرب هذا الدير وما حوله من الصوامع بتواتر الفتن » انظر مقالة ليوسف اليان سركيس في مجلة المقتطف (المجلد ٣٣ السنة ١٩٠٨ ص : ١١٣ — ١١٥) .

يَنْشُدْنَ في إرَمٍ [١] والبحرُ في إِرَمٍ — غنيٌّ على سَيِّدِ السادات مضمونا
يُلفى النَدى منه مَلْموساً ومُدْرَكاً — وكانَ يُعْهَد موهوماً ومظنونا
بادٍ بأنعُمِه [٢] العافينَ يَزْلِفُهم [٣] — على الأشقّاء [٤] فيها والقرابينا [٥]
نَيْلٌ يُحكِّمُ فيه المجتدون إذا — شئنا أخذنا احتكاماً فيه ماشينا [٦]
ومُمْلِقين من الإحسان يَفْجَؤُهم — ساهين عن كرم الأفعالِ لاهينا
إن لم يكن في جَداهُمْ نَزْرُ عارفةٍ — تكفّنا كان عُذرٌ منه يكفينا
وغابنٍ إنْ شرى حمداً بمَرْغَبَةٍ — رآه فيها بخيلُ القومِ مَغْبُونا
مظفرٌ لم نَزلْ نلقى [٧] بطلْعتهِ — كواكبَ السعدِ والطيرَ الميامينا
يُمسي [٨] قريباً من الأعداء لو وقعوا — بالصِّينِ في بُعدها ما استَبْعَدَ الصينا

(١) إرم : اسم مدينة ، ويُريد بها البحتري دمشق (معجم البلدان ١/ ١٥٥) .
(٢) في عبث الوليد : بأنصفةٍ .
(٣) زَلَفَ الشيء : قرّبه والمعنى أنه يقرّب السائلين على إخوته وجلسائه .
(٤) في الأصل : الأشقيا ، والتصويب عن (عبث الوليد) .
(٥) القرابين : جمع قربان ، وهو جليس الملك ، ويرى المعري أن البحتري واهم في نصب القرابين ، وحقه الخفض (عبث الوليد ٢٢٦) .
(٦) الأصل : شئنا وسهّلت الهمزة .
(٧) في كتاب الولاة والقضاة : لم يزل يلقى .
(٨) في كتاب الولاة والقضاة جاء هذا البيت كما يأتي :
يمشي قريباً من الأعداء لو وقفوا — بالصين من بعدها ما استبعد الصينا

تَشمِرُ يقظانَ ما انفكَّت عزيمتُــه ... تريدُ أعداءه ذُلًّا وتَوْهينــا

إنِّي رأيتُ (١) جيوشَ النصر مُنزَلةً ... على جيوش أبي الجيش بنِ طولونا

يومَ الثَّنِيَّةِ (٢) إذ يَثني (٣) بِكَرَّتِه ... في الرَّوعِ خمسين ألفاً أو يزيدونا

والحربُ مُشعَلَةٌ تَغلي مراجلُهــا ... حيناً ويُضرَمُ ذاكي جمرِها حِينا

يغدو الورى وهُمُ غاشو (٤) سُرادِقِهِ ... صِنفَيْنِ من مُضمِري خَوفٍ وراجينا

والناسُ بين أخي سَبْقٍ يَبِينُ به ... وفاترينَ من الغاياتِ وانينــا

(١) في (كتاب الولاة) و (تاريخ دمشق) : وقد رأيتُ ، وفي (تاريخ حلب) : وقد تدلَّتْ جيوشُ ...

(٢) المراد ثنيَّة العُقاب وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق إلى حمص (معجم البلدان : ٢ / ٨٥) والبحتري يشير إلى المعركة التي جرت هناك سنة ٢٧٤ هـ بين خمارويه ومحمد بن ديوداذ بن أبي الساج المعروف بالأفشين ، بعد أن نكث عهده معه (ابن العديم : ١ / ٨٢ — ٨٣ ، وانظر ابن الأثير - طبعة مصر ١٣٥٣ هـ - : ٦ / ٦٣ في حوادث سنة ٢٧٥ هـ) وانتهت المعركة بهزيمة ابن أبي الساج وانتصار خمارويه .

(٣) في (تاريخ حلب) :

. . . ثنى بكرته ... خمسين ألفاً رجالاً أو يزيدونا

وفي (كتاب الولاة) و (تاريخ دمشق) :

. . . ثنى بكرته ... في النقعِ خمسين ألفاً أو يزيدونا

(٤) جمع (غاشٍ) جمع المذكر السالم ، وغَشِيَه : أتاه وقصده .

كما رأيتَ الثلاثاءات [١] واطئةً ... من التخلُّفِ أعقابَ الأثانِينا [٢]
عمّرك اللهُ للعلياء تعمُرُها ... وزادك اللهُ إعزازاً وتمكينا
ما انفكّتِ الرومُ من همٍّ يُحيّرُها ... مذ جاورتْ عندك العزّاء [٣] واللِّينا
تدنو إذا بعدوا عند اشتطاطهمُ [٤] ... كيداً وتبعُدُ إن كانوا قريبينا
حتى تركتَ لهم يوماً نسختَ به ... ما يأثُرُ الناسُ من أخبارِ صِفّينا [٥]
مصارعٌ كُتِبتْ في بطن لؤلؤةٍ [٦] ... من ظهرِ أنقِرَةَ [٧] القُصوى وطِمّينا [٨]

(١) جمع الثلاثاء ، والحق أن يقول الثلاثاوات ، لأن الثلاثاء عندهم - كما يقول المعري في عبث الوليد ص ٢٢٦ - مؤنث ، وحُكي في اللسان عن ثعلب : مضت الثلاثاء بما فيها ، فأنّث ، ولم يحك سيبويه حمراءات في جمع حمراء وقد حكاه الكسائي ، فيجوز على هذه الحكاية .

(٢) يقول المعري : حكاها بعض الناس في جمع الاثنين ، وحُكيت أيضاً (الأثاني) بغير نون (انظر عبث الوليد ص ٢٢٦) .

(٣) العزّاء : السنة الشديدة ، وقيل هي الشدّة (اللسان) .

(٤) اشتطاطهم : جورهم وبعدهم عن الحق .

(٥) موضع بقرب الرّقة على شاطئ الفرات ، وفيه جرت الوقعة بين علي ومعاوية سنة ٣٧ هـ ، وقتل فيها سبعون ألفاً ، ودامت المعركة مائة يوم وعشرة أيام وكانت الوقائع تسعين وقعة . (معجم البلدان ٣/٤١٤ وانظر الطبري حوادث سنتي ٣٦ و ٣٧ هـ) .

(٦) لؤلؤة : قلعة قرب طرسوس ، غزاها المأمون وفتحها (معجم البلدان ٥/٢٦) وفي سنة ٢٨٠ هـ دخل أحمد بن أبا طرسوس للغزاة من قبل خمارويه بن احمد بن طولون (ابن الأثير : ٦/٧٧) وفي سنة ٢٨١ هـ دخلها طغج بن جف لغزو الصائفة من قبل خمارويه فبلغ طرابزون (ابن الأثير : ٦/٧٨) .

(٧) أنقرة : مدينة في الثغور ، كان المعتصم قد فتحها وهو في طريقه إلى عمورية سنة ٢٢٣ هـ (معجم البلدان ١/٢٧٢ وانظر حوادث سنة ٢٢٣ في الطبري) .

(٨) طِمّين : موضع ببلاد الروم (معجم البلدان ٤/٤١) .

فأسلَمْ لِتَجْهَدَهُمْ غزواً وتغزيَهُمْ جيشاً[١] وتُتبِعَهُ الأمولَ هاروناً[٢]

أمّا الحسينُ[٣] فما آلاكَ مجتهداً وليس تألوه تفخيماً وتزيينا

ترضى به حين لا يُرضيك مُدْبِرُهُمْ مباركاً صادقَ الإقبالِ مَيْمُونا

أدّى الأَمانةَ في مالِ الشآمِ فما تلقاه إلّا أمينَ الغيبِ مأمونا

تسمو إلى الرتبةِ العُليا محاسنُه فما ترى وَسَطاً منها ولا دُونا

---

(١) يريد ابنه جيش بن خمارويه ، وقد ولي مكان أبيه بعد قتله عام ٢٨٢ هـ وعزله القواد بعد تسعة أشهر من ولايته (ابن العديم ١/٨٦ وابن الأثير ٦/٨٢) .

(٢) هارون بن خمارويه ، ولاّه الجندُ بعد عزلهم أخاه جيشاً سنة ٢٨٣ هـ ، وبقتله سنة ٢٩٢ انقرض ملك الطولونية (ابن الأثير ٦/١١٠) .

(٣) هو الحسين بن أحمد المادرائي المعروف بأبي زنبور من رجال دولة خمارويه ، يسميه البحتري وزيراً (مخطوطة باريس الورقة ١٧٨) والمؤرخون يسمون ابن أخيه : محمد بن علي بن أحمد المادرائي وزيراً لخمارويه (تاريخ بغداد ٣/٧٩) ، ويجمع الصابي بينهما ويذكر أنهما « دبرا أمور بني طولون في المال والرجال ، ولهما في الكتابة قدم وبالتدبير دربة » (انظر تاريخ الوزراء للصابي طبعة بيروت ص ٣٤٧ — ٣٤٨) ، والأشبه أن يكون الحسين وزيراً لخمارويه مكلفاً بتدبير أمور دولته المالية في الشام ، والبحتري يثني على أمانته في مال الشام وحرصه . وقد لعب الحسين دوراً في إعادة مصر إلى الحكم العباسي (تاريخ الوزراء للصابي ص : ٩٢) وأصبح عاملاً على مصر في خلافة المقتدر ، وأشير على المقتدر أن يستوزره لولا معارضة نصر الحاجب (المصدر السابق ٣١٥) .

ملاحظات ونظرات في القصيدة :

١ — هذه القصيدة واحدة من أربع ، مدح بها البحتري خمارويه بن أحمد ابن طولون ، وهي كلّها لا تزال إلى اليوم مخطوطةً ، إلاّ واحدة منهـا نجدها في طبعة القاهرة (ج ١ ص ١٢) ولم يلتفت الباحثون إليها لورود اسم خمارويه في التقديم لها مصحفاً إلى (حمادويه) ، ومن هنا ظلّت فترة اتصال البحتري بالطولونيين مجهولة لدى كل من يدرس الشاعر وفنه من ديوانه المطبوع ، ولا تصل يده إلى المخطوطات الكاملة للديوان .

٢ — نظمت هذه القصيدة بعد سنة ٢٧٩ هـ ، في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، ففي هذه السنة يرثي البحتري الموفق ويمدح المعتضد بعد أن بويع بالخلافة بقصيدة لا تزال مخطوطة (مخطوطة الديوان بباريس الورقة ٣٩٥ ظ — ٣٩٦ و) ويسأل الشاعر فيهـا أبا العباس المعتضد أن يقدّمه إلى خمارويه بكتاب توصية منه :

أموجبي أنت إيصاءً وتقدمةً يزكو بها سببي عند ابن طولونا

وكان النزاع بين العباسيين والطولونية قد انتهى باعتراف خمارويه بسلطة الخليفة المعتضد ، وتزويجه من ابنته قطر الندى ، وإرساله الهدايا العظيمة من مصر إليه (انظر الطبري وابن الأثير : حوادث سنة ٢٧٩ هـ) .

٣ — من حسن حظ البحتري أن خمارويه لم يبلغه هجاء الشاعر لأبيه أحمد ابن طولون ، قبل أكثر من عشر سنوات ، ذلك الهجاء المقذع ، إذ يتهمه بأنه ابن سفاح ، يُعزى لأبوين : طولون ويلبخ :

إذا ما طلبنا خُطّـةَ النّصفِ ردّها علينا ابنُ خُبثٍ فاحش وفسوقِ

وعاهرةٍ أدت إلى شرّ عاهرٍ مشابهِ كلب في الكلاب عريقِ

ليَلْبَخَ أو طولونَ يُعزى فقدحوت على اثنين : زوجٍ منهما وعشيق

(انظر الديوان — الجوائب : ٢ / ٧٩ وانظر النجوم الزاهرة لابن تغري بردي : ٣ / ٣) ولو عرف خمارويه موقف البحتري هذا من أبيه لما وجد الشاعر لديه عطاءً ولا إكراماً .

٤ — تُلاحظ في القصيدة أقسام ثلاثة متميّزة :

ا — النسيب : ويشغل الأبيات (١ — ١١) وعلى الرغم من أنه غزل تقليدي ففيه حرارة قلب متقّد لم تطفئ شعلته شيخوخة جاوزت السبعين !

ب — مدح خمارويه : ويشغل الأبيات (١٢ — ٣٥) وهو أهم أجزاء القصيدة ، وفيه يصف الشاعر إقباله على دمشق ، ينشد الغنى المضمون لدى بحر جواد يقرّب السائلين المجتدين ويحكّمهم في ماله ليأخذوا ما يشاؤون ، فهو يشتري الحمد بالعطاء ، وهو مظفّر ميمون الطلعة شجاع غيرُ هيّاب ، ينال من أعدائه مهما يمعدوا ، ويزيدهم إذلالاً وإضعافاً . ويمجّد الشاعر انتصار ممدوحه في معركة (ثنيّة العُقاب) فالملائكة كانت تؤيد جيشه وتشد أزره ، فيهزم ابن أبي الساج وخمسين ألفاً من رجاله أو يزيدون ، في حرب حامية تغلي مراجلها ويضرم جمرها . ويصف البحتري أمل الناس في ممدوحه وهيبة بعضهم له ؛ فهم بين راج وخائف ، والناس يتفاوتون بالهمم ، فمنهم السبّاقون إلى الغايات ومنهم المتخلّفون الذين يجيئون في الأعقاب ، كما تجيء أيام الثلاثاء في أعقاب أيام الاثنين . ثم يدعو الشاعر للممدوح بطول العمر والزيادة في الإعزاز والمجد والتمكين ، ويتحدث عن بطولاته في جهاده للروم عند ثغر اؤلؤة ، ويسأل له دوام السلامة ليُرسل ولديه جيشاً وهاروناً غازيين للروم ، يقودان كتائب الجهاد في الثغور .

ج — مدح وزير خمارويه الحسين بن أحمد : ويشغل بقية أبيات القصيدة (٣٦ — ٣٩) ويصف الشاعر هنا أمانة الوزير في حفظ أموال الشام ، واجتهادَه في إرضاء سيّده خمارويه .

٥ – انتقل البحتري من النسيب إلى المديح انتقالاً مفاجئاً ، ولم يحسن التخلّص ، وغالباً ما يفعل البحتري ذلك في قصائده ، وقد أهمل الشاعر في مديح خمارويه التعرض إلى رفعة النسب ، وقصر مديحه له على تمجيد كرمه وشجاعته ، ولعلّ الحديث عن النسب يصل بالشاعر إلى والد خمارويه ، أحمد ابن طولون ، وموقف البحتري منه موقفه كما ذكرنا منذ قليل ! وأما الجمع في المديح بين الأمير ووزيره فمن دأب البحتري أن يفعل ذلك في قصائد كثيرة من شعره ، ليملك قلب الوزير (في بعض أماديحه للمتوكل يمدح الفتح بن خاقان الديوان – الجوائب ١ / ٣ ، ويعرض لمدح الوزير أبي صالح ابن يزداد في مديحه للمستعين : ١ / ٧٥ ، ويمدح وصيفاً في مديحه للمعتز : ٢ / ٢٤٨ كما يمدح الوزير عبيد الله بن يحيى في مديحه للمعتمد : ١ / ١٠٦) ولا ضير من الإشارة إلى ما ينتظره البحتري من وراء تمجيده لوزير مالية خمارويه في الشام ، فهناك خراج أملاكه الواسعة في منبج ، وقد حرص الشاعر طوال حياته على دفع الوزراء والكتاب إلى إسقاط خراجه أو جانب منه !

٦ – هذه القصيدة لا تتأخر عن الطبقة الجيدة من شعر البحتري ، وهي خير دليل على أن شاعرية البحتري ظلّت الى آخر مراحل حياته تمتاز بالقوة والخصب ، ويكفينا عند تقويم هذه القصيدة أن نذكر أنها هي المنوال الذي نسج عليه بحتريّ الأندلس ابن زيدون قصيدته النونية في التشوق إلى ولادة بنت المستكفي (ديوان ابن زيدون – شرح كيلاني وخليفة : ٤ – ٨) :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

وأن نذكر أن الشعراء سيوالون معارضتها (ديوان ابن زيدون : ٤٠١) إلى نونية شوقي في العصر الحديث : (الشوقيات ٢ / ١٢٧ – ١٣٢) :

يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينا ... نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

(يتبع) الدكتور صالح الأشتر

كتاب النفس

لابن باجّة الأندلسي (*)

- ٥ -

وقد يكون امتزاج وقد لا يكون [١] ، فإن الاسطقس البارد قد يكون من القلة في القوة بحيث لا يحرك الآخر الحارّ فيحركه الحار أو يجعله مثله . فيكون هذا تكوّناً [٢] لا امتزاجا [٣] وقد يكون بحيث [٤] يحرك كل واحد منها صاحبَه غير انه لا يكون أبداً على نسبة واحدة فيحدث عن < ذلك > أنواع من الامتزاج . فلذلك متى كان الأمر جارياً على النظام احتيج ضرورة الى محرك من خارج ، وهو من التحريك هو تدبير فضرورة يحتاج الى مدبِّر .

وفي هذا الصنف فيدخل الامتزاج الصناعي وهذا النحو من الامتزاج إنما يصير به أبداً الممتزج وسطاً في القوة بين ما امتزج منه . لأن المازج المحرك

(*) تتمة الفصل الثالث : « القول في القوى الحسّاسة » المنشور في الجزء الرابع من المجلد الثالث والثلاثين (ص ٦٠٩ — ٦٣٢) من هذه المجلة .

(١) قارن ابن باجة ، ورقة ٨٢ ب : وكل فاعل ومنفعل وهيولاهما مشتركة فهما متضادان ضرورة فلذلك كل واحد منها يحرك صاحبه وهو يتحرك ، فالفعل والانفعال لا يكون حتى يماس ، وقد يكون اختلاط وقد لا يكون ، راجع أرسطو : De Gen. Cor, I. 6. 322 b 22; 10. 327 b 23 sq .

(٢) المخطوطة : تكوّن .

(٣) قد فرّق ابن باجة بين « التكون » و « الامتزاج » وقال : ورقة ٧٦ ب : « ان كل متكون فهو من اسطقس أو من أكثر من اسطقس ، فان الاسطقس الواحد انما يتكون عنه اسطقس غيره كالنار تتولد منه سائر الثلاثة كما قيل في كتاب الكون والفساد ، وأما من اثنين فقد يكون منهما اسطقس آخر كما قيل في كتاب الكون ، وذلك اذا فسد المجتمع بفساد قوة كل واحد منها أو فساد قوة أحدهما ، وأمّا اذا فسدت النهايات وبقيت القوى بالفعل لكن ليست خالصة بل حدث فيها قوة مركبة متوسطة وذلك ما داما مختلطين فعند ذلك يحدث عنهما موجود آخر وصورة أخرى ويمكن أن يحدث في هذه صور كثيرة بضروب من التركيب وضروب من الاستحالة تتبعها ضروب من التكونات .

(٤) المخطوطة : بحسب .

للممتزج على هذه الصفة إنما يوقف الممتزج في أحد المتوسطات ، وانمـا يصير الممتزج أشياء متوسطة مجانسة للاسطقسات .

فأما المازج اذا كان الذي يمزج به حرارة فانها ان كانت مجانسة لحرارة الاسطقسات فانه يكون عنه شيء شبيه بالطبخ فيعرض عنه الأجسام المعدنية (١) ، إذا اتفقت المادة ملايمة (٢) للشيء المنطبخ . وهذا النحو من الامتزاج يشبه الامتزاج الصناعي الذي يستعمل النار ، مثل الجزء الممتزج من الأرض والماء . في هذا الامتزاج يظهر أشياء ليست الاسطقسات كالتماسك والانطراق (٣) ، كما يعرض ذلك في الذهب ، وفي مثل هذا العرض الأرايبح والطعوم والألوان المختلفة ، وبالجملة ، فالأحوال الجسمانية وهي التي توجد شايعة في الجسم ، وتنقسم بانقسامه . وهذا يلزم ضرورة أن تكون متشابهة الأجزاء فإن الطبخ في هذه قد يكون . وهذا نوع من الامتزاج ليس كالأول . ولذلك لا يوجد عن الحركة المستديرة جسم معدني (٤) ، وبالجملة جسم متشابه الأجزاء إلا في مواضع مخصوصة بها فان <الأجسام> المعدنية لا توجد <إلا> عن المعدن . والمعدن هو مكان في جوف الأرض يتكون فيه جسم متشابه الأجزاء من بخار ودخان ينحصر فيه ليكاثف ذلك الجزء من الأرض فينضج بالحرارة الموجودة في ذلك الجزء بعينه (٥) . ولذلك لا يكون في المواضع الثلاثة المعدودة في كتاب الآثار العلوية جسم آلي أصلا .

فالأشياء الحادثة عن الامتزاج الموجودة بهذا (ورقة ١٥٢ الف) النحو من التعفن إنما توجد متباينة الاسطقسات (٦) . وكل هذه إمّا صورة طبيعية أو اعراض في أجسام طبيعية وتوجد في حدود المحرك القريب .

---

(١) قارن أرسطو : Arist : Meteo. III. 6. 378 a 18 sq. .

(٢) المخطوطة : الملايمة .

(٣) راجع النص ورقة ١٥٢ ب : كالانطراق والصبر على النار .

(٤) المخطوطة : معدى .

(٥) قارن أرسطو : Arist. : Meteo. : IV. 10. 388 a 13 sq. .

(٦) ارسطو : Arist. : Meteo. I. 379 b 5 .

أمّا المؤتلف من الاسطقسات الذي يكون المحرك فيه الأجرام السماوية ، وبالجملة فالمحرك فيما يتحرك بحركة المكان فيعرض عنه الالتقاء ، فالمحرك القريب والبعيد فيه واحدٌ وهو الجرم المستدير لما يحرّك بالطبع وبالذات . وأمّا في الموجود عن النضج فالمحرك القريب فيه هو الحرارة التي بها وقع النضج ، والبعيد هو الجرم المتحرك دورا . فلذلك يوجد في الموجود عن نضج المحرك القريب من الاسطقسات ، إمّا واحد منها ، وهو النار ، وإمّا مؤتلف من نار . وهذه كلها محسوسات ، إمّا أوَلٌ فكالألوان ، وإمّا ثوانٍ ، فكالأطوال والأشكال وصور الجواهر الطبيعية . وهذه كلها أشياء موجودة في المواد ، واذا وجدت في المواد صارت هي والمواد واحدة بالعدد متغايرة بالقوة على ما قلنا قبل[١] .

وليس لشيء من هذه أن تكون حسّاسة . والمادة الأولى هي كل واحدة من هذه بالقوة . وكل ما يصير مع المادة واحداً فهو لها إمّا أولاً وإمّا ثانياً وإمّا ثالثاً . والتي لها بالذات فتلك الصور هي جواهر ضرورة لأن سائر ما يوجد منها فانما هي تابعة لصور الجواهر ولذلك احتاجت عند الكون الى الاستحالة . فان المادة ليست شيئاً أصلاً بالفعل[٢] . والمتغير فهو ضرورة موجودة بالفعل شيئاً ما ، فلذلك كان بالضرورة عندما يتحرك موجوداً فيحتاج الى الصورة[٣] ويتغير في العرض وهو موجود بالصورة التي < هي > فيه . ويعرض عن ذلك التغير في الصورة كما يعرض في الحركة في المكان تبدل الأوضاع . فان الحركة لم تكن في الوضع لكن عرض عنها الوضع . ولو تحرك في الصورة لكانت المادة هي المتحركة بذاتها[٤] فكانت تكون شيئاً ما . وأمّا

(١) راجع النص ورقة ١٤٧ ب ، .... ويتغايران بالقـــوة ؛ ارسطو : Arist. ; Met.. 9 IX. 1050 a 15 .

(٢) فالمادة في كل جسم تضطر الى صورة لوجودها ، راجع النص ورقة ١٤٧ ب : فالمادة في كل جسم يحتاج الخ .

(٣) فان الصورة تتغير ضرورة بالعرض ، راجع النص ورقة ١٤٧ ب : ... الا انها غير بالضرورة ؛ ورقة ١٥٣ الف : فتتغير الصورة لذلك بالعرض .

(٤) فان المادة نفسها ذات الصورة أو موضوعها .

في الاستحالة فان المادة تتحرك بالعرض ٠

وكل ما يوجد في الأجسام الطبيعية اسطقساً كان أو معدنياً فكله هيولانية [١] متحدة بها كما قلنا ٠ وأمّا في النبات والحيوان فانها توجد فيهما [٢] الأحوال الهيولانية [٣] التي للاسطقسات كالأحوال [٤] الهيولانية التي هي من نضج ٠ وهذه الأحوال توجد [٥] المتشابه الأجزاء التي منها ٠ وتوجد لها أحوال أخر ليست للاسطقسات ولا من نضج بكون عن الاسطقسات ٠ وهي الخلقة وذلك بيّن في أكثر النباتات ، وهو في الحيوان أبين ، فوجودها أجزاء متشابهة عن وجودها آلات ٠

والمحرك للمادة هذا التحريك وهو الذي يفيد الخلقة جنس آخر من المحركات ٠ وهذا ظاهر بأيسر (ورقة ١٥٢ ب) التأمل ٠ وليس ذلك المحرك هو الحركة المستديرة وإن لم يحرك خلواً عنها كما بين في ثامنة السماع [٦] ٠ لكن انما يطلب المحرك المتحرك الذاتي الأخص وهو القريب ٠

---

(١) المخطوطة : هيولانة ٠
(٢) المخطوطة : فيها ٠
(٣) والأحوال الهيولانيـــة أشير اليهـــا في أقوال ارسطو في مواضع :
Meteo. IV. 2. 379 b 12 : « the conextion is due to heat; its species are ripening, boiling, broiling ... » ; Ibid, 25 : « In some cases of concoction the end of the process is the nature of the thing nature, that is, in the sense of the formal cause and essence ... » .

(٤) المخطوطة : لاحوال ٠
(٥) المخطوطة : توجب ، وبالهامش توجد ٠
(٦) ويظهر أن أرسطو لم يقل واضحاً في الثامنة من السماع ان المحرك لا يخلو عن الحركة المستديرة ، ولكنه أثبت حركة متصلة لا تنتهي ، وقال انها حركة مستديرة ، راجع Phys. : VIII, 8 ٠ وقد أشار ابن باجة الى هذه الحركة (المستديرة) المتصلة في شرحه للثامنة وقال : ورقة ٦٣ ب : والحركة التي يذكرها أرسطو في هذه المقالة الثامنة حين يقول : الا أن بعض هذه توجـــد في الحركة السماوية وهي الحركة بالعرض من غير ٠ قارن أرسطو : Arist., De Caelo. I. 2. 269 a 7 ٠

فهذا المحرك ليس هو الحرارة المنضجة ، ولكن الحرارة المنضجة هي آلته ، ولذلك تتبع هذه الأجسام الطعوم والأرايبح وسائر الأعراض اللاحقة عن النضج . وأما كيف تلحق عنها فقد تبين في الرابعة من الآثار العلوية (١) فهذه ضرورة تفيد الخالقة .

وما له مثل هذا المبدأ عندما يتحرك (٢) فالمحرك فيه يلزم ضرورة أن يكون عقلا . لكن هذا القول أليق بتكوّن ذوات الأنفس وقد تلخص في السابعة عشر من كتاب الحيوان (٣) .

وما له هذا المبدأ جنسان : جنس تقترن به آلته التي (٤) بها يحرك مثل الحيوان المتناسل . وهذا يكون بزرا ، فإن البزر هو جسم مكوّن لذي النفس . وبيّن ان حرارته فيه التي بها يفعل . ومنه صنف آلته التي بها يحرّك في غيره . وهذا يكون للحيوانات التي يقال لها أنها تتكون من تلقائها . والآلة التي لمثل هذا هي حرارة العفونة أو حرارة غيرها . وهذا يشبه الصناعة الفاعلة بوجه مّا ، إذ كانت آلات الصناعة خارجة عن الجسم الذي توجد له الصناعة . فلذلك يحرك بتحريك الاسطقسات ويمزج .

ولا يزال هذا الحار يحرك الأرض الممتزجة بالماء حتى اذا بلغت الجملة الى الحال التي بها تقبل تلك الصورة قبلتها عند ذلك . وظاهر أن عند بدء الحركة تبدأ قبول الصورة ، وان القبول والتحرك يتشاوقان . والنفس اذا كمل قبل صورة الممتزج فقبلها بالمزاج الذي له .

(١) قارن أرسطو : Arist : Meteo. IV. 2. 379 b 18 .

(٢) بالهامش : يتكون .

(٣) راجع أرسطو : Phys. VII. 3. 227 b 1 ; De An. I. 3. 407 a 33 . ايضاً ، De Gen. An. II. 3. 736 b 22 sq. ; 737 a 9 .

(٤) المخطوطة : والتي .

والصورة التي تقبلها الممتزجات إمّا ان لا تحرّك شيئًا بالذات بل تقبل وذلك مثل صور المعدنيات . وهذه أيضاً تتقدم في الهيولى ما يوجد فيها عنهـا مثل الأحوال التي تخص الذهب من جهة أنه ذهب كالانطراق والصبر على النار . ومنها ما يتحرك بها الجسم الذي هي فيه حركة تخصه كنفس النبات . فان المادة متى قبلت صورة المسدود حركت ذلك الجسم معا ، فها هنا ضرورة قوى هيولانية بعضها بعيدة كقوة الاسطقسات . وبعضها قريبة كقوة الممتزج ، وقوة هذه إنما توجد أبداً مقترنة بالصورة ، فهي أبداً موضوعة . ولذلك ليس لذي النفس مقابل ، إذ ليس لها عدم خاص . وإنما يوجد عدم تلك الصورة كأنك قلت « صورة النخلة » . منها < ما > يوجد فيه الهيولى البعيدة كما يقال في الماء « الأحرّ » .

فأمّا القوة القريبة فليست (١)توجد خلوّا من الصورة لأنها موضوع أبداً ولا تفارق أصلاً . ولذلك يشبه (ورقة ١٥٣ الف) أن تكون صور المعدنية في موادها إذ لم تكن لها أضداد ولا أعدام مقابلة كمقابلة العدم للملكة .

ففي أمثال هذه تكون صورة المزاج هي ماهيةِ ذلك الجسم كالذهب مثلا . فإن الممتزج هو مادة والوجود لها هو ذلك النوع من التماسك . وظاهر أن ذلك التماسك هو في هيولى قريبة وهي موجودة في الممتزج كالصورة للمزاج . ثم قبلت تلك الهيولى ذلك التماسك لكنه لما لم توجد الهيولى مفارقةً لتلك الصورة أصلاً كان أبداً المجموع منها كشيء واحد ، والهيولى إنما ظهر وجودها عند التغير . وكل هذه هي صور في الهيولى يصير بها المجتمع شيئًا واحدا ، لأن هذا هو معنى قبول الهيولى للصور الحادثة فيها(٢) فأما اذا كانت(٣) الصورة

---

(١) المخطوطة : فليس .

(٢) والا" فالمادة هي صورة محضة غير مدركة ، أو مادة لم تتصور بالفعل ، انظر زيلر : Zeller : Arist. II. p. 339

(٣) المخطوطة : كان .

قد غايرت وذلك إنما هو بأن تفارق نحوا من المفارقة فحينئذ تكون مغايرة للهيولى .

فإن كانت هذه المغايرة مما يحدث فيلزم ضرورة أن يكون عن تغير متقدم إمّا فيها وإمّا في موضوع آخر [١] على ما تبين في ثامنة السماع [٢] .

لكن الصورة لا يمكن أن تتغير إذ كل متغير منقسم [٣] ، وهي غير ذات أجزاء [٤] ، وليست بجسم . فلذلك [٥] بتغير شيء آخر . فتصير بذلك التغير من تلك الصورة على نسبة محدودة . فتتغير الصورة لذلك بالعرض [٦] ، ويكون تغيرها في الآن كما يعرض لما هو مضاف . فإن آبَ إن لم يكن ضعفاً لجَ دَ وكان أكبر ، فإن جَ دَ إذن إنما صار نصفا ، وصار آبَ ضعفاً من غير أن يتغير آبَ في نفسه ، بل يبقى على حاله التي كان <عليها> ، لكن يتغير من نسبة الى نسبة .

وكل تغير على ما تبين في الثامنة [٧] فهو إمّا في الكم وإمّا في الكيف أو في الأين أو يتابع [٨] لأحد هذه . لكن متى غايرت الصورة المادة فقد وجدت بالفعل تلك الصورة وهي ما هي منحازة بوجود يخصها [٩] ، وهي غير

---

(١) راجع النص ورقة ١٤٩ ب : ... أو كان لها موضوع – ....

(٢) قارن ابن باجة : ورقة ٦٤ الف : والتغير سيتبعه تغير إذ ينزل هذا التغير منزلة التغير المفروض . أيضاً ورقة ٥٧ الف : فيكون قبل كل تغير مفروض لغير يتقدم من ذلك النوع . وراجع أرسطو : Arist. : Phys. VIII, 2. 252 b 9 .

(٣) قال أرسطو : كل ما يتغير ينقسم . راجع : Arist. : Phys. VI. 4. 234 b 10 .

(٤) راجع النص ورقة ١٤٧ ب : لأنها غير منقسمة ....

(٥) المخطوطة : فكذلك .

(٦) أيضاً ، ورقة ١٤٩ الف : .... كان لها التغير بالعرض ؛ ورقة ١٥٢ الف : ويتغير في العرض .

(٧) أيضاً ، ورقة ١٤٣ الف : كما تبين ذلك في الثامنة الخ .

(٨) المخطوطة : مانع .

(٩) أيضاً ، آخر ورقة ١٤٦ الف : منحازة بنفسها الخ . ورقة ١٥٠ ب : وجود الصورة التي يخصها ..

ما كانت عند وجودها في المادة القابلة لها . فان كانت موجودة[١] لم تتكون لزم عن ذلك محال ، وهو أن تكون صورة المشار اليه قبل وجوده ، إمّا في الحسّ والتخيل وذلك غير ممكن ، وإمّا في العقل فقد يظن أن ذلك ممكن ، لكن سنبين هذا عندما نفحص عن القوة الناطقة .

فبينٌ أن الإحساس حادث . وكل حادث فهو بالقوة قبل أن يحدث . فكيف يمكن أن يكون الإحساس صورة مفارقة ويكون حادثةً ، لأن الحدوث إنما هو من قبل الهيولى ؟

فنقول : إن قولنا « هيولى » في القوة النفسانية وفي قوى الجسم باشتراك ، فإن الهيولى وجودها في الأجسام على أنها تتشكل بتلك الصورة ويصيران (ورقة ١٥٣) شيئاً واحداً يستفعل الفعل الذي في طباع ذلك الموجود ان يفعله كما تبين قبل هذا . وقولنا هنا « هيولى » إنما نعني به قبول المعنى وهو الذي يكون به الجسم الذي له مثل هذه القوة حسّاسا ، فإن القوة الهيولانية والقوة التي هي نفس ، كلاهما يقبلان اللون ، واللون في الهيولى هو صورة ، وهو والهيولى شيء واحد ، لا وجود لذلك اللون محضةً أصلاً . واللون في القوة الحساسة موجود بما يخصه . قد فارق هيولاه وصار شيئاً مشاراً اليه . ولذلك لم يمكن ان يقبل الهيولى المتضادين كالبياض والسواد المتغايرين فانهما[٢] لو قبلتها[٣] لكانا فيها متغايرين ، ولا تغاير بينهما أصلا ، وهما متغايران ذاتا[٤] ، فانهما صورتان في ذات أحدهما ، أو كلتاهما[٥] مغايرة إحداهما للأخرى ، فلذلك

(١) أيضاً ، ورقة ١٥٠ ب : فان وجدت الخ .
(٢) المخطوطة : فانها .
(٣) المخطوطة : قبلها .
(٤) المخطوطة : دائما .
(٥) المخطوطة : كلاهما .

لا يمكن وجودهما(١) الا على نحوين . أما في موضوعين ، فإن ذلك ممكن ، وأما أن كانا في موضوع واحد ففي وقتين من غير أن يجتمعا معاً في موضوع واحد . ولما كانا في القوة الحساسة موجودين مفارقين لم يمتنع وجودهما معا ؛ وانما يستحيل وجودهما في موضوع واحد معا ، وليس انما يوجدان معاً في الجنس ، وبالجملة ففي قوى النفس ، بل قد يوجد ذلك في الهيولى في الألوان فقط . فإن الهواء الواحد بعينه الكائن بين الأبيض والأسود معا ، وذلك ان صورهما ليست في الهواء على ما هي الصورة في المادة بل بنحو متوسط بين القبول الهيولاني وبين قبول القوة النفسانية .

ولما كانت القوى إنما تحد بنسب الموضوع الى الملكة وبذلك تتميز قوة قوة في ذاتها ، فالقوة الحساسة هي الاستعداد الذي في الحاسة ، الذي يصير معنى ذلك المدرَك . والفرق بين المعنى والصورة (٢) ان الصورة تصير مع الهيولى شيئاً واحدا ولا يكون هنالك مغايرة . ومعنى المدرك هو صورة منفردة عن المادة(٣) . فالمعنى هو الصورة المنفردة عن المادة . فقبول(٤) قوة(٥) النفس معنى يجب أن يكون قبولاً له وهو معنىً فالقابل هو معنى ما بالقوة . وكذلك

(١) المخطوطة : وجود ما .

(٢) وابن سينا ميَّز بين الصورة والمعنى فقال : (شفا ، ورقة ١٨٢ ب ١١) : وقد جردت المادة بأن يسمى مدرك الحس صورة ومدرك الوهم معنى .

(٣) وأوضح ابن سينا معنى الإدراك فقال (شفا ، ورقة ١٦٣ ب ٩) : « يشبه أن يكون كل إدراك هو أخذ صورة المدرك بنحو من الأنحاء ، فان كان الإدراك ادراكاً لشيء مادي فهو أخذ صورته مجردة عن المادة تجريداً ما ، إلا ان أصناف التجريد مختلفة ، ومراتبها متفاوتة ، فان الصورة المادية يعرض لها بسبب المادة احوال وأمور ليست هي لها بذاتها من جهة ما هي تلك الصورة ، فتارة يكون النزع عن المادة نزعاً مع تلك العلايق كلها أو بعضها ، وتارة يكون النزع نزعاً كاملا وذلك بأن يجرد المعنى عن المادة وعن اللواحق التي لها من جهة المادة » .

(٤) المخطوطة : فتناول .

(٥) المخطوطة : قوي ، وبالهامش ، قوة .

ليس إدراك النفس انفعالاً بوجه . وأمّا هل يكون بانفعال فسنبين بعد هذا . فالمنفعل قد يظن به أنه يقبل الصورة فقط ، وأن الحار بالقوة إذا صار حاراً بالفعل فلم يقبل معنى الكاين في المحرك ، والأشياء منه على ما قلناه قبل [١] . وإنما قبل حرّاً آخر فصار حاراً آخر شبيهاً بالأول ولا نسبة بين الحر الموجود في أحدهما الى الآخر بوجه . وانما النسبة التي بينهما هي أن صورتها إذا تجردت كانت واحدة بالعدد . والمغايرة التي بين صورتيهما الشخصية ـ إن جاز أن يقال لشخص الحر صورة ـ فإنه لا تغاير بينهما وبين (ورقة ١٥٤ الف) الهيولى عندما يكون شخصا ، وقد لخص هذا في غير هذا الموضع [٢] . ولذلك حر أحدهما ليس معنى «حرّ» أن يكون مع الهيولى فيكون شخص [الحرّ] بعينه في النفس .

ولما كان معنى الشيء هو الشيء وكان معنى الشيء هو ما وجوده بالفعل ، ولذلك اذا حصل عندنا معنى شخص مّا كان عندنا أن ذلك الشخص قد أدركناه بتلك القوى التي < هي > لنا .

وظاهر أن الإدراكات الحاصلة من الموجودات الهيولانية حادثة ، فانها إن لم تكن حادثة فهي أزلية . فإن كانت أزلية لزم من ذلك أن يكون ضرورة «زيد» قبل «زيد» ، وهذا الحار [٣] قبل هذا الحار . ولزم أيضاً أن تكون متحركة في المكان ، إلى غير ذلك من المحالات اللازمة .

---

(١) أي الأشياء من المحرك ، لعل ابن باجة يريد ما قال ان الصناعة من المحرك (راجع النص ورقة ١٣٩ الف ، منه أو هو الصناعة .) أو يريد ما قال : ان القوة المحركة . . . تفعل بالذات وأولا ما هو من نوعها ، وتفعل ثانياً وبالعرض شيئاً آخر (راجع النص ، ورقة ، والقوة المحركة فانها تفعل بالذات واولا الخ) والمعنى ان الأشياء من المحرك ، وإلا فلم يقل ابن باجة بهذه الألفاظ في هذا الكتاب .

(٢) الظاهر ان المصنف أشار الى ما قال ان المادة غير منحازة بالفعل عن الصور كما ان الصورة غير منحازة عن المادة بالفعل (النص ورقة ١٤٦ الف) .

(٣) المخطوطة : الحر .

وأيضاً فمن الأمور الذائعة ان الاحساسات حادثة وهو متيقن عندما نتأمل أيسر تأمل . وكل حادث فقد كان ممكناً وجوده قبل أن يوجد ، والإمكان والقوة على ما قلنا قبل [1] متلازمان . فهذه القوة هي في هيولى ضرورة ، وهذه الهيولى هي هيولى لمثل هذا الوجود . وقد جرت العادة أن تسمى روحانيا [2] [3] وغير جسماني وما أشبه هذه الألفاظ من الدلالة ولذلك لا تصير مع الادراك جسما ، لأن الجسم إنما يكون متى كانت الصورة غير مغايرة أصلاً ، وذلك أن تكون موجودة غير مجردة .

وقد يسأل سائل عن الإدراكات فيقول : هل هي في الهيولى التي لها مغايرة لها . فإن كان ذلك فالهيولى موجودة بالفعل وليست هيولى . وكيف يتصل ما ليس بجسم بما هو جسم الأ بأن تكون صورة فيه . وإن لم يكن مغايرة مّا والأمر فيها مثل وجودها في الهيولى لم تكن مجردة .

فنقول : أما ان الادراكات في موضوع فذلك بيّن . لأنه لو لم تكن في موضوع لما كانت كاينة . وامّا انها والموضوع شيء واحد فذلك أنها كذلك ، وبذلك صار الإدراك شخصاً . فإنها لو كانت غير الموضوع جملةً لكانت نوعاً أو عقلاً . وسنبين ذلك إذا صرنا إلى القول في القوة الناطقة ، لأن القول هنا هو في النفس وقواها .

وامّا ان الصورة يلزم عمّا وضع أن تكون غير موجودة مغايرة للهيولى

---

(١) راجع النص ، ورقة ١٤٣ الف : فلذلك تلازما الخ .

(٢) « الروحاني » عند المتفلسفين منسوب الى الروح ، ويدلّون به على الجواهر الساكنة المحركة لسواها ، وهذه ضرورة ليست أجساما ، بل هي صور لأجسام ، وشكل هذه اللفظة غير عربي وهي دخيلة في لسان العرب في الصنف الذي جاء على غير قياس عند نحويّ العرب ، فان المقيسة عندهم أن يقال روحي .... تدبير المتوحد ، نشر آسين ، ص ١٨ .

(٣) المخطوطة : روحاني .

فذلك غير لازم عما وضع . لكن يقتضي التشكيك أن يجري للوجود فيها[١] تغير وذلك ان الهيولى كما قلنا قبل انما هي موجودة بالنسبة الى ما هي هيولى له . والقوة على الإدراك هي قبول الصورة مخازة بوجود يخصها . فهيولى الإدراك مطبوعة على قبول معاني المدركات ، ومحركها المدرك من جهة ما هو مدرك . فإن هذه <الصور> الهيولانية بيّنٌ من أمرها أن لها في ذواتها وهي هيولانية هذه القوة ، وهذا التحريك هو لها من أجل وجودها الخاص . ولذلك توجد هذه في الفاعلة منها كالحرارة والبرودة (ورقة ١٥٤ ب) وفي المنفعلة كالصلابة واللين . وانّ ما يحرك الحركة المنسوبة الى الانفعال فانما يحركه أيضاً وهو في موضوع ويحرك هيولى أخرى من نوع الهيولى التي هي فيه . ونسبتها إلى ذلك المعنى نسبة الهيولى التي في ذلك المحرك الى الصورة بعينها في النوع . وهيولى الإدراك نسبتها الى الصورة نسبة أخرى تخصها ، فلذلك هي هيولى باشتراك الاسم . وهيولى المدركات يقال لها هيولى بالتقديم وإنما يقال لهـذه هيولى بالتأخير ، وعلى طريق النسبة بالمحسوس المحرك كالحار والبارد .

فله أوّلاً نوعان من التحريك لصنفين من الهيولى أحدهما[٢] للهيولى[٣] من نوع هيولاه ، والآخر لهذه الهيولى التي بها يكون محسوسا . وهذا التحريك هو لذي الجسم لا من حيث أنه ذلك الجسم . ولذلك[٤] إدراك الجسم الصغير والكبير واحد[٥] لا سيّما التخيل ، وسنبين لِمَ كان ذلك فيما بعد .

---

(١) المخطوطة : ممننا .
(٢) المخطوطة : احداهما .
(٣) المخطوطة : الهيولى .
(٤) المخطوطة : وكذلك .
(٥) وهذا ما سرده ابن رشد (كتاب النفس ، الأهواني ، ص ٧٤ وحيدراباد ، ص ٦٩) : وتخص الصورة الحسية انها منقسمة بانقسام الهيولى بالمعنى الذي به تنقسم الصور المزاجية ، ولذلك أمكن فيها ان تقبل المتضادين معاً . والصغير والكبير على حالة واحدة .

وإنما يتفاضل الإدراك من جهة أنه شديد أو ضعيف .

فقد قلنا ما القوة المدركة في الجملة . وهذه القوة هي نفس موجودة في الجسم المتنفس وهي [١] صورة مزاج المتنفس . والجسم الممتزج الذي له هذه القوة هو متنفس وحيّ .

ولما كان كلّ تكوّن فهو امّا تغير أو تابع لتغير على ما تبين في السماع [٢] وجب أن يكون الإدراك كذلك . ولما كان كل متغير فهو ينقسم [٣] ، وهذا ليس منقسم لزم ضرورة أن تكون هذه القوة مقترنة بجسم إمّا بنفسها أو بتوسط مقترن .

والادراكات النفسانية جنسان — حس وتخيل . ولا يمكن أن يتخيل ما لم يحسّ ولذلك [٤] لا يمكن أن يتخيل اللون ، فالحس يتقدم بالطبع التخيلَ لأنه كالمادة للتخيل . فالحس هو أول إدراك مقترن بالجسم فواجب ضرورة أن لا يكون حس دون تخيل ، إلاّ ان التغير ليس في المحسوس . والتغير صورة الحاس فالحاس ضرورة جسم صورته القوة الحاسة . فالحس بالجملة هو قوة لجسم ينفعل عن المحسوس يقترن بكماله كال القوة النفسانية التي <هي> فيه . ولذلك يلزم ضرورة أن يكون المحسوس مخيّلًا والحاس متخيلا [٥] . فلذلك الحر والبرد محسوسان بأنفسها [٦] وأوّلا . وأمّا الصلابة واللين والخشونة والملاسة فسنبين أمرها في القول على القوة اللمسية ، فهذا هو القول في الحس بالجملة .

---

(١) المخطوطة : هو .

(٢) وابن باجة بيّن معنى « تابع لتغير » بألفاظه في السماع ، ورقة ٢٩ ب : « ويكون للنسب تغير تابع لتغير فلذلك يكون في الآن وكذلك فسادها » .

(٣) قارن أرسطو : Arist. : Phys. VI. 4. 234 b 10 .

(٤) المخطوطة : وكذلك .

(٥) المخطوطة : مستحيلا .

(٦) المخطوطة : بأنفسها .

ولمّا[1] كان ليس كل قوة تحرك كل جسم ، وكانت الحركات كثيرة كانت الحواس كثيرة معادّة للحركات . ولما كان التحريك الذي به الحس إنما هو من أجل المعنى . والمعنى قوامه من أشياء كثيرة ، لذلك لزم ضرورة أن ترتسم (ورقه ١٥٥ الف) في الحس تلك المعاني غير منفصلة بعضها من بعض .

ولمّا كان ما به قوام الشيء إما مشتركة وامّا خاصة[2] . فالخاصة إنما تدرك بحاسة واحدة ، والمشتركة تدرك بالحواس التي يلحقها ذلك الأمر المشترك . فلذلك هو محسوس غير أوّل وهذا هو كالأطوال والأشكال .

ولمّا كان المعنى تلحقه أشياء أخر بالعرض لذلك لا ترتسم في الحاسة تلك الأشياء . هي محسوسة بالعرض كاللون فانه يقترن به أنه في الكاتب . فلذلك يقال ان الكاتب مبصر بالعرض . في هذه يغلط الحيوان الحاس[3] كثيراً . فأما وجود هذه القوة في الحيوان ، فقد قيل كيف ذلك في القول في تكوّن الحيوان وذلك في السادسة عشر من كتاب الحيوان[4] .

فهذا في الحس بالجملة .

والمحسوسات بالجملة كما قيل منها مشتركة ومنها خاصة . فالخاصة كما تبين ما انفعل عنها الحاسة . والعام[5] ما لم ينفعل عنه الحاسة . وإنما حصل بقوة عند حصول المعني . ولذلك قيل ان المحسوسات المشتركة انما يدركها الحس المشترك

---

(١) المخطوطة : وكما .

(٢) أيضاً : Arist. : De An. II. 7. 418 a 15 sq. : ابن رشد : كتاب النفس ص ٢٧ ، حيدراباد ص ٢٣ .

(٣) بالهامش : الحساس .

(٤) أيضاً : Arist. : De Gen. An. I. 23. 731 a 30 sq.

(٥) المخطوطة : العالم .

إذ لا تنفعل عنها الحاسة . إنما هي لتلك القوة < لا > لأنهـا هي مقترنة بالحاسة بل من أجل انها بالفعل . فان القوة اذا انفردت عن الحاسة كانت هي الحس المشترك . وانما تنفرد عن الحاسة اذا صارت شيئاً ما . وذلك بأن تدرك محسوساً ما . فالحاسة ضرورة الوجود في الحس على ما تبين قبل [1] . ولذلك لا يمكن أن تخلو [2] هذه القوة من المحسوسات جملةً . لأنها موجودة في الجسم . وانما المحال بأن توجد هذه مفارقة لا تقترن بجسم ، وهذا هو أحد المحالات التي لزمها التشكك المكتوب قبل هذا .

فلنقل في أصناف الحس .

(يتبع) محمد صغير حسن المعصومي

---

(١) راجع النص ورقة ١٥٠ الف : ووجوده محركاً ظاهر بنفسه والمتحرك هو الحاسة الخ .

(٢) المخطوطة : تخلوا .

التعريف والنقد

ديوان ابن الخياط

تحقيق الأستاذ الرئيس خليل مردم بك

طبعة المجمع العلمي العربي، بدمشق ١٩٥٨ في ٣٤٨ صفحة + ٤٩ صفحة للمقدمة ،
مع عشرة ألواح مصورة

سعى المجمع العلمي العربي بدمشق ، منذ نشأته ، إلى حماية اللغة العربية ، والعمل لإحياء آثارها ، فكتب أعضاؤه في مجلتهم مقالات ضافية في التبصير بها ، والتعريف ببلاغتها ، وتنقيح مفرداتها ، واختراع كلمات أو مشتقات لما يعرض على المجمع ، أصبحت كلها مرجع العلماء والدارسين . وعمل الأعضاء كذلك على نشر الذخائر العربية في ميادين الشعر والفلسفة والتاريخ والآثار نشراً يحمده العارفون ويشيدون بأيادي المجمع في السعي له على اخلاص ووفاء .

ولرئيس المجمع العلمي العربي الأستاذ خليل مردم بك يد طولى في إخراج التراث العربي وتحقيقه ودراسته . فقد ألف رسائل في أدباء العرب وشعرائهم وخص شعراء الشام بعنايته وحبه ، يريد أن يصور هذه الحلقة البارعة منذ القرن الرابع إلى سقوط الشعر في عصر الانحطاط ، و ن يسجل تطور الشعر في هذه البلاد ، وأن يصف أعلامه ، لأن الدراسات المعاصرة لتاريخ الأدب غلت أكثر هؤلاء الشعراء ، فلم ترمم أثرهم ولم تتحدث عن دواوينهم ، وكاد شبابنا يجهلون كل شيء عن هذه الحقبة من أدبنا ، وأصبح كثير منهم يتهم ثروتنا الفكرية والأدبية ، وينصرف عنها إلى غيرها من الآداب الغربية المنظمة المبوبة الميسرة .

وقد قام الأستاذ مردم بك بهذه المهمة ليسدّ هذه الثغرة ، في أناة وصبر ودقة ، فأجال النظر في الدواوين ، وأطال البحث في عرضها وضبطها ، والتقديم لها بدراسات دقيقة مفصلة ، فأخرج دواوين عليّ بن الجهم وابن حيّوس وابن الخياط وابن عنين ، وهو في سبيل إخراج ابن القيسراني . والدواوين الأربعة الأخيرة حلقة متكاملة تمثل شعر الشام من أواخر القرن الرابع الهجري إلى أواسط القرن السابع ، أي منذ (سنة ٣٩٤ هـ — إلى سنة ٦٣٠ هـ) خلال ما يزيد على قرنين .

وهؤلاء الشعراء أمسكوا بزمام الشعر في دمشق بعد الحمدانيين في حلب ، وأصبحت هذه الحاضرة العربية على وشك أن تعيد لهذه الربوع مجدها القديم في الأدب . فلمع ابن حيّوس (٣٩٤ — ٤٧٣) ، وابن الخياط (٤٥٠ — ٥١٧) وابن القيسراني (٤٧٨ — ٥٤٨) وابن عنين (٥٤٩ — ٦٣٠) كما لمع ابن منير الطرابلسي والغزي وابن الساعاتي . وحملوا الراية عن أساتيذهم وأسلموها إلى أبنائهم ، كما يفعل القادة في الحرب سعياً وراء النصر والرفعة والمجد .

والأدباء النقاد شكروا يد الأستاذ مردم بك في نشر ابن عنين وابن حيّوس ، ورأوا في جمعه المخطوطات من أطراف الأرض لها ، وصبره الطويل في تصيّد أخبارهما ، وجمع أشعارهما من المصادر المخطوطة والمطبوعة صبراً وسعياً يستحقان الحمد والثناء . وسيشكرون له هذه اليد الجديدة في إكمال هذه السلسلة ، والسير قدماً بانجازها في اخراجه ديوان ابن الخياط ، فقد أخذ ابن الخياط عن ابن حيّوس ، وخلفه في ميدان الشعر وسدّ مكانه ، وفاقه في نواح كثيرة . وكان عليه أن يعمل له كما عمل لأستاذه ، فصبر وسعى خلال سنوات عدة ، حتى إذا استكمل المدة ، استجلب نسخه المصوّرة من أطراف العالم ، فجمع النسخ من المغرب ومدريد وكوبنهاغ ودمشق

والمدينة المنورة والقاهرة حتى بلغت ثماني نسخ هامة ، نُقِل جلّها عن الشاعر نفسه على يد تلميذه ابن القيسراني . فقد أملى عليه شعره واختاره له ، وأسقط منه ما أراد ، فكأنه أشرف بنفسه على طبعه ونشره بين الناس لهذا العصر .

فديوان ابن الخياط بلغ مرحلة من النسب والرواية والتواتر لم تبلغها إلاّ القلة من الدواوين ، أملاه الشاعر ورواه التلميذ وحققه المحقق على ما تواتر ، فجاء على ثقة ودقة قلما يصل اليها كتاب أو ديوان إلاّ في الندرة بعد الندرة .

وهذا نصر كبير في إخراج النصوص وتحقيقها ، يطمئن إليه العلماء ، ويثق به الأدباء والرواة ، ويركن اليه الدارسون المؤرخون ، فكأنه كما يقول الغربيون « طبعة نهائية » عن وثائق ومخطوطات قيمة قديمة ترقى الى عهد الشاعر في القرن السادس ، لم يختلف إليها دس أو إضافة إلاّ ما كان من عمل النساخ والقراء ، وقد صوّر المحقق في حواشي الديوان هذا الاختلاف في أمانة بالغة ، ليرسم ما طرأ على النسخ من أمور طفيفة ، لا تكاد تؤثر في جوهر الشعر ، تقع للشاعر نفسه حين يستبدل حرفاً بحرف أو لفظاً بلفظ أو يستحسن تبديل كلمة بكلمة ، كما نفعل حين نؤلف أو ننظم .

فالديوان على هذا صورة لما تركه الشاعر وأراده ، بل انه صورة فوق ما كان يحلم بها الشاعر من طباعة جميلة ، وترقيم واضح ، وفهرسة قريبة ، كأنه لشاعر معاصر في العرض والاخراج ، أضاف اليه المحقق مقدمة في العصر والرجل جهد فيها ما استطاع ، فوقف دون كثير من أمور حياته وعيشه لأنه بلغ إلى الديوان فحسب ، ولم يبلغ إلى ترجمة له بقلم تلميذه أو تعليق عليه أو شرح له وتفسير ، كما فعل ابن جني للمتنبي ، وابن خالويه لأبي فراس الحمداني ؛ بل إنه لم يصل إلى مكتوبات ابن الخياط في النثر فقد ضاعت .

والشعر في الديوان لا ينير كل شيء ولا يعين على المطالب كلها ، والمترجمون بعده لم يفيضوا في أمر حياته ، لأنهم كانوا يسمون الى الإيجاز فيترجمون للأعلام في سطور ، وهمهم أن يجمعوا عدداً كبيراً من التراجم . ومن همنا اليوم أن نسأل عن كل شيء ممن نترجم لهم ونعنى بهم ؛ وكل يسعى الى سبيله ويمضي إلى غايته . لهذا جهد الأستاذ المحقق جهداً كبيراً ، فاستنتج من الشعر ، واستنطق المصادر إلى حدّ بعيد ليخرج من ذلك بدراسة جميلة كانت كأحسن ما يستطيع محقق أن يفعل .

قصّ حياة ابن الخياط منذ الصّبا حتى الوفاة . عرفنا منها أن ابن الخياط عاش صغيراً في باب الجابية بدمشق ، وكانت داره على مقربة من دار الأمير أبي الفتيان ابن حيوس . وكان عليه أن يتعلم صنعة أبيه ، فيكون خياطاً مثله . ولكن الأقدار لفتت الغلام إلى حياة ابن حيوس ، ودفعتــه إلى أن يعجب بموقعه من السلطان والجاه والمال ، وأن يتمنى في قرارة نفسه أن يكون مثله وأن يقع من قومه موقعه ، فأصبح الفتى يقرأ من شعر القدماء ويحفظ من أقوالهم وأخبارهم حتى انقلب عن صنعة أبيه إلى صنعة كانت تدر على أصحابها الألقاب والأموال والمناصب . وظل كذلك حتى أتقن صناعة الكتابة والنظم ، وأصبح معنياً بهما يسعى إلى وظيفة عند الأمراء . فلما قامت الفتن في دمشق ، ووقعت فيها الحرائق والنهب وغلبت المجاعة هجر كثير من أهليها المدينة ، وانتشروا في الأرض ، فأصبح عدد السكان بدمشق سنة ٤٦٩ ثلاثة آلاف نسمة ، بعد أن كانوا خمسمائة ألف . وهاجر الشعراء والكتاب فيمن هاجر ، فنزح ابن حيوس إلى أمراء حلب ، ونزل ابن الخياط بحماة فعمل كاتباً لأمير فيهــا وظل عاكفاً على الشعر يقرضه ويسيّره بين الناس . ثم خطر له أن يزور جاره القديم ابن حيوس في حلب ،

فسافر اليه وعرض عليه شعره ، فأعجب به ، ووصله بمال ، ونصحه أن يقصد بني عمار في طرابلس الشام .

فلما بلغ السادسة والعشرين من سنيه ، سافر إلى طرابلس عملاً بوصية جاره وأستاذه ، ولبث فيها عشر سنوات ، يفيد من خزائنها العامرة وأساتيذها وعلمائها ، حتى تمكن لسانه وقوي بيانه واشتدّ ساعده ، فعاد إلى دمشق ولزم وزيرها الأصفهاني ، وصحبه إلى الريّ وخراسان ، وقفل راجعاً سنة ٤٨٧ وهو في السابعة والثلاثين . وظل في إنشاد الشعر وملازمة الرؤساء والأمراء يعيش بقلمه وشعره حتى مرض ، وقضى في السابعة والستين من عمره ، بدمشق ٥١٧ هـ . ودفن في الأرض التي أحبها وتعلّق بها ، وظل مشوقاً اليها في رحلاته ، وقد طارت شهرته وعلت مكانته ، وحلّ من قومه محلّ الفحول ، فكان شاعر الشام لعصره كما تمنى وأراد .

ولعلنا أسرفنا ولكننا أردنا أن نرسم هذه الخطوط الكبرى عن المقدمة في حياة شاعر تنقل في البلاد ، فزار حماة وصور وحلب وطرابلس والريّ وخراسان . وعرف الناس وطبائعهم ، وسمع اللهجات واللغات ، ورأى ما رأى وسمع ما سمع ، فخلف مكتوبات في النثر وقصائد في الشعر ، قلنا إن الأولى ضاعت وسلمت الثانية ، فكانت من أجود الشعر ، تملك صاحبها ناصية الديباجة ، واستوى مع الفحول ، فحاكاهم في استعاراته وكناياته ، وبذ كثيراً منهم برقته وسلاسته حتى قال فيه ابن عساكر : « ختم بابن الخياط ديوان الشعر بدمشق » . وقد استطاع على اضطراب بلده وقلق عيشه ورقة حاله وتنقله في الأمصار وراء العيش أن يكون شاعراً مطبوعاً ، فصيحاً ، جزلاً من غير إغراب ، عليه طلاوة المحسنين وحلاوة المجيدين ، فله بين الشعراء مرتبة ، تعيد إلى دمشق صولجان الشعر ، وتنافس مدرسة الحمدانيين في حلب ، يدل على ذلك قوله :

والمرء من شنّ في الأيام غارته فبادر العيش باللذات وانتهبا
من شاء [1] فليتخذ أيامه فرصاً فليس يوم بمردود إذا ذهبا
هل الصبي غير محبوب ظفرت به لم أقض من حبه قبل النوى أربا
إني لأحسد من طاح الغرام به وجاذبته حبال الشوق فانجذبا
والعجز أن أترك الأوطار مقبلةً حتى إذا أدبرت حاولتُها طلبا

فهي ألصق بالجيل من الشعر المعاصر في سلاستها . وله في الديوان كثير من المرقص المطرب لا يحصيه مقال في النقد مهما طال .

هذا هو الشاعر ، وهذا هو الشعر الذي نهض له الأستاذ خليل مردم بك فجود في تحقيقه وإخراجه ، وجوّد في مقدمته ودراسته ، وأفاض حين وقف له ينقد لغته ، ويتناول هناته في الاشتقاق والاستعمال حتى حسبنا أن الدراسة لعالم لغوي في القرن الرابع الهجري وقف ينكر على رصيفه المعاصر ألفاظاً ترد عن العرب في المعاني التي استعملها ، ويأخذ عليه تجوزه في النحو واللغة والبيان ، فيعدّد أمثلة من شعره فيها كلمات : « هناء ، وخراد ، والأخمص ، والأقمص ، والنضاج ، والركاز ، الخ ... » وصحيحها : « هناءة ، وخرائد ، وخميص ، وقمص ، والنضج ، والركز » . وليس هذا كلّ ما أخذ عليه ، وانما ساق أمثلة كثيرة نحيل القارئ فيها إلى المقدمة الممتعة ، ليرى معنا أيّ جهد ساق المحقق ، وأيّ عناء قاسى ، وأي سهر نهض له في الدراسة الجدّيّة التي نراها أقوى ما خرج من قلم الأستاذ خليل مردم بك في صدور دواوينه .

ولو جمعت هذه الدراسة في ابن الخياط إلى دراساته في ابن حيوس

(١) اختار المحقق : « ما شاء » ؛ فخالف سبع نسخ ، ولعلنا نطرب لهذه الصيغة التقليدية أكثر من طربنا لما وضع وفضل .

وابن عنين وغيرهما ، وطبعت جميعها في كتاب مستقل لكانت تأريخاً للأدب العربي في دمشق خلال تلك الحقبة ؛ ترسم للأدباء والعلماء والمؤرخين سبيل البحث ، وتسد ثغرة كبيرة في أدبنا العربي . فاذا جمعت الى قريناتها مما قد يصنع زملاؤه بالعراق ومصر لشعرائهم كانت كتاباً ضخماً في تاريخ أدبنا ، تظهره على حقيقته ، وتنير جوانبه الخفية ، وتمكن لآدابنا بين آداب الأمم ؛ فقد وقفنا أنفسنا على دراسة عدد محدود من أدبائنا الفحول حتى ظن الناس أنهم وحدهم أدباؤنا وأن عصورنا الأخرى عقمت عن قول الشعر . والغرب لا يقف عند شكسبير وغوته وهوغو ؛ وانما يتعداهم إلى غيرهم ليصور العصور الأدبية كلها . وأظن أننا شرعنا نفعل لدراساتنا كما فعل الغربيون لدراساتهم ، فانطلق جيلهم إلى الجديد كما ينطلق جيلنا إلى الجديد ، لأن البناء الشامخ يقوم على القواعد والأسس ، والشجر السامق يعتمد على انتشار جذوره في الأرض ، وذلك يعين الدراسة الأدبية في جامعاتنا ، حين يتم دور النشوء وتبلغ إلى دور الارتقاء والعمل الخصب الصحيح .

الدكتور سامي الدهان

الثقافة الإسلامية في الهند

«عوارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف»

تأليف : السيد عبد الحي الحسني «١٢٨٦ - ١٣٤١ ﻫ»

(من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٣٧٧ ﻫ - ١٩٥٨ م)

هذا الكتاب النفيس غزير المادة ، واضح البيان ، ألفه العلامة الكبير السيد عبد الحي الحسني ، والد صديقنا الأستاذ أبي الحسن السيد محمد علي الحسني الندوي الشهير ، وطبعه مجمعنا العلمي العربي له ، ووقف على طبعه السيد رضوان الندوي ، من تلامذة الأستاذ أبي الحسن ، وفي طليعة الكتاب ترجمة

لمؤلفه كتبها ابنه الأستاذ أبو الحسن ، وأوضح فيها حسبه ونسبه ، وأساتذته ، وعلومه ، ومصنفاته الكثيرة ، وجاءت بعدها مقدمة المؤلف التي أوجز فيها مجمل هذا الكتاب ، وقد كان ألف قبله كتابين في موضوعه : (الأول) في ثماني مجلدات ، ذكر فيه حملة الأخبار ، ونقلة السير والآثار ، والفقهاء والحكماء ، وذوي النحل والآراء من أهل الإسلام ، ممن ولد أو مات في أرض الهند (قبل التقسيم) ، (والثاني) في الجغرافية والتاريخ ، والخطط والآثار . وهذا الكتاب الذي عني المجمع بطبعه يقع في (٣٥٠) صفحة ، ولكنه - على اختصاره - بحر لا ينطي ثبجه ، ولا تحصى فوائده وفرائده ؛ فقد ذكر فيه أنواع العلوم والفنون ، والمعارف البشرية ، وذكر ما لعلماء الهند في كل منها من مصنفات من بعد أن سرد ما لغيرهم فيها ، وأودع مؤلفه هذا تاريخ نظام الدرس في الهند جيلاً بعد جيل ، وتاريخ الفنون الأدبية ، فتاريخ العلوم الشرعية الدينية ، ثم تاريخ الفنون النظرية كالمنطق ، وعلمي الطبيعيات والإلهيات ، والحكمة العملية ، والفنون الرياضية ، وفي الصناعة الطبية على اختلاف العصور ، إلى القرن الرابع عشر ، مع ذكر المصنفين ، وما عرف من تاريخ وفياتهم ، وكانت خاتمة هذا الكتاب الجليل في أسماء بعض الكتب العلمية المنقولة .

جمع المصنف رحمه الله كتابه هذا في أربعة أبواب ، الأول منها في علوم اللغة والأدب والتاريخ ، والثاني في العلوم الشرعية والدينية ، والثالث في العلوم العقلية والفنون النظرية ، والرابع في الشعر والشعراء من أهل الهند . وداخل كل باب فصول كثيرة ، وهو يخص كل فصل منها بعلم من تلك العلوم ، ويسمي الكتب المؤلفة فيه قديماً وحديثاً ، ويذكر مصنفات علماء الهند المسلمين (سنة وشيعة) وغير المسلمين ، وما ألف أو ترجم في اللغات العربية والفارسية والأوردو والإنكليزية ، وكثير من علمائهم يؤلفون بالانكليزية أو ينقلون عنها ، وينقلون عن الفرنسية أيضاً .

وكتابه هذا يفضل في ترتيبه مثل (كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون) ، فإن مؤلف (الكشف) رحمه الله قد رتب علومه على حروف الهجاء ، بحيث تذكر الألف مع الباء ، ثم مع التاء الخ ... ، فاضطر أن يذكر فصولاً يفرّق فيها ما حقّه أن يكون مجتمعاً . فقد ذكر في أول علوم القرآن مثلاً (ص ١٢٠) علم إعجاز القرآن وإعرابه ، ثم أورد علوماً كثيرة في حرف الألف مع الغين والفاء والقاف والكاف واللام ، كعلم الآلات الحربية والرصدية ، ثم عاد فذكر في حرف التاء علم التجويد (ص ٢٥٥) وفي التاء مع الشين علم تشبيه القرآن واستعاراته ، (ص ٢٨٦) وبينها فنون مختلفة .

مما يلاحظ ـ في عرض نماذج من الشعر الهندي في مختلف العصور ـ أبيات فيها من سؤال المخلوق ، ما لا يقدر عليه إلا الخالق سبحانه ، وما يحرم طلبه من غيره .

ويلاحظ في « تراجم القرآن الكريم » أنها كثيرة بالأوردو ، وقليلة بالانكليزية ، « ومنها ما هو ترجمة حرفية » ص ١٦٩ .

وأقول : إن المعقول أن تبلغ دعوة الإسلام إلى كل أمة بلغتها ، وتدرس الخاصة القرآن والعلوم الدينية ، والفنون العربية والأدبية بلغة القرآن ، ليتذوقوا إيجازه وإعجازه ، أما الترجمة الحرفية ، فهي متعذرة في كثير من كلماته ، لا سيما أسماء الله تعالى وصفاته ، وكنت كتبت في مجلة المجمع العلمي : لأن العربية انتشرت ـ تبعاً للإسلام ـ في قارات الأرض الثلاث : آسية وإفريقية وأوربة ، ودخلت أمم كثيرة في العروبة والإسلام ، فهل كانت تلاوة القرآن ودراسته بلغته إلا هدى ورحمة ، وإحساناً وتوفيقاً ، « تآخت فيه شعوب كثيرة ، وتعاونت على مدنية كانت زينة الأرض ، وضياء ونوراً لأهلها » . ومؤلفات الأعاجم في لغة العرب تبلغ الألوف الكثيرة ، وحسبك ما أورده المؤلف منها في كل علم وفن .

وقد رأينا في لاهور عام المؤتمر (سنة ١٩٥٧) وفي العاصمتين كراتشي ودلهي من علماء الهند الأجلاء من يلتزمون العربية الفصحى قولاً وكتابة وخطابة ، وهي لغتهم في بيوتهم ومجتمعهم .

ثم نقل المؤلف فصلاً في تاريخ التصوف ونشأته عن مقدمة ابن خلدون ، وآخر في تاريخ الفِرَق الإسلامية ، كالإمامية ، والجهمية ، والمعتزلة ، والمجسّمة ، والقرامطة ، وفي المأمون ، وفتنة المعتزلة ، وأبي الحسن الأشعري ومذهبه وأئمته ، والماتريدي ، وكل ذلك مأخوذ من كتاب « الخطط والآثار » للمقريزي ، ثم مذهب الشيعة الإمامية ، وكيف ظهر وانتشر في الهند في القرن الثامن ، على يد الشيخ علي الحيدري ، وكيف تشيّع الملوك والأمراء ، وأكره عدداً من غير المسلمين على التشيّع ، حتى قيل إن (٢٤) ألفاً من الهنادك تشيّعوا ، ثم تسلسل ذلك في الدعاة والسلاطين والرعايا ، وتشيّع نظام شاه (٩٤٤ هـ) على يد الشيخ طاهر بن الرضي الهمداني ، ولقنه الوَلاء والبَراء ، وتشيع معه ثلاثة آلاف نفس من رجاله ، وأخرج أسماء الخلفاء الثلاثة من الخطبة ، ووظف اللاعنين عليهم في جميع بلاد الدكن (ص : ٢١٧ — ٢١٨) . ثم تفرق الإمامية في بلاد الهند ، وجمع دعاتهم الناس على الصلوات الخمس ، ورضي ولاتهم في ذلك (في ١٣ رجب سنة ١٢٠٠ هـ) وكان آصف الدولة وأخلافه يبذلون العطايا وأقطاع الأرض على المتشيّعين ، فتشيع كثير من الناس طوعاً وكرهاً ، وكانت فتنة عظيمة ، ثم صنف الشيخ عبد العزيز بن ولي الله المحدّث الدهلوي كتابه المشهور (تحفة اثنا عشرية) ، وصنف الشيعة في الرد عليه عدة كتب ، وتصدّى أئمة السنة لها ، وألفوا كتباً كثيرة في الرد عليها ، وفي « الثقافة الإسلامية » أسماء هذه النقود والردود . ثم الكلام بين النصارى والإسلام ، وبين الإسلام والهنادك ، وديانة القادياني والردود عليها ، ومذهب

النيچريين (الطبيعيين) ، والمراد بهم أتباع أحمد بن محمد الدهلوي المتوفى (سنة ١٣١٥ هـ) ، والردود على تأويلاته العجيبة الغريبة ، ورسائل في السنة والبدعة ، والتوحيد والشرك .

ثم علم المَناظر (ص ٢٧٢) الذي قال فيه المؤلف رحمه الله : (ومن يريد أن يقف على صنائع أهل الهند ، فله أن يذهب إلى اگر ، ودهلي ، ويقرأ الكتابات في الجوامع والمقابر ، وأن يرى القباب والمنارات ، لا سيما في روضة (تاج كنج) (ضريح التاج محل) ببلدة اگره ، لعله يتحير منها ، ويطير عقله ولبه من حسن الصنعة » . وأقول :

قد زرنا تلك الأماكن ، ورأينا ما يأخذ بالألباب ، وأعجبنا بها كل الإعجاب .

وهذه النبذة اليسيرة لا تغني عن مراجعة هذا الكتاب ، الذي أثبت فيه مؤلفه فضلاً كبيراً لأهل الهند في كل علم ، لا سيما في علم الصحة والطب ، والكتب في أنواع الأمراض وعلاجها ، والاكتشافات الطبية لأهل الإسلام ، مَن وقف على هذا وغيره - بعد وقوفه على مثل الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون ، وما زاده المتأخرون كصديق حسن خان (والمؤلف ينقل عنها وعن غيرها) - ير إلى منتصف القرن الرابع عشر للهجرة علوماً وكتباً واسعة ، وفصولاً مهمة بارعة ، وما ذكرته قليل من كثير ، ولا يغني عن مطالعة هذا السفر الجليل ، فرحم الله المؤلف ، وأثابه عليه أجزل الثواب ، وجزى مجمعنا العلمي الذي قام بطبعه خير الجزاء .

ديوان السيد موسى الطالقاني ١٢٣٠ ـ ١٢٩٨ هـ

تحقيق واعتناء : محمد حسن آل طالقاني

مطبعة الغري الحديثة ـ النجف

الشعر مادة الأدب ، وديوان العرب ، فهو مرآة أخبارهم ، ومجلى آثارهم ، ومحط رحالهم ، وقد قال قائلهم :

إن لم تقل إن نظم الشعر مكرمة فأي مكرمة أبقيت للعرب
بان الكرام فلا عين ولا أثر إلا أساطير قد سطّرن في الكتب

وأمامنا الآن ديوان الشاعر الناثر العلامة السيد موسى الطالقاني النجفي ، وديوانه هذا كبير الحجم ، مؤلف من (٤٣٤) صفحة بالقطع المتوسط ، ما عدا الفهارس المنوعة ، وقد بلغت نحو أربعين صفحة ، منها تسع للمقدمة ، وها هي ذي : فهرس المواضيع ، والقوافي ، والأعلام ، والقبائل ، والأسر ، والبيوت ، والبلدان ، والأمكنة والبقاع . ومثلها فهارس الديوان ؛ وفي أوله تقريظ للعلامة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، فكلمة إهداء من محققه وناشره الأستاذ الأديب السيد محمد حسن الطالقاني النجفي إلى أستاذه العلامة المؤرخ الجليل الشيخ آغا بزرك الطهراني ، وقد زيّن كلمته بصورة شيخه ، ثم أتبعها بنشر صورته ، ووصفها ببيتين من شعره .

وفي صدر الديوان وصف لأسرة الطالقاني ، وكلمات موجزة في تراجم أجداد ناشر الديوان منذ هاجر جدهم الأعلى من طالقان (بلدة في إيران) إلى النجف (من سنة ٩٣٥ إلى عصرنا ١٣٧٦ هـ) ، وفيه نبذة من ترجمة السيد محمد حسن الطالقاني ، وهذه التراجم بقلم شيخه العلاّمة الطهراني ، وتلي ذلك حياة الشاعر الكبير السيد موسى بقلم المحقق السيد محمد حسن ، مهّد لها بكلمة في الشعر

والأدب في البقاع والبلدان ، وخص أدب العراق بما فيه من طيب الأرض ، وحسن المنبت ، ونوه بفضل النجف في ذلك على غيره ، ثم أتى على ترجمة صاحب الديوان ، فذكر نسبه وأسرته ، ونشأته ، وأساتذته ، ومكانته العلمية ، ومنزلته الاجتماعية ، وأخلاقه وصفاته ، وشاعريته القوية ، وآثاره ، وأولاده وأحفاده ، وأقوال العلماء والأدباء فيه ، وختمها بوصف النسخ التي قوبل بها الديوان ، وظروف نشره .

قسم ناشر الديوان هذه المجموعة الكبرى التي اشتملت على نحو ستة آلاف بيت ، والتي عانى في جمعها السيد الحسن ما عانى ، قسمها ووزعها على المدائح والمراثي ، والوجدانيات ، والتهاني ، والموشحات ، والحماسيات ، والتخميس والتشطير ، والمراسلات ، والإخوانيات ، وختمها بالمتفرقات ، وفي هذه الأبواب كلها إبداع وإمتاع ، وشعر يفيض رقة وشعورا ، ونخراً وحماسة ، وشمماً واباءا ، وعزة وعلاءا ، وعلاوة على كون مؤلفه من فحول رجال القريض ، فهو من شيوخ العلم الأجلاء .

وقد ازدان الديوان بما ذيله به ناشره من تعليقاته المفيدة ، وآرائه السديدة ، واستدراكاته العديدة ، وقد جاء بحمد الله كما قال : «كتاب تاريخ كما هو ديوان أدب ، حوى كثيراً من التراجم والسير ، والأمثال والحكم ، والشواهد والفوائد ، ومثل هذا اللون هو المطلوب لدى رجال البحث والتحقيق ، ومؤرخي الأدب» . وقد استفدنا من فوائد هذه التعليقات أضعاف ما استفدنا من الأصل ، لا سيا تاريخ الأسر العلمية في النجف ، وكثير من أعلامها ، وقد ذكر المراجع الخطية والمطبوعة منها ، وأشار إلى أجزائها ورقم صفحاتها ، وألمع إلى من سبق المؤلف إلى بعض المعاني البديعة في شعره ، وأورد الشواهد على ذلك من كتب الشعر والأدب والتراجم .

وقد ذكر الأستاذ الناشر طائفة من أقوال العلماء ، وآراء المؤلفين والأدباء في صاحب الديوان وشعره ، وفضله وعلمه ، وأقول : لا شك في أن شعره يشف عن سلامة ذوقه ، وسموّ روحه ، وكرم عاطفته ، ونزاهة قصده ، وعفته وزهده بما في أيدي الناس ، فقد كان رحمه الله واسع الحال ، موفور الحظ ، غنياً عما في أيدي الناس بما أسبغ المولى عليه من نعمه ، فقد كان مالكاً له نخيل وضياع ، تغدق عليه من خيراتها ما يكفل له أطيب عيشة ، كما ذكر في ترجمته : « ولذلك نجد معظم شعره الغزل الذي كان يؤنس به نفسه ، ويفرح قلبه ، ويبث أشواقه ، ولم يكن ليفكر بالنظم في غيره ، وقد خلق شاعراً بطبعه ، لأنه يكره مدح الناس »[1] .

وتجد الجواب بعد هذا في المقدمة عن مدحه لقريب أو صديق ، أو ذي شان وسلطان ، قال :

شهد المجد أنني لست ممن باع درّ الأشعار بالأثمان
لا ولم أهده لغير حبيب ذي وداد في السرّ والإعلان
أو لريم يرمي القلوب بطرف ناعس يوقظ الهوى يقظان
بات رهن الحسان قلبي وياضيـ ـعة قلب يبيت رهن الحسان

وقد استغرقت قصائده الغزلية التي سميت بـ « الوجدانيات » مائة وأربعين صفحة من ديوانه ، وحسبي أن أورد شواهد منها تدل على سائرها ، قال (ص ١٠٠) :

أسرتني ذات السوار ولا مَنْـ ن لديها ولم أجد من فداء
عقد زنارها يحل قوى الصبر (م) ويوهي ـ إي والهوى ـ أعضائي

وقال (ص ١٠٥) :

لقد أصبحت ذا كلف طروبا وكم منيت نفسي أن أتوبا

---

(١) ص ٥٧ من المقدمة .

ولاح الشيب وهو وقار غيري وطفل الشوق لا يرعى المشيبا
فدع عنك التنسك واسقنيها لعلي أن أحسّ لها دبيبا
عقاراً مثل خدّ الحب لونا أرى بين الضلوع لها لهيبا
لئن سبت العقول فكم أزلنا بها عنا الوساوس والكروبا

وقال (ص ١٠٧) :

كفته عن الحراس ليلاً ذوائبه وأغنته عن حمل السلاح حواجبه
نبي إلى العشاق أرسل هاديا إلى الحب يدعو والقلوب تجاوبه
فسفك الدما والتيه ، والصدّ والجفا ونقض عهود العاشقين مذاهبه
ألا فاسقني من سلسبيل رضابه فياربما يُطفى من القلب لاهبه

وكنت أرجو ألا أجد في ديوان هذا الشاعر المبدع ما ينأى عن شعره القومي ، وقصده السوي ، وكان له في أبواب الديوان ما يغنيه عن وصف بنت الحان والألحان ، وعن الغواني الخرّد الحسان ، وسائر ما يغري بوصفه المستعدين من الشبان ، ولكنها سنة كثير من شعراء العلماء ، فهم ينهون عن احتساء الصهباء في كتبهم الدينية ، وينأون عنها ، وتراهم يغرون بها في قصائدهم ومقطوعاتهم الشعرية ، وكان لهم من مشاهد الكون ومن آياته تعالى في الآفاق وفي الأنفس ، ما يدعو الناشئين إلى الجد في العمل ، ويغني مقلدي شعر الجاهلية عن وصف الطلل ، والوقوف « بسقط اللوى بين الدخول فحومل » .

ويلاحظ في أمر المديح والاطراء ما هو أدخل في الإغراء ، وأخطر في باب الدعاء ، بدعاء من لا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وطلب ما لا يطلب إلا من الغني القوي القادر ، القائل : « ادعُوني استجب لكم » « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ، فليستجيبوا لي ، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » . وهذه الأبيات المفردة تدل على قصائدها ، وعلى ما هو في معناها مما استُشهد به من شعر غيره . قال مخاطباً أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام :

أنت الوجود وفيك قد وُجد الورى ولأنت منظر ربنا والمسمع

(ص ٩)

كُرَبٌ أَلَمَّتْ بالفؤاد وعندها صدري يضيق

ولأنتَ ياغوث الصريخ بكشفها عني حقيق

(ص ١٠)

وقال مستغيثاً بالمهدي المنتظر :

رام الزمان هواني واستصغر الدهر شاني

فقلت مهلاً سأشكو إلى إمام زماني

(ص ١٣)

وقال مخاطباً الإمام موسى بن جعفر (ع • م) :

تَمَنَّتْ منك أن تُقضى ديوني وأرجو أن تبلّغها مناها

(ص ١٣)

لا تخف هول نكير في غد أو منكر لا، ولا تخش عذاب الله يوم المحشر

(ص ٦٢)

هو عين الله فينا والصراط المستقيم وهو للجنة والنيران ـ في الحشر ـ قسيم

(ص ٦٣)

لم يكن آدم لولاه ونوح في الوجود لا، ولم تؤمر له الأملاك يوماً بالسجود

(ص ٦٣)

لم يكن لولا عليٌّ مَلِك أو ملَك لم تكن لولاه تسري فلكها والفَلك

(ص ٦٣)

وصي المصطفى حقّاً قسيم النار والجنه

(ص ٣٤١) أحد بيتين عزاهما للشافعي .

والجواب عن هذه الأبيات الشعرية وما ماثلها في قوله تعالى خطاباً لخاتم رسله وأفضل خلقه : « قل إني لا أملك لكم ضَرًّا ولا رَشَدا ، قل إني لن يجيرني

من الله أحد ، ولن أجد من دونه ملتحدا » وقال سبحانه « أم مَن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » . وقال : « وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون » وقال : « الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » فأين تقع هذه الدعاوي الشعرية من هذه الآيات الكريمة القطعية الثبوت والدلالة على معانيها وأين هذا الاغترار بقسمة الجنة والنار ، من قوله تعالى « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإنْ كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » . وما حقّ أهل العلم والإيمان أن يجاروا العامة في مثل هذه الأمور . وإخواننا الشيعة يدرسون تاريخ الإسلام ، وسيرة الصحابة لا سيما أئمة آل البيت عليهم السلام ، وهم يعلمون أنّ الصحابة تناظروا بعد وفاة النبي (ﷺ) في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجَمَل وصِفّين ، والنهروان والحَرّة ، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا بسيّد الخلق ، في هذه الشدائد ، ولا استفتوه في شيء منها بعد وفاته ، كما كانوا يفعلون في حياته ، وكلّ هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحسّ والوجدان بالبداهة ، فيجب ردّ ما يتجدد من الوقائع والحوادث الى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الأول . وجدير بالعلماء العاملين في كل مكان ، أن يتخذوا شذرات من سير الأئمة ملائمة لروح المجتمعين ، مغذية لعقولهم ، باعثة على حسن الاستماع والاتباع .

جاء في سيرة السلطان أحمد شاه (ص ٣ — ٧ من الديوان) أنه هو الذي ذهّب المنارات والقباب ، على ضرائح الأئمة ، ونَهَب أموال الأمة ، وأوغل في الفسق والفجور ، وكان الوالي من قبل الدولة العثمانية آنذاك مدحت باشا وهو خير مَن ولي العراق من آل عثمان (ص ٣٣٩) وسجل له التاريخ كثيراً من الآثار . (قال) : ويؤخذ عليه اهتمامه الكثير وعزمه الشديد على الاستيلاء على خزانة الإمام علي عليه السلام وبيعها ، واستعمال المال في مشاريعه ، وقد

أخفق ولله الحمد اه . أقول : ليت الإمام عليًّا كان حيًّا لمّا أهديت إليه هذه الخزانة ، إذاً لرأيته أزهد الزهّاد بما فيها ، وأسرعهم في إنفاقها على مستحقيها ، فما هو ممن يكنزون الذهب والفضة .

وفي رحلتنا إلى العراق في وفد علمي (في ١٨ / ٤ / ١٣٧٨ = ١ / ١١ / ١٩٥٨) أسعدنا التوفيق بزيارة أئمة آل البيت عليهم السلام ، وشاهدنا المنارات والقباب والأضرحة في كربلاء والكوفة والحلة والنجف ، وكلها مطلية بالفضة الخالصة ، ومغشّاة بالذهب وفيها النفائس . ومن حولها الفقراء والضعفاء يذكروننا بقول حافظ ابراهيم رحمه الله :

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألفٍ ترزق الأموات
مَن لي بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات ؟

اعتذر الناشر الكريم عما وقع في الديوان من أغلاط مطبعية وإملائية وفي ضبط بعض حركات الإعراب ، — على بذله في تصحيحه جهداً مضنياً يلمسه الأدباء وأهل الفن كما قال . والحق انا لمسنا الأمرين معاً : الخطأ الكثير في الأنواع الثلاثة الأولى ، والإجادة في تصحيح كلمات الديوان نثراً وشعراً ونرجو أن يصحّح الخطأ كلّه في طبعة ثانية إن شاء الله تعالى .

أضيف إلى جدول الخطأ والصواب ما يأتي :

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٩ م	١٥	توجدا	توجدان
٥٠	٢٢	القبَس	المُقتبس
٥٢	٤	كان . . فيض نفسي	فيضاً نفسيًّا
٢٠ في الحاشية ٢		أو يوم ذي مسغبة	« أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ » الآية

وفي الختام نشكر الأديب الكبير الأستاذ السيد محمد حسن آل الطالقاني على تحقيقه لهذا الديوان ، وعنايته بنشره .

محمد بهجة البيطار

آراء وأنباء

أعضاء المجمع العلمي العربي في سنة ١٣٧٨ هـ — ١٩٥٩ م

الأعضاء العاملون

١ — الرئيس : الأستاذ خليل مردم بك

٢ الدكتور اسعد الحكيم
٣ الأمير جعفر الحسني (أمين السر العام)
٤ الدكتور جميل صليبا
٥ 〃 حسني سبح
٦ 〃 حكمة هاشم
٧ 〃 سامي الدهان
٨ الاستاذ شفيق جبري
٩ 〃 عارف النكدي
١٠ الاستاذ عز الدين التنوخي
١١ 〃 فارس الخوري
١٢ الشيخ محمد بهجة البيطار
١٣ الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي
١٤ 〃 محمد كامل عياد
١٥ 〃 مرشد خاطر
١٦ الأمير مصطفى الشهابي (نائب الرئيس)
١٧ الدكتور منير العجلاني

الأعضاء المراسلون

(الجمهورية العربية المتحدة)
الاقليم الشمالي

١ الدكتور عبد الرحمن الكيالي
٢ الاستاذ عمر ابوريشة
٣ 〃 محمد سليمان الأحمد
٤ الدكتور قسطنطين زريق

(ج.ع.م. الاقليم الجنوبي)

٥ الاستاذ احمد حسن الزيات
٦ الدكتور احمد زكي
٧ الاستاذ احمد لطفي السيد
٨ 〃 خليل ثابت
٩ الدكتور طه حسين
١٠ الاستاذ عباس محمود العقاد

(ج.ع.م. الاقليم الجنوبي)

١١ الدكتور عبد الوهاب عزام
١٢ الدكتور منصور فهمي
١٣ الأمير يوسف كمال
١٤ الاستاذ أنيس المقدسي — لبنان
١٥ 〃 بشارة الخوري — 〃
١٦ الشيخ سليمان ظاهر — 〃
١٧ الدكتور صبحي المحمصاني — 〃
١٨ 〃 عمر فروخ — 〃
١٩ الأستاذ مارون عبود — 〃
٢٠ الأب أ.س. مرمرجي الدومنكي — فلسطين

٢١ الاستاذ قدري حافظ طوقان فلسطين
٢٢ « محمد الشريبقي «
٢٣ « احمد حامد الصراف العراق
٢٤ الدكتور داود الچلبي «
٢٥ الاستاذ ساطع الحصري «
٢٦ « طه الهاشمي «
٢٧ « عباس العزاوي «
٢٨ الشيخ كاظم الدجيلي «
٢٩ الاستاذ كوركيس عواد «
٣٠ الشيخ محمد بهجة الاثري «
٣١ الاستاذ محمد رضا الشبيبي «
٣٢ الدكتور مصطفى جواد «
٣٣ الاستاذ منير القاضي «
٣٤ الشيخ محمد نور الحسن السودان
٣٥ الأستاذ حمد الجاسر المملكة العربية السعودية
٣٦ « خير الدين الزركلي «
٣٧ « علي الفقيه حسن ليبية
٣٨ « حسن حسني عبد الوهاب تونس
٣٩ « محمد الطاهر بن عاشور «
٤٠ « محمد البشير الابراهيمي الجزائر
٤١ « عبد الحي الكتاني مراكش
٤٢ « عبد الله كنون «
٤٣ « علال الفاسي «
٤٤ « احمد آتش تركية
٤٥ الدكتور علي أصغر حكمت ايران
٤٦ الاستاذ آصف علي أصغر فيضي الهند
٤٧ « أبو الحسن علي الحسني الندوي «
٤٨ « عبد العزيز الميمني پاكستان
٤٩ « يوسف البنوري «
٥٠ الدكتور بلاشير (رجيس) فرنسة
٥١ « كولان (جورج) «
٥٢ « لاوست (هنري) «
٥٣ « ماسه (هنري) «
٥٤ « ماسينيون (لويس) «
٥٥ « أربري (أ ٠ ج ٠) بريطانية
٥٦ « جيب (هـ ٠ ا ٠ ر ٠) «
٥٧ « غليوم (الفرد) «
٥٨ « ريتر (هلموت) المانية
٥٩ « هارتمان (ريشارد) «
٦٠ « ديدرنغ (س ٠) السويد
٦١ الدكتور ضودج (بيارد) الولايات المتحدة
٦٢ الاستاذ فيليب حتي «
٦٣ « غومز (اميليو غارسيا) اسبانية
٦٤ الدكتور اشتولز (كارل) النمسة
٦٥ الاستاذ موجيك (هانز) «
٦٦ « ماهلر (ادوارد) المجر
٦٧ « جبرايلي (فرنشيسكو) ايطالية
٦٨ الدكتور شخت (يوسف) هولاندة
٦٩ الاستاذ بدرسن (جون) الدانيمرك
٧٠ « كرسيكو (يوحنا اهتنن) فنلاندة
٧١ « رشيد سليم الخوري البرازيل

أعضاء المجمع العلمي العربي الراحلون

(ج.ع.م. الاقليم الشمالي)

١ الشيخ طاهر الجزائري
٢ 〃 سليم البخاري
٣ 〃 مسعود الكواكبي
٤ الاستاذ الياس قدسي
٥ 〃 أنيس سلوم
٦ 〃 جميل العظم
٧ 〃 سليم عنحوري
٨ 〃 عبد الله رعد
٩ 〃 رشيد بقدونس
١٠ 〃 اديب التقي
١١ الشيخ عبد القادر المبارك
١٢ الاستاذ معروف الأرناءوط
١٣ السيد محسن الأمين
١٤ الاستاذ الرئيس محمد كرد علي
١٥ 〃 محمد البزم
١٦ 〃 سليم الجندي
١٧ الشيخ عبد القادر المغربي
١٨ الأب جرجس شلحت
١٩ 〃 جرجس منش
٢٠ الاستاذ قسطاكي الحمصي
٢١ الشيخ كامل الغزي
٢٢ الاستاذ ميخائيل الصقال

(ج.ع.م. الاقليم الشمالي)

٢٣ الشيخ بدر الدين النعساني
٢٤ 〃 راغب الطباخ
٢٥ 〃 عبد الحميد الجابري
٢٦ 〃 عبد الحميد الكيالي
٢٧ 〃 محمد زين العابدين
٢٨ الدكتور صالح قنباز
٢٩ الشيخ سليمان الأحمد
٣٠ الاستاذ ادوار مرقص
٣١ الشيخ سعيد العرفي
٣٢ البطريرك ماراغناطيوس افرام

(ج.ع.م. الاقليم الجنوبي)

٣٣ الاستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي
٣٤ 〃 رفيق العظم
٣٥ 〃 احمد كمال
٣٦ 〃 احمد تيمور
٣٧ 〃 احمد زكي باشا
٣٨ الدكتور يعقوب صروف
٣٩ السيد محمد رشيد رضا
٤٠ الاستاذ حافظ ابراهيم
٤١ 〃 احمد شوقي
٤٢ الشيخ احمد الاسكندري
٤٣ الاستاذ اسعد خليل داغر
٤٤ 〃 داود بركات

(ج.ع م. الاقليم الجنوبي)

٤٥ الدكتور امين المعلوف
٤٦ الاستاذ مصطفى صادق الرافعي
٤٧ الشيخ عبد العزيز البشري
٤٨ الدكتور احمد عيسى
٤٩ الأمير عمر طوسون
٥٠ الشيخ مصطفى عبد الرازق
٥١ الاستاذ انطون الجميل
٥٢ 〃 خليل مطران
٥٣ 〃 ابراهيم عبد القادر المازني
٥٤ 〃 محمد لطفي جمعة
٥٥ الدكتور احمد امين
٥٦ الاستاذ عبد الحميد العبادي
٥٧ الشيخ محمد الخضر حسين
٥٨ الاستاذ حسن بيهم لبنان
٥٩ الأب لويس شيخو 〃
٦٠ الشيخ عبد الله البستاني 〃
٦١ الاستاذ جبر ضومط 〃
٦٢ 〃 عبد الباسط فتح الله 〃
٦٣ الشيخ عبد الرحمن سلام 〃
٦٤ 〃 مصطفى الغلاييني 〃
٦٥ الاستاذ عمر الفاخوري 〃
٦٦ 〃 بولص الخولي 〃
٦٧ 〃 امين الريحاني 〃
٦٨ الامير شكيب ارسلان 〃

٦٩ الشيخ ابراهيم المنذر لبنان
٧٠ الاستاذ جرجي يني 〃
٧١ الشيخ احمد رضا 〃
٧٢ الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف 〃
٧٣ 〃 فيليب طرازي 〃
٧٤ الشيخ فؤاد الخطيب 〃
٧٥ الدكتور نقولا فياض 〃
٧٦ الشيخ سعيد الكرمي فلسطين
٧٧ الاستاذ نخلة زريق 〃
٧٨ الشيخ خليل الخالدي 〃
٧٩ الاستاذ عبد الله مخلص 〃
٨٠ 〃 محمد اسعاف النشاشيبي 〃
٨١ 〃 عادل زعيتر 〃
٨٢ 〃 محمود شكري الآلوسي العراق
٨٣ 〃 جميل صدقي الزهاوي 〃
٨٤ 〃 معروف الرصافي 〃
٨٥ 〃 طه الراوي 〃
٨٦ الاب انستاس ماري الكرملي 〃
٨٧ الشيخ محمد بن ابي شنب الجزائر
٨٨ الاستاذ محمد الحجوي مراكش
٨٩ 〃 زكي مغامز تركية
٩٠ الشيخ ابو عبد الله الزنجاني ايران
٩١ الاستاذ عباس إقبال 〃
٩٢ الحكيم محمد أجمل خان الهند
٩٣ الاستاذ فران (جبرئيل) فرنسة

٩٤	الاستاذ هوار (كليمان)	فرنسة
٩٥	〃 بوفا (لوسيان)	〃
٩٦	〃 مالنجو	〃
٩٧	〃 كي (أ٠)	〃
٩٨	〃 باسه (رينه)	〃
٩٩	〃 ميشو بللير	〃
١٠٠	〃 مارسيه (وليم)	〃
١٠١	〃 دوسو (رينه)	〃
١٠٢	〃 مرجليوث (د٠س٠)	بريطانية
١٠٣	〃 بفن	〃
١٠٤	〃 براون (ادوارد)	〃
١٠٥	〃 كرينكو (فريتز)	〃
١٠٦	〃 هومل	المانية
١٠٧	〃 ساخاو (ادوارد)	〃
١٠٨	〃 هوروفيتز (يوسف)	〃
١٠٩	〃 هارتمان (مارتين)	〃
١١٠	〃 ميتفوخ (اوجين)	〃
١١١	〃 بروكلن (كارل)	〃
١١٢	» غولد صيهر (اغناطيوس)	المجر
١١٣	» ماكدونالد (د.ب.)	الولايات المتحدة
١١٤	الاستاذ هرزفلد (ارنست)	الولايات المتحدة
١١٥	〃 سارطون (جورج)	〃
١١٦	〃 كراتشكوفسكي (أ)	الاتحاد السوفياتي
١١٧	〃 برتلز (ايفيكين)	〃
١١٨	الاستاذ آسين بلاسيوس (ميكل)	اسبانية
١١٩	〃 لوبس (دافيد)	البرتغال
١٢٠	〃 جويدي (اغنازيو)	ايطالية
١٢١	〃 نالينو (كارلو)	〃
١٢٢	〃 غبريئيلي (اوجينيو)	〃
١٢٣	〃 مونته (ادوارد)	سويسرة
١٢٤	〃 هس (ج٠ ج٠)	〃
١٢٥	〃 كوفالسكي (ت٠)	بولونية
١٢٦	〃 موزل (الوا)	تشكوسلوفاكية
١٢٧	〃 هورغرنيه (سنوك)	هولاندة
١٢٨	〃 اراندوك (ك٠)	〃
١٢٩	〃 هوتسما (م٠ ت٠)	〃
١٣٠	〃 بوهل (ف٠م٠ب٠)	الدانيمارك
١٣١	〃 استروب (ج٠)	〃
١٣٢	〃 سترستين (ك٠ف٠)	السويد
١٣٣	〃 سعيد ابوجمرة	البرازيل

انتخاب عضو جديد

انتخب المجمع العلمي العربي في جلسته المنعقدة في يوم ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩٥٨ برئاسة الأستاذ الرئيس السيد خليل مردم بك الدكتور محمد كامل عياد عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي مكان المرحوم الرئيس محمد كردعلي .

وقد صدر عن رياسة الجمهورية قرار بتاريخ ١٩ صفر سنة ١٣٧٨ و ٣ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٥٨ رقمه ١٥٤١ لسنة ١٩٥٨ يقر هذا الانتخاب .

سيدي الزميل [1]

يطيب لي أن أستقبلك اليوم في مجمعنا لا للتعريف بك ، بل لأقول لك ما أمسكته عنك وطويته زماناً طويلاً على قرب الدار، وكثرة الاتصال بيني وبينك . وما حداني على التصدّي لاستقبالك إلا ما أتمثله من تشوقك الى معرفة ما يقال فيك . فماذا أقول ، وأنت تعلم أنّ ما أشعر به من الميل اليك ، على قربك ونأيك ، لشعور يجعلني كثير الارتباك ، في وصف شمائلك ومزاياك ، هذا مع ما أجده في نفسي من انعقاد اللسان ، وجمود الخاطر ، وذهاب البيان . ولكني سأحاول أن أفيَ لك بما لم أفِ به حتى الآن ، على أن يكون لك الفضل عليّ فيما سمحتَ لي به من حرية القول، على النحو الذي مررتَ عليه في كلامك على مؤرخ الشام ، أستاذنا ورئيسنا المرحوم محمد كرد علي . لقد كان رحمه الله أجلّ الناس في زمانه ، وأكرمهم في وقته ، وأعلمهم بتراثنا العربي القديم ، فإذا كان المجمع قد دعاك اليوم الى المكان الذي خلا بوفاته ، فهو إنما يدعو مؤرخاً فيلسوفاً الى احتلال كرسيّ كاتبٍ كبير ، وعالمٍ مؤرخ .

كان مولدك ، يا سيدي ، فيما أخبرتني عن نفسك في مدينة طرابلس الغرب ، وكان والدك الشيخ (علي عياد) أول من مال من أسرتكم الى العلم ، فأتعب نفسه في تحصيله حتى بلغ منه مناه . أما والدتك فكانت من بني المسعودي ، وهم بيت مشهور من أهل طرابلس الغرب ، أدباء وفقهاء ، يتوارثون الفضل كابراً عن كابر ، وتالياً عن غابر ، وقد سمّاك أبوك (كاملاً) على اسم صديقه (كامل الأسعد) تيمّناً بما يُشير اليه هذا الاسم من تقدم وارتقاء . ولعلّ ذلك أن يكون من أسباب إطلاقه اسم (الترقي) على الجريدة التي أصدرها وقتئذ

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور جميل صليبا في جلسة استقبال العضو العامل الجديد الدكتور محمد كامل عياد في ٢٠ كانون الأول سنة ١٩٥٨ .

الدعوة الى ما كان يرغب فيه من تقدمٍ واصلاح ، على النحو الذي سار عليه رجال الدولة العثمانية في الآستانة بعد إعلان الدستور . فلما أغار الايطاليون على طرابلس الغرب اضطرّ والدك الى الهرب الى (استنبول) على ظهر باخرة ألمانية ، فعينته الدولة العثمانية حاكماً على (مرجعيون) ، ثم رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية في (حلب) ، ولم يزل يتقلب في مناصب القضاء بعد جلاء الأتراك عن سورية حتى أصبح عضواً في محكمة التمييز في دمشق .

إن هذه الاشارة السريعة الى حياة والدك تكفي لإبراز ما تعاقب على نشأتك من أحداث ، وما طرأ على حياتك في زمن حداثتك من تغيُّر ، فقد تلقيت علومك الابتدائية في مدارس طرابلس الغرب ، ثم رحلت مع والدك الى (استنبول) ، فانتسبت الى المدرسة الرشدية في مدينة (بورصة) ، ثم إلى المدرسة السلطانية في مدينة (حلب) ، ورأى والدك بعد ذلك أن يرسلك الى المدرسة الصلاحية التي أنشأها الأتراك في مدينة (القدس) لإعداد الدعاة ، فانتسبتَ اليها وتوّجت رأسك بالعمامة خلال أربعة أشهر ، ثم جلوت عن القدس مع من جلا عنها في أواخر الحرب العالمية الأولى ، وعدت الى المدرسة السلطانية في حلب لإتمام دراستك الثانوية ، فلما حزت شهادتها تذكرت الباخرة الألمانية التي نقلتك مع والدك الى استنبول ، فرحلت الى المانيا ، ودخلت جامعة برلين ، فما من علمٍ اجتماعي أو فلسفي إلاّ وقد أخذت منه هناك بأوفر نصيب ، وحصلت منه على أعلى ذروة .

سألتك مرةً عن العلم الذي كنت تميل اليه في المدرسة الثانوية فقلت لي : العلم الرياضي ، فلم أجد سبباً لتحوُّلك عن هذا العلم الى الفلسفة إلاّ ما يجده بعض علماء النفس من علاقة بين الاستعداد للرياضيات ، والاستعداد للفلسفة . وربما كان من نقائض حياتك أن تهوى بعد ذلك دراسة التاريخ ، لأن موضوع التاريخ الحوادث الجزئية ، وموضوع الفلسفة الحقائق الكلية . وكم من فيلسوف

أنكر دراسة التاريخ لاعتقاده أنّ العلوم التي تستند الى الذاكرة لا تبلغ من الضبط العلميّ ما تبلغه علوم العقل . ولكنك يا سيدي لم تقنع من دراسة التاريخ بوصف الواقعات وذكر الأعداد ، والجيوش والمعارك ، بل تعمّقت في بواطن الأمور ، وبحثت عن العوامل الطبيعية والنفسية والاقتصادية المؤثرة في التطور ، شأنك في ذلك شأن فلاسفة التاريخ الذين يبحثون عن القوانين الكلية المحيطة بالحوادث الجزئية .

ويسرُّني أن أقول لك الآن إنّ كتاب فلسفة ابن خلدون الذي ألفته بالألمانية ، قد تضمن الكثير من فلسفة التاريخ التي أخذت بها فيما بعد . فقد ذكرت في هذا الكتاب أنّ ابن خلدون أراد أن يربط علم التاريخ بعلم الاجتماع ، فحدّد موضوع هذا العلم ، وطريقة بحثه ، وبيّن أنّ الحوادث التاريخية والاجتماعية خاضعة لمبدأ السببية ، ثم تصدّيتَ بعد ذلك لبحث فلسفة ابن خلدون في التاريخ والاجتماع والتطور ، فأشرت الى العوامل المؤثرة في التاريخ ، والى أسس الحياة الاجتماعية ، فذكرت منها الميل الغريزي الى الاجتماع ، والميل الى التقليد ، وختمتَ بحثك هذا بالكلام على المنظمات الاجتماعية كالأسرة والقبيلة والدولة وغيرها . ولعلك أردت من بحث فلسفة ابن خلدون الاجتماعية أن ترضي من حاجات نفسك حاجتين ، وأن تحقق بذلك غايتين : الأولى هي ميلك الى تعليل الواقعات التاريخية بالعوامل المؤثرة فيها ، والثانية هي اعتزازك بقوميتك ورغبتك في تعريف قراء الألمانية بأساطين الفكر العربي . وقد تمّ لك هذا فكان كتابك في الألمانية عمدة المستشرقين ، ومرجعاً من مراجع العلماء والباحثين .

ويشاء القدر بعد إنهاء دراستك في ألمانيا أن تعود الى سورية في أشد أيام الاستعمار قسوةً ، وأكثرها ظلاماً واضطرابا ، فتحاول أن تعمل في الصحافة ، فتجد الصحافة مقيدة ، وتحاول أن تنخرط في سلك الموظفين ، فتجد الأبواب موصدة في وجه الذين تلقوا علومهم في ألمانيا ، ولكنّ حاجتك الى كسب الرزق

بعد إحالة والدك على التقاعد اضطرتك الى طرق أبواب التعليم في شروطٍ قاسية ، فلما فتحت أمامك أبواب المدارس الثانوية أظهرت من البراعة في التعليم ما دلّ على استعدادك القديم له . لقد كنت تعتقد إذ ذاك أنك صاحب رسالة ، وأن خير وسيلة لتأدية رسالتك تعليم النشء ، وتثقيف أبناء الشعب ، ولا أزال أذكر حتى الآن اجتماعنا في مدرسة التجهيز في دمشق ، يوم كنا نعقد الحلقات للمذاكرة والمسامرة ، ونتداول الكتب والمجلات للمطالعة والمناقشة ، ونتبادل وجوه النظر في المناهج التربوية ، والأحداث السياسية والاجتماعية .

ليس في صفاتك ياسيدي ، صفة أدلُّ على سجيتك من حبك للتعليم ، إنك تحب تعليم الصغار كما تحب تعليم الكبار ، ولم أرَ بين إخواني المعلمين مَن أحب تلاميذه أكثر منك ، إنك تحبهم لبراءتهم وطهارتهم وضعفهم وقلة تجاربهم ، وهم يحبونك لعلمك وإخلاصك وجرأتك وتفانيك في خدمتهم ، أنت معلم ومرب معاً ، لم تزل تعلم أبناء هذا الجيل حتى أصبحت لهم والداً ، ولئن كان الله لم يمن عليك بعد بولدٍ من صلبك ، لقد كان لك من أبناء هذا الجيل طلابٌ كثيرون أحبوك كما يحب الأولاد والديهم ، لقد علمت الفلسفة والتربية والتاريخ في مدارس دمشق الثانوية ، وفي دار المعلمين العالية في بغداد ، وفي كليتي التربية والآداب في جامعة دمشق خلال ربع قرن ، فتخرّج على يديك الكثيرون من قادة هذا الجيل ، واذا كان يسرُّك الآن أن يسير بعض هؤلاء التلاميذ على خطتك ويحققوا ما دعوتَ اليه كل أيام حياتك من مبادئ سامية ، فإنه ليحزنك أن ينكر بعضهم تعليمك وإرشادك ، ويضع في دولاب التطور عصاً تمنعه من الدوران . ومهما يكن من أمرٍ فان تبعة ذلك لا تقع عليك ، لأن السحاب الذي يجود بالغيث على الأرض لا يُسأل عن إنباتها الشوك والحنظل ، وأنت كذلك لا تسأل عما يتصف به بعض هؤلاء من فطانة بتراء ، وكياسة خرقاء .

وهل أنت يا سيدي إلاّ من عنصر أولئك العلماء الذين قرنوا العلم بالعمل ، تعلمت العلم وعلّمته ، ثم ألفت فيه عدة تصانيف ، اشتركت معي في تأليف أحد كتب المنطق ، وفي نشر بعض النصوص الفلسفية ، واشتركت مع الدكتور جورج حداد ، والدكتور نظيم الموصلي في تأليف بعض كتب التاريخ للمدارس الثانوية ، وانفردت بتأليف كتاب الأخلاق ، وبترجمة رسالةٍ عنوانها كتب التاريخ والتفاهم الدولي ، ولك تصانيف أخرى لم تُطبع بعدُ ، ككتاب تاريخ اليونان ، وتاريخ التربية ، وغيرهما . واذا ذكرتُ الآن هذه التصانيف، ذكرتُ معها ما كان من حرصك على جمعها للطلاب ، فأنت لم تؤلف كتبك لطلب الشهرة والمثالة ، ولا لعقد الرياسة بين الناس ، أو مدّ الجاه عندهم ، بل ألفتها لتقرّ عينك بانتفاع الطلاب بها ، وكأني بك تقول في نفسك إن العلماء لا يُدركون السعادة إلاّ بنشر العلم ، فان احتاجوا الى العلم في خاصة أنفسهم فهذا من فضل الله ، وان احتاجوا اليه للناس فهذا خيرٌ وأبقى ، ولو علمت أن الناس لا يمكنهم الانتفاع بكتبك ، لكساد سوق العلم ، لأحرقتها لقلة جدواها كما فعل أبو حيان قبلك ، ولكنك تعتقدُ لحسن الحظ أنّ الحقيقة يجب أن تذاع بين الناس ، وأنّ من كان قابضاً على الحقيقة ، ولم يعمل على نشرها لم يكن عالماً حقيقياً ، فلا غرو اذا عملتَ على نشر الحقيقة بتعليم الطلاب وتأليف الكتب لهم ، ولولا اضطراب حياتك وكثرة العوائق المحيطة بك لأنجزت من التصانيف ما يعجز الكثيرون عن انجازه ، ولكنك يا سيدي لم تجد في المجتمع الذي تعيش فيه أي مشجع لك على بلوغ غايتك ، فقاومتَ ما استطعت المقاومة ، وجاهدت ما استطعت الجهاد . رأيت مرة أن تلتحق بالإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، لتوسيع نطاق عملك ، فلم تلق فيها ما هو مؤمّل منها ، فأورثك ذلك يأساً من الإصلاح ، حبب اليك العزلة والبعد عن الناس ، قلت لي في كتاب بعثت إليّ به من القاهرة : «ليس عندي من جديد أذكره

عن حياتي هنا ، فقد طابت لي العزلة التي وجدت نفسي فيها ، ولذلك تراني أتحاشى كل ما يمكن أن يفسدها» ، ولكن أنى لك أن تلقي عصا الترحال وتستريح الى عزلتك ، وفي نفسك ما فيها من حب العمل والنضال والاصلاح ، ألم تعد بعد ذلك إلى دمشق لمتابعة نضالك في الحقل الاجتماعي ؟ ألم تستأنف محاضراتك ومقالاتك التي كنا نتشوّق اليها في زمان عزلتك ؟ . وهل لرجل مثلك أن يشعر بأمراض المجتمع ولا يعمل على شفائه منها ؟ لقد دعوت كل أيام حياتك الى حرية الفكر ، والعدل الاجتماعي ، ودعوت الى السلام والصداقة ، ودافعت عن النظام الديموقراطي ، وناديت بالاشتراكية والتعاون ، فكنت في كلّ ما دعوت اليه إماماً يقتدى به ، ويهتدى بهديه .

لم أر قط بين أقرانك من أحب الكتب والعلوم أكثر منك ، فانه لم يقع بين يديك كتاب إلا استوفيت قراءته كائناً ما كان ، وما دخلتُ عليك مرةً إلا رأيتك تنظر في كتاب أو تقرأ مجلةً أو صحيفةً يومية . وسبب ذلك أنك تحب الاطلاع على كل ما يكتب في زماننا من آراء ، وما ينشر فيه من مذاهب ، وما يحدث فيه من واقعات ، وقد وهبك الله ميلاً الى استطلاع الأخبار ، واستقصاء الحقائق والآثار ، لأنك مؤرخ وصحافي معاً . وهذا الميل الى الصحافة يوضح لنا الكثير من مراحل حياتك ، فقد عملت في جريدة الشرق ، باشراف رئيسنا المرحوم محمد كرد علي ، وزملائنا المرحومين الأمير شكيب أرسلان ، والشيخ عبد القادر المغربي ، والشيخ بدر الدين النعساني ، وعملت بعد ذلك في جريدة (العرب) التي أصدرها الأستاذ سامي السراج في حلب ، ثم سافرت الى طرابلس الغرب ، فأصدرت باسم والدك جريدة اللواء الطرابلسي ، ثم أصدرت في ألمانيا مع بعض الزملاء مجلة الحمامة ، وجريدة صدى الاسلام ، فنشرت فيها عدة مقالات فلسفية واجتماعية وسياسية ، وكنت خلال إقامتك في ألمانيا تراسل جريدة (المقتبس) ، فلما عدت إلى سورية أسهمت

في تحرير جريدة فتى العرب ، وجريدة الأيام ، فكنت فيهما من أحسن المحررين والمترجمين ، ثم أصدرت معي ومع الزميل عز الدين التنوخي ، وبعض الزملاء مجلة المعلمين والمعلمات ، واشتركت معي ومع أستاذنا الرئيس خليل مردم بك والدكتور كاظم الداغستاني في إصدار مجلة الثقافة ، وأسهمت مع بعض الأدباء في اصدار مجلة الطليعة في دمشق ، ومجلة الطريق في بيروت ، و كتبت في مجلة المعلم الجديد ، ومجلة المعلم العربي عدة مقالات تربوية ، وتوليت بعد ذلك تحرير مجلة كلية التربية ، ولا تزال حتى الآن تنشر في صحف دمشق اليومية والأسبوعية آراءك الاجتماعية والسياسية ، فهذا كله يدل على أنك خلقت صحافياً ومعلماً ، لم تقتصر على نشر أفكارك بواسطة التعليم في المدارس ، بل عملت أيضاً على نشرها بواسطة الصحافة .

أنت يا سيدي ممتع المحاضرة ، الا أنك لا تتصدى للارتجال ، فلا تتكلم في موضوع إلا إذا هيأته ، وهذا فيما أعتقد خير من ارتجال الكلام بغير ترتيب ، إن كلامك في محاضراتك كثير الحلاوة ، مفعم بالطلاوة ، لأنك تتفرد بموضوعات لا يتناولها غيرك ، فتجعل معانيك قريبةً من الأذهان بما تضمنها إياه من النوادر اللطيفة ، والاشارات الطريفة ، ولا يكاد أحد يراك في كلامك جافاً ، جامد الفكر ، وإنما أنت في جميع محاضراتك مستوف فنون القول ، كأنك موج لجة ، أو سيل منحدر . لقد حوت محاضراتك من أصناف العلم أحسنه ، ومن فنون الثقافة أجودها ، وإذا كان من الصعب عليّ الآن أن أذكر جميع الموضوعات التي حاضرت فيها ، فانه لن يفوتني ذكر محاضراتك التي ألقيتها في جمعية المقاصد الخيرية والجامعة الاميركية في بيروت ، ودار الكتب الوطنية في حلب ، عن الانسان الحديث ، ومستقبل الثقافة ، ورسالة الجامعة .

قلت في محاضرتك عن الإنسان الحديث : « إنه محصول تطور تاريخي طويل ، فقد تقلبت عليه حوادث كثيرة واجتاز مراحل عديدة ، وتعرّض

لأزمات متنوعة ، وكان من أثر ذلك أن كثرت عناصر شخصيته وتضاربت وأصبحت نفسيته كما نشاهدها اليوم في منتهى التعقيد والاضطراب » .

فالإنسان الحديث في نظرك هو الإنسان الذي يحاول أن يخضع الواقع لسيطرة العقل ، وهو يختلف عن الإنسان القديم باتجاهه الدنيوي المطلق ، وبجمعه أفكاره وعواطفه وأفعاله في الحياة الواقعية ، وكأني بك عندما تصف هذا الانسان ، وتبين تطوره ، تدعونا الى النسج على منواله ، لأنك تقول إننا لا نستطيع أن نبني لأنفسنا حضارةً مستقلةً إلاّ اذا عرفنا الإنسان الحديث حق المعرفة ، ودرسنا تطوره الفكري ومنازعه العلمية . ومع أنك تجد في أفعال هذا الانسان ما يدعو الى الخجل والاشمئزاز ، وما يثير الشفقة والخوف ، فانك تعتقد أن الأزمة التي تعانيها الحضارة الحديثة ستنتهي لا محالة ، كالطفل الذي يجتاز عهد المراهقة ، فيعاني أزمةً حادةً ، ثم ينتقل بعدها إلى حالة الاستقرار والطمأنينة .

فأنت ترى إذن أنَّ الحضارة الحديثة تقوم على العلم والبحث العلمي ، وأن العلم الحديث المستند الى المشاهدة والتجربة والتأمل العقلي ، هو السبب في الازدهار الاقتصادي ، والتقدم الاجتماعي . واذا كان هنالك ، في الحياة الحديثة مشكلات ، فإن هذه المشكلات لم تنشأ عن طبيعة الانسان وأنانيته ، بل نشأت عن فساد الأوضاع الاجتماعية التي لا تلائم طرق التفكير العلمي الحديث ، ولا طرق الانتاج العصرية .

وقلت في محاضرتك عن مستقبل الثقافة : « لاحظ العرب منذ أوائل القرن التاسع عشر ما تمتاز به الحضارة الغربية من وسائل القوة المادية ، وأدركوا أنهم لن يستطيعوا مقاومة الاستعمار الغربي إلاّ باصطناع الوسائل ذاتها . من هنا قامت الدعوة في البلاد العربية الى ضرورة اقتباس الثقافة الحديثة ، لأنها أساس

النهضة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية » (ص ٥) وقلت أيضاً : « إنّ الحضارة الحديثة هي التي تسيطر اليوم على العالم ، ولا سبيل لأي شعب أن يحافظ على كيانه دون مجاراة هذه الحضارة » (ص ٣٢) . وقلت أخيراً : « هناك فئة تسمي نفسها بالمعتدلة ، تريد أن يقتصر الاقتباس على محاسن الحضارة الغربية ، وعلى تلك النواحي من ثقافتها التي تتلاءم مع خصائصنا وتقاليدنا وعاداتنا . ونقطة الضعف في هذا الرأي هي الصعوبة في تحديد الصفات والتقاليد والعادات التي تختص بها والتي يجب أن نحافظ عليها ، ثم الاختلاف حول المعيار الذي يميز المحاسن من المساوئ » . لقد اجتاحت حضارة الغرب بلادنا بصناعتها وأنظمتها ومذاهبها ، وليست المشكلة الآن أن نبحث ونناقش في هذا التطور ، هل هو خير أم شر ، وأن نقابله بالاستحسان أو الاستهجان ، ولكنّ المشكلة هي أن نعلم ماذا يجب أن نعمل للسيطرة على الأوضاع الجديدة ، وجوابك على ذلك أنّ من واجبنا في الظروف الحاضرة أن نعمل على زيادة الانتاج ، وتنمية الثروة العامة ، وتلبية حاجات الحضارة ، وهذا كله يحتاج الى الأخذ بأسباب العلم الحديث وطرق بحثه . اننا نفاخر ونعتز بما اتصفت به الثقافة العربية في عهود ازدهارها من المرونة ، والقدرة على التكيف ، واتساع الآفاق ، ومجاراة التطور ، فلماذا لا ننسج اليوم على منوال أجدادنا في اقتباس الحضارات والثقافات الأجنبية . لقد سارع أجدادنا الى الاقتباس عن جميع الأمم على أوسع مقياس ، ومن واجبنا في العصر الحاضر أن نعمل على اقتباس الثقافات الأجنبية كما فعل أجدادنا في الماضي ، وأهم ما نحتاج اليه من هذه الثقافات التفكير العلمي ، والنظر العقلي ، لا التفكير الصوفي أو الروحي الذي يريده لنا المستعمرون ، ولا يكفي في نظرك أن تتبنى النخبة الممتازة في بلادنا ثقافة الغرب وحضارته ، بل ينبغي كذلك أن تنتشر هذه الثقافة في الجماهير الكادحة

من عمال وفلاحين ، لأنه لا فائدة من تجهيز الفلاحين بالآلات الزراعية إذا هم لم يتعلموا قبل ذلك كيف يحسنون استخدامها ويحافظون عليها .

وليس ما قلته يا سيدي عن اقتباس الثقافة الغربية بخافٍ على الناس ، ولكنّ أكثرهم لا يجرؤون على التصريح به كما فعلت . ومع أنك تدعو الى الأخذ بثقافة الغرب ، وأسباب حضارته ، فانك لا تهمل تراثنا الثقافي القديم . إنّ محاسن هذا التراث بادية امينيك ، بارزة في دروسك ومحاضراتك ، ولكنك لا تريد أن تأخذ منها إلاّ الأعمدة القوية ، والعناصر المتينة الصالحة للبناء الجديد .

ومما قلته في كلامك على رسالة الجامعة : « ليس البحث العلمي مجرد فعّالية فكرية مستقلة عن الزمان والمكان ، والدراسة الجامعية تظل عقيمةً وتصبح عبئاً ثقيلاً اذا هي لم تجهز الشباب بالوسائل اللازمة لفهم العالم الذي يعيشون فيه ، وتفسير الحوادث التي تجري حولهم » . فاذا اقتصرت الجامعة على البحث النظريّ المجرد لم تقم بوظيفتها الاجتماعية ، واذا طلب العلم لذاته ، دون أن يُتخذ وسيلة لإصلاح المجتمع والسيطرة على الطبيعة ، كان عبئاً ثقيلاً ، لانقطاع الصلة بينه وبين الحياة الواقعية .

نعم إنّ مفهوم الجامعة يتضمن في نظرك الإخلاص للعلم والحقيقة ، وإنّ الجامعة لا تبلغ غايتها « إلا إذا تدرّب طلابها على طريقة البحث العلمي وتعودوا النقد الصريح ، وشعروا بالمسؤولية ، واحترموا حرية الفكر والقول ، واتصفوا بالتسامح » ، ولكنّ الجامعة التي لا تخرج من عزلتها ، ولا تشارك في الحياة العامة مشاركةً فعّالة ، ولا تنشر العلم بين الناس ، ليست جامعةً كاملة ، فأهداف الجامعة في نظرك اذن هي التعليمُ والبحث العلمي ، والإعداد المهني ، والتدريب المسلكي ، وتربية الشخصية وتثقيفها ، ونشرُ الثقافة في جمهور الشعب .

ذلك بعض ما جاء في محاضراتك من إشاراتٍ صادقةٍ وأقوالٍ نافعة ،

وأنى لي أن أحيط الآن بجميع ما تضمنته محاضراتك وأحاديثك من دعوة إلى الإصلاح . فقد حملت على ما في واقعنا الأليم من فساد ، ودعوت إلى إصلاح هذا الفساد بالتعليم والتربية والإرشاد ، ولما بدا لك أن الاصلاح بطريق التربية يحتاج الى زمان ٍ طويل ، عمدت إلى نشر أفكارك في الجماهير بطريق الصحافة ، ثم عملت بعد ذلك على تأسيس الجمعيات العلمية والفنية والأدبية فاتخذتها متنفساً لمنازعك الاجتماعية والانسانية ، ولو لم تجد إلا في هذه الجمعيات متنفساً لنشاطك الثقافي لكفى ، فكيف بك وقد سافرت في رحلات ٍ ثقافية إلى ألمانيا ، والاتحاد السوفياتي ، ورومانيا ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، وفرنسة ، وايطاليا ، واسبانيا ، وسويسرة ، اطلعت فيها على ما جدّ من المسائل العلمية والاتجاهات الفكرية ، ونقلته إلى طلابك ومريديك ليعملوا به ، فالعلم كما تقول إنما يراد للعمل ، فاذا كان العمل قاصراً عن العلم ، كان العلم مصيبةً على الفرد والمجتمع .

لذلك رأيت يا سيدي أن تقرن العلم بالعمل ، وأن تتولى التوجيه والارشاد ، فكنت عالماً ومعلماً ، مؤلفاً وصحافياً ، عالماً وكاتباً ، فيلسوفاً ومؤرخاً معاً ، وما نشرته حتى الآن من الكتب والمقالات والمحاضرات يكفي لرفعك الى الدرجات العلى بين مفكري العرب المعاصرين ، فكيف بك وقد عزمت على إتمام رسالتك العلمية والأدبية بانضمامك الى مجمعنا ؟ .

إن في أسلوبك يا سيدي تموجاً يشبه تموج أفكارك ، جعلته متموجاً ليدل على ما في تفكيرك من حياة ، وعلى ما في حياتك من قوة ، ولو شئت أن تكون جامداً كالجبل المشرف على أمواج البحر ، لما عجزت عن وصف أفكارك وصفاً هندسياً محكماً . ولكنك أبيت أن تكون كاملاً فأشبهت معبد الفلسفة الذي أنشئ بالقرب من ضريح (جان جاك روسو) ، تُرك أحد أجنحته ناقصاً للاستدلال به على أنّ عمل الفلسفة لم يتمّ بعد . ألم تؤلف كتاباً في الأخلاق

شبيهاً بهذا المعبد الفلسفي ، ألم تتكلم فيه على الوجدان ، والحق ، والواجب ، والشفقة ، والاحسان ، والتضامن ، والتعاون ، والحرية ، والكرامة ، والتقدم ، والصدق ، والصراحة والنزاهة ، والأسرة ، والعمل ، والاقتصاد ، دون أن تتم فيه كلامك على الحياة السياسية ، والعلاقات الدولية ، فكأني بك ، وقد رأيت ما يعتور العلاقات الدولية من اضطرابٍ وتبدل ، لم تشأ أن تحكم عليها حكماً نهائياً فاصلاً ، تاركاً لغيرك من المتأخرين أن يتموا ما بدأت به من أحكامٍ مربعةٍ صادقة ، وتنبيهات نافعةٍ محكمة .

أنت يا سيدي كثير العلم والاستقصاء ، محقق في الخبر والأثر ، فاذا أردت تقرير الحجة في عقول الجماهير ، وتخفيف المؤونة على المستمعين ، عمدت الى الأمثال الحسية ، والنكات اللطيفة ، والأفكار المقبولة في الأذهان ، فاخترت لها أسهل الألفاظ ، وصغتها في قالب محببٍ الى النفس ، بعيد عن التكلف ، ولا تزال تزداد من هذه السهولة والعذوبة حتى تجيء ألفاظك في وزن اشاراتك ، ومعانيك في طبقة ألفاظك ، وأنا ما قرأت لك كلاماً إلا وجدتُ ألفاظك أسرع الى ذهني ، من معانيك إلى قلبي ، لأنك تطلق لقلمك العنان ، في غير خطل ولا إملال ، فتبلغ بسهولة اللفظ ، وحرية القول ما لا يبلغه غيرك بالفصاحة والبلاغة ، واذا قيل ان في أسلوبك انطلاقاً يشبه تماطلك في مشيتك ، فعذرك في ذلك أنك مطبوع على البساطة والصراحة ، بعيد عن التكلف ، تفضّل جوهر القول على صورته ، وحقيقته على لفظه .

أنت يا سيدي لا تشتهي أن تعيش في نظامٍ كالنظام الذي فرضه الفيلسوف (كانت) على نفسه ، ولا تحب أن تكون مقيداً بقيود العادات والتقاليد . أنت تعتقد أنّ كل شيء في الحياة يتبدل ويتغير ويرتقي من حالٍ الى حال ، فكم من كربة فادحة صبرت عليها لعلمك أنها زائلة ، وكم من مشكلة تغلبت عليها

باستخفافك بها ، ولعلّ ذلك أن يكون من نتائج الثقافة التاريخية التي ملأْتَ بها نفسك ، لقد ثقفت التاريخ ، والفلسفة ، وعلم الاجتماع ، فأورثك ذلك مرونةً فكريةً حببت اليك النظر الى الأشياء من جهات مختلفة . وأنت يا سيدي عجيب الفراسة ملهم ، صادق الحدس نقّاب ، رقيق المسلك فطن ، قد رزقك الله من قوة التحليل ، وكثرة الاستقصاء والتعليل ما جعلك نقاداً ، تشك في كل فكرة ، وتبحث عن نقاط الضعف في كل مذهب . ولكنك مع ذلك لا تتعصب لأمر ولا تفرط في رأي ، وهذا يا سيدي تأويل حبي لك ، إني أحبك لشكك وتسامحك واختلاف وجوه نظرك . وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك في النقد والدعوة الى الحق فوق مرتبتك في التسامح . وقد كان لك علي بانتصارك للحق نعمة أذاقتني طعم العز ، ألم تستقل من وظائف التدريس احتجاجاً على نقلي من وزارة المعارف ، ألم ترحل الى العراق احتجاجاً على تعسف المستشار الفرنسي ، ألم تجهر بالحق لما مسخ الله أخلاق زماننا فلم يترك فيها مشابه من الأخلاق . انك تؤثر أن تعيش حراً كريماً ، ولا أعلم صفة أجمع لمزاياك من العزة والكرامة .

هذا يا سيدي بعض ما بدا لي أن أقوله في يوم دخولك مجمعنا ، فاذا قصرت في وصف مزاياك وتحليل سجيتك ، فعذري أنني أعرفك كما أعرف نفسي ، ومن الصعب على الإنسان أن يتجرد من العاطفة في وصف نفسه . وهبني استطعت أن أتجرد من العاطفة وأن أقف منك موقف العالم من الشيء الخارجي ، فانني لن أستطيع أن أوفيك حقك من الوصف في خطابٍ واحد . وما ذنبي اذا أغفلت كثيراً من صفاتك هرباً من الإطالة ، أو صيانةً للقلم من رسم ما لا حاجة الى التحدث به . ان الشيء اذا استعلن استخفى ، والشمس اذا نفذ شعاعها الى العين دفعةً واحدةً أعشاها .

ومن حسن حظي يا سيدي أن يشرفني المجمع بتقديمك في هذا المساء ، فما توخيتُ من هذا التقديم إلا التعريف بفضلك ، وإلاَّ الإشارة الى ما يختلج في صدرك من حب العلم والأدب . واذا كنت قد أنسيت في حديثي عنك الكثير من جوانب حياتك الغنية بالفضائل ، فانه لن يفوتني التنويه بما انطوت عليه نفسك من كرم وإباء ، وصدق ووفاء ، وإيمان بالعروبة والإنسانية .

ويسرني الآن أن أقول لك انني متفائل باستقبالك في مجمعنا بين عهدين ، عهد المجمع العلمي العربي الذي انتخبت عضواً فيه ، وعهد المجمع العربي للجمهورية العربية المتحدة . ففي انضمامك الى مجمعنا ربح لنا ، وفي انضمامنا إلى إخواننا في القاهرة لتأليف مجمع واحد ربح للغة العربية ، والقومية العربية ، فأنت آخر السابقين وأول اللاحقين ، وكم من تقدم أحرزناه بانضمام اللاحقين الى السابقين الخالدين ! وأنا أقترح عليك الآن أن تكتب لنا تاريخاً تضمنه كفاح الشعوب العربية الحديثة في سبيل استقلالها ووحدتها ، ونضالها في سبيل لغتها وثقافتها ، لأنك يا سيدي مؤرخ وفيلسوف معاً ، أحببت التاريخ كابن خلدون لعلمك أن التاريخ ، وهو علم العبر ، يذكر الأمم بماضيها ويدعوها الى الاعتزاز بتراثها ، واحببت الفلسفة كما أحبها سقراط لعلمك أن الفلسفة تعرّف الإنسان بنفسه ، وتكشف له عن حقيقته وغايته .

جميل صليبا

سادتي الأفاضل [1] !

يعجز لساني عن التعبير عن عواطف الشكر والامتنان التي أشعر بها لما أوليتموني من شرف الانتساب الى مجمعكم الكريم . وبقيني أنكم تعلمون تقصيري في ميادين الفصاحة والبلاغة وأنكم لذلك سوف تنظرون الى كلمتي هذه بما اشتهر عنكم من اللطف والتسامح .

ولا يساورني أدنى شك في أنكم لا تنتظرون مني بحثاً شاملاً عن الأستاذ الرئيس (محمد كرد علي) ، فقد عاشرتموه زمناً طويلاً وعرفتم عنه كل شيء . وقد أجاد عضو المجمع المحترم الدكتور سامي الدهان في كلمة الذكرى التي كتبها عن الأستاذ الرئيس فأبدع في تصوير شخصيته الجذابة وتعداد مزاياه السامية ووصف حياته الحافلة والاشارة الى آثاره الجليلة . ثم أقدم عميد الأدب في الشام الأستاذ الكبير شفيق جبري على إلقاء محاضراته عن (محمد كرد علي) بمعهد الدراسات العربية العالية في القاهرة فبلغ منتهى الكمال في الاستقصاء والتحليل . وقد عادت هذه المحاضرات بالذاكرة الى العصر الذي نشأ فيه (محمد كرد علي) وكشفت عن أثر ذلك العصر في تحديد ثقافته وتوجيه تفكيره وتقرير منهجه في العمل . واستفاضت المحاضرات في بيان المعارك التي خاضها (محمد كرد علي) في سبيل الاصلاح والتقدم ، فوصفت لنا جهاده العنيف في ميدان الصحافة ودفاعه المجيد عن العرب والإسلام . وقد برهن الأستاذ شفيق جبري على براعة فائقة في تحليل تآليف (محمد كرد علي) وابراز محاسنها الكثيرة دون اخفاء عيوبها القليلة ، كما انه لم يتستر على نقائض الأستاذ الرئيس وشدة

---

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور محمد كامل عياد في جلسة استقباله عضواً عاملاً ، مترجماً فيها سلفه المرحوم الأستاذ الرئيس محمد كرد علي .

عصبيته وصعوبة مزاجه ، لأن هذه العيوب والنقائض والاندفاعات لا تقلل من الإعجاب بنبوغه وفضله وجهاده .

أيها السادة !

لقد قيض لكم أن تعيشوا مع الأستاذ (محمد كرد علي) فوجدتم فيه رائداً وقائداً ناضل وضحى في سبيل تأسيس المجمع العلمي العربي ودافع عن كيانه وبذل جهوداً جبارة لتنظيم أعماله واعلاء شأنه .

وقد تقدمتم أشواطاً بعيدة في الطريق التي نهجها ، وكان لكم الفضل في تحقيق الكثير من الأهداف التي وجه الأفكار اليها .

وأظن أنكم انما تكرمتم بانتخابي زميـلاً لكم كي أشترك معكم ، بقدر استطاعتي ، في العمل على بلوغ جزء آخر من تلك الأهداف .

هذه المهمة تفرض علي أن أتحدث اليكم عن بعض النواحي من نشاط الأستاذ الرئيس ومباحثه التي استرعت انتباهي واستطعت الإلمام بها .

عرفت الأستاذ (محمد كرد علي) منذ سنة ١٩١٧ ، عندما كان يحرر في جريدة (الشرق) . ومن المعلوم أن هذه الجريدة كان قد أسسها القائد التركي (جمال باشا) وحشد عدداً من كبار الكتاب للاشتراك في تحريرها مثل الأستاذ (محمد كرد علي) والأمير شكيب أرسلان والشيخ عبد القادر المغربي والشيخ بدر الدين النعساني . وقد اشتغلت فيها ، وأنا تلميذ ، بترجمة الأخبار من الألمانية الى العربية . وهكذا سنحت لي الفرصة لأتدرب على الصحافة تحت إشراف الأستاذ (محمد كرد علي) . كما قمت بعد ذلك بمراسلة جريدته (المقتبس) أثناء دراستي في جامعة برلين بين سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٨ .

في غمار الصحافة :

كان الأستاذ (محمد كرد علي) صحافياً في الدرجة الأولى . ولا بد لنا من تذكر هذه الحقيقة عند البحث في تفكيره وأعماله وفي الحكم على شخصيته .

لقد مارس الصحافة منذ أول شبابه إذ أخذ يكتب المقالات في الجرائد وهو ابن ست عشرة سنة ، حسب قوله . ثم تولى ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، تحرير جريدة (الشام) ، واتصل أثناء ذلك بمجلة المقتطف ونشر فيها بعض المقالات .

وفي مصر تولى تحرير جريدة (الرائد المصري) ثم جريدة (الظاهر) وكتب في جريدة (المؤيد) المشهورة ، كما أسس مجلة (المقتبس) الشهرية .

وبعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ عاد الى دمشق ونقل اليها المجلة وأصدر الى جانبها جريدة يومية بالاسم ذاته . .

رأى الأستاذ (محمد كرد علي) في الصحافة وسيلة فعالة للاصلاح . فانصرف الى هذه المهنة بكل قواه وسعى جهده الى رفع مستواها ونجح في ذلك نجاحاً باهراً .

كانت دعوته منذ بادئ الأمر تتلخص ، كما يقول ، في «حفز العرب الى العمل النافع والتذرع بالمشاريع المنتجة ، وبعث القرائح واستخدام الكفاءات ونشر التعليم بين الطبقات الجاهلة» . (المذكرات ، الجزء الأول صفحة ٦١) . انه كان يتصور الصحف «كمدارس سيارة تنير الأفكار وتعرف الناس معاني المدنية وتطلعهم على أحوال الأمم ونهوضها ، والدول وسياستها ، وتحمل اليهم مجملات من العلوم والآداب» . («أقوالنا وأفعالنا» ص : ١٧٠) .

وقد أشاد الأستاذ الرئيس بالجهود التي بذلتها الجرائد والمجلات في بلاد الشام لغرس الروح الوطنية في المجتمع وتلقين الشعب تربية سياسية صالحة ،

وقال انها علمت الجماهير «استعمار المستعمرين وتدليس المدلسين ، وأن أمتهم كانت شيئاً مذكوراً فيما مضى وأنه لا حياة لأحفادها بدون الاخذ من سيرة الأجداد والاقتباس من المدنية الحديثة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، وأن لا قيام لأمرهم إلا بالقومية العربيـة ، وأن نغمة الدين وحدها لا تنجيهم مما هم فيه لأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معاً ، كما علمتهم أن الغرب لا يريد خيراً للشرق وأن الشرق شرق والغرب غرب . . . » (خطط الشام الجزء : ٤ ص : ٦٠) .

ألا ان الأستاذ (محمد كرد علي) قد لاحظ أيضاً ما طرأ على الصحافة من فساد وانحراف فقال ان هناك صحفاً تضلل العقول وتزيد في ظلمة الأفكار وتدعو الى أكثر من مذهب سياسي وتتناول معونات من عدة دول حتى توهم الناس أنها آلة للتكسب والتدجيل ، لا أداة للوعظ والإرشاد والتعليم . لذلك كان ينتقد الحكومات لتساهلها في منح الطفيليين امتيازات اصدار الصحف .

صفات الصحافي :

وكان يشترط في الصحافي أن يكون على علم كثير وخبرة واسعة وأن يتقن لغة أو لغتين من لغات العلم والسياسة وأن يكون من طبقة تحسن استعمال عقلها والاحتفاظ بكرامتها وممن عانى البحث والدرس وتذوق الشرائع وأحاط بتاريخ أمته واجتماعها وحياتها الاقتصادية وثوراتها وضعفها وقوتها وأوضاعها وأحزابها ونقاباتها وشركاتها .

ويصف الصحافي بأنه «قاض يتجدد على الأيام ما يعرض عليه من قضايا وتقتضيه أحكامه ذوقاً سليماً ونقداً عادلاً وأدباً غضا» . ويرى أن الصحافي «صاحب دعوة تفسد بأقل هوى يتبعه وأنه مربي عقول ونفوس ومنشئ أمة وعمران» . ويقول عنه «انه معلم لا انتهاء لمهمته الا بانتهاء عمره ، ومهمته

تتلون كل ساعة بلون ويطلب من صاحبها أبداً أن يطلع على قرائه كل يوم بجديد .. هو يجمع الى عمل القاضي عمل الباحث والى صنعة الفنان صنعة النقاد والى صفة الأديب صفة الاقتصادي والى مرح الأدباء حكمة الحكماء . ويحتاج الى بديهة ، والى روية ، والى سرعة ، والى أناة ، يراقب كل صاحب سلطة ويدافع عن كل مظلوم وينفذ الى أحشاء كل أمر . هو صديق الحكومات وعدوها وخطيب القوم ولسانهم ومؤرخهم ومؤدبهم ، يلقن ذوقاً ويلقح عقلاً ويدعو الى واجب ، يردد ما يرضي وما يغضب ، لا يكتم حقاً ولا ينشر الا عرفا» . (أقوالنا وأفعالنا ص : ١٧٥) .

ألا يخيل اليكم ، أيها السادة ، ان الأستاذ الرئيس عندما كتب هذه العبارات كان كأنما يصف نفسه ؟

كان الأستاذ (محمد كرد علي) صحافياً مثالياً ، مخلصاً لعمله ، شريفاً في مقاصده ، مدركاً لمسؤوليته ، صريحاً في إبداء آرائه . إلا أنه كان ، من جهة ثانية ، عاطفياً يتحمس بسرعة ويندفع بسهولة ويميل الى الشدة في نقد الفساد والانحراف ومكافحة الشر والضلال . وقد اعترف هو نفسه بأنه كان يغلو في الإنكار على المخربين حتى أصبح ذمهم ملكة مستحكمة فيه لا يستطيع الرجوع عنها ، وقال : « لا أنكر أن التيار كان يأخذني أحياناً ويشط بي القلم على غير عادتي » . (المذكرات الجزء الأول : صفحة : ٦١٢) إلا انه يستدرك قائلاً : « لكني لم ألجأ الى الطعن الشخصي بأحد » . وهو يعني بذلك انه ، عند مهاجمة الأشخاص الذين يعتقد فسادهم ، لم يكن يذكر أسماءهم . ولكن المقصودين بالنقد كانوا يعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس .

كان طبيعياً أن يتعرض الأستاذ (محمد كرد علي) بسبب هذا النقد الى الأخطار وأن يضطهده رجال الحكم ويغضب عليه أعوانهم . إلا أنه من جهة

أخرى نال شهرة واسعة ومكانة مرموقة في المجتمع لما اتصف به من صراحة في القول وجرأة في النقد وحماسة في سبيل الاصلاح ...

من المؤسف أن الأستاذ (محمد كرد علي) قد انتهى به الأمر بعد الحرب العالمية الأولى الى كره الصحافة والى إغلاق جريدته (المقتبس) لأسباب سياسية ذكرها في مذكراته . (الجزء الأول صفحة : ٦٢ — ٦٣) .

ومهما كان الأمر فان اشتغال الأستاذ (محمد كرد علي) بالصحافة مدة طويلة قد ترك أثراً بالغاً في طريقة تفكيره وبحثه : انه أصبح واقعياً ، على صلة وثيقة بشؤون الحياة ومشاكل الناس ، بعيداً عن الأمور الخيالية والمفاهيم المجردة ، يميل في أسلوبه الى الوضوح والسهولة والايجاز . الا ان ممارسة الصحافة قد نجمت عنها صفات أخرى تدعو الى النقد مثل التسرع وعدم التعمق والتناقض . وقد سعى الأستاذ (محمد كرد علي) الى التحرر من هذه العيوب عندما انصرف أخيراً الى البحث العلمي .

ظل الأستاذ الرئيس ، بعد الحرب العالمية الأولى ، يدعو الى الاصلاح والتقدم والى الأخذ بأسباب القوة واستمر يعمل بنشاط لا مثيل له في المجمع العلمي العربي ، يدير شؤونه ويكتب المقالات في مجلته ويلقي المحاضرات في قاعته ، كما كان في الوقت نفسه يؤلف الكتب وينشرها .

أسس الإصلاح :

إن الدعوة الى الإصلاح عند الأستاذ (محمد كردعلي) ترتكز على بضعة أسس عامة ، محدودة ، مترابطة يدور بحثه دوماً حولها في كتبه ومقالاته ومحاضراته وأحاديثه وهي : ١) إحياء تراث العرب والمسلمين ، ٢) محاربة الجمود عند المشايخ وتنقية الدين من البدع والقشور ، ٣) تهذيب الأخلاق والعادات ،

٤) اتباع العقل والاهتمام بالأمور العملية ، ٥) اقتباس كل ما ينفع عن المدنية الغربية الحديثة ...

كان للأستاذ فضل كبير في إحياء التراث العربي – الإسلامي ، فقد قام بتحقيق ونشر عدد من الكتب العربية القديمة في العلم والأدب كما شجع غيره على الاقتداء به في هذا . كذلك نشر مختارات نفيسة من مؤلفات كبار القدماء عني بشرحها وبيان قيمتها . ولا جدال في فائدة هذا العمل وضرورته . فانه لا بد لنا في نهضتنا الحديثة من الاستناد الى تقاليدنا التاريخية . الا انه لن يتيسر لنا الإفادة كما ينبغي من تراثنا القديم الا إذا أقدمنا على دراسة هذا التراث دراسة تحليلية ، انتقادية وتوصلنا الى تمييز ما هو صالح للحياة من الجامد البالي ..

الإصلاح الديني :

لم يتوقف الأستاذ (محمد كرد علي) منذ نشأته حتى آخر حياته عن مهاجمة الدجالين من رجال الدين ، وقد قال انه لا يبغض المشايخ لمجرد أنهم مشايخ ، فقد درس على نخبة منهم أمثال الشيخ طاهر الجزائري والشيخ محمد المبارك والشيخ سليم البخاري ، الذين أخذ عنهم واستفاد كثيراً من نصائحهم وكان دوماً يشعر نحوهم بالحب والاعجاب والاحترام . الا أنه كان يسيء الظن بالمشايخ على الاجمال ويمقت الكثيرين منهم ، وينتقد مظاهر الفساد بينهم .

وقد دافع الأستاذ بحماسة زائدة عن حركة الإصلاح التي قام بها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في مصر ثم الشيخ طاهر الجزائري في الشام ، وأشاد بذكر الإمام ابن تيمية الذي يسميه «أعظم مصلح في القرن الثامن وفي قرون كثيرة من قبله ومن بعده ، والذي أراد ارجاع الدين الى نضرته الأولى وتعريته من القشور التي ألصقها به الجهلة المتنمسون» . (خطط الشام جزء ٤ ص ٥٠) ويقول عنه في مكان آخر : «لو عمت دعوته .... لسلم هذا

الدين من تخريف المخرفين على الدهر ، ولما سمعنا أحداً في الديار الإسلامية يدعو لغير الله ، ولا ضريحاً تشد اليه الرحال بما يخالف الشرع ، ولا يعتقد بالكرامات على ما ينكره دين أتى للتوحيد لا للشرك ، ولسلامة العقول لا للخبال والخيال » . (كنوز الأجداد ، ص : ٣٦٧) .

وذهب الأستاذ الى أن « من أعظم ما دعا الى انحطاط المسلمين غرامهم في عصور التدلي بصبغ معظم أمور الحياة بصبغة دينية » . فهو يريد فصل الشؤون الدنيوية عن الدين على نحو ما جرى في الغرب .

اصلاح الأخلاق :

لم تقتصر حملات الأستاذ (محمد كرد علي) على المفسدين من رجال الدين ، بل انه أطلق العنان لقلمه في نقد الفئات الأخرى من الأمة أيضاً . وقد أغرق في وصف مظاهر التأخر والانحطاط والتفسخ والانحراف في سلوك كثيرين من الأشخاص الذين عاشرهم أو سمع عنهم . هكذا نراه في آخر الجزء السادس من (الخطط) يعقد فصلاً طويلاً بعنوان « رأي في الأخلاق الشامية » يرسم فيه صورة مظلمة عن طبقات المجتمع كافة . وفي كتابه (أقوالنا وأفعالنا) ، ثم في (المذكرات) يروي حوادث لا تحصى عن فساد أخلاق الناس في هذا العصر ويشكو من انتشار الكذب والنفاق والحسد والغرور والمكر . وهو يعتقد أن السكوت عن العيوب عيب كبير وأنه لا سبيل الى النهضة قبل تقويم الأخلاق .

على أن الكثيرين من الذين أيدوا دعوة الأستاذ الرئيس الى تهذيب الأخلاق والعادات قد ساورتهم الشكوك في جدوى طريقته في الإصلاح القائمة على التشنيع السافر والنقد اللاذع والتقريع العنيف . بل ان بعض الباحثين يؤكدون أن أساليب الوعظ والإرشاد ، مهما اختلف مظهرها ، لا تؤدي وحدها الى إصلاح الفساد الأخلاقي ، ويقول هؤلاء ان أخلاق الأفراد انما تعكس

أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية وانه لا يمكن لذلك تبديل هذه الأخلاق إلا بتغيير تلك الأوضاع .

وقد أهمل الأستاذ (محمد كرد علي) العلاقة بين الأخلاق وبين العوامل الاقتصادية والاجتماعية . لذلك لا غرابة اذا رأيناه يستسلم في آخر الأمر الى التشاؤم واليأس فيصرخ في أول كتابه (أقوالنا وأفعالنا) قائلاً :

«ليقل علماء الدين ما يقولون ، وليقرر علماء النفس ما يقررون ، وليكرر علماء الأخلاق ما يكررون ، فأنا أكره الشر ولا أقصد الآن الى مداواة صاحبه وأعشق العدل ولا أغضي عمن يهدم عموده ، وأرغب في النظم السليمة ولا أغالط النفس في استصلاح الفاسد . . . ومن يقل للصالحات استعداده ، أنت لا تخلق ما حرمته الفطرة إياه ، ولو جهدت كل جهدك» . ثم أضاف يقول : «وطال الأمد على هذه الدعوة وانقضى العمر في أمل لم يتحقق منه بعض ما كان يرتجى وصرفت في هذه السبيل جهود لم يسترد منها عشرها ، فهل من مطمع بعد هذا في أن نجعل من جذع يابس غصناً نضيرا ، ومن جسم ميت كائناً حياً ؟» .

ولئن رأينا الأستاذ يقول في ختام هذا البحث : «ولقد كنت ، كلما منيت النفس ، بأن الخير سيكون في الجيل الذي يجيء بعد الذي أنا أشكو منه ، أرى الزمان هو الزمان ، والناس هم الناس ، واذا الأبناء ينشأون على غرار الآباء ، واذا اللؤم والحسد والدناءة عسيرة العلاج . .» — ، لئن رأينا الأستاذ يقول ذلك فلا يسعنا إلا أن نخالفه وندعي بأن الإصلاح ليس مستحيلا ، وان كان عسيراً حقاً وأن الأجيال التي تعاقبت في الفترة الأخيرة قد ازدادت تقرباً من الخير وأن مواعظ الأستاذ (محمد كردعلي) وارشاداته نفسها قد كان لها بعض الفضل في ذلك الى جانب المؤثرات الأخرى .

النزعة العقلية :

كان الأستاذ (محمد كرد علي)، على الرغم من طبيعته العاطفية، الانفعالية يؤمن بالعقل ويدعو الى سيطرته في حياة الفرد ونظام المجتمع . وقد جاء في كتبه بشواهد كثيرة من التاريخ تدل على أصالة هذه النزعة بين كبار المفكرين العرب والمسلمين الذين كان يريد الاقتداء بهم . فنراه مثلاً يقول عن الجاحظ انه «المعلم الأول، يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء الا اذا صح في نظام العقل ويربدهم على أن تدق ملاحظتهم ويرهف حسهم، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله : ان الدين لا يصلح بغير الدنيا وان الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والآخرى» . (أمراء البيان جزء ٢ ص ٤٢٩) .

والسبب في إعجاب الأستاذ بالمدنية الغربية الحديثة يرجع الى اعتقاده بأنها قائمة على العقل والعلم . وفي رأيه انما تتجلى المدنية، قبل كل شيء، في السيطرة على الطبيعة وفي التقدم المادي . وقد قال : «الماديات هي السلم الموصل الى بلوغ القوة، وأي معنويات لمن تجرد من المادة ؟» (أقوالنا وأفعالنا، ص : ٣١٢) .

انه كان في كل المناسبات يطالب بتوجيه الاهتمام الى الأمور المادية العملية المفيدة، والابتعاد عن الخيالات والأوهام، وكان يحارب المشتغلين بالمسائل الروحية والغيبية . واليكم ما كتبه في الجزء الرابع من المذكرات (صفحة ١٠٤٤) بعنوان «كتب الخيالات»، قال :

«في العهد الأخير انصرفت همم بعض من يشتغلون بالفلسفة والإلهيات من رجال الجامعات العربية الى نشر بعض كتب قدماء الفلاسفة والمتصوفة . وكانت بعض النفوس تتشوف للوقوف عليها، يتخيلون أن فيها أسراراً لو ظهرت لكشفت من نواميس الطبيعة ما تتقدم به الإنسانية وتصفى الأرواح من كثافاتها وينجو البشر من القتل والتزوير والسرقة والكذب والظلم . ولما ظهرت أسفار المتصوفة

في حلتها الجديدة من العناية تجلى للأنظار أنها تافهة إلا من العبث الذي أحب بثه عشاق الغرائب والمولعون بالمجهولات على الأيام، فضاعت فيها أعمارهم وأضاعوا أعمار من اشتغلوا بها» .

وفي الواقع كان الأستاذ (محمد كرد علي) لا يميل الى الفلسفة ولا يستسيغ البحث في مشاكلها، ويبدو أنه قد تأثر بالاتجاهات الفكرية التي كانت سائدة لدى الغربيين في أواخر القرن التاسع عشر والتي كان معظمها يتنكر للفلسفة والإلهيات ولا يعترف إلا بالعلوم المادية ...

الدعوة الى الاقتباس من الغرب :

ظل الأستاذ (محمد كرد علي) في جميع أدوار حياته يدعو الى الاقتباس عن المدنية الغربية الحديثة . نلاحظ اندفاعه وراء هذه الدعوة بوجه خاص في كتاب «غرائب الغرب» الذي يعتبر من أحسن مؤلفاته .

تكلم الأستاذ الرئيس في هذا الكتاب عن رحلاته الثلاث الى مختلف البلاد الأوروبية، وعلى الأخص فرنسا وسويسرا والأندلس في سنة ١٩٠٩ ثم سنة ١٩١٣ وسنة ١٩٢١ . ولم يقتصر على وصف مشاهداته الذاتية، بل أضاف الى ذلك كثيراً من المعلومات التي نقلها من الكتب أو الأشخاص العارفين . وقد بيّن في مذكراته (الجزء الأول صفحة ١٨٤) أنه ما كان يدخل بلدة قبل أن يطالع في وصفها كتاباً أو كتباً حتى يستفيد من زيارتها استفادة حقيقية . لذلك استطاع أن يتكلم باسهاب عن مختلف مظاهر الطبيعة والحياة البشرية في البلاد التي زارها، على الرغم من أن مدة الإقامة فيها كانت قصيرة . فأطول فترة، وهي التي قضاها في باريس، لم تزد على الشهرين خلال الرحلة الأولى ثم على الشهر الواحد في سنة ١٩٢١ .

كتب الأستاذ (محمد كردعلي) في مذكراته يقول : « كانت الغاية من رحلاتي تجديد ما رث من قواي وترويض الجسم وتسلية الروح والتعرف الى مدنية الغرب ودرسها في أرضها درساً عملياً » . ولا شك في أن الرغبة في الدرس والاطلاع كانت من أقوى الدوافع ، كما أشار الى ذلك أيضاً في الفصل الأول من كتاب « غرائب الغرب » ، إذ قال : « كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوروبا رحلة علمية أقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المتزهون والعلماء والعاملون والساسة المستعمرون والقادة والغازون والتجار والصناع والزراع والماليون ، وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها » .

وكانت الغاية من رحلته الثانية سنة ١٩١٣ هي ، على التخصيص ، زيارة مكتبة المستشرق الطلياني الأمير (قايتاني) للبحث في المخطوطات التاريخية العربية التي اشتهرت بها في العالم أجمع ، وقد استغرقت هذه الزيارة مدة شهر جمع الأستاذ (محمد كردعلي) خلالها مادة غنية لكتاب « خطط الشام » الذي كان يفكر دوماً في تأليفه ويستعد له منذ سنوات .

صور لنا الأستاذ الرئيس في كتاب « غرائب الغرب » مظاهر الحضارة الأوروبية التي تركت أعمق الاثر في نفسه . وقد أخذته الدهشة في الدرجة الأولى لمشاهدة (باريس) ، فأرسل اليها تحية حارة تفصح عما كان يشعر به من إعجاب وتقدير . وتتضمن هذه التحية (غرائب الغرب ، الجزء الأول صفحة ٤٨ — ٤٩) المبادئ العامة التي كان يؤمن بها . فنراه يسمي (باريس) « معلمة العالم كيف يكون الخلاص من الظالمين » ويقول انها « هذبت طبائع البشر حتى غدوا يشعرون باللطف والذوق وفائدة العلم والعمل » ، وانه « انبعث

منها تمجيد العقل ، بل تأليهه» ، ثم يخاطبها بقوله : «يا واضعة حقوق الإنسان والداعية الى ثل عروش الجبارين والمخربين ... يا ملقنة الخلق معنى الإخاء والحرية والمساواة ليتعاشروا بالمعروف ويقوم نظام اجتماعهم على تبادل المنافع» .

لا بد أن تستولي الدهشة علينا ، نحن بدورنا ، عندما نقرأ اليوم هذه التحية . هل يمكن أن توصف (باريس) حقاً بأنها «مرضعة الحكمة وروح الانقلابات الاجتماعية والسياسية ومحيية المدنية الأصلية في الأقطار الغربية والشرقية» ؟ لا نعتقد أن الأستاذ الرئيس نفسه كان في السنوات الأخيرة من حياته يرضى باطلاق هذه الصفات على عاصمة الفرنسيين بعد أن تكشفت حقيقتها وافتضح زيفها وتفسخها . ولكن في الوقت الذي كتبت فيه تلك العبارات ، أي قبل الحرب العالمية الأولى ، كان أكثر الناس ما زالوا يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية ويحسنون الظن بفرنسا وينتظرون انبعاث النور من باريس . ولا ننسى أن مبادئ الثورة الفرنسية كانت منبع الهام لمعظم المفكرين والمصلحين والكتاب العرب في القرن التاسع عشر . على أن الأستاذ (محمد كرد علي) قام بعد انتهاء رحلته الأولى فألقى خطاباً في المنتدى الأدبي باستانبول قال فيه انه أثناء إقامته في (باريس) سمع محاضرات وخطباً لم ير في أكثرها إلا تعصباً على الشرق وغمطاً لحقوقه . وذكر ، على وجه التخصيص ، محاضرتين : الأولى لعالم أثري كان قد عاد من التنقيب في تركستان الصينية وادعى بأن التعصب انتشر هناك بانتشار الاسلام في القرن الحادي عشر وأتى على الآثار بجملتها . ويعلق الأستاذ (محمد كرد علي) على المحاضرة بقوله : ان جسمه قد تكهرب بها وتأثرت عواطفه لأنه سمع مهانة أمته بأذنيه . والمحاضرة الثانية ألقاها السيد (تارديو) ، وهو من كبار السياسيين الفرنسيين ، على طلاب مدرسة اللغات الشرقية الحية فبحث في نشأة الامتيازات الأجنبية وعلاقة فرنسا بالشرق ، وأشار الى أن فرنسا في كل دور من أدوارها استخدمت الدولة العثمانية لمقاصدها . وأنها

لا تقصر كل حين في بتر عضو من أعضاء هذه الدولة حتى تموت وتفنى .
وقد لاحظ الأستاذ (محمد كرد علي) بأن سياسة المنافع والمصالح كانت تلوح صراحة من خلال المحاضرة ثم صرخ قائلاً : « فيا إخواني ، أيسمع عثماني هذا الكلام ولا تجهش نفسه بالبكاء ولا تذوب كمداً وحسرة ولا تسود الدنيا في عينيه ؟ » ، (غرائب الغرب ، الجزء الأول صفحة ١٥٩) .

لم يكن الاستاذ الرئيس يجهل الأخطار التي تهددنا من الاستعمار الغربي وكان يذهب الى أننا لا نستطيع حفظ كياننا الا اذا قاتلنا من يريدون قتالنا بالسيف الذي يقاتلوننا به ، أي سيف العلم . ثم كان يقول : « لا يكفي أن نذكر مجدنا القديم ونورد الشواهد على أيامنا الغر المحجلة في تاريخ المدنية السعيدة ، فحضارة الغرب اليوم لا تبقي على ضعيف . لذلك يقتضي علينا أن نأخذ من تلك المدنية الغربية التي تدهشنا كل ما ينفعنا لقيام مجتمعنا » . (غرائب الغرب ، الجزء الأول ، صفحة ١٥٨ — ١٥٩) .

وقد وصف الأستاذ (محمد كرد علي) آثار الحضارة الغربية في التنظيم السياسي والاجتماعي وفي الصناعة والزراعة والتجارة ، واهتم على الأخص بمعاهد التربية والتعليم والمكتبات العامة والمجامع العلمية . ونراه في كل مناسبة يضرب الأمثلة على عناية الأوروبيين بالعلوم والفنون والآداب ، وعلى حبهم للعمل وعلى تضامنهم والتعاون بين حكوماتهم وشعوبهم عسى أن يكون في ذلك عبرة لبني قومه وقدوة يحتذونها .

فالأستاذ (محمد كرد علي) إنما كتب (غرائب الغرب) ليستنهض الهمم ويدعو الى الإصلاح . وهذا ما يعلل اقتصاره على وصف النواحي الجميلة من الحضارة الغربية والإشادة بمظاهر تقدمها وتفوقها . وهو يذكر لنا أن بعض أصحابه قد لامه على ذلك وأنه قد رد عليه بقوله : « إني كنت أريد أن أعرف قومي بالحسنات ينسجون على منوالها وما كنت أطمع في أن أشغل الأذهان

بأمور لا يخلو منها بلد انحط أو ارتقى ، وعندنا مما يماثلها ما لا ينفع تدوينه ونحمر خجلاً من ذكره . ومن العدل أن يقال اننا بقدر ما نرى في المدنية الحديثة من فضائل نرى فيها ما يقابلها من رذائل ، والفضائل تربو على غيرها كثيراً . فالأمثل بقومنا أن يقتبسوا الخير ويغضوا الطرف عن الشر » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ١١٢) .

آراء الأستاذ كرد علي السياسية :

كان الأستاذ (كرد علي) يدعو العرب والمسلمين الى الاقتباس عن الحضارة الحديثة لاعتقاده بأن ذلك هو السبيل الى القوة والى استعادة المجد القديم . ونرى الأستاذ لا يفصل أبداً بين العرب والإسلام ، ويتكلم في كثير من الأحيان عن الوطنية والقومية العربية . وقد اشتغل بالصحافة مدة طويلة وعالج الشؤون العامة وتولى منصب الوزارة أكثر من مرة . فما هي آراؤه السياسية ؟ كيف كان يتصور مستقبل بلاده ، وما هي الوسائل وأساليب العمل التي كان يعتقد بأنها صالحة لتحقيق الأهداف القومية ؟

من المؤكد أن آراء الأستاذ الرئيس السياسية قد تطورت مع مجرى الحوادث واختلاف الظروف وتقلب الأوضاع . وهذا أمر طبيعي . ولا شك في أن الأستاذ (محمد كرد علي) كان ، منذ أول نشأته ، على يقين من فساد الحكم التركي وتدهور الدولة العثمانية . وهو ربما يكون بعد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ قد اعتقد مع الكثيرين من أبناء جيله بأن الدولة العثمانية يمكن إصلاحها وبقاؤها . ولكن لم تنقض فترة من الزمن حتى أدرك أن سياسة حزب الاتحاد والترقي الحاكم سوف تؤدي الى انهيار الدولة وتقطيع أوصالها ، وقد انضم الى حزب الحرية والائتلاف المعارض الذي كان يجاهر بضرورة احترام حقوق العناصر غير التركية في الدولة ، وعلى الأخص العرب . ونراه بعد رحلته الثانية الى

الغرب يلقي خطاباً جديداً في المنتدى الأدبي في شهر شباط من سنة ١٩١٤ يدعو فيه الطلاب العرب الى التمسك بقوميتهم . قال : « إننا لا نحيا إلا بقوميتنا على نحو ما كان أجدادنا أمس وحال أمم الحضارة الحديثة اليوم . ولكن هذا اللفظ الجميل - لفظ القومية - لا يطابق معناه مبناه الا باتخاذ جميع أسبابه على نحو ما يعمل المجر والبولونيون ... وما يجري من منافسة محمودة بين الفالونيين والفلامندبين في البلجيك والألمانيين والفرنساويين في سويسرة » . (غرائب الغرب ، الجزء الأول ، ص ٢٢٩) فالأستاذ (محمد كردعلي) لم يكن يقصد بالقومية مفهومها السياسي ، بل أراد بها أن تتساوى مختلف الشعوب في الحقوق ويحتفظ كل منها بلغته وتقاليده ضمن الدولة العثمانية . ومن الواضح أن هذا الرأي في القومية كان يتعارض مع المفهوم الذي أخذ يتبلور إذ ذاك لدى العرب والذي يتضمن ، قبل كل شيء الانفصال عن الدولة العثمانية وتوحيد الأقطار العربية في دولة مستقلة .

نشأ الأستاذ (محمد كردعلي) في عهد انتشار الدعوة الى الجامعة الإسلامية وتأثر بآراء المدافعين عن هذه الجامعة . ولكن تفكيره الواقعي منعه من الاندفاع وراء الدعوة ، فكتب يقول : « الى عهد قريب كان بعض المتحمسين يدعون الى الجامعة الإسلامية بدون أن يعدوا لها عدتها ، ويعلقون على تأليفها أعظم الآمال . ولقد كنت ، كلما سمعت هذه النغمة استبعد تحقيق الأمنية . ولذا لم أكتب في هذه الجامعة سطراً واحداً بالتعديل ولا بالتجريح . وكيف ، لعمري ، تتحقق الجامعة الاسلامية والمسلمون تحت سلطان دول متنوعة مشتتون في ثلاث قارات ، تتباعد أصقاعهم ألوفاً من الأميال ولا يكادون يتفاهمون اذا اجتمعوا ؟ . » (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٣٣٥ — ٣٣٦) .

انه كان يتمنى قيام جامعة إسلامية في شكل من الأشكال ، ولكنه يريد في

بادئ الأمر التمهيد لذلك بالدعوة الى التعارف والتآلف وتقوية الروابط المعنوية والصلات الروحية بين المسلمين .

ولم يكن الأستاذ (محمد كرد علي) يرى أي تعارض بين الإسلام والقومية العربية . فالإسلام ، حسب تعبيره ، « هو الذي جمع شمل العرب بعد تشتتهم وآخى بينهم مؤاخاة ما عهدوها وهذب نفوسهم حتى سلس قيادهم بعد شماسه ، وثقفهم ثقافة أفادوا بها . . . وهو الذي جعل في العرب خاصة في أخلاقها سائقها الى العمل الصالح فوحد بين مقاصدها ووجهها الى هدف واحد » . (الإسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول صفحة ١٣٥ — ١٣٧) . ولكن لا بد من الملاحظة بأن الفكرة الإسلامية عند الأستاذ (محمد كرد علي) كانت مجردة كل التجرد عن التعصب ولا تسمح أبداً بالتفريق بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان . واختلاف الدين ، في رأيه ، لا يتنافى مع الرابطة الوطنية والقومية .

كذلك فان التباين في أنظمة الحكم ومستوى الحضارة والتطور الاجتماعي لا يمنع من قيام الوحدة القومية بين أقطار عديدة اذا جمعت بينها ذكريات التاريخ ووحدة اللغة والمصالح والأهداف . وفي حديث من إذاعة القدس سنة ١٩٤٤ اعتبر الأستاذ (محمد كردعلي) تأسيس جامعة الدول العربية خطوة كبيرة في طريق الوحدة العربية . فذكر أن هذه الوحدة كانت أمنية العرب منذ عشرات السنين وان بعضهم كان يعدها حلماً من الأحلام ووهماً ان تحققه الليالي والأيام ولكن تبين أن ليس في السياسة المستحيل وأن الأمور مرهونة بأوقاتها » . ثم قال : « وعلينا ، معاشر العرب ، أن ندعو الى هذه الأمنية بالطرق العلنية نورد لمن لا يعرفنا صفحات من ماضينا وحاضرنا ليكون لنا من شعوب أوروبا وأمريكا نفسها أنصار يوافقوننا على إتمام رغائبنا التي هي رغائب البشرية » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٣٤٤) .

من هذه الأقوال يتبين لنا أن الأستاذ (محمد كرد علي) كان من أنصار الجامعة الإسلامية كرابطة روحية وأنه كان يدعو الى الوحدة العربية كفكرة قومية مدفوعاً بعاطفة الحب للعرب والإسلام دون أن يتعرض الى النضال السياسي — الشعبي ، لأنه كان دوماً يرغب في الانصراف الى الحياة الفكرية . وقد اعتقد أن أفضل وسيلة يخدم بها بلاده هي العمل على نشر المعرفة وتقدم العلوم والآداب . فاتجه بكل قواه الى العناية باللغة العربية وآدابها والى البحث في تاريخ العرب والإسلام وعلى الأخص تاريخ بلاد الشام ، وكان يؤمن بأن نهضة العرب والمسلمين تتوقف على دراسة تاريخهم واحياء تراثهم .

ليس من شأني أن أتكلم عن مؤلفات الأستاذ الرئيس في آداب اللغة العربية مثل مختاراته في كتاب « رسائل البلغاء » أو دراساته في كتاب « أمراء البيان » . انما لا بد لي من الإشادة بتأثير هذين الكتابين في تنمية الذوق الأدبي وتهذيب أساليب الكتابة لدى الناشئة العربية في هذا العصر .

انني سوف أقتصر على استعراض دراسات الأستاذ التاريخية ، ولا سيما كتاب « خطط الشام » ثم كتاب « الإسلام والحضارة العربية » .

تاريخ الشام :

يتألف كتاب « خطط الشام » من ستة أجزاء ، وهو عبارة عن موسوعة أو دائرة معارف تحيط بكل الأخبار عن تاريخ الديار الشامية وحضارتها من أقدم العصور حتى سنة ١٩٢٥ .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) قد نشر في سنة ١٨٩٩ في مجلة المقتطف تسع مقالات عن (عمران دمشق) صادفت استحساناً لدى القراء ، فدفعه ذلك الى التفكير في أن يتوسع في هذا البحث وأن يكتب عن عمران الشام كله . ومنذ ذلك الوقت أخذ يتصفح كل ما ظفر به من المخطوطات والمطبوعات باللغات

العربية والتركية والفرنسية . وكان يقصد دور الكتب الخاصة والعامة في الشام ومصر واستانبول للتفتيش عن مصادر جديدة . ولهذه الغاية في الدرجة الأولى قام برحلاته الثلاث الى البلاد الأوروبية وزار المكتبات المشهورة فيها .

على أن الأستاذ كان كلما استكثر من المطالعة تتجلى أمامه صعوبة العمل . وقد ظل مدة من الزمن محتاراً في كيفية ترتيب الموضوع : هل يجعل التاريخ السياسي حسب السنين أم حسب الدول ، وهل يتكلم على القطر عامة أم على كل اقليم باقليمه ، ثم لما انتهى في سنة ١٩٢٥ من التأليف ، بالحاح من أصدقائه ، تردد في طبع الكتاب . وهو يقول في ذلك : «ولقد وددت ، لما تيسر وضع خطط الشام على هذه الصورة ، لو ساغ لي أن أصبر عليه زمناً آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب ، ولكن رأيت ، بعد طول التأمل ، أن من الحزم الاكتفاء بما تهيأ في هذه السنين ، والتمحيص بحر لا ساحل له ، فأبرزته . . . وأنا موقن بأن فوق ما طالعت وبحثت غايات لم يمكني الزمان والمكان من بلوغها ، وعسى أن يقوم غيري بعدي فيتم هذه الخطوط التي رسمتها من بنيان كتاب الخطط ويصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط والشطط» . (مقدمة الخطط : صفحة ٩) .

وقد اضطر الأستاذ الى الاكتفاء بخلاصة قصيرة عن تاريخ الشام القديم لا تزيد على (١٨) صفحة وقال : «كنت أحب التوسع أكثر من ذلك لولا الخوف من الوقوع في نقل ما لم يتفق الباحثون عليه . والتعرض للمجهولات يؤدي الى سقوط في غلطات أو خيالات أو حكايات متناقضات . ولعل عناية علماء العاديات في عصرنا توصلهم الى اكتشاف ما كان مجهولاً من تاريخ هذه الديار كلما أوغلوا في حفرياتهم» . (خطط الشام ، الجزء الأول ، صفحة ١٠٤) ثم هو يعترف بأن الكلام جاء ناقصاً في بعض الأدوار المتأخرة وأن بعض مواضيع مهمة ذات صلة بمدنية الشام لم تنكشف له . (انظر : الخطط ،

الجزء الأول صفحة ٧) ولما رأى الأستاذ أن وصف التطور الحديث للزراعة والتجارة والصناعة في بلاد الشام يحتاج الى دراسة اختصاصية لم يتردد في الاستعانة بالاختصائيين من أصدقائه فطلب اليهم كتابة بعض الفصول أو تزويده بالمعلومات الفنية .

إن الأستاذ الرئيس لم يذكر الصعوبات التي اعترضت طريقه ونقاط الضعف البارزة في كتابه على سبيل المباهاة واصطناع التواضع ، بل بدافع الاخلاص للعلم وحباً في الإصلاح . فهو يعرف أن مهمة المؤرخ في هذا العصر قد أصبحت عسيرة جداً لأنه يحتاج الى الاستعانة بكثير من العلوم ، مثل علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والسياسة بالإضافة الى دراسة الوثائق والكتابات والنقود والخ . . وكان لذلك يرى ضرورة التعاون بين الاختصائيين عند كتابة التاريخ العام . كما انه لم يكن يجهل العوامل التي تدفع المؤرخين الى التحيز والتعصب والمبالغة والتحريف .

ولكنه كان يعتقد بأن واجب المؤرخ هو أن يتحرر من تأثير الأهواء السياسية والدينية فيسعى الى معرفة الواقع ويبسط لأمته حقائق ماضيها وحاضرها ويقفها على جلية أمر المحسن والمسيء ويروض قلبها على قبول الحق . وفي الواقع كان الأستاذ الرئيس يكره التقية ويحب الصراحة . وقد ذكر قول بعض الفقهاء « ونسكت عما شجر بينهم ، أي بين الصحابة » فوصفه بأنه « كلام من لا أرب له في غير العافية » وأضاف قائلاً ، « ولو شايعناهم على هذا الرأي لأضللنا طريق الهدى في قيام أمرنا » . (أقوالنا وأفعالنا ، صفحة ٢٣٥) . كذلك فان الأستاذ قد هاجم ابن خلدون لأنه نها عن الخوض في موضوع الخلاف بين الصحابة ولا سيما بين عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب فقال : « نزع ابن خلدون ثوب المؤرخ ولبس ثوب الواعظ القصاص أو هو يريد أن

يتأدب أدب السياسي المهذب مع الجماعة لا يقول لصاحب الأمر ما يزعجه فيرضى بالحالة الحاضرة على علاتها ويحاول أن يكم أفواه الرعية لأنها اذا قالت فعلت ، وما حسب حساباً للأهواء البشرية والمطامع الدنيوية ، فكأنهم ما أخطأوا في نظره وكأنه يزعم أنهم لا دخل لإرادتهم التي خلقها الله لهم فيما قضوا وأمضوا ..» (كنوز الأجداد ، صفحة ٣٩٤) أعتقد أن الأستاذ (محمد كرد علي) قد ظلم ابن خلدون واتهمه بما هو بريء منه ، ولكن كلامه يساعدنا على معرفة نظرته الى التاريخ ويستحق ان نشير اليه . وقد تعرض الأستاذ نفسه الى سياسة الخلفاء الراشدين والى الخلاف بين علي ومعاوية فكيف عالج هو الموضوع ؟

قال الأستاذ الرئيس في كتابه «الإسلام والحضارة العربية» (الجزء الثاني صفحة ٣٨٦) : «... وبعد فان الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن ، واذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شيء فهو منهم محض اجتهاد ، والمجتهد يصيب ويخطئ ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس ، وما كان للبشر أن تجيء أعمالهم تامة من كل الوجوه ...» فهل يختلف هذا الرأي كثيراً عن رأي ابن خلدون ؟

ثم ان الأستاذ قد نشر في آخر المجلد السادس من «خطط الشام» الملاحظات التي أبداها بعض الناقدين على كتابه ، وبين هؤلاء الأمير شكيب أرسلان والأستاذ عارف النكدي ، اللذان اتهماه بالتعصب لبني أمية .

وفي الحقيقة دافع الأستاذ (محمد كرد علي) عن إسناد الخلافة الى يزيد ابن معاوية ، كما انه وقف الى جانب الأمويين في نزاعهم مع العلويين . ولكن لا يمكننا الادعاء بأن الأستاذ قد اندفع هنا مع عواطفه وتأثر «بالنعرة الشامية» . فهو قد بحث الموضوع كما يجب أن يبحثه كل مؤرخ : انه قد ذكر جميع الروايات المنقولة والآراء المتضاربة وسعى الى الكشف عن

أسباب الوقائع ولم يصدر حكمه إلا بعد مناقشة الموضوع من كل الوجوه ، وبذلك كان مخلصاً للنظرة الموضوعية العلمية . ومما يسترعي النظر أنه قد اتفق مع ابن خلدون في تعليله لإقدام معاوية على إيثار ابنه يزيد بولاية العهد دون سواه ، إذ قال إن السبب في ذلك هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس على بني أمية أصحاب أقوى عصبية في قريش . (الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٤١) .

أما موقفه من الخلاف بين الأمويين والعلويين فيتفق أيضاً مع النظرة العلمية في التاريخ . يقول الأستاذ : « ان الخلاف بين الأمويين وخصومهم من العلويين ما يزال يقوى ويضعف ، وما هو الا خلاف سياسي نشأ من النزاع على الملك وليس من الدين في شيء . فليس إذاً من العقل أن تتسلسل هذه الأحقاد في الأمة وتتفرق شيعاً وتظهر بمظهر التعصب والتشيع . . » ثم يزيد رأيه وضوحاً إذ يقول : « إن مسألة الخلاف بين علي ومعاوية قد مضى عليها الزمن وكان لكل منهما اجتهاده ، وهي من المسائل المؤلمة في تاريخنا يجب أن ندرسها بانصاف . . . فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف والقوة من جسمها وتكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية ، والواجب في البحث أن لا يثير في النفوس أحقاداً . . . » (الخطط ، الجزء الأول ، صفحة ١٦٦) .

يتبين لنا من ذلك أن الأستاذ الرئيس لم يقتصر في كتاب « خطط الشام » على جمع الكثير من الأخبار والمعلومات المتصلة بتاريخ هـذا القطر وتطوره الحديث والتي كانت مبعثرة في مئات المراجع القديمة والحديثة ، بل أقدم أيضاً على تحليل بعض الحوادث الهامة واستخلاص العبر منها . فهو انما انصرف الى البحث التاريخي لإيمانه بأن نهضتنا في الحاضر والمستقبل تتوقف على معرفة الماضي معرفة صحيحة والاستفادة من تجاريبه .

الدفاع عن العرب والإسلام :

يروي الاستاذ (محمد كردعلي) في مقدمة كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ثم في « المذكرات » (الجزء الأول ، صفحة ٣١٦) انه عندما دعي الى مؤتمر المستشرقين في (ليدن) سنة ١٩٣١ ، اقترح عليه أعضاء مجمعكم المحترمون أن يوجه الأنظار إلى ما يبديه بعض المؤلفين في الغرب من تحامل على الإسلام والعرب ومن طعن بتاريخهم وحضارتهم . وقد عدل الأستاذ بعد ذلك عن السفر ولكن موضوع الرد على خصوم العرب والإسلام كان قد استهوى فؤاده فانقطع الى دراسته وتشعبت به مسالك البحث فلم يقف عند مناقشة هؤلاء الخصوم ونقض أقوالهم ، بل أتبع ذلك بوصف مدنية العرب المدينة للإسلام بانبعاثها وحسناتها ، فتكلم عن تمثل العرب للحضارة وعنايتهم بالعلوم والآداب والفنون وعن انتشار لغتهم وقارن بين حالة العرب وحالة الغرب في القرون الوسطى وكشف عن أثر الثقافة العربية في أوروبا وعقد فصولاً خاصة لمدنية العرب في الأندلس وصقلية وبحث في الحروب الصليبية وفي غزوات المغول والأتراك ثم في غارات المستعمرين الغربيين على البلاد الإسلامية . وقد جمع هذه المباحث في الجزء الأول من كتابه « الإسلام والحضارة العربية » ، أما في الجزء الثاني الذي يؤلف وحده مجلداً ضخماً فقد ألقى الأستاذ نظرة اجمالية على العلوم والمذاهب عند المسلمين ثم استرسل في الكلام على الإدارة والسياسة في الإسلام .

ان الكثيرين من الذين طالعوا كتاب « الإسلام والحضارة العربية » قد أيدوا رأي الأمير شكيب أرسلان في أنه خير ما كتب الأستاذ (محمد كردعلي) وأنه كفى الناس مؤونة نشدان الأدلة من هنا وهناك للرد على المغالطين والمكابرين والمتجاهلين . ولا غرابة في ذلك ، فقد سلخ الأستاذ في تأليفه ثلاث سنين يعمل على التوالي وبحماسة ورجع الى أكثر من خمسمائة مصنف لجمع مواده .

ويمكن القول انه لم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكرها من الأخبار المتعلقة بأساليب الإدارة والسياسة عند خلفاء المسلمين وملوكهم . كذلك استقصى الأستاذ المسائل التي يرددها خصوم العرب والإسلام وكشف عن العوامل التي تدفع بعض المستشرقين الى تشويه الوقائع ومخالفة الحقائق من تعصب ديني وطمع استعماري وأوهام موروثة وجهل مقصود وقد جاء بشواهد كثيرة من مؤلفات الغربيين الذين أنصفوا الإسلام والعرب ، وفي مقدمتهم (غوستاف لوبون) لتفنيد أقوال المغرضين .

ولما كان الكثيرون من الذين يهاجمون العرب والإسلام لا يتقيدون في العناد بقواعد البحث العلمي وشروطه ولا يهتمون بالوقائع والبراهين فقد اضطر الأستاذ (محمد كرد علي) الى أن يستخدم مع هؤلاء طريقة الجدل والهجوم المعاكس . هكذا عندما رأى مؤرخاً أمريكياً اسمه (كوفن Goweu) يتهم الشريعة الإسلامية بأنها « حفظت في تضاعيفها شروراً اجتماعية تئن منها الانسانية » ، قام يرد عليه بقوله : « إن الكاتب الأمريكي ربما قال هذه الجملة وهو لم ير في حياته مسلماً ولا قرأ كتاباً معتمداً من كتب العرب ، فالها بدافع هو يعرفه أو فاه بها ليأتي بالغريب ، وأميركا مهد الغرائب . وهو ، لو أنصف لفسر هذه الشرور التي اتهم بها الإسلام وأنّت منها الإنسانية . كأن الإنسانيـة لم تئن مثلاً من معاملة الجنس الأبيض للأسود في أميركا ... وكأن الإنسانية لم تئن من الحروب الدينية التي أهلكت فيها الامبراطورة (تيودورا) وحدها نحو مائة ألف من المانويين في أواسط القرن التاسع .... وكأن الانسانية راضية عن أعمال ديوان التحقيق الديني الذي قتل في اسبانيا وحدها ، كما قال « ريناخ » نحو مائة ألف انسان على أقل تعديل ... » (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ١٣ — ١٥) .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) يندفع مع العاطفة ويغضب أشد الغضب اذا ما شعر بأدنى تحامل على العرب والاسلام . إلا أنه لم يكن ، من جهة ثانية ، يجهل ما يتطلبه البحث العلمي من حياد وتجرد وانصاف . وقد كان همه الأول تحري الحقيقة والدفاع عنها بحماسة وقوة . فهو يقول : « والمهم في تاريخنا أن نقلبه كل مقلب لا ندلس فيه ولا نوالس لنتعرف الحقائق في صورتها الجلية النافعة » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الثاني ، صفحة ٩٢) ثم يصرح قائلاً : « واذا أولع العرب بتاريخهم فليس معنى ذلك أنهم يدعون أنهم كانوا أول من أرخ لهم من الأمم أو أنهم كانوا البادئين بأسس المدنية . وما ادعى المسلمون قط أنهم نزلوا بحضارتهم من السماء ؛ بل ادعوا وأثبتوا دعواهم أنهم أخذوا حضارات الأمم القديمة وزادوا عليها ما وسعتهم الزيادة فأوصلوها بأمانة الى أهل المدنيات الحديثة » . (الاسلام والحضارة العربية ، الجزء الأول ، صفحة ٥٥) .

وقد استحسن الأستاذ كل الاستحسان الجهود المبذولة بعد الحرب العالمية الأولى « لتوحيد التاريخ في العالم وتقليل مصادر الأحقاد بين الأمم » ، وأعرب عن اتفاقه في الرأي مع « طائفة من العقلاء في الغرب ترى نبذ كل ما يثير الحقد ويدعو الى الظنة ويفك عرى الالفة » . ثم قال : « ولن يتم قيام هذا المجتمع الحديث إلا بتعاون الشرق مع الغرب تعاوناً حقيقياً يقوم على الحرمة المتبادلة والمصلحة المشتركة والعدل الذي لا يتجزأ . وللبشر اليوم مقصد أسمى من الخلافات والمناقشات التي جاءت القرون اثر القرون وما زالت بحالها لم تورث النفوس إلا اشمئزازاً . البشر بعد هذا التقارب في المواصلات والأفكار أحوج ما كانوا الى التعارف والتعاطف وانصاف بعضهم بعضاً ليقوم نظامهم على الوئام والسلام » . (الاسلام والحضارة العربيـة ، الجزء الأول ، صفحة ١١ — ١٢) .

هذا الكلام دليل قاطع على تجرد الأستاذ من التحيز والتعصب الأعمى كما أنه يشير الى ما اتصف به من تفكير علمي وروح إنسانية .

سادتي الأفاضل !

إن الأجيال المختلفة لا تتعاقب فحسب ، بل هي كذلك ينبثق بعضها عن بعض . فالجيل الناشئ يتلقى من الجيل السابق معظم تقاليده وعاداته ومفاهيمه وأفكاره وعقائده ، كما يرث عنه الكثير من المشاكل . وتتوقف سرعة تطور المجتمع على مقدرة الجيل الناشئ في حل هذه المشاكل وتحوير تلك العادات والتقاليد ثم في ابداع عقائد وأفكار ومفاهيم خاصة تستمد عناصرها من الماضي وتتلاءم مع الحاجات والأوضاع الجديدة . فالصلة بين الأجيال المتعاقبة قد تضعف أحياناً ولكنها لا يمكن أن تنقطع ما دام المجتمع قائماً ومحافظاً على كيانه . .

كان الأستاذ (محمد كرد علي) من الأفذاذ النابغين الذين يمثلون جيلهم أحسن تمثيل ويعبرون عن مشاعره بأفصح لسان . لقد أخذ عن الجيل الذي قبله خلاصة ثقافته وأضاف اليها الكثير من المعلومات والمفاهيم عن طريق المطالعة والدراسة الشخصية . وقد تأثر بالتيارات السياسية والاتجاهات الفكرية التي سادت في مختلف أدوار حياته فلم يتردد في أن يخوض غمارها ويلعب دوراً هاماً فيها . وبذلك كان له تأثير عميق في أبناء جيله والجيل الذي بعده . ومن منا ، أيها السادة ، لم يقتبس من أنوار الأستاذ الرئيس ولم ينهل من معينه ؟

لم يكن الأستاذ (محمد كرد علي) صلة الوصل بيننا وبين الجيل الماضي ، جيل محمد عبده وطاهر الجزائري فحسب ، بل أيضاً بين عصرنا والعصور الغابرة من تاريخ العرب والإسلام التي أعادها الى الحياة في كتبه وكشف لنا عن روعتها وهدانا الى معرفة حقيقتها وجوهرها .

وإذا كان الأستاذ قد بدرت منه في بعض الظروف انتفاضات عنيفة واذا كان قد وقع أحياناً في تناقضات صارخة ، فذلك أمر طبيعي ، لأنه عاش في زمن كله ثورات وتناقضات وكان أولى الناس بالتعبير عن هذه الثورات والتناقضات ، شأنه في ذلك شأن كل العباقرة والنابغين الذين تتبلور فيهم حياة عصرهم وتنعكس جميع التيارات والاتجاهات . ومن حق العباقرة والنابغين أن يقتحموا لجج التناقضات لأنهم وحدهم يستطيعون التغلب عليها .

واذا كنا عاجزين عن التحليق مع الأستاذ الرئيس في الأجواء الصاخبة فما أجدرنا بأن نسترشده في متابعة الطرق التي مهدها لنا وفي تحقيق الأهداف التي رسمها .

وأقصى ما أرجوه هو أن أستطيع القيام بقسط متواضع من هـذا الواجب فأكون بذلك عند حسن ظنكم والسلام عليكم . . .

محمد كامل عياد

الإفصاح عن أبيات مشكلة الإيضاح للفارقيّ
ولا
توجيه إعراب أبيات مُلْغَزَةِ الإعراب للرُّمّانيّ

كنّا أنا والسيدان عزّ الدين التنوخي وسعيد الأفغاني في يونية الماضي نتفرّج في متنزه المهاجرين بدمشق ونتجاذب أطراف أحاديث هي ألذّ من السلوى لدى كل عارف . وسألت الصديق الكريم الأفغاني عما سقط عليه من طرائف الأعلاق وضنائن الأسفار في رحلته إلى الغرب والمغرب سنة ١٩٥٦ م فأخبرني بكتاب الرماني هذا ولم يزدني فيه شيئاً .

إذ جاءني كتاب من معالي الأستاذ الزركلي من الرباط أخبرني فيه بصدوره من المطبع ثم لم يمض أيام الا وكتاب الصديق ماثلٌ أمام عيني ٢٣ / ٩ / ٥٨ م دالاً على ودّه وصفائه .

ومنذ تناولت نسخته ما زالت الشكوك تخالجني والرِيَب والأوهام تساورني . ولمّا تغلغلت إلى أعماقه وعرفت أن صاحب الكتاب يروي عن أبي علي الفارسيّ (م ٣٧٧ هـ) وأبي سعيد السيرافي (٣٦٨ هـ) ، والرمانيُّ (٣٨٨) عصريُّهما[(١)] وفي طبقتهما ، وزاد ضِغثاً على إبّالة أنه شرح لُمَع ابن جنّي (صاحب أبي عليّ الذي نبغ في آخر حياة الرُّماني وبُعيد وفاته) — جزمت بأنه ليس للرمّاني ألبتّة .

وكنت أذكر للحسن بن أسد الفارقي أبي نصر الشاعر الكاتب النحوي المقتول سنة ٤٨٧ هـ الذي تُرجم له في الأدباء (٣/٤٧ — ٥٤) والإنباه (١ / ٢٩٤ — ٢٩٨) وعنهما في الفوات والشذرات وغيرهما — مؤلفاً في المعنى .

---

(١) وأخذ عن أبي بكر السرّاج وابن دريد كما أخذا عنهما .

فراجعت جزازاتي التي كنت علّقتها في رحلة سنة ١٩٣٦ وفهرست دار الكتب ومجلة المجمع فوجدت :

أن الإفصاح عن أبيات مشكلة الإيضاح للفارقي توجد منه نُسخ ومعظمها أجلّ وأقدم من نسخة باريس . إحداها بولي الدين بايزيد برقم ٢٨١٨ بقطع صغير في ٨٥ ورقة . وأخرى بالدار (فهرس النحو ١٢٠) أوّلها : أطال الله بقاءك وأدام عزّك ونعماءك[1] وحرس نفسك وعلاءك الخ . وهي من مقتنيات الشنقيطي في ٢٧١ ص والمسطرة ١٥ عن نسخة كتبت سنة ٦١٣ هـ . وفيها ص ١٥٨ جاء ذكر مختصر للإفصاح سمّي فيه الأصل ألغاز الإعراب في مجموعة للشنقيطي برقم ٣٦ . ولعلّ هذا المختصر لعزّ الدين الزنجاني (والريحاني تصحيف) المتوفى سنة ٦٥٤ . ومنه نسخة في خزانة بيت الجوهري بنابلس جاء ذكره في مجلة المجمع ص ٤٥٥ سنة ٢٤ م نُسخ سنة ٦٦٠ . كما جاء فيه ذكر نسخة أخرى في ٥/٩٧ ولكني لست أملك هذه المجلدة .

فظهر أن هذا خطأ عظيم أفسد على الصديق عمله وحرَمه المعارضةَ بعدّة نسخ جليلة كانت منه على طرف الثُّمام قريبة المتناوَل . كما حرَم الفارقيَّ البائسَ المسكينَ مؤلَّفين له من أنبل ما كتبه في حياته وذكرهما كلّ من ترجم له فلم يبق ما يدلّ على حياته . هذا على أن إضافتها إلى نَبَث مؤلّفات الرمّاني وهو في صفحتين مكتنزتين ما كان ليغني عنه فتيلاً . إذ لم يُعْرَفا له ألف سنة مضت على وفاته وقد نال دونها شهرة لا يستهان بها . فلم يذكرهما له أحد ممن ترجم له . والثابت على نسخة باريس ليس بخطّ الأصل كما هو ظاهر . فإما أن يكون هذا الكاتب المتأخر اختلط عليه الحابل بالنابل أي الفارقي بالرمّانيّ . أو أن يكون لما وجد الكتاب غُفلاً أثبت عليه اسم كُتيّب للرمّانيّ

(١) والأسجاع الثلثة بالمدّ لا بالقصر كما في المطبوع .

في المعنى نفسه إن ثبت أنه له . وذلك أن فهرست الدار المذكورة نفسها تذكر في ص ٧٩ الألغاز النحوية للرماني أوله : الحمد لله على فضله وكرمه الخ ٣٠ ش مخطوطة بقلم مغربي ، وهذا كما ترى غير المطبوع ، ثم رآه بروكلمان فتبعه ولم يوفق لاستجلاء الحقيقة وربما يكون عرف إفصاح الفارقي فذكره في كتابه ولم يفرغ للعراض فقلّده من أتى بعده ، ثم إلى اليوم هلمّ جرّا .

وهذه بعض معلّقات على المطبوع :

١ — قوله في ص ١٢ : لا يُعرف من مؤلفات الرُّمّاني غير ثلاثة — زد اليها رابعاً وهو شرح أصول ابن السرّاج ومنه قطعة في مجموعة برقم ١٠٧٧ بكتبخانة سليم آغا في اسكيدار من ق ٢٩٥ — ٣٢٦ . وخامساً وهو ثلاثة أجزاء من شرح الكتاب الثاني والرابع والخامس بأرقام ١٩٨٤ و ١٩٨٧ و ١٩٨٦ في ١٨١ و ١٩٧ و ٢٩٧ ورقة ولاء بكتبخانة فيض الله ، أملاه سنة ٣٦٧ هـ .

٢ — على قوله ص ٣٥ : هنا فرق كبير بين أبيات المعاني وبين الألغاز النحوية التي ألّف فيها الإفصاح . وقد كان الرّمانيّ سبقه بالتأليف فيها وتأخّر عنه ابن هشام وخالد الأزهري وقد طُبع كتاباهما ولأبي سعيد بن لُبّ منظومة مشروحة طبعت في [1] الأشباه للسيوطي . ولابن عربشاه كتاب فيها الى غيرهم . ياليت صديقي كان عارض عمله بها وقارن .

٣ — قوله ص ٣٠ : يمتدّ الى مائة سنة — ولكن ذلك لا يحتاج الى امتداد في عمره وإنما ينقل كلام ثعلب كما ننقله نحن الآن من دون أن ندركه .

٤ — في ص ٧١ : ونام ليلي تجلّى همّي

غير متزن ولا متمن . وهو شطر معروف في الكامل ٧٩ :

فنامَ ليلي وتَجلّى همّي

(١) ٢ / ٣٠٢ ولم يعرف لمن هي وقد عرفنا صاحبها من الخزانة ٣ / ٤٦٦ . وترى في الأشباه جزءاً كبيراً في الألغاز .

وكذا الصواب من النوم في الكلمات الآتية على ما في الأصل لا كما غيّره في المتن .
والبيت برقم ٥٥ لرجل من لصوص البحرين على ما في الكامل ٧٠٠ طبعة ريط .

٥ — في ص ١٣٤ : وجه الكلام وصوابه : أنشدناه أبو اسحاق (يريد الزجّاج لا غير) [في] المصنَّف لأبي عبيد . والبيت برقم ١٢٦ من معروف شعر عنترة في طبعات ديوانه وسمط اللآلي ٤٨٣ وحماسة ابن الشجري ومشروحاً في الخزانه ٣ / ٣٦٢ والعيني ٣ / ١٧٥ .

٦ — في ص ١٨٥ : في بيت الرُبيع بن ضَبُع وجاء مصحَّفاً (ولا أسادوا) ولم أجد مع طول البحث المقطوعة التي منها البيت ليُعرف أهو من همزيته أو داليته اه — المقطوعة همزية معروفة وكنت نشرتها في مجلة الزهراء ٤ / ٢٣٥ عن التيجان قبل نشره وهي في طبعته هذه ١١٩ وهي في المعمرين برقم ٦ والمرتضى ١ / ٢٥٥ وشرحي أدب الكتاب لابن السيد والجواليقي ٣٦٩ و ٤٦٦ والخزانة ٣ / ٣٠٦ . والبيت منها اذا عاش الفتى ، البيت من شواهد الكتاب كتاب سيبويه .

٧ — في ص ٢٠٣ : البيت برقم ١٨٣ لطفيل الغنوي من قصيدة في ديوانه برقم ٩ ومنها ثلثة أبيات في الحماسة فريتاغ ١٣٦ وبولاق ١ / ١٤٦ .

٨ — في ص ٢١٢ : الحافظو عورة ، البيت ليس لابن الخطيم وإنما هو من كلمة في الرويّ لعمرو بن قيس الخزرجيّ وقد خرّجته في الخزانة السلفية ٤ / ٢٠٥ .

٩ — في ص ٢٣٠ البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي عزاه إليه سيبويه ١ / ٢٠٠ . وفُتيّة فيه مصغر فتاة ولا يجوز فِتنة فان البيت لا يتزن معه .

(كراتشي) ١٩٥٨/٩/٢٦ عبد العزيز الميمني

مستدرك

على تصويبات في الوافي بالوفيات

اطلعت في العدد الأخير من مجلة مجمعنا العلمي العربي (المجلد ٣٣ ص ٦٩٢) على الملاحظات القيمة التي أبداها السيد الأستاذ رشدي الحكيم على أوهام حصلت في الجزء الثالث من الوافي بالوفيات للصفدي ، فتذكرت أني كنت علقت بهامش الجزئين المطبوعين (الثاني والثالث) من هذا الكتاب تصويبات قليلة تخص الأعلام والجغرافية ، فرجعت اليها ونقلتها ، وهي التي أبادر بتقديمها الى المجلة عسى أن تفيد الناشر المحقق اذا ما أعاد طبع الجزئين المتقدمين من « الوافي » .

الجزء الثاني :

جاء في ص ١٥ سطر ١٩ — قوله : « أنشدنا له أبو يحيى بن عربية » ، والصواب : ابن عريبة ، وهو أديب تونسي مشهور ، رحل الى المشرق واجتمع بوجوه من أعلام كتابه وأدبائه ، وعاد الى بلده[1] .

ص ٣٩ سطر ١٤ — (في ترجمة أبي العرب الإفريقي المالكي) وقد عدّ من مصنفاته . . « فضائل مكة » ،

والصواب : « فضائل مالك » بن أنس الإمام المدني صاحب المذهب .

ص ٢٥٧ سطر ١٥ — في ترجمة (محمد بن بكسوت الظاهري) قال . . . « وكان كاتباً مطيقاً كتب الكثير من المجلدات والربعات الفصاح » ،

(١) هو عثمان بن عتيق القيسي المعروف بابن عريبة ، أبو عمرو ، ولد بتونس وبها توفي سنة ٦٠٩ ﻫ (ترجمه التجاني في رحلته وكذا العبدري في تقييد رحلته) .

والصواب : .. كتب الكثير من المجلدات والربعات بالفضّاح ، وهو نوع من الخط المنسوب في الأقلام السبعة التي كانت شائعة في عصر المماليك ، وقيل سمي بذلك لأنه يفضح صاحبه اذا كتب به ولم يجده . والغريب ان في الأصل المنتسخ منه وردت الكلمة على صوابها وصححها الناشر بما تقدم ، والمعنى لا يستقيم إذ لا معنى للربعات الفصاح .

في الجزء الثالث :

ص ٤٧ سطر ٣ — (في ترجمة محمد بن خلوف) ... «من أشراف أهل ناحية القمح ورؤسائها» ،

والصواب : .. من أشراف (باجة القمح) وهي من المدائن المشهورة بالبلاد التونسية من ناحيتها الغربية ، وإنما نسبت باجة هذه الى القمح لاشتهار أرضها بانتاج هذا النوع من الحبوب ، وأيضاً للتفريق بينها وبين (باجة الزيت) بلدة صغيرة بالساحل التونسي معروفة بكثرة زيتونهـا وبصنع الزيت (راجع معجم البلدان لياقوت — في باجة) .

ص ٦٩ سطر ١٨ — (في ترجمة محمد بن ربيع) جاء انه من قرية تونس ،

والصواب : من قرية ينونش ، وكانت موجودة بالساحل الشرقي من القطر التونسي بقربة من بلدة الشابّة اليوم (راجع معجم البلدان — في ينونش) أما مدينة تونس وهي عاصمة البلاد فلا يصح أن يصفها الصفدي بقرية .

(تونس) حسن حسني عبد الوهاب

ملاحظات [١]

على الجزء الثالث من كتاب الوافي بالوفيات
لصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي
باعتناء الأستاذ (ديدرينغ)

– ٢ –

ص ١٢١ : في ترجمة ابن حيوس أنه اُستُخلف من قبيل الحكام على الفرايض والتزويجات : مكان (من قِبَل الحكام) .

ص ١٢٤ : في ترجمة الحناظ الرعيني الأديب الأندلسي (وكان ينادي أبا عامر بن شهيد) : والتصحيح (كان يناوئ) كما جاء في ترجمته في كتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد . والحناط بالطاء المهملة لا بالظاء .

ص ١٢٩ : محمد بن سليمان الغاني ، والصحيح الغابي بالباء لا بالنون نسبة الى الغابة قرية من كورة اشبيلية . وله ترجمة في المغرب لابن سعيد ١ : ٢٩٥ .

ص ١٢٩ :

وكم يكيد له الذكرى هوى نفيث منه صبابة عهد غير معهود
بما ارتمته وما زالت تميد به الى التصابي عيون الخرد الغيد

لعله في البيت الأول : (وكم يعيد له الذكرى) . وفي البيت الثاني : (وما زالت تميل به) باللام .

ص ١٣٥ :

أين الثنايا التي اذا ابتسمت أو نطقت لاح لؤلؤ نَضِدُ

وقد وضع تحت الضاد من نضد كسرة والصحيح نَضَدُ محركة .

(١) تتمة ما نُشر في (المجلد ٣٣ ، الجزء ٤ ، ص ٦٩٢ – ٦٩٤) من هذه المجلة .

ص ١٥٢ :

جازيتَ دُرّي وقد نَضّدته كلماً يروق سمع الورى دراً بمحلب

وهي مُخَشْلب .

ص ١٥٢ : لأن ناصر الدين شافعاً كان قد عمي بآخره رحمه الله كلاً : والصحيح (كان قد عمي بأخرة رحم الله كلا) وأخرة محركة وبأخرة آخر كل شيء كما في القاموس ، والصلاح الصفدي يستعملها كثيراً في نكت الهميان . ورحم الله كلاً أي كلاً من ابن الوحيد وناصر الدين شافع .

ص ١٥٥ :

فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه والماء ما سمحت به أجفانه

والصحيح (ما سحّت) على ما في الأغاني وغيره .

ص ١٥٩ :

أبا حسن هل جاز في الحب قبلها لمستسلم من أن يطاح له دم

والأصح (من أن يفاح) بالفاء لا بالطاء .

ص ١٦٥ : وأضر بآخره . والأصح (وأضر بأَخَرة) .

ص ١٦٧ : قال ابن الجوزي في المرآة : والمرآة لسبط ابن الجوزي .

ص ١٩٢ : — لكنها خَطِرات من وساوسه — بكسر الطاء والصواب خَطَرات بفتحها .

ص ١٩٦ :

كان القصد من إحدا ث أزمانِيَ ازماني

ربما كان الأولى (من أحداث ازماني إزماني) . أحداث جمع حدث وإزماني مصدر من أزمنه أصابه بعاهة .

ص ٢٠٤ :

أفي كل صدر منك صدر كتيبة وفي كل حرف غارة وكمين

ولعل الأولى (صدر منه) والضمير عائد للكتاب .

ص ٢١٢ : طالما كثر الأنصار يوم اليأس، والصواب (يوم البأس) بالباء .

ص ٢١٢ : والوصايا كثيرة والتقوى زمامها وإمامها، إذا تقدم كل جماعة أمامها إمامها .

أرجح ان (امامها) الأولى بضم الأول بمعنى الجامع للخير ، (وكل) بالنصب على أنه مفعول لتقدم والفاعل (امامها) الثانية .

ص ٢٣٠ س ٢٠ : سنة خمس عشر : (سنة خمس عشرة) .

ص ٢٣٩ : وتزوج بآخره : (وتزوج بأخرة) .

ص ٢٣٩ : ويكتب خطاً ردئاً : (رديئاً) .

ص ٢٤٣ : وسمع بقراءتي معجم الشيخ علي بن العطار . ولعله (معجم الشيخ عَلى ابن العطار) ، وعلى هنا حرف لا اسم .

ص ٢٤٧ : وتمَ تصنيف الأحكام : (وتَمّم أو أتَمّ) .

ص ٢٥١ :

أنقب ظهر الأرض ناشد صادق صديق فهل من منشد فيشابا

(فيثابا) بالثاء .

ص ٢٥٣ : وله أصحاب ومريدين : (ومريدون) .

ص ٢٦٥ :

رويدك يا بدر التمام فانني أرى العيش حسرى والكواكب طلما

ولعل الشطر : (أرى الشمس حسرى والكواكب ظلما) بالظاء .

ص ٢٧٣ :

أم السماء أتاجتنا زواهرها أم محدق الروض قد أهدى لنا زهره

لعل الصواب (أباحتنا) .

ص ٢٧٦ :

والجد قل عابد الرحمن لا ألفٌ من قبل باء وسكن بابه نصب

(وسكن باءه) فاذا حذفنا الألف من عابد الرحمن وسكنا الباء يخرج معنا حاصل الضرب والطرح عبد الرحمن اسم جده .

ص ٢٧٩ : خرجنا نبتغي مكة حجاجاً وعمارا

فلما بلغ الحيرة حادى جملي حارا

فصادفنا بها ديراً ورهباناً وخمارا

هذه الأبيات الثلاثة أثبتت نثراً في حين كان ينبغي أن تثبت شعراً .

ص ٢٨٠ :

لا تيأسنّ اذا حويت فضيلة من العلم من نيل المرام الأبعد

والصواب (في العلم) ليستقيم البيت .

ص ٢٩٢ :

ووجد أناخت بالبواد ركايب له حين زمت للحبيب ركاب

والصواب (بالفؤاد) بالفاء ولعلها خطأ مطبعي .

ص ٢٩٢ :

وفكري وصبري ذاك ترداد وصله وهذا له عني نوى وذهاب

ولعل الأولى (يزداد وصله) .

ص ٢٩٤ :

أبا مريم لولا حسين تطالعت عليك سهام من أخ غيرُ قادل

ولعلها (تطلقت) بالقاف .

ص ٣١٥ :

اذا كنت عند الجد في الجد عمدة ولا أنت عند الهزل تصلح للهزل

وأرجح أن تكون (فلا أنت عند الجد) .

ص ٣٢٣ : وكان شجاعاً جرئاً : (جريئاً) .

ص ٣٢٤ :

فكم أنت تنهى ولا تنتهي وتُسمِع وعظاً ولا تُسمَع
فيا حجر الشحذ حتى متى تسن الحديد ولا تُقطَع

وربما الأصح (ولا تَسْمع ولا تَقْطع) للبناء للمعلوم .

ص ٣٢٤ : ماهذه دار سلام : ولعلها (ماهذه دار إسلام) .

ص ٣٢٦ س ١٧ : الى أن حان الليل بينهم : والأولى (حال) باللام .

ص ٣٢٨ :

لا تقبلنّ المدح ثم تعوّقه فتنام والشعراء غير نيام

بتشديد الواو من تعوقه ، ولعل الصواب تَعوقه بالتخفيف .

ص ٣٣٥ :

وان يوماً أراه فيه أحسبه أمر يوما من الدنيا وأبركه

والصواب (أمر يومٍ) .

ص ٣٣٥ :

اذا جانبت مقتدراً عليها كبائر ماجنت كف الأثيم
فلا تستكثري لمي فاني سأقدم في الحساب على كريم

وكتبت جانبتَ بضمير المخاطب وانما هي بضمير المتكلم .

ص ٣٣٨ : مع حظ وافر من الأدب وحفظ الأشعار والطب ، والأقرب أن تكون (والخطب) .

ص ٣٣٨ س ١٨ : وربما تغذي معه : والأقرب أن تكون تغدى بالدال المهملة .

ص ٣٤١ :

ولقد توسط في الأرومة منزل وسطاً فصار موازياً للكوكب

(منزلاً) .

ص ٣٤٢ :

وان ترفعوا عنا يد الظلم تجنوا لطاعتكم منا نصيباً مؤخرا

ولعل الصواب (تخبئوا لطاعتكم) و (نصيباً موفرا) بالفاء .

ص ٣٤٢ : أطعم طعاماً فمات منه مبطوناً بالحضرة سنة أربع عشرة وأربع ماية مشرفاً على الستين واتهم به جماعة ممن كان هجاه . والصواب (ممن كان هجاهم) والترجمة واردة بالحرف الواحد في نكت الهميان .

ص ٣٤٣ : قال علي يوماً لفاطمة وهي تبكي لم تبكين أأخذت منك فدك ؟ : والصواب فدك بالفاء لا قدك بمعنى انتهي .

ص ٣٥٢ س ١٤ : وجاوز بمكة سنين عديدة . (وجاور) وهي من خطأ الطبع .

ص ٣٦٣ :

اقصر فقد صحت ثنانة أهله ومن الثغور كما علمت الأبجر

وصوابها (الابخر) بالخاء .

ص ٣٦٨ :

يا أيها الملك المنصور قد كسرت جنودك المغل كسر ماله جبر

(كسراً) .

رشدي الحكيم

العنوان
في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان
لمؤرخ دمشق النعيمي

عُني عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد النعيمي الدمشقي (المتوفى سنة ٩٢٧ هـ) بالحديث وبالتاريخ ، فلقبه معاصروه بمؤرخ دمشق ، وبشيخ السنّة النبوية بها [١] . اشتهر بكتابه « تنبيه الطالب » الذي ذكر فيه ما كان بدمشق من المدارس والزوايا والربط والمساجد [٢] . وهو كتاب نادر ، لا نجد بين أيدينا اليوم مثله عن العواصم العربية الأُخرى .

خلّف النعيمي آثاراً في التاريخ فقدت . وقد عثرنا له أخيراً ، في الخزانة التيمورية بالقاهرة ، على كتاب اسمه « العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان » فرأينا أن نعرّف به ها هنا .

يترجم النعيمي في كتابه هذا لعدد كبير من العلماء الذين أدركهم في دمشق ومصر ، في القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجريين . وقد بدأ كتابه بقوله :

« وبعد ، فهذه الورقات سميتُها العنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان .
« نذكرهم على وجه الاختصار . ومن أراد بسط ذلك فعليه بكتابي « التبيين
« في تراجم العلماء والصالحين » ، وبكتابي « تذكرة الإخوان بحوادث الزمان . »

(١) انظر عنه كتابنا : المؤرخون الدمشقيون وآثارهم المخطوطة ، والمصادر المذكورة فيه – وكذلك مقدمتنا لكتاب قضاة دمشق لابن طولون .

(٢) طبع بتحقيق الأمير جعفر الحسني باسم « الدارس في تاريخ المدارس » . صدر في دمشق عام ١٩٤٩ و ١٩٥١ (مطبوعات المجمع العلمي العربي) .

رتّب النعيمي التراجم على طبقات فقال :

« وأنا أرتب مَنْ أدركتُ على ثلاث طبقات :

« الأولى : فيمن أخذتُ عنه علماً ، أو رويتُ عنه شيئاً ، إجازةً ، «أو إذناً ، أو حضوراً ، أو سماعاً ، أو قراءةً ، أو نحو ذلك .

« الثانية : في الأصحاب والأقران .

« الثالثة : في الأتباع . »

فيكون الرجال المترجم لهم من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن التاسع والربع الأول من القرن العاشر .

وقد رتب النعيمي هذه التراجم حسب مولدها . قال : « وأنا أرتبهم على حسب موالدهم . » ولكن يبدو أن هذا الترتيب كان في مسوّدة المصنف ، ثم بدّله بعض الطلبة . يقول النعيمي :

« وقد استعارها مني بعض فضلاء الطلبة المصريين ، فرتبهم على حروف المعجم ، فقدّم المؤخّر وأخّرَ المقدّم ، على حسب ما أراد . ولا قوّة إلا بالله . »

وقوله : لا قوّة إلا بالله ، يُشعر بأنه غير راضٍ عما فعله الطلبة المصريون .

ثم وقعت هذه النسخة لابن المؤلف يحيي . فذيّل على أبيه بخطه قائلاً :

« يقول كاتبه العبد الفقير الى الله تعالى أبو زكريا يحيي ابن المؤلّف ، مؤلف هذا الكتاب المسمّى ذلك بالعنوان في ضبط مواليد ووفيات أهل الزمان ، جمع والد كاتبه هو سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الإمام العلامة العمدة . . . .

« استخرتُ الله تعالى بأن ألحق بهذا المؤلف مواليد جماعة من الصلحاء والفضلاء الذين انتشو (كذا) في هذا الزمان وغيره . . . »

★

وقد صارت هذه النسخة المخطوطة الى أحمد رافع الطهطاوي . وكأنّه وقع على مسوّدة المصنف نفسه ، فعارض النسخة بها وصححها ، ونبّه في الحواشي على أخطاء كثيرة وردت في النصّ .

وها نحن أولاء نقدّم أنموذجين من ترجمات النعيمي ، وملاحظات الطهطاوي .

— ١ —

« ومنهم قاضي القضاة حافظ العصر شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي ابن محمد بن علي بن محمود بن أحمد بن حَجَر ، وبه اشتهر ، ابن أحمد ، العسقلاني الأصل ، المصري ، الشافعي .

« مولده بمصر العتيقة . وميلاده ثالث عشرين شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبع مئة . وأول سماعه الحديث كان بمكة سنة خمسٍ وثمان مئة . وتوفي ليلة السبت ثامن عشر ذي الحجة سنة اثنتَين وخمسين وثمان مئة بالقاهرة . وقد ذكرتُ له ترجمة بخطي في كراسين بأول شرحه فتح الباري .

(حاشية بخط الطهطاوي : قوله سنة خمسٍ وثمان مئة صوابه خمس وثمانين وسبع مئة . وكان عمره إذ ذاك اثني عشرة سنة . ذكره الحافظ ابن حجر نفسه في المجمع المؤسس[1] . كتبه أحمد بن رافع الطهطاوي الحنفي عُفي عنه .)

---

(١) يعني المجمع المؤسّس للمعجم المفهرس الذي جمع فيه أسامي شيوخه وهو مايزال مخطوطاً . انظر فهرس المخطوطات المصوّرة . التاريخ ١ : ٢٣٠ .

- ٢ -

« ومنهم العلاّمة قاضي القضاة المالكية بدمشق علم الدين ويُقال انير (كذا) الدين ، أبو النجا سالم بن ابراهيم بن عيسى الصنهاجي المغربي [١] .

« ميلاده سنة سبع وأربعين وسبع مئة . وتولّى [قضاء] قضاة المالكيـة بدمشق في سنة ثلاث وأربعين وثمان مئة . وتوفي بالمدرسة الشرابيشية [٢] قبلي الأسدية ، داخل دمشق ، في تاسع صفر سنة ثلاث وسبعين وثمان مئة ، ودُفن من جانب (كذا) الشمالي من مقبرة الحمدية [٣] (كذا) .

(حاشية بخط الطهطاوي : الذي بخط المؤلف : ويقـال زين الدين . كتبه أحمد رافع عُفي عنه) .

★ ★ ★

والمخطوط في ٦٠ صفحة . ومن ص ٦١ يبدأ ذيل ابن المؤلف وينتهي في ص ٦٥ . وقد وقفه أحمد بن اسماعيل بن محمد تيمور . ورقمه في التيمورية ٢١٩٣ تاريخ . والكتاب يُكمل النصوص التي بين أيدينا عن تراجم رجال القرن التاسع والقرن العاشر ، كالضوء للسخاوي ، والكواكب للغزي ، وتراجم الأعيان للبوريني ، وذخائر القصر لابن طولون ، وغيرها .

صلاح الدين المنجد

(١) انظر : قضاة دمشق لابن طولون (من تحقيقنا) رقم ٢٠٠ . وهذه الترجمة لكمل ما ذكره ابن طولون .

(٢) انظر عنها الدارس للنعيمي ٢ : ٧ .

(٣) صوابها « الحمرية » . عرفت كذلك في القرن التاسع ، وهي مقبرة الحميريين . انظر عنها كتابنا خطط دمشق ص ١٢٦ ؛ وتاريخ دمشق ، المجلدة الثانيـة (تحقيقنا) ص ٩١ ، ١٤٤ .

فهرس الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين

التعريف والنقد

آراء وأنباء

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ نيسان سنة ١٩٥٩ م ٢٣ شهر رمضان سنة ١٣٧٨ هـ

سخرية الشدياق

كنت كلّما أقلّب النظر في صور رجالات العصر الحديث أحبس هذا النظر على صورة أولعت بها الولع كلّه ، أرى طربوشاً حميدياً منحدراً الى الأذنين كأنه يقطينة على رأس صاحبه وعينين ان لم تكونا مثل حبّتين من حمّص ذابل فانهما مثل جوزتين خضراوين ناضرتين يشيع الخبث فيهما وأرى لحيـة قد بعثرت شعراتها على الخدّين ومن تحتها عقدة ملتفة من العنق الى الصدر بحسبها الإنسان لأوّل وهلة ضفدعاً على منضدة التشريح أرى هذا كله وأرى وقفة تشبه وقفة الأسد فأقول : على أيّ شيء تنطوي هذه الصورة ، وأنا غير مطلع على علم الهيئة !

صاحب الصورة أحمد فارس الشدياق .

طلع القرن التاسع عشر فطلعت فيه عبقرية لا أبالغ اذا قلت انها أعظم عبقرية نشأت في تلك الأيام واذا كان المجال لا يتسع للكلام على هذه العبقرية من مجامع نواحيها فاني أرجو أن يتسع للكلام على ناحية واحدة منها انفرد بها صاحبها وهي السخرية .

غير أني لا أستطيع التبسط في هذه السخرية والاشارة الى مختلف مظاهرها الاَّ اذا أوجزت في الإشارة الى العصر الذي عاش فيه الشدياق لأنَّ بين أوضاع ذلك العصر وبين سخرية الشدياق نسبةً مستحكمة الاَواصر ، لقد هدم وبنى ولكنه لم يستخدم في بنيانه الاَّ السخرية وحدها ، ثار ثورة على عصره إن لم تنفجر فيها الدماء فقد انفجر فيها شيء أرهب من سفك الدماء ، انفجرت فيها سخرية كان وقعها في الاَفهام أشدَّ من وقع السهام في الاَجسام .

***

راقب الشدياق عصره في أكثر جوانبه ، فلم يغفل عن شيء مما كان يجري في ذلك العصر ، لقد تولى في كتابه : الساق على الساق تدوين سيرته ولكن قد يتخلل هذا التدوين استطراد الى ذكر أمور تتصل بعصره مثل أمور الرهبان والكتاتيب والحكام والاَمراء والأغنياء والنساء والحياة الاجتماعية ومعاملة الترك للشعب وبعض الطوائف والأديان أو ذكر أمور فنية كالشعر والموسيقى وغيرهما ، واذا ما قابلنا بين العصر الذي عاش فيه الشدياق وبين العصر الذي نعيش فيه استطعنا أن ندرك هذا الإسراع الذي تسرعه حياتنا الى الكمال ، فلولا الشدياق وأمثاله من أصحاب العيون الثاقبة والاَذهان النافذة لما كدنا نحيط بتلك الظلمات غير البعيدة عنا ونقابل بينها وبين هذا الضياء الساطع في حياة أيامنا .

راقب الشدياق الرهبان في أديارهم وقد كان سبب هذه المراقبة اضطهاد الموارنة لأخيه أسعد الذي كان يحبه حباً جماً ، تتبع زلاَّتهم وبحث عن خفايا أمورهم وكشف الغطاء عن سيرتهم فلم يجد في الاَديار الاَّ جهالة جهلاء وضلالة عمياء .

همُّ رجال الدين على نحو ما قال لنا أن يتعلموا بعض قواعد في اللغتين العربية والسريانية لمجرَّد العلم بها فقط من دون فائدة إذ لم يُعلم الى الآن أنَّ أحداً منهم ترجم كتاباً أو كرَّاسة مفيدة في هاتين اللغتين ولا أنَّ البطرك

أمر بطبع كتاب فيها وانما كان ينفق دخله على الولائم والمآدب التي يهيؤها لزواره وأمراء الجبل ومشايخه ·

إلاّ انه لم يقتصر على التنديد بجهل الرهبان وانما ندّد بمعتهم فجال في هذا الباب مجالاً لا حاجة بنا الى الدخول في تفاصيله ·

خرج الشدياق من الأديار فضرب بعينيه في الكتاتيب فرأى المعلمين في كتاتيب الجبل لم يطالعوا مدّة حياتهم كلها سوى كتاب الزبور وهو الذي يتعلمه الأولاد هناك لا غير من دون أن يفهموه بل فهم معانيه على ما وضحه الشدياق محظور ولماذا هذه الأساليب السقيمة في التعليم لقد شرح لنا ذلك فقال :

« والظاهر أنّ سادتنا رؤساء الدين والدنيا لا يريدون لرعيتهم المساكين أن يتفقهوا بل يحاولون ما أمكن أن يغادروهم متسكعين في مهامه الجهل والغباوة » ·

غادر الأديار والكتاتيب فدخل السرايا فرأى أن الحكام لا يقلدون الوظائف إلاّ ناساً جهلاء وهذه هي الصورة التي خلفها لنا في هذا المعنى :

« لم يكن حاكم البلاد يستخدم من الكتّاب الا من بذأت العين خطه وعاف الذوق السليم كلامه اشعاراً بأن الحظّ لا يتوقف على الخط وان ادارة الأحكام لا تفتقر الى تهذيب الكلام وان كثيراً قد نالوا المراتب السامية والمناصب السنية وهم لا يحسنون توقيع اسمهم الشريف » ·

أديار تكاد الحياة تكون فيها فسخة ، وكتاتيب تعلم القراءة من غير فهم المعاني وحكام يتقلبون في الجهل فكيف لا ينشأ عن حالات مثل هذه الحالات ظلم واستبداد فإذا تعدّى أحد الناس على أحد وفرّ من القِصاص أُخذ بذنبه على نحو ما رواه الشدياق أحد أهله أو جيرانه أو ماشيته أو ماعونه وقطع شجره وأحرق منزله ·

وكانت للحكام حالة خاصة في الاستعلاء فاذا سأل الأمير أحد الناس

عن شيء وتلعثم في الجواب أو تروّى فيه سبّ آباءه وأجداده ولعنه وتهدّده بالصلب أو بسمل عينيه .

تغلغل الشدياق بعد هذا كله في طبقات الشعب فوجد أن الأغنياء لا يسافرون ولا يختبرون أحوال الأمم وعاداتهم وأطوارهم وأخلاقهم ومذاهبهم وسياستهم ووجد أنّ المرأة أمية في عزلةٍ عن المجتمع لا تعاشر أحداً سوى الخوادم وأهل البيت فكانت تحصّل معارفها كلها من الخوادم لا غير .

إلاّ أنه رأى في المرأة طبائع حسنة فصوّرها على هذا الوجه :

«من طبع هؤلاء المخلوقات المباركات سلامة النية وصفاء العقيدة والتقرب الى الرجال لا عن فجور فترى المرأة منهنّ متزوجة كانت أو ثيبة تجلس الى جانب الرجل وتأخذ بيده وتلقي يدها على كتفه وتُسند رأسها على صدره وتبسم له وتوآنسه في الحديث وتتحفه ببعض ما تصل اليه يدها . كل ذلك عن صفاء نية وخلوص مودّة وأحسن ما يرى فيهنّ البلاهة فانها في النساء خير من الفكر والدهاء» .

لقد أمعن الشدياق في تصوير المرأة في عصره تتبعها في كل شيء ، في محاسنها وأحاديثها وهو مولع بالمقابلات بين نساء ونساء وبين ثياب وثياب ، دخل دمشق فوصف نساءها فقال :

«فأما نساء المسلمين فقد ظهر لي في بادئ الرأي أنهنّ أجمل من نساء النصارى كما أنّ الرجال من المسلمين أجمل من النصارى وأفصح لهجة وكذا هم في سائر البلاد الإسلامية ولون النساء عموماً البياض المشرب بالحمرة والغالب عليهنّ الطول والشّطاط غير أنّ هذا الإزار الأبيض التي يتزرن به عند خروجهنّ من ديارهنّ لا يحلو للعين كحبر نساء مصر وكلاهما مخف لمحاسن القدّ ولعلهن يلبسن ذلك عمداً لتأمن الرجال فتنتهنّ فلهنّ الشكر عليه !»

ولم يكتف بوصف أمية المرأة وطبائعها وهيئتها في عصره وانما دخل عليها الدور والمنازل فرأى كيف تأكل وكيف تجلس وحَسْبنا أن نعرف أن النساء كنّ يقعدن على الأرض وهي عادة ألفنها ولا يرين فيها عيباً وأكثرهن تبدي ثدييها ٠

واذا فرغ من مراقبة المرأة في جلستها وأكلها انصرف الى مراقبة الأُمراء فقال فيهم : « انهم يقعدون على الحصير وعند النوم يرقدون فوقه على فراش واحد وربما اجتزأوا بالبيض والأرز واللبن عن الحمام والفراخ والدجاج من دون شراب ولا فاكهة ولا نقــل وأرجلهم ظاهرة فاذا قعدوا على الحصير خلعوا نعالهم بالقرب منه فتبقى بمرأى منهم وترى بعض خدمهم يقوم على رؤسهم أي بازائها لا فوقها وفي حزامه الملعقة وآخر في جيبه الطاس من فضة إشارة الى غنى الأمير والى كونه أحد الناس غير مستغن عن الأكل والشرب وهو قاعد مطرق لا كتاب عنده فيطالعه ولا سمير له فيسامره ولا آلة لهو تطربه وهو يقضي ساعات من النهار هكذا بل يوماً وأياماً ولا يرى من امرأة أصلاً ٠»

لم يغفل الشدياق عن ناحية من نواحي عصره في وطنه ولما ذهب الى مصر عاد الى دأبه من المراقبة والتتبع كان للترك في مصر سلطة ٠ كان لهم سطوة على العرب وتجبر وصفها الشدياق فقال : « حتى ان العربي لا يَحِلّ له أن ينظر الى وجه تركي كما لا يَحِل له أن ينظر الى حرم غيره واذا اتفق في نوادر الدهر ان تركياً وعربياً تماشيا أخذ العربي بالسنة المفروضة وهي أن يمشي عن يسار التركي محتشماً خاشعاً فاذا عطس التركي قال له العــربي : رحمك الله ! واذا تنحنح قال : حرسك الله ! واذا مخط قال : وقاك الله ! واذا عثر عثر الآخر معه اجلالاً له فقال : نعشك الله لانعشنا ! »

هذه طائفة يسيرة من أوضاع عصر الشدياق ظلمات بعضها فوق بعض ،

ظلمات في الأديار والكتاتيب ظلمات في حياة الرجل والمرأة ظلمات في الحكم والسياسة ظلمات في الحياة الاجتماعية بحذافيرها ... لقد ثار الشدياق على هذا كله ولكن ما هو المسلك الذي سلكه في ثورته . هذا هو موضوع حديثنا .

***

اذا كانت السخرية في قديم الدهر طريقة بسيطة من طرق المناظرة لجأ اليها سقراط فنسب اليها اسمه فقد أصبحت يومنا هذا طريقة من الطرائق التي نتقي بها العواطف العنيفة وندفع بها عن أنفسنا الأهواء العميقة فنحن نخاف أن نألم ، نخاف أن نتلف ، نخاف أن يزعجونا في عاداتنا وهدوئنا فنسخر بدلاً من أن يكدّرنا مكدّر ، فنضع بهذه السخرية كل أمر من أمور الناس في نصابه ونعلمهم كيف نحكم على سيرتهم ، انّا لا نجرأ على أن نجرحَ الناس جُرحاً مكشوفاً ولكنا نقصد الى أساليب ثانية من هذه الأساليب : السخرية .

هذه خلاصة ما قاله أحد رجال الاكادمية في باريز ، ولقد لجأ الشدياق الى هذه الأساليب التي لا تجرح جُرْحاً مكشوفاً ، يقول ڤولتير : اذا أردت القضاء على خصمك فاجعله هُزْأة ، لقد جعل الشدياق عصره كله هزأة ارادة منه أن يهدمه ويبني بدلاً منه عصراً كاملاً من كل الوجوه .

لم يكن الشدياق من طبقة الكتّاب الذين يراقبون عصورهم فيشهدون مفاسدها وما اختلّ من أوضاعها فيقتصرون على تهديم ما اعوجّ من هذه الأوضاع دون التفكير في شيء من تقويم الاعوجاج والتنبيه على ما فيه صلاح المجتمع ، وقعت عينه على مساوئ عصره بأجمعها فاستعمل كلّ ما أتاه الله من مواهب السخرية والأدب والعقل في اصلاح الدين وتقويض ما أحاط به من حياة فسخة في الأديار وجهل مستفيض في الرهبان والشعب والحكام والأمراء والشيوخ وفساد في العادات والتقاليد والآداب وقساوة في معاملة الولاة للرعية واستبداد

بأمور السياسة وزهدٍ في الفنون اللطيفة وجمود في بعض مذاهب الأدب وفي غير هذا كله من أمور الحياة ، لقد ثار على كل مفاسد عصره ولكنه لم يفكر في لفظ من ألفاظه ولا في جملة من جمله ولا في فصل من فصوله في الاغراء بسفك الدماء . لقد كانت ثورته هادئة هدوء نسيم الفجر ، صافية صفاء الينابيع ، آلمه خصام الناس وخلافهم وعداؤهم فدعاهم الى ضروب من الأخلاق لا خصام فيها ولا خلاف ولا عداء ، دعاهم الى بناء الأخلاق على العلم فقال :

«ما بال علماء الرياضة والهندسة والتنجيم لا يختلفون في أدلتهم وان اختلفوا لم يشبوا ناراً لتحقيق نحلتهم» .

ثار على الرهبان ثورة شديدة ، ثار على جهلهم ، ولكن كيف كان يسخر بهذا الجهل ، كان يلجأ الى طريقة خبيثة في الدلالة عليه تشبه طريقة الجاحظ في القديم فهو يورد النكتة الناطقة عن جهل الرهبان دون ذكر هذا الجهل .

أعمل فكره وهو في دير من الأديار في نظم بيتين في العدس فالتبست عليه لفظة فقام في طلب القاموس فطرق باب جاره وكان من المتحمسين في الدين فقال له : هل عندك يا سيدي القاموس ، قال : ما عندنا بالدير جاموس بل ثيران ، فطرق باب آخر وكان أشدّ منه خشونة فقال له : هل لك في أن تعيرني القاموس ساعة قال : اصبر عليّ الى نصف الليل فان الكابوس لا يأتيني إلا في هذا الوقت ، فمضى الى غيره وأعاد عليه السؤال فقال له : أيّ شيء هو هذا القاموس يا ماعوص !

وهكذا سخر بجهل رجال الأديار دون شيء من الشتم والقذف وقد أعانه على هذا تبحره في اللغة ووقوفه على غرائب الألفاظ التي تنفخ روحاً في النكتة في بعض الأوقات .

وكما هزأ بجهل الرهبان فكذلك هزأ بالأمراء والحكام ، أراد أن يصوّر

استعلاءهم وبعدهم عن طبقات الشعب فقال : ان الأمير في ذلك العصر لا يُرى منه إلاّ قذاله من بعدٍ ولا يتاح لكل واحدٍ تقبيل يده الشريفة .

وقد أضاف الى هذه الصورة صورة أخرى فقال :

واتفق أن زارني في صباح ذلك اليوم بعض الأمراء الذين ينبغي أن يقال لما أثبتوه : نعم ، في موضع لا ، ولما نفوه : لا ، في موضع نعم .

هكذا كانت عقول أمراء الجبل في عصر الشدياق واذا كان الناس على دين ملوكهم فقد كان كتّاب الأمراء على دين الأمراء أنفسهم ، سأل الشدياق أحدهم مرّة مسألة تتصل بخير الحياة وشرّها ، بلذّتهـا وألمها فصّلها ابن حزم في بعض كتبه فقال كاتب الأمير : انّ سعادتي في الكون هي أن أرضى عن أميري ويرضى عني ، وشقاوتي هي أن أغضب منه ويغضب مني وقد نسيت كلّ ما جرى عليّ من الغضب لكثرة المشادّة والمقتضي فان صبرت عليّ في المستأنف شهراً لأقيد في دفتري ما ألقاه منه حلواً ومرّاً ، ونفعاً وضرّاً أفدتك الجواب !

ولا شك في أنّ هذا النمط من الكتاب أشدُّ موافقة لهذا النمط من الأمراء .

ولقد كانت سخريته بالناس الذين كانوا يزهدون في تعليم المرأة مثل سخريته بالرهبان والأمراء وكتّابهم ، لماذا زهد الناس في هذا التعليم ، لأنهم على نحو ما قال الشدياق يزعُمون ان علم القراءة مفسدة للنساء وانّ المرأة أوّل ما تستطيع ضمّ حرف الى حرف تجعل منها كتاباً الى عاشقها .

فهل من كلام أبلغ في السخرية من قوله : ضمّ حرف الى حرف أو قوله : تجعل منها كتاباً الى عاشقها ، في سطر واحدٍ صوّر جهل عصرٍ بحذافيره وصبّ سخريته على هذا الجهل .

انتقل من السخرية بالزهد في تعليم المرأة الى السخرية بالزهد في الفنون اللطيفة ، كان أهل عصره يعتقدون على نحو ما قال ان صنعة الألحان والعزف

بالملاهي يتسم صاحبها بالشين لما في ذلك من التطريب والتصبي والتشويق والقوم يحذّرون من كل ما يلذّ الحواسّ ولذلك لا يشاؤن أن يتعلموا الغناء والعزف باحدى آلات الطرب أو يستعملوها في معابدهم وصلواتهم كما تفعل مشايخ الافرنجة خشية أن يفضي بهم ذلك الى الالحاد ·

غادر هذه الطبقات وتغلغل في المجتمع فوقعت عينه على الأطباء والأطباء لم يسلموا من شرّ الأدباء لا في القديم ولا في الحديث قال الشدياق فيهم :

فاني أرى هؤلاء الأطباء يعالجون الأمراض بالخرص والتخمين فما يهتدون الى العلة والمعلول الا بعد أن تبلغ الروح الحلقوم فيجرّبون مرّة دواء ومرّة أخرى غيره ثم لخّص رأيه فيهم في قوله :

غير أن الطبيب رسول عزرائيل منعني من الحركة ·

فما أظن أن الهجاء الشديد يعدل قوله : رسول عزرائيل !

وهل كان الشدياق رؤفاً بأصحاب الجنس الأنيس ، رفيقاً بالقوارير ، أراد أن يُظهر طبيعة من طبائع النساء ، ما هي هذه الطبيعة ، ولعهنّ بالثناء والمديح فهو يعرف أنهنّ يجهلن القراءة وعلى الرغم من هذه المعرفة قال فيهنّ :

لا شيء يصعب على فهمهنّ مما يؤول الى ذكر الوصال والحبّ والغرام فهنّ يستوعبنه ويتلقفنه من دون تلعثم ولا قصور وحسبي أن يبلغ مسامعهنّ قول القائل : ان فلاناً قد ألّف في النساء كتاباً فضلهن به على سائر المخلوقات فقال : انهنّ زخرف الكون ونعيم الدنيا وزُهاها وغبطة الحياة ومناها وسرور النفس ومشتهاها . . . فاذا قدّر الله بلوغ هذا الخبر المطرب سماع احدى سيداتي هؤلاء الجميلات وسرّت به وفرحت ورقصت ومرحت رجوت منها وأنا باسط يد الضراعة ان تبلغه أيضاً مسامع جارتها وأملت من هذه أيضاً أن تطالع به صاحبتها حتى لا يمضي أسبوع واحد إلاّ ويكون خبر الكتاب قد ذاع في المدينة كلها ·

بهذا النوع من السخرية البارعة شهر الشدياق ناحية من نواحي النساء .

وكثيراً ما كان يجري على أصول الجاحظ في سخريته ببعض المعتقدات ففي فصل من الفصول استفاضت طائفة من الأفكار تتعلق بالحياة وفلسفتها فنقل شيئاً مما يتناظر فيه الناس ويتجادلون ، من ذلك قوله :

فقال بعض : ألا ان درجات السماء مائة وخمس فقال غيره : ألا انها مائة وأربع فقال آخر : لقد كذبتما واستوجبتما قطع اللسان وسمل العينين وسلّ الأنثيين : انما هي مائة وست !

ان اثبات أمثال هذه المجادلات والمناظرات على هذا الشكل لا يخلو من سخرية خبيثة ، فهو لا يتعرّض لها ولا ينقدها أو يناظر فيها وانما يقتصر على ذكرها دون ابداء الرأي فيها ويترك للقارئ الحرية في الحكم عليها .

والخلاصة لم يترك الشدياق أحداً في عصره حتى ان الأدباء والشعراء والمنشئين لم ينجوا من سخريته كما لم تنجُ منها بعض عناصر الثقافة وفي مقدمتها النحو . روى كلاماً على لسان بعض الأساتذة يتصل بتطويل أبواب النحو وأظنه هو صاحب هذا الكلام قال : قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس فكنت أميل الى ما قالته الفلاسفة من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناهٍ فلما رأيت النحو له ابتداء وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عني والحمد لله ذلك الإبهام !

أمّا في باب السياسة القومية فقد لجأ الى تحريك العرب بشكل من السخرية يهزّ الجماد قال : وقد سمعت ان الترك هنا ، أي في الاسكندرية ، عقدوا مجلس شورى استقرّ رأيهم فيه لدى المذاكرة على أن يتخذوا لهم مركباً وطيئاً من ظهور العرب فانهم جرّبوا سروج الخيل وبراذع الجمال وأكفها وأقتاب الإبل وبواصرها وحُصُرها وسائر أنواع المحامل فوجدوها كلها لا تصلح لهم . . .

وما أظن أن كلاماً يستفزّ العزائم أقوى من هذا الكلام ثم استمرّ في هذا النحو من السخرية فقال :

ولم أدر ما سبب تكبر هؤلاء الترك على العرب مع أن النبي (ﷺ) كان عربياً والقرآن أنزل باللسان العربي والأئمة والخلفاء الراشدين والعلماء كانوا كلهم عرباً غير اني أظن أن أكثر الترك يجهل ذلك فيحسبون أن النبي (ﷺ) كان يقول : شوبله ! بوبله ! أو : بقالم ! بقالم ! لا والله ما كان هذا لسان النبي ولا لسان الصحابة والتابعين والأئمة الراشدين ، رضي الله عنهم أجمعين الى يوم الدين . آمين ! آمين ! وبعده آمين !

خلق الشدياق خفيف الروح والظل ومن نظر الى صورته في شيخوخته فلا بدّ له من أن يرى في تضاعيفها شيئاً من هذه الخفة على أنه لم ينشأ في صدر حياته على النعيم والترف وانما ذاق كثيراً من مرارة الحياة قبل أن يصل الى حلاوتها ونضارتها فقد كان على نحو ما قال 'بكب' على النسخ وفي طلعته مبادئ المسخ فكان 'يرى غائر العينين ذاوي اليدين ناتئ عظم الخدين زانئ الجلد كالظل حتى كان يرثى لحاله وأظن أن لخشونة حياته مراً كبيراً في سخريته الا ان مزاجه غلب على مصاعب الحياة وكان مرح نفسه أقوى من كآبتها فما كانت تمرّ به فرصة دون اغتنامها للتخفيف من كربه ومن يدري فقد تكون شدّة الحياة على بعض النفوس باعثاً لها على النشاط والضحك والإضحاك نشأ كما مرّ بنا في عصر ظلماته بعضها فوق بعض فاستعان على الخروج من هذه الظلمات وعلى إخراج أهل عصره منها بالسخرية فهو لم يشبه أولئك الكتّاب الذين تسودّ الدنيا في عيونهم فيسوّدونها في عيون الناس . انه على الرغم من كل ما عاناه في أوّل حياته ضحك للدنيا وما زال يضحك لها حتى ضحكت له فصار في اكتهاله الى النعيم وأورثنا بفضل مزاجه المرح الضاحك الساخر ميراثاً من الأدب يظلّ خالداً على مرّ السنين .

ولم يقتصر على السخرية بمجتمعه وحدَه وانما رحل الى مالطــة والى بلاد الانكليز فأفرغ سخريته على كل ما انحرف عن سواء السبيل في كل أمرٍ من أمور الحياة فقد أصبحت السخرية ملكته الغالبة وسلطانه القاهر . تتبع أهل مالطة في كل شيء ، تتبعهم في طبيعة بلادهم وتحدّاهم في طائفة من معتقداتهم وعاداتهم في الزواج وآدابهم في الأكل والمخاطبات ونقّر عن بلادة عقولهم وعن ضيق لغتهم وعن تقاليدهم ولم ينجُ من قلمه البغايا أنفسهنّ .

سخر بآدابهم في الأكل فقال : واذا دعوت أحداً منهم الى مأدُبة لم يكن منه في خلال التهامه ما بين يديه إلاّ الثناء على نفسه بأنه قليل الأكل .

ولكني أرى أن كل أنواع السخرية بأهل مالطة في كِفة وان النوع الآتي من السخرية بالبغايا في كِفة وحدها ، قال فيهنّ :

« وحين يأتين الفاحشة يغطين وجوه صور القديسين التي في حُجرهنّ ويقلبنها تأدباً وتورعاً .

ما أطبعه على روح السخرية ، أيّ تأدب أم أيّ تورع في مقام مثل هذا المقام !

ولما ذهب الشدياق الى بلاد الانكليز اتسعت آفاق سخريته راقبهم في حركاتهم وسكناتهم ، سخر بالأساقفة كما سخر بالشرفاء ، فرغ من هذه الطبقة فانصرف الى جامعات الانكليز فلم يسلم المستشرقون وطلاّب الجامعة من تهكمه كما لم يسلم من هذا التهكم كتّاب الصكوك في انكلترة ولم يعفّ عن النساء في بعض الأوقات .

بعد هذا كله التفت الى مجتمعات الانكليز فاستهزأ ببعض آدابهم في المآدب وبعض عاداتهم وسخر بمآكلهم وطبخهم ودخل دورهم فسخر بمعاملة سيدات الدور للخوادم خرج من الدور فراقب الانكليز في لهوهم وحظهم ومراكبهم فلم يوفر

لم أذواقهم في هذا اللهو وهذا الحظ وهذه المراكب ثم حرف نظره الى هيآت الانكليز فسخر بهذه الهيآت وببعض ثياب أصحابها كما سخر ببلادة الانكليز وطبائعهم وتحياتهم واجتماعاتهم ومعتقداتهم ومعاملاتهم الرسمية ·

واذا تعذّر الاستقصاء في أنواع هذه السخرية كلها فلا أقلّ من الإشارة الى بعضها ·

مساكين هؤلاء الرهبان الذين وقعوا في لسانه ، كان يتكلم على الأساقفة في قرى الانكليز وعلى منزلتهم في الناس فقابل بين ترفهم ونعيمهم وبين حضهم الناس على التقشف فقال :

وربما بلغ دخل أحدهم ألف ليرة فترى له أحسن الديار وعنده خدمة وعاجلة فاخرة وخادم يسوقها وعلى برنيطته شريطة من ذهب كخدمة الأمراء ثم اذا صعد المنبر وعظ المساكين المحتاجين الى القوت الضروري بالزهد في الدنيا وتجنب شهواتها ! · · ·

أيُّ مقابلة أبلغ من المقابلة بين ترف هذا الأسقف في حياته وبين دعوة الناس الى الخشونة · · ·

أما طبقة الشرفاء في بلاد الانكليز فكانت سخريته بسخافاتهم فهي اذا خلت من الأذى فانها لا تخلو من الإضحاك ، وهذه هي مراسم زيارتهم ·

«وينبغي لمن أكرمه الله عزّ وجلّ بزيارة أحد هؤلاء الأمجاد والماجدات ألاّ يذهب إلاّ في وقت الزيارة المعلوم وهو بعد الضحى وأن يكون مجمّلاً باللباس الفاخر نظيف الثياب حالقاً شاربيه مرجّلاً شعر رأسه بارداً أظافيره ماسحاً نعليه ساتراً كتفيه بجلد أبيض فان قولنا : المرء بأصغريه ، ولا تكمّلك العباءة وانما يكمّلك صاحبها ، وربَّ حرّ ثوبه خلق لا محلّ له من الإعراب عندهم» ·

وقد تكون اللفظة في بعض الأوقات هي التي توحي الى الشدياق روح السخرية فمن قوله بعد أن وصف ما وصف من عادات أمجاد الانكليز وتقاليدهم :

وفي الجملة فان معاشرة هؤلاء الرؤس تتعب الرأس والرجل معاً وتضيع كثيراً من الوقت والمال وربما دعاك أحدهم الى غداء فقام عليك ذلك الغداء مقام عشرة أغدية ..

أما نساء الانكليز فقد ضربهن في المقاتل لمّا تعرّض لمغتهن . كان يصف الزواج ومراسمه فقال :

ولا بدّ للمتزوجة أن تلبس خاتم الزواج في بِنصر يدها اليسرى ومن لم يكن لها خاتم لم تحسب متزوجة وان كان لها خمسة بعول .

ولم تكن سخريته بالمجتمع الانكليزي أقلّ من سخريتـه بالانكليز أنفسهم فقد راقب في هذا المجتمع آداب القوم في المآدب وبعض عاداتهم فوجد فيها مادّة للسخرية . قال في بعض هذه المآدب .

أدبني أو أدب طربوشي أحد الوجوه في كمبريج الى أن أشرب الشاي معه فقال : هل لك في أن تشرب الشاي معنا في إحدى الليالي ولكن بعد ثلاثة أسابيع قلت : نعم ، حتى اذا صرتُ اليه لم أجد على المائدة غير الصنف المعتاد منه مع أني كنت أظن أن توقيت تلك المدة انما كان لجلبه من بعض البلاد .

ولئن سخر بغرابة عادات الانكليز في مآدبهم فقد سخر ببخلهم فقال لزوجته :

ثم ينبغي لك اذا دعينا الى وليمة عند أحد أكابرهم أن تأكلي هنـا من قبل أن تذهبي فان المدعوين لا يأكلون عند أدبهم حتى يشبعوا ولكن يشبعون حتى يأكلوا ...

ولقد كانت سخريته بما يتعلق بالمآدب والطعام خصبة فمن عادة الانكليز أن يدّخروا صنوفاً من الطعام فقال الشدياق : فربما كان عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبله .

وكيف يمرُّ الشدياق بالانكليز فيرى هيآتهم ولا يفطن الى ثيابهم فمن سخريته بخياطة هذه الثياب قوله :

فان من يشتري ثوباً مخيطاً في لندرة يلزمه أن يستأجر معه خياطاً ايصلحه له في كل يوم ·

والخلاصة اذا لم يجد الشدياق أحداً يسخر به سخر بنفسه من ذلك سخريته في مقدمة فصل عنوانه : الثلج :

لا غرو أن يجد بعض القارئين كلامي في هذا الفصل بارداً لأني كتبته في يوم عبوس قمطرير ذي زَمهرير !

***

أكتفي بما أشرت اليه من أنماط سخرية الشدياق ولم أعرض هـذه النماذج لمجرّد العرض وحده وانما أحببت أن أستخرج من كل ما ذكرت' أن الشدياق اذا خلق في ظلمات القرن التاسع عشر فقد عاش بعقله في ضياء القرن العشرين · لقد سبق عصره وتعدّاه وانتقل بعبقريته الى العصر الذي بعده فلئن كان ثائراً في مقدمة الثائرين فقد كان مجدّداً في طليعة المجدّدين ومصلحاً على رأس المصلحين ·

يقول « اندره موروا » في فصل من كتابه : دراسات أميركية : من الكتب كتب تنزل حين صدورها منزلة الآيات البينات ثم لا تلبث أن تموت بعد بضع سنين وأن ينساها الناس على وجه الدهر ، ومن الكتب كتب ثلت الشعور حين صدورها فلم ترق الناسَ إلاّ أنها احتفظت بشباب عجيب ودخلت جنّات الخالدين ·

فاذا صحّ هذا القول وأظنه صحيحاً فان كتابات الشدياق جرحت بعض

الشعور حين ظهورها إلاَّ أنها على الرغم من ذلك احتفظت بشبابها واذا لم تدخل حتى اليوم جنَّات الخالدين فقد آن لها أن تدخل هذه الجنَّات .

لقد أبدع الشدياق في كتاباته حلاًّ للحياة الاجتماعية في القرن التاسع عشر ولكنه أبدع هذا الحلّ بروح جديدة في الأدب وهي السخرية ، انا نعيش في عصرٍ تباينت فيه العقائد وتباعدت المذاهب وتفاوتت مهابُ الأفكار الحديثة وكل واحدٍ يدافع عن عقيدته ويناضل دون مذهبه ويرامي دون مهابّ أفكاره ولكن كل واحدٍ لا يستطيع أن يضبط من جِماح بيانه أو لسانه واذا قبح شيء في هذا الدفاع وهذا النضال وهذه المراماة فلا يقبح شيء مثل جماح البيان واللسان فاذا علَّمنا الشدياق أمراً فقد علَّمنا هذه السخرية في تقويم كل اعوجاج واصلاح كل فساد ولا شك في أنها تعمل في العقول ما لا يعمله أيّ جماح كان .

شفيق جبري

العلاقات الجوهرية

بين اللغتين العربية والآرامية « السريانية »

في النواحي التاريخية والفنية واللغوية والأدبية

- ٣ -

ونحن نخالفهم جميعاً لسببين : الأول لأنهم اختلفوا جميعاً ولم تكن آراؤهم إلا من قبيل الحدس والتخمين ، ولا يمكن بناء حقيقة لغوية وتأريخية على الظن والحدس والتخمين ، والثاني لا نرى موجباً في هذه الحادثة يحمل امرأ القيس أمير العرب على أن يحمل « بنيه » فوارس « للروم أو للفرس ، ولا سيما أن الأستاذ رودنسون درس امكان انحياز امرئ القيس هذا الى جانب الروم والفرس ، وخرج بنتائج مبهمة متناقضة رغم تحرياته الكثيرة ، ولذلك نضطر الى سبر غور هذه الجملة (فرسو لروم) في اللغة السريانية فنقول :

يحتمل التصور أن تكون كلمة « فرسو » مستمدة من كلمة (الفارس) العربية أو من كلمة (ܦܳܪܫܳܐ) السريانية ، إلا أن (ܦܪܫܘ) فرسو في حالتها الحاضرة بعيدة عن هذا المعنى بالنسبة الى صيغتها الفعلية ، لأنها أي (فرسو) (ܦܪܫܘ) فعل ماض لجمع الغائب ومعناها بالضبط (بسطوا ، نشروا ، مدوا ، انتشروا ، سموا) .

وأما الكلمة الثانية من الجملة فهي (لروم ܠܪܘܡ) ومعناها العلى والمعالي وما الى ذلك ، وتكون القراءة الصحيحة لهذه الجملة « فسموا الى العلى أو المعالي » ، ولا سيما أنها أردفت بالجملة العربية الفصيحة وهي « فلم يبلغ ملك مبلغه » . ونستطيع هنا الخروج بالنتيجة الأخيرة وهي أن هذه الجملة جملة آرامية توضح سمو الانتصار الذي أحرزه (امرؤ القيس) لقبيلته وبنيه ، وهي عندنا أصح من

كل المعاني التي أضفاها عليها علماء الساميات لجهلهم روح اللغة الآرامية ، وترجمة ألفاظها بدقة .

٥ — بقيت لدينا الكلمة الأولى من السطر الخامس من هذا الرقيم الهام وهي (عكدى) ، وقد أثبتها الأستاذ ولفنسون في «الحول» (عكدى) ، وقرأها الأستاذ رودنسون «قط وهلك» ونحن نخالفهما في ذلك ونقول إن الكلمة هي «عكرى» لا «عكدى» كالكلمة السابقة «عكرى» ، ولكن يختلف معناها بالآرامية عن الأولى ، فعلمنا أن تلك معناها «منع ، عطل» ، أما هذه فهي مستمدة من كلمة «عكرا ܥܩܪܐ» ومعناها «ذرية ، سلالة ، قبيلة» منها (ص ٤٤٠) . ونحن نميل الى إعطائها أحد هذه المعاني ، وتكون قراءة الجملة كما أثبتناها : «وذريته أو قبيلته ، وهلك سنة ...» ، وهي معطوفة على الجملة السابقة : (فلم يبلغ ملك مبلغه وذريته أو مبلغ ذريته وقبيلته) .

تبلغ هذه الكتابة زهاء ٤٨ كلمة تتخللها احدى عشرة كلمة آرامية وهي من الجمل البليغة بالآرامية كجملة (امىر التاج ܡܗܢܟܪܐ) و (فر « ܗܘܢܘܗ ܠܥܠ » سموا الى العلى) وغير ذلك من دقائق الآرامية ، وما عدا ذلك فان وضع كثير من الكلمات العربية يشبه الوضع الآرامي الغربي ، أي بالإمالة الى الضمة الأخيرة كقوله : «نزارو ، معدو ، كلهن – ܟܠܗܘܢ أي كلهم ، فرسو» ، وهنا يجب أن نعلن أن في هذا الرقيم تجمعت مادة من اللغتين الشقيقتين وهو ما يؤيد تعاونهما وسيرهما جنباً الى جنب في مختلف عصور التاريخ .

واذا تقدمنا نحو الجنوب ، نجد هناك مدنية كاملة آرامية وعربية هي مدنية الانباط التي ظهرت في شبه جزيرة طور سيناء على أنقاض المملكة الآدومية ، وكانت عاصمتها (سلع) وهذه كلمة آرامية وعبرية معناها الصخرة الناتئة[1] .

---

(١) قاموس أودو السرياني ص ١٩٨٢ وقاموس منــا السرياني العربي ص ٧٩٥ وهي بالآرامية ܣܠܥܐ .

وسماها اليونان بترا Petra كما عرفها العرب بـ (البطراء) أخذاً عن الكلمة اليونانية ، وتوسعت مملكة الأنباط (أو النبط أو النبيط) فانحدرت الى بلاد الحجاز من جهة ، ثم صعدت شمالاً حتى بلغت صحراء سورية وشملت دمشق ووصلت الى أطراف نهر الفرات .

أسست هذه المملكة بين القرنين الرابع والخامس ق . م . ، وقرضها الرومان سنة ١٠٦ م ولعبت أدواراً هامة في تأريخ الشرق العربي .

يعتقد علماء الساميات أن النبط خليط من أقوام آرامية وعربية [١] ، لانتشارهم في بلاد عربية واسعة حتى عرفت مملكتهم في طور سيناء باسم بترا العربية ، ولأن لغتهم الآرامية تتخللها ألفاظ كثيرة عربية ، ولوجود أعلام كثيرة شبيهة بالعربية في تاريخهم ، وكذلك أسماء الأصنام العربية .

أما لغة حضارتهـا فهي الآرامية رغم تغلب العناصر العربية على العناصر الآرامية المؤسسة لهذه الدولة في أيامها الأخيرة ، واذا أضفنا الى كل ذلك أسماء الاعلام المستمدة من العربية كأذينـة ، وعبده ، وأوس ، وأسد ، ومعن ، وجذيمة ، وأوس الله ، وعمرو ، وعمر ، وعميرة ، وبرغوث ، وبكر ، وحنضل ، ورجب ، والظم ، وكعب ، ووهب . (وقد ذكرها جميعاً الأستاذ ليتمان في بحثه في الأعلام النبطية بالإضافة الى جملة أعلام مستمدة من مصادر يونانية ورومانية وفارسية) [٢] ، نستطيع القول ان اللغة العربيـة سارت مع الآرامية في هذه المملكة جنباً الى جنب كل تلك المدة الطويلة ، وتأثرت كل منها بالأخرى ، ولعمري انها الفة طويلة المدى استطاعت ان تقدم للتاريخ مدنية خاصة آرامية عربية أو عربية آرامية .

---

(١) Rubens Duval

(٢) في كتابه Littman : Nabatean Inscriptions

وقد قرر علماء الساميات أن لغة النبط الآرامية والأبجدية الآرامية واتصالها بالعرب اتصالاً مباشراً أثر تأثيراً واضحاً في الحضارة العربية الوثنية القديمة ، وأفادت منه اللغة العربية فوائد عظمى في شمال الجزيرة [1] .

ووُجدت آثار اللغة النبطية (الآرامية والعربية) في جميع المناطق التي تبوأتها هذه الدولة ، وظهر بعضها في منطقة بصرى الشام ، وبعضها في منطقة البتراء نفسها ، والبعض الآخر في العلى بالحجاز ، وهي آثار متشابهة الا أن الرُقُم المكتشفة في بصرى تمتاز عن بقية الرقم بظهور مسحة رومانية عليها ، وهذا لا يشوه كيانها الخاص الآرامي العربي . ونستدل من هذه الآثار على أن اللغة الآرامية ، وإن تخللتها عناصر عربية هامة ، قد حافظت على كيانها ، بل طبعت العناصر العربية بطابعها الخاص . مما أدى إلى امداد العربية بمادة آرامية غزيرة . وأقدم الرقم النبطية يعود تاريخه الى سنة ٣٣ ق . م ، وأحدثها بعد زوال الدولة سنة ١٠٦ م .

درس الأستاذ ليتمان آثار النبط دراسة دقيقة ، وخرج بنتائج هامة تاريخية ولغوية ؛ واننا نستمد هذه الآثار الكتابية ، وهي آثار ضريحية غالباً درسها كثير من علماء الساميات [2] وهذا أحدها :

(١) رقيم فهر وجذيمة

يتكون هذا الرقيم من ثلاثة أسطر قصيرة ، وقد وُجد في أم الجمال من أعمال شرقي الأردن ، وذهب الأستاذ ليتمان الى أنه دُون في عهد غير بعيد من العهد الذي دُون فيه رقيم النمارة الآنف الذكر ، واليك ذلك كما ورد بعد قراءته :

---

(١) Corpus Inscript. Semitic, Pars 11 nos 157—189. ، وراجع أيضاً ص ٢١٥ من Cooknorth : Semitic Inscriptions .

(٢) Monnaies Nabatiennes. Revue Numismatique 1905.

الأصل	وهذه ترجمته[١]
(١) دنه نفشو فهرو	(١) هذا قبر فهر
(٢) بر سلي ربو جذيمة	(٢) ابن المحارب العظيم جذيمة .
(٣) ملك تنوخ	(٣) ملك تنوخ

استعرضنا هذا الرقيم في كتاب اللغات السامية للدكتور ولفنسون ، فارتبنا في ترجمة السطر الثاني منه لورود كلمة (ربو وضا) بعد لفظة (سلي) . وقد أثبت معنى (ربو) ، ربي ، وهذا المعنى ليس صحيحاً لهذه الكلمة فان معناها الصحيح هو (العظيم ، الكبير وما اليهما) . فاذا وضعناها في معناها الصحيح بعد كلمة (سلي) واعتقدنا «سلي» علماً يفسد معنى السطر كله تماماً . لذلك اضطررنا الى الشك أيضاً في كون كلمة (سلي) علماً ، وعدنا الى معاجم اللغة السريانية نستقصي معنى (سلي) فوجدنا أنها لا يجب أن تقرأ (سلي) بل (شلي) بالشين . وقد توهم من قرأها بالسين ، ونحن نعذره لأن حرفي السين والشين لهما رسم واحد في الأبجدية النبطية ، والشاهد على ذلك أن الحرف ذاته وبصورته هذه قرأوه في رقيم آخر (شينا) لا (سينا) ، وعلى ذلك يكون تقديرنا بكونه (شلي) صحيحاً . ثم نعود الى كلمة (شلي) نفسها فلا نجدها علماً بل صفة تابعة للعلم (فهر) ومعناها (المحارب) أو (المقاتل) ، وهي مستمدة من كلمة (ܫܠܘܠܐ شلولو) أي (معركة ، اشتباك الحرب ، الحرب)[٢] . أما فعلها فقد ضاع في السريانية ، وبكل تأكيد كان موجوداً في الآرامية سابقاً . ونقدر أن يكون (ܫܠ شل) فتكون كلمة (شلي) مأخوذة من

(١) ان كلمة « نفشو » بالسريانية ما عدا النفس تعني أيضاً . هرم . قبة مدفن . منا ص ٤٦٠ ، وهي كما عرفها الآراميون سابقاً تماماً .

(٢) قاموس أودو السرياني ص ٩٨٢ استناداً على شرح اللغوي الآرامي بن شرويشوت ، وقاموس منا السرياني العربي ص ٧٩٠ .

فعل (شل ـ الحرب) ومعناها بالضبط (المحارب) ؛ واذا شفعناها بكلمة (ربو) يستقيم المعنى تماماً ، لأن (ربو) العظيم وُضعت صفةً للمحارب ، فنقول (المحارب العظيم) كما أثبتناها ، ويكون الرقيم اذاً « نفش فهر بن جذيمة » لا « فهر بن سلي » كما أثبتها ولفنسون[1] .

أما ارتيابنا في عدم صحة الترجمة في السطر الثاني فهو في محله ، لأن هناك آراء مختلفة حول (سلّي) ، فذهب الأستاذ ليتمان الى أن لفظ سلي يحتمل أن يكون مشتقاً من (سليم) العربية ؛ وبفضل نولدكه أن يكون هذا اللفظ (سلاه) ؛ ويؤثر الأستاذ ولفنسون أن يكون من (الأسماء الآرامية الأصلية)[2] ، وهو نعت (لا علم) كما أثبتناه ، ومما يلاحظ أن هذا الرقيم صيغت كلماته بحسب اللهجة الآرامية العربية أي بالإمالة نحو الضمة الخفيفة (الزقاف) .

وقد أثبت الأستاذ ولفنسون في كتابه (اللغات السامية)[3] رقماً أخرى من الرقم النبطية ، وهي كالرقيم السابق ضريحية كلها ، ولم نر حاجة إلى إثباتها لأن جميع هذه الرقم لا تتعدى أن تكون لغتها آرامية ، وفي بعضها جنوح الى الأسلوب العربي ، وفي البعض الآخر أسماء أصنام عربية ، وهذه الأمور تفيدنا في إثبات أن اللغتين الآرامية والعربية تفاعلتا في مدنية الأنباط ، فكوّنتا هذه اللهجة الخاصة التي نراها في هذه النقوش .

وهنالك لون جديد آخر في المدنية الآرامية العربية ، وهذا يظهر لنا في آثار مدنية تدمر ، وهي أحدث عهداً من المدنيه النبطية ، فان نقوشها الأثرية لا تتجاوز القرن الأول قبل الميلاد ، ويمتد تاريخها الى القرن الثالث ، ولكنها مفيدة جداً بالنسبة الى موضوعنا هذا .

---

(١) تاريخ اللغات السامية ص ١٣٩ .
(٢) اللغات السامية ص ١٤٠ .
(٣) اللغات السامية ص ١٤١ ـ ١٤٤ .

ان كلمة « تدمر ܬܕܡܘܪܐ » آرامية معناها « الأعجوبة » ، وهي من المدن القديمة جداً ، ذكر سفر الملوك الأول أن سليمان الملك بناها في البرية ، ومهما يكن الأمر فانها أقدم جداً من الآثار المنقوشة الباقية على أنقاض هياكلها القديمة وأساطينها التي ما زال بعضها واقفاً . واشتهرت تدمر بتجارتها الواسعة فأمها التجار من الهند والفرس والعراق وسورية وفلسطين ومصر وأوربة ، وكانت رومة سيدة العالم القديم تهاب جانبها فمنحتها حقوقاً خاصة لم تمنحها لغيرها من مدن الشرق الخاضعة لسلطانها .

وما يهمنا في موضوعنا هذا لغتها وتعاون لهجتها هي واللغة العربية ، وقد كانت القبائل التدمرية من العنصر الآرامي امتزجت به بعض العناصر العربية ، وهو ما أبقى من لهجتها الآرامية آثاراً عربية بيّنة ، كما أثرت لغتها الآرامية باللغة العربية تأثيراً مهما ، وأعظم ناحيـة عربية في لغة تدمر هي الأعلام العربية وما اليها بالاضافة الى تأثرها بألفاظ يونانية ورومانية كثيرة .

ظهرت معظم الآثار التدمرية في منطقة تدمر ؛ ووجدت نقوش تدمرية في إفريقية ورومة وبلاد المجر وانكلترة لأن جموعاً كثيرة من التدمريين دخلوا الجيش الروماني (١) .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الأستاذ ولفنسون ذهب الى أن لغة تدمر « تشبه اللهجات الغربية الآرامية على أن ألفاظاً كثيرة كانت في نطقها قريبة من النطق المألوف في الآرامية الشرقية » (٢) ، وكنا قد علقنا على هذه النظرية في لحتنا « تحقيقات تاريخية لغوية في حقل اللغات السامية » وقلنا إن اللهجة التدمرية هي لهجة آرامية غربية صرفة ، وسبب ظهور بعض الألفاظ بسحة اللهجـة الشرقية يرجع الى اتصالها باللغة العربية (٣) . والآن نؤيد رأينا نظراً لما نراه في هذه اللهجة من الصبغة الغربية الصرفة .

(١) شابو تعريب الأستاذ شكري لورنس ، نشره الأستاذ مراد سري جلبي ص ٢٨ .
(٢) ولفنسون ص ١٢٨ .
(٣) تحقيقات تاريخية لغوية ص ٣٦ .

ان لغة تدمر الأولى ، وإن كانت خالية من الألفاظ العربية ، بعكس اللغة النبطية ، الا أننا نعتقد أن عناصر عربية دخلتها بعد امتزاج العناصر العربية بقبائلها الآرامية ، وعلى الأخص بعد سنة ٢٧٢ م حينما انتهت سيادة المدينة بأسر ملكتها الباسلة الزباء [١] إذ كثرت العناصر العربية رويداً رويداً ، وتحوّل الشيء الكثير فيها الى اللون العربي ، ومن الطبيعي أن تتأثر اللغتان الآرامية والعربية بهذا التمازج العنصري الشديد .

وقد درس علماء الساميات لغة تدمر الآرامية دراسة وافية ، واستخرجوا منها فوائد لغوية وتاريخية هامة ، وأشهر الذين درسوها ونشروها الأستاذ ليدزبارسكي [٢] ، وكابيرمونغانو ، وود الذي نشر رقماً تدمرية هامة [٣] ، ودي فوغوبه [٤] وغيرهم .

ونجد مدنية آرامية عربية أخرى في مدينة الحضر العراقية مشابهة تمام المشابهة لمدنية تدمر ومعاصرة لها ، فلغتها آرامية صرفة إلا أن الأقوام التي عمّرت هذه المدينة كانوا على الأرجح خليطاً من الآراميين والعرب كما كانت الحال في تدمر وفي البتراء ، وقد ذهب المؤرخ جورج رولنسون الى أبعد من ذلك فأورد آراء المؤرخين القدماء ، وذهب الى أن سكان الحضر كانوا عرباً خلصاً . ومعنى ذلك أنهم كانوا يتكلمون العربية بطبيعة الحال لكونهم عرباً ، ولكنهم كانوا يدوّنون أخبارهم بالآرامية ، بدليل ظهور آثار آرامية صرفة في هذه المدينة ، وقد نقل صديقنا الأستاذ فؤاد سفر في مقاله النفيس « حفريات الموسم الأول ـ الحضر » المنشور في مجلة « سومر » التي تصدرها مديرية الآثار القديمة العامة في بغداد ، نقل كلام المؤرخ المشار اليه ، ونحن ننقله هنا لفائدته

(١) ولنسون ص ١٣٣ .

(٢) Handbuch dere Nordsemitischen Epigraphik

(٣) Wood : Les Ruines de Palmyre, Londres in — Fol.

(٤) M. de Vogué : Syrie Centrale Inscriptions Sémitiques « 105 Nos. »

الكبرى في موضوعنا هذا . قال : « الحضر عاصمة لمجتمع عربي في عصر الامبراطور طريانس ، فقد استوطنت القبائل العربية مناطق من الجزيرة منذ أقدم الأزمان ، وعدّ زنفون الأرضين المحصورة بين الخابور وبلاد بابل جزءاً من جزيرة العرب ، وعدّها سطرابون قسماً من العربية الصحراوية ، وظهر العرب في الجزيرة العليا في زمن بومبي ، وذكر بلوطارخ وابيان أن سكان مملكة الرها كانوا عرباً ، وذُكرت الحضر في حروب طريانس لأول مرة ، وقيل عن أهلها كلما ذُكروا منذ تلك الحرب بأنهم عرب [1] » ، وأضاف الأستاذ سفر بقوله : « وشخّصهم عرباً ديوكاسيوس أشهر من كتب من الرومان عن الحروب بين الفرس والرومان » .

ثم يعود الأستاذ سفر فيعلّق على هذا معللاً سبب وجود اللغة الآرامية في آثار الحضر فيقول : « ولا يمكن أن نتخذ الكتابة الآرامية المكتشفة في الحضر دليلاً على أن الحضريين كانوا آراميين ، لأن الآرامية كانت في تلك العصور لغة المعاملات التجارية والتداول والتراسل ، بين شعوب الشرق على اختلاف ألسنتهم ، فقد كتب بها ملوك الفرس الاشكانيين (الاشكانيون) ، وكذلك ملوك الدويلات التابعة لهم ، ويحتمل جد الاحتمال أن دوّن بها العرب الحضر عربا ، ونترصّد في التنقيبات المقبلة في هذه المدينة الى أدلة تاريخية قد تلقي ضوءاً على هذا الموضوع » [2] .

ونحن لا حاجة بنا الى مناقشة هذه النظرة لعدم وجود مصادر ثابتة الى الآن تؤيدها او تنفيها ، وإن كان المؤرخون القدامى قرّروا ذلك ، وحاجتنا فقط الى

(١) فؤاد سفر عن المؤرخ جورج رولنسون من كتابه The sixth Great Monarchy ص ٣٣٤ - ٥ .

(٢) مجلة سومر الجزء الأول المجلد الثامن سنة ١٩٥٢ ص ٤٦ .

التصريح بأنه سواء كان سكان الحضر مزيجاً من الآراميين والعرب شأن سكان تدمر والبطراء ومملكتيهما ، أو كانوا عرباً خلصاً ، فمن المؤكد وجود اللغتين الآرامية والعربية في هذه المدينة جنباً الى جنب . ومن المؤكد حدوث التقاء طويل وتفاعل كامل بينهما في هذا الصعيد الموحد ، ولا بد لهذا التفاعل من ترك آثاره في كلتا اللغتين حسبما شاهدنا في مملكتي تدمر والبتراء .

ومع ذلك لا نرى الا أن سكان الحضر كانوا مزيجاً من العرب والآراميين ، شأنهم شأن سكان البتراء وتدمر . ومما يقوّي رأينا هذا ورود اشارات تاريخية صريحة عند بعض الكتبة وهي أن (الساطرون) كان جرمقانيا [١] وقومه جرامقة [٢] ، والجرامقة اراميون بشهادة كثير من المؤرخين [٣] ، ونولدكه وهو من المستشرقين يؤيد أن (الجرامقة) من أصل آرامي او نبطي [٤] ، وطبعاً لا يمكن الجزم بأن جميع السكان كانوا (جرامقة) . وقد ذكر الأصبهاني أن العباد من قضاعة ، وهم نصارى العرب ، نزلوا الحيرة ، فهزمهم شابور ، فصار معظمهم ومن فيه نهوض الى الحضر من الجزيرة يقودهم الضيزن بن معاوية التنوخي ، فمضى حتى نزل الحضر ، وهنا الساطرون الجرمقاني فاقاموا به [٥] . وهذا يكفي الآن للدلالة على وجود الأقوام الآرامية ، ثم على ورود موجة عربية من قضاعة ونزولهم عليهم ، مع العلم أنه أطلق على أحد الضيازن اسم (برشميا ܒܪܫܡܝܐ) ومعناه (ابن السماء) فتأمل .

---

(١) الاغاني الجزء ١١ ص ١٦٢ ومعجم البلدان (مادة الحضر) .

(٢) ابن خلدون الجزء الثاني ص ٢٤٩ .

(٣) احمد ابن الفقيه الهمذاني مختصر كتاب البلدان ص ٧٧ و ١٣٦ .

(٤) مجلة لغة العرب السنة الثالثة (١٩١٣ - ١٩١٤) ص ١٧٢ ، التنبيه والاشراف للمسعودي ص ٦٨ .

(٥) الأغاني جزء ١١ ص ١٦٢ .

الى الآن كنا نتكلم عن المدنية المشتركة بين العرب والآراميين في عهد الوثنية ، وقد رأينا هاتين الأمتين الشقيقتين متلازمتين متجاورتين منذ أبعد عصور تاريخها الموحد ، كما رأينا لغتيهما متساندتين متعاونتين منذ نشوئها الى عهد النضج والانتاج ، والآن ننتقل الى العهد المسيحي لنجد اللغتين الساميتين متماسكتين في عروة وثقى لا تنفصم .

تمّ هذا اللقاء في مدينة الحيرة العراقية ، وكانت تبعد عن الكوفة ثلاثة أميال الى جنوبيها [١] ، وعن النجف مسيرة ساعة للفارس الى جنوبية الشرقي [٢] وفي هذه المدينة تجمّعت قبائل عربية كثيرة من العنصر العربي ، وحكمتها سلالتان عربيتان هما التنوخيون واللخميون ، وورد ذكر بعض قبائلها العربية مثل مذحج وطي وكلب وتميم [٣] ومن المؤكد أن النصرانية سادت في الحيرة قبل القرن الرابع الميلادي [٤] . والى جانب هذه الجموع العربية العريقة في القدم كنا نرى في فجر تأريخها طوائف كثيرة من النبط [٥] ، وهم لا شك آراميون عنصراً ولغة ، ومما يؤيد تمازج العرب وهؤلاء الآراميين ما ورد في أمالي السيد المرتضى أن خالداً بن الوليد (رضي الله عنه) لما فتح الحيرة سأل عبد المسيح ابن بقيلة : أعرب أنتم أم نبط ؟ أجابه عرب استنبطنا ، ونبط استعربنا [٦] وكان هناك أقلية فارسية [٧] وجالية يهودية [٨] ، إلا أن الأكثرية الساحقة

(١) معجم البلدان (مادة حيرة) .
(٢) لامنس (المجلة الاسلامية مادة حيرة) .
(٣) معجم البلدان (مادة حيرة) .
(٤) النصرانية وآدابها لشيخو ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .
(٥) الاغاني ١٦ : ٥١
(٦) امالي السيد المرتضى ١ : ١٨٨ .
(٧) كلدو اثور الجزء ٢ : ٢٦٦
(٨) الطبري ٨ : ٢٤٨ .

من سكانها كانوا من العرب والآراميين (النبط) . وقد أطلق المؤرخون العرب اسم (نبط العراق) على بقايا البابليين والآراميين في العراق ، وهم الذين يتكلمون الآرامية [١] ؛ وسماها المؤرخون النصارى (بيث أرمايا) اي ديار الآراميين [٢] .

من هذا كله نستنتج أن اللغتين الآرامية والعربية تصالحتا في هذه المدينة أيضاً ، وحصل امتزاج بين سكانها المنتمين الى هاتين الأمتين العريقتين ، الأمر الذي يؤكد ابنا حتمية تأثر اللغتين احداهما بالأخرى ، إلا أن اللغة العربية على ما يظهر كانت لغة الأدب والدوائر الرسمية والى جانبها اللغة الآرامية في كثير من مرافق الحياة .

ومن المؤكد ان العلم والأدب كانا زاهرين في الحيرة إبان مجدها ، وقد ورد في المزهر للسيوطي أن أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس تعلم من أهل الحيرة [٣] . وقد وردت نصوص تاريخية زاخرة تروي اخبار مدارس الحيرة منذ اقدم عصورها ، وحدثنا صاحب الأغاني أن المرقش الاكبر وهو ابو عمر الشيباني ، وأخاه حرملة ، درسا الكتابة على نصراني من اهل الحيرة [٤] ، وقصة (صحيفة المتلمس) الشاعر الجاهلي مشهورة في الأدب العربي ولجهل الشاعر القراءة طلب الى صبي من اهل الحيرة قراءة الصحيفة المشؤومة [٥]

وكان الحيريون يدرسون اللغة العربية لكونها لغتهم العنصرية ، ويدرسون الآرامية السريانية وهي لغة طقوسهم الدينية وبها كانوا يعبرون شعائرهم الروحية

(١) مروج الذهب المسعودي ١ : ٨٥ .
(٢) السنهادوسات الشرقية ، طبعة شابو ص ٦٦٧ .
(٣) المزهر للسيوطي ٢ : ٢١٥ .
(٤) الاغاني ٥ : ١٨١ .
(٥) الاغاني ٢١ : ١٢٥

وهي أيضاً لغة قسم عظيم منهم يتكلمونها في بيوتهم ، وتخرّج كثيرون من العلماء في الحيرة يتقنون اللغتين الشقيقتين أمثال حنين بن اسحاق العبادي الحيري ، مؤلف المعجم الآرامي الشهير ، ومترجم العلوم اليونانية الى الآرامية والعربية [١] والأسقف الحيري حناني يشوع مؤلف المعجم الآرامي العربي الذي استند عليه كثيرا ابن بهلول في معجمه الشهير [٢] .

ومما لا شك فيه ان كنائس الحيرة وديورتها [٣] الكثيرة العدد ساهمت مساهمة فعالة في نشر العلوم والآداب العربية والآرامية جنباً الى جنب بآن واحد ، لأن المعروف عن الديورة منذ فجر وجودها أنها معاهد لشق العلوم والمعارف البشرية ، واذا استعرضنا قائمة خريجي هذه الديورة ورؤسائها على

(١) أخبار العلماء للقفطي ص ١١٧ والفهرست ص ٤٠٩ .

(٢) راجع معجم ابن بهلول ودوفال ، الآداب السريانية ص ٣٨٦ .

(٣) ذكر الشابشتي في كتابه (الديارات) خمسة من ديورة الحيرة هي دير ابن مزعوق ص ١٤٨ ودير الحريق ص ١٤٨ ودير هنـــد ص ١٥٧ وديارات الاساقف ص ١٥٢ وقبة الشنيق ص ١٥٥ (من طبعة بغداد بتحقيق الأديب الفاضل الأستاذ كوركيس عواد عضو المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٥١) ، وأورد ياقوت الحموي عشرين ديراً من أديرة الحيرة مع شيء من أخبارها بما فيها الخمسة التي ذكرها الشابشتي ، إلا أن الكاتبين تجنيا على حرمة الديورة وقداسة الزهادة في أخبارهما ، وديورة الحيرة التي ذكرها ياقوت هي : دير ابن براق ص ١٢٠ ، ودير ابن وضاح ص ١٢٠ ، ديارات الأساقف ص ١٢٢ ، دير الأسكون (الأصح : الاسكول) ص ١٢٣ ، ودير بني مرينا ص ١٢٧ ، دير الجرعة أو هو دير عبد المسيح ص ١٣٠ و ١٥٤ ، ودير الحريق ص ١٣٣ ، دير حنضلة ص ٣٥ ، دير حنة ص ١٣٥ ، دير الاكيراح ص ١٣٥ ، دير السوا ص ١٥٠ ، دير العذارى ص ١٥٧ ، دير العلف (زعم الله دير العذارى نفسه ص ١٥٨) ، دير علقمة ص ١٥٨ ، دير اللج ص ١٦٧ ، دير مارت مريم ص ١٦٨ ، دير مارفاثيون (الأصح بثيون) ص ١٦٩ ، دير الزعوق ص ١٧٧ ، دير هند الصغرى ص ١٨٢ ، دير هند الكـــبرى ص ١٨٣ (معجم البلدان الطبعة الأولى في مصر سنة ١٩٠٦ المجلد الرابع) .

الأخص نجدهم مزيجاً من العرب والآراميين اتحدوا اتحاداً كاملاً وساروا في طريق الدراسة والانتاج الأدبي جنباً الى جنب ، وهو ما هيأ جواً ملائماً لسير اللغتين الى هدف واحد ، ولا نرى حاجة الى ذكر خريجي هذه الأديرة جميعهم لأن ذلك ليس من صلب موضوعنا .

هذا ما نجده من الاتصال بين اللغتين العربية والآرامية في مدينة الحيرة وضواحيها ، وهو كاف لتعاون اللغتين واستمداد إحداهما من الأخرى معنى ولفظاً وأسلوبا .

واذا ذكرنا تلاقي اللغتين العربية والآرامية في حيرة المناذرة اللخميين في العراق وفي ضواحيها ومدارسها وكنائسها وديورتها ، لا بد لنا أن نذكر الى جانب ذلك تلاقيها في قبائل أندادهم الغساسنة ، الذين ذهبوا صعداً في معارج المعارف الروحية والأدبية ، واهتموا ببناء الكنائس والديورة اكثر من المناذرة الأمر الذي يفيدنا فوائد عظمى في موضوعنا هذا .

فالغساسنة او الغسانيون قبائل عربية يمنية وهم بنو مازن من الأسد من خزاعة نزحت من منابتها في حادثة سيل العرم نحو سنة ١٢٠ م ، وسكنت أولاً في منطقة من حوران وبادية الشام (١) ، ونزلت على ماء بين زبيد وزمع يقال له (غسان) ، فمن شرب منه فهو (غساني) (٢) ، ولذلك سموا (الغساسنة) او (بني غسان) . وكانوا يدينون بالنصرانية (٣) ، وأسسوا لهم دولة عربية في هذه المنطقة ، وكانت عاصمتها (الجابية) في الجولان (٤) ، وامتدت دولتهم

(١) شرح مجاني الأدب م ١ ص ٥١٣ .
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٣١ .
(٣) حمزة الاصبهاني في مجاني الادب ج ٣ ص ٣١٢ .
(٤) المشرق م ٣ ص ٤٤١ .

بين دمشق وتدمر[١] ، ثم توسعت فامتدت من دمشق الى الرصافة على شاطىء الفرات[٢] .

والمنطقة التي سكنها الغساسنة في أول أمرهم كانت منطقة (باسان او باشان) المذكورة في أسفار العهد القديم[٣] ، وكان يحدها بادية سوريا شرقاً ، وغور الأردن غرباً ، وأراضي دمشق شمالاً ، وأرض جلعاد جنوباً[٤] ، وحسبما تدل المصادر الغربية أن اسمهم اشتق من اسم الماء (غسان) الذي نزلوا عليه . و (غسان) كما هو معلوم تسمية آرامية منحدرة من فعل « Gso » بمعنى فاض نبع ، تدفق[٥] ، ومن الراهن أن هذه القبائل العربية امتزجت ببقايا الآراميين الضاربين في هذه الربوع منذ أقدم العصور ، وأن منهم كانت ممالك البتراء وتدمر والممالك الآرامية القدمى في دمشق وما جاورها من المناطق السورية المجوفة وما يحيط بها[٦] . ولما كانوا يدينون بالنصرانية كما علمنا ، ويتفقون هم ونصارى هذه البلاد بالعقيدة والطقوس الكنسية ، استمروا ينمون متحدين مع الآراميين سكان البلاد القدماء ويتبادلون اللغة والمذهب الديني على ما هو معلوم لدينا ، ومما لا ريب فيه أن سكان هذه المناطق من النصارى كانوا يجرّون طقوسهم الدينية باللغة الآرامية ، سواء كانوا عرباً او آراميين ، حتى الخارجين على الكنيسة السريانية انفسهم[٧] . ومما يزيد في تأصل العلاقات واستمرارها

(١) فيه ص ٢٧٣ .
(٢) المجلة البطريركية السريانية في القدس م ٥ ص ٢٠٦ – ٢٦٨ سنة ١٩٣٨ .
(٣) سفر العدد . الاصحاح ٢١ العدد ٣٣ .
(٤) سفر يشوع . الاصحاح ١٣ العدد ٣٠ . وسفر المزامير ٢١ : ١٣ و ٦٧ : ١٦ .
(٥) قاموس منا السرياني العربي ص ١١٧ وقاموس اودو السرياني (الفعل نفسه) .
(٦) تاريخ لبنان للمارتين ص ٣٦٠ – ٣٦٢ .
(٧) اللمعة الشهية . ليوسف داود ص ٦٨ ولتقرير البطريرك مكاريوس الثالث الملكي (١٦٤٧ – ١٦٧٢) . ودليل المخطوطات العربية في مكتبة باريس الأهلية رقم ٢٢٤ .

بين العرب الغساسنة والسريان الآراميين وحدتهم الكنيسة واستعمالهم اللغتين العربية والآرامية السريانية جنباً الى جنب في سائر مرافق حياتهم الدينية والدنيوية ومما لاريب فيه أن هؤلاء العرب كانوا يتكلمون العربية في بيوتهم ، ويستعملون الآرامية في شعائر عبادتهم ، ولم يعدموا أقواماً منهم كانوا يتكلمون لغتهم الآرامية الأصلية في بيوتهم ، ويخاطبون اخوانهم العرب ومواطنيهم بالعربية ، وهو ما يجمع بين اللغتين في صعيد واحد . وأمامنا ثلاثة أمور هامة تؤيد امتزاج العرب بالسريان الآراميين وهي :

اولاً — سلاسل الاساقفة الذين تولوا أمور الغساسنة الروحية في مختلف عصورهم . وقد أوردها المؤرخون السريان وعلى الأخص المؤرخ ميخائيل الكبير فاننا نجد هؤلاء الأساقفة مزيجاً من العرب في جميع الأبرشيات الغسانية ، فتيودور رفيق يعقوب البرادعي مثلاً كان عربياً خالصاً [1] . وقد رُسم ، بناءً على طلب الحارث بن جبلة الغساني ، مع البرادعي نفسه برعاية الملكة تيودورة [2] وكانت ولايته الروحية تشمل بلاد اليمن والمغرب والأقطار العربية وفلسطين وأورشليم [3] ، وكان كرسيه في مدينة بصرى ، وذكر التاريخ غيره من الأساقفة المنحدرين من محتد عربي أمثال (بطرس أسقف العرب) و (فالغ أسقف قبيلة منذر) و (توما أسقف يبرود) و (يوحنا أسقف يبرود) و (يوحنا أسقف حوّارين) [4] .

(١) أخبار يوحنا أسقف آسيا خبر ٤٩ ص ١٩٠ طبعة لاند .
(٢) فيه خبر ٢ ص ٣٧٠ .
(٣) فيه ج ٢ ص ٢٥٤ و ٣٧٠ .
(٤) تاريخ ميخائيل الكبير ص ٢٧٤ — ٣١٠ وتاريخ البطاركة لابن العبري في ترجمة البطريركين سرجيس التلي وخلفه بولس .

وقد ذكر المؤرخ ميخائيل الكبير كثيرين من أساقفة هؤلاء العرب في سلاسله التاريخية في مختلف أبرشياتهم في درعا ، وميتونيا حوران ، والرصافه ، والرقة وغيرها [١] . ومن تعداد أسماء هؤلاء الأساقفة ومواطن تخرجهم نتأكد أن بعضهم كانوا عرباً خلصاً والبعض الآخر كانوا آراميين أقحاحا . ولا نرى حاجة الى ذكر أسمائهم هنا لأن ذلك ليس من صلب موضوعنا .

ثانياً — ثبت الديورة الكثيرة التي أسسها او اعاد أيام مجدها ملوكُ العرب الغساسنة في بواديهم وحواضرهم ؛ ومعظم أسماء هذه الديورة عربيـة كدير (العرب) ودير (طي) ودير (اليمن) ودير (عمر) ودير (هند) و (دير جفنة) و (دير العقبة) و (دير الزنبق) و (دير البرج) و (دير عقرب) و (دير اللبان) و (دير اللوز) وغيرها وغيرها [٢] .

وكانت هذه الديورة رياضاً للعلم والفضيلة عصوراً طويلة احتوت بين جدرانها رهباناً وطلاباً للعلم والمعرفة من العرب والآراميين جنباً الى جنب ، ارتشفوا العلوم على مقاعد مدرسية واحدة ، ونشدوا الأدب باللغتين العربية والآرامية معاً ، وتسقف كثيرون منهم في جميع الأبرشيات العربية الآرامية التي ذكرناها وفي غيرها من الأبرشيات السريانية الواسعة النطاق في تلك العصور ، وفي ديورتها الكثيرة ، وكنائسها المنتشرة في كل مدينة وقرية من مدن سورية وبلاد العرب وما بين النهرين وغيرها .

ثالثاً — دفاع الملوك الغساسنة العرب عن الايمان الأرثوذكسي العريق بكل ما أوتوا من نفوذ وسؤدد وقوة ، ونفورهم من الذين كانوا يضطهدونهم في مملكة بيزنطية ، وقد روى المؤرخون وعلى الأخص يوحنا أسقف آسيا بطولتهم المنقطعة النظير في هذا الميدان ؛ وأهم ذلك الحملة التي جردها المنذر

(١) سلاسل الاساقفة في نهاية تاريخ ميخائيل الكبير .
(٢) فيه ص ٨ والمشرق م ١ ص ٦٣ سنة ١٨٩٨ وفيه م ١٠ ص ٥٢٣ سنة ١٩٠٧ .

ملك الغساسنة على بلاد الروم منتقماً منهم أعظم انتقام [١] ، واهتمام ملوك غسان بأمر سلام الكنيسة السريانية ونجاحها [٢] ، ورفضهم الميل الى مضطهديها [٣] .

ولم تكتف الكنيسة السريانية بخدمتها العرب الغساسنة المتحضرين ، بل بالغت في خدمة سائر العرب المسيحيين الرحل ، فأنشأت لهم طقوساً خاصة بالسريانية والعربية ، وترجمت لهم الانجيل الى العربية ، وأعطت أولادهم جميع التعاليم باللغتين العربية والسريانية ، مما يؤيد اتحاد العرب بأخوانهم السريان منذ أقدم عصور المسيحية ، وقد ذكر المؤرخ ميخائيل الكبير أساقفة كثيرين سمى كلا منهم (أسقف العرب) ، وكان هؤلاء الأساقفة ينتقلون مع القبائل العربية النصرانية في فلواتها ، ويقيمون لهم الشعائر الدينية في بيوت الشعر ، وكانوا يخدمون (القداس) مترجماً الى اللغة العربية عن أصله السرياني [٤] .

وبعد انقراض الدولة الغسانية ظل العرب الغساسنة متحدين بالكنيسة السريانية ومخلصين لها أشد الاخلاص ، وآثروا السكنى في المدن والحواضر والقرى في بلاد سورية ، ونزح بعضهم الى العراق وبلاد أثور [٥] ، وحدثنا عنهم العلامة ابن العبري قال : « ظل الغساسنة من ذلك الحين حتى اليوم ـ القرن الثالث عشر ـ متمسكين بعقيدة الطبيعة الواحدة ولا سيما في الحديثة وفي بلاد باعرباي (المنطقة الممتدة بين الموصل وسنجار ونصيبين) وفي القريتين والنبك وسائر أطرافها » [٦] .

(يتبع) (الموصل) غريغوريوس بولس بهنام

(١) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص ١٤٨ .

(٢) تاريخ البطاركة لابن العبري ترجمة البطريرك فولا .

(٣) تاريخ ميخائيل الكبير ص ٢٨٢ .

(٤) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية . شيخو القسم ٢ ص ٤١٤ .

(٥) تاريخ يوحنا اسقف آسيا م ٣ ص ١٨٢ طبعة باريس .

(٦) ابن العبري ، تاريخ الدول السرياني ص ٨٩ .

الايلاف

أو

المعونات غير المشروطة

كان أستاذنا العلامة المرحوم سليم الجندي أول من نبّه أذهان هذا الجيل قبل ثلاثين عاماً الى أن العصر الجاهلي ، انما سُمي كذلك ، من الجهل ضد الحلم ، لا من الجهل ضد العلم ، وكان الطلاب الى أن يستمعوا دروس العلامة الجندي قد وَقَر في أذهانهم ، من كتب التاريخ الاسلامي المدرسية ، ومما تلقفوا عن أساتذتهم أن العصر الجاهلي كان عصر البداوة والفطرة ، لم تزينه آثار الحضارة ، ولا معالم المدنية ، ولم يعرف أهلوه من العلوم الا ما دعت حياة الصحراء لمعرفته .

كان استاذنا الجندي يبدأ دروسه في تاريخ الأدب العربي بالتأكيد على نظريته هذه ، لأن الكتاب الأوحد الذي كان يستعين به الطلاب يومئذ وهو « الوسيط في تاريخ الأدب العربي » قد تضمن ما يشبه هذا المذهب الذي كان يفنده ، اذ تعرض لبحث أغراض اللغة في العصر الجاهلي ، فأشار الى أن أغراضها لم تَعْدُ ما تقتضيه حياة البداوة والفطرة .

وكان العلامة الجندي يدلل على نظريته هذه بأدلة كثيرة أذكر منها :

١ — ان اشتقاق لفظ « الجاهلية » من الجهل ضد الحلم قد ورد في بيت جاهلي شهير :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

٢ — أن لفظ « الجاهلية » لم يقترن على لسان أكثر الأئمة الا بألفاظ

« الحمية » و « العصبية » الخ .... فقالوا : عصبية الجاهلية ، وحمية الجاهلية [1]

٣ — أن اللغة العربية ، قد بلغت أوجها من النضج والاكتمال ، حين نزول القرآن الكريم بها . واللغة هي العنوان الأوضح على حضارة الأمة ورقيها ومدنيتها ، لأنها هي وسيلة التعبير عن مظاهر الحياة العقلية والارادية والعاطفية [2] ولغة العرب التي وعتها الدواوين والمعاجم ، والنصوص الثابتة القطعية ، تدل مفرداتها على أن العرب في جاهليتهم ، لم يكونوا قوما جهلاء ، وانما كانوا قوما قد بلغوا من العلم والعرفان مبلغا تحسدهم عليه أكثر الأمم المعاصرة .

واذكر ان العلامة الجندي قد مضى في التدليل على نظريته هذه ، فأورد من الأمثلة والشواهد ، ما لا يدع قولا لقائل :

فمنها — أنه وجد أن العرب قد وضعوا أربعين لفظة مختلفة المعاني لثمرة « العنب » منذ أن يبدأ زهرة الى أن يصبح زبيباً . وهذا يدل على التتبع العلمي والاستقصاء ، ومراقبة النبات وثمره وزهره وما بينهما .

ومنها — أن العرب لم يدعوا في التشريح صغيرة ولا كبيرة الا أحصوها ووضعوا أسماء لجميع المسميات .

وقد كشف عن هذا الجهد العلمي الرائع أساتذة كلية الطب في جامعة

---

(١) ورد هذا المعنى في حديث رواه مسلم في صحيحه ، ج ٤ ص ٢١٣٤ ، رقم ٥٦ (طبعة الحلبي) إذ جاء فيه على لسان السيدة عائشة : « سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحاً ، ولكن اجتهلته الحمية » أي استخفته وأغضبته وحملته على الجهل .

(٢) قال ابن سيده في المخصص ، ج ١ ، ص ٦ : « حدّ اللغة أنها اصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهذا حدٌ دائرٌ على محدوده ، محيط به لا يلحقه خلل ، اذ كل صوت يعبر به عن المعنى المتصور في النفس لغة . وكل لغـــة فهي صوت يعبر به عن المعنى المتصور في النفس .

وقال مثله ابن جني في الخصائص ، ج ١ ص ٣٣ ، طبعـــة دار الكتب : « أما حد اللغة فانها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » .

دمشق منذ انشائها حتى اليوم ، وكان لهم في ذلك فضل عظيم على اللغة العلمية في العصر الحديث .

ومنها — أنهم قد عرفوا من علم الفلك ما عرف معاصروهم ، ولا أدل على ذلك من أن أسماء أكثر السيارات ، وبعض المجموعات الفلكية قد وضع في الجاهلية .

وقل مثل ذلك في أكثر العلوم الأخرى .

هذا فضلا عن أن الحجة القاطعة هي القرآن الكريم ، ونصه ثابت ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وقد جاءت آياته المحكمات ، دليلا قاطعا على أن اللغة العربية ، التي نزل بها كتاب الله ، كانت أيام البعثة ، قادرة على التعبير عن كل مرافق الحياة :

١ — ففيها قصص التاريخ على أروع صورة ، وأبلغ أسلوب ، تحكي قصص الأمم الغابرة ، وكأنها موسيقى تتدفق الى النفس ، فتعلق بها ، من عمق أثرها عليها .

٢ — وفيها تصوير للحياة العاطفية ، يعبر عن أعمق المعاني الانسانية الخالدة .

٣ — وفيها تفصيل لحياة الأسرة ، ونظامها الاجتماعي ، حتى كأنه بناء كامل للنواة الأولى للأمة .

٤ — وفيها تشريع لأنظمة الدولة في الحقوق العامة والخاصة .

٥ — وفيها ترغيب بدفع الى الخير ، في أحلى أشكاله ، وأروع صوره .

٦ — وفيها ترهيب يمنع من الشر ، ويحذر من مغابّه وآثامه .

٧ — وفيها كل ما يلزم للفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة في الدنيا والآخرة (ما فرطنا في الكتاب من شيء) صدق الله العظيم .

والواقع الذي لا خلاف فيه ، أن لغة العرب ، قد أضحت من اللغات الحية ،

في عصر النبوة ، نظمت ألفاظها وصنفت وفرّق بين المعاني اللغوية والاصطلاحية ، واكتسبت صفة الحياة الدائمة ، بمعنى أنها أضحت قابلة للتطور ، بعيدة عن الجمود تستطيع أن تساير رقي المجتمع العربي والاسلامي ، دون أن يصيبها العجز عن مسايرة الحاجات . وبقيت اللغة العربية كذلك خلال أربعة عشر قرنا ، أعانها على البقاء والصمود ، رغم التيارات السياسية المدبدة ، قدرتها على الاشتقاق والنحت والوضع والتعريب وغير ذلك مما توفر على الاشتغال به أئمة اللغة والدين خلال هذه القرون الطويلة .

ولقد كانت مصطلحات الحقوق الدولية العامة والخاصة ، في جملة ما شغل علماء القانون ، منذ أن أسست كليات الحقوق في العالم العربي . وما من شك في أن كلية دمشق أكثر هذه الكليات جهدا ، بما بذل أساتذتها ، حين تصدوا للتأليف ، في البحث عن الألفاظ العربية القديمة ، وامكان مطابقتها للمفاهيم الحديثة ، وما زالت المجامع العلمية ، والمؤلفون في كليات الحقوق ، والعلماء ، وأصحاب الاختصاص ما زال هؤلاء جميعا يبحثون ، ويدرسون ، ويبذلون الجهد الصادق في البحث عن المصطلحات الحديثة التي تبدعها الحوادث السياسية ، في ميدان الحقوق الدولية العامة كل يوم .

من هذه المفاهيم الحديثة ، التي نسمعها في كل يوم على لسان رجال السياسة تعبير قالوا انه : « المساعدات غير المشروطة » ويعنون بها مساعدة الدول الكبرى للصغرى ، دون أن يكون لهذه المساعدة مساس بحرية الدول الصغرى أو بسيادتها واستقلالها .

وكأني بالعرب في جاهليتهم ، قبل الاسلام ، قد عرفوا هذا النوع من العقود ، فسموه « إيلافاً » ونزلت به السورة الكريمة المعروفة :

لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ . رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ، وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ .

وقد تتبعت بحث « الايلاف » في كتب التفسير ، وكتب اللغة وكتب الأدب ، وفي السطور التالية خلاصة لهذا البحث :

١ ـ الايلاف في كتب التفسير

آ — ففي تفسير الطبري ج ٢٠ ص ١٧٠ عن مجاهد : ايلاف قريش : نعمتي على قريش .

ب — وفي تفسير ابن كثير ج ٩ ص ٣٠٥ : عن محمد بن اسحاق وعبد الرحمن بن زيد : أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين .

وقيل : المراد ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء الى اليمن ، وفي الصيف الى الشام .

ج — وفي تفسير البغوي ج ٩ ص ٣٠٦ : قال عطاء عن ابن عباس : كانت قريش في ضرّ ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين ، وكانوا يقسمون ربحهم بين الفقير والغني ، حتى كان فقيرهم كغنيهم !

ولم أجد بين المفسرين المشهورين من أشار الى تفسير الايلاف بمعنى : « الأمان من غير حلف » .

٢ ـ الايلاف في كتب اللغة :

آ — في القاموس : والايلاف في التنزيل العهد ، وشبه الاجازة بالخفارة . وأول من أخذها هاشم من ملك الشام ، وتأويله أنهم كانوا سكان الحرم آمنين

في امتيارهم وتنقلاتهم ، شتاءً وصيفا ، والناس يُتخطفون من حولهم ، فاذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله ، فلا يتعرض لهم أحد . أو اللام للتعجب أى : اعجبوا لايلاف قريش . وكان هاشم يؤلف الى الشام .... وكان تجار قريش يختلفون الى هذه الأمصار بحبال هذه الاخوة ، فلا يتعرض لهم ، وكان كل أخ منهم أخذ حبلا من ملك ناحية سفره أمانًا له .

ب — وفي التاج : عن ابن عرفة : الايلاف : انما هو العهود التي كانوا يأخذونها اذا خرجوا في التجارات ، فيأمنون بها .

وفيه : الايلاف : من يؤلفون ، أي يهيئون ويجهزون .

ج — وفي اللسان : الايلاف الاستجارة ـ العهد والذمام ـ الجمع بين الرحلتين .

د — وفي النهاية ج ١ ص ٤٨ الايلاف : العهد والذمام كان هاشم بن عبد مناف أخذه من الملوك لقريش .

د — وفي الفائق للزمخشري ج ١ ص ٤٠ : لقد علمت قريش أن أول من أخذ لها الايلاف وأجاز لها العيرات لهاشم .

وفيه : الايلاف : الحبل . أي : العهد الذي أخذه هاشم بن عبد مناف من قيصر وأشراف أحياء العرب لقومه بأن لا يتعرض لهم في مجتازاتهم ومسالكهم في رحلتهم . وهو مصدر من آلفه ، بمعنى ألّفه . لأن في العهد ألفة واجتماع كلمة .

وهكذا نرى أيضا أن كتب اللغة لم تشر الى المعنى المقصود من « الايلاف »

٣ ـ الايلاف في كتب الأدب :

ورد حديث الايلاف في كثير من كتب الأدب والتاريخ ، وسنقتصر على مقارنة ثلاثة منها ، هي في نظرنا أهمها وأجدرها بالبحث :

آ — أبو علي القالي :

في الصفحة ١٩٩ من كتاب النوادر (طبعة دار الكتب) ١٩٢٦ لأبي علي القالي النص التالي :

« قال أبو علي : حدثنا .... العتبي ومحمد بن سلام ، كلاهما قال : كانت قريش تجارا وكانت تجارتهم لا تعدو مكة ، انما تقدم عليها الأعاجم بالسلع فيشترونها منهم ثم يتبايعونها بينهم ، ويبيعونها على من حولهم من العرب . فكانوا كذلك ، حتى ركب هاشم بن عبد مناف الى الشام ، فنزل بقيصر ، فكان يذبح كل يوم شاة ، ويصنع جفنة ثريد ، ويجمع من حوله فيأكلون . وكان هاشم من أجمل الناس وأتمهم ، فذُكر لقيصر فقيل له : ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويفرغ عليه اللحم ـ وانما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز ـ فدعا به قيصر ، فلما رآه أعجب به فكان يبعث اليه في كل يوم ، فيدخل عليه ويحادثه فلما رأى نفسه تمكن عنده قال له : أيها الملك ! ان قومي تجار العرب ، فان رأيت لي كتابا تؤمن تجارتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فتباع عندكم ، فهو أرخص عليكم . فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم . فأقبل هاشم بذلك الكتاب ، فجعل كلما مرّ بحي من العرب بطريق الشام ، أخذ من أشرافهم ايلافا ـ والايلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ، انما هو أمان الطريق ـ وعلى أن قريشا تحمل اليهم بضائع فيكفونهم حملانها ، ويؤدون اليهم رؤوس أموالهم وربحهم . فأصلح هاشم بذلك الايلاف بينهم وبين أهل الشام ، حتى قدم مكة ، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة ، فخرجوا بتجارة عظيمة ، وخرج هاشم معهم يجوّزهم ويوفيهم ايلافهم الذي أخذ لهم من العرب ، حتى أوردهم الشام ، وأحلهم قراها ، ومات في ذلك السفر بغزة . وخرج المطلب ابن عبد مناف الى اليمن ، فأخذ من ملوكهم عهدا ؟ لمن تجر اليهم من قريش ، وأخذ الايلاف كفعل هاشم ، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف ، وكان يسمى الفيض وهلك بردمان من اليمن . وخرج عبد شمس بن عبد مناف الى

الحبشة ، فأخذ ايلافا كفعل هاشم والمطلب ، وهلك عبد شمس بمكة فقبره بالحجون . وخرج نوفل بن عبد مناف ، وكان أصغر ولد أبيه ، وأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش ، وايلافا ممن مر به من العرب ، ثم تقدم مكة ورجع الى العراق ، فمات بسلمان . واتسعت تجارة قريش في التجارة في الجاهلية ، وكثرت أموالها .... »

والواضح من هذا النص أن « الايلاف » كان بين العرب أنفسهم ، لا بين العرب ومن جاورهم من الأمم . وقد فرّق صاحبا الحديث ـ المعبي وابن سلام ـ بين الاتفاقات التي جرت بين العرب بعضهم بعضا فسمياها « ايلافا » ، وبين الاتفاقات التي جرت بين العرب وقيصر وملوك اليمن والحبشة وكسري ، فسمياها « عهدا » .

وأما مضمون « العهد » فلا يتعدى الأمان ، على ما في هذا الحديث ، وان كان مفهومه اللغوي والاصطلاحي أعم وأشمل .

وأما « الايلاف » فهو الأمان بغير حلف ، وانما يترتب على تجار قريش أن يحملوا بضائع مَنْ في طريقهم من الأحياء والقبائل ، فيتجروا بها ، وفي عودتهم يؤدون اليهم ـ أي الى من في طريقهم ـ رؤوس أموالهم وربحهم .

ب ـ ابن حبيب في المنمّق

نقل الأستاذ محمد حميد الله نصا مشابها عن كتاب المنمق لابن حبيب المخطوط [1] وها نحن أولاء نورد الفقرة التي فيها بعض الخلاف مما يمس موضوعنا :

« قال هاشم : أيها الملك ! ان لي قوما ، وهم تجار العرب . فان رأيت أن تكتب لهم كتابا تؤمنهم ، وتؤمن تجاراتهم ، فيقدموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه ، فيكونوا يبيعونه عندكم ، فهو أرخص عليكم .

(١) راجع :
Melange Louis Massignon, P. 309
طبعة المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٧ .

فكتب له كتابا بأمان من أتى منهم من أشرافهم ايلافا . فايلافا (؟ فالايلاف) ان يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف عليهم . وانما هو أمان الناس . وعلى أن قريشا تحمل لهم بضائعهم فيكفونهم حملانها ، ويردون اليهم رأس مالهم وربحهم فهذا الايلاف مما بينه وبين الشام » .

« وخرج هاشم يجوزهم ويوفيهم ايلافهم الذي أخذ لهم من العرب »

« وخرج المطلب الى اليمن ... ثم أقبل يأخذ الايلاف ممن مر به العرب

« وخرج عبد شمس ... ثم أخذ الايلاف مما بينه وبين العرب . »

« وخرج نوفل ... ثم أقبل يأخذ الايلاف ممن يمر به من العرب .

أما بقية النص ، فالخلاف فيه يسير ، والمحدث فيه ابن الكلبي .

والمفهوم من هذا النص أن « الايلاف » يشمل أمان الأعاجم والعرب للقرشيين على السواء .

ج — ابن ابي الحديد في شرح النهج

حدث ابن أبي الحديد في الجزء الثالث ص ٤٥٨ من شرح نهج البلاغة رواية الزبير ، عن محمد بن حسن عن محمد بن طلحة عن عثمان بن عبد الرحمن قال : قال عبد الله بن عباس :

« والله لقد علمت قريش أن أول من أخذ الايلاف وأجاز لها العيرات لهاشم .... وكان من أحسن الناس خلقا وتماما ، فذُكر لقيصر ، فلما رآه سأله أن يأذن لقريش في القدوم عليه بالمتاجر ، وأن يكتب لهم كتب الأمان فيما بينهم وبينه ففعل ...

هذه هي أهم النصوص الموجودة في كتب الأدب حول موضوع « الايلاف » ومن مقارنتها يتبين :

١ — أن القالي قد جزم نقلا عن العتبي ومحمد بن سلام بأن الايلاف هو الأمان بغير حلف وأنه عهد وقع بين القرشيين وقبائل العرب التي كان القرشيون يمرون بها ، كان من مقتضاه أن يحمل القرشيون بضائع من يمرون بهم ، وأن يتاجروا بها ، وأن يردوا اليهم رأس مالها وربحها .

ومن الضروري في بحثنا أن نعرف ماذا عنى هؤلاء الرواة من لفظ « حلف » فأما المعاجم فانها لا تفيدنا في هذا الموضوع ، بل تزيد البحث تشويشاً ، اذ أن الحلف هو العهد ، أو الأمان من الغدر ، ولا يمكن أن يكون لهذين المفهومين في بحثنا من موضع للتطبيق .

والذي يتبادر الذهن استنتاجا من سياق الحديث أن المراد بلفظ « حلف » هو ما نسميه اليوم بلغة الحقوق الدولية العامة « الالتزامات » . بمعنى أن القرشيين قد نالوا أمان الطريق ، دون أن يكون لهذا الأمان مقابل في حرياتهم أو أموالهم ، أو حقهم المطلق في التصرف بشؤونهم . وبكلمة جامعة : دون أن يكون هنالك ما يُنقص من حقوقهم .

أما التعهد بالاتجار بأموال القبائل ، ورد رأس المال مع الأرباح ، فهو وان كان في الواقع التزاما ، الا أنه يدل من جهة على الثقة بأمانة القرشيين ، كما يدل من جهة أخرى على أنه لم يكن يعد في ذلك العصر انتقاصاً للحرية .

٢ — إن ابن حبيب وهو أقدم من القالي ، قد عرّف « الايلاف » نقلا عن ابن الكلبي بأنه الأمان من العرب والأعاجم ، وان كان قد عاد فأكد انه أمان من العرب وحدهم .

وفي رأينا أن النص الذي أورده ابن حبيب في المنمق مشوش ، ولعل يد النساخ قد امتدت الى تحريفه ، أو أن ذاكرة راويه قد قصّرت في حفظه ، لأنه يكاد يكون متطابقا مع نص القالي الا في هذا الموضع . ونرى أن

نص القالي أكثر انسجاماً ، واصح لغة ، وأقرب لمنطق الحديث . ولهذا فاننا نُرجح أنه أقرب الى الصواب من نص ابن حبيب .

٣ـ اما نص ابن أبي الحديد ، فانه أخصرَ من النصين السابقين ، ولم يرد فيه لفظ الإيلاف « إلا في مطلعه ، واقتصر في خاتمته على لفظ « الأمان » .

وهو في روحه ، وكثير من ألفاظه لا يخرج عن النصين السابقين .

د – الأفغاني في أسواق العرب

ان أول من تناول موضوع « الايلاف » ببحث علمي مطول على ما نعلم هو الأستاذ المحقق سعيد الأفغاني في كتابه أسواق العرب (ص ١٢٣ وما بعدها) المطبوع في دمشق ١٩٣٧ .

وقد استشهد الأستاذ الأفغاني بكثير من النصوص ، وأقوال أئمة اللغة ، الا أنه أهمل أقوال الأئمة من المفسرين ، وجنح الى تسمية الايلاف بلغة عصرنا (المعاهدات التجارية) .

وما من شك في أن الغرض من الإيلاف تجاري ، أو أنه يؤدي الى ضمان حرية تنقل القوافل التجارية ، ولكنه لا يمكن أن يسمى (المعاهدات التجارية) ، لأن هذه تقتضي اتفاقاً على تبادل السلع ، وطريقة دفع قيمها ، أو مكوسها (جماركها) أو غير ذلك . أما أمان الطريق بغير حلف ، فلا يمكن أن يسمى بلغة العصر إلا « المساعدات غير المشروطة » Aides inconditionnés .

هـ – حميد الله في مختارات ماسينيون

الأستاذ محمد حميد الله ، عالم هندي فاضل ، له آثار معروفة . عقد فصلاً باللغة الفرنسية في الكتاب الذي نشره المعهد الفرنسي بدمشق تحت عنوان « مختارات لويس ماسينيون » عام ١٩٥٧ ج ٢ ص ٢٩٣ وما بعدها ، سماه :

الإيلاف أو العلاقات الاقتصادية — السياسية في مكة قبل الإسلام .

Les rapports économico - politiques de la Mecque pré - islamique.

تضمن هذا الفصل دراسة جيدة عن الإيلاف ، انتهى بها واضعها الى أن الوحدة الاقتصادية التي قامت قبل الإسلام بفعل التقاليد الجاهلية القديمة ، كالأشهر الحرم ، والبَسْل ، والأسواق الدورية الدائمة ، والإيلاف ، قد مهدت للوحدة السياسية التي حققها الرسول الأعظم ﷺ . وفكرة الأستاذ حميد الله هذه ، وان لم تكن من الأفكار المبتكرة ، إلا أنه أحسن عرضها وتنسيقها على شكل تكاد تبدو معه على القارئ العربي جديدة .
وقد اعتقد الأستاذ حميد الله بأن النص الذي نقله ابن حبيب في المنمق عن ابن الكلبي نص جديد ، ولم يسمع به أحد من قبل ، فقال : «ولما كان كتاب المنمق لابن حبيب لم يطبع حتى الآن ، ولا في متناول العلماء بسهولة ، فاننا نعتقد أنه من المفيد أن ننشر منه فصلين بنصها ، أشرنا اليهما سابقاً (وأورد النصين) .

وقد سبق أن بينا أن أحد النصين معروف لدى جميع المشتغلين بالأدب ، لأنه ورد في أحد كتب الاربعة الشهيرة ، ونعني به أمالي القالي ، المطبوع في عام ١٩٢٦ ، والذي لم تخل منه مكتبة عامة في القديم ولا في الحديث ، وازدانت به أكثر المكتبات الخاصة . ودراسة الأستاذ حميد الله ، بعد ، جديرة بأن تنقل الى لغة العرب ، لأنها رائعة حقاً في أسلوبها وعمقها وتفكير صاحبها وكم أتمنى أن أجد فراغاً من وقتي لأقوم بهذه الخدمة العلمية .

الخاتمة

وبعد فقد استلهمنا هذا البحث من روح أستاذنا العلامة سليم الجندي رحمه الله . وفي يقيننا أننا أضفنا دليلاً جديداً الى نظريته ، وبرهنا فيه أن لغتنا العربية لم تكن ضيقة الآفاق في القرن الرابع والخامس الميلادي ، بل اتسعت لمعانٍ لم تعرف إلا في القرن العشرين ، وفي ميدان الحقوق الدولية العامة ، وهو من أضيق الميادين ، واستعارة اللغات الأوربية لمصطلحاته بعضها من بعض معروف ومشهور .

ونختم هذا البحث باقتراح اطلاق لفظ الإيلاف على المساعدات غير المشروطة Aides inconditionnées التي أصبحت مبدءاً أساسياً تنادي به الأمم الصغيرة ، حفاظاً على حريتها وسيادتها .

ظافر القاسمي

الزجّاجي

حياته وآثاره

ومذهبه النحوي من خلال كتابه « الإيضاح »[1]

(١)

حياة الزجاجي

نسبه :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق ، ويقف نسبه عند أبيه فلا يذكر أحد شيئاً عنه بعد ذلك على كثرة الذين ترجموا له ، ولعل لأصله الفارسي أثراً في ذلك إذ لو كان عربياً لما ضاع عنا نسبه نظراً لما عرف عن العرب من العناية بالأنساب ، وعلى كل فان ضياع معالم النسب أمر نلاحظه عند كثير ممن لم يَشْهرهم نسبهم أو ترفعهم أسرهم ، وانما سَمَوا بأنفسهم وشهَرتهم أعمالهم . والزجاجي واحد من هؤلاء ، حتى إنه لم ينسب الى اسرته وإنما نسب الى أستاذه ابراهيم بن السريّ الزجاج فعُرف به .

ولد ابو القاسم بنهاوند ـ جنوبي همذان ـ وقيل في الصَيمَرة ، وهي في جنوب همذان أيضاً ، ولذلك نسبوه الى نهاوند ، قال ابن خلكان : « هو البغدادي داراً ونشأة ، النهاوندي اصلاً ومولداً[2] . » ونسبوه إلى الصيمرة

(١) بحث مفصل في حياة أبي القاسم الزجاجي المتوفّى سنة ٣٣٧ ﻫ ووصف مؤلفاته ، وعرض لكتابه « الإيضاح في علل النحو » ومذهبه النحوي فيه .

(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٤٩

كما ذكر السيوطي [١] ، وجمع القفطي النسبتين فقال « هو نهاوندي من اهل الصيمرة [٢] . »

نشأته :

وتدلّ سيرة الزجاجي على أنه كان محباً للعلم يكثر السعي والرحلة في سبيله فقد غادر مسقط رأسه الى العراق ، واستقرّ في بغداد ونشأ فيها ، ثم غادرها إلى الشام فأقام مدة بحلب ، وانتقل بعد ذلك الى دمشق فدرّس فيها وأفاد ، وقيل إنه خرج بعد ذلك الى طبرية ومات فيها .

وكانت حياة أبي القاسم حركة دائمة وعملاً متصلاً ، فهو ـ حيثما يقم ـ تلميذ متطلّع مستفيد أو معلم يجلس للدرس والإملاء ، وذلك ما تؤيده صلته الشديدة المستمرة بشيوخه وتلاميذه .

وأجمع الذين تحدثوا عن الزجاجي أنه كان ورعاً تقياً ، وقالوا في تأليفه كتاب الجمل إنه ألفه بمكة وكان لا يضع باباً منه أو مسألة من مسائله إلا وهو على طهارة ، فاذا انتهى من وضعه طاف به حول الكعبة أسبوعاً [٣] يدعو الله أن ينفع به ... وذكر بعضهم أنه كان متشيعاً وكان محباً للنظافة معنياً بهيأته ، حسن الشارة مليح البزّة [٤] »

وكان ثقة يؤخذ عنه الحديث ويتردّد اسمه في الأسانيد . قال الحافظ ابن عساكر « وحدّث عن جماعة واسند حديثاً كثيراً [٥] » . وروى ابن عساكر أخباراً كثيرة كان للزجاجي في أسانيدها نصيب كبير [٦] .

---

(١) بغية الوعاة : ٢٩٧
(٢) إنباه الرواة ٢ : ١٦٠
(٣) أي سبع مرّات
(٤) مخطوطة إشارة التعيين . الورقة : ٢٦
(٥) تاريخ ابن عساكر ٩ : ٤٣٣
(٦) المصدر السابق ٩ : ٤٣٢

وفاته :

وأما وفاته فكانت على الأرجح في سنة ٣٣٧ هـ في طبرية . وكان ابو بكر الزبيدي[١] أقدم من ذكر هذا التاريخ ممن ترجموا الزجاجي ، ورجحه ابن خلكان وقال هو الأصح[٢] وزعم ابن تغري بردي أن وفاته كانت سنة ٣٣٩[٣] وتردد ابن الأثير بين هذين التاريخين[٤] وجزم القفطي[٥] وابن العماد الحنبلي[٦] وابن شاكر الكتبي[٧] واليمني[٨] ان وفاة الزجاجي كانت في سنة ٣٤٠ وايدهم في ذلك ابن عساكر فقال « أخبرنا ابو محمد بن الاكفاني : أخبرنا عبد العزيز بن احمد قال : توفي ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي النحوي بطبرية في شهر رمضان من سنة سنة اربعين وثلاثمائة » ثم قال « ورأيت في كتاب عتيق : مات ابو القاسم الزجاجي بالشام بطبرية في رجب سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة . قال ابن الاكفاني : وهو خطأ[٩] »

وهكذا ينحصر اختلافهم في تاريخ وفاته بين سنتي ٣٣٧ و ٣٤٠ وهو أمر يسير لا يترتب عليه شيء ذو بال وأياً كانت سنة وفاة الزجاجي فهو قد عاصر من خلفاء العباسيين المقتدر وابن المعتز والقاهر بالله والراضي والمتقي والمستكفي ومات في خلافة المطيع حين كانت مقاليد الحكم بيد بني بويه .

(١) طبقات النحويين والنحاة : ١٢٩
(٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٩
(٣) النجوم الزاهرة ٣ : ٣٠٢
(٤) الكامل ٨ : ١٩٤
(٥) انباه الرواة ٢ : ١٦٠
(٦) شذرات الذهب ٢ : ٣٥٧
(٧) عيون التواريخ
(٨) اشارة التعيين
(٩) تاريخ ابن عساكر ٩ : ٤٣٣

اساتذته :

حب الزجاجي للعلم جعله يكثر الأخذ عن شيوخ العلم وأربابه حتى بلغ الذين اخذ عنهم عشرين أستاذاً ، وكأنه أحب ان يجمع ما يستطيع من ثقافة عصره فما نزل بلداً إلا تلقى على مشايخه واخذ عن أساتذته ولو كانوا ذوي آراء متعددة ومذاهب مختلفة ، وكان اثر هذا الاختلاف والتعدد جلياً واضحاً في ثقافته وآرائه .

في طليعة أساتذته من غير شك ذلك الأستاذ الذي لازمه ابو القاسم حتى نسب إليه وعُرف به وهو أبو اسحاق ابراهيم بن السري بن سهل الزجاج المتوفى سنة ٣١١ وقد عدّه الزجاجي في مقدمة الذين ذكرهم من أساتذته وشيوخه حين تحدث عنهم فقال :

« فمن العلماء الذين لقيتهم وقرأت عليهم شيخنا ابو اسحاق ابراهيم بن السري الزجّاج رحمه الله . وابو جعفر محمد بن رستم الطبري غلام ابي عثمان المازني وابو الحسن بن كيسان ، وابو بكر احمد بن الحسين بن العبّاس المعروف بابن شقير ، وابو بكر محمد بن احمد بن منصور المعروف بابن الخيّاط ، وابو بكر ابن السرّاج ، وابو الحسن علي بن سليمان الأخفش »

ثم قال « .... وابو بكر بن الأنباري ، وابو موسي المعروف بالحامض وكان الأغلب عليه علم اللغة إلا أنا قد اخذنا عنه حكايات يسيرة ، وابو الفضل الملقّب بزبيل وابو محمد عبد الملك بن مالك الضرير وغير هؤلاء ممن لم يُشهر من الكوفيين [1] . »

وذكر الذين تحدثوا عن الزجاجي أنه أخذ عن علماء آخرين وكان ممن أخذ عنهم أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة المعروف بنفطويه المتوفى سنة ٣٢٣

(١) الإيضاح : باب المستحق للاعراب من الأسماء والأفعال والحروف .

وأبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المتوفى سنة ٣٢١ وأبو عبد الله محمد بن العباس اليزيدي المتوفى سنة ٣١٦ وأبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ وابو عبد الرحمن عبد الله بن هانىء النيسابوري وأبو العلاء احمد بن عبيد الله ابن الحسن بن شقير البغدادي وأبو جعفر أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٣٢٢ وابو العباس احمد بن عبيد الله بن عمار الثقفي المتوفى سنة ٣١٤ وابو القاسم جعفر بن قدامة الكاتب المتوفى سنة ٣١٩ .

وزاد ابن عساكر على هؤلاء أستاذين آخرين ، هما أبو عبد الله الحسين بن محمد الرازي وأبو علي الحسن بن علي العتري [1] .

هؤلاء هم الأعلام الذين أخذ الزجاجي عنهم وتخرج على أيديهم ولا بد من الإشارة إلى أنه كان منهم البصريون كما كان منهم الكوفيون وكان لذلك آثار ظهرت في آراء الزجاجي ومؤلفاته كما سنرى .

تلامذته :

وأما تلامذته فمنهم من أخذ عنه مباشرة ، ومنهم من انتفع بكتبه ، وقد كان يحب أن ينفع الله الناس بعلمه فما يؤلف حتى يطهر ويطوف ويدعو .

وكان ممن أخذ عنه محمد بن سابقة النحوي ، وعبد الرحمن بن محمد بن أبي نصر وعبد الرحمن بن عمر بن نصر ، وأحمد بن محمد بن سلامة (أو سلمة) الدمشقيون وأبو الحسن علي بن محمد بن اسماعيل بن محمد التميمي الأنطاكي وهو الذي روى عنه كتابه مختصر الزاهر [2] وذكر ابن عساكر أن ممن حدث عن الزجاجي أيضاً أبا يعقوب اسحاق بن احمد الطائي [3] .

---

(١) تاريخ دمشق ٩ : ٣٤٢

(٢) فهرسة ابن خير : ٣٤٣

(٣) ابن عساكر ٢ : ٤٠٥

ونلاحظ أن أكثر تلامذة الزجاجي كانوا من دمشق ، ولعل سبب ذلك أنه أقام في دمشق أكثر مما أقام في غيرها وفيها حدّث وأملى وألف . قال محقق كتاب الجمل « ثم سكن دمشق وطبرية وأيلة فأملى وحدّث ولا سيما بدمشق [1] وقال القفطي « وانتقل الى الشام فأقام بحلب مدة ثم انتقل إلى دمشق فأقام بها وصنّف [2] وكذلك ذكر ابن عساكر [3] والسيوطي [4] . وجاء في (اشارة التعيين) انه كان يدرس بجامع دمشق .

وأما الذين انتفعوا بتآليفه فقد شاع على الألسن أنهم كثيرون . وكأن المؤلفين لمّا سمعوا خبر ورعه وتقاه ودعائه أن ينفع الله الناس بعلمه وقعوا تحت تأثيره وتناقلوا خبر النفع بكتبه حتى انه ما من أحد منهم ذكر كتاب الجمل للزجاجي إلا وصفه بالبركة والنفع العميم .

قال ابن خلكان « وكتابه الجمل من الكتب المباركة لم يشتغل به أحد إلا وانتفع به » ثم يقول ـ وكأنه يعلّل ـ « ويقال إنه صنّفه بمكة حرسها الله تعالى وكان اذا فرغ من باب طاف به أسبوعاً ودعا الله تعالى أن يغفر له وأن ينفع به قارئه » [6] .

وقال اليافعي : « وسكن دمشق وانتفع به الناس وانتفع بكتابه خلق لا يحصون » ثم ذكر ما ذكره ابن خلكان من أمر الطواف والدعاء ووصف كتاب الجمل بالوضوح وأنه مبارك ما اشتغل به أحد إلا انتفع وأن نفعه عمّ بلاد الإسلام [7] .

---

(١) مقدمة الجمل
(٢) الانباه ٢ : ١٦٠
(٣) تاريخ دمشق ٩ : ٤٣٢
(٤) البغية : ٢٩٧
(٥) اشارة التعيين و ٢٦
(٦) وفيات ١ : ٣٨٩
(٧) مرآة الجنان ٢ : ٣٣٢

وقال صاحب كشف الظنون في معرض حديثه عن كتاب الجمل « وهو كتاب نافع ومفيد » .

وجاء في شذرات الذهب أنه « انتفع بكتابه خلق لا يحصون . . . »[1] .

وجاء في الانباه ما يوضح هذا الربط بين دعاء الرجل وانتفاع الناس بعلمه إذ روى القفطي الخبر الآتي « وسمعت من لفظ الشيخ أبي البقاء صالح بن عادي الغوري الأنماطي النحوي نزيل قفط ان الزجاجي ـ رحمه الله ـ صنف الجمل بمكة حماها الله وكان اذا فرغ من باب طاف به أسبوعاً ودعا الله ان يغفر له وان ينفع به قارئه ولهذا انتفع به الطلبة . . . [2] »

ثقافته :

لقد كانت ثقافة الزجاجي ثقافة رجل عاش في أواخر القرن الهجري الثالث وأدرك أربعين سنة من القرن الرابع ، هذا القرن الذي حفل بنتاج خصب للعقلية الإسلامية في أوج نضجها ورقيها ، فعاصر الأخفش علي بن سليمان والزجاج وابن السراج وابن الانباري والسيرافي وابن دريد ، وغيرهم ، وكان واحداً منهم ، بل من اكثرهم نشاطاً في العلم والتأليف .

وتظهر لنا سعة ثقافته في مؤلفاته الكثيرة ، وما تتصف به من عاق وتنوع وكأنه جمع في نفسه ما تفرق عند أساتذته من فنون العلوم ؛ فقد كان منهم من اتسع أفقه في النحو كالأخفش علي بن سليمان وابن الخياط وابن شقير وابن كيسان فكان الزجاجي مثلهم في سعة العلم بالنحو وما يتصل به من اختلاف المذاهب وتشعب الآراء . وكان منهم من غلب عليه علم اللغة كابن دريد وأبي موسى الحامض ، فكان الزجاجي كذلك لغوياً كما هو في أماليه .

---

(١) الشذرات ٢ : ٣٥٧

(٢) الانباه ٢ : ١٦١

ونرى الزجاجي اذا تعرّض للنقد ناقداً بصيراً بمواطن الضعف عارفاً بمحاسن التأليف ، فهو يكره الجمع والتقليد ، ويحب الإبداع والابتكار، والوضوح والسلامة من الخطأ ، ويقدّر تعب المؤلف وجهده ... ويتضح هذا في نقده للمفضّل صاحب كتاب «الفاخر» ولابن الأنباري صاحب «الزاهر» حين أتى على ذكر هذين الكتابين في مقدمة «مختصر الزاهر»[١] .

وقد اشتهر الزجاجي بكثرة تآليفه حتى عرف بصاحب التصانيف[٢] ، وكانت تصانيفه متنوّعة الموضوعات ففيها النحو والصرف وحروف الهجاء والمعاني والقوافي والشعر واللغة والأدب ، وسيأتي الحديث عن هذه الآثار مفصلاً فيما بعد .

ولم تكن ثقافة أبي القاسم عربية فحسب ، إذ كان عارفاً لبعض اللغات الأخرى وقد ذكر ذلك دون أن يصرّح بهذه اللغات أو يعيّنها فقال في معرض حديثه عن أقسام الكلام وكونها لا تخرج عن اسم وفعل وحرف : «وقد اعتبرنا ذلك في عدّة لغات عرفناها سوى العربية فوجدناه كذلك .»[٣] . وكم كنا نودّ لو أنه عيّن هذه اللغات أو لجأ خلال حديثه عن العربية إلى شيء من الموازنه بينها فكانت تكون معرفته لغير العربية أعود بالنفع والفائدة .

ولا بد لنا ونحن بصدد تقويم ثقافة الزجاجي من وقفة قصيرة عند رأي أبي علي الفارسي الذي نقلوا عنه أنه قال : «لو سمع الزجاجي كلامنا في النحو لاستحيا أن يتكلم فيه»[٤] .

---

(١) ص ٢١ من هذا البحث

(٢) شذرات الذهب ٢ : ٣٥٧

(٣) الايضاح : ٦

(٤) نزهة الألبا : ٣٧٩ . وإنباه الرواة ٢ : ١٦٠

لم ينقل هذا القول أحد من عاصر الرجلين وترجم لهما كالزبيدي وابن النديم وانما نقله المتأخرون كابن الأنباري (٥٧٧ هـ) والقفطي (٦٤٦ هـ) ! ومع ذلك فإذا صحّ صدور هذا القول عن الفارسي — وما أراه غريباً عنه — فيجب أن نعرف دوافعه ونتبين مدى الحق فيه .

لقد كان الفارسي أستاذ عصره ومتقدّم أهل الصنعة في زمانه وأنحى من جاء بعد سيبويه ولم يكن الزجاجي ندّاً له على الرغم من أن ابن الأنباري يعدّه في طبقته . إلا أن تأخر الزجاجي عن مرتبة الفارسي لا يبرّر هذا الازراء به والطعن عليه ، فكتب الرجل شاهدة بعلمه ، وأقوال العلماء فيه وإقبالهم على آثاره دليل على مكانته وفضله . وما أظن رأي الفارسي فيه إلا من قبيل عداوة الصنعة والطعن على أهلها والحرص على مكان الصدارة فيها ، وقد اعتاد الفارسي أن يطلق مثل هذا القول في زملائه ونظرائه ، وقد قال ما يشبهه في أبي الحسن الرمّاني حين زعم انه إن كان النحو ما عند الرمّاني فليس عنده منه شيء ، وإن كان النحو ما عند الفارسي فليس عند الرماني منه شيء . وذكرت عنه أقوال ينال بها من ابن الخياط وابن خالويه والسيرافي . . وغيرهم [1] وقد نستطيع أن نضيف الى هذا العامل النفسي عاملاً آخر هو أن أبا علي كان يحب سيبويه ويعجب به ويتعصّب له ، والزجاجي لم يكن - على إعجابه بسيبويه وانتصاره له - ليقبل كل آرائه بل لقد مال عن بعضها وقال بخلافه [2] أفيغضي الفارسي عيناً عن هذا الرجل يتطاول على مقام سيبويه ؟

وقد أورث الفارسي حبه لسيبويه وتعصبه له تلاميذه من بعده ، فكان ابن جني كثير الإعجاب بسيبويه شديد الحماسة له عنيفاً في الذّود عنه ، وقد

(١) انظر رسالة الفارسي الى سيف الدولة الحمداني في معجم الأدباء ٧ : ٢٥٧

(٢) انظر مثلاً باب الصفة المشبهة في كتاب الجمل .

ظهر هذا العنف حين ردّ على المبرد لأنه تعقب على سيبويه فعدّه واهماً بل جعل المغالطة في آراء سيبويه عادة سار عليها المبرّد[1] (!) على حين نجد الزجاجي في كثير من الأحيان معجباً بالمبرد ينتصر له ويفخر بابتكار الحجج لتأييده وتثبيت رأيه[2] . ثم إن الزجاجي تلميذ الزجاج ، والزجاج تلميذ المبرّد المقدّم وهو الذي أحبه وتعصب له وهجر شيخه ثعلباً لأجله بل ألّف في الرد عليه أفلا يعقل في طباع البشر أن يكون إعجاب الزجاجي بأستاذه وانتصاره لشيخ أستاذه سبباً في سخط الساخطين على الأستاذ وشيخه ؟

مهما يكن من أمر ، وسواء كان الفارسي مخلصاً في رأيه أو غير مخلص فقد كان هذا الرأي مجانباً للحق بعيداً عن الصواب .

مذهبه النحوي :

لم يكن الزجاجي غريباً في العصر الذي عاش فيه ، ولا بعيداً عن جوّ البيئة التي نشأ فيها ، وانما كان ابن عصره وبيئته . أما العصر الذي عاش فيه فقد كان يتميز بفتور حدّة التعصب المذهبي في النحو . وأما بيئته فقد قامت فيها طبقة جديدة من العلماء جمعتها مساجد بغداد ، وحلقات العلم فيها ، ووصل اليها علم البصرة والكوفة ، فإذا هي لا تميل الى قول إحداهما كل الميل ولكنها تأخذ من كل من القولين بطرف مع شيء من التفاوت في مقدار ما تأخذ .

والزجاجي واحد من هؤلاء الذين تلقوا علم البصرة والكوفة ، وبسطوا أقوال علماء المذهبين جميعاً منتخبين منها ما يرون أنه الحق ، وكان بعد ذلك أميل الى البصريين في آرائه وأحكامه .

وليس غريباً أن يكون الزجاجي بغدادي النزعة مع ميله إلى الأخذ بأقوال

---

(١) انظر سر صناعة الإعراب : ٢١١

(٢) انظر باب معرفة حد الاسم والفعل والحرف في كتاب الإيضاح .

البصريين . ولا عجب في أن يحيط علماً بالمذهبين البصري والكوفي ، وأن يعتدل بينهما فلا يتعصب لأحدهما فقد كان معظم أساتذته كذلك ؛ فأستاذه الأخفش كان قد قرأ على ثعلب كما قرأ على المبرد [1] ، وأستاذه ابن الخياط كان يخلط المذهبين ، ويمزج نحو البصريين بنحو الكوفيين [2] ، وكذلك كان أستاذه ابن شقير الذي خلط علم البصريين بعلم الكوفيين [3] ، وابن كيسان الذي كان بصرياً كوفياً يحفظ القولين ويعرف المذهبين وقد أخذ عن ثعلب والمبرد [4] ، وكان قيماً بمذهب البصريين والكوفيين [5] . وأبو بكر بن السرّاج الذي أخذ عن المبرّد وإليه آلت رياسة النحو بعده ، ولكنه عوّل على مسائل الأخفش والكوفيين ، وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة [6] .

بل ندع هؤلاء وننظر في سيرة الزجاج نفسه وهو الذي كان أبو القاسم شديد الصلة به ، كثير الملازمة له ، ألم يكن من تلامذة ثعلب ثم غدا بعد ذلك بصرياً من أبرع أصحاب المبرّد ؟ قال الزبيدي : «لما قتل المتوكل بسرّ من رأى ، رحل المبرد إلى بغداد ، فقدم بلداً لا عهد له بأهله ، فاختلّ وأدركته الحاجة ، فتوخّى شهود صلاة الجمعة ، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ، ليتسبّب له القول ، فلم يكن عند من حضره علم ، فلما رأى ذلك رفع صوته وطفق يفسر ، يوهم بذلك أنه قد سُئل ، فصارت حوله حلقة وأبو العباس يصل في ذلك كلامه ، فتشوّف أبو العباس

(١) معجم الأدباء ١٣ : ٢٤٦

(٢) نزهة الألبا : ٣١٢ والفهرست : ١٢١

(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٩

(٤) طبقات الزبيدي : ١٧٠

(٥) نزهة الألباء : ٣٠١

(٦) نزهة الألباء : ٣١٣ ، ومعجم الأدباء ٨ : ١٩٧

أحمد بن يحيى إلى الحلقة ، وكان كثيراً ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر ، فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم ، فاذا بصُر بهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يفاتشهم ، فإذا انقطعوا عن الجواب انفضّ الناس عنهم . فلما نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس أمر ابراهيم بن السري الزجاج وابن الحائك بالنهوض ، وقال لهما : فضّا حلقة هذا الرجل . ونهض معهما من حضر من أصحابه ، فلما صارا بين يديه قال له ابراهيم بن السري : أتأذن ـ أعزّك الله ـ في المفاتشة ؟ فقال له أبو العباس : سل عمّا أحببت . فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه ، فنظر الزجّاج في وجوه أصحابه متعجباً من تجويد أبي العباس للجواب . فلما انقضى ذلك قال له أبو العباس : أقنعت بالجواب ؟ فقال : نعم . قال : فإن قال لك قائل في جوابنا هذا كذا ، ما أنت راجع إليه ؟ وجعل أبو العباس يوهي جواب المسألة ويفسده ويعتلّ فيه ، فبقي إبراهيم سادراً لا يُحير جواباً ، ثم قال : إن رأى الشيخ ـ أعزّه الله ـ أن يقول في ذلك ؟ فقال أبو العباس فإن القول على نحو كذا . . . فصحح الجواب الأول وأوهى ما كان أفسده به ، فبقي الزجّاج مبهوتاً ، ثم قال في نفسه قد يجوز أن يتقدّم له حفظ هذه المسألة واتفاق القول فيها ثم يتفق أن أسأله عنها . فأورد عليه مسألة ثانية ، ففعل أبو العباس فيها بنحو فعله في المسألة الأولى حتى والى بين أربع عشرة مسألة يجيب عن كل واحدة منها بما يقنع ، ثم يفسد الجواب ، ثم يعود إلى تصحيح القول الأول . فلما رأى ذلك ابراهيم بن السري قال لأصحابه : عودوا إلى الشيخ ، فلست مفارقاً هذا الرجل ، ولا بدّ لي من ملازمته ، فعاتبه أصحابه وقالوا : تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه ، وتدع من قد شُهر علمه وانتشر في الآفاق ذكره ؟ فقال لهم : لست أقول بالذكر والخمول ولكني أقول بالعلم والنظر . فلزم أبا العباس ، وسأله عن حاله ، فأعلمه برغبته

في النظر وأنه قد حبس نفسه على ذلك إلا ما يشغله من صناعة الزجاج في كل خمسة أيام من الشهر ، فيتقوت بذلك الشهر كله . ثم أجرى عليه في الشهر ثلاثين درهماً ، وأمره أبو العباس باطراح كتب الكوفيين . ولم يزل ملازماً له ، وآخذاً عنه حتى برع من بين أصحابه [1] » .

على أن هـذا لا يعني أن أساتذة الزجاجي كلهم كانوا بين البصريين والكوفيين وإنما كان بعضهم ذا مذهب أو اتجاه واضح ، كابن الأنباري الذي كان كوفياً ، بل « أحفظ من تقدم من الكوفيين [2] ، وأعلم الناس بنحوهم [3] ، وشديد الولاء لمذهبهم » حتى إنه تعصب ضد ابن كيسان ، لأن هذا خلط بين المذهبين . وكأبي موسى الحامض الذي كان يتعصب على البصريين مع أنه خلط القولين [4] على عكس ابن كيسان الذي كان ميله الى مذهب البصريين أكثر [5] .

فجلّ أساتذة الزجاجي إذاً ممن خلط المذهبين ، وإن كان لبعضهم ميل إلى آراء البصريين أو الكوفيين . وهو لا يختلف عن هؤلاء الأساتذة الأحرار الذين لم تستبعدهم أقوال فئة معينة من النحاة ، وانما كانوا يطلعون على القولين ، ويختارون من المذهبين .

لقد كان الزجاجي مستقلّ الشخصية حرّ الفكر لا هو بالبصريّ المحض ، ولا بالكوفي المحض ؛ يرى الرأي فلا يخشى أن يخالف فيه من سبقه كوفياً كان أو بصرياً . وقد يذكر الرأين ثم ينعت أحدهما بما يدلّ على تأييده للثاني

(١) طبقات الزبيدي : ١١٨
(٢) المصدر السابق : ١٧١
(٣) معجم الأدباء ٨ : ٣٠٦
(٤) بغية الوعاة : ٢٦٢
(٥) طبقات الزبيدي : ١٧٠

كأن يقول : «وإن قلت كذا كان قبيحاً . وأهل البصرة لا يجيزونه [١]» . أو أن يقول بعد ذكر رأيه : «هذا هو الوجه الجيد [٢]» . وقد يعرض لأكثر من رأي واحد ، فيصنّف الآراء تصنيفاً يسير فيه بحسب القوة والضعف في رأيه ، كأن يقول : «الأجود في هذا الباب كذا ، وبعد ذلك كذا .... ودون ذلك كلّه كذا .. » [٣]

وأما إذا أردنا ان نتعرّف الى مذهب الزجاجي النحوي من خلال استعماله للمصطلحات ، وقد كان لكل من البصريين والكوفيين مصطلحاتهم ، فإننا نجده العالم العدْل الذي لا تهمّه الأسماء ، بل يهمه أن يوضح مراده ، ويُدني المعنى من الفهم ، فنراه يستعمل الأسماء المختلفة للمسمّى الواحد ، كقوله : «الفصل و يسميه الكوفيون العِماد» [٤] . ونراه يصرّح بتغيير ألفاظ الذين يحكي عنهم فيقول : «وإنما نذكر هذه الأجوبة عن الكوفيين ... إلا أن العبارة عن ذلك بغير ألفاظهم» . وهو لا يفعل ذلك تعصباً ضدّهم بل رغبةً منه في التوضيح كما يقول ، «لأنه لو تكلّفنا حكاية ألفاظهم بأعيانها ، لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة ، بل لعل أكثر ألفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم» [٥] .

الخلاصة إذاً أن الزجاجي كان كأكثر أساتذته الذين لم يكونوا بصريين خلّصاً ولا كوفيين خلّصاً ، وانما كانوا ذوي نزعة تجديدية تمزج بين نحوي البصرة والكوفة ، وتأخذ من محاسنها ، تاركةً العصبية المذهبية جانباً ، فلم تكن ثقافتهم النحوية بصرية محضاً ، وانما كانت مزاجاً من الثقافتين وانتقاء

(١) الجمل : ١٥٠
(٢) الجمل : ١٦٩
(٣) الجمل : ٢١٨
(٤) الجمل : ١٥٢
(٥) الايضاح : ٧٢

من المذهبين ، وإن كان أخذها من أحدهما يتفاوت قوة وضعفاً ، وكثرة وقلة .

هذا التفاوت في الميل إلى أحد المذهبين كان عند الزجاجي في جانب البصرة ؛ فعلى الرغم من أن معظم أساتذته كانوا على صلة وثيقة بنحو الكوفة ، ومذهب علمائها ، وأنهم أخذوا عن ثعلب ، وكان منهم ابن الأنباري والحامض الكوفيان فقد ظهر ميل أبي القاسم الى البصريين حين اعتبر نفسه منهم فقال : « أصحابنا البصريون [1] » ؛ وقال : « وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيء من كتبهم البتة ، وهي مسطَّرة في كتب الكوفيين [2] » . وظهر ميله هذا حين كان يؤيد رأيهم كما في قوله عن الزاهر : « ووجدت فيه أيضاً مواضع من النحو وعلله ومن التصاريف على مذهب البصريين ودللت على صحة مزاعمهم دون مذهب الكوفيين [3] » .

ولعلّ هذا الميل الى آراء البصريين يرجع إلى تأثير الزجاج في تلميذه ، فمن الواضح أن نسبته إليه تدلّ على أنه كان أستاذه المفضَّل وشيخه الأول ، وقد رأينا كيف مال الزجاج عن ثعلب وهجره إلى المبرد الذي أوصاه بطرح كتب الكوفيين .

ومن حق الزجاجي علينا أن نبيّن أخيراً أن هذا الميل لا يعني أبداً أنه كان متعصّباً ضدّ الكوفيين ، فقد كانت حدة التعصّب فترت من جهة ، وكانت نفسه — من جهة أخرى — أسمى من أن يعميها التعصب عن الحق . إن « بصريّة » الزجاجي لم تحل دون استعماله مصطلحات في مصنَّفاته . وهو يبسط آراء الكوفيين ، ويذكر أحسن احتجاجاتهم ، ولا يُغلظ لهم القول إن ردّ عليهم ، شأنه في ذلك شأن العالم المنصف المتّزن ، لقد كان أبو القاسم

(١و٢) الأشباه والنظائر ٣ : ٤٦

(٣) مختصر الزاهر : الورقة ١

« زجّاجياً » حقاً ، والزّجاج هو الذي قال حين عوقب على تركه ثعلباً والتزامه المبرّد : « لست أقول بالذكر والخمول ، ولكني أقول بالعلم والنظر » . وكذلك كان تلميذه أبو القاسم لا يقول بالميل والهوى ولكنه يقول بالعلم والحق .

أسلوبه :

وكان الزجاجي ذا أسلوب رصين ، ومنطق محكم متين ، ونفَس طويل ، يلج ميادين الجدل ، بل يفتح على نفسه أبوابها ، ويختلق لخصومه الحجج ، بالنقض ، وعلى العلل بالابطال ، صنيع علماء المنطق في ايراد أدلة خصومهم لهدمها وبناء آرائهم على أنقاضها ؛ كما كان يمتاز بدقة العالم وأمانته ، فهو لا ينسى إذا كان في صدد الاستشهاد بلفظ أو بيت أن يعنى بالسند العناية اللازمة كما فعل في الأمالي . وهو لا يذكر خبراً إلا يعزوه الى مصدره ويذكر عمن أخذه ويزداد تقديرنا لهذه الصفة إذا علمنا أن جلّ مسائله التي ذكرها لم تكن مدوّنة في الكتب وإنما أخذها مشافهةً عن شيوخه وأساتذته . قال في مقدّمة الإيضاح : « ونضمّ إلى العلل بعد تقديمها ، مسائل مجموعة منثورة من سائر الحدود ، منها ما استخرجناه من كتب العلماء وبسطناه وهذّبناه وقرّبناه ، ومنها ما تلقيناه من علمائنا رضي الله عنهم تلقياً ومشافهة مما لم يودعوه كتبهم ولا يوجد فيها البتة . » وقال في آخر جوابه عن مسألة وردت عليه : « وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيء من كتبهم البتة وهي مسطرة في كتب الكوفيين ، ولكني سألت عنها أبا بكر بن الخياط ، وابن شقير ، فأجاباني بما ذكرته لك[1] . » ومثل ذلك ما ذكره في مقدمة الإذكار بالمسائل الفقهية . » من إيضاح للمصادر التي استقى منها [2] . مما يجعلنا نقدّر فيه دقة العالم وأمانة المؤلف .

(١) الأشباه والنظائر ٣ : ١٤٦

(٢) هذا البحث ص :

وخلاصة القول أن أبا القاسم الزجاجي ، كان من أفاضل الأئمة في النحو واللغة والأدب . شهد له العلماء بالفضل ، وعدّوه في طبقة أبي سعيد السيرافي وأبي علي الفارسي [١] . وحسبه ما عُرف عنه من شيوع مؤلفاته وعموم نفعها ، وأن كتابه « الجُمَل » كان عليه المعوّل في مرحلة من مراحل تأريخ النحو حتى قيل فيه : هو كتاب المصريين ، وأهل المغرب ، وأهل الحجاز ، واليمن والشام ، إلى ان اشتغل الناس باللُّمع [٢] لابن جني والايضاح [٣] لأبي علي الفارسي [٤] » .

(يتبع) مازن المبارك

---

(١) نزهة الألبا : ٣٧٩

(٢) كتاب اللُّمع لأبي الفتح عثمان بن جني ، وهو كتاب صغير في النحو ، منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة رقمها / ١٧١٩ نحو / كتبت سنة ٦٨٠ في بغداد عدد أوراقها / ٦٤ / . ولكتاب اللمع عدة شروح .

(٣) الايضاح كتاب شامل في النحو لأبي علي الحسن بن أحمد ابن عبد الغفار الفارسي منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة رقمها / ١٠٠٦ نحو / كتبت بخط مغربي سنة ٥٦٦ هـ وهي في جزأين .

(٤) إنباه الرواة ٢ : ١٦١

كتاب شرح الألفات

لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي

توطئة :

المخطوطات القيمة التي حازتها خزانة المجمع الآسياوي بكلكتا (بنغالا ـ الهند) عثرتُ من بينها على مجموع [1] عتيق رقمه A. 120 يحتوي على رسائل عدة ، في القراءة ووجوهها ، منها أثر لطيف ، لابي محمد بن القاسم بن محمد ابن بشّار الانباري النحوي اللغوي الشهير ، المتوفى سنة ٣٢٨/٧ (٩٣٩/٨ م) وهو كتاب شرح الالفات ، الذي استغرق نحو تسع ورقات ، من بين ثلاث وسبعين ورقة من المجموع .

أما بقية الرسائل ، فمنها كتاب نهاية الإتقان في تجويد تلاوة القرآن ، لابي الحسن شُريح [2] بن محمد بن شُريح الرُعيني ، المتوفى سنة ٥٣٧ (١١٤٢ م) وذلك من رواية : محمد بن مؤمن بن سعد الانصاري ، عن مؤلفه ابي الحسن شريح المذكور ، سماعاً منه عليه ، في منزله بمدينة اشبيلية ، حماها الله ، سنة تسع عشرة وخمسمائة [3] (٥١٩/ ١١٢٤ م) وهو في طليعة المجموع ، وقد وردت

---

(١) راجع : فهرس المخطوطات العربية في خزانة المجمع الأسياوي (ص ٤٧ ـ ٤٨ ، سنة ١٩٣٩ م كلكتا) .

(٢) راجع : غاية النهاية ، ج ١ ص ٣٢٤ ، رقم ١٤١٨ .

(٣) العبارة بنصها عن ظهر المخطوط من كتاب نهاية الاتقان ، وقد جاءت في ٤ أسطر وآخر السطر الرابع ما نصه : نفعه الله وايانا بذلك ـ ومحمد بن مؤمن هذا لم يترجم له ابن الجزري كما لم يذكره في من أخذ عن أبي الحسن شريح ؛

في مواضع من هوامشه [١]، خطوطٌ وتوقيعات بقلم المقرىء ابراهيم [٢] بن محمد ابن وثيق الاموي، المتوفى سنة ٦٥٤ (١٢٥٦ م) بالاسكندرية، وكان رحمه الله قرأ على حبيب [٣] بن محمد بن حبيب، ابي الحسن الحميري الاشبيلي، سبط المقرىء ابي الحسن شريح الرعيني المقدّم الذكر.

ومنها رسالةٌ في الحروف، لابن وثيق الاموي الاشبيلي الآنف الذكر.

ومنها قطعةٌ من كتابٍ لابي عمرو [٤] عثمان بن سعيد الداني الاموي، المتوفى سنة ٤٤٤ (١٠٥٢ م)، ومعظم المجموع عبارةٌ عن تلك القطعة:

ومنها، أوراق عدّة، تختلف عن جملة الرسائل المذكورة، وهي من كتاب لا يمكن العثور على عنوانه ورسمه، فضلا عن معرفة مؤلفه واسمه:

تلك الرسائل كلها: مبتورة، ناقصة، مخرومة، أكلت منها الليالي أكلاً لمّا، ما عدا كتاب شرح الالفات، لابن الانباري، والورقات مختلة الترتيب، جاس بعضها خلال بعضٍ، فتصفحتُ المجموع، وأمعنتُ النظر فيه ورقةً ورقةً حتى عثرتُ على جملة اوراقٍ من كتاب شرح الالفات، وقد جاءت تسعةً، بلا نقصٍ ولا زيادةٍ، على هذا الترتيب: الورقة الـ ٨/ب ــ ١١، ٥ ــ ٤ ٣، ٢٥، ٢٢ / ظ، ولم يفُتنا شيءٌ من هذا الأثر النفيس، فالحمد لله على ذلك.

هذا المجموع على اختلاف ما تضمن من خروم الرسائل، راجعٌ الى القرن السابع، بحكم القرائن الخطية والآثار الشاهدة بلسانها على القدم، والخروم كلها

(١) الورقة الـ ٢٤ ظ، والـ ٣٠ ب، والـ ٣٢ ب، والـ ٣٥ ظ.
(٢) راجع غاية النهاية، ج ١ ص ٢٤، رقم ١٠١.
(٣) المرجع السابق: ج ١ ص ٢٠٢، رقم ٩٣٢.
(٤) راجع: غاية النهاية، ج ١ ص ٥٠٣ رقم ٢٠٩١.

مغربية السوس ، عتيقة اللبوس ، خطوطها متراوحة بين النسخي والجوهر المألوف عند المغاربة ، والتشابه الخطي بين كتاب شرح الالفات وبين قطعتي الرعيني وابن وثيق الأموي ، أشد وأقوى ، حتى يغلب على الظن ان المجموع قضى برهةً من الزمان ، في حوزة ابن وثيق هذا ، ويؤيده ما ورد في حواشي كتاب نهاية الاتقان من خطوطٍ ، بقلم ابن وثيق موقعة بما نصه ـ « قال ذلك ابن وثيق » ـ و ـ « قال ذلك ابراهيم بن محمد بن وثيق » ـ

أما كتاب شرح الالفات : فقد سماه ابن النديم[1] ، في عداد مؤلفات ابن الانباري بكتاب الالفات ، وتبعه ياقوت ، في إرشاد[2] الاريب ، فلم يعرفاه بشرح الالفات كما لم يذكرا عن مقداره ، وفصوله ، شيئاً نستمدُّ به ، في القطع بان كتاب الالفات ، الذي ذكراه ، هو ليس غير هذه النسخة المرسومة ، بشرح الالفات ، على أني لا أتمارى في عزو شرح الالفات هذا ، الى ابن الانباري ، والذي نستند اليه ونثق به ، في ذلك هو السند المزبور في طليعة النسخة ، فانه ينبيء القراء ، عن قدر هذا الأثر بين العلماء الجلة ، حيث تناقله بعضهم عن بعضٍ ، منذ عصر مؤلفه ، ابن الانباري ، الى منتصف القرن السابع ، وكلهم اعلام ، معاريف ، على اختلاف عصورهم ، لا ينكر فضلهم ، ولا يشقّ غبارهم ، وسنُسرد اسماؤهم في موضعها من السند ؛ ويؤيده ما ورد ، في اللسان[3] والتاج ، من كلام ابن الانباري في ترجمة الألف ، وسيأتي التنبيه الى ذلك في غير موضعٍ ، من نصّ الكتاب ؛ ثم الذي يزيدني ثقةً بما اعتقدت ، ان بعض ما وصل الينا من مؤلفات المتقدمين ، ربما لا يتجاوز بضع ورقاتٍ .

(١) راجع كتاب الفهرست : ص ١١٢ طبعة مصر ،
(٢) انظر الارشاد : ج ٧ ص ٧٧ طبعة تذكار رغب .
(٣) راجع اللسان : ج ٢٠ ص ٣١٣ ، وتاج العروس : ج ١٠ ص ٤٢٣ .

قد تصفحت من فهارس النسخ الخطية ، ما وصلت اليه يدي ، بحثاً عن مخطوطٍ آخر من هذا الكتاب ، فاطلعت على نسخةٍ ، منه ، عتيقةٍ ، في خزانة برلين ، في ضمن مجموع [1] ، برقم ٦٨٥٦ ، عنوانها : شرح الالفات المبتدءات في الاسماء والافعال وهي تستغرق نحو سبع أوراقٍ من المجموع (الورقة الـ م ـ الـ ٧ / ظ) وانتسخها عبد الواحد بن احمد الثقفي ، في شهر شعبان ، سنة ٥٠٨ (١١١٥ م) وقد اورد منها اهلوردت عدّة اسطرٍ بنصها ، فاستدللتُ بها ان النسخة لا تختلف عن نسختنا الاسبوبة ، في شيء . وهذه النسخة ، أغفلها بركلمان الألماني ، في تأليفه الحافل ، ولكنه عرّفني بمخطوط [2] آخر من الكتاب رسمه « المختصر في ذكر الالفات » وهو محفوظ في خزانة لالبلى ، باستنبول وضمنه هناك ايضا بمجموع مسجلٌ برقم ٣٧٤٠ ، وهو يحتوي على رسائل من تأليف مشاهير الكُتّاب أمثال الزمخشري ، وابن الحاجب وهذا المختصر ، هو العاشر في الترتيب ، في نحو ست أوراق (الورقة الـ ١٠٣ ـ ١٠٨) وها كم عبارة ختامه كما وردت في مجلة [3] Le Monde Oriental : « تمّ الكتاب لاربع ليالٍ خلون من شوال ، سنة اثنتين وثمانين وستمائة (٦٨٢ / ١٢٨٣) ويغلب الظنّ ان هذا المخطوط ، ايضا ، لا يختلف عن اصلنا المخطوط في شيء من البنية ، أما اختلاف النسخ المتعدّدة ، فيما بينها ، فهو أمرٌ بيّنٌ ، غير مدفوعٍ بحكم البديهة :

قد رجحت النسخة الالمانية ، وفاقت أختيها ، باعتبار التاريخ ، وكذلك نسخة استنبول تطي القلوب ، اذ جاءت مسجلة بعمرها ، فلا ريب انها بهذا الاعتبار

(١) انظر فهرسة اهلوردت : ج ٦ ص ٢٠٠ (سنة ١٨٩٤ م) .
(٢) راجع تاريخ الآداب العربية — التتمة : ج ١ ص ١٨٢ .
(٣) راجع العدد الرابع (مقال الأستاذ ريشر O. Rescher) ص ١٠٧ سنة ١٩١٣ م .

تفوقان نسخة المجمع الاسيوي بكلكتا ، ولكنها نسخة لا تتأخر عن القرن السابع وليست دونها في القيمة بل هي تزداد ثمنا ، بما تضمنت من سلسلة إسنادها الى المؤلف ، وذلك يدلّ على صلة الكتاب بطبقة العلماء الأفذاذ ، فقد رواه عن ابن الانباري ابو عمرو الرزّاز ، المتوفى سنة ٣٦٧ ورواه عنه ، ابو الحسن الحَمّامي ، المقرئ المتوفى سنة ٤١٧ ، ورواه عنه أبو الحسن العلاّف ، المتوفى سنة ٥٠٥ ، ورواه عنه ، الحافظ ، السِلَفي ، المتوفى سنة ٥٧٦ ، ورواه عنه ، ابن رواج القرشي الاسكندراني ، المتوفى سنة ٦٤٨ .

وتلك مزيّة ، حرمتها كلتا النسختين فيما يظهر ، ولا يخفى انّ النصّ الذي انتقل الينا عن الرُواة الثِقات ، لا يُساويه ، ما انتسخه الورّاقون ، في صُحُفٍ غير مروية ، وان كانوا ذوي رويّةٍ ؟

ثم يجب الانتباه الى أمورٍ ، أولها ، ان موضوع الكتاب ، ليس ببديعٍ ولا غامضٍ ولكنه أثر عتيق يستحقّ التنويه لما تضمن من طريقة البحث للمتقدمين في ذلك ، وقد ألف في موضوع الألفات وغيرها من الحروف ، رجال القرون المتقدمة ، على اختلاف طبقاتهم ومناحيهم في مسائل التصريف والإعراب ، منهم المازني ابو عثمان بكر بن محمد البصري ، المتوفى سنة ٢٤٩/٨ (٨٦٣/٢ م) له كتاب [1] الالف واللام وكان الرمّاني شرحه [2] ، والسيرافي ابو سعيد الحسن بن عبد الله ، المتوفى سنة ٣٦٨ (٩٧٨ م) ، صاحب كتاب الفات الوصل [3] والقطع ، والجعد ابو بكر ، صاحب ابن كيسان ، له كتاب

(١) انظر كتاب الفهرست : ص ٨٥ ، والوفيات ، لابن خلكان : رقم ١١٧ (طبعة غوتنجن) .

(٢) راجع الفهرست : ص ٩٥ .

(٣) الفهرست : ص ٩٣ ، وابن خلكان : رقم ١٦١ .

الالفات [١] ، وابن خالويه اللغوي ، المتوفى سنة ٣٧٠ (٩٨٠ م) له كتاب الالفات [٢] وهو من اصحاب ابي بكر بن الانباري ، والرّماني ابو الحسن علي بن عيسى ، المتوفى سنة ٣٨٢ (٩٩٢ م) له كتاب الالفات [٣] في القرآن وأمثالهم .

واقتصر ابن الانباري — في كتابه هذا — من الألفات على اصولها التي تأتي في أوائل الافعال ، والاسماء ، والادوات ، مع إلمامه ببعض التوابع ، وخصّ لكل صنفٍ ، باباً فتمّ الكتاب في ثلاثة ابواب قصيرة ، والذين حاولوا التوسع في الموضوع ، واستفاضوا في البحث عن التوابع ، ذكروا للالف وجوهاً ، وأحصوا لها ، ضروباً ، مع زيادة بعضهم على بعضٍ ، وتجدها مشروحةً ، موجهةً في كتاب منازل [٤] الحروف ، المنسوب الى الرماني ابي الحسن علي بن عيسى (المتوفى سنة ٣٨٢) وفي رسالة [٥] الحروف ، المنسوبة الى النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤/٣ (٨١٩/٨ م) وفي كتاب سرّ العربية للثعالبي ، المتوفى سنة ٤٢٩ (١٠٣٧ م) وفي غير ذلك من كتبهم في الباب .

والثاني أنّ المؤلف ، يلقب الهمزة بالالف . وليس ذلك توهّماً منه بل انهم جميعاً ، يتجوزون في تسمية الهمزة بالالف وقد أتى كلامهم في المعنى على أتوٍ واحدٍ .

والثالث انهم اختلفوا في بيان التقسيم الاوّلي للالف ، فذهبت طائفة الى ان

---

(١) الفهرست : ص ١٢٢ .

(٢) الفهرست : ص ١٢٤ ، والوفيات : رقم ١٩٣ وقد أحال على كتاب الالفات هذا ، في كتابه : اعراب ثلاثين سورة .

(٣) راجع الفهرست : ص ٩٤ — ٩٥ .

(٤) هذا الكتاب ، نشره ، الفاضل غلام مصطفى ، مجلة كلية الألسنة الشرقية بمدينة لاهور ، العدد الـ ٢ المجلد الـ ٧ ؛ ص ١٨ — ٤٢ .

(٥) راجع البلغة في شذور اللغة : ص ١٦٠ طبعة بيروت سنة ١٩١٤ م .

الالف على ضربين ، الف القطع والف الوصل ، ومنهم السيرافي ابو سعيد ، كما يظهر من ترجمة كتابه فيما تقدم ، والجوهري [١] ، صاحب الصحاح ، وهؤلاء يعتبرون القطعية أنها قد تكون زائدة وقد تكون اصلية ، ومنهم من زعم القطعية ، اصلية فلقبها الف الاصل وقد ذهب الى ذلك ابو جعفر بن سعدان ، وخلف بن هشام البزّار ، وردّ عليها ابن الانباري في كتابه هذا .

وطائفة اخرى تقول ، ان الالفات ثلاثٌ ، اصلية ، وقطعية ، ووصلية وهو مذهب ابي العباس احمد بن يحيى ، ومحمد بن يزيد ، فيما روى عنهما [٢] الازهري واختاره ابن الانباري فهؤلاء يحسبون الأصلية ضرباً برأسها .

واذا كانت النسختان ــ الألمانية ، والاستنبولية ــ من الكتاب ، تقطعت دونها الأسباب والوسائل ، عوّلتُ على النسخة الاسياوية ، وحدها ، وهي في حدّ ذاتها ، نسخةٌ جيدة ، مضبوطةٌ ، مصححةٌ ، فُورنت مع نسخة أخرى لا أعرفها ، وقد نبه صاحب اصلنا المخطوط ، على اختلاف ما بينها وسيرد ما حُكي عنها في موضعه من التعليقات .

في حاشية الاصل ، أيضا ، زياداتٌ ، أثبتها الناسخ بخطه ، لا يتمّ الكلام بدونها ، فأدمجتها ، في سياق المتون ، حيثما يقتضيها سداد نظم الكلام ، وجعلتها بين القوسين .

وجاءت في موضعٍ من الكتاب ، عبارةٌ طويلةٌ ، تستغرق هوامش الورقتين الـ ١٠/ب ــ الورقة الـ ١١/ظ ، علقها الناسخ من كتاب الوقف والابتداء ، لابن الانباري أيضاً ، حولتُها ، عن موضعها من الهامش ، وقيدتُها في آخر نسختنا ، لكونها فائدةً برأسها .

---

(١) انظر صحاح اللغة ــ ج ٢ ص ٥٧١ .
(٢) انظر تاج العروس ــ ج ١٠ ص ٤٢٢ .

وقد عاث العثّ ، في غير موضع من المخطوط ، فشوّش حروفاً ، وأذهب التغليف والترقيع ، طائفة منها ، فوضعت كلّ ما رأيته ، صواباً ، في تلك المواضع ، بين المربعين وقد زدتُ ، في اكثر من موضعٍ ، لفظاً او لفظين ، بمقتضى السياق والسباق ، فما جاء على هذا المثال ، يحيط به المعكفان .

وطول المخطوط ١٧ سنتمتراً ونصف في عرض ١٣ سنتمترا والقسم المكتوب من كل صفحة طوله ١٢ سنتمترا في عرض ٩ س . وفي كل صفحةٍ ١٧ سطراً وفي الصفحة الاخيرة ٨ سطورٍ فقط .

(الهند) ابو محفوظ الكريم معصومي

كتاب شرح الألفات

[ورقة الـ ٨/ ب] بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على محمد ،

قال ، ثنا ، الشيخ ، الفقيه ، الراوية (١) ، ابو محمد عبد الوهاب بن ظافر القرشي ، عرف والده ، برواج (٢) ،

قال ، ثنا ، الشيخ الفقيه ، الحافظ ، أبو الطاهر احمد (٣) بن محمد

(١) الاصل : الرواية .

(٢) المحدث ابن رواج ، رشيد الدين ، ابو محمد ، عبد الوهاب بن ظافر بن علي ابن فتوح الاسكندراني المالكي ، ولد سنة ٥٥٤ (١١٥٩ م) وتوفي سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ م .
له ترجمة في تذكرة الحفاظ ، للذهبي (ج ٤ ص ٩٢) وفي حسن المحاضرة للسيوطي (ج ١ ص ١٥٩ – ١٦٠ ، طبعة الشرقية ، ١٣٣٧ هـ) وفي شذرات الذهب (ج ٥ ص ٢٤٢) وممن أخذ عنه محمد بن يوسف المقدسي ، المتوفى سنة ٧٠٣/ ١٣٠٣ م (غاية النهاية ج ٢ ص ٢٨٨) والشيخ بديع الدين المصري علي بن محمد المتوفى سنة ٦٨٦ / ١٢٨٧ م (بغية الوعاة : ص ٣٥١) وفي بعض المظانّ : ابن رواح بحاء ، مصحفاً ؛ وابن رواج هذا ، يروي عن الحافظ السلفي ، كتاب المحدث الفاضل بين الراوي والواعي ، تأليف القاضي ، أبي محمد الحسن ابن محمد بن خلاّد الرامهرمزي – بسماعه عليه في شهر رمضان ، سنة ٥٧٤ / ١١٧٨ م (انظر فهرس النسخ الخطية باسكوريال ، تأليف هـ . ديرنبورغ : ج ٣ رقم ١٦٠٨) .

(٣) هو من جلة الحفاظ ، توفي يوم الجمعة ، خامس عشر ، ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسمائة (٥٧٦ / ١١٨٠ م) له ترجمة في أنساب السمعاني (الورقة ، الـ ٣٠٢) والوفيات (رقم ٤٣ – طبعة غوتنجن) وتذكرة الحفاظ (ج ٤ ص ٩٠) وطبقات الشافعية ، للسبكي (ج ٤ ص ٤٣) وغاية النهاية (ج ١ ص ١٠٢ رقم ٤٧٢) وشذرات الذهب ، (ج ٤ ص ٢٥٥) وتاج العروس (ج ٦ ص ١٤٤) .

السِلَفي[(١)] ، رضي الله عنه .

قال ، أنا ، الحاجب ، ابو الحسن علي[(٢)] بن محمد بن علي بن يوسف ابن العلاّف ، المقرىء ، ببغداد ، قراءة عليه ، بها ، سنة أربع[(٣)] وتسعين وأربع مائة ،

قال ، انا ، ابو الحسن[علي][(٤)] بن احمد بن عمرو بن حفص ، المقرىء الحَمّامي <قال> ثنا ، ابو عمرو[(٥)] عثمان بن احمد بن سمعان ،

(١) شكله في الأصل أيضاً ، بكسر السين مع علامة الاهمال تحتهـا ، وبفتح اللام وكتب فوقه صح وكذا ضبطه ابن الجوّاني بكسر ففتح ويؤيده ما وجد بخط يوسف ابن شاهين ، وهذه النسبة الى سِلَفه تعريب سه‌لبه بالفارسية أي ذو ثلاث شفاه ، وهو جده ، وكان مشقوق الشفة وفي قول الزركشي ، شلفه بالشين معجمة ، أو النسبة الى قرية باصفهان وهو غلط وقيل الى بني السِلف من حمير ذكره ابن الجوّاني ومال اليه الزبيدي (راجع تاج العروس والمراجع السابقة) .

(٢) هو آخر من روى عن الحمّامي . ولد سنة ٤٠٦ / ١١٠٥ م وتوفي عن مائة إلا سنة ، في المحـرم سنة ٥٠٥ / ١١١١ م . له ترجمة في شذرات الذهب (ج ٤ ص ١٠) .

(٣) ٤٩٤ / ١١٠٠ م وكانت رحلة السِلفي الى بغداد في رمضان سنة ٤٩٣/١٠٩٩ م ، ثم حج وعاد اليها ، فتفقّه ، واشتغل بالعربية (راجع طبقات الشافعية) .

(٤) الحمّامي بفتح الحاء المهملة ، وتشديد الميم روى عنه الخطيب والبيهقي وأبو الحسن ابن العلاّف ، توفي سنة ٤١٧ / ١٠٢٦ م وقال السمعاني في حدود سنة ٤٢٠/ ١٠٢٩ م وهو متفرد بهذا .
له ترجمة في تاريخ بغداد (ج ١١ ص ٣٢٩ رقم ٦١٥٦) وأنساب السمعاني (الورقة الـ ١٧٤ ب) وغاية النهاية (ج ١ ص ٥٢١ رقم ٢١٥٧) وشذرات الذهب (ج ٣ ص ٢٠٨) وتاج العروس (ج ٨ ص ٢٦٠) .

(٥) هو الرزّاز ، البغدادي ، ويعرف بالمجاشي بفتح الميم والجيم وبعدها الألف وفي آخرها الشين المعجمة ، وفي أنساب السمعاني « البزار » وفي غاية النهاية « النجاشي » بالنون ، مصحّفين ، توفي سنة ٣٦٧ (٩٧٧ م) راجع له تاريخ بغـداد (ج ١١ ص ٣٠٦ رقم ٦١٠١) والأنساب (الورقة الـ ٥٠٨) وغاية النهاية (ج ١ ص ٥٠١ رقم ٢٠٨٣) .

قال ، قال ، ابو بكر محمد (١) بن القاسم بن بشار الانباري النحوي

باب (٢) ذكر الألفات التي يُبتدأ بها في أوائل الأفعال

وانما قدمناها ، على ألفات الأسماء ، والأدوات ، لقرب اصولها ، على المستفيدين وسهولة التفريع منها ، وقلة التباس العلل فيها ، عليهم ؛

اعلم ، ان الالفات المبتدأ بها ، في اوائل الافعال ، ستٌ :

الف اصلٍ ، والف قطعٍ ، والف وصلٍ ، والف (٣) الاستفهام ، والف المخبر عن نفسه ، والف ما لم يُسَمّ فاعله ،

فأما الف الاصل ، فانها تعرف ، بان ترى فاءً من الفعل (٤) ، ثابتةً في المستقبل ، كقوله تعالى ، أتى امرُ الله فلا تستعجلوه (٥) ،

الفُ أتى ، الف الاصل ، لانّ وزن أتى ، من الفعل ، فَعَلَ (٦) ، فالهمزة ، فاء الفعل ، والمستقبل يأتي ، فالالف موجودةٌ فيه ، ومثل أتى ، أمروا (٧) وأوى ، وأذن ، وأبق ، وأمن ، وما أشبههن ؛

---

(١) هو مؤلف الكتاب ، يضرب به المثل في حضور البديهة وسرعة الجواب وصفوه بنهاية الذكاء والفطنة ، وجودة القريحة وسرعة الحفظ وأكثر ما كان يمليه من غير دفتر ولا كتاب ، مات عن دون الخمسين وتوفي سنة ٣٢٨/٧ (٩٣٩/٨ م) . له ترجمة في الفهرست (ص ١١٢) وتاريخ بغداد (ج ٣ ص ١٨١ رقم ١٢٢٤) ومعجم الادباء (ج ٧ ص ٧٣) ونزهة الالباء (ص ٣٣٠ - طبعة مصر ، سنه ١٢٩٤) والوفيات (رقم ٦٥٣) وتذكرة الحفاظ (ج ٣ ص ٥٧٦) وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (ص ٣٢٧) والأنساب (الورقة الـ ٤٩ / ب) وبغية الوعاة (ص ٩١ - ٩٢) وشذرات الذهب (ج ٢ ص ٣١٥) .

(٢) مخطوط برلين : « ذكر الالفات » [فهرسة اهلوردت] .

(٣) المرجع المذكور : « الف استفهام » .

(٤) يعني الماضي .

(٥) س ١٦ ، الآية الـ ١ .

(٦) الأصل : « فعلى » .

(٧) كذا بصيغة الجمع في الأصل ، ولو كان « امر » لكان أليط بسياق الكلام .

والف القطع ، تُفتح في الماضي ، والامر ، وتكسر [١] في المصدر ، تعرف [الورقه الـ ٩ / ظ] بضم اول المستقبل ، كقوله عزّ وجل ، ألهاكم [٢] التكاثر ، ألف ألهاكم ، الف قطعٍ ، لان (اول المستقبل) مضمومٌ ، وهي الياء ، في يُلهي ، وألهى [٣] ، فعل ماض ، ومثله ، أحسنَ ، وأعطى ، وأقال ، وأنعم ، وأغلق ، وأقفل ،

وتبتدىء ، قوله عز وجل ، وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه [٤] ، أكرمي بالفتح ، لانها الف قطع ، معروفة بضم اول المستقبل ، وهو يُكرم ، وأكرمني ، وكذلك ، أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدق [٥] ، ويا سماءُ أقلعي [٦] ،

وتبتدىء ، قوله عز وجل ، ويخرجكم إخراجا [٧] ، بكسر الالف ، لانها الف قطع ، في المصدر ، اول مستقبلها مضمومٌ ، وهو يُخرج ، وكذلك ، إعطاء ، وإحسان ، وإنعام ،

وانما اختاروا لها ، الكسر ، وعدلوا فيها ، عن الفتح ، كراهية ان يلتبس المصدر ، بالجمع ، اذ أخراج [٨] ، جمعُ خُرجٍ ، وأحسان [٩] جمع حُسنٍ ،

(١) موضع خرمٍ في الأصل .
(٢) س ١٠٢ ، الآية الـ ١ .
(٣) رسمه في الأصل : ألها .
(٤) س ١٢ ، ع ٣ ، الآية الـ ١ .
(٥) س ١٧ ، ع ٩ ، الآية الـ ٣ .
(٦) س ١١ ، ع ٤ ، الآية الـ ٩ .
(٧) س ٧١ ، ع ١ ، الآية الـ ١٩ .
(٨) ابن خالويه : فان قيل ، لِمَ كسرت الألف ، في المصدر (الاخراج) فقل : لئلا يلتبس بالف الجمع مثل أخراج ، جمع خُرجٍ ، (اعراب ثلاثين سورة : ص ١٥٢) .
(٩) أغفله أصحاب المعاجم . والمعروف في الجمع محاسن ، وهو جمع لا واحد له عند جمهور أهل اللغة والنحو .

وأعطاء (١) جمع عطو ، وأنعام جمع نعم (٢) ،

وكان ابو جعفر ، محمد (٣) بن سعدان ، وخلف (٤) بن هشام ، البزّار (٥) ، يلقبان ، الف القطع ، الف الاصل ، وليس ذلك بصحيح عندنا ، من قبل ان الف الوصل (٦) ، هي التي تكون فاءً من الفعل والف القطع ، ليست فاءً من الفعل ، ولا عينا ، ولا لاماً ، وما هذا صفته ، فهو زائدٌ ، غير اصليٍّ ؟

والف الوصل ، تعرف ، بسقوطها من الدَّرْج ، وبفتح اول المستقبل ،

---

(١) هذا الحرف مثلّثٌ وكَعَدوٍّ ، وظبيٌ عطوٌ : يتطاول الى الشجر ، ليتناول منه (عن القاموس) .

(٢) كذا بسكون العين ، في الأصل ، وقال الجد : وقد يسكّن عينه .

(٣) هو من النحاة الكوفيين ، ولد سنة ١٦١ / ٧٧٧ م ببغداد وتوفي سنة ٢٣١/ ٨٤٥ م . له ترجمة ، في الفهرست (ص : ١٠٤) وغاية النهاية (ج ٣ ص ١٤٣ رقم ٣٠١٩) وبغية الوعاة (ص : ٤٥) .

(٤) أبو محمد ، البزّار ، بغدادي ، أصله من فم الصلح ، ولد سنة ١٥٠ / ٧٦٧ م ، وتوفي ، سنة ٢٢٩ / ٨٤٣ م ، وهو مختفٍ من الجهميّة ؛
له ترجمة ، في تاريخ بغداد (ج ٨ ، ص ٣٢٢ ، رقم ٤٤١٧) وغاية النهاية (ج ١ ، ص ٢٧٢ ، رقم ١٢٣٥) وتاريخ الحنابلة لابن أبي يعلى (اختصار النابلسي ، ص : ١١٢) ومفتاح السعادة (ج ١ ص ، ٣٧٩) .

(٥) عبارة الأصل هكذا : « . . . وخلف بن هشام ، يلقبان ، الثوار ، الف القطع الف الأصل » ، والثوار ، مصحّفٌ عن البزّار ، ثم هو مدرجٌ في غير موضعه ، والصواب ما قرّرته ، ان شاء الله .

(٦) كذا في الأصل ، وهو غلط ، وجاء في الحاشية ، الأصل صح ، وهذا هو الصواب بلا امتراء ، وهذا الخطأ فيه قديمٌ جداً ، فقد ورد في ما حكاه ابن منظور ، عن ابن الانباري ، ما نصه : والفرق ، بين الف القطع ، والف الوصل ، ان الف الوصل ، فاء من الفعل ، وألف القطع ، ليست فاء ، ولا عيناً ، ولا لاماً (اطلب اللسان ، ج ٢٠ ص ٣١٣) وكذا ، عند المرتضى الزبيدي ، ولفظه ، والفرق ، بين الف القطع ، والوصل ، ان الف الوصل ، فاء من الفعل الخ (انظر تاج العروس ، ج ١٠ ، ص ٤٢٣) والصواب الظاهر ، ان الكلام ، هنا ، في الفرق بين الف القطع والف الأصل .

وهي مبنية على ثالث المستقبل ، ان كان الثالث مكسوراً ، او مفتوحاً ، كُسرت
وان كان مضموماً ، ضُمّت ،

فتبتدئ ، قوله عز وجل ، ان اضرب بعصاك (١) ، بكسر الف اضرب لانها مبنية (على الراء ، في يضرب ، وهي) [الورقة الـ ٩/ب] الف وصلٍ ، اذ كانت ساقطة ، في الوصل ، مفتوحاً اول مستقبلها ، يضرب ، وانما بنيت ، على ثالث المستقبل ، ولم تُبْنَ ، على الاول ، منه ولا الثاني ، ولا الرابع ، لان الاول زائد ، والزائد لا يُبنى عليه ، والثاني ساكن والساكن (٢) يبتدأ به ، والرابع لا يثبت على إعرابٍ واحد ، اذ كان مضموماً ، في الرفع ، او ممكّناً في الجزم ، مفتوحاً في النصب ، فبُنيت من اجل ذلك ، على الذي اعرابه لازم ، غير منتقل ، وهو الثالث ، مثل اضرب ، نستعين (٣) اهدنا ، تبتدئ به (٤) إهدنا ، لانها ، الف وصلٍ ، مبنية على كسرة الدال ، في يهدي ، والضمة الموجودة في الوصل ، هي ضمة نون نستعين ، والف اهدنا ، معدومة ، من اللفظ ، عند الوصل ، ومثله ، ارجعوا (٥) الى ابيكم ، ابن لي صرحاً (٦) ، امضوا ، ايتوا (٧) صفاً ،

فان قال ، قائل ، التاء في ايتوا ، مضمومة ، ومثلها الضاد ، من امضوا ، قيل له ، التاء على تاء يأتي ، و< الضاد ، على > ضاد يمضي (٨) ، والاصل

(١) س ٢٦ ، ع ٤ ، الآية الـ ١١
(٢) لعلّ الأصل : لا يبتدأ به ، وهو الصواب
(٣) الفاتحة - الآية الـ ٤ - ٥
(٤) يعني بالكسر
(٥) س ١٢ ، ع ١٠ ، الآية الـ ٢
(٦) س ٤٠ ، ع ٤ ، الآية الـ ٩
(٧) س ٢٠ ، ع ٣ ، الآية الـ ٦٤
(٨) الاصل ، يفضى

في امضوا[١] وايتوا ، امضِيوا[٢] ، وائتُيوا[٣] ، فاستثقلوا الضمة على الياء ، فالقوها على الضاد ، والتاء ، بعد ان أزالوا ، عنها الكسرة ، واسقطوا الياء لسكونها ، وسكونِ الواو ؛

وتبتدئ ، قوله عز وجل ، اشكر[٤] لي ، أشكر < بضم الالف > لانها ، الف وصلٍ ، مبنيةٌ على كاف يشكُر ، ومثله أعبدوا[٥] ، أدخل ، أخرج ، اقتل ، اكتُبْ ، و ما أشبههنّ ،

وتبتدئ ، قوله تعالى ، ان اصنع[٦] الفلك ، اصنع ، بكسر الالف ، لانها مبنيةٌ على الثالث ، وهو النون ، في يصنع ؛

فان قال ، قائل ، هلاّ[٧] فتحتها ، اذا كان الثالث مفتوحاً ، كما تكسرها ، اذا كان الثالث[٨] ، مكسوراً[٩] ، [الورقة الـ ١٠/ظ] أو نضمها ، اذا كان الثالث مضموماً ؛ فقل ، كرهتُ ان افتحها ، فيلتبس (الامرُ بالخبر ، ألا ترى (انك لو قلت ، في الامر ، اذهب يا رجل ، اصنع[١٠] يا رجل ، لالتبس بقولي في الخبر ، انا اذهب ، انا اصنع ،

فكسرناها ، لما بطل فيها الفتح ، لانّ الكسر ، اخو الفتح ، وذلك ان

(١) الاصل ، امضوا
(٢) الاصل ، امضُيُوا
(٣) الاصل ، ائتُيوا
(٤) س ٣١ ، ع ٢ ، الآية الـ ١٤
(٥) لو كان أعبد ، لكان أليط بالنسق ، لعله : أليق
(٦) س ٢٣ ، ع ٢ ، الآية الـ ٢٧
(٧) الاصل : هل لا
(٨) اكلته الارضة
(٩) جاء بالهامش : بلغت المقابلة
(١٠) في حاشية الاصل ، ما اصه ، وفي نسخة اخرى ، الا ترى انك لو قلت ، اصنع ، بفتح الالف ، لالتبس ، بالاخبار عن النفس ، كقولك ، انا اصنع ، صح في اخرى .

الحركات ، ثلاث فتحة ، وكسرة ، وضمة ، فالفتحة ، اخف الحركات ، ثم الكسرة تليها ، والضمة اثقل الحركات ، فحركت الالف بالكسر ، لما كانت الكسرة تقرب من الفتحة ؛

ومثله ، ائذن [١] لي ، اذهبوا [٢] بقميصي ، اقرأ باسم [٣] ربك ، ابلعي [٤] ماءك ، اعلم ان الله ،

وتبتدئ ، قوله عز وجل ، اذا السماء [٥] انفطرت ، < انفطرت > بكسر الالف ، لانها الف وصل ، مبنية على الطاء ، في ينفطر ؛

فان قال ، قائل ، بنيتها على الطاء ، والطاء رابعة ، لان ينفطر ، وزنه ينفعل ، فالنون زائدة ، لا يلتفت إليها ، والبناء على عين الفعل ، أين كانت

وتبتدئ ، ايضا ، قوله عز وجل ، الكاذبون [٦] استحوذ ، استحوذ [بكسر] الالف لانها مبنية ، على عين الفعل ، وهي الواو ، في يستحوذ ، يستفعل والتاء والسين زائدة ، لا يلتفت إليها ؛

وتبتدئ ، قوله ، اذا السماء [٧] انشقت ، إنشقت ، بكسر الالف ، لانها الف وصل ، مبنية ، على عين الفعل ، وهي القاف المدغمة ، في تنشق ، تنشقق على وزن تنفعل فاستثقل الجمع ، بين حرفين متحركين من جنس واحد ، واسكنت القاف الأولى ، وادغمت في التي بعدها (فصارتا ، قافا مشدّدة) [الورقة الـ ١٠/ب] والنون ، في تنشق ، زائدة ، لا يقبل عليها ؛

---

(١) س ٩ ، ع ٧ ، الآية الـ ٦
(٢) س ١٢ ، ع ١٠ ، الآية الـ ٩٣
(٣) س ٩٦ ، الآية الـ ١
(٤) س ١١ ، ع ٤ ، الآية الـ ٤٤
(٥) س ٨٢ ، الآية الـ ١
(٦) س ٥٨ ، ع ٣ ، الآية ١٨ — ١٩
(٧) س ٨٤ ، الآية الـ ١

وتبتدئ ، قوله عز وجل ، [الماء] اهتزّت [1] ، إهتزّت ، بكسر الالف ، لانها ، الف وصلٍ مبنيةٌ على عين الفعل « وهي الزاى المدغمة في تهتز ، من قبل ان اصل تهتز ، تهتزِزُ ، على مثل تفتعل ، فاستثقل الجمع بين زايين ، متحركتين [2] ، فاسكنت الزاى الأولى ، وأدغمت ، في التي بعدها ، والتاء التي في تهتزُّ ، زائدة ، لا يعمل عليها ؛

والف الوصل ، في الماضي ، على مثال ما هي عليه في الامر ، تبنى على العين ، لا غير ، والهمزة الموجودة عند وصل الكلام ، في قوله ، الماء اهتزّت ساقطة .

وتبتدئ ، قوله ، عز وجل ، آمنوا [استعينوا] [3] ، < استعينوا > بالكسر ، لانها الف وصلٍ ، مبنية على عين الفعل ، وهي الواو ، في نستعين ، قبل ان تقلب ياءً ، والاصل في نستعين ، نستعون ، على مثال نستخرج ، فاستثقلت الكسرة في الواو ، فألقيت على العين ، وجعلت [الواو] ياءً لانكسار الالف ؛

وتبتدئ ، قوله عز وجل ، وانا اخترتك [4] ، (اخترتك) [5] < بالكسر > لانها الف وصلٍ مبنيةٌ على عين الفعل ، وهي الياء في يختار ، قبل ان تقلب ألفا ، لان اصله يختيرُ على مثال يكتِب ، فصارت الياء ، الفا ، لتحركها ، وانفتاح ما قبلها ،

وان سأل ، سائل ، عن قوله عز وجل ، لقائنا ائت ، بقرآن غير هذا [6]

(١) س ٢٢ ، ع ١ ، الآية الـ ٥ ، س ٤١ ، ع ٥ ، الآية الـ ٣٩
(٢) الاصل : متحركين
(٣) س ٢ ، ع ١٩ ، الآية الـ ١٥٣
(٤) س ٤٠ ، ع ١ ، الآية الـ ١٣
(٥) جاء فوقه « صح »
(٦) س ١٠ ، ع ٢ الآية الـ ١٥

فقال كيف الابتداء [به] ، فقل ، إئت ، بكسر الالف ، لانها الف وصل ، مبنية على تاء يأتي ، فان [الورقة الـ ١١/ظ] قال [(١)] ، قد وجدنا الالفات ، ثابتةً في المستقبل ، وهي احدى علامتي الف (الاصل ، فيقال له) الف الوصل ، داخلةٌ على الف الاصل ، في هـذا الحرف واصله اذا اردت الابتداء به ، إبتوا [(٢)] ، بالكسر ، فصارت الهمزة الساكنة ، ياءً ، لانكسار الف الوصل ، واذا وصلت ، فقلت ، لقاءنا ائت ، سقطت الف الوصل ، الموجودة في الابتداء مكسورةً ، ورجعت الهمزة التي توجد في الابتداء مكسورة ساكنةً ،

وتبتدئ ، قوله عز وجل ، إطيّرنا [(٣)] ، بالكسر ، لانها الف وصلٍ ، مبنية على عين الفعل ، المفتوحة ، وهي الياء ، في يطير ، واصله تطيرنا ، فابدلوا من التاء ، طاءً ، لانها أشبه بالطاء التي بعدها ، ثم اسكنوها ، وأدغموها ، في الطاء الثانية ، فلم يصلح الابتداء بساكنٍ ، فادخلوا ألفاً ، يقع بها الابتداء ، ومثله ادّاركوا [(٤)] ،

وتبتدئ ، قوله عز وجل ، إني اصطفيتك [(٥)] ، < اصطفيتك > بالكسر لانها الف وصلٍ مبنية على عين الفعل ، وهي الفاء في يصطفي ، ولا تلتفت الى وقوع الفاء رابعةً ، لان الطاء لا يعمل عليها ، من اجل ان اصل الحرف ، يصتفي ، يفتعل من الصفوة ، فابدلت الطاء من التاء ، لانها أشبه بالصاد ، واخف على اللسان بعدها ، وتاء الافتعال غير معمول عليها ،

(يتبع)

---

(١) مخروم
(٢) لو كان « ائت » لكان أوفق بالسياق ، وهنا وردت تعليقة من كتاب الوقف والابتداء ، استغرقت حاشية الورقة الـ ١١/ظ ثم وردت بقيتها بهامش الورقة الـ ١٠/ب ، وستأتي في آخر الكتاب
(٣) س ٢٧ ، ع ٤ ، الآية الـ ٤٧
(٤) س ٧ ، ع ٤ ، الآية الـ ٣٨
(٥) س ٧ ، ع ١٦ ، الآية الـ ١٤٤

رسالة ابن حزم

في أمهات الخلفاء

تمهيد

ألّف ابن حزم القرطبي[1] (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) في التأريخ كما صنف في الفلسفة والشريعة وعلوم الدين . فما ألفه في التاريخ « جمهرة أنساب

---

(١) انظر عن ابن حزم ما يلي :

آ - من المصادر الأندلسية

الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٢٩٠ ، رقم ٧٠٨ (نشرة محمد بن تاويت الطنجي)
ابن بشكوال ، الصلة (مدريد ١٨٨٢) رقم ٨٨٨
ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ٦٣ (مطبعة السعادة)
ابن بسّام ، الذخيرة ، القسم الأول من المجلد الأول ، ص ١٤٠
ابن صاعد ، طبقات الأمم (المطبعة الكاثوليكية ، ١٩١٢) ص ٧٥
ابن سعيد ، المغرب ١ : ٤٤ و ٤٥ (دار المعارف بمصر)

ب - من المصادر المشرقية

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ٣ : ١٣ (ط . محيي الدين)
الذهبي ، سير أعلام النبلاء (مخطوطة أحمد الثالث)
الصفدي ، الوافي بالوفيات (مخطوطة أحمد الثالث)
ابن العماد ، شذرات الذهب ٣ : ٢٩٩

جـ - من المصادر الأجنبية

Brockelman, GAL

Asin Palacios, *Aben Hazem de Cordoba y su historia de las Ideas Religiosas.* Madrid, 1927—1932, 5 vol.

Á. Conzalez Palencia, *Historia de la Litteratura Arabigo — Espanôla.*
ترجم بالعربية باسم تاريخ الفكر الأندلسي . انظر ص ٢٢٠ خاصة .

العرب » ، و « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه » ، و « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » . وقد نشرت هذه الكتب الثلاثة .

لكنّ كتابه الكبير في التاريخ هو « الإمامة والخلافة ومراتبها » [1] ، وهو كتاب لم نعثر عليه . وكانَ نُشر لابن حزم منذ عامين كتاب باسم « جوامع السيرة » [2] . وهذا الاسم اخترعه المحققان اللذان حققا الكتاب . وقد أثبت على النسخة المخطوطة التي كنا عثرنا عليها في جامع الزيتونة بتونس « المرتبة الرابعة في نسب رسول الله وسيره ومغازيه وجمل من التاريخ » . وكنا ذكرنا في نقدنا هذه النشرة أن الكتاب هو جزء من كتاب آخر . ونحن نميل الى الآن الى اعتباره جزءاً من الامامة والخلافة ومراتبها .

هذا ما نعرفه الى الآن عن تواليف ابن حزم في التاريخ .

وقد عثرنا في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية على رسالة مخطوطة لابن حزم كتب عليها « الأمهات » [3] . وتقع في ورقتين كانتا ملحقتين بمخطوطة كتاب نقط العروس . ومصدرها مكتبة بايزيد عمومية في استامبول . وهما بخط قديم لعلها من أواخر القرن الخامس .

ولم نستطع أن نعلم هل كانت هاتان الورقتان رسالة خاصة أم باباً من أبواب كتاب آخر ؟ وكيف كانَ الأمر ، فإنهما تقدّمان لنا نصّاً جديداً من النصوص التي تركها ابن حزم في التاريخ .

ويدور الموضوع فيهما حول أسماء أمهات الخلفاء الراشدين ، والأمويين في

(١) انظر بلانثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٢٠ .

(٢) انظر نقدنا هذا الكتاب في مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الثاني (١٩٥٦) ، ص ١٨٩ - ١٩٣

(٣) انظر فهرس المخطوطات المصوّرة ، (الجزء الثاني ، القسم الثاني من التاريخ) ، رقم ٦٨٢ ، ف ٨٥٣

الشرق ، وبعض الأمويين في الغرب ، وبعض الخلفاء العباسيين [1] .

ونلاحظ أنه وقف عند الطائع في الخلفاء العباسيين . وكان توفي سنة ٤٠٠ هـ . أما الخلفاء الأمويون في الأندلس فلا يذكرهم على الترتيب ، ويقف عند المستكفي .

وتفيدنا هذه الرسالة أنّ أمهات الخلفاء الراشدين ، والأمويين في المشرق كن حرائر ، عدا أم يزيد وابراهيم ابني الوليد . أما العباسيون فأمهاتهم أمهات أولاد ، حاشا السفّاح والمهدي والأمين . أما أمويو الأندلس فما ولي الخلافة منهم مَن أمّه حرّة أصلاً وكان ابن حزم قد ذكر هذه النتيجة في كتابه نقط العروس [2] .

ونحن نقدم هذه الرسالة بعد أن قابلنا الأسماء الواردة فيها بما ورد في المصادر . وجعلنا بين عضادتين [ ] ما أضفناه منها ، وبينّا في الهامش سني تولية الخلفاء ، ووفياتهم ، لا وفيات أمهاتهم .

وهاكم الرسالة :

(١) ألّف في القديم ابن حبيب (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ) رسالة في « أمهات النبي » نشرها حسين علي محفوظ . بغداد ١٣٧٢ هـ .

(٢) انظر نقط العروس لابن حزم . (مجلة كلية الآداب بالقاهرة ، المجلد ١٣ « ١٩٥١ » ص ٨٨)

الأمّهات

قال أبو محمد بن حزم :

أمّ النبيّ (١) ﷺ آمنةُ بنتُ وَهْب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ابن مُرّة .

وأمّ أبي بكر (٢) ، رضي الله عنه ، أمُّ الخير ، مسلمة فاضلة ، سَلْمى بنت صَخْر بن عمر بن عامر بن كعب بن سَعْد بن تَيْم بن مُرّة .

أمّ عمر (٣) ، رضي الله عنه ، حَنْتَمَةُ بنتُ هاشم بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مُرّة . كافرة .

وأمّ عثمان (٤) ، رضي الله عنه ، أرْوى بنت كرز (٥) بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف .

وأمّ عليّ (٦) ، رضي الله عنه ، فاطمة بنتُ أسد بن هاشم بن عبد مناف . مسلمة فاضلة مهاجرة .

أمّ الحسن (٧) ، رضي الله عنه ، فاطمةُ بنتُ رسول الله ﷺ ورضي عنها .

(١) توفي سنة ١١ للهجرة
(٢) (١١ - ١٣ / ١٣ ﻫ)
(٣) (١٣ - ٢٣ / ٢٣ ﻫ)
(٤) (٢٣ - ٣٥ / ٣٥ ﻫ)
(٥) في جوامع السيرة « كريز »
(٦) (٣٥ - ٤٠ / ٤٠ ﻫ)
(٧) (٤٠ - ٤١ / ٤٨ ﻫ)

أمّ معاوية (١) ، رضي الله عنه ، هِند بنت عُتبة بن ربيعة بن عبد شمس ابن عبد مناف . مُسلمة مُبايعة .

أمّ يزيد (٢) مَيْسون بنت بَحْدَل الكلبيّة .

أمّ عبد الله بن الزّبير (٣) أسماء بنت أبي بكر الصدّيق .

أمّ معاوية بن يزيد (٤) أمّ خالد بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

أمّ مروان بن الحكم (٥) الزرقاء الكنانيّة .

أمّ عبد الملك (٦) عائشةُ بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاصي بن أميّة .

أمّ [الوليد (٧) و] سليمان (٨) ولّادة بنت العباس بن جَزْء بن الحارث ابن زُهير بن جذيمة العبسي .

أمّ عمر بن (٩) عبد العزيز ، رضي الله عنه ، أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطّاب .

[أمّ يزيد بن عبد الملك (١٠)] عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

أمّ هشام (١١) أم هشام بنت هشام بن اسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

---

(١) (٤١ – ٦٠/٦٠ هـ)
(٢) (٦٠ – ٦٤/٦٤ هـ)
(٣) (٦٤ – /٧٣ هـ)
(٤) (٦٤ هـ /٦٤ هـ)
(٥) (٦٤ – ٦٥هـ/٦٥ هـ)
(٦) (٦٥ – ٨٦/٨٦ هـ)
(٧) (٨٦ – ٩٥/٩٥ هـ)
(٨) (٩٥ – ٩٩/٩٩ هـ)
(٩) (٩٩ – ١٠١/١٠١ هـ)
(١٠) (١٠١ – ١٠٥/١٠٥ هـ)
(١١) (١٠٥ – ١٢٥/١٢٥ هـ)

[أمّ الوليد بن يزيد [1]] بنت محمد بن يوسف اخي الحجّاج بن يوسف الثقفيّ .

[أمّ يزيد بن الوليد [2]] شاهفريد بنت خسرو بن فَيْروز بن يَزْدَجِرْد ابن شَهْرِيار بن كسرى ابرويز .

[أمّ ابراهيم بن الوليد [3]] أم ولد لا أقف الآن على اسمها .

وأمّ مروان [4] اختُلف فيها . فقيل أم ولد اسمها ربّا . وقيل بنت جعدة ابن كاب من بني عامر بن صَعْصَعَة .

أمّ السفّاح [5] رائطة [6] بنت زياد بن عبد الله الحارثي ، من بني الحارث ابن كعب .

أمّ المنصور [7] سلامة البربريّة من نفزة . وقيل من [صنهاجة] .

أمّ المهدي [8] أم موسى بنت منصور الحميري .

أمّ الهادي [9] وهارون [10] الخَيْزَرانُ ، مولّدة كوفية .

وامّ الأمين [11] أم جعفر زُبَيْدَةُ بنتُ جعفر الأكبر بن أبي جعفر المنصور

وأمّ ابراهيم بن المهدي [12] شَكْلَةُ ، ظفرية .

---

(١) (١٢٥ — ١٢٦ / ١٢٦ ﻫ)
(٢) (١٢٦ — ١٢٦ / ١٢٦ ﻫ)
(٣) (١٢٦ — ١٢٦ / ١٢٦ ﻫ)
(٤) (١٢٧ — ١٣٢ / ١٣٢ ﻫ)
(٥) (١٣٢ — ١٣٦ / ١٣٦ ﻫ)
(٦) في مروج الذهب : بنت عبيد الله بن عبد المدان الحارثية .
(٧) (١٣٦ — ١٥٨ / ١٥٨ ﻫ)
(٨) (١٥٨ — ١٦٩ / ١٦٩ ﻫ)
(٩) (١٦٩ — ١٧٠ / ١٧٠ ﻫ)
(١٠) (١٧٠ — ١٩٣ / ١٩٣ ﻫ)
(١١) (١٩٣ — ١٩٨ / ١٩٨ ﻫ)
(١٢) (٢٠٢ — ٢٠٣ / ٢٢٤ ﻫ)

وأمّ المأمون (١) مَرَاجلُ ، روميّة .

وأمّ المعتصم (٢) ماردة ، مولّدة كوفية .

وأم الواثق (٣) قراطيسُ ، رومية .

وأمّ المتوكل (٤) شجاع ، تركيّة .

وأمّ المنتصر (٥) اسمها حبشية ، روميّة .

وأمّ المستعين (٦) مخارق ، روميّة أمُّ ولد . وقيل إنها بنت عُبَيْد من أهل دَوْمَر (٧) قرية بالموصل .

وأمّ المعتز (٨) اسمها قَبيحةُ ، صقلبية .

وأمّ المهتدي (٩) قُرْبٌ ، روميّة .

وأمّ المعتمد (١٠) فتيان ، أمّ ولد .

وأمّ المعتضد (١١) ضرار ، من دار محمد بن عبد الله بن طاهر .

وأمّ المكتفي (١٢) خاضع (١٣) .

---

(١) (١٩٨ – ٢١٨ / ٢١٨ هـ)
(٢) (٢١٨ – ٢٢٧ / ٢٢٧ هـ)
(٣) (٢٢٧ – ٢٣٢ / ٢٣٢ هـ)
(٤) (٢٣٢ – ٢٤٧ / ٢٤٧ هـ)
(٥) (٢٤٧ – ٢٤٨ / ٢٤٨ هـ)
(٦) (٢٤٨ – / ٢٥٢ هـ)
(٧) قال ياقوت : قرية قرب صفين على الفرات . وذكر لي من أعتمد على رأيه أنها قلعة جعبر نفسها أو ربضها (معجم البلدان)
(٨) (٢٥٢ – ٢٥٥ / ٢٥٥ هـ)
(٩) (٢٥٥ – ٢٥٦ / ٢٥٦ هـ)
(١٠) (٢٥٦ – ٢٧٩ / ٢٧٩ هـ)
(١١) (٢٧٩ – ٢٨٩ / ٢٨٩ هـ)
(١٢) (٢٨٩ – ٢٩٤ / ٢٩٤ هـ)
(١٣) كذا في الاصل . وفي الطبري ١١ : ٤٠٤ « جيجك »

وأمّ المقتدر (١) شغب ، أمّ ولد .

وأمّ القاهر (٢) قَبول ، أمّ ولد .

وأمّ الراضي (٣) ظَلُوم ، أمّ ولد .

وأمّ المتّقي (٤) خلوب .

وأمّ المستكفي (٥) غُصْن ، أمّ ولد .

وأمّ المطيع (٦) شعلة ، من دار العباس بن الحسن .

ولا أدري اسم أم الطائع (٧) .

أول أمراء بني أمية بالأندلس

وأم عبد الرحمن بن معاوية (٨) راح ، نفزيّة .

وأم هشام (٩) [بن عبد الرحمن] حوراء .

وأم الحكم (١٠) [بن هشام] زخرف .

وام محمد (١١) [بن عبد الرحمن] تهتز .

(١) (٢٩٤ - ٣٢٠/٣٢٠ هـ)
(٢) (٣٢٠ - ٣٢٣/٣٢٣ هـ)
(٣) (٣٢٣ - ٣٢٩/٣٢٩ هـ)
(٤) (٣٢٩ - ٣٣٣/٣٤٣ هـ)
(٥) (٣٣٣ - ٣٣٤/٣٣٩ هـ)
(٦) (٣٣٤ - ٣٦٣/٣٦٣ هـ)
(٧) (٣٦٣ - ٣٨٠/٤٠٠ هـ)
(٨) (١٣٨ - ١٧٢/١٧٢ هـ)
(٩) (١٧٢ - ١٨٠/١٨٠ هـ)
(١٠) (١٨٠ - ٢٠٦/٢٠٦ هـ)
(١١) (٢٣٨ - ٢٧٣/٢٧٣ هـ)

وأم المنذر (١) [بن محمد] أثل .

وأم الناصر (٢) [عبد الرحمن بن محمد] حزم .

وأم الحكم (٣) [بن عبد الرحمن] مرجان .

وأم المهدي (٤) مُزْنة .

وأم سليمان (٥) [بن الحكم] ظَبيَة .

وأم المستظهر (٦) [عبد الرحمن بن هشام] غاية .

وأم المستكفي (٧) [محمد بن عبد الرحمن] حور .

آخره : ولله الحمد والمنة

والصلاة على محمد وآله والسلام

الدكتور صلاح الدين المنجد

(١) (٢٧٣ - ٢٧٥/٢٧٥ هـ)

(٢) (٣٠٠ - ٣٥٠/٣٥٠ هـ)

(٣) (٣٥٠ - ٣٦٦/٣٦٦ هـ)

(٤) هو محمد بن هشام (٣٦٦ — ٤٠٠/٤٠٠ هـ)

(٥) (٤٠٠ و ٤٠٣ - ٤٠٧ هـ) وهو المستعين

(٦) (٤١٤ - / ٤١٤ هـ)

(٧) (٤١٤ - ٤١٥/٤١٨ هـ)

نظرة في

معجم المصطلحات الطبية

الكثير اللغات

الدكتور ا . ل . كليرفيل
نقله الى العربية الأساتذة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط
ومحمد صلاح الدين الكواكبي
(لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطب من جامعة دمشق)

- ٢ -

وأما الهَرَعُ فقد وافقت اللجنة على استعمال هذه اللفظة للعلة النفسية المعروفة بالهيستريا (Hystérie) بينما الهَرَع لغة الإسراع [1] في جانب المعاني الأخرى الكثيرة التي تختلف عن مدلول الهيستريا ، وهي العلة المديدة المظاهر والتي مردها إلى تُشواش نفساني ، مما يجعلها بعيدة كل البعد عن مدلول الهرَع اللغوي ، فضلاً عن أن لفظة هيستريا قد أصبحت أممية دارجة في معظم اللغات الحية .

إن ما تقدم من الملحوظات لا ينقص أبداً من قيمة هذا السفر الجليل إذ لا نزال في مضمار المصطلحات العلمية في طور البحث والتنقيب واختيار الأفضل ، ولكل مشتغل باحث فيه ذوقه إلى جانب اجتهاده ، وما سآتي على ذكره فيما يلي

---

(١) في اللسان : الهَرَعُ والهُراع والإهراع شدة السوق وسرعة العَدْو ، وأُهرع الرجلُ خف وأرعد من سرعة وخوف أو حرص أو غضب أو حمى ، الى أن قال أهرع الرجلُ إهراعاً إذا أتاك وهو يرعَد من البرد ، وقد يكون مُهرَعاً من الحمى والغضب ، وقوله تعالى : « وهم على آثارهم يُهْرَعون » أي يسعَوْن عجالاً . ورجل هَيرعٌ سريع المشي وهَيرعٌ أيضاً سريع البكاء ، والمهروع المجنون الذي يصرع يقال وهو مَهْروع مخْفُوعٌ ممسوسٌ والخ .

من المستدركات بعضها شخصي سبق لي أن استعملته في كتبي ودروسي وبعضها الآخر مما توصلت اليه مؤخراً وإن لم يتح لي بعدُ اثباته ٠

وقد أحسنت اللجنة صنعاً باستدراكها تصويب بعض الأخطاء الواردة في المعجم فأثبتت الصواب في جدول قدمته على متن المعجم ، وعلى الباحث عن إحدى الكلمات أن ينتبه الى ذلك إبان بحثه عن ترجمتها ٠

رأيي في مصطلحات المعجم

أدرج فيما يلي رأيي الخاص في مفردات المعجم حسب ما جاء في أرقام المصطلحات وترتيبها على الحروف الفرنجية ٠

حرف A

رقم المصطلح			رقم المصطلح
٥	محفظة الشِدْق ؛ خد مدَّلى	Abajoue; Bajoue; joue pendante	5

جاء في الترجمة الانكليزية لكلمة (Abajoue) وما يليها (Cheek pouch) (جيب الخد) وفي الألمانية (Backentasche) (جيب الخد) و (Hange-backe)(الخد المعلّق أو المدّلى) وفي اللاطينية (Sacculus buccalis) جُرَيب الفم ٠

وما يقصد من (Abajoue) و (Bajoue) كما جاء في معجم لاروس للقرن العشرين : جيب يتكون من أثناء الغشاء المخاطي من جانبي الفم في بعض الحيوانات (القِرَدة ومجنَّحات الأيدي[1]) ٠ الخد الضخم والمدَّلى ٠ وذكر

(١) معجم المصطلحات الزراعية ترجمة (Chiloptères) ٠

أن هذه الجيوب تتخذ مداخر للأغذية قبل أكلها وأنها في الخفافيش تهون الطيران بسماحها بدخول الهواء في النسيج الخلوي تحت الجلد .

هذا والشِدْق جانب الفم ، والكلمتان الأولى والثانية يقصد منهما جوف الخد أو جُرَيب الفم ومجازاً الخد المدلّى (Joue pendante) والأفضل المَجَج فقد جاء في المخصص المَجَج استرخاء الشدقين نحو ما يعرض للشيخ اذا هرم .

٧ أَيْن (عدم القدرة على المشي) قُعاد Abasie 7

ان المدلول اللغوي للفظ الفرنجي هو فقد المشي . أما المدلول العلمي فتطلق اللفظة على حالة مرضية تصاحب في الغالب بعض الاضطرابات النفسانية ، ولا يشترط فيها أن يكون المصاب مشلولاً أو ذا زمانة أو علة عضوية . وما يلاحظ آنذاك أن العليل باستطاعته أن يحرك طرفيه السفليين تحريكاً صحيحاً إلا أنه ليس بوسعه أن يخطو بهما وهو مع ذلك يستطيع الوقوف . واذا ترافقت الحال بعدم الوقوف دُعيت (Astasie - abasie) .

الأَيْن لغة الإعياء والتعب ، والقُعاد الداء الذي يُقعِد ، ورجل مُقْعَد اذا ازمنه داء في جسده حتى لا حراك به . مما يبعد هذين اللفظين الأين والقُعاد عن مدلول الكلمة المذكورة ، وعدم القدرة على المشي (وقد جاء بين هلالين) تعبير صحيح إلا أنه يتألف من أربع كلمات ، وأفضل منه ما وضعه مجمع اللغة العربية وهو امتناع الخطو ، وليس ما يمنع أن نختصر أكثر من ذلك لنقول : لا خطو .

٨ سُلابة (عُفاشة الأحشاء) Abats 8

لم أعثر على كلمة سُلابة في المعجمات التي توصلت الى مراجعتها ، وما أجمعت عليه المراجع التي فتشت فيها عن هذه الكلمة ما جاء في لسان العرب والقاموس : سَلَبُ الذبيحة إهابها وأكراعها وبطنها . واللفظ الفرنجي (Abats) لا يشمل

الإهاب (الجلد) ويضم الكوارع والأكباد والأطحلة والأدمغة والقلوب والرئات . وقد سبق للرازي أن أطلق على هذه الأجزاء أعضاء الحيوان [١] ، والجوهري صاحب كامل الصناعة أحشاء المواشي ، وكلاهما مفضّل على سَلَبَ غير الدارجة ، فضلاً عن أن هذه الكلمة القاموسية لا تدل على المعنى المذكور تماماً . أما عفاشة الأحشاء فلم أعثر عليها في المعجمات [٢] .

10 Abattu, ue خامِد ضعيف ١٠

وفي الترجمة الانكليزية للمعجم الأصلي (dejected; depressed low-spirited) والأفضل أن يقال خائِر فقد جاء في اللسان الخوَر الضعف وخارَ الرجلُ فهو خائر .

خَمَدَت النار تخمُد خُموداً سكن لهبها ولم يُطفأ جمرها ، وهَمَدَت هُموداً إذا أطفئ جمرُها البتة . وأخمد فلانٌ ناره ، وقوم خامدون لا تسمع لهم حسّاً ومن ذلك في التنزيل العزيز : « إن كانت إلا صيحة واحدة فاذا هم خامدون » ، قال الزجاج : فاذا هم ساكتون قد ماتوا وصاروا بمنزلة الرَماد ، والخامد الهامد . وقال أيضاً وخَمِدَ المريض أغمي عليه أو ماتَ .

11 Aboxial,ale بَعيد عن المحور ١١

أو مجانب المحور وصوابه (Abaxial) غلط مطبعي لم يصوب .

12 Abcéder تقصع ١٢

---

(١) الصفحة ٢٦ من منافع الأغذية ودفع مضارها لابي بكر محمد بن زكريا الرازي ، طبع المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٥ من الهجرة ، وشمل أعضاء الحيوان : الرؤوس والأكارع والبطن والأكباد والأطحلة والكلى والرئات والقلوب والأدمغة والمخاخ والشحوم واللحوم .

(٢) ولعلها (عفاجة) بالجيم المعجمة ، وهي من العفج ، قال الليث : العفج من أمعاء البطن لكل ما لا يجتر ، والجمع اعفاج . (لجنة المجلة)

ومدلول الكلمة الفرنجية هو التحول الى خراج . وتقصّع الدمل بالصديد اذا امتلأ منه ، وقصّع مثله (اللسان) ، وعندي أن لسنا بحاجة الى هذه الكلمة القاموسية الجديدة والاكتفاء بتقيح أو أصدأ[1] اذا درجنا على استعمال الصديد .

١٦ خراج عظمي المنشأ — 16 Abcès par congestion ou ossifluent

والترجمة يجب أن تكون خراج بالاحتقان أو من منشأ عظمي .

١٧ خراج في ظاهر الأمجافية — 17 Abcès extradural

وأرى أن تبقى الأم الجافية ولا حاجة هنا الى الدغم .

١٩ خراج بارد ، لاطئة — 19 Abcès froid

قد تدل اللاطئة على الخراج البارد ولا أرى حاجة الى هذه الكلمة الجديدة القاموسية لأنه جاء في اللسان اللاطئة خراج يخرج بالانسان لا يكاد يبرأ منه ويزعمون أنه من لسع الشطأة (العنكبوت) .

٣٥ منحرف انظر حائد — 35 Aberrant, te; v. dévié

المشهور عن (Aberrant) تائه و (dévié) حائد .

٥٥ إفسَنْت — 55 Absinthe

كذا جاءت اللفظة بشكلها الكامل وأكبر الظن أنه خطأ مطبعي لم ينتبه الى تصويبه لأن المعروف هو أفسنت بالفتح ، وجاء ضبطها في معجم المصطلحات الزراعية أفسَنْت .

٥٩ انقطاع ، انكفاف — 59 Abstinence

والأفضل الامتناع .

---

(١) جاء في اللغة : أصدأه جعله صدئاً ، وأصدّ الجرح قيّح أو سال صديده فلعل الهمزة الأخيرة زائدة . (لجنة المجلة)

62 Acapnie نقص تفحمن الدم ٦٢

ويقصد منه نقص حمض الكربون من الدم ، وأرى الفحم غير الكربون ، هذا ما ذهب اليه مجمع اللغة العربية أيضاً .

69 Accentuation des bruits cardiaques اشتداد أصوات القلب ٦٩

والأفضل أن يقال (اشتداد دَقتي القلب) ، وذلك لأن للقلب دقتين لا ثلاث دقات كما يفهم من صيغة الجمع الواردة في أصوات . ودقة القلب خير من صوته .

73 Accès émotif épileptique نوبة اضطرابية صرعية ٧٣

أرى الأفضل أن يقال : (نوبة انفعالية صرعية) فلفظة (Emotion) يقابلها الانفعال وهي كلمة مولّدة ودارجة في المصطلحات الفلسفية ، وينبغي أن يقتصر في كلمة اضطراب على (Trouble) شأن ما فعلته اللجنة في ترجمة الكلمة الفرنجية المذكورة (المصطلح ذو الرقم ١٣٧٦٠)

74 Accès de fureur نوبة حَنَق ٧٤

أرجح أن يقال (سورة الغضب) أو (التهيج) حسب اختلاف دلالة كلمة (fureur) إذ الكلمة الأخيرة يغلب استعمالها في الحيوان . وكذلك يمكن أن يقال حميًّا الغضب وسورة التهيج (في الحيوان) ولسنا ملزمين بترجمة (Accès) بنوبة دوماً .

75 Accèe de folie furieuse, frénésie نوبة جنون شديد ، هذيان عَرَض ٧٥

وأرجح هنا أن يقال (ثورة جنون سَبعي) ، ولم أهتد الى مدلول هذيان عَرَض ولم أرَ تصويباً لهذه اللفظة في الجدول . والجنون السبعي مصطلح استعمله أطباء العرب في معظم كتبهم .

٨٦ طارئ العمل — 86 Accident du travail

وأرجح أن يقال إصابة العمل .

٩٩ ولادة توأم — 99 Accouchement gémellaire

والأفضل ان تستعمل كلمة واحدة وهي (إتآم) ، ففي اللسان أتأمت المرأة اذا ولدت اثنين في بطن واحد .

١٠٧ ولادة بالميعاد — 107 Accouchement à terme

أرجح أن يقال (ولادة لتَام وتِمام) .

وأتمّت المرأة وهي متم دنا وِلادها ، وأتمّت الحبلى فهي متم اذا تم أيام حملها ، ويقال امرأة متم للحامل اذا شارفت الوَضع وولَد المولودُ لتام وتِمام (اللسان) .

١٠٨ ولادة بعد الميعاد — 108 Accouchement après terme

ويُعرف هذا النوع من الولادة بـ (الجرّ) ، فقد جاء في اللسان : وَجرّت المرأةُ ولدَها جراً وجرّت به وهو أن يجوز ولادها عن تسعة أشهر فيجاوزها بأربعة أيام أو ثلاثة فينضجُ ويتم في الرحم . والجرُّ أن تجر الناقة ولدَها بعد تمام السنة شهراً أو شهرين أو أربعين يوماً فقط . والجرور من الحوامل وفي المحكم من الإبل التي تجر ولدها الى أقصى الغاية أو تجاوزها .

١١٩ مُدّخرة — 119 Accumulateur

١٢٠ ادخار ، خزْن ، جَمع — 120 Accumulation, Stockage, emmagasinage

١٢١ ادّخر ، جمع ، خزن — 121 Accumuler

لقد أقر مجمع اللغة العربية (المِرْكم) لـ (Accumulateur) وكذلك أرْكم ورَكَم .

فقد جاء في اللسان أركم جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله رُكاماً مركوماً

كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشيء المرتكم بعضه على بعض ، ركم الشيء يركمه اذا جمعه وألقى بعضه على بعض وهو مركوم بعضه من بعض وارتكم الشيء وتراكم اذا اجتمع ٠

فالأفضل أن تستعمل كلمة (المركم) وهي أخف من المذخرة التي سبق للمرحوم الأستاذ جميل الخاني ان استعملها ٠

137 Acholie انعدام الصفراء ١١٧

وأرجح أن يقال عدم الصفراء أو فقدها ٠

سبق للأستاذ خاطر أن نبَّه كاتب هذه السطور سنة ١٩٣٥ عندما استعمل كلمة انعدام في الجزء الأول من علم الأمراض الباطنة ، نبهه الى خطأ استعمالها بأن ليس لمصدر عدم مطاوع انعدام ، وقد شكرته على هذا التنبيه ولم أستعملها منذ ذلك الحين ، ولا أظن الأمر قد تغير الآن ٠

151 Acide aminé حَمْضَمِين ١٥١

والأفضل أن يقال حمض أميني ٠

167 Acide carbonique حمض الفحم ١٦٧

وأرجح حمض الكربون ٠

173 Acide chrysophanique حمض السنامكي ١٧٣

وأرجح حمض كريزوفان أو الحمض الكريزوفاني باعتباره من الحموض التركيبية ، وليس سنامكي وحده يحويه بل ان عدة نباتات تشاطره في ذلك ولا سيما الراوند الذي يحتوي عليه أكثر من سنامكي ٠

180 Acide déhydrocholique حمض الصفراء المُخَفْسَج ١٨٠

dycholium (المخسوف الهيدروجين)

وأفضل منه أن يقال حمض ديهيدروكولي لا سيا وقد تقدم في اللفظة

ذات الرقم ١٧١ استعمال حمض كولالي (Acide cholalique) وحمض كوليك وكولاليك كلاهما حمض الصفراء .

١٨٤ حمض الفولي (حمض ورق الاسفاناخ) Acide folique 184

بتەروئيل غلوتاميك Pteroylglutamique

والأفضل في هذا الحمض وأضرابه أن تعرب باللفظ الأفرنجي فيقال حمض الفوليك لأن الفولي قد يلتبس بألفاظ عربية تشابهه . وهذا الحمض وان بدا في الورق من أكثر النباتات فليس خاصاً بهـا إذ يبدو في الكبد وفي خميرة الجعة بكمية وافرة .

١٨٥ حمض النمل (١) Acide formique 185

وأرى تعريبه بقولنا حمض الفورميك وهذا ما جنح اليه مجمع اللغة العربية .

٢٠٠ حمض التبغ، طليعة الحَيَمين پ پ Acide nicotinique 200

Provitamine P P

وأرى التعريب بالنسبة للحمض فيقال حمض النيكوتينيك أما الحَيَمين فما لا شك فيه أن كلمة الفيتامين الأعجمية و P P أفضل من پ پ في هذا المجال ، فيقال (طليعة الفيتامين P P) .

٢١٦ حمض الحِصْرِم الناري Acide pyruvique 216

ان هذا الحمض من الحموض التي تحضر بطريقة التركيب ، وتتراكم في البدن من جراء عَوَز الفيتامين B ولا أظن أن له أيّ صلة بالحِصْرِم ولا بالنار ، وأرى تعريبه فيقال حمض بيروفيك .

٢١٧ حمض الوَرْدي Acide rosolique 217

الأرجح اذا لم يعرَّب (والتعريب أفضل) أن يدعى بالحمض الورْدي أو

(١) (حمض النمل) أولى ، لأن لفظة Formique منسوبة الى Fourmi النملة ، فنكون في (حمض النمل) حذونا حذو اللغة الفرنسية . (لجنة المجلة)

المرجاني أو الذهبي وذلك لأن لونه أصفر ضارب الى الحمرة مع لمعان أخضر لذا يعرف بـ (Aurin) و (Corallin)[1] أيضاً ٠

٢٤٢ أوج ، اشتداد المرض Acmé, Fastigium 242

دور الصولة Période d'état

في اللسان (البُرَحاء) الشدة والمشقة وخص بعضهم به شدة الحمى وبُرَحايا في هذا المعنى ، وبُرَحاء الحمى وغيرها شدة الأذى ويقال للمحموم الشديد الحمى أصابته البُرَحاء ٠

وقد درجت في مؤلفاتي[2] على إطلاق بُرَحاء الحمى لـ (Acmé thermique) ، كما درجت على إطلاق طور التوقف على (Période d'état) وطور الصولة على (Période d'invasion) ٠

٢٦٤ كاثمة ، ضخامة الأطراف ، عَبَل Acromégalie 264

وأقر مجمع اللغة (فرواحية) كِبر الأطراف ٠

ويُقصد من هذا اللفظ الحالة المرضية الناجمة عن آفة في الغدة النخامية والبادية بغلظ نهايات الأطراف والأنف والذقن وما الى ذلك من الأجزاء الناتئة فهي حرّية بأن تدعى (ضخامة النهايات) لا الأطراف ٠

أما الكلثَمة فقد جاء في اللسان اجتماع لحم الوجه ، وجارية مكلثمة حسنة دوائر الوجه ، ذات وجنتين فاتتها سهولة الخدين ولم تلزمها جُهومة القبح ، ووجه مُكلثم مستدير كثير اللحم وفيه كالجوز من اللحم ٠

وأما العبَل في اللسان أيضاً الوَرَق الساقط والهَدَبُ وكل ورق مفتول غير منبسط ٠ كما أن العَبْل في اللسان : الضخم من كل شيء والأنثى عَبلة

(١) معجم بلاكستون Blakiston 's في مادة (Rosolic acid) ٠

(٢) الصفحتان ٨٥ و ٦٥٩ من الجزء الثاني لعلم الأمراض الباطنة طبع سنة ١٩٣٦ ٠

إلى أن قال وامرأة عَبْلة اي تامة الخلق ، مما يبعد العَبْل والعبَل عن المعنى المقصود (Acromégalie) .

وأما القرواحية فلم أهتد الى اشتقاقها ولا الى معناها ، وكِبَر الأطراف لا يعني الضخامة .

308 Acyle (radical) حَمضيل (جذر) ٣٠٨

وأرجح التعريب فأقول أسيل .

310 Adaptation, ajustement Accomodation توفيق ، توافق ٣١٠

التوافق لغة الاتفاق والتظاهر ، وَفْق الشيء ما لازمه ، وقد وافقه موافقة ووفاقاً ، واتفق معه وتوافقا . إلا أنه مما جد في استعمال (Adaptation) ما يدل على التكيف والتطبع [1] شأن ما يكون في تناذر التطبع (Syndrome d'adaptation) الذي نبه اليه سَلِي (Sely) والذي يمتاز بحدوث ظواهر جديدة في البدن من شأنها أن تدعم كفاحه حيال ما أصابه من مصيبة (Stress) ميكانيكية كانت أو أحيائية أو نفسانية .

311 Addiction, Asservissement à l'usage d'une drogue استرقاق العلاج ٣١١

استحواذ العلاج

وأرجح تَيم العلاج ، ففي اللسان التَيم أن يستعبده الهوى وذهاب العقل من الهوى ، ورجل متيم ، وقيل التَيم ذهاب العقل وفساده . والمعنى الأصلي للفظ يساعد على نقله الى معنى الاسترقاق في المصطلح المذكور .

318 Adénoïdisme تظاهرات نظيرة الغدة ٣١٨

وقد دعاها مجمع اللغة (الغُدانية) وهذه أفضل .

(١) في القاموس تطبع بطباعه تخلق باخلاقه وفي الأساس وهو متطبع بكذا .

324 Adéquat, te تام ، معادل ٣٢٤

وتأتي بمعنى مطابق وموافق أيضاً .

365 Aérotropisme انحراف للهواء ٣٦٥

أرجح ترجمة الكلمة (Tropisme) بميل تاركاً انحراف إلى (déviation)

فأقول (الميل الى الهواء) .

366 Afébrile بلاحُمّى ، إقلاعي ٣٦٦

والأفضل أن يقال لا حُمَّوي أما (الإقلاع) فهو طور أخذ الحمى بالهبوط ويخصص لِ (Défervescence) وقد فعلت اللجنة كذلك في هـذه اللفظة ذات الرقم ٣٨٥٢ .

367 Affaibli, e مُضعَّف ، مضعوف ٣٦٧

وكذلك منهوك فانها تفي بالمقصود أيضاً .

370 Affaiblissement de l'ouie ضَعْف السمع ٣٧٠

وهو (الوَقر) . في فقه اللغة ذكر الثعالبي في ترتيب الصَمَم : يقال بأذنه وَقْر فاذا زاد فهو صَمَم . وفي اللسان الوَقْر ثقل في الأذن .

374 Affection d'origine allergique آفة تحاوُبية المنشأ ٣٧٤

وأرجح أن يقال آفة آليرجيائيـة المنشأ وسأعود الى الشرح في لفظة (Allergie) ذات الرقم ٥٢٨ .

376 Affectivité, sensibilité انفعالية ، إحساس ٣٧٦

عاطفة وعاطفية (مجمع اللغة) ، وانفعالية يرجح أن تكون ترجمة لِ (Emotivité) شأن ما فعلته اللجنة في هذه اللفظة ذات الرقم ٤٨١٧ .

377 Afférent, ente; centripète وارد ، جَبَذان ٣٧٧

ان (وارد) لفظة أقرها مجمع اللغة أما جبذان في اللسان جبذ لغة في جذب ، وأقر المجمع لفظ (Centripète) جاذبة الى المركز .

379 Affluence, Afflux فيض ، وَفر ٣٧٩

أرجح أن يقال الحَشْد والاحتشاد ثم البَيْغ لكلمة (Afflux) فقد جاء في اللسان البَيْغ توقد الدم حتى يظهرَ في العروق وهو ما يفيد معنى هذه اللفظة تماماً .

380 Afflux cathodique ورود الى القطب السلبي ٣٨٠

وأرجح هنا التوجه أو الاتجاه الى القطب السلبي .

381 Afflux sanguin ورود الدم ، هجوم الدم ٣٨١

وهو البيغ على نحو ما تقدم في ٣٧٩ .

390 Agénésie ou atrophie congénitale عِنانة ، نقص أعضاء الجنين ولادة ٣٩٠

المقصود من (Agénésie) هو عدم التكوّن أو النمو أو فقدهما و (Atrophie congénitale) أي الضمور الولادي أو الخلقي وهو أن يضمر أحد الأعضاء في الحياة الجنينية فيأتي الوليد والعضو ضامراً . وقد أقر مجمع اللغة عدم النمو أو قصوره في ترجمة كلمة (Agénésie) .

أما العِنانة فاذا كانت بالكسر كما جاءت بالرسم المبين أعلاه فهي سير اللجام الذي تمسك به الدابة واذا كانت بالفتح فهي السحابة أو العُنّة اسم من العنّين . وكلتاهما لا تفيد المعنى المطلوب والضمور الولادي أو الخلقي أراه افضل من نقص أعضاء الجنين ولادة .

414 Agoraphobie خوف من الفضاء ٤١٤

وقد أقر مجمع اللغة العربية رُهبة الخلاء وهذه أفضل .

416 Agranulocytose ,aneutrophilie غيبة الكريضات المحببة ٤١٦
granulocytopénie غيبة المعتدلات ، نقص الكريضات
الحبيث .

وقد أقر مجمع اللغة انعدام منشكلة النوى وأفضل أن يقال في ترجمة هذه المصطلحات فقد الكريات المحبَّبة ، فقد المعتدلات ، نقص الكريات المحبَّبة .

421 Agrypnode تسبيخ هَذَياني ٤٢١

إن معنى (Agrypnode) هو المؤرِق وكذلك (Agrypnotique) لأن (Agrypnie) هو الأَرق .

أما التسبيخ فقد قال عنه صاحب فقه اللغة أشد النوم ، وفي اللسان التسبيخ النوم الشديد ، أما الهذياني فلا أظنه إلا زائداً .

434 Ailes iliaques أجنحة الحُرْقفة ٤٣٤

والأصح أن يقال جناحا الحُرقفة لأنهما اثنان لا ثالث لهما .

435 Ailes du nez أجنحة الأنف ، خنابتاه ٤٣٥

وأقر مجمع اللغة غرضا الأنف[1] ، واذا جاز استعمال جناح في هذا المعنى فهما جناحان ، أما الخنابتان فالأحسن تخصيصها بالحرفين ، أي الفوهتين كما جاء في اللسان .

436 Ailes de l'os sphénoïde أجنحة العظم الوتدي ٤٣٦
(Grandes) (الكبيرة)

وهما جناحان لا ثلاثة .

(١) في اللسان : والفرضان من الفَرَس ما انحدر من قصبة الأنف من جانبيها وفيها عرق النُهر . وقال أبو عبيدة في الأنف فرضان وهما ما انحدر من قصبة الأنف من جانبيه جميعاً .

437 Ailes de l'os sphénoïde (Petite) جنيحات العظم الوتدي ٤٣٧

وهما جُنَيْحان أيضاً .

445 Aire, région, zone فضاء ، سطح ، محيط ٤٤٥

وأرجح أن يقال بُقعة ، ناحية ، مِنطَقة .

446 Aire de matité سطح الصَمَم ٤٤٦

بُقْعة الصَمَم أو باحته (مجمع اللغة) .

482 Alcoolique غَوْلي ٤٨٢

483 Alcoolisme, éthylisme ivrognérie إنسمام غولي، أتيلية، ادمان السكر ، عَلَه ٤٨٣

أرجح الكلمة غولي (Alcoolique) وهي نسبة الى الغول وقد تستعمل بهذا المعنى كما انه يعنى بها السكّير أو خِمّير وهو شِرّيب الخمر دائماً (اللسان) أما الانسمام الغولي فمن الجائز أن ندعوه بالغَوْلية نظير الأتيلية ، وأما إدمان السكر والعَلَه فقد جاء في اللسان الخُمار بقية السكر تقول منه رجل خَمِرٌ أي في عَقِب خمار ورجل مخمور به خمار ، أما العَلَه فكما جاء في اللسان أيضاً خبث النفس وضعفها وهو أيضاً أذى الخمار . لذا أرجح الخُمار لـ (Ivrognérie) .

489 Alexie, cécité verbale حَصَر ، عمى نُطقي ، عِي ٤٨٩

لم تكن كلمة حَصَر في أصل المتن من المعجم بل أضيفت مع ما أضافته اللجنة في كلمات جدول تصويب الأخطاء الواردة في المعجم .

والحَصَر كما جاء في اللسان ضَرْب من العي حَصِر الرجل حَصَراً فهو حَصِر عَيّ في منطقه وقيل حَصِرَ لم يقدر على الكلام .

أقول إن معنى (Alexie) هو عدم امكان فهم الكلمات والآراء المرسومة

كتابة ، لذا ترجمتها بفقد القراءة[1] و (Cécité verbale) هو عمى الكلام لا النطق ، ويراد من هذا ان العليل المصاب بهذه العاهة يكون صحيح البَصَر إلا أنه لا يفقه ولا يفهم مدلول الكلمات المكتوبة ، لآفة في الدماغ أصابت المركز الموكول اليه إدراك معنى الكلمات المكتوبة أو المطبوعة .

وأقر مجمع اللغة مقابل كلمة (Alexia) (عَمَه المكتوبات) وأراه تعبيراً حسناً لأن العَمَه لغة التحير والتردد ، وقيل العَمَه في البصيرة كالعمى في البصر . وأنا أطلق العَمَه على ما يقابل (Agnosie) (وقد أقرها مجمع اللغة) مرجحاً لـ (Alexie) فقد القراءة . ولم يأت ذكر كلمة (Agnosie) بين ألفاظ معجم مصطلحاتنا الطبية الكثير اللغات .

496 Aliénation — انجذاب ، انجذاب نفساني ٤٩٦
Aliénation mentale

لم أعثر على استعمال الانجذاب في هذا المعنى في كتب الطب القديمة التي اطلعت عليها ولا في كتب اللغة ، وأغلب الظن أنها من الكلمات المولدة أو العامية ، وربما رجعت في الأصل الى تأويل وهمي . وأرى الأفضل أن تترجم بالمس أو الجنون أو خال العقل لا سيما اننا بحاجة الى كلمة انجذاب في مواطن أخرى وأفضل أن تكون النسبة الى (Mentale) : عقلي أو ذهني .

498 Aliénation maniaque dépressive — انجذاب هوَسي معي. ٤٩٨

في اللسان الهَوَس طرف من الجنون . وفي القانون وغيره من كتب الطب العربية القديمة تعريب الكلمة (Manie) بـ : المانيا ويرادفها الجنون السبْعي . والاعياء التعب الشديد و (Dépression) الهمود . والمراد من هذا المصطلح

(١) الصفحة ٥٨٢ من الجزء الأول من علم الأمراض الباطنة طبع سنة ١٩٣٥ .

حالة مرضية نفسية يتراوح الأمر في المصاب بها بين الطَيْش والهمود ، وتتناوب في هاتين الحالتين ، لذا أرجح أن يقال فيها (الجنون السبعي الهمودي) (أو الخَبَلي) أو مانيا همودية .

٤٩٩ مجذوب — 499 Alniéé

لقد تقدم تفضيلي كلمة مجنون .

٥٠٦ تغذية عن غير طريق الهضم — 506 Alimentation parentérale

وأرجح أن يقال مجانبة الهضم . ففي القاموس جانب متعقباً وجانبه مجانبة وجِناباً صار الى جنبه وباعده ، ضد . وعليه فلفظة مجانب تفيد المعنى المطلوب سواء ُعني بها في جنب الهضم أو بعيداً عنه ، ولا أظن إلا أن كلمة واحدة دارجة خير من ثلاث .

٥١٣ أغذية ضخمة — 513 Aliments de lest

وأرجح أن يقال أغذية الملء . إذ المقصود من كلمة (lest) هي المواد الثقيلة التي يلقى بها في أسفل البواخر والسفن [1] والمناطيد لحفظ التوازن فيها (Larousse) . والمقصود هنا من هذا النوع من الأغذية هي التي تؤكل لكي تشغل حيِّزاً في المعدة أو الأمعاء من شأنه أن يبطل حس الجوع من المعدة أو ُيحرِّض حركة التحوّي في الأمعاء ومنه تهوينه إفراغ ما فيها ، هذا ما يدعى بالانكليزية (Bulkage) [2] شأن الحال في بعض المواد الغرائية التي تنتفخ ويصبح حجمها أضعاف ما كان عليه إثر تماسها الماء أو عصارة المعدة والمعي .

وفي القاموس الملء الكِظة من كثرة الأكل .

---

(١) وهذه الأثقال تسمى في العربية (الصابورة) فقد جاء في تعريفها : ما يوضع في باطن المركب من الثقل ليثقل ولا يميل الى جانبيه . (لجنة المجلة)

(٢) تراجع هذه الكلمة في (Dorland, The American illustrated medical dictionary)

٥١٤ أغذية مولدة للقُدْرة ، أغذية أيدية Aliments énergétiques 514

أو مولدة للطاقة وأرجح أن تخصص أيدية لمقوية (Tonique) .

٥١٥ أغذية ادخارية Aliments d'epargnes 515

مواد ادخارية Antiderpediteurs dynamophores, substancs d'epargne

وهذان اللفظان لأجل المصطلحين الأول والأخير ، وأهملت اللجنة ترجمة اللفظين الثاني والثالث .

إن المقصود من هذه الأغذية هي بعض المواد (كالقهوة والشاي والكولة والكوكة والماته Maté والغول ومرق اللحم) عندما توهم بعض الباحثين أن احتساء قليل منها من شأنه أن يساعد البدن في الإتيان[1] ببعض العمل ، ولو كان بحالة الحرمان دون أي غذاء آخر ، ذاهبين الى أن من خواص هذه المواد أن تبعث النشاط في العمل العضلي ، وفي الطاقة عامة ، منقصة ما تصرف العضلة من طاقة . إلا ان الأثر المزعوم لما يثبت في معظم تلك المواد ، ماعدا الغول الذي يبدو له بعض الأثر الغذائي لاحتراقه في البدن بنسبة (٩٠ — ٩٥ ٪) وان ما ينشأ من الطاقة إبان هذا الاحتراق يحول دون استهلاك الأغذية وصرفها ، ومنه العمل الاقتصادي لهذا الاحتراق لتجنيب البدن الرجوع الى ما يحويه من مواد غذائية ، وذلك بنسبة ما يوازي ما نشره الغول من حرارة .

وأرى لو جاز لنا استعمال الكلمة المولّدة (توفير) لكان أفضل ما ندعو به هذه المواد هو (أغذية التوفير) ، وإلا فمن الجائز أن نقول أغذية الاقتصاد أما (الأغذية الادخارية) فأخشى أن يفهم منها الأغذية التي تدّخر في البدن ، وأغذية الدخر تكون أقل التباساً من الأغذية الادخارية .

(١) فلسفة الطب لكاتب هذه السطور الصفحة ٢٣٤ من الطبعة الثانية ١٩٤٥ .

أما (Antidéperditeurs) فترجمتها مضادات الضياع (باعتبار ان هذا النوع من المواد يحول دون ضياع الأغذية الحقيقية المدّخرة في البدن) وأما (dynamophores) فمعناها الباعثة على النشاط أو المنشطة أو المحرضة الدينامية (بعد أن عرّب مجمع اللغة كلمة دِيناميك) .

٥٢٢ وَشيقة ، مَضيدَة 522 Allantoïde

(Allantoïde) أحد أغشية الجنين ، وقد جاء في مصطلحات علم التشريح التي أقرها مجمع اللغة الغشاء اللاقانقي مقابل (Allantoic membrane) واقترح المرحوم الأب أنستاس الكرملي تسميته باللفائفي (الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية) . أما الوشيقة فقد جاء في اللسان : الوَشيق والوشيقة لحم يُغلى في ماء ملح ثم يرفع وقيل يُقدّد ويحمل في الأسفار وهي أبقى قديد يكون . وأما المَضيدة [1] فلم أعثر عليها في المعاجم التي راجعتها . وعليه فاني أفضل كلمة اللفائفي في ترجمة (Allantoïde) ولا أظنها إلا مولدة .

٥٢٧ باعثة التجاوب ، مُكوِّنة الضد 527 Allergène, corps antigénique

٥٢٨ تجاوب غذائي 528 Allergie alimentaire

الآليرجيا : حالة خاصة تبدو في بعض الناس وأقر مجمع اللغة كلمة تحسّاس ترجمة لها ؛ وأنا أفضل تعريب هذه اللفظة بقولي آليرجيا والنسبة اليها آليرجيائي واذا شئت آليرجياوي ؛ وظهورها في بعض الناس انما يكون بسائق التأهب السابق والاستعداد ، أما التجاوب فحريٌّ به أن يكون شاملاً الجميع لاعتباره ارتكاساً لكل مؤثر ، وليس الأمر كذلك في الآليرجيا . وأما (التِحْساس) فأفضل أن تخصص لـ (Hypersensibilité) عوضاً عن فرط الاحساس .

(١) ان ما جاء في اللسان والتاج : المَضْد لغة في ضَمْد الرأس يمانية ، تَضمّد وتَضمّد اذا جمع .

539 Altéré, ée qui a soif — سَهِيف ؛ صادٍ ، صدٍ ٥٣٩

(Altéré) في الفرنسية و (Thirsty) في الانكليزية و (Durstig) في الألمانية معنى كل ذلك عَطْشان أو عَطِشٌ . أما السَّهَف فهو شدة العطش كما جاء في المخصص وفي اللسان السَّهَف والسُّهاف شدة العطش سَهِف سَهَفاً ورجل ساهفٌ ومسهوف عطشان ولم أعثر على استعمال السَّهِيف . وأنا مع اللجنة في تخصيص كلمة سُهاف وسَهَف ترجمة الكلمة (Polydipsie) شأنها في رقم المصطلح ١٠٦١٨ وأن يقتصر هنا على عطشان أو عَطِش . وأما الصَّدى فقد جاء في المخصص شدة العطش صَدِيَ كتَعِبَ فهو صَدٍ وصادٍ وصَدْيانُ ، فلا مجال اذن لاستعمالها هنا .

549 Alvéolaire — دُرْدري ، نُخروبي ٥٤٩

550 Alvéole — نُخروب ٥٥٠

551 Alvéole dentaire — دُرْدر ٥٥١

552 Alvéole pulmonaire — نُخْروب رئوي ٥٥٢

وأقرت لجنة مجمع اللغة الدُرْدُر[1] لـ (Alvéole dentaire) واستعملت السِنْخ في مواطن مماثلة كالقناة السِنْخية (Alveoler canal) وأما في الرئة فقد دعتهـا الأسناخ تارة (Pulmonum alveoli) والحجيرات الرئوية (Pulmonum alveoli) أخرى . والنخروب واحد النخارب وجاء في اللسان خروق كبيوت الزنابير ، وقيل هي الثقب المهيأة من الشمع وهي التي تمجُ النحلُ العسلَ

(١) في اللسان : الدُرْدُر مَنْبِت الأسنان عامة وقيل منبتها قبل نباتها وبعد سقوطها ، وقيل هي مغارزها من الصبي والجمع الدرداء . والسِنْخ الأصل من كل شيء والجمع أسناخ وسنوخ وسِنخ كل شيء أصله . أقول وهذه تدعى الجذور وقد دعاها ابن سينا في قانونه الرؤوس .

فيها ، وكذلك الثقب في كل شيء مخروب ، ونخرب القادح الشجرة ثقبها وهي شقوق الحجر وشجرة منخربة اذا بليت وصارت فيها مخاريب .

لذا أرجح لكلمة (Alvéole) في الأسنان دُرْدُر وفي الرئة حجيرات . أما الاسناخ فهي الجذور .

٥٥٣ مَشائي ، إسهالي Alvin, ine 553

(Alvin) نسبة إلى (Alvus) وهو أسفل البطن [1] ويقصد منه ما يعود الى الجزء النهائي من الأمعاء ولا سيما المفرَغات . أما المَشاء فقد جاء في القاموس هو الدواء المسهل . وجاء في الترجمة الألمانية (zum Unterleibe gehörend) أي ما يعود الى الجذر السفلي من البطن .

لذا أرجح أن يقال مُبرْمي والسرم مخرج الثفل وهو طرف المعي المستقيم . هذا ولا يشترط في المفرغ أن يكون اسهالاً .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

---

(١) ينظر في كلمة (Alvin) في معجم (M. Garnier et V. J. Delamare Dictionnaire des termes techniques de Médecine .

مختارات مما لم يُنشر

من شعر البحتري

- ٢ -

قال البحتري (١) يمدح المتوكل على الله (٢) :

نَصَبٌ(٣) إلى طِيبِ العراقِ وحُسْنِها(٤) ويَمْنَعُ منها قَيظُها وحَرُورُها(٥)

(١) القصيدة من الطويل ، عدد أبياتها ١٢ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنيـة بباريس (رقم ٣٠٦٨ من القسم العربي) الورقة : ١٧٧ ظ ، ومما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري أن ياقوت أورد الأبيات (١ — ٨) منها وقدَّم لها بقوله : وقال البحتري بفضل الشام على العراق (معجم البلدان ، بيروت : ٣ / ٣١٤ — ٣١٥) .

(٢) هو جعفر بن المعتصم ، عاشر الخلفاء العباسيين ، امتدت خلافته خمس عشرة سنة (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) قضاها في نضال دائم للقضاء على استبداد الأتراك ونفوذهم ، وكان عهده المرحلة الذهبية في حياة البحتري ، وشعر البحتري سجل حافل بكل ما جرى في خلافة المتوكل من أحداث ، ومنها هذه الرحلة التي قام بها المتوكل إلى دمشق ، وكان البحتري في موكب حاشيته .

(٣) صَبِبْنا — نَصَبٌ : من الصبابة ، وهي الشوق ورقة الهوى .

(٤) ياقوت : ... أرضِ العراق وحسنه ويمنع عنها ...

(٥) الحَرور : الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار ، والحُرور : الحرارة وهي هنا ليست بشيء لأن في ذكر القيظ غنى عنها ؛ أما شكوى الشاعر من قيظ العراق فهو يعلنها منذ خروج المتوكل من سامراء :

قد رحلنا عن العرا قِ وعن قيظها النَّكِدْ

(الديوان ، الجوائب : ١ / ٩ ، والقصيدة من مجزوء الخفيف ، وفي الديوان «قطبها النكد» وهو تصحيف) .

هي الأرضُ نهواها إذا طابَ فَصْلُها ونهرُبُ منها حين يَحْمى هَجيرُها
عشيقَتُنا الأولى وخُلّتُنا التي نُحبُّ وإنْ أضحَتْ دِمَشْقَ تُغيرُها (١)
عُنيتُ بشرقِ الأرضِ قِدْماً وغَرْبِها أُجوِّبُ في آفاقِها (٢) وأسيرُها
فلم أرَ مثل الشامِ دارَ إقامةٍ (٣) لِراحٍ نُغاديها وكأسٍ نُديرُها (٤)
مَصَحَّـةُ أبدانٍ ونُزْهةُ أعينٍ ولَهْوُ نفوسٍ دائمٌ وسرورُها
مقدَّسَةٌ جادَ الربيـعُ بلادَها ففي كلِّ دارٍ روضةٌ وغديرُها

(١) في مخطوطة الديوان : (تَعِيرها) : من عاره إذا عابه ، وليست بشيء ، وقد آثرنا رواية ياقوت (تُغيرها) وهي بمعنى تثير غيرتها ، لأنها من أغار أهلَه إذا تزوج عليها فغارت ، وبذلك يتم ربط عجز البيت بمعنى صدره .

(٢) أكثر البحتري من التطواف في أرجاء الامبراطورية العباسية المترامية الأطراف ، برّها وبحرها (انظر ما كتبناه في مقدمة أخبار البحتري للصولي ص : ٥) .

(٣) يزيّن الشاعر للمتوكل أن يتخذ من دمشق دار إقامة ، وكثيراً ما كان البحتري يُطري للخليفة محاسن دمشق ، ويدعوه إلى أن يؤثرها بهواه :

وكيف لا تُؤثرُها بالهوى وصيفُها مثلُ شتاءِ العراقْ

(الديوان ، الجوائب : ١ / ١٧٣ والقصيدة من السريع) ويبدو أن المتوكل استجاب لشاعره فعزم على « نقل دواوين الملك إلى دمشق » (انظر الطبري وابن الأثير : حوادث سنة ٢٤٤) لولا أن الجند شغبوا عليه (انظر المسعودي : مروج الذهب : البهية بمصر ١٣٤٦ : ٢ / ٣٨٩ — ٣٩٠) .

(٤) ياقوت : لراحٍ أغاديها وكأسٍ أديرُها

تَبَاشَرَ قُطراها وأضعف حسنُها ... بأنّ أميرَ المؤمنين يزورُها
توجهتَ مصحوباً إليها بعزمةٍ ... مضى بِبَغْدادٍ بَدْؤُها وأخيرُها
وفي سنةٍ[1] قد طالعتْكَ سُعودُها ... وقابلكَ النيروزُ[2] وهوَ بشيرُها
نَصِلْها بأعوامٍ توالى[3] ولا تَزَلْ ... مقدّسةً أيامُها وشهورُها
وعِشْ أبداً لِلمكرُماتِ ولِلعُلا ... فأنتَ ضِياءُ المكرُماتِ ونُورُها

* * *

(١) غادر المتوكل سامرا لعشر بقين من ذي القعدة من عام ٢٤٣ ﻫ إلى دمشق عن طريق الموصل ، ووصل إلى دمشق لثمان بقين من صفر عام ٢٤٤ ﻫ وأقام فيها ثمانية وثلاثين يوماً (انظر تاريخ اليعقوبي ، ليدن ١٨٨٣ : ٢ / ٦٠٠) .

(٢) النيروز والنوروز اسم فارسي معرب معناه اليوم الجديد ، وهو أعظم أعياد الفرس ، وزمانه اليوم الأول من السنة الفارسية التي تبتدئ بالانقلاب الصيفي ، وقد شهد المتوكل في دمشق مقدم الصيف ، لأن إقامته فيها من صفر إلى أول ربيع الثاني من عام ٢٤٤ ﻫ ، أي من أيار إلى تموز من عام ٨٥٨ م .

(٣) أصلها (تتوالى) فحذف التاء ، والبحتري يكرر هنا ثانية دعوة الخليفة إلى إطالة البقاء في دمشق .

ملاحظات ونظرات

١ — هذه القصيدة واحدة من خمس ، نظمها البحتري كلّها أثناء رحلة المتوكل إلى دمشق ، وفي هذه القصائد يتغنى شاعر المتوكل بطيب العيش في دمشق وباعتدال اقليمها ، وبفضلها لذلك على العراق وقيظها ، وديوان البحتري يحوي القصائد الأربع الأخرى (الديوان ، الجوائب : ١/٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧٣) أما هذه الرائية فتُنشر كاملة لأول مرة .

٢ — تحديد تاريخ نظم القصيدة إذاً ممكن ، ذلك أن المؤرخين القدامى عُنوا بالكلام على رحلة المتوكل إلى الشام ، وهي الرحلة الوحيدة التي قام بها هذا الخليفة العباسي إلى خارج العراق طوال مدة خلافته ، ولهذا نستطيع أن نؤكد بالدقة أن البحتري نظم القصيدة سنة ٢٤٤ هـ ، وفي الربع الأول منها ، عندما كان المتوكل في دمشق .

٣ — لهذه الرحلة شأن بعيد المغزى في سياسة المتوكل ، ولكن مؤرخينا القُدامى لم يدققوا في هذا الحدث الخطير ، واكتفوا عند الحديث عن عودة الخليفة إلى العراق بإيراد بعض الأسباب الاقليمية والغذائية ، فالطبري يذكر أن المتوكل استوبأ دمشق لأن الهواء بها بارد ندي ، والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث . . ويتحدث الطبري عن غلاء الأسعار في الشام وعن حيلولة الثلج دون السابلة والميرة ، ويتابع ابن الأثير الطبريّ دون تحقيق ، والتحقيق أن المتوكل لم ينزل دمشق ابستوبيّ سكناها ، وإنما نزل في قصر المأمون بداريا ، على بعد ساعة من دمشق ، وهذا الموضع في أعلى الأرض ـ كما يقول المسعودي ـ يشرف على دمشق وأكثر الغوطه (مروج الذهب : ٢ / ٣٨٩) ، والتحقيق أيضاً أن المتوكل كان في دمشق في وسط الصيف ، بين أيار وتموز ـ كما قدّمنا ـ

فمن أين تتراكم الثلوج وتحول دون وصول الميرة ! المؤرخون المحدثون استطاعوا أن يدركوا أن وراء عودة المتوكل المفاجئة إلى العراق ، بعد عزمه على نقل دواوين الخلافة إلى دمشق ، سراً لم يكشف عنه أسلافهم ، فهذه الرحلة مظهر من مظاهر النزاع بين المتوكل والأتراك ، وقد حاول الخليفة بها أن يتخلص من النفوذ التركي الخانق في سامرا بنقل مركز الخلافة إلى منطقة نفوذ عربية ، إلى دمشق ، ولكن الأتراك انتبهوا إلى هذه الخطة وخطرها ، فشغبوا على المتوكل ، وحاولوا اغتياله ، وأجبروه على العودة . (انظر دراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري ، بغداد ١٩٤٥ : ص ٤٥ وما بعدها) .

٤ — ويعتقد بعض الباحثين أن البحتري قد أسهم في دعم سياسة المتوكل للخلاص من نفوذ الأتراك ، فهو منذ بعيد يُطري للخليفة محاسن الشام ، ويثير شوقه إلى فتنة طبيعتها ، إلى أن عزم المتوكل على الرحلة إليها ، ولهذا يقول له البحتري في إحدى قصائد الرحلة : (الديوان ، الجوائب : ١/ ١١) :

أما دمشقُ فقد أبدت محاسنَها ... وقد وفى لك مُطريها بما وعدا

وقد بذل البحتري جهده ليحبب دمشق إلى المتوكل ، ويدفعه إلى إيثارها على العراق ، وليس بعيداً أن يكون البحتري هو الذي حمل المتوكل على المقام بالشام ونقل دواوين الملك إلى دمشق . (انظر : في الأدب العباسي للدكتور محمد مهدي البصير ، بغداد ١٩٤٩ : ص ٢٣٤) .

٥ — أبيات القصيدة تنبض بحب الشاعر الشامي لوطنه ، فهو يفضل الشام على العراق ، ولا يعدل بدمشق داراً أخرى اسكنه ، ولا يرى في الأرض كلها ، شرقها وغربها ، مثيلاً لها في إفادة اللهو والسرور ، فهي صحة البدن ونزهة العين ولهو النفس ، وهو يتمنى أن ينقل المتوكل سرير ملكه إليها ، ولهذا نجده يحث الخليفة على إطالة البقاء فيها ، ويلفته إلى ميزاتها ، فهي أرض

مقدسة ، أهدى الربيع كلَّ دار من دورها روضةً وغديراً ، وستزداد محاسنها اشراقاً بهذه الزيارة لها ، وتطيب أيامها وشهورها كلما طال مكث المتوكل فيها ، وهذه القصيدة أرادها البحتري في مدح المتوكل ، فغالبه حبه للشام على إرادته فجاءت قصيدته تحية اعجاب وحب لدمشق ومفاتن الطبيعة فيها .

٦ — تمتاز القصيدة إذاً بوحدة موضوعها ، فالأبيات كلها تتحدثُ عن جمال الطبيعة في دمشق ، وتمجيدها وتفضيلها على العراق وحث الخليفة على البقاء فيها ، وهي من جيد شعر البحتري في المتوكل ، وشعره في المتوكل أجود شعره وأصفاه .

- ٣ -

وقال البحتري [١] يمدح محمد بن حُمَيْد الطُّوسي [٢] :

(١) القصيدة من الخفيف ، عدد أبياتها ٢٣ ، نقلناها من مخطوطة الديوان بالمكتبة الوطنية بباريس ، الورقة ١٤٣ و — ظ ، إلا البيت الخامس منها فقد نقلناه من (المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام لعبد القاهر الجرجاني ، بتحقيق السيد عبد العزيز الميمني : الطرائف الأدبية مصر ١٩٣٧ : ص ٢٤٣) وقد وجدنا في هذا (المختار) البيتين الرابع والخامس ، وذلك يؤكد صحة نسبة القصيدة إلى البحتري .

(٢) هو أبو نهشل الطائي ، محمد بن حُميد بن عبد الحميد الطوسي ، ممدوح أبي تمام والبحتري ، وقد مدحه البحتري بشعر كثير ، وآل حميد بيت شجاعة وفروسية وأدب ومجد ، منح الخلافة العباسية عدداً من كبار قادة جيوشها ، وقد مدحهم شعراء عصرهم ورثَوا مصارع الأبطال منهم عند الثغور ، وأخبارهم منثورة في كتب التاريخ (وانظر معجم الشعراء للمرزباني ص : ٤٢٧ والأغاني ، بولاق : ٩/١٠٢ — ١٠٣) .

بعضَ[١] هذا الملامِ والتفنيدِ[٢] ليس هجرُ النوى كهجرِ الصدودِ
زعم العاذلون أن الذي يُصْـــبيهِ[٣] نُجْلُ العيونِ غيرُ رشيدِ
كذب العاذلون قد يَحْسُنُ الحبُّ بِمَنْ ليس قلبُه من حديدِ
يارُبوعَ الديارِ إنّي على ما قد أراهُ منكنّ غيرُ جليدِ
[أَخْلَقَ الدهرُ عهدَكنَّ وللدهـــرِ صُروفٌ يُخْلِقْنَ كلّ جديدِ[٤]]
فرّقت شملَنا النوى بعد ما كنّـــا جميعاً في ظلِّ عيشٍ حميدِ
لو[٥] ترانا عند الوداع وقد لوّ (م) نَ سكبُ الدموع وردَ الخدودِ
حين ساروا بغانيات وِسامٍ[٦] آنساتٍ حُورِ المدامعِ غيدِ
يتلفّتْنَ من بعيدٍ وينظُرْ نَ اشتياقاً إلى المحب العميدِ[٧]

(١) للبحتري قصيدة يمدح بها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، ومطلعها مماثل لهذا المطلع : (الديوان ، الجوائب : ٢/١٩٣) :

بعضَ هذا العتاب والتفنيد ليس ذمُّ الوفاء بالمحمود

(٢) التفنيد : التكذيب وتخطئة الرأي وتضعيف القول .

(٣) أصباه : شاقه وفتنه ودعاه إلى الصبا .

(٤) البيت زيادة من (المختار . .) للجرجاني .

(٥) لو : هنا ليست للشرط ، فلا جواب لها ، وتحتمل التمني والعرض .

(٦) وِسام : جمع وسيمة ، والوَسامة أثر الحسن .

(٧) العميد والمعمود والمعمّد : الذي هدّه العشق وأضناه .

يتهادَيْنَ حول مُحْوَرَّةِ العيـــنين مصفرّةِ الترائب[1] رُودِ[2]
أعجَلَتْها النوى فما نلتُ منهـا طائلاً غيرَ نظرةٍ من بعيدِ
سوف أُعطِي السلوّ والصبرَ ماأمـــنَعُ من[3] طارفِ الهوى وتليدِ
بالمهارى[4] يلْبَسْنَ ثوباً جديداً مُسْتَفاداً في كلّ وقتٍ جديدِ
وهي طولَ النهار بيضٌ وطولَ[5] الــلَّيْلِ في أقْتمٍ من الليل سُودِ
طالباتٌ في الغَوْثِ غَوْثاً سَكُوباً وحميداً في آلِ عبدِ الحميـدِ[6]
جادَ حتى لو أُستُزِيد من الجُو دِ لَما كانَ عنده مِن مَزِيدِ
خلُقٌ يامحمّدُ بنَ حُمَيْدٍ حُزتَه عن أبوّةٍ وجدودِ

(١) الترائب : موضع القلادة من الجسم أو ما بين الثديين ، ويريد الشاعر من اصفرار الترائب أنها مصبوغة بالزعفران ، وهو من الطّيب ، وقيل : أهلك النساء الأصفران : الذهب والزعفران .

(٢) رُود مسهلة من رُؤْد وهي الفتاة الحسنة الشباب ، تشبيهاً لها بالغصن الرطب الرخص .

(٣) في الأصل : ما ، ولا يستقيم بها معنى البيت وإعرابه ، و (ماأمنع) ما مصدرية ظرفية ، ومعنى البيت أنني سأسلو عمن فارقوني ، مدةَ ما يُمنع عني جديدُ الهوى وقديمه ، برحلة إلى الممدوح ، أركب المهارى . . إلخ . .

(٤) المهارى الإبل المَهْرِيّـة ، وهي المنسوبة إلى قبيلة مَهْرَة .

(٥) في الأصل : طوال ، وهو خطأ ، ولا يستقيم الوزن به .

(٦) الممدوح اسمه محمد بن حميد بن عبد الحميد .

يَشْهَدُ الحربَ منكَ ليثُ عرينٍ غيرُ هَيَّابةٍ ولا رِعْدِيدِ
أسدٌ يركبُ السيوفَ إذا ما فُلَّ تحت السيوفِ صَبْرُ الأُسودِ
يتخطَّى فيها رقابَ المنايا غيرَ ما ناكلٍ ولا مَزْؤودِ (١)
في نهار من السيوفِ مُضيءٍ تحتَ لَيْلٍ مِنْ مُسْتَثارِ الصَّعيدِ (٢)
وعوانٍ (٣) تُحَلُّ تحتَ وَغاها عُقدةُ الفارسِ الشجاعِ النجيدِ (٤)
يَخْرَسُ الدارعونَ فيها فما يُسْـ ـمَعُ فيها إلا كلامُ الحديدِ

* * *

(١) المزؤود : المذعور ، من زَأَده : أفزعه .
(٢) الصعيد : التراب ، والتراب المثار كناية عن المعركة .
(٣) العوان من الحروب ، الحرب التي قوتل فيها مرة بعد الأخرى ، كأنهم جعلوا الأولى بكراً ، لأن العوان من النساء هي الثيّب .
(٤) النَّجيد والنَّجْدُ والنَّجُدُ والنَّجِد : الشجاع الماضي فيما يعجز غيرَه .

ملاحظات ونظرات

١ — ممدوح البحتري في هذه القصيدة محمد بن حميد ، القائد العباسي ، شخصية كبرى من شخصيات شعر البحتري ، وهو شاعر مقل (الفهرست ، الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ : ص ٢٣٥) يروي صاحب الأغاني بعض أخباره (ج ٩ / ١٠٢ — ١٠٣) ، وقد مدحه البحتري بقصائد كثيرة ، منها ١٥ قصيدة في ديوانه المطبوع ، وقصائد أخرى لم تزل إلى اليوم مخطوطة ، ومنها هذه القصيدة .

٢ — ليس سهلاً تحديد تاريخ نظم القصيدة ، ذلك أن البحتري اتصل بآل حميد في بغداد ، في حياة أستاذه أبي تمام الذي كان يستجيد شعر البحتري فيهم (أخبار البحتري : ٦٩) ، وفي خلافة المتوكل أيضاً ؛ وليس في القصيدة ما يُعين على تأريخها ، ولعلّ في حرارة أبيات الغزل وما يذكر الشاعر فيها من تعلق الغانيات به وتلفتهن إليه عند الرحيل ما يسمح لنا بأن نرجّح أن تكون القصيدة من نتاج مرحلة الشباب .

٣ — يمكن أن نلاحظ في القصيدة أقساماً ثلاثة :

أ — النسيب : ويشغل الأبيات (١ — ١١) وقد أغناه الشاعر بالحملة على العذال ، وبالحنين إلى ديار المحبوبة ، وبتصوير بعض الذكريات الباكية لساعة الفراق والرحيل ، وبوصفٍ خاطفٍ لبعض مفاتن المحبوبة ذات العينين الحوراوين ، والترائبِ الفوّاحة بطيب الزعفران ، والقامةِ المتأوّدة كالغصن الرخص .

ب — وصف الإبل : ويشغل الأبيات (١٢ — ١٤) وهي الركائب التي حملت الشاعر إلى الممدوح ، وهي إبل مَهْرِيّة تُغذّ السير ، وتطوي الليل والنهار ، لتبلغ ديار الممدوح .

ج — المديح : ويشغل الأبيات الباقية (١٥ — ٢٣) وهو الغرض الرئيسي من القصيدة ، والبحتري يُقدم فيه للممدوح صورة تقليدية لا تكاد تبدو فيها ملامح خاصة تميز محمد بن حميد الطوسي من غيره من ممدوحي البحتري ، على أنه جمع فيها أقانيم المديح الثلاثة (الكرم وشرف النسب والشجاعة) فالممدوح غوث سكوب ، يجود بكل ما لديه ، وهو شريف في بيته ، ورث الكرم عن أبوّته وجدوده ، وهو في الحرب ليث مقدام ، يخوض المعارك الطاحنة ، ويتخطى فيها رقاب المنايا ، غير هيّاب ولا ناكل ، وكل من في المعركة هادئ صامت أخرس ، فلا يُسمع غير قعقعة السلاح وصليل السيوف .

٤ — يُلاحظ أن النسيب قد استأثر بأكثر الأبيات وطغى على حصة المديح ، وهو الغرض الرئيسي ، كما نلاحظ أن البحتري قد أحسن التخلص هذه المرة من النسيب إلى المديح ، فلم يكن انتقاله اليه مفاجئاً كما عوّدنا أن يفعل ، وهكذا كان وصفه للإبل التي حملته إلى الممدوح وسيلةً لغرضٍ فني ، هو ما يسميه البلاغيون بحسن التخلص ، وعلى الرغم من أن هذه الوسيلة تقليدية معروفة في الشعر القديم ، فإن عرض البحتري الحيّ السريع المحكم لها خفف من ابتذالها .

٥ — استوفى البحتري في أبيات المديح جزئيات الصورة التقليدية للممدوح ، وعرضها عرضاً خاطفاً سريعاً ، ولكنه ألحّ على تصوير شجاعة ممدوحه وثباته في المعارك ، حتى شغل بذلك الأبيات الستة الأخيرة ، ولم يترك للكرم وشرف النسب مجتمعَين غيرَ أبيات ثلاثة ! ومثل هذا الإلحاح على تصوير شجاعة الممدوح أمرٌ طبيعي فصورة محمد بن حميد القائد العباسي لا بد لها من أن تطغى — في عيني شاعر مصوّر كالبحتري — على مزاياه الأخرى .

٦ — القصيدة من جيّد شعر البحتري ، اجتمع لها رقة اللفظ وسهولته ، وبساطة التركيب وقوته ، وموسيقى الصياغة وعفويتُها ، وجمال الصورة ووضوحها ، ولو توفر لها غنى العنصر الفكري وطول النفَس لكانت من مختار الشعر العباسي ومستجاده .

(يتبع) الدكتور صالح الأشتر

كتاب النفس

لابن باجة الأندلسي

- ٦ -

الفصل الرابع

القول في البصر

وقد تبين فيما قد تقدم [1] ان النفس هي الاستكمال الأول الذي هيولاه المزاج . وأعني بقولي « الأول » [2] كما يقال في المهندس حينما لا يستعمل عمله بالهندسة ، والموسيقار [3] <حين>ما لا يستعمل صناعة الموسيقى . والأخير مثل ما يقال في الموسيقار حين يستعمل اللحن . فإن الصنف <الأوّل> من الاستكمال أبداً هو كالهيولى للكمال الأخير ، ولذلك يحتاج ضرورة إلى شيء آخر يخرجه إلى الفعل وهو المحرّك ، لأن كل متحرك فله محرّك ، غير أن المحرّك [4] في هذه يخفى والمحرّك في الحس ظاهر أمره كالذي يعرض في المرآة الصقيلة . (ورقة ١٥٥ ب) فإن الصقالة هي الكمال الأول فلذلك متى حضر المرئيّ ارتسمت فيها الصورة من غير أن تتغير هي الى وجود آخر تكون به أقرب كالذي يعرض في الحديد وهو حديد [5] أنه استكمال أول . والاستكمال

(١) راجع النص ، آخر ورقة ١٣٩ ب واول ورقة ١٤٠ الف : والنفس هي الاستكمال الاول .

(٢) لقد صرح ارسطو ان الشيء يقال له باسمه اولا من حيث صورته وثانيا من حيث المادة ، انظر De An II, 2, 414 a 9 — 13 : والتعليق ٣٨ ، الفصل الاول .

(٣) المخطوطة : الموسيقى .

(٤) المخطوطة : المتحرك .

(٥) فان الحديد بذاته ليس بصقيل ، وانما يصير مرءاة بعد الصقل .

الأول بالجملة هو ما كان الجسم مستعداً لقبول شيء ما غير أن يتغير بالذات لا بالعرض ، فإن المرءاة قد تتغير مثل أن تنتقل الى مقابلة المرئي .

فقوة البصر هي استكمال أول للعين وهي النفس الباصرة . وإذا أبصرت صارت بصراً وهذا هو اسمها من حيث هي[1] بالكمال الأخير . وكذلك سايرها . فإنها اذا انفردت وكانت قوة فقط كانت نفساً . ولذلك يقال في الجنين ذو نفس[2] وفي النائم ، واذا فعلت أفعالها كانت حساً . فالقوة التي يكون بها البصر هي بالقوة المبصرات .

والمحسوسات كما قيل[3] «أول» وهي الخاصة بحاسة حاسة ـ ومنها مشتركة ومنها بالعرض .

والمحسوس الأول للبصر هو اللون ، ولذلك لا يدركه إلا البصر . ولذلك ما وجد فيه إدراك اللون فذلك العضو فيه بصر حيث كان وأي صورة كان ، فان الجسم يحد بغايته ، ولذلك لا يكون الصنم إنسانا ، ولا ما انحد من السمع سكينا اذا لم يفعل أفعال الأنواع المشاركة لها في الاسم[4] . ولذلك قيل ان العين يقال على عين الحي وعين الميت باشتراك لا بتواطؤ .

فالنفس الباصرة هي القوة الموجودة في العين التي تدرك بها اللون . وهي

(١) المخطوطة : هو ، وبالهامش : هي .

(٢) ان الجنين له نفس نباتية كما يظهر من اقوال ابن باجة الآتية : ورقة ٢١٦ ب (رسالة الاتصال ، الاندلس ، ميدرد ، ج ٧ ، ١٩٤٢ م ، ص ١٢ .) وذلك في الزمان الذي يحتوي عليه الرحم ، فانه يتخلق اولا فاذا كمل تخلقه اغتذى ونمى (= نما) .

(٣) راجع النص ورقة ١٥٥ الف : « منها خاصة ومنها مشتركة » .

(٤) المخطوطة : الجسم ، وبالهامش : الاسم . قارن ارسطو : Arist. : Meteo IV. 12. 390 a 10; De An. ii.I. 412 b 12 — 21; 8. 420 b 1; De Gen. Anim. ii. I. 735 a 8

في الرطوبة الجليدية [١] . وذلك بيّن من العوارض التي تعرض لمن ينزل الماء في عينيه . فلذلك يجب أن نفحص عن اللون ما هو ؟

فنقول : إن اللون لا يمكن إدراكه إلا بتوسط الهواء . ولذلك لو وضع اللون على البصر لما أدركه [٢] . ولا يمكن للهواء أن يخدم البصر في إدراكه إلاّ مع الضوء [٣] ، إما لأن الألوان في الظلام بالقوة ولا وجود لهـا ، أو لأن الهواء إنما يقبل الألوان بالبصر الذي تكون فيه .

أما ان اللون في الظلام فذلك بيّن عند تأمل الألوان في الظل ، وفي الشمس ، وفي الحال التي تعرض للنبات عند مرور السحاب عليه حايلةً بينه وبين الشمس ؛ فإن ألوانها تختلف اختلافاً شديداً . وقد تلخص ذلك في الحس والمحسوس [٤] ، فالواجب أن نتقدم [٥] فنلخص أي شيء هو ؟

---

(١) لعل الحق مع ابن باجة حين يقول : ان القوة الباصرة في الرطوبة الجليدية التي هي آلة البصر عند اليونانيين (مايروف ، Mayerhof ، المقـالات العشر في العين لحنين بن اسحاق ، ص ١٢٠ : واما آلة البصر وهي الرطوبة الجليدية .) اما ابن سينا فانه يقول ان هذه القوة هي في العصبة المجوّفة (انظر ، فضل الرحمن Avicenna's Psychology ، ص ٢٦ . والشفاء مخطوط بودليانا ، بوكك Poc ١٢٥ ، ورقة ١٦٠ ب : فمنها البصر وهي قوة مرتبة في العصبة المجوفة تدرك صورة ما ينطبع في الرطوبة الجليدية من اشباح الاجسام .) . ولقد صرح حنين ان قوة البصر تنبعث من الدماغ في العصبة المجوفة ، المقالات العشر في العين المنسوب لحنين ، ص ١٢٠ .

(٢) قارن ارسطو : Arist. ; De An. : *II*. 7. 419 a 13; *II*. 423 b 20

(٣) ما قال ارسطو قط ان الهواء تخدم البصر ، ولكنّه بيّن ان الماء والهواء شفافان يحتويان على جوهر مضيء كأن الضوء هو لون الشفاف ، راجع De An. : *II*. 7. 418 b 1 — 12

(٤) يصف ارسطو ان انواعا من الالوان تعرض لمن يرى الشمس مغطاة بالضباب او الدخان ، فترى كأنها بيضاء قد اختلطت بالحمرة ، راجع Arist. : De Sensu : 3. 440 a 7 . وابن رشد قريب من ابن باجة في البيان ، انظر تلخيص كتاب النفس ، الاهواني : ص ٣٣ ، وحيدر اباد ، ص ٢٩ .

(٥) المخطوطة : يجب ان اتقدم .

والمضيء هو مفيد للضوء ، والمستضيء هو الذي فيه الضوء ـ والضوء هو كمال المستضيء من جهة ما هو مستضيء .

والمضيء يقال على نحوين[1] : تقديم (ورقة ١٥٦ الف) وتأخير . فالأول هو المعنى الذي نظن أن الشمس تشترك فيه مع النار . والمقول بتأخير[2] هو الذي يضيء بأن يستضيء . وذلك بأن ينعكس الضوء عنه ، كما يعرض في القمر وفي الأجسام الصقيلة . وهذه أصناف . أما أن يكون ذلك بحيث < لا > يقدر أن يجعل غيره مرئيا[3] فهذه[4] أصناف الأرضيات كالمرئي في الماء عند وقوع المجاديف بالليل ، وفي قشر بعض السمك ، ونار الحباحب ، وهذه ليست ألوانا[5] ولكنها انفعالات في العين ، وقد تلخص أمرها في غير هذا الموضع .

(١) والظاهر ان ابن رشد اتبع ابن باجة في قوله « ان المضيء على نحوين : تقديم وتأخير » . أما ارسطو فانه لم يصرح بهذا التقسيم ، ولكنه ذكر في كتاب النفس (٤٢٨ و – ١٠ ، راجع تلخيص كتاب النفس ، تحقيق الاهواني ص ٣١) « ان الأجسام المضيئة تخرج من القوة إلى الفعل بتأثير النار ، او شيء شبيه بالأجسام العلوية ، ولعل اصطلاح « شيء شبيه بالأجسام العلوية » ظهر في قول ابن رشد « بالجسم الالهي » ، وفي شرح القديس توماس الاكويني « بالاجسام العلوية » . وقد صرح ابن باجة هذا الجسم حين ذكر الشمس . راجع ارسطو : De An. ii. 7. 418 b 12

(٢) المخطوطة : بتاخر .

(٣) المخطوطة : قريبا . راجع أرسطو : De An. ii. 7. 419 a 3 . وابن رشد قريب من ابن باجة جدا في البيان ، انظر تلخيص كتاب النفس تحقيق الاهواني ، ص ٣١ ، حيدر اباد ص ٢٢ .

(٤) المخطوطة : وهذه .

(٥) انظر أرسطو : De An. ii. 7. 419 a 1–5 ؛ ابن رشد : تلخيص كتاب النفس تحقيق الاهواني ص ٣٢ ، حيدر اباد ص ٢٧ .

فالضوء إذن هو الذي يكون في الهواء عند حضور جسمٍ له هذه الحال في المستضيء .

فأما هل الشمس هي تلك بعينها أم أثرها في المحيط بالحيوان ففي ذلك موضع فحص ، وعويص شديد حقاً . فإن الكائن في الماء يرى الشمس في بسيط الماء ويراها قريباً حتى يظن أنها في بسيط الماء . وكذلك يعرض لمن في شاطئ البحر عند الطلوع والغروب إذا اتفق كون بخار غليظ مرتفع من موضع قريب من الناظر أن يظن أن الشمس في سطح ذلك البخار ، ولذلك يراها كبيرة ويراها حمراء وصفراء . وأيضاً إذا نظرنا في النار وأحوالها التي بها تكون مضيئة وجدنا فيها ان ذلك يكون بتوسط في الغلظ والرقة . وذلك بين فيما قيل [١] في النيازك وأذناب الكواكب . لكن الأمر على ما يقوله أرسطو في سابعة عشر الحيوان [٢] أن صورة النار مرئية [٣] حين وعدنا بالفحص عنها ـ فليترك إلى ذلك الموضع الذي يليق به أن يفحص عنه عن أمثال هذه الأمور .

والمقبول يلحقه دائماً لواحقُ في القابل ، ولذلك قيل : ع « كأنه ناظر في السيف بالطول » [٤] ، وكما يعرض في الأطوال ، وقد تلخص هذا في كتاب المناظر والظلال التعليمية [٥] ، وأعطيت أسبابها .

---

(١) وذكر أرسطو اسباب الشهاب الثاقب ، ومنظر الاحتراق وحقيقة المذنّب والمجرة في كتاب الآثار العلوية : Meteo. i, 5—6. 342 b 22 .

(٢) انظر أرسطو : De Gen. An. iii II. 791 b 20 .

(٣) المخطوطة : قريبه .

(٤) وتمامه « ذاك الوزير الذي طالت علاوته كأنه ناظر في السيف بالطول »
والبيت من قصيدة لأبي نواس نظمها في مدح جعفر بن يحيى البرمكي ، وما وجدته في الديوان . راجع كتاب الوزراء والكتّاب لأبي عبد الله محمد بن عبدوس الجهشياري تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، ١٩٣٨ م ، مصر ص ٢١٥ .

(٥) لعله تصنيف لابن باجة في الهندسة ، وقد فُقد .

وظاهر بيّن أن الذي يقبله الهواء من النار هو بسيطها إما أوّلاً أو بتوسط معنى فيه . وذلك المعنى ، إن قيل له « كون » فباشتراك .

ولما كان المتقابلان لا يوجدان معاً في موضوع واحد كالحرّ والبرد فمن هذه ما لا يوجدان في موضوع واحد بالاطلاق كالزوج والفرد فإن الخمسة لا تكون زوجاً أصلاً . ومنها ما لا يوجدان[1] في موضوع واحد في وقت واحد مثل الحار والبارد والعمى والبصر . ومنها ما يوجدان في موضوع واحد في وقت واحد وذلك في كثير من أنواع الإضافة ، منها أصناف الوضع المضاف كالتيامن والتياسر ، ولذلك لا يكون حدوث في موضوعاتها تغيراً (ورقة ١٥٧ ب) بل تابعاً لتغير[2] . ويوجد في الآن[3] ولا يكون في زمان أصلاً ، وقد تبين كيف ذلك في السماع .

والوضع فالمضاف منه بالذات وهو الذي بالطبيعة . والذي بالطبع كوضع بعض أعضاء الحيوان من بعض ، فلذلك تجد الطبيعة قد حصلت في كل واحد منها أو في أحدهما أمرا[4] يتم بذلك الوضع . وما بالعرض ليس كذلك كوضع زيد من عمرو . والوضع على ما تلخص في السماع ، ليس من القوى الشائعة في الجسم[5] ، فإن وضع آمن جب كوضعه من حد ، وأي

(١) المخطوطة : ومنها فلا يوجدان .

(٢) وابن باجة بيّن معنى « تابع لتغير » بالفاظه في السماع ، ورقة ٢٩ ب : « ويكون للنسب تغير تابع لتغير فلذلك يكون في الآن وكذلك فسادها » .

(٣) ولفظ « الآن » عند ابن باجة معناه « منتهى الحركة » ، ورقة ٢٩ الف : « ففي الآن الذي هو منتهى الحركة » . ولكنّه ايضا صرّح بمعنى آخر فقال : ورقة ٢٩ ب : « الآن الذي هو نهاية السكون ومبدأ الحركة او نهاية الحركة ومبدأ السكون » .

(٤) المخطوطة : أمر .

(٥) هذا مبني على ما قال ارسطو من أن اوضاع الحيوان واوصاف حركته ليست بمادية ، راجع : Phys Viii 4 254 b 23

جزء أخذ من جـ كان وضع آمنه ضرورة[١] ذلك الوضع بعينه .

والمضيء من المستضيء صورة ذو مضاف . والأجسام إنما تكون ذات وضع بالاطلاق ببسائطها المطيفة بها الخارجة . فلذلك تكون ذوات وضع بهذه البسائط .

والمضافات قد لا يوجد بين موضوعين منها شخصان من نوع واحد من الإضافة كالتوليد فإن المولِّد لا يكون مولَّداً للمولَّد له . وقد يكون بينهما شخصان من ذلك النوع كالتضارب والتصادق . والذي لا يوجد بينهما شخصان قد يكون نوع الاضافة التي[٢] بينهما فصلها[٣] من كليهما كتيامُن حيوان من حيوان . فإنَّ حـ اذا كان متيامناً عن بـ كان بـ متيامسرا[٤] عن حـ[٥] . لأن لكليهما اليمين واليسار . وأما ما ليس بحيوان فليس[٦] كذلك ، فإن التيامن للجبل فليس بتيامسر عن الجبل ، إذ ليس للجبل يمين ولا يسار إلاّ بالإقتياس .

والمضيء له إلى المستضيء وضعٌ مضافٌ ولذلك اذا حضَر وجب أن يكون ذلك له ، وقبوله ذلك الوضع منه بالطبع هو إضافة . والمنير ما له مثل هذه الطبيعة .

والإضافة من حيث هي إضافة فلا تنقسم بأقسام الجسم ، لأن الاضافة طبيعة عامة لما هو جسم ولما < هو > ليس بجسم . فلذلك قد لا تنقسم بأقسام الجسم بذاتها .

(١) المخطوطة : ضرورة .
(٢) المخطوطة : الذي .
(٣) المخطوطة : فصلها .
(٤) المخطوطة : متياسر .
(٥) المخطوطة : دـ .
(٦) المخطوطة : وليس .

ولما كانت الإنارة مضافة بين جسمين من طريق ما هي تلك للأجسام ، فإن لكل جزء من المنير عند جزء من المستنير تلك الإضافة — أمكن أو لا أمكن . ولذلك لا يضيء كل مستضيء فأيّ قدر ، كان قدراً واحداً من الإضافة ، بل قد لا يضيئه كله لكن يضيء ضرورةً ما يجاوره . وقد لخّص كيف ذلك في القول في انعكاس الأضواء [١] . فقد قلنا ما الضوء ، وما المستضيء ، وما المضيء .

وتبين بذلك كيف يوجد في الهواء الضوء من غير أن يوجد زمان ، وكيف يستضيء الهواء عن الشمس والسراج في قدر واحد من الزمان ـ إن قيل لذلك زمان ـ وتفاصل الأبعاد على ما هي عليه . وكيف يوجد الهواء الواحد يستضيء عن نيّرين ولا يبين أثره اذا تخالفا في الوضع . مثل أن يكون كل واحد (ورقة ١٥٧ الف) منهما على طرف ضلع المربع ويكون بينهما حاجز عن مستضيء ، فإن المركز وحده يستضيء بالضوءين معاً ، فإن لم ينعكس الشعاع لم يكن على استقامة قطر حال المضيء الذي على القطر الآخر . وكذلك لا يتبين لمن كان على وسط ضلع المربع حال واحد من المضيئين .

ولمّا كان اللون إنما هو على ما تبين في الحسّ والمحسوس [٢] باختلاط المستضيء بالجسم ذي اللون على الجهة رسمت هنالك كان اللون أيضاً مضيئاً بوجه ومحركاً للهواء [٣] . فاللون محرّك للمستضيء لكن من جهة ما هو مستضيء ، لأن المستضيء هو المحرّك لذلك اللون .

فأما كيف قيل إن اللون يحرك المشفّ بالفعل فذلك من جهة أن قبول اللون إنما هو من جهة ما هو مستضيء وقبول المضيء هو إضافة إضاءة . فتحريكه

---

(١) لعل ابن باجة يشير الى كتاب صنفه في انعكاس الضوء ، وقد فُقد .

(٢) راجع أرسطو : Arist : De Sensu iii. 440 b 1—18; 439 b II; De An. ii. 7. 419 a 14

(٣) المخطوطة : للهوى .

اياه إضاءة وإشفاق . وهنالك استبان خطأ من رأى [1] أن الإبصار كان بالخلاء [2] ، أمكن لما يظهر الحس في الماء والهواء ، بل الأمر على عكس ما ظنه ديمقراطيس ، فإن الهواء لو ارتفع لارتفع الابصار جملةً .

وكما أن اللون لا يدرك دون ضوء [3] ، فكذلك الضوء لا يدرك إلا مقترناً بلون . وذلك بين بما قلناه قبل [4] .

فاللون هو البسيط ، والبسيط هو ذو شكل ضرورة ، فلذلك يدرك البصر الشكل والطول ، وبالجملة فكل ما يوجد في قوام اللون او قوام ما يكون به قوام اللون . فلذلك يدرك البصر الجواهر الموضوعة للألوان .

ولما كانت الأسباب منها قريبة ، وهي التي تخص الذاتية ، ومنها بعيدة وتعدّ فيها بالعرض ، وكان المبصرات كذلك مثل الأطوال أو ما يجري مجراها ، انها للبصر بالذات ، والجواهر أنها بالعرض .

وأما [5] ما بالعرض على الخصوص فما يدركه بتوسط قوة أخرى ، مثال ذلك أن الأبيض اثر عندنا [6] فليس للبصر لا قريباً ولا بعيدا .

وقد يظن أن كثيراً ما < ما > بالذات يوجد في المرايا [7] ، فإن الشكل والحركة قد تظهر فيها وأشياء أخر من أحوال الملون ، لكن ليس ذلك فيها من جهة واحدة ، وقد تلخص أمرها في غير هذا الموضع ، والحركة الظاهرة

---

(١) وقد ذكر أرسطو رأى ديمقراطيس في كتابه في النفس : De An. ii. 7. 419 a 15

(٢) المخطوطة : بلون بالخلاء .

(٣) أيضاً : 419 a 9 .

(٤) أيضاً : 419 a 21 . وراجع النص بنفسه : ما وجد فيه إدراك اللون الخ (ورقة ١٥٥ ب) .

(٥) المخطوطة : وكان المبصرات كذلك مثل الأطوال وما جرى مجراها انها للبصر بالذات واما الخ .

(٦) المخطوطة : عندمما .

(٧) المرايا جمع المرءاة .

فيها ليست حركة حدثت بل أشياء شعاعية[١] ، لأن الجزء الظاهر عند آ ليس هو بعينة الذي ظهر عند بَ . فيكون ذلك حركة . وانما ذلك كظل المتحرك فإنه عدم لضوء لا لحركة ، فانّ الظل لا حركة له .

والحسّ لما كان هيولى تقبل معنى المحسوس على ما قيل[٢] لذلك ارتسم في الحسّ ما به قوام ذلك المعنى ، كيف كان . وأما المرآة فليست تقبل المعنى لكن تقبل أمثال بعض لواحق ذي المعنى[٣] .

* * *

الفصل الخامس

(ورقة ١٥٧ ب) القول في السمع

والقوة السامعة هي استكمال حاسة السمع ، وفعلها[٤] ادراك الأثر الحادث في الهواء عن تصادم جسمين متقاومين . وهذه الحال هي التي يكون بها الشيء مسموعا وإحساسها هو سمع . وذلك ان كل الأجسام المحدثة للصوت إما صلبة وإما رطبة . فان كانت صلبة فاذا قرعها[٥] قارع حدث عنها[٦]

(١) المخطوطة : شائمة .

(٢) راجع النص : فهيولى الادراك مطبوعة على قبول معاني المدركات : (ورقة ورقة ١٥٤ الف ، أخرها) .

(٣) المخطوطة : « هذا مضيء » ، لعله من زيادة ابن الامام او الكاتب .

(٤) الصوت ، كما بيّنه أرسطو ، بالفعل وبالقوة . والأول يحدث من التصادم ، فلا بد له من جسم قارع وجسم مقروع ، والصوت لا يكون إلا بحركة من الضارب والمضروب ، راجع : De An. ii. 8. 419 b 5—13 .

(٥) المخطوطة : قرعه .

(٦) المخطوطة : عنه .

صوت . وأما إن كان رطباً [١] فانه لا يحدث عنه صوت إلاّ بأن تكون حركة القارع الى المقروع أسرع [٢] من انخراق ذلك الرطب فتقاومه . فيتحرك الذي فيه تلك الحركة وينبو عنها ، وتندفع منه إلى جميع الجهات التي تلي المكان الذي التقى فيه القارع والمقروع . والهواء مع أنه يندفع عن القارع يقبل [٣] عن القارع أثراً خاصاً به ، كما يظهر ذلك من الأجسام المهتزة .

وبينٌ أثر ذلك الحس في أوتار العود ، فانا نجده متى حركنا البمّ في تسوية المطلاق تحرّك < ما > على المثنى فلم يتحرك ما على الزير ، ولا ما على المثلث . وكذلك اذا اهتزّ المثلث لم يهتزّ الزير . وإن وضعنا الاصبع على سبابة الزير تحرك ما عليه ؛ وكذلك يعرض في المتساوية الطبقة ، لأنها متشابهة . وكذلك عرض الأمر بعينه فيما بالكل < و > الذي بالكل متشابه وليس متساوي [٤] .

والمحسوس الأول هو ذلك الأثر [٥] الذي في الهواء والماء الحادث عن القرع ؛ لكنه مقرون بحركة ولا يمكن أن يحسّ دون تحرّك ذلك الهواء . فلذلك هو أثر مقترن به تحرّكه في الأثر [٦] ، فلذلك يلحقه عن ما يرجع عن جسم ان يرجع بعينه ولكن لا على تلك الحالة . فلذلك يلزم للضدّين [٧] تغيرٌ ما ، لكن يبقى الأثر واحداً بعينه .

(١) اللفظ المقابل للرطب في هذا المعنى غير موجود في كتب أرسطو ولكنّه بيّن « ليس كل أجسام تحدث الصوت بالقارعة ، فالضرب على القطن مثلاً لا يحدث صوتاً ولكن النحـاس والأجسام المجوفة والملساء تحدث » ، راجع : De An. ii. 8. 419 b 14—15

(٢) انظر ارسطو : De An. 8. 419 b 23 ؛ ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، تحقيق الاهواني ، ص ٣٥ .

(٣) المخطوطة : ويقبل .

(٤) (متساوياً) خبر ليس . (لجنة المجلة)

(٥) راجع أرسطو : De An. 8. 419 b 18—20 .

(٦) أي الصوت أثر متحرك بالهواء الذي حدث الأثر فيه .

(٧) المخطوطة : للضدان .

وكذلك في أذن الإنسان خاصة ، لما كانت كثيرة التقارع ، عرض للهواء هنالك أصناف من الرجوع [١] ، وبقي الصوت ، كما يعرض في الآلات المصوّتة ، كالعود . وبذلك يكون الصوت نغمة . فان النغمة صوت يبقى زماناً محسوساً ؛ ولذلك لم يكن كل صوت نغمة ، فلذلك متى يردفه صوت آخر امتزج الهواءان وهما بأحوال مختلفة ، فحدثت نغمة ممتزجة ، إما ملائمةً وإما منافرةً . وهذا هو السبب الذي كانت الإيقاعات تصيّر به [٢] الملذّة منافرةً والمنافرة ملائمةً . وهذا هو < في > عود أنينها [٣] النغم . وقد فصّل ذلك كله في مواضع أخر .

ولما كان الموضع الأول للسمع هو الهواء ، لأنه القابل الأول للصوت ، لذلك كان المتقارعان [٤] محسوسين بالعرض ، ولذلك يقع الغلط للسمع فيهما ، كما يقع للبصر فيما لموضوعه بالعرض ، وقد تُلُخص ذلك قبل [٥] . فلذلك قد تعرض أصوات كثيرة لأجسام متباينة (ورقة ١٥٨ الف) يظن بها أنها واحدة ، كمثل وقوع الماء في جسم أجوف صلد أن يكون الصوت المدرك منه وصوت وتر العود واحداً [٦] بعينه حتى يظن من سمعه ولم يشاهده أن عوداً يقرع بعض أوتاره . وبهذا يقتدر المشعبذون على تخيل رعود ، والمحاكون على اسماع أصوات أجسام مختلفة فنظن بذلك وجود تلك الأجسام من غير أن توجد .

ومن شأن ما هو لحاسة ما بالعرض أن يتعاون عليها الحواس ، وعند ذلك يحصل ذلك المحسوس . وسنبين بعد هذا كيف ذلك ولأيّ قوة هو .

---

(١) راجع أرسطو : De An. ii. 8. 419 b 26; 420 a 4 .

(٢) المخطوطة : بصره .

(٣) الصواب (انينه النعم) . (لجنة المجلة)

(٤) المخطوطة : المتقارعين .

(٥) لا يذكر ابن باجة في كتاب النفس واضحاً أنه يقع للبصر غلط .

(٦) المخطوطة : واحد .

والأجسام منها مصوّتة ومنها غير مصوّتة . فالمصوّتة هي التي لها آلة توجد الصوت ، ومحركها هو الانفعال الحادث في أنفسها . ومثل هذه فهي ذوات الأنفس [١] ومن ذوات الانفس ماله رية [٢] ، وهو ما يتنفس [٣] .

فأما الحيوان المعروف بالصرّار وصرّار الليل فليس مصوّتاً [٤] على هذه الجهة ، بل هو مصوّت [٥] بالعرض . لأن الهواء يخرج من بين خروق جوفه [٦] فيحدث له صوت .

وأما ما هو غير متنفس فليس يُحدث صوتاً لو يقرعه قارع . هذا وجود الصوت .

ولما كان الحسّ يلحق معنى المحسوس ، كما قلنا ، كان السمع يلحق هذا المعنى الكائن في الهواء وما به وجوده ، فلذلك يلحق الجهة التي منها كان الصوت وسائر ما يلحقه . ولا يلحق الشكل ولا غير ذلك مما يلحقه البصر إذ [٧] لم يكن في قوام الصوت .

(يتبع) محمد صغير حسن المعصومي

(١) راجع أرسطو : De An. ii. 8. 420 b 5 .
(٢) المخطوطة : رئه .
(٣) المخطوطة : ما تنفى .
(٤) ذكر أرسطو الصوت الحادث اتفاقاً قائلاً : « الصوت الذي هو للسمك وما أشبهه انما يُحدثه بخيشومه أو بعضو آخر له : De An ii. 8. 420 b II. يظهر أن ابن باجّة خالف أرسطو حين قال ان الصوت من صرار الليل مثلاً يحدث بالعرض ، فان الهواء يخرج من بين خروق جوفه ، ولكنه يوافق أرسطو حين يذكر التنفس ، فاخراج الهواء يحتاج الى الاستنشاق أولاً : De An. ii. 8. 420 b 15 ; Hist. An. IV. 9. 535 a 27—536 b 24 ، وفي هذه المواضع ذكر أرسطو الحيوان المصوّت ، صرّار الليل . وابن رشد يتبع ابن باجة ، راجع : تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ، ص ٣٨ .
(٥) المخطوطة : هي مصوتة .
(٦) المخطوطة : جوفها .
(٧) المخطوطة : إذا .

التعريف والنقد

الحياة الجنسية عند العرب

الدكتور صلاح الدين المنجد

كلما تصفحت معجماً من معجمات لغتنا دهشت من كثرة هذه الألفاظ الدالة على ما نسميه في عصرنا هذا : الحياة الجنسية ، فلا أشأ أن أعرف وضعاً من أوضاع المرأة أو الرجل في هذا الباب إلاّ عرفته ولا أشأ أن أهتدي الى لفظ يدلّ عليه إلاّ اهتديت ، وكنت أسأل نفسي هذا السؤال : هل نجد في لغة من لغات العالم ، قديمها وحديثها ما نجده في لغتنا في هـذا المعنى ، وهل عنيت أمة من أمم هذا العالم بمثل ما عنينا به في الحياة الجنسية ، ولست أعرف السرّ في هذا الأمر ، هل هذا كله راجع الى طبيعة البيئة التي نشأ فيها العرب في ماضي الدهر ، واذا نظرنا في الأخبار التي تتناهى إلينا عن بعض المترفين في هذه البيئة يومنا هذا أدركنا انسجاماً غريباً في هذه العناية بالحياة الجنسية في مواضي الأيام وبواقيها .

فهل من بدعةٍ في جمع أخبار هذه الحياة التي ملئت بها كتب أدبنا القديم ، أفلا تؤلف هذه الأخبار جزءاً عظيماً من هذا الأدب ، في منظوم القول ومنثوره ، أفلا يجب علينا أن نهتمّ بكل جزء من أجزاء هذا الأدب حتى نعرف خصائص طبائعنا وأمزجتنا .

هذا ما فعله الدكتور صلاح الدين المنجد مدير معهد المخطوطات في جامعة الدول العربية ، في كتابه : الحياة الجنسية عند العرب ، فقد استقصى في أخبار هذه الحياة من أيام الجاهلية المتأخرة الى منتهى قرن الهجرة الرابع ، وما أظن أن أحداً جمع ما جمعه في هذا المجال ، فقد تكلّم على الحياة الجنسية في العصر الجاهلي والإسلام وأيام بني أميّة وبني العباس وانحدر الى طبقات الشعب

فتتبع قصص هذه الطبقات في هذا الموضوع ، ثم أشار الى لغتنا الجنسية وقد أعانه مركزه في معهد المخطوطات على الاطلاع على ما لم يطلع عليه إلاّ القليل ممّا يتّصل بوصف الحياة الجنسية .

لم تعوز الدكتور صلاح الدين المنجد الجرأة على هذا التأليف كما لم تعوزه من قبل الجرأة على تأليف كتابه : جمال المرأة عند العرب ، وقد تولّى الدفاع عن عمله بقوة عجيبة من الحجج والمنطق حتى كاد يقطع السبيل على كل من تحدّثه نفسه بشيء من التنطس أو التوقّر ، فقد دافع في مقدمة كتابه عن طبيعة تأليفه دفاعاً لا أكاد أجد فيه مغمزاً من المغامز وأيّد دفاعه بطائفةٍ من الاستشهادات واسعة الآفاق لا أرى فيها مجازاً الى الاعتراض .

ولست أرى حاجة الى أن أذكر أنه وصف أخباره وصفاً سلسلت فيه لغته وسهلت تراكيبه بحيث خلا من كل غمغمة أو جمجمة ، انّا نعيش في عصرٍ أصبحت فيه مواجهة الحياة الواقعة أمراً لا مندوحة عنه وأظن أن الهرب من هذه الحياة الواقعة انما هو من خطأ الأمور ، فلماذا نهرب من أمرٍ نجعله أحاديثنا في مجالسنا وخلواتنا ، ولا سيما اذا خلت هذه المجالس من كل كلفةٍ أو تصنع ، لماذا نهرب من أمرٍ عليه مدار الحياة كلها ، ولست أعني بهذا أنه يلزمنا أن نقصر كل همنا وفكرنا على الحياة الجنسية فلا نهتم بآفاق الحياة الباقية ولا نفكر فيها ، وانما أعني بكل ما قلته أنه لا ينبغي لنا أن نتظاهر بالعفة في أمرٍ من أمورنا ونحن نحلم بهذا الأمر في اليقظة والمنام .

وهل عليّ من حرج اذا قذفت برأي خاص في هذه السبيل ، فانني أعتقد أن أدباءنا في القديم اذا كثرت مؤلفاتهم الأدبية هذه الكثرة مما لا نكاد نجد له شبيهاً في العالم ، فالسبب في وفرة إنتاجهم أو من أسباب هذه الوفرة نشاط غرائزهم ولو كانوا يعانون ما نسميه كبت الغريزة لعميت قلوبهم وصدئت خواطرهم ولما نعم ميراثنا الأدبي اليوم بما ينعم به من مؤلفات منقطعة النظير .

محاضرات عن الأمير شكيب أرسلان

ألقاها الدكتور سامي الدهان

من محاسن هذا العصر أن يُنشأ فيه معهد للدراسات العربية العالية يتولى إحياء عصرنا الحديث من مجامع نواحيه ولا سيّما من ناحيته الأدبية ، فان المعهد يكلّف كل سنة أساتذة أكثرهم من الطراز الأول أن يحاضروا بالموضوعات التي يُخصون فيها .

في جملة هؤلاء الأساتذة الدكتور سامي الدهان عضو مجمعنا العلمي العربي وعضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فقد ألقى في السنة الماضية على طلبة قسم الدراسات الأدبية في المعهد محاضرات تتصل بالأمير شكيب أرسلان .

وقبل أن أشير الى موضوعات هذه المحاضرات لا أجد لي مندوحة عن الإشارة الى عبارة وردت في التصدير ، فقد قال المحاضر حفظه الله : « من الخير أن يتلفت الجيل العربي الصاعد الى سير أعلامه وآثاره ليقتبس من أنوارها الهدى » .

ما أظن أن كلمة القومية رزقت في لغتنا من الشيوع ما رزقته في عصرنا هذا فهي على لسان كل خطيب وكل كاتب وكل شاعر ، فاذا كان هذا العصر انما هو عصر القومية بالنسبة الى العرب فلا ريب في أن إحياء آثار رجال الأدب والفكر في القديم والحديث إنما هو في مقدمة الأعمال التي تزيد في قوة هذه القومية ، فلا أكاد أفهم كيف نتغنى بالقومية ونحن لا نتغنى بآثار رجالنا في الماضي والحاضر ، فالقومية ليست غرس هذه الأيام وانما هي غرس الماضي فهو الذي خلقها وهو الذي تعهّدها حتى زكا غرسها واستطال وحتى أتى أكله

في أيامنا واذا كان لهذا العصر فضل فان فضله في الحرص عليها والفناء في سبيلها .

ولا نستطيع أن نهتمّ بالقومية العربية دون أن نهتمّ بالأمير شكيب أرسلان فالأدب واللغة من أعظم عناصر هذه القومية والأمير شكيب نضّر الله عظامه إمام من أجلّ أئمة هذا الأدب وهذه اللغة ونحن نحمد الله تعالى إذ يسّر لهذا الإمام أستاذاً يهتدي الى خصائص عبقريته فيبعث هذه العبقرية من مدافنها ويلمع الى كل سرّ من أسرارها حتى يكاد الإنسان يحيط بها من كل أطرافها .

لقد تكلم الدكتور سامي الدهان على عصر الأمير شكيب ثم فصّل هذا الكلام فخاض في نواحي حياته وشعره ونثره وأدبه ودفاعه عن العرب والإسلام ومؤلفاته وثقافته بحيث لا يفرغ القارئ من هذه الفصول إلاّ وهو يحسّ بأن الأمير أرسلان ملء سمعه وبصره .

قال المحاضر في تصديره :

« وهذه المحاضرات التي ألقيت لدراسة الرجل الأديب والكاتب المصلح لا تستنفد القول في أدبه وجهده لأنها واسعان أشدّ السعة ولكنها تهدف الى اثارة الدارسين في العناية بهذا السياسي العالم والعكوف عليه والرجوع الى مصادر أخرى كثيرة لم نذكرها في هذه الفصول .. »

إذا كان المحاضر يرى أن هذه المحاضرات لا تفي بالغرض الذي يتصور أفقه الواسع فنحن نرى أنها محاضرات مكثّفة يستطيع القارئ أن يجد فيها ما ينتفع به على أوجز وجه وأقربه وأظن أن المعهد ما لجأ الى أمثال هذه المحاضرات إلاّ لأنها خالية من كل حشو يتعب الذهن ، مشتملة على كل زبدة وهذا هو فضل كثير من المحاضرات التي تلقى في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة .

شفيق جبري

كتاب الشرح والإبانة ، على أصول السّنة والديانة

لابن بطة العكبَري

إن أقوى ما يلتمسه المسلمون من الوسائل لاستعادة مجدهم الباهر ، ومدنيتهم الزاهرة ، هو العَود إلى العمل بالكتاب والسنة ، والاقتباس من نورهما في عصر غَلبت فيه الأثرة ، وركب الناس في سبيل شهواتهم وأطماعهم متن عمياء « ومَن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » ألا وإن الأصلين الكريمين هما مستقرّ الحياة الطيبة للمسلمين ، وهما سبيل النجاة من آفات المدنية الحديثة وغوائلها .

وهذا كتاب الشرح والإبانة على أصول السُّنّة والديانة ، للشيخ الإمام أبي عَبْدالله عُبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن بطة العُكبَري رحمه الله ، وهو كتاب جليل في نحو مئة صفحة ، فيه الدعوة الصادقة التي لا هَوادة فيهـا إلى لزوم الجماعة ، والمباينة لأهل التفريط والإضاعة ، والتزام هَدْي السلف الصالح ، والتحذير من مخالطة أهل البدع ، والبعد عن كل قول مبتدع ، ورأي مخترع ، وهوى متّبَع . ثم بيان حقيقة السنّة وأقوال الأئمة الثقات في مبناها ومعناها . وفي الجملة : إن هذا الكتاب عبارة عن عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ، معزّزاً بالشواهد من القرآن الكريم ، والحديث النبوي وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الأئمة . ولكنه يأتي بالأحاديث معرّاة من الأسانيد ، غير معزوّة الى كتب الصحـاح أو السُّنَن والمسانيد ، وقال (ص ٦) تركت أسانيدها روماً للاختصار ، وليته عزاها إلى مخرّجيها ليبحث عن درجتها من الصحة والضعف . وقد ذكر الفرق الإسلامية ورؤساءها ، وطعن ولعن ، وكفّر ونفّر منهم ، ثم قال (ص ٦٣) : « وقد أجمعت العلماء — لا خلاف بينهم — أنه لا يكفّر أحد من أهل القبلة » . وقال ص ٩١ : « وكل العلماء يقولون في من سميناه : إنهم أئمة الكفر ، ورؤساء الضلالة . » .

وإنما يعرف ما في هذا الكتاب من خطأ وصواب ، من كان واسع الاطلاع على النصوص ، ومناشئ الفرق ومذهبها ، وقربها من الحق أو بعدها عنه ، « وما يذّكّر إلا أولو الألباب » .

وهذه شذرة بقلم المؤلف في وصف كتابه :

« وقد أجمعت العلماء من أهل الفقه والعلم والنسّاك والعبّاد والزهّاد منذ أول هذه الأمة الى وقتنا هذا ، أن صلاة الجمعة والعيدين ومنى وعرفات ، والغزو ، والحج ، والهدي ، مع كل أمير بَرّ وفاجر ، وإعطاءهم الخراج والصدقات والأعشار جائز ، والصلاة في المساجد العظام التي بنوها ، والمشي على القناطر والجسور التي عقدوها ، والبيع والشراء وسائر التجارة والزراعة والصنائع كلها ، في كل عصر ، ومع كل أمير ، جائز على حكم الكتاب والسنة ، لا يضرّ المحتاطَ لدينه ، والمتمسك بسنة نبيه (ﷺ) ظلم ظالم ، ولا جور جائر ، إذا كان ما يأتيه هو على حكم الكتاب والسنة ، كما أنه لو باع واشترى في زمن الإمام العادل بيعاً يخالف الكتاب والسنة ، لم ينفعه عدل الإمام . والمحاكمة إلى قضاتهم ، ورفع الحدود ، والقصاص ، وانتزاع الحقوق من أيدي الظلمة بأمرائهم وشرطهم ، والسمع والطاعة لمن ولّوه وإن كان عبداً حبشياً ، إلا في معصية الله عزّ وجل ، فليس لمخلوق فيها طاعة . اهـ .

وقد طبعت معه ترجمته بالفرنسية مع مقدمته بها البالغة عشرات الصفحات ، وتحقيقاته وتعليقاته وفهارسه المفصلة ، وقد بلغ كله نحو مائتي صفحة (أي ضعفي الأصل) . وكل ذلك بقلم محققه وطابعه الأستاذ هنري لاوست الكاتب المستشرق وأحد أعضاء مجمعنا العلمي بدمشق ، واني أدع وصفه المفصّل لمن يكتب عنه بدقة وعناية . وقد أشار الأستاذ لاوست في ذيل الصفحات الى الاختلاف اليسير الواقع بين النسختين اللتين طبع عنهما ، والى ما زاد أو نقص في إحداهما عن الثانية ، ولكن الإيضاح بالفرنسية دون العربية ، ومثاله

(ص ٨٣) كلمات ، [أدب ، ونظافة ، ووقاية .] فقد كتب في ذيل الصفحة ما يأتي :

D) Membre de phrase effacé dans D; donné par R.

ومثلها اسم الكتاب فقد كتب على أحد الوجهين من كل ورقة بالفرنسية ، وكان الأولى أن يكتب بالعربية .

والآيات الكريمة مشكولة كلها شكلاً صحيحاً ، ولكن سها النظر عن حروف يسيرة نشير اليها : (ص ١٢ س ١) وإنَّ هذا صوابه «وأنَّ» . (ص ١٩/١٣) وعَمَلَ : « وعَمِلَ » . (ص ٦٢/١٥) لَيَغْفُرُ : « لِيَغْفِرَ » . وجاء في (ص ٣٠/٥) إذاً خرجت : إذَا الخ .

وفي الختام نشكر الأستاذ لاوست على ما يخرجه من كتبنا السلفية ، ويعنى به عناية بالغة .

(الأئمة الاثنا عشر)

لمؤرخ دمشق شمس الدين محمد بن طولون ٩٣٥ هـ ١٥٤٦ م (ص ١٤٣)

تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد

بيروت ١٣٧٧ هـ = ١٩٥٨ م

يسرُّنا جدًّا أن يظهر في عالم الطباعة والنشر مثل هذا الكتاب لمفخرة الشام والإسلام شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي (م ٩٣٥ هـ) الذي أحصيت مؤلفاته فبلغت (٧٤٦) كتابا ، وعُدَّ منها ما ألَّفه في التاريخ والتراجم وأسماء الرجال فبلغ (٦٠) مؤلفاً . وهذا الكتاب في تراجم الأئمة الاثنى عشر ، وهو المسمى بـ « الشذرات الذهبية ، في تراجم الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية) وهم : الإمام علي بن أبي طالب ، وولداه الحسن والحسين ، وعلي زين العابدين ،

ومحمد الباقر ، وجعفر الصادق ، ، وموسى الكاظم ، وعلي الرضا ، ومحمد الجواد ، وعلي الهادي ، والحسن العسكري ، والحجة المهدي عليهم السلام والرضوان ، وهم الذين يسميهم الشيعة الإمامية : الحُجَج ، ويعتقدون أنهم معصومون .

وقد قام بتحقيق هذا الكتاب الدكتور صلاح الدين المنجد . فبدأه بمقدمة عدّ فيها مصادر ترجمة ابن طولون ، المخطوطة والمطبوعة فبلغت عشرة ، اثنان منها أجنبيان . ثم أخذ يترجم له منذ حداثة سنه ، الى أن نضج عقله ، وكمل علمه ، واتسعت دائرته في العلوم النقلية والعقلية ، الدينية والطبيعية والرياضية ، وذكر ما عهد اليه به من الأعمال الكثيرة من أيام الصبا إلى أن جاوز السبعين من عمره ، مرتبة على سني حياته . وقد وصف كتابه هذا في التراجم ، وأنه ناقل غير قائل ؛ وذكر المراجع التي جمع المصنف «الشذرات» منها ، وصوّر الورقة الأولى من المخطوطة التي طبع عنها ، ونهج تحقيقه فيها ؛ وأردف النصّ بفهارس للأعلام ، والأماكن والمصادر التي استند إليها .

وقد استهلّ ابن طولون ذكر الأئمة الاثني عشر بقصيدة في وصفهم ، وذكر أسمائهم ، والشوق إلى لقائهم ، من نظم أبي الفضل يحيى بن سلامة الحصكفي (م ٥٥١ أو ٥٥٣) وهو مثل ابن طولون من علماء السنّة . ومن قصيدته هذه قوله :

ومصرع السبط فلا أذكره وفي الحشا منه لهيبٌ يقِدُ
يرى الفرات ابن الرسول ظامئا يلقى الرّدي وابن الرّدىء يَرِدُ
حسبك من هذا وحسب مَن بغَى عليهمُ يومَ المعاد الصّمدُ

ومن (ص ٤٦) بَدَت تراجم الأئمة ، وفي أول كلّ ترجمة ذكر المراجع التي استند إليها الأستاذ الدكتور المنجد في تحقيقاته ، وختم ابن طولون مصنّفه هذا بذكر أسانيده ورواياته المتصلة بهؤلاء الأئمة الأعلام ، أئمة آل البيت عليهم التحية والسلام .

وكلمتي في الختام : هي أن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للإسلام ، وهم المرجوّون لوراثة تلك الوحدة الدينية ، وتجديد ذلك المجد الدارس علماً وديناً وأخلاقاً ، وان أضرّ شيء علينا هو هذه العصبية الموروثة ، والعداوة الممقوتة ، والتفرّق الديني الذميم ، « إنّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء » وبمثل هذا الكتاب والقصيدة في تراجم هؤلاء الأئمة ، من جانب علماء السنة ، ووصف مفاخرهم ومآثرهم ، يُرجى زوال تلك الإحن ، وتوحيد الكلمة ، والتعاون على إنشاء دور للعلم مشتركة ، وإحياء ذكرى أئمة البيت عليهم السلام ، بتجديد هَدْيهم وإصلاحهم ، إن شاء الله تعالى .

وقد بلغ التحقيق والطبع الغاية في الإتقان والإبداع ، فللأستاذ المحقق الدكتور صلاح الدين أطيب الثناء وأخلص الدعاء ، ولداريْ صادر وبيروت أعطر الشكر .

تفسير القرآن الكريم

التحرير والتنوير . المقدّمات ، وتفسير سورة الفاتحة وجزء عَمّ

تأليف المولى الإمام ، الأستاذ الأكبر ، فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور

شيخ الجامع الأعظم وفروعه . منشورات دار الكتب الشرقية . تونس

إنّ خير عمل يقوم به رجال الدين والعلم والإصلاح في هذا العصر ، هو هداية الأمة إلى ما فيه إسعادها ، في معاشها ومعادها ، هداية مقتبسة من نور الحنيفية السمحة والقرآن المجيد ، الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » وتفهيمهم أصول الإسلام الراسخة ، وعقائده الصحيحة ، على وجه يشرب قلوبهم حبّه والعمل به ، وان جميع ما شرعه الله

للناس فهو لخير مجتمعهم الإنساني ، ولدفع الشرور والغوائل عنهم . وناهيك بعصرنا الذي كثر فيه اختلاط الأمم بعضها ببعض ، وتنوعت فيه مطالب الحياة ، واقتبس الشرق من الغرب مزايا ورزايا ، وفتحت أبواب العلوم والفضائل ، كما فتحت أبواب الفجور والمنكرات .

وهذا التفسير الجليل ، لهذا الإمام الكبير ، هو مدد قوي لأولي العلم والعرفان ، والبرّ والإحسان ، فيما يرجون من خير الأمة في هذا الزمان .

استهلّه مؤلفه بمقدمات عشر ، هي من أصول التفسير ومقتضياته ، (فالأولى) في التفسير والتأويل ، وكون التفسير علماً . (والثانية) في استمداد علم التفسير . (والثالثة) في صحة التفسير بغير المأثور ، ومعنى التفسير بالرأي وغيره . (والرابعة) في غرض المفسّر . (والخامسة) في أسباب النزول . (والسادسة) في القراءات . (والسابعة) في قصص القرآن . (والثامنة) في آي القرآن وسوره وترتيبها . (والتاسعة) في أن المعاني التي تصلح جُمَل القرآن للحمل عليها ينبغي أن تعدّ مرادة . (والمقدمة العاشرة) في إعجاز القرآن ومبتكراته . وقد بلغت هذه المقدّمات نحو مائة صفحة . وجاء في المقدّمة التاسعة (ص ٧١) :

إنّ المعانيَ التي تصلح جُمَلُ القرآن أن تحمل عليها ، ينبغي أن تعتبر مرادة ، وضرب لذلك الأمثال ، منها (ص ٧٥ و ٧٦) قوله تعالى : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » ومثله : « استجابوا لله وللرسول » والمراد في الآيتين الامتثال والهداية ، وقد حمل النبي ﷺ الاستجابة على المعنى الحقيقي ، وهو إجابة النداء في حديث أبي سعيد بن المعلّى الذي ناداه الرسول وهو في الصلاة ، فلم يجبه حتى فرغ من صلاته اهـ باختصار . ومن هذا القبيل قوله (ﷺ) لأمّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط حين جاءت مسلمة مهاجرةً إلى المدينة ، وأبت أن ترجع إلى المشركين . قرأ النبيّ قوله تعالى : « يخرج الحيّ من الميّت » .

ويقول كاتب هذه السطور ـ بناءاً على ما تقدَّم ـ : إن ما يأتي هو مما يصلح أن تحمل ُجمَلُ القرآن عليه ، ويعتبر مراداً ، وهو في قوله تعالى : وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة » ولا يخفى أنّ (ما) من ألفاظ العموم عند علماء العربية والأصول ، فقوله (وأعدّوا) هو أمر عامّ موجب على الأمة والدولة بذل اقصى المستطاع في إعداد القوّة والدفاع عن الملة والحوزة ، وقد جاء اللفظ منكَّرا « من قوّة » ليشمل كلّ قوة ، وهي تختلف باختلاف الزمان والمكان . وفي عصرنا تعمُّ بعموم اللفظين ، ـ (ما) استطعتم من (قوّة) ـ القوى البرية والبحرية والجويّة . ومن معناها قوله تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » فهي آمرة بصدّ كلّ عدوان يصدر من المجرمين ، أو الأعداء المحاربين ، وباعداد سلاح من جنس سلاحهم مما اختلفت أنواعه ، وتعدّدت أسماؤه ، وفي صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر أنه سمع النبي (ﷺ) ـ وقد تلا هذه الآية ـ يقول : ألا إنّ القوة الرمي ، قالها ثلاثا ، ولفظ الرمي ـ كما يدلّ على قذيفة السهم والمنجنيق ، فهو يشمل القذائف النارية التي تقذف من المدافع والطائرات وغيرها .

ونحن لا نقول إن النصوص دلت على هذه القوى والأسلحة بأعيانها ، أو سمّتها بأسمائها ، بل نقول : إنها شملتها بعمومها لأنها من أفراد هذا العموم . وفي سورة (يلس) : « وآية لهم أنا حملنا ذرّيتهم في الفُلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » وهذه الآية كما تدلّ على (سفائن بَرّ والسَّرابُ بحارُها) تدل بعمومها على القُطُر الحديدية ، والسيارات البرية ، والسُفُن الهوائية ، وغيرها مما ظهر وسيظهر في عالم الوجود . ومثلها آية « ويخلق ما لا تعلمون » . أفما يصحُّ أن يكون هذا الإيجاز الشامل طريقاً من طرق

الإعجاز ؟ بلى ! وإلاّ فما معنى كون القرآن لكلّ زمان ومكان ، وكونه لا تتناهى عجائبه [١] ؟ .

وإني مورد شذرة من أسلوب الأستاذ في تفسيره ، قال حفظه الله في تفسير : « إياك نعبد وإياك نستعين » : تهيأ لأصحاب هذه المناجاة أن يسموا لتحصيل حظوظهم الشريفة من طلب الهداية ، فانهم لما حمدوا الله وصفوه بصفات الجلال ، ثم أتبعوا ذلك بقولهم : « إياك نعبد ، وإياك نستعين » الذي ظاهره خبر ، وفيه تعريض بالطلب ، لأنّ الحمد ، الحظ فيه للحامد ، بخلاف قولهم : إياك نعبد ، وإياك نستعين ، ففيه ثناء على الله تعالى بأنه المخصوص بالعبادة ، والاستعانة ، وفيه حظّ للعبد بأنه عابد ومستعين ، وانه قاصر على الله تعالى ، فكان ذلك واسطة بين الثناء وبين الطلب ، ـ انتقلوا به من ثناء إلى واسطة ، حتى إذا ظنوا بربهم الإقبال عليهم ، ورَجوا ذلك من فضله ، أفضوا إلى سؤالهم ، فلذلك قالوا « اهدنا الصراط المستقيم » وهذا الوجه هو المناسب لكون الفاتحة ديباجة القرآن الذي جاء ليهدي الطالبين للهدى والرحمة ، فقوله : « إهدنا الصراط المستقيم » هو حظ الطالب خاصة ، وشروع في طلب ما ينفعه عاجلاً وآجلاً اهـ .

كتب شيخ الجامع الأعظم الزيتوني في تفسير هذه السورة ما يقرب من ثلاثين صفحة ، ولا يستكثر هذا على سَعة علمه ؛ وفي التفسير القيّم للإمام ابن القيّم (م ٧٥١ هـ) استغرق الكلام على « إياك نعبد » ما يقرب من خمسين صفحة ، وهل يعجب القارئ من هذا من بعد أن يعلم أنّ هذا الإمام يرى أنّ سِرّ الخلق والأمر والشرائع والثواب والعقاب انتهى إلى « إياك نعبد ، وإياك نستعين » وانه قد شرح « منازل السائرين إلى الله » لأبي اسماعيل الهروي

---

(١) من مقال لنا في إعجاز القرآن ، نشرناه في مجلة المجمع العلمي (م ٣٠ / ٥٦٠ — ٥٧١) .

بثلاثة مجلدات كبار ، وسمى شرحه : (مدارج السالكين ، بين منازل : إياك نعبد وإياك نستعين) ومَن وقفَ على هذه المنازل ، ذكر قول القائل : (لك يا منازلُ في القلوب منازلُ) .

وقد بلغ هذا التفسير ، المسمّى بالتحرير والتنوير ، (٣٧٨ صفحة) . وذكر الأستاذ في مقدمته أهمّ كتب التفسير المطبوعة ، وقال : ولقصد الاختصار أعرض عن العزو إليها ، وقد ميّزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه ، وما أجليه من المسائل العلمية ، وأقوال العلماء مما لم يذكره المفسّرون – بعلامة نجم في ابتدائه ، ونقطة غليظة في انتهائه اهـ .

قلت : لم يعجز الأستاذ الأكبر بحمد الله أن يكون مصداق المثل السائر : (كم ترك الأول للآخر) مدّ الله في حياته ، وبارك في أوقاته . وكنا نودّ أن تكون الآيات الكريمة المفسّرة مشكولة شكلاً تامًّا ، ومثلها آيات الشواهد ، مرفقة بأرقامها وأسماء سورها ، ليسهل الرجوع إليها ، وأن تُعزى الأحاديث النبوية إلى مخرجيها أصحاب الصحاح والسُّنَن والمسانيد ، وأن يُضاف إلى إصلاح الأغلاط في الكتاب ما يأتي : (ص ٨٥ س ٢١) بقصاحته : بفصاحته . (٩٦ / ١٢) لو كان فيهم : فيها . (٢٦٣ / ٢٠) إخواته الصغار وأخواته : إخوته وأخواته . (٣٤٥ / ١) صحيحاتِ مال : صحيحاتِ (٣٤٥ / ٢٣) طرقه : طرَفة (٣٥٧ / ٢٥) المانعون : الماعون .

ولعلّ صديقنا الأستاذ « الفاضل » نجل أستاذنا الأكبر يتولى ذلك كلّه في طبعة ثانية برعاية والده الإمام وعنايته ، إن شاء الله تعالى .

محمد بهجة البيطار

أنا والشعر

للأستاذ شفيق جبري

وهو يشتمل على عشر محاضرات ألقاها المؤلف على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية في معهد الدراسات العربية العالية . طبع في القاهرة سنة ١٩٥٩ ، عدد صفحاته ١٣٥ من القطع الوسط

لم أرَ أحداً من شعراء العرب في القديم والحديث كان أذكر لتجاربه الشعرية من صديقي الأستاذ شفيق جبري . فقد ذكر في هذا الكتاب تجاربه الشعرية بمنتهى الإخلاص والصراحة ، فتكلم على أول عهده بنظم الشعر ، وعلى تجربته الشخصية في الشعر الوطني والشعر الغنائي والمراثي ، وعلى مذهبه في النظم من حيث وحدة القصيدة وصيغتها والفكر الرياضي في أدبنا ، وختم محاضراته هذه بالكلام على سحر العبقرية الفنية بوجه عام ، وعلى مستقبل الشعر بوجه خاص .

أما أول عهده بالشعر فيرجع الى سنة ١٩١٣ وهي السنة التي ترك فيها المدرسة الثانوية وانصرف الى مطالعاته الخاصة ، فحفظ شعر المتنبي وطائفة من شعر المعلقات ، وقرأ شعر البحتري والشريف الرضي ، وعاشر فريقاً من الأساتذة الذين تتفاوت أذواقهم في فهم الشعر النقي الخالص كخير الدين الزركلي ، والشيخ فؤاد الخطيب والشيخ رضا الشبيبي وغيرهم ، وتدرج في ذلك حتى أكسبه الحفظ ملكة شعرية راسخة ، فنشر أولى قصائده وهو دون العشرين من سنه ، وهي قصيدة في الرثاء قلّد فيها رثاء الشريف الرضي لأبي اسحق الصابي . ولا عيب في ذلك فإنّ المتنبي والبحتري كانا يقلدان أبا تمام . والتقليد كثيراً ما يقع في أول نشأة الشاعر ، ثم يأتي بعده الاستقلال والانفراد . ثم انه لما فرغ من هذه القصيدة بحث عن مصدر آخر يستلهمه الشعر فرأى أن يستعين بنظرات المنفلوطي لعله يجد فيها ما يلهمه شعراً ، فوقع على أول نظرة من نظراته وعنوانها (الغد)

فنظم قصيدته (خيال الغد) ضمّنها بعض معاني المنفلوطي ولكنه لم يتقيد فيها بكل ما جاء في نظرته · ثم بحث عن مصدر آخر يقتبس منه فكرة جديدة فوجد في مختارات من الأدب الفرنسي قطعة لِ (ماسيون) عنوانها الزمان فألهمته موضوع قصيدة لم يأت فيها بشيء مما جاء في تلك القطعة ، ولكنه وصف فيها الزمان على النحو الذي ألفه شعراؤنا في الماضي · وهكذا كان شفيق جبري في أول عهده بالشعر يقتبس أفكاره من الكتاب والشعراء ويصوغها في قالب شخصي يبتكر صوره كما يشاء بحسب ذوقه وفنه ، ويفرغها في ألفاظ موسيقية جميلة يعنى برصفها عناية بالغة ، ولا غروَ فان حكم المعاني كما يقول الجاحظ « خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطة الى غير غاية وممتدة الى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ومحصلة محدودة » وانما تحيا تلك المعاني في الألفاظ ، فهي التي تجعل المجهول معروفاً والوحشي مألوفاً ، وعلى قدر وضوح الألفاظ يكون إظهار المعنى ·

هذا ما ذهب اليه شفيق جبري في شعره الوطني وشعره الغنائي وفي مراثيه · لقد كان شعره الوطني في أول عهده تحريضاً على الأجنبي ، وحثاً على الثورة ، ودعوة الى القومية العربية ، فانقلب بعد ذلك الى شعر غنائي يتغنى فيه الشاعر بجمال بلاده تارة ، ويلتجئ الى أحضان الطبيعة تارة ، وينفس بذلك كله عن النار المتأججة في قلبه بشعر هادئ في ظاهره حامي في باطنه موسيقي في ألفاظه · فلم يكن التجاؤه الى الطبيعة إلا أسلوباً في التعبير عن ألم البلاد ، والا سبيلاً الى النوح والتغني بأشجان الوطن وآماله · انظر الى قصيدته التي قالها في نوح العندليب على أثر أزمة عاطفية :

دع العندليب على غصنه يردد على الغصن أحزانه

فان هذه القصيده التي صور بها شعوره وعاطفته وآلامه الشخصية انقلبت في نهايتها الى شعور وطني بكى فيه الشاعر وطنه فختمها بقوله :

أتبكي العنادل أوطانها ولا يندب المرء أوطانه

لقد غلبت هذه النزعة الوطنية على نفس الشاعر فكان كلما أتيح له الإفصاح عن شعوره الوطني في حفلة من حفلات التكريم أو التأبين تغنى بوحدة العرب وقوميتهم ، فكأنَّ غايته الأولى من شعره التعبير عن آلام بلاده لا عن آلام نفسه ، ومع انه ليس من الضروري أن يحبس الشاعر نفسه على التغني بالوطن ، ولا أن يتكلم على نزعاته الخاصة ويصور أفراحه وأحزانه الخاصة دون أن يصور آلام بلاده ، فإنَّ الفرص التي أتيح لشفيق جبري فيها الإفصاح عن حبه وخوالج نفسه كانت قليلة جداً في حياته . لقد أحب الطبيعة حتى ملكت عليه مشاعره ، ولكنه لم يعط هذه الطبيعة التي أحبها ما تستحقه من العناية ، بل كان اذا صور جبالها وسهولها وأنهارها وبحارها وأوديتها وغاباتها لا يصور إلاَّ حالة وطنه النفسية والاجتماعية ، فلم يستطع أن ينظر الى الطبيعة نظرة مجردة ، وانما كانت الطبيعة سبيلاً الى تصوير شعوره الوطني .

وكما أحب شاعرنا الطبيعة فكذلك أولع بالمرأة ووقع في أزمات عاطفية عنيفة ، ولكن أثر ذلك في شعره قليل جداً . لقد نظم في المرأة عدة قصائد ، ولكن المرأة التي تخيلها في هذه القصائد لم تكن إلا ذلك المخلوق الضعيف الذي حرمه المجتمع أبسط حقوقه الطبيعية ، فكان يرمز بمقام المرأة في المجتمع الى مقامها في قلبه ، ويكتفي بهذا الأسلوب الرمزي للتنفيس عما يشعر به . ولعل ذلك ان يكون من تأثير الحياة الاجتماعية في نفسه ، أو من فرط حسه ، أو من شدة شعوره الوطني . لم يحب أحد أمه مقدار حبه لأمه فشغل حبها كل ناحية من نواحي قلبه فلما توفاها الله لم يقل فيها الا أربعة أبيات ، ومن أغرق في الحزن غرقت نفسه فيه فلم يجد في اللغة ألفاظاً يعبر بها عنه ولا في الشعر صوراً تسكن لواعج قلبه .

أما القصائد التي رثى بها شفيق جبري طائفةً من رجال الأدب والشعر والسياسة فقد حاول أن يبرز فيها خصائص كل رجل على حدة بحيث تكون هذه الخصائص عبرة للناس . فجاءت كل قصيدة من هذه القصائد مشتملة على صور لا تنطبق إلاَّ على الرجل الذي قيلت فيه ، ومشتملة في الوقت نفسه على

أطوار متصلة بالصورة الأصليه . فاذا رثى شاعراً كولي الدين يكن اغتنم الفرصة للتغني بمنزلة الشعر في الأمم ، وإذا رثى فوزي الغزي تكلم على ثورة الشام وبطولاتها ، واذا رثى (سعد زغلول) تكلم على الزعامة وأثرها في توحيد كلمة الشعب . وأنت اذا قرأت قصيدته في رثاء حافظ ابراهيم رأيت أن الصفة البارزة التي صورها في رثائه هي بؤس حافظ ، واذا قرأت قصائده في المتنبي والمعري وشوقي رأيته يحاول أن يصور حياة كل واحد منهم من جميع نواحيها . فالمتنبي في نظره شاعر مفرط الحس شديد القلق والاضطراب ، همه ادراك المعالي والابتعاد عن اللذات الخسيسة ، والمعري شبيه بالمتنبي في فرط حسه ، ولكنه متقشف في حياته زاهد في الدنيا الخ .

ولم يكن لشفيق جبري شرط خاص في نظم الشعر ، فقد نظم الشعر في أمكنة مختلفة وشروط مختلفة ، ولكن المهم كما يقول ان يهتدي الشاعر الى مطلع جديد ، فاذا جاء المطلع على النحو الذي يرضيه هانت عليه القصيدة . فالمطلع في نظره هو مفتاح القصيدة ، ولكنه لا يكفي للايحاء بجميع المعاني التي يحتاج اليها الموضوع ، فلا بدّ إذن من الفكر لتصور بنية القصيدة تصوراً كاملاً . لقد كانت قصائد شفيق جبري الأولى بالرغم من تماسك الأجزاء في مقاطعها خالية من التخطيط والتنسيق ، لأنها كانت تعبر عن الثورة المتأججة في قلبه ، فكانت نفسه تثور فتأتي القصيدة بحسب هذه الثورة . أما قصائده الأخيرة فقد تخيل فيها أجزاء الموضوع ورتبها ترتيباً منطقياً فجاءت مشتملة على وحدة تامة لا تجد فيها بيتاً يحسن تقديمه أو تأخيره ، وهذا لعمري فتح جديد في الشعر العربي ، لأن أكثر شعرائنا في الماضي لم يعتنوا بوحدة القصيدة ، ولا خطر ببالهم تنسيق أجزائها ، مع أن التنسيق ضروري لتحديد أجزاء الموضوع واستيعاب جميع أقسامه . ومتى رتب الشاعر هذه الأجزاء استطاع أن يلم في كل جزء منها بالصورة اللازمة له ، ولا يزال ينتقل من جزء الى جزء حتى تظهر وحدة القصيدة في أكمل وجه .

أما مذهبه في صيغة القصيدة فيقوم على تصور الموضوع وجمع الصور وتخمير الأفكار وانتقاء الألفاظ ، فاذا تم له ذلك بحث عن البحر المناسب لمعاني القصيدة ، فاذا اهتدى الى هذا البحر فتش عن القافيــة المناسبة ، ثم اذا اجتمع له البحر والقافية بحث عن المطلع المناسب ، وفي هذا البحث كما ترى جهد فكري ، نعم ان الشاعر قد يبلغ هذه الأمور عفواً كما حدث ذلك لشفيق جبري في أول عهده بالشعر ، ولكنه لا يبلغ الكمال الا بهذا الجهد الفكري المبـدع . لا يعرف هذا الجهد إلا من يعانيه ، فهو الذي يخمر الأفكار ، وهو الذي يفجر ينابيع الصور ، ويكشف عن تناسقها العميق وانسجامها الدقيق . نعم ان الشاعر في أول عهده لا يفكر في التنقيح والتنسيق ، ولكنه اذا أدرك سر الإبداع فطن لما بين الأفكار من تناسب هندمي ، ولا يزال يفكر في هذا التناسب حتى يحذف المنافر والمنافي . أما العناية بالألفاظ فهي ضرورية للشاعر في كل مرحلة من مراحل شعره ، لأن الألفاظ كما يقول شفيق جبري هي سر الشعر وروحه . فهي التي تبرز صوره وتظهر محاسنها . ان بينهـا وبين الصور صلة روحية عميقة ، ومهما تكن الصورة جميلة فاذا لم ترزق لفظاً جميلاً يشاكلها فيضمها ويلمها فقدت الشيء الكثير من جمالها .

وسهولة اللغة في نظر صديقنا الشاعر أساس البلاغة ، قال : « لقد شبهوا هذه السهولة بضياء الشمس ، فقد يبدو شعاع الشمس للعيون أبيض صافياً ، ولكنا اذا حللنا عناصره وكشفنا عن الطيف الشمسي وصلنا الى ألوانه الزاهية العجيبة ، ألا أن هذه الألوان قد اختفت وراء بياض الشعاع الناصع ، وكذلك سهولة اللغة فانها تخفي وراءها عناصر البلاغة التي أنشأت هذه السهولة ومهدت السبيل اليها » ، (ص ٩٨) فوراء الألفاظ اذن عدد لا نهاية له من الصور ، والإبداع الفني انما هو إظهار الصور المخزونة في الذهن بواسطة الألفاظ المتخيرة . كأن اللفظ الموسيقي هو الذي يقدح بالذهن فتخرج منه النار ،

ولولا ذلك لما ظهرت الصور ، ولما رأينا ألوانها المتسقة العجيبة . وهذا طبيعي في الشعر ، لأن الشاعر لا ينتقل من المجرد الى المحسوس ، بل ينتقل من المحسوس الى المحسوس ، حتى اذا تجلى له المحسوس بجميع صوره وألوانه ارتقى منه الى فكرة عامة مجردة تحيط بذلك المحسوس احاطة تامة . وجمال اللفظ في الشعر انما يكون باقترانه بلفظ آخر يناسبه ، فلا تدب فيه الحياة الا اذا انتزع من موضعه في المعجم وقرن في الشعر أو في النثر بلفظ يماثله .

ولكن كيف يهتدي الشاعر الى الصورة ، فهل تجيئه الصورة ثم يجيئه اللفظ أم اللفظ هو الذي يوحي اليه بالصورة . يقول شفيق جبري في الجواب على هذا السؤال إن الألفاظ هي التي تستدعي الصور ، وهذا أمر مجرب يعرفه علماء النفس كما يعرفه الشعراء ، ولكن كثيراً ما تجيء الصور والألفاظ معاً دون أن يفصل بينها زمان ، وسبب ذلك ارتباط الصورة باللفظ ارتباطاً محكماً . وما قيمة الصورة التي لا نستطيع أن تدل عليها بلفظ يناسبها ، إنها لا تثبت في الذهن بل تبقى غامضة كالليل متموجة كالسحاب .

فأنت ترى أن كتاب (أنا والشعر) الذي أتحفنا به صديقنا الشاعر يشتمل على تجارب جميلة واعترافات صادقة وملاحظات نفسية عميقة . وهو أول كتاب نجد فيه شاعراً عربياً يحلل تجاربه الشعرية ، ويكشف عن أسرار فنه بمنتهى الصدق والصراحة ، ومن حسن ذوق المؤلف انه مثل لنا تجاربه الشعرية بأشعار متخيرة ، فجاءت هذه الأشعار معبرة عن فنه أحسن تعبير . بيد أن تجارب شفيق جبري كثيرة لم يتسع كتابه لذكرها كلها ، وقد رزقه الله من قوة الخيال وحسن التعبير وصدق العاطفة ودقة التصوير ما جعله مصوراً حاذقاً يقف من تجاربه الشخصية موقف العالم من حوادث الطبيعة ، فنرجو أن تتاح له الفرصة لتأليف كتاب جديد يضمنه تجاربه في النثر ، ولا شك أننا سنجد في قراءة هذا الكتاب الجديد ما وجدناه في مطالعة الكتاب الأول من لذة ومتعة وفائدة .

جميل صليبا

تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك

تأليف عارف العارف

طبع الكتاب بمطبعة دار الأيتام الإسلامية الصناعية بالقدس ، في (٢٤٨) صفحة من القطع الوسط

نشر الأستاذ المؤلف قبل سنين كتاب (تاريخ الحرم القدسي) ثم ظهر له فيما بعد نواح جديدة لا بد من استجلاء غوامضها ، والتوسع في دراساتها ، على ضوء ما انتهى اليه تحقيقه ، وما توصل اليه في هذا البحث غيره من المؤلفين والباحثين ، فأعاد طبعه باسم جديد وهو (تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك) ، وأضاف اليه لمحة من تاريخ بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .

يحتوي الكتاب على خمسة فصول ، تناول في الأول تاريخ القدس ، وبحث في الثاني عن قبة الصخرة المشرفة ، وخص الفصل الثالث بالمسجد الأقصى المبارك ، ووصف في الرابع الحرم القدسي في يومه وأمسه ، وذكر في الخامس المعتقدات التي نشأت في تكريم هذه الأمكنة المقدسة والأساطير التي نسجت حولها ، وما قيل في استنكار رجال الدين لأكثرها .

وقد دعم أبحاثه بنصوص نقلها عن السلف أو بما عثر عليه منقوشاً على جدران الحرم ، كما اعتمد على آراء أهل المعرفة وذوي الاختصاص .

وقد جاء هذا الكتاب على أكمل وجه بدقة أبحاثه وسعة محتوياته . جمع فيه المؤلف زبدة الأقوال والأبحاث والدراسات ، ودون معلوماته الشخصية التي رافقها وشارك الرأي فيها ، بحكم منصبه آنذاك في رئاسة بلدية مدينة القدس .

ومن الملاحظات البسيطة التي عثرت عليها في ضبط بعض الأعلام ويحسن

التنبيه اليها وإن كانت لا تخفى على القارئ ، منها : في (ص ٢٥) المرقال بن هشام وصوابها المرقال هشام بن عتبة ، والمرقال هو لقبه . وعروة بن مهلهل بن زيد الخيل ، صوابها عروة بن زيد الخيل بن مهلهل ، ومسبب الفزاري صوابها مسيب الفزاري .

تشهد أبحاث الكتاب عن تمكن المؤلف من موضوعه ، فنشكر له جهده وعنايته .

٥٥ ألف كيلو متر على دراجة نارية

للرحالة العربي عدنان حسني تللو

كتاب في (٢٨٩) صفحة من قطع الوسط مزدان بالصور والمخططات

طبع في مطبعة الإنشاء بدمشق

إن حب الأسفار للاستطلاع أو الكسب هو خلق أصيل في نفوس العرب ، نجده عند حضرهم وبدوهم على حد سواء . وأكثر ما تتجلى هذه النزعة عند عربان البادية ، فهم أبداً على سفر ، لا يستقر لهم قرار ، لا صيفاً ولا شتاءً ، فقد آثروا هذه الحياة المشردة بقرها وحرها وشظف عيشها ، على حياة الحضر وسكونها ويسر معاشها . وقد فرض الله تعالى على من له قدرة من عباده أن يسير في الأرض لينظر ويعتبر ، ويعلم غيره بما علم . وأطنب شعراء العرب بمدح الخلفاء والملوك والأمراء بالسير في البلاد ومعرفة الأمصار ، وتنافس بذلك رواد السلف ، كابن فضلان ، وابن جبير ، والبكري ، والهمداني ، وابن بطوطة ، وياقوت ، فخلفوا آثاراً خالدة بما شاهدوه في رحلاتهم وحصيلة تطوافهم .

وجاء حين من الزمن خمدت فيه الهمم ، وزهد الناس بالرحلات العلمية على

يسرها في عصرنا ، واستعاضوا عنها بأسفار المتعة والترويح عن النفس ، كأن ليس لهم قلوب تعقل ولا عيون تبصر ، يستأثرون بمشاهداتهم ، ولا ينتفع بها أحد .

وأراد صاحب هذه الرحلة الشاب الجريء السيد عدنان تللو أن يصل ما انقطع من سيرة السلف ، وأن يكون من الرواد العاملين ، فضرب بقدح معلى باقدامه وسمو غايته ، وحزم أمره على مغامرة ، وهو لا يملك من أسبابها إلا عزيمة الشباب وقوة الإيمان ، فطاف بوسائله الخاصة على دراجته النارية بلاد الأردن ، والعراق ، وايران ، وباكستان ، والهند ، وأفغانستان ، والاتحاد السوفياتي ، وفنلندة ، والسويد ، والنرويج ، والدانمرك ، وألمانية ، وبولونية ، وتشيكوسلوفاكية ، وهنغارية ، والنمسا ، وهولندة ، وبلجيكا ، وسويسرة ، وايطالية ، واسبانية ، والبرتغال ، والمغرب العربي ، وتونس ، وليبيا . وكان حيث حل ، خير رسول ، وأفضل ممثل للشباب العربي الوثاب ، ورجع الى بلده مزوداً بأطرف الأخبار عن رحلته ، أودع حوادثها هذا الكتاب ، وقد وصف فيه طبيعة البلاد التي زارها ، وحدثنا عن تقاليد سكانها ، وروى ما لاقاه من ترحيب واعراض ، وما كابده من عسر وعناء . وقد وجدناه بعد عودته من هذه المشاق أمضى عزيمة ، وأقوى شكيمة ، عما كان عليه قبل هذه الرحلة ، وهو مصمم على مواصلة رسالته لتعريف العالم بالبعث العربي الوثاب .

جعفر الحسني

الإمام الصادق ملهم الكيمياء

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

تفضل المجمع العلمي الموقر وكلفني بالتعريف بهذا الكتاب الذي سبق لي أن اطلعت على بعض محتوياته حين أهداني مؤلفه نسخه من الطبعة الأولى ·

ولما كنت قد قرأت النسخة الأولى بإمعان وتلا ذلك سفرات الى مناهل العلم في القاهرة تمت خلالها مناقشات في هذا الموضوع بيني وبين المرحوم الدكتور عبد الحميد أحمد عضو جمعية تاريخ العلوم عند العرب فقد تكوّنت لدي فكرة جيدة عن هذا الكتاب خرجت منها بأن كل ما ذكر عن علاقة الإمام جعفر الصادق بالكيمياء وهم لا صحة له وأن الكتب التي نسبت اليه ألفت بعد وقت طويل من وفاة الإمام ·

وان جابر بن حيان نفسه لم يصرح بوضوح أنه ألهم الكيمياء من الإمام الصادق بل كل ما هنالك ، ان صح وجود علاقة بينهما ، إلهامات روحيـة ودينيه لا تمت للكيمياء بصلة ما ·

والطبعة الثانية من الكتاب حوت مقدمة كبيرة استعرضت تقدم العلوم عند العرب وتناولت أبحاثاً يشكر عليها المؤلف كعرضه لنظرية روسكا وتدقيق هوليارد · ولا أظن المؤلف إلاّ مشاركي في الرأي بأن التعرض لتشيع أبي العلاء وتصوف جابر كلها بعيدة كل البعد عن الغرض من وضع الكتاب وموضوعه ·

وعلى كل فللمؤلف الشكر على الجهود التي صرفها لنشر هذا الكتاب ولعل من يتلوه ينتفع ببعض ما به ·

حسن السقا

آراء وأنباء

الدكتور عبد الوهاب عزام

١٨٩٤ ــ ١٩٥٩

اغتالت المنية علماً من أجل أعلامنا ، هو الزميل الراحل الدكتور عبد الوهاب عزام ، جزعت له نفوس عارفي فضله وأخلاقه ، وعم الأسى الأوساط العلمية في دنيا العرب ، فقد ترك المرحوم بموته في الثقافة العربية صدعاً قد يطول جبره ، انفرد بين العرب المعاصرين باختصاص زهد به غيره ، وقد دأب على دراسة الثقافة التركية والفارسية والاردية فتبحر في آدابها وتاريخها ، ونقل الى العربية روائع آثارها .

وكان رحمه الله فضلاً عن علمه الغزير ، يتحلى بالشمائل الطيبة ، والأخلاق الحميدة ، والمروءة الصادقة ، وكان وفياً لزملائه ، أميناً لعلمه ومترفعاً عن استثماره .

وهو عضو بالمجمع اللغوي المصري والمجامع العلمية في سورية والعراق وايران .

ولد المرحوم سنة ١٨٩٤ في شوبك الغربي في الاقليم المصري وأسرته ليبية الأصل وتخرج بمدرسة القضاء الشرعي ، وعين مدرساً بها سنة ١٩٢٠ ، ثم عهد اليه الإمامة في السفارة المصرية في لندن ، ونال سنة ١٩٢٣ إجازته في الآداب من الجامعة المصرية ، والتحق سنة ١٩٢٤ بجامعة لندن ودرس اللغة الفارسية ، فنال شهادتها بدرجة أستاذ في الآداب سنة ١٩٢٧ . ثم عين مدرساً في جامعة فؤاد الأول ، وتولى فيها تدريس الأدب العربي واللغة الفارسية والتركية ، ونال شهادة الدكتوراه برسالة عن الشاهنامة . ولما أنشيء معهد اللغات

الشرقية في جامعة فؤاد الأول تولى رياسته ، ثم صار عميداً لكلية الآداب سنة ١٩٤٥ .

ثم انتقل من أسرة التعليم الى السلك السياسي الخارجي فعين سفير مصر في المملكة السعودية وباكستان ، ولما تقاعد من مناصبه الحكومية استدعته حكومة المملكة السعودية لأجل تأسيس جامعة في الرياض حيث توفاه الله وهو على رأس عمله وبأتم نشاطه .

كان رحمه الله يجيد اللغة الفرنسية والانكليزية والفارسية والاردية والتركية ، وزار بلاد فرنسة وبريطانية وايطالية وسويسرة وبلجيكا وتركية وباكستان وايران وجميع الأقطار العربية . وله زهاء عشرين كتاباً في التاريخ والآداب العربية والفارسية والتركية والاردية ، بعضها مترجم من الفارسية والاردية منها :

١ — ترجمة كتاب الشاهنامة الى العربية .

٢ — كتاب التصدق وفريد الدين العطار .

٣ — كتاب فصول المثنوي .

٤ — خلاصة تاريخ الأدب الفارسي .

٥ — ترجمة جهار مقالة الى العربية .

٦ — ذكرى أبي الطيب المتنبي بعد ألف عام .

٧ — نشر ديوان المتنبي مع مقدمة وافية .

٨ — نشر كتاب كليلة ودمنة مع تعليق ومقدمة وافية .

٩ — كتاب الرحلات .

١٠— مقالات أدبية ومنظومات .

١١— نشر رسائل الصاحب بن عباد .

١٢— الشوارد .

١٣ — المثاني .

١٤ — مجالس السلطان الغوري .

١٥ — محمد اقبال .

١٦ — مذكرات في تاريخ الأمة العربية .

١٧ — مهد العرب .

١٨ — موقع عكاظ .

وغير ذلك من المؤلفات والمحاضرات والمقالات في المجلات ، وعزاؤنا بالفقيد الراحل ما خلفه لأمته من آثار خالدة تحيي ذكراه رحمه الله رحمة واسعة وضاعف حسناته .

علاوة خامسة في فوائد تاريخية وعلميّة

من حياة : شيخ الإسلام ابن تيمية

كنت نشرت فصولاً في مجلدات مجمعنا العلمي بدمشق في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، ثم طبعت تلك الفصول مستقلة في الجزء الثاني من محاضرات المجمع العلمي الذى طبع (سنة ١٣٧٣هـ = ١٩٥٤م) ص ٦١ — ١٢٩ من بعد أن حاضرت فيها في قاعة المجمع ؛ وهذه الفصول والعلاوات أولها : تاريخي علمي تضمن دفع الفرية التي وردت في رحلة ابن بطوطة ، عن حديث نزول الرب كلّ ليلة إلى سماء الدنيا ، وأنه قال ــ وهو يخطب الجمعة على منبر دمشق ــ كنزولي هذا ، ورددناها بثلاثة أمور : الأول أن ابن تيمية لم يكن خطيب المسجد ، بل كان واعظاً ومدرساً . والثاني أن ابن بطوطة لم يره ولم يجتمع به ، إذ كان وصول ابن بطوطة إلى دمشق في أواخر شهر رمضان سنة ٧٢٦ هـ وابن تيمية دخل قلعة دمشق في أوائل شعبان (سنة ٧٢٦ هـ) ولبث فيهـا الى أن توفاه الله تعالى سنة ٧٢٨ هـ . والثالث أنه ذكر حديث النزول في مواضع من كتبه ولم يقل فيها كنزولي هذا .

العلاوة الثانية : في اختياراته ومنها قضية الطلاق في الإسلام .

(٣) ترجيحه لمذهب السلف في أمر المعتقد .

(٤) تحقيقه لوحدة الأديان ، وأخوة الرسل الكرام ، عليهم السلام .

ثم رأيت لبعض مؤرخي عصرنا المحققين كتاباً مستقلا في حياة الشيخ ، وفيه مباحث تاريخية علمية دينية ، تتعلق بسيرته رحمه الله وفيها وهم واشتباه ، فكان عليّ أن أنبه إلى ذلك ، لتكون حياته الطيبة خالية من الشوائب التي علقت بها ، وإن لم يكن معصوما ، ولتكون (علاوة خامسة) على العلاوات الأربع التي نشرت مع المحاضرة

(ص ٦١ — ١٢٩ ج ٢ من محاضرات المجمع العلمي) فمنها دعوى منعه زيارة القبور ، لا سيما قبور الصالحين ، وأعظمها قبور الأنبياء والمرسلين ، لا سيما خاتم النبيين ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم . وقد أجاب عن هذا بقلمه ، ودفع الفرية بنفسه ، فقال : « إن السفر إلى مسجده ، وزيارة قبره ـ كما يذكره أئمة المسلمين في مناسك الحج ، ـ عمل صالح مستحب .. بل هذا من أفضل الأعمال الصالحة ، ولا في شيء من كلامي وكلام غيري نهي عن ذلك ، ولا نهي عن المشروع في زيارة قبور الأنبياء والصالحين ، ولا عن المشروع في زيارة سائر القبور ، بل قد ذكرت في غير موضع استحباب زيارة القبور كما كان النبي ﷺ يزور سكان البقيع وشهداء أحد ، واذا كانت زيارة قبور عموم المؤمنين مشروعة ، فزيارة قبور الأنبياء والصالحين أولى »[1] .

وقد ذكر في كتاب التوسل والوسيلة كيفية الزيارة وأدبها ، وكذا في كثير من رسائله ، وإنما منع أمرين اثنين : الزيارة الشركية المبتدعة ، وشدّ الرحل لمجرد الزيارة (أي بلا نية شدّ الرحل الى المسجد النبوي والصلاة فيه) .

وقد وهم بعض المؤرخين فظن أنّ الروضة هي بيت السيدة عائشة الذي دفن فيه النبي (ﷺ) أو هو جزء منها ، والصواب أنها بين منبره وبيته كما هو نصّ الحديث الصحيح : « ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة » والصلاة فيها مطلوبة ، ولا دخل للقبر الشريف في مكان الصلاة أصلاً ، ولم يكن بيت أم المؤمنين مصلّى للناس في عهده (ﷺ) فكيف بعد أن دفن فيه ، وقد قال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

اتُّهم شيخ الإسلام بتشبيه الله تعالى بخلقه أو التجسيم ، على كثرة ردوده

(١) ص ١٤ و ١٥ من الجواب الباهر في زوار المقابر لابن تيمية .

على المشبهة والمجسّمة ، كما كان يردّ على القدرية والجهمية والمعتزلة وغيرهم من المؤولة والمعطّلة ، وهو لا يزيد على ما وصف تعالى به نفسه ، في مثل قوله : «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير» فقد أثبت في هذه الآية لنفسه ذاتاً وصفات ، وفيها التنزيه عن المماثلة :

لا ذاته تشبهها الذواتُ ولا حكت صفاتِه الصفاتُ

وهو سبحانه كما وصف نفسه بقوله : «رفيع الدرجات ذو العرش» أي إنه سبحانه أرفع المخلوقات ذاتاً وصفات ، وأعظمها شأناً ، وأعزها سلطاناً ، وكل شيء محتاج إليه ، وهو مستغنٍ عما عداه ، وهو مالك العرش ومدبّره ، فهو مستولٍ على عالم الأجسام ، وأعظمها العرش ، كما هو مستول على عالم الروحانيات وهي مسخرة له .

ألا وإنّ هذا العصر الذي نعيش فيه ، هو عصر الصعود والارتفاع ، عصر الأقمار الصناعية والصواريخ ، يتبارى الشرق والغرب في إطلاق هذه الكواكب المصطنعة في الفضاء ، فترتفع في الساعة الواحدة ألوفاً كثيرة من الأميال ، ولكنها مهما علت فلن تبلغ السموات العلى ، لأنّ بيننا وبينها ملايين الأميال ، فأين سرعة هذه الأقمار الأرضية والصواريخ من سرعة هذا الضوء أو النور الإلهي «الله نور السموات والأرض» .

وقد صرّح بعض أقطاب الفلك بأن سرعة الضوء ، قد قدّرت بثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية ، وأن الضوء في سرعته هذه يطوف المحيط الأرضي الاستوائي ـ وهو أطول محيط من الأرض ـ يطوفه سبع مرات ونصف مرة في ثانية واحدة ، وضوء الشمس يصل الى الأرض بثماني دقائق واثنتي عشرة ثانية ، على بعدها الشاسع عنا البالغ (١٤٩) مليون كيلومتر ، على أن هذه المسافة بيننا وبين الشمس لا يقطعها قطار سرعته (٩٠) كيلومتراً في الساعة إلاّ بمدة (١٧٧) سنة . والله تعالى عال فوق سمواته ومخلوقاته ، لا يحل فيهم ،

ولا يمتزج بهم ، وعلمه وسمعه وبصره وقدرته مدركة لكل شيء ، وذلك معنى قوله : «وهو معكم أينما كنتم» .

قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سألت أبي وأبا زرعة رحمهما الله تعالى عن مذهب أهل السنة في أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ، فقالا : أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً ومصر وشاماً ويمنا ، فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه بائن من خلقه بلا كيف ، أحاط بكل شيء علما .

قال ذلك العالم المؤرخ الذي أشرنا اليه في صدر هذا الحديث : هل العبارات المروية عن أولئك الأئمة الأعلام صريحة في إثبات جهة العلو والاستواء بمعنى من جنس معنى الجلوس ؟ إن العبارات المروية عنهم الى التفويض أقرب منها إلى التفسير وإبداء الرأي في معنى معيّن .

والجواب أنا قدمنا بعض العبارات الصريحة لأولئك الأئمة الأعلام في إثبات صفة العلوّ المطلق (لا النسبي) لله تعالى على خلقه ، وأنه عال على عرشه ومستغن عنه كاستغنائه عن سائر المخلوقات ، فلا جلوس ولا مماسة ولا استقرار .
وأما التفويض ففي الكيفية ، لا في أصل المعنى ، كما اشتهر عن الإمام مالك قوله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول » أي ان معنى (الاستواء) معلوم وهو العروج والصعود والارتفاع ، ولكن الكيفية مجهولة .

وحسبنا في ذلك قصة المعراج وهي متواترة ، وفيها تجاوز النبي (ﷺ) السموات سماء سماء ، حتى انتهى الى ربه تعالى ، فقربه وأدناه ، وفرض عليه الصلوات .

وقد اعتذر هذا المؤرخ عن دراسة كتاب (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) لكيلا يشغله عما هو فيه من دراسة فقه الإمام .

وأقول : إني قد درست هذا الكتاب دراسة مفصّلة ، وكتبت عنه في مجلة مجمعنا العلمي فصلاً مطوّلا ، في جملة الفصول التي نشرتها عنه في المجلة في بضع سنين .

وأما الاستغاثة بالحضرة المحمدية بعد الموت فقد أجاب عنها الإمام ابن تيمية في كتاب التوسل والوسيلة بقوله :

ولو كانت الاستغاثة بعد الموت ثابتة ثبوتها في الحياة ، لطلب من النبي (ﷺ) أن يقوم بالإمامة في الصلاة والإمارة في الغزو ، وإرسال البعوث وعقد الألوية ، والشعائر في الحرب ، وإقامة الحدود ، وإيصال الحقوق ، وقسم المواريث والغنائم ، والفيء والصدقات الخ [١] .

وأقول ـ تأييداً لما ذكره شيخ الإسلام : إن الصحابة الكرام قد تناظروا بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام ، في أمر الخلافة ، وفي جمع القرآن ، وفي المعارك الدامية كوقعة الجمل وصفّين والنهروان ، وتناظر الشيخان في قتال مانعي الزكاة ، وفي إرسال جيش أسامة ، ولم يستغيثوا به في هذه الشدائد ، ولم يستفتوه في شيء منها ، وكل هذا معلوم من الدين والتاريخ بالضرورة ، ومن العقل والحسّ والوجدان بالبداهة ، فيجب ردّ ما يتجدّد من الوقائع والحوادث إلى الوحي المنزل ، وما عرف من سنن الصدر الأول للإسلام .

تصحيح : جاء في أواخر الكتاب الذي نوّهنا به في هذا المقال ـ في ابن تيمية ـ استطراد ، ذكر فيه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب تزوج بنت الأمير محمد آل سعود ، والصواب أنه (رحمه الله) قد تزوج بجوهرة بنت عثمان بن معمّر ، كما ترى في الكتب التي ترجمت له .

محمد بهجة البيطار

---

(١) ملخصة من (ص ٨١ و ٩٢ و ١١٠) م ه .

أسرار العربية لكمال الدين الأنباري

تمتاز كتب كمال الدين الأنباري بأسلوبها المبسوط وعباراتها الواضحة . لا يقصد في كتابته إلى الإيجاز والإلغاز ولا يكتفي باللمحة الدالة والإشارة المفهمة فلا عجب في أن كان أسلوب كمال الدين نسيج وحده بين الأساليب العلمية . وقد عرف المستشرقون من علماء أوربة فضل كتب الأنباري فسبقونا إلى طبعها ونشرها .

فكتابه الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين و الكوفيين طبع أول ما طبع في ألمانيا وقد صنع له ناشره مقدمة طويلة باللغة الألمانيــة وهي تعتبر كتاباً مستقلاً جديراً بالنشر ـ ولما تعذر الظفر بنسخة من الإنصاف قام أستاذنا الشيخ محمد محيي الدين بطبعه مرات في سنوات فيسّر النفع به كما جعل اقتناءه على طرف الثمام وحبل الذراع وبقيت مقدمته الألمانيــة بعيدة منا مطوية عنا وما أشد حاجتنا إلى أن نعرف ما اشتملت عليه من البحوث وما عالجته من المسائل .

وقد علق بظني بعد أن قرأت الإنصاف أن هوى كمال الدين مع البصريين إذ لم ينتصر للكوفيين إلا في سبع مسائل من ١٢٠ مسألة وقلت إن مذهب الكوفيين وصل إلينا عن طريق كتب هواها بصري ولو وصل إلينا بأقلام كوفية لتغير تقديرنا له ونظرتنا إليه .

ولكني بعد أن قرأت في معاني القرآن للفراء ومجالس ثعلب ورأيت كيف يعبر الكوفيون عن آرائهم ويدافعون عنها ويحتجون لها ـ أيقنت أن صاحب الإنصاف أفصح بياناً وأوضح برهانا .

يمثل لنا ثعلب لحذف المضاف بقوله الفقه أبو حنيفة والنحو الكسائي ولكنه

لا يعرض علينا أنماطاً رائعة وصوراً بارعة لهذا النحو الكسائيّ حتى يحملنا على أن نؤمن له بأنه لا نحو إلا نحو الكسائي .

كذلك طبع كتاب أسرار العربية في أوربة سنة ١٨٨٦ م ومعه مقدمة باللغة الألمانية أيضاً .

ولما نفدت نسخه قام المجمع العلمي العربي بدمشق بطبعه ونشره ولقد كان المجمع أريحياً في إخراجه لهذا الكتاب أخرجه في أبهى حلة وأجمل صورة طباعة أنيقة وورق غاية في الجودة .

موضوع الكتاب : عالج ٦٧ باباً من أبواب النحو والصرف .

اختار من كل باب طرفاً من مسائله وعلل لها بعبارة مبسوطة كل البسط واضحة كل الوضوح .

والتعليل لقواعد النحو صاحب وضع قواعده وقد أثر عن الخليل بن أحمد حديث طريف أرى من الخير أن أسوقه هنا .

سأل سائل الخليل فقال له أعن العرب أخذت هذه التعليلات أم اخترعتها من نفسك فقال : إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله وإن لم ينقل ذلك عنها وعللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته به فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمست وإن تكن هناك علة غير ما ذكرت فالذي ذكرته محتمل أن يكون علة له ومثلي في ذلك مثل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق والبراهين الواضحة فكلما وقف هذا الرجل الداخل الدار على شيء منها قال إنما فعل هذا هكذا لعلة هي كذا ، لعلة سنحت له وخطرت ، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار وجائز

أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة ؛ ثم قال فإن صحت لغيري علة لما عللته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها .

وقد عرض سيبويه والذين جاءوا من بعده لكثير من التعليلات ولكن الأنباري يمتاز بالأسلوب المبسوط والعبارة الواضحة .

الصلة بين الإنصاف وأسرار العربية : كتاب الإنصاف أسبق بالتأليف وقد أحال كمال الدين في أسرار العربية على الإنصاف في خمسة مواضع وكان يعبر عنه بمسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين وأحياناً بالمسائل الخلافية .

وقد أحصيت المسائل المشتركة بين الكتابين فبلغت نحو أربعين مسألة لم يختلف الحديث عنها في الكتابين لا أسلوباً ولا عرضا ، ولولا خوف الإطالة لأشرت إلى الصفحات والأوراق المشتركة بينهما .

عهد المجمع العلمي إلى أحد أعضائه وهو الأستاذ محمد بهجة البيطار بتحقيق كتاب أسرار العربية فقام الأستاذ بما عهد إليه خير قيام ، فأخرج لنا نسخة صحيحة من بين نسختين مخطوطتين وثالثة مطبوعة ؛ كما عنى بتفسير اللغة وشرح الشواهد وعزوها إلى قائلها ، وصنع للكتاب فهارس مفصلة وترجم لكثير من أعلامه .

ويجمل بي أن أسجل هنا بعض الخواطر التي بدت لي أثناء قراءة أسرار العربية استكمالاً للفائدة :

يذكر النحويون أن اسم لا النافية للجنس لا بد أن يكون نكرة متصلاً بها فإن فصل عنها بفاصل أو وقعت المعرفة بعدها أهملت لا ووجب تكرارها .

وقد جاءت المعرفة بعد لا من غير تكرير للا في قولهم لا نولك أن تفعل فاعتذر النحويون بأن عدم تكرير لا في هذا الأسلوب إنما يرجع إلى أن

المصدر هنا بمعنى الفعل المضارع فمعنى لا نولك أن تفعل لا ينبغي لك أن تفعل وهذه هي نصوص النحويين في كتاب سيبويه ج ١ ص ٣٥٧ ـ وقالوا لا نولك أن تفعل لأنهم جعلوه معاقباً لقوله لا ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا وصار بدلاً منه فدخل فيه ما دخل في ينبغي ·

ثم قال أيضاً في الجزء الثاني ص ٣١١ ـ وأما نول فتقول نولك أن تفعل كذا وكذا أي ينبغي لك فعل كذا وكذا وأصله من التناول كأنه يقول تناولك كذا وكذا ·

وإذا قال لا نولك فكأنه قال أقصر ولكنه صار معنى لا ينبغي لك ·

وفي أمالي الشجري ١/٢٣٧ ـ ونولك في قولهم لا نولك أن تفعل كذا مأخوذ من التناول للشيء وهم يريدون به الاختيار فإذا قالوا نولك أن تفعل فمعناه ينبغي لك أن تفعل والاختيار لك أن تفعل، ويقولون لا نولك أن تفعل كذا ومعناه لا ينبغي لك أن تفعل ولم يلزم تكريره وإن كان معرفة لأنه بمعنى لا ينبغي لك فلم يلزم تكريره كما لا يلزم تكرير الفعل إذا دخلت عليه لا ·

وقد أعاد هذا الحديث فى الجزء الثاني ص ٢٢٥ ·

وفي المفصل للزمخشري ٢/ ١١١ ـ وقولهم لا نولك أن تفعل كذا موضوع موضع لا ينبغي لك أن تفعل كذا ·

ومثل هذا في شرح الكافية للرضي ١/٢٣٧ وفي التصريح على التوضيح وفي لسان العرب وغير ذلك من كتب النحو واللغة ·

وفي أسرار العربية أخذ كمال الدين يعلل لوجوب تكرير لا إن وقعت المعرفة بعدها ثم أخذ يبين العلة التي من أجلها لم تكرر (لا) في قولهم لا نولك أن تفعل فقال وإنما لم تكرر (لا) لأنه بمنزلة لا ينبغي لك ·

وقد أثبت الأستاذ البيطار مكان لا نولك أن تفعل لفظاً مصحفا هو لا بد لك أن تفعل ثم قطع بأن النص المثبت في النسخة الأخرى وهو لا نولك أن تفعل سهو والنصوص التي ذكرناها والمقام الذي تحدث فيه الأنباري كل ذلك يقطع بأن لا نولك أن تفعل هي العبارة الصحيحة المتعينة في هـذا المقام وليست من قبيل السهو كما يقول الأستاذ البيطار ثم ما صلة لا بد لك أن تفعل بهذا المعنى لا ينبغي لك أن تفعل فضلاً عن المقام وموضوع الحديث وهو تكرير لا ، يراجع ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

نسب الأستاذ البيطار الشعر إلى قائله وفي أبيات كثيرة قال الأستاذ عنها لم أعرف قائلها .

ولما كان بعض هذه الأبيات معروف القائل رأيت من الخير أن أنسبها لقائلها مبيناً مصادرها .

١ — في ص ٩٧ في باب نعم وبئس قال عن البيت :

ألست بنعم الجار يولف بيته   أخا قلة أو معدم المال مصرما

لم أعثر على هذا البيت ولا على قائله . وقد نسب الأنباري في الإنصاف في باب نعم وبئس أيضاً هذا البيت إلى حسان بن ثابت ٦٧ ونسبه أيضاً الشجري في أماليه الى حسان ٢/١٤٧ .

والبيت في ديوان حسان ١٩٨ برواية :

ألست بنعم الجار يولف بيته   لذي العرف ذا مال كثير ومعدما

٢ — في ص ٢٩٩ قال عن البيت :

لقد كان في حول ثواء ثويته   تقضى لبانات ويسأم سائم

لم أقف على قائله ـ وهذا البيت من شواهد مغني اللبيب ونسبه ابن هشام للأعشى في باب الأشياء التي تحتاج الى رابط ٢/١٢٦ وهو بديوان الأعشى الكبير

ميمون بن قيس ص ٧٧ من شرح الدكتور محمد حسين في هجاء يزيد الشيباني من قصيدة مطلعها :

هريرة ودعها وإن لام لائم   غداة غد أم أنت للبين ساجم

٣ — في ص ١٠٣ قال عن البيت :

كأني بفتخاء الجناحين لقوة   على عجل مني أطأطئ شملالي

لم أعلم قائله ـ وهذا البيت لامرئ القيس من قصيدته المشهورة التي مطلعها :

ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي   وهل يعمن(١) كان في العصر الخالي

ورواية الديوان :

كأني بفتخاء الجناحين لقوة   صيود من العقبان طأطأت شملالي

الديوان ١١٢ وشرحه للوزير أبي بكر عاصم ٦٣ .

٤ — في ص ٤٢٩ قال عن البيت :

غداة طفت علماء بكر بن وائل   وعجنا صدور الخيل شطر تميم

لم أقف على قائله ـ وقد نسب الشجري في أماليه ٢/ ٤ هذا البيت إلى قطري ابن الفجاءة وأورده المبرد في الكامل في قصيدة لقطري مطلعها :

لعمرك إني من الحياة لزاهد   وفي العيش مالم ألق أم حكيم

وهو أيضاً من شواهد الشافية وقد تكلم البغدادي في شرح شواهدها على قائله ص ٤٩٨ .

٥ — في ص ٣٨٥ قال عن البيت :

سائل فوارس يربوع بشدتنا   أهل رأونا بسفح القاع ذي الأكم

(١) والصواب : « وهل يعمن (من) كان في العصر الخالي » كما ورد في الديوان (ص ٢٧) . (البيطار)

لم أعرف قائله ـ والبيت من شواهد المغني في حديثه عن هل ٢/٢٨ ونسبه شراحه إلى زيد الخيل الطائي .

وذكره أبو الفتح بن جني في الخصائص ٢/٤٦٣ وقد نسبه إلى قائله . وذكر قصة أبياته ومواطنها محقق الخصائص ومجلّيها أستاذنا الشيخ النجار .

٦ — قال عن البيت :

لكنه شاقه أن قيل ذا رجب يا ليت عدة حول كله رجب

لم أقف على قائله ـ والأنباري يذكر في الأسرار أن القصيدة منصوبة القوافي وكذلك ذكرها ثعلب في مجالسه ٢/ ٤٧٤ – ٤٧٥ ومطلعها :

يا للرجال ليوم الأربعاء أما ينفك يبعث[1] لي بعد النهى طربا

ونسبها لعبد الله بن مسلم بن جندب وروى بيت الشاهد هكذا :

لكنه شاقه أن قيل ذا رجب يا ليت عدة دهري كلّه رجبا

وقد ذكر مطلع هذه القصيدة المبرد في الكامل أيضاً . وساق القصيدة بأكملها ونسبها الشيخ المرصفي في رغبة الآمل ٧/ ٢١٤ .

٧ — قال الأستاذ البيطار في ص ١٤٤ لم أقف على ترجمة عبد بني الحسحاس ، وهي في صدر ديوانه المطبوع .

هذا وأعود مرة أخرى إلى الإشادة بجهد الأستاذ البيطار وبأريحية المجمع العلمي العربي بدمشق .

وأسأل الله الكريم أن يهيئ لسائر الذخائر والأعلاق المخطوطة من يقوم بنشرها وتيسير النفع بها .

محمد عبد الخالق عضيمة

---

(١) الرواية في مجالس ثعلب : (يحدث) بدلاً من (يبعث) . « البيطار »

تعليق على المقال لمحمد بهجة البيطار

كان كتب الأستاذ الجليل الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة المدرس في كلية اللغة العربية ـ في مجلة الحج التي تصدر بمكة المكرمة ـ تعريفاً ونقداً لكتاب «الموفي في النحو الكوفي» وشرحه ، جاء فيه : «وعرض لنا نصوصاً نحوية من كتب مختلفة ، شرحت غوامضه ، وأغنت قارئ الكتاب عن أن يتطلبها في مظانّها» وقد وصف (الموفي وشرحه) بذلك أحسن وصف . واكتفى ـ على ما يظهر ـ بمراجعته دون غيره في تعليقاته عليه ، وأجبناه على منتقداته من نفس الكتاب ، ثم قلت في الختام : «والظاهر أنّ الأستاذ قد أملى ما أملاه من ذاكرته وحفظه ، إذ لم نرَ له عزواً إلى صفحة أو جزء من كتاب بعينه ، وعلى كلّ فله منا أعطر الشكر» ، (مجلة المجمع العلمي م٢٧ / ٦٢٣) .

والآن ورد على المجمع العلمي العربي بدمشق هذا المقال الجليل ، ذو الفوائد الجمّة والمباحث المهمّة ، في اللغة والنحو والأدب ، وفي آخره مستدركات على كاتب هذه السطور ، في تعليقاته على «الأسرار» مع الدلالة على أماكنها ونقل عني في (ص ١٤٤) قولي : لم أقف على ترجمة عبد بني الحسحاس ، وهذا صحيح ، لكني استدركت في (ص ٤٣٥) فأثبتُّ ترجمته تحت الرقم (١٤) فلتراجع .

وإني أعلن شكري الخالص للأستاذ عضيمة ، جزاه المولى عن أخيه وعن القرّاء أفضل الجزاء ، وزاده إحساناً وتوفيقاً .

محمد بهجة البيطار

فهرس الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء

مجلة المجمع العلمي العربي

١ تموز سنة ١٩٥٩ م ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٧٨ هـ

ثلاث رحلات

الطهطاوي — الشدياق — كردعلي

اذا بحثنا عن بدء نهضتنا الحديثة فلا مندوحة لنا عن الإشارة الى ثلاث رحلات كان لأصحابها أعمق الأثر في هذه النهضة ، فقد وقفوا على أشياء كثيرة من خصائص الغرب وأخلاق أهله وعاداتهم ومذاهبهم في السياسة والفن والأدب ، فحملوا كتباً أودعوها ما وقفوا عليه وما دهشوا منه فتركت هذه الكتب في آفاقهم آثاراً شتّى ، ولئن اختلفوا بعض الاختلاف في نظراتهم الى الأمور على قدر أمزجتهم وأذواقهم ومداركهم فقد اتفقوا في غاياتهم من رحلاتهم ، فقد كانت غاياتهم منها ايقاظ الشرق من رقدته وحثه على الأخذ بأسباب العلم والحضارة وكان لكل واحد منهم أسلوب خاص في التنبيه والإرشاد .

أمّا الرحلات الثلاث فأصحابها رفاعة رافع الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق ومحمد كردعلي ، وقد وضّح كلٌّ منهم في مقدمة رحلته غايته من الرحلة أكمل توضيح .

خرج الطهطاوي من مصر سنة ١٢٤١ ووضع كتاباً سماه : تخليص الإبريز في تلخيص باريز طبع الطبعة الأولى في بولاق سنة ١٢٥٠ واذا رجعنا إلى مقدمة الكتاب وجدنا فيها ما يدلّنا على الغرض من رحلة صاحبه فقد أرسل من قبل والي مصر محمد علي الى باريز في جملة من أرسل : « ليتعلّم العلوم والفنون الموجودة بهذه المدينة البهيّة » هذا ما قاله الطهطاوي ، الاّ أنه كانت له غايات أبعد فصّلها في قول آخر :

« فلما رسم اسمي في جملة المسافرين وعزمت على التوجه أشار عليّ بعض الأقارب والمحبّين لا سيما شيخنا العطّار ، فانه مولع بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار أن أنبّه على ما يقع من هذه السفرة وعلى ما أراه وما أصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة وأن أقيّده ليكون نافعاً في كشف القناع عن محيّا هذه البقاع .... فما قصّرت في أن قيّدت في سفري رحلة صغيرة نزّهتها عن خلل التساهل والتحامل وبرأتها عن زلل التكاسل والتفاضل ووشّحتها ببعض استطرادات نافعة واستظهارات ساطعة وأنطقتها بحث ديار الإسلام على البحث عن العلوم البرّانية والفنون والصنائع فان كمال ذلك ببلاد الافرنج أمر ثابت شائع والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله إنني مدّة اقامتي بهذه البلاد في حسرة على تمتعها بذلك وخلوّ ممالك الإسلام منه ، وايّاك أن تجد ما أذكره لك خارجاً عن عادتك فيعسر عليك تصديقه ، فتظنه من باب الهذر والخرافات أو من جنس الإفراط والمبالغات ..

وقد أشهدت الله سبحانه وتعالى على الاّ أحيد في جميع ما أقوله عن طريق الحق وأن أفشي ما سمح به خاطري من الحكم باستحسان بعض أمور هذه البلاد وعوائدها على حسب ما يقتضيه الحال ومن المعلوم اني لا أستحسن إلاّ ما لم يخالف نصّ الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحيّة . »

وختم مقدمته بقوله :

« وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولاً لدى الخاص والعام وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام من عرب وعجم . »

من هذه المقدمة يتبيّن لنا أن الطهطاوي قد توخّى في رحلته في جملة ما توخّاه من طلب العلوم والفنون حث ديار الإسلام ، عربها وعجمها على الانصراف الى هذه العلوم والفنون وايقاظ أهل هذه الديار من غفلتهم وهذا ما يثبت لنا أن رحلته الى الغرب كانت عاملاً من عوامل نهضتنا الحديثة فقد رمى فيها الى الايقاظ والتنبيه .

ولم تكن هذه الفكرة فكرة الطهطاوي وحده فان الذين فكّروا في أوّل بعثة الى الغرب كانت غايتهم إحياء العمران والعلوم والفنون في بلادهم ، فهم في تفكيرهم هذا وفي إنفاذ هذا التفكير من أعظم الباعثين على النهضة الحديثة وقد وضّح الطهطاوي هذه الفكرة في الباب الأول من رحلته فقال :

« ولهذا تنبه المتولىّ على بلاد مصر أن يرجع اليها شبابها القديم ويحيي رونقها الرميم ، فمن مبدإ توليته وهو يعالج في مداواة دائها الذي لولاه كان عضالاً ويصلح فسادها الذي قد كاد يكون زواله محالاً . »

ثم أفاض الطهطاوي بعد ذلك في مدح والي مصر والتنبيه على ميله الى العمران ونشر العلوم والفنون والصناعات .

لا أريد التوسع في الكلام على رحلة الطهطاوي وعلى خصائصها في مثل هذا المقام وانما الذي رميت إليه أن أبيّن أن هذه الرحلة كانت عاملاً من عوامل النهضة الحديثة فقد رجع صاحبها الى مصر ونشر كتابه بين ظهراني قومه وقد تضمّن هذا الكتاب ما وقعت عليه عينه في الغرب من أكثر أمور الحياة ، ولا سيّما حرية الرأي فكان لكثير من مشاهداته تأثير في العقول ، فبدأت النهضة الحديثة .

واذا فرغنا من مطالعة تخليص الابريز وانصرفنا الى مطالعة كتابي الشدياق : الواسطة في معرفة أحوال مالطة وكشف المخبا عن فنون أوربا وجدنا أنّ غاية الشدياق من رحلته الى الغرب لا تختلف كثيراً عن غاية الطهطاوي ، ماذا يقول الشدياق في مقدمة رحلته التي طبعت الطبعة الثانية في قسطنطينية سنة ١٢٩٩ :

« ويعلم الله اني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب وأدركت فيها من الرغائب كنت أبداً منغّص العيش مكدّره كمن فقد وطره ولزمته معسرة ، لا يروقني نضار ولا نضرة ، ولا نعمة ولا مسرّة ولا طرب ولا لهو ولا حسن ولا زهو لما أني كنت دائم التفكير في خلوّ بلادنا عمّا عندهم من التمدّن والبراعة والتفنن ثم تعرض لي عوارض من السلوان بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسان وكرم يغطّي العيوب ويستر ما شان ولا سيّما الغيرة على الحرم وصون العرض عمّا من هذا الصوب يُذمّ ثم أعود الى التفكر في المصالح المدنية والأسباب المعاشية وانتشار المعارف العمومية والى إتقان الصنائع وتعميم الفوائد والمنافع فيجفل ذلك السلوان وأعود الى الأشجان . »

هذا كلام صريح ، فقد رحل الشدياق الى مالطة وفرنسة وانكلترة وقابل بين بلادنا وبلادهم في أبواب التمدّن والعلوم والصناعات فكانت هذه المقابلة تدخل الحزن على قلبه لخلوّ بلاده مما اشتملت عليه بلاد الافرنجة ، تكثر المقابلات والموازنات في رحلة الشدياق فهو يقابل بين أخلاق وأخلاق وبين عادات وعادات وبين طبائع وطبائع ، يقابل بين زواج وزواج ، وبين لباس ولباس وبين طعام وطعام فينقد ويحكم ويسخر ولكنه في كل نقده وحكمه وسخريته لا يتوخّى إلاّ الإصلاح والإرشاد ، إصلاح ما اعوجّ من أخلاق بلاده وعاداتها وارشادها الى محاسن الأخلاق والعادات ، لقد نقل الشدياق الى الشرق كثيراً من محاسن الأمور التي رآها في الغرب فكان عنصراً قوياً من عناصر النهضة الحديثة فهو مصلح اجتماعي من أكبر المصلحين ولم يعرف بعدُ مقامه في هذا الإصلاح

حق المعرفة حتى يومنا هذا فلا تزال الظلمات تغطّي على ضيـاء عقله الراجح وأفقه الواسع •

قابل مرّة في رحلته بين بعض أوضاعنا وبعض أوضاع الافرنجة ، تكلم على العلم في بلاد الانكليز فقال :

« غير أن العلم عندهم لا يكون بمعرفة قواعد النحو والصرف أو بنظم قصائد وانما هو مطالعة اللغتين اليونانية واللاتينية ومعرفة أدبها ومعرفة التاريخ والفلسفة والهندسة والرياضيات » •

هذه المقابلات التي كانت تجري خلال رحلته كان يرمي فيها الى إرشاد أهل بلاده الى حقائق الأمور فلم يترك فرصة تمرّ به دون أن ينتهزها لإيقاظ قومه ، كان يتكلم على الوظائف في بلاد الإنكليز وعلى ترتيب أصناف الناس فقال وقد خطرت بباله حالة بلاده :

« فأمّا في بلادنا حرسها الله فان ناظر المدابغ جدير بأن ينظر في جلود بني آدم ويصبغها بلون الدرّة والسوط أو يسبر ما هي عليه من الطراوة والنعومة ، والمحتسب خليق بأن يزن أعمال عباد الله وأموالهم في بيوتهم ويروز ما في عياب صدورهم من الخواطر والأفكار وللحاكم أو للمطران أن يسقط حق المحق لحرف أسقطه في الكلام وللضابط أن يبيّت الناس في مضاجعهم وللشرطي أن يقبض على أي شخص كان ولضابط العسكر أن يخترط سيفه على أي عنق سنحت له وللبطرك أن يحرم أيّ شخص كان من رعيته حتى لا يعود لأحد من أقاربه وأهل بلدته استطاعة على مخاطبته ومبايعته » •

وبعد أن أحصى هذه الأمور كلها التي كانت تجري في عصره ، عصر الظلمات ، بعد أن قابل بينها وبين الأمور التي رآها في الغرب صرخ هذه الصرخة :

« والى من المشتكى وأين المصير وأين المجير ، فياليت شعري متى نصير نحن ولد آدم كهؤلاء البشر ومتى نعرف الحقوق الواجبة لنا وعلينا ، أتخال أن معنى

التمدن هو أن يكون الناس في مدينة وفيها ذئاب وسباع ، كلاً ثم كلاً ، جير أن اجتماع الذئب والخروف في مرعى واحد ليوجب على اليهود أن يؤمنوا بأن المسيح قد جاء » .

فاذا تنبهت العقول في نهضتنا الحديثة فانها لم تتنبه إلا بمثل هذه الأفكار التي اشتملت عليها كتب الرحلات وبمثل هذه المقابلات ، فالشدياق كان في مقدمة الذين نبهوا الناس في نهضتنا .

أمّا كردعلي فقد سمّى رحلته : غرائب الغرب ، قال في مقدمته :

« هذه فصول ومقالات ، بل آهات وتأوهات ، كتبتها في وصف معالم الغرب وما لقيته فيه وقد زرته ثلاث مرات .... وأنا على مثل اليقين بأنها لا تحمل في مطاويها في تلك المدنية الساحرة إلاّ بقدر ما تصل اليه يد عابر سبيل ويتفطن لها النزيل والدخيل » .

لاشك في أن كلمة آهات وتأوهات تدلنا على أن كردعلي بهره ما رأى من مدنية الغرب فتحسّر على خلوّ بلاده من هذه المدنية ، ولئن لم يوضح في هذه المقدمة غايته من الرحلة فقد وضّحها في أول فصل من فصول كتابه إذ قال :

« كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوربا رحلة علمية ، أقضي فيها ردحاً من الدهر للتوفّر على دراسة حضارة الغرب في منبعثها واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المنزّهون والعلماء العاملون والساسة المستعمرون والقادة والغازون والتجّار والصنّاع والزرّاع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها » .

غاية كردعلي في هذا الكلام واضحة فانّ همّه التوفّر على دراسة حضارة الغرب ولكن ما هو غرضه من هذه الدراسة ، إن هو إلاّ الإصلاح ، شأنه

في ذلك شأن الشدياق من قبله الذي سبقه الى الغرب ، لقد كثرت أوهامه وتأوهاته في الغرب ، من ذلك قوله :

«ومن الأسف العظيم أننا لو أحصينا عدد ما يصدر من جميع الجرائد والمجلات العربية والتركية والفارسية في البلاد المصرية والعثمانية والايرانية لا يبلغ بكميته قدر ما تطبع كل يوم جريدة : البتي‌مارسيلية ، احدى جرائد ولايات فرنسا ، وعلى هذه النسبة قس ولا تخف درجة ارتقائنا وارتقاء الفرنسيس ويجل علينا بالفقر المدقع في كل شيء ، ولا سيما في الأمور العقلية» .

شرع كرد علي في المقابلات على نحو ما فعله الشدياق في رحلته ، فهو يقابل بين انتشار الصحافة في مصر وتركية وايران وبين انتشارها في مدينة واحدة من مدن فرنسة ويستخرج من هذه المقابلة درجة ارتقاء بلاده وارتقاء الفرنسيين وتؤدي به هذه المقابلة الى الحكم بانحطاط الشرق في كل شيء ، ولا سيما في الأمور العقلية ، ليس غرضنا في هذا المقال المناقشة والمجادلة ، فقد يخطئ كرد علي في حكمه ، ان بلاد الشرق التي ذكرها كانت في أول نهضتها ولذلك فان عدد صحافتها قليل ، أما فرنسة فقد كانت في أيام رحلته تذوق نعمة الحرية من زمن بعيد ، فلا تصح المقابلة بين بلاد في أول نهضتها وبين بلاد في عز النهضة ، غير أن كردعلي لم يتحسر هذا التحسر إلا ليحمل بلاده على الأخذ بأسباب حضارة الغرب ، فهو لم يرحل الى الغرب إلا ليعود الى بلاده وينفخ فيها روح الاقتباس .

لقد كثرت دهشات كردعلي في رحلته ، دهش من حضارة الغرب حتى كاد يحسبها من باب الحلم والخيال ، ولا غرابة في ذلك فقد خرج من بلاد كلها ظلمات ، الى بلاد يستفيض فيها النور ، فقابل على حين لا تصح المقابلة في هذا الوجه ، ولكنه لم يقابل إلا ليحض أبناء وطنه على الاقتباس من مدنية الغرب على نحو ما أشرت إليه ، ولا بد من الإشارة في هذا المقام الى أن فرنسة التي

دهش كرد علي من حضارتها في رحلته اليها من نصف قرن كانت سمعتها تملأ الأرض ، فلم يكن الناس يعرفون عنها في تلك الأيام ما عرفوه عنها في هذا العصر من أساليبها في الاستعمار .

ليس هذا موضوعنا ، لنرجع الى لبّ الموضوع ، لقد كان لاتصال الشرق بالغرب أثر قوي في نهضتنا الحديثة ، كان كرد علي يرى ما يرى من سياسة الغرب ومذاهبه في الاجتماع والعلم والصناعة والزراعة والاقتصاد وغير ذلك من مظاهر الحياة فيدرس ويختبر ثم يستنبط من دراسته واختباره عبرة صالحة لينفع بها قومه ومجتمعه ، فالكتّاب الثلاثة الذين أشرنا إليهم في هذا المقال غرضهم من رحلتهم الرجوع بخواطر وأفكار تنهض ببلادهم ، وكما تحسّر الشدياق على تأخر بلاده فكذلك تحسّر كردعلي :

« فياربّ ! ما هذه الروح التي تجرّد منها جسم الشرق وسرتْ في عظام الغرب وشرايينه ، فأتى أهله بالعظائم ونحن بقينا جامدين ، مبهوتين ، منحلّين ، متضائلين ! »

ولئن كان هؤلاء الكتّاب الثلاثة مادّة خصبة من موادّ نهضتنا الحديثة بسبب رحلاتهم لقد كان لكل واحد منهم أسلوب خاص في النظر الى حضارة الغرب والحكم عليها ودرجة الاستفادة منها والاقتباس عنها ، فالطهطاوي غلبت عليه نزعة دينية ، فقد تمسّك باسلامه فلم يستحسن من أمور الافرنجة إلا ما كان الاسلام يسمح باستحسانه والشدياق غلبت عليه السخرية فهو يسخر بالغرب اذا رأى ما يحمل على السخرية ويعظّم منه ما يستوجب التعظيم وأمّا كردعلي فقد بلغت دهشته من حضارة الغرب كل مبلغ بحيث كاد لايرى فيها إلاّ حسنات ، وكيف كان الأمر فان هؤلاء الأئمة الثلاثة كانوا في مقدمة من بنوا نهضتنا الحديثة ، فقد نقلوا الى الشرق ما وقفوا عليه من كثير من أمور الغرب في كل باب من الأبواب ، فكان لرحلاتهم انعكاس على عقول أهل البلاد .

شفيق جبري

ثقافة الأطباء عند العرب

لم أعثر في الكتب العربية الطبية على بحث خاص يرينا كيف كان أطباء العرب في عصورهم العلمية وحضاراتهم الزاهية يهيئون أنفسهم لدراسة علم الطب وماذا يتعلمون من كتبه الموجودة في زمنهم ٠

واننا وان كنا نعرف الكثير عن البيمارستانات والمشافي وأقسامها وفروعها وادارتها وأطبائها وما يلحق بها من معاهد للتدريس والتعليم ، ولكننا لا نعرف بالضبط ما هي العلوم التي كانوا يدرسونها وكيف كانت تجري امتحاناتهم ؟ ٠

ولأهمية الموضوع وجدت ضرورة للبحث في مختلف المراجع القديمة والتراجم الطبية[1] علّني أهتدي اليه ، والى معرفة العوامل التي أدت الى ازدهار العلوم الطبية والعلوم الطبيعية وغيرها وما كان لأطباء العرب من نصيب في هذا المضمار ٠

والذي اتضح لي بعد كل جهد أن أطباء العرب في القرون الخمسة الأولى من حضارتهم كانوا (انسكلوبيدين) أي (موسوعيين) بمعنى أنهم كانوا يتعلمون

---

(١) كعيون الأنباء في طبقات الأطباء لموفق الدين أبو العباس بن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٨٨ هـ ٠ ٢ – وتاريخ الحكماء لظهير الدين البيهقي المتوفى عام ٥٦٥ هـ ٠ ٣ – وإخبار العلماء بأخبار الحكماء لجلي الدين القفطي المتوفى عام ٦٤٦ هـ ٠ ٤ – وكتاب البيمارستانات في الاسلام الدكتور أحمد عيسى ٠ ٥ – والطب عند العرب للأستاذ خير الله ٠ ٦ – وكتاب الأعلام لخير الدين الزركلي ٠ ٧ – والحضارة الإسلامية لكردعلي ٠ ٨ – وتاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ٠ ٩ – ودائرة المعارف البريطانية ١٠ – وكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ٠ ١١ – وقانون حوراني المؤلف ٠

علوماً عديدة يضيفونها الى ثقافتهم الطبية العامة والخاصة التي بلغوا فيها شأواً عظيماً ما زالت آثاره الخالدة مسطّرة في كتبهم ومعاهدهم ومؤسساتهم .

واذا تساءلنا لماذا كانوا يتعلمون تلك العلوم التي كان أولها وأهمها اللغة العربية والصرف والنحو والإعراب والبيان والبديع والبلاغة ، ثم العلوم الأدبية كالشعر والأدب والروايات ، ثم العلوم الاجتماعية كالتاريخ والتراجم والسيرة والقانون والقضاء ، ثم العلوم السياسية كنظام الحكم وأصول الإدارة والعلاقات الدولية ، ثم العلوم الفلسفية كالمنطق وعلم النفس وما وراء الطبيعة وعلم الأخلاق واللاهوت . ثم العلوم الرياضية كالحساب والجبر والهندسة والفلك والمثلثات ، ثم العلوم الطبيعية كالكيمياء والنباتات والحيوانات وعلم المعادن وعلم الأقاليم والمياه ، ثم يتعلمون العلوم الطبية كالتشريح ، والطب الداخلي وأمراض الجلد ، وعلم الجراحة وعلم الولادة وأمراض النساء ، وعلم الفيسيولوجيا ، والصحة ، وأمراض العيون ، ومفردات الطب ، والأقرباذين ، والصيدلة وغيرها (١) . أقول اذا تساءلنا عن السبب لم نجد جواباً إلاّ أن عصرهم كان يحتم على أكثرهم دراسة هذه العلوم مع علوم الطب تبعاً لأصول التحصيل الجاري في زمنهم ، واستجابة لحاجات الناس الذين يعتبرون الطبيب ملماً وعارفاً بكل شيء . أما كيف وصلوا الى غاياتهم فكتب التاريخ والتراجم تدلنا على أن أطباء العرب اتبعوا أساليب اليونان في ثقافتهم التي لم تقتصر على الطب والطبابة بل تناولت ما ذكرناه من العلوم

(١) ومع تعاطي المهنة الطبية كان بينهم من اشتغل في السياسة والوزارة ، ومنهم من كان نديماً خاصاً للملوك والأمراء والوزراء ، ومنهم من كان معلماً منقطعاً للعلم والبحث والتجربة والاستقراء ، ومنهم من تعاطى الطب ثم تركه واشتغل في الفقه والتدريس ، ومنهم من تصوّف وانقطع عن الدنيا ، ومنهم من كان موسيقاراً أو شاعراً ، ومنهم من اشتغل في الفلك والرصد والرياضيات .

المتعددة والفنون المشهورة كما هو المعروف عن أبيقراط [١] ، وسقراط [٢] ، وأفلاطون [٣] ، وأريسطو [٤] ، وجالينوس [٥] أئمة العصور اليونانية والرومانية وكما هو معروف عن أئمة أطبائنا كالفارابي ، وابن رشد ، وابن سينا ، والرازي ، والزهري ، والزهراوي ، وابن البيطار ، وابن حزم ، وابن أبي أصيبعة ، وابن خلدون وغيرهم .

وسببه كما قلنا تأثير المجتمع وحاجات الزمن وطبيعة الثقافة التي فرضت على الطبيب أن يكون حكيماً عليماً ملماً بما وصلت اليه معارف الزمن ، ماهراً في صنعته ، ذكياً في تدقيقاته وتحرياته ، فيلسوفاً في أفكاره ، وتصرفاته ، إنسانياً في معاملاته ، مدنياً في أخلاقه ، وعليه أن يمثل الفضيلة في سيرته ، وأن يتصف بالخصائل التي تجعله قدوة في النظافة وأدب المحادثة ، وجدية العناية ، وكتم السر ، وخدمة المحتاج .

وعليه أن يكون بعيداً عن الأذى والضرر وسوء النية ، لا يقصر في معونة من يحتاجون الى علمه ، ورأيه وتدبيره ، كفؤاً في صنعته ، شريفاً في معاملاته .
وكلها صفات حميدة لا يستغرب من المجتمع الإنساني إن تطلبها من أطبائه

(١) أبيقراط Hippocratés يعتبر أبا الطب وواضع أساساته ، ولد عام ٤٥٠ ق.م
(٢) سقراط Socratés أشهر حكماء اليونان ولد عام ٤١٨ ق.م وتوفي عام ٣٩٩ ، وعلّم في أثينا وكان يلقي دروسه في الأزقة والشوارع وبين الجماعات ثم تألب عليه السوفسطائيون وجروه أمام الحكم فحكم عليه بشرب السم وهو في السجن فشربه ومات .
(٣) أفلاطون Ploton فيلسوف وطبيب يوناني ولد عام ٤٣٠ وتوفي عام ٣٤٧ قبل الميلاد .
(٤) أريسطو Aresto فيلسوف وطبيب من أكبر فلاسفة اليونان ولد في عام ٣٨٤ وتوفي عام ٣٢٢ ق.م
(٥) جالينوس Galinus من اعظم أطباء اليونان ولد عام ١٣١ بعد الميلاد وتوفي عام ٢٠١ .

فيما مضى والآن ، لأن علم الطب كان في جميع العصور التي مرّت على تطوّر البشرية ورقي الإنسان معدوداً من أرقى العلوم وأهمها ، ومعاطاة الطب كانت ولا تزال من أشرف المهن ، والطبيب العالم الحاذق الفاضل كان ولا يزال صاحب الاعتبار والتقدير في مجتمعه وبين أفراده ، لأن بيده تخفيف الألم وإزالته وشفاء السقام أو تعديله ، وجبر الكسر ، وبتر الفاسد ، ومداواة العلّة ، وحفظ الصحة ، ووقاية الجسم ، وتشخيص المرض ، ومحاربة الوباء ، ومعالجة الجروح ، واعادة النفوس العليلة الى حالها الطبيعي .

واذا كانت تلك الخصال والمزايا والعلوم من ضرورات العصر اليوناني ومن ضرورات العصور العربية ، وكانت أيضاً من ضرورات العصر المصري والبابلي والآشوري والإيراني فلماذا لا تكون من ضرورات عصرنا وان تطوّرت وتنوعت ثقافة أطبائنا وأصبحت ذات فروع وذات اختصاص ، ولها معاهد ومؤسسات ومختبرات ، ولها أدوات ومعدات ؟ أليست الفضائل التي كانت مطلوبة من الأطباء الأقدمين هي ذات الفضائل التي نتطلّبها ويجب أن نتطلّبها من كل طبيب اليوم وغداً وفي يدهم أرواحنا وحياتنا ؟ واذا كانت أساليب تعليمنا الطب قد تغيّرت اليوم وفاقت ما كانت عليه ، وثقافتنا الطبية قد اتسعت آفاقها وارتقت مقاييسها العلمية فهل من الضروري أن تتغيّر أخلاقنا الطبية وخصالنا المهنية ، وواجباتنا الأدبية ؟

قبل الإجابة على هذا السؤال المهم سلباً أو ايجاباً ، وقبل بيان ماهية ثقافة أطبائنا العرب ، يتحتم علينا ـ ولو بصورة وجيزة ـ استعراض نشأة الطب من أقدم الأزمنة حتى أيام العرب الزاهية ، وبيان ما كانت عليه نظرة المجتمع الى الأطباء ومهنتهم ، وما هي مجمل الفضائل التي كانوا يتحلون بها ؟ .

تذكر كتب التاريخ والحضارة أن الكهنة في مصر وبابل وآشور والهند

والصين كانوا يمارسون الطب ويعلمونه ويعرفون خواص الأعشاب وكيفية استعمالها ، وكانوا يتوارثون المعرفة والمهنة خلفاً عن سلف ، ويتعلمون معها السحر والتنجيم وعلم الكيمياء ، وعلوم الدين وما يتصل بالعبادات والطقوس والشرائع ، ويتعاطون التطبيب كما يتعاطون خدمة الهياكل والمعابد والآلهة والأصنام .

وكان لهؤلاء الكهنة الأطباء وسدنة الهياكل والمعابد صفة القداسة وسلطة القضاء والحكم بين الناس .

وكان الكهنة يعتبرون الطب والطبابة ومعرفة الكيمياء من الأمور السرية المقدسة التي لا يجوز إباحتها لكل طالب ، لأن لها أسرارها وأصالتها ، وأدعيتها وتعاويذها ، فلا يعلمونها إلا لمن كان من أولاد الملوك أو الأمراء أو من طبقة الأشراف النبلاء ، ويتحلّون بالصفات المؤهلة التي تمكنهم من أن يكونوا خدمة الآلهة والملوك وخدمة الطبابة تقديساً للعلم والطب والطبابة ورفعاً لدرجاتها واعتبارها .

وفي أيام البابليين كان أهل المرضى يضعون مرضاهم في الشوارع العامة ويعرضونهم على المارة لعلّ واحداً منهم يكون قد أصيب بما أصيب به المريض ثم شفي من دائه فيصف للواقفين ما استعمله من العقاقير والأدوية والأعشاب والتعاويذ والأدعية حتى زال عنه المرض وتخلّص من الروح الشريرة التي كانت سبباً لمرضه ، فيدوّنون ما قاله على ألواح مشويـة من الآجر ويسلمونها الى سدنة الهياكل ليحفظوها ويضيفوها الى غيرها من الألواح التي اكتشف علماء الآثار الكثير منها .

ولعلّ ما حدث في الماضي السحيق يحدث مثله اليوم بين القبائل المتوحشة التي تعيش في حالة بدئية في مجاهل افريقيا وأمريكا الجنوبية ، وفي صحارى

أستراليا ، وفي آسيا وجزر الهند ، فان مرضاهم يلجأون الى الكهنة والسحرة لمداواتهم وطرد الأرواح الشريرة عنهم .

ومما خلّده المصريون والبابليون والهنود من آثار وكتب وروايات نستطيع أن نقول بأن تاريخ الطب قد بدأ في عصور تلك الأمم وأمثالها ومن أتى بعدها .

ويدلنا تاريخ اليونان على أن الطب أيام (اسقولابيوس[1]) انحصر فيه وفي أولاده وعائلته التي انحدر منها (أبيقراط[2]) ، وتدلنا وصية أبيقراط وهي الميثاق الخالد في عالم الطب على وجود النظام الوراثي في تعاطي الطب ومعاطاته .

على أن هذا الانحصار العائلي لم يتبدل إلاّ في زمن (أفلاطون[3]) الذي أنشأ (الأكاديمية) للعلوم والطب والفلسفة والرياضيات في (أثينا) وخصها بتلامذته ومريديه يؤمونها ويحضرون دروسه . وكانت أبواب (الأكاديمية) مفتوحة لأبناء الشعب ولكن لا ينتسب اليها إلاّ من توجد فيه الأهلية والجدارة لتحصيل العلم من أبناء اليونان .

وجاء في المصادر المصرية بأن سكان مصر هم أقدم من تعاطى صناعة الطب لاعتقاد ملوكهم وكهنتهم وعلمائهم أن الروح عائدة الى الجسم بعد مفارقتها له اذا بقيت الأجسام سليمة من الفناء .

وبدافع هذه العقيدة اشتغلوا بأمر التحنيط واكتشفوا ما يلزم له من مواد كالزيوت العطرية ، والراتينجية ، والدهنية ، والمعدنية ، وكانوا يستعملون معها

(١) أسكولابيوس Ascolepius إله أسطوري عند اليونان ويقال انه ابن «أبولو» أبو الآلهة . وكانت أمه حورية اسمها كورونيس ، ووصفه هومر بأنه طبيب ماهر وكان يمثل في المعابد ويعبد ، وله ابنة هي إلهة الصحة اسمها هياجين وولد هو إله الشفاء .

(٢) أبقراط Hippocratés .

(٣) أفلاطون Platone عاش في سني ٤٣٠ - ٣٤٧ ق.م

الكافور وزيت الصندل ، والمر ، وحصى اللُّبان ، ومركبات الزيبق ، ومركبات الذهب ، والأنتيمون ، والأرسنيك الطبيعي ، وأملاح الكلور والصوديوم والبوتاس ، والرصاص ، والبوركس والنطرون وغيرها من المواد العضوية وغير العضوية لاحكام عملياتهم الكيميائية الدقيقة المعقدة .

وأشهر من عرف من أطبائهم (هرمس الأول [1]) الذي ألف اثنين وأربعين كتاباً مقدساً كان منها ستة في الطب وتركيب البدن وأعضائه ، ولا سيما في العينين وفي الجراحة والآلات الجراحية المستخدمة لتوليد النساء ، ومعالجة أمراضهن . وكان يعتقد أن المعرّقات والمقيّئات والحقن من مقصيات المرض وموجبات الشفاء .

ثم جاء من بعده وسار على منواله الهرامسة الثلاثة الذين أورد ذكرهم صاحب طبقات الأطباء وكان أقدم كتاب طبي عرف عند المصريين « رسالة في التشريح » ورسائل طبية عديدة تأليف (أثوثيس بن منيا) من ملوك الدولة الأولى المصرية .

وتدلنا شريعة حمورابي المؤرخة في حدود عام (٢٠٨٤ — ٢٠٨٠) قبل الميلاد على أن البابليين كان لهم أطباء وجراحون ، وكحالون ، وبياطرة ، وكانت أجرة الطبيب والجراح والبيطري معينة ومنصوصاً عليها في مواد الشريعة ، وكذلك ورد فيها عقاب من يسيء عمله عمداً أو جهلاً .

وفي القرن السابع من الميلاد اكتشفت فيما بين النهرين (دجلة والفرات) احدى المدارس التي كان يدرس فيها الطب .

(١) هرمس Hermés هو الاسم اليوناني للالٓه (طوت أوثوت) المصري ويقال الاسم أيضاً لرجل من حكماء مصر تنسب اليه بعض الكتب الطبية . والهرامسة عدة أشخاص اشتهروا كلهم بالطب والعرب تسمي (هرمس الأول) ادريس وهو من بابل .

والبابليون أول من بنى أساسات المعالجة على الأمزجة الأربعة [١] والأخلاط الأربعة [٢] وأول من مارس الاختصاص في مهنة الطب . وكانوا كالمصريين يستعينون بالأدوية والتعاويذ والرقى والسحر لشفاء الأمراض وطرد الأوبئة واخراج الأرواح الخبيثة من المصابين بالصرع أو الجنون . وكان التنجيم عندهم من جملة الوسائل لشرب الدواء وقطف الزهور وجمع الأعشاب وتعيين وقت العمل ووقت التناول ، ووقت الفصد والحجامة .

ولما ازدهرت حضارة اليونان كان « أبيقراط » المولود عام ٤٦٠ قبل الميلاد أول من ألف كتب الطب وأول من فصله عن الدين ، وأول من جعل مصدر الأمراض الغذاء والهواء . وكان طبيباً ماهراً وله مدرسة يدرس فيها الطب ، وعيادة خاصة يداوي فيها مرضاه . وقد عرف عنه أنه كان يعتمد في معالجة المرض ومداواته على المشاهدة والتجربة . ومن تعاليمه : (أن الأمزجة [٣] أربعة ، والعناصر [٤] أربعة ، وخواص الأشياء [٥] أربعة) ، وكان يعتني بالصحة والتشخيص ، ويتعاطى التشريح والجراحة ، وامتاز في عملياته .

وذكر التاريخ أن « أبيقراط » سكن مدينة حمص ، وذهب منها الى دمشق ، وأقام فيها في بستان غربي الصالحية في محل يسمى (قبة اليسار [٦]) . وهو واضع

(١) الأمزجة الأربعة : المزاج الصفرواي ، والمزاج الدموي ، المزاج البلغمي ، والمزاج السوداوي .

(٢) الأخلاط الأربعة : الدم ، والبلغم ، والمرّة الصفراء ، والمرّة السوداء .

(٣) الأمزجة الأربعة : الدموي ، والبلغمي ، والصفراوي ، والسوداوي .

(٤) العناصر الأربعة : هي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٥) خواص الأشياء الأربعة : حار ، وبارد ، ورطب ، ويابس .

(٦) قبة اليسار (ولعلها السيّار) : محل بالقرب من (ديرمرّان) ذكره القفطي في أخبار الحكماء وفي معجم البلدان (٤ – ١٧٢) هو الدير السكائن بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة وبناؤه بالجص وأكثر فرشه بالبلاط الملوّن وهو دير كبير وفيه رهبان ومدحه الصنوبري . ويوجد دير آخر بهذا الاسم واقع على جبل يشرف على (كفرطاب) قرب المعرة ، ويقال ان فيه قبر عمر بن عبد العزيز .

الميثاق الطبي الشهير الذي طلب من تلامذته أن يقسموا عليه ويعملوا بموجبه ، وقد بقي منذ ذلك العهد حتى زمننا الحاضر عهداً يقسم عليه الأطباء في كلياتهم وجامعاتهم أمام أساتذتهم قبل أن يتخرجوا ويمارسوا مهنتهم .

ما هو هذا القسم ؟

جاء في كتاب (طبقات الأطباء) للطبيب ابن أبي أصيبعة أن محتويات القسم هي ما يأتي :

« اني أقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة وخالق الشفاء ، وكل علاج ، وأقسم بأسقليبوس ، وأقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً وأشهدهم جميعاً ، على اني أفي بهذا العهد وهذا الشرط ، وأرى أن المعلم لي هذه الصناعة بمنزلة أبي وأواسيه في معاشي واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي الخاص ، وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساو لاخوتي ، وأعلمهم هذه الصناعة ان احتاجوا الى تعلمها بغير أجرة ولا شرط ، وأشرك أولادي وأولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصنعة ، وأما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك ، وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى ، وأما الأشياء التي تضر بهم وتدني بالجور عليهم فأمنع منها بحسب رأيي ، ولا أعطي اذا طلب مني دواء قتالا ولا أشير أيضاً بمثل هذه المشورة ، وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة [1] تسقط الجنين وأحفظ في نفسي في تدبيري وصناعتي على الذكاء والطهارة ، ولا أشق أيضاً عمن في مثانته حجارة ولكن أترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل .

---

(١) الفرزجة : هي التحميلة التي تحملها المرأة لاسقاط الجنين وفي الغالب تكون من عقار يهيج الرحم .

«وكل المنازل التي أدخلها انما أدخل اليها لمنفعة المرضى ، وأنا بحال خارجة عن كل جور وظلم وفساد ارادي مقصود اليه في سائر الأشياء ، وفي الجماع للنساء والرجال الأحرار منهم والعبيد . وأما الأشياء التي أعاينها في أوقات علاج المرضى أو أسمعها في غير أوقات علاجهم في تصرف الناس من الأشياء التي لا ينطق بها خارجا فأمسك عنها وأرى أن مثالها لا ينطق به» .

ويظهر أن أبيقراط لم يكتف بهذا القسم بل توكيداً له وضع ناموساً لتعاطي الطب ، ووضع وصايا لمن يريد أن يكون طبيباً وأيده العرب في قسمه وناموسه ووصاياه واتبعوها قولاً وعملاً .

أما الناموس (١) فقد قال فيه : «ان الطب أشرف الصنائع كلها ، إلا أن نقص فهم من ينتحلها صار سبباً لسلب الناس اياها لأنه لا يوجد لها في جميع المدن عيب غير جهل من يدعيها ممن ليس بأهل للتسمي بها . اذا كانوا يشبهون الأشباح التي يحضرها أصحاب الحكاية ليلهوا الناس بها ، فكما أنها صور لا حقيقة لها ، كذلك هؤلاء الأطباء بالاسم كثيرون وبالفعل قليل جداً . وينبغي لمن أراد تعلم صناعة الطب أن يكون ذا طبيعة جيدة مؤاتية وحرص شديد ورغبة تامة ، وأفضل ذلك كله الطبيعة لأنها اذا كانت مؤاتية فينبغي أن يقبل على التعليم ولا يضجر لينطبع في فكره ويثمر ثماراً حسنة مثل ما يرى في نبات الأرض . أما الطبيعة فمثل التربة وأما منفعة التعليم فمثل الزرع ، وأما تربية التعليم فمثل وقوع البذر في الأرض الجيدة ، فمتى قدمت العناية في صناعة الطب بما ذكرنا ثم صاروا الى المدن لم يكونوا أطباء بالاسم بل بالفعل . والعلم بالطب كنز جيد وذخيرة فاخرة لمن علمه مملوء مسروراً ، سراً وجهرا ، والجهل به لمن انتحله صناعة سوء وذخيرة ردية عديم السرور ، ودائم الجزع ، والتهور ، والجزع دليل على الضعف ، والتهور دليل على قلة الخبرة بالصناعة» .

(١) نقلا عن ابن أبي أصيبعة : ١ — ٢٦ .

وفي الوصية قال : « ينبغي أن يكون المتعلم للطب في جنسه حراً ، وفي طبعه جيداً ، حديث السن ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ، جيد الفهم ، حسن الحديث ، صحيح الرأي عند المشورة ، عفيفاً ، شجاعاً ، غير محب للمال ، مالكاً لنفسه عند الغضب ، ولا يكون تاركاً له في الغاية ، ولا يكون بليداً ، وينبغي أن يكون مشاركاً للعليل ، مشفقاً عليه ، حافظاً للأسرار ، لأن كثيراً من المرضى يوقفونا على أمراض بهم لا يحبون أن يقف عليها غيرهم ، وينبغي أن يكون محتملاً للشتيمة لأن قوماً من المبرسمين [1] وأصحاب الوسواس — السوداوي) يقابلوننا بذلك . وينبغي أن نحتملهم عليه ونفهم أنه ليس منهم ، وان السبب فيه المرض الخارج عن الطبيعة ، وينبغي أن تكون ثيابه نقية ومعشره سالماً » .

وتأييداً لما تقدم أذكر اعتقاد أطباء العرب فيمن يريد أن يكون طبيباً .

قال الطبيب مهذب الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن هبل البغدادي المتوفى عام (٦٢٠) هجري في كتابه « المختارات الطبية » [2] :

(١) المُبَرْسَم : مشتق من البرسام – وهو التهاب في الحاجز الواقع بين الكبد والأمعاء ، والمبرسم من يصاب بهذا الداء . وأصل الكلمة دخيل على العربية وهي مركبة من « بر » ومعناه الصدر بالفارسية و « سام » ومعناه (الموت) .

(٢) وما جاء في وصايا البغدادي يتفق مع ما جاء في وصايا عميد أطبـــاء القاهرة (ابن رضوان) الذي اشترط على الطبيب أن يكون متحلياً بسبع خصال ، هي : « ١ – أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء ، حسن الذكاء ، جيد الروية ، عاقلاً ، ذكوراً ، خير الطبع . ٢ – أن يكون كتوماً لأسرار المرضى لا يبوح بشيء من أمراضهم . ٣ – أن يكون حسن الملبس ، طيب الرائحة نظيف البدن والثوب . ٤ – أن تكون رغبته في إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتمسه من الأجرة ، ورغبته في علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء . ٥ – أن يكون حريصاً على التعليم والمبالغة في منافع الناس . ٦ – أن يكون سليم القلب ، عفيف النظر ، صادق اللهجة ، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعلاء ، فضلاً عن أن يتعرض لها أو الى شيء منها . ٧ – أن يكون مأموناً ثقة على الأرواح والأموال ولا يصف دواء قتالاً ولا يعمله . ولا دواء يسقط الأجنة . يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه . » ابن أبي أصيبعة – جزء ٢ ص ١٠٢ – ١٠٣ .

« ان لكل واحد من الناس حداً من الاستعداد في قبول العلوم والصنائع بحسبه يكون مطبوعاً فيها ، فاذا توفر على ما هو مستعد له ومطبوع فيه انتفع به ونفع ، وان تعداه الى غيره ضر واستضر ، والصنائع والعلوم تنمى وتزيد بوقوعها الى المستعدين المطبوعين فيها ، وتنقص وتفسد بوقوعهـا الى غيرهم . ويعرف المطبوع في الحكمة بصحة مزاجه وتناسب أعضائه وطهارة أخلاقه » .

« مجلد ٢ ص ٦ » .

ويضيف على قوله :

« ومما يمتحن به حتى يوثق بعلمه وعمله أن ينظر فيما اذا أنفق زمانه في الماضي في الاشتغال بهذه الصناعة وملازمة خدمة الكبراء ممن هو أهل لها ، وطول ملازمتهم والقراءة عليهم والعلاج بين أيديهم ، والتدرب في الدخول على المرضى في بيوتهم ، وملازمة خدمة البيمارستانات التي يجتمع فيهـا حذاق الأطباء وكثرة نظره الى معالجة الأستاذ فيشار اليه ويعول عليه . وكذلك هل يثني عليه الناس لحسن سيرته وديانته ، وان همته اذا خلا في بيته مطالعة الكتب ودراسة هذه الصناعة ، وأنه غير مشتغل باللهو واللعب والشرب ومواترة السكر ، ولا ببعض هذه الخلال المذمومة التي تستغرق الزمان بالتضييع ، والخاطر بالتوزيع ، فان كان ينسب الى شيء من ذلك فلا ينبغي أن يوثق اليه ولا يعول عليـه في هذه الصناعة » .

وهو قول اذا نظرنا اليه بعين تلك الزمن وبعين زمننا وبعين التحليل السيكولوجي والصحي والمسلكي نجده متوافقاً مع قسم ابيقراط ومع ناموسه الطبي ومع وصاياه ومع ما كانت تتطلبه العصور العربية في معاهدها وبيمارستاناتها من أطبائهـا ، ومع ما نسعى الى تحقيقه والعمل به معاهدنا العلمية الحديثة في تنشئة الأطباء وتهذيب أخلاقهم وتربيتهم الصناعية لأنه قول صادر عن تجربة وعلم ، ونفس

نذرت نفسها للتعليم والتدريب والتنشئة وخدمة المهنة ، وخدمة الإنسان والإنسانية .

وبعد هذا لنعد الى متابعة بحثنا عن تطوّر الطب ونشأة الأطباء ، فأقول :

ومن بعد أفلاطون ظهر أريسطو الذي ولد في عام ٣٨٤ قبل الميلاد ومات في عام ٣٢٢ وكان من أعظم فلاسفة اليونان وهو وان لم يكن طبيباً ولكن تعاليمه أثرت تأثيراً عميقاً في تقدم الطب وفي ذهنية العرب فدعوه المعلم الأول .

ويذكر متتبعو حياته وآثاره أنه ألّف في مواضيع عديدة تتعلق بالطب كعلم الأحياء ، وعلم التشريح المقارن ، وعلم الفيسيولوجيا ، وعلم الأجنة ، وعلم الحيوان ، وعلم النباتات ، علاوة على ما ألّفه في الفلسفه والمنطق والبيان والسياسة وعلم النفس وعلم الأخلاق .

وكان أستاذاً ومربياً لاسكندر الكبير في صغره ولما تولى اسكندر زمام الحكم ، وقاد جيشه للفتوحات اتخذ معلمه مشاوراً له في اجراءاته وأموره السياسية .

وقد اشتهر أريسطو بالولع العلمي والتحري الواسع والدقة العلمية والنهج الرتيب .

وفي أيامه أنشأ الاسكندر مدينة الاسكندرية عام ٣٣١ قبل الميلاد وأنشأ معها مدرسة الاسكندرية التي ارتقت ارتقاءً عظيما في عهد البطالسة وبقيت مناراً للعلم ونشره ومعهداً لتخريج العلماء والفلاسفة والأطباء والحقوقيين حتى الفتح الإسلامي عام ٦٤٢ ميلادية . ومن هذه المدرسة تخرج الأطباء (هيروفيلس ، وارسطرارطس) واشتهروا بترقية علمي التشريح والفيسيولوجيا ، وتخرّج منها (جالينوس [١]) أعظم طبيب ترجم له العرب وأخذوا عنه أيام الأمويين لأنه كان خاتمة الأطباء الكبار الثمانية الذين اشتهروا في هذه المدرسة .

وفي طبقات الأطباء يقول الطبيب ابن أبي أصيبعة : « ان جالينوس لما ظهر وجد صناعة الطب قد كثرت فيها أقوال الأطباء السوفسطائيين ، وامّحت

(١) جالينوس Galinus ولد عام ١٣١ وتوفي عام ٢٠١ . له اكتشافات خطيرة في التشريح ، ائتمّ به أئمة أطباء العرب .

محاسنها ، فانتدب لذلك وأبطل آراء أولئك وشيد أقوال (أبيقراط) وآراءه وآراء التابعين له ، وصنف في ذلك كتباً كثيرة كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة ، وأفصح عن حقائقها ونصر القول الحق فيها ، ولم يجيء بعده من الأطباء إلا من هو دون منزلته ومتعلم منه» .

وكانت مدة حياة جالينوس على رأي الطبيب النحوي سبعة وثمانين سنة ، منها صبي ومتعلم (١٧) سنة ، وعالم ومتعلم (٧٠) سنة . ولكن جالينوس يقول عن نفسه في كتابه (مراتب قراءة كتبه) : «ان أبي لم يزل يؤدبني بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضيات التي تؤدب بها الأحداث حتى انتهيت من السن الى خمس عشرة سنة ، ثم انه أسلمني في تعليم المنطق وقصدَ بي حينئذ في تعليم الفلسفة وحدها ، ثم رأى رؤيا دعته الى تعليمي الطب فأسلمني في تعليمه وقد أتت عليّ سبع عشرة سنة ، وبعدها تعلمت الطب وتعاطيته حتى بلغت الثاني والثلاثين سنة .

وكان جالينوس عبقرياً واسع المعلومات ، ذرب اللسان ، كتب الكثير في مختلف المواضيع الطبية المعروفة في زمانه انما كان ينقصها سلاسة أبيقراط ووضوحه .

وكان في حياته ومعيشته يحب الفخفخة ، وطالما ساقه عقله المولّد الى الدخول في عالم الخيال والفلسفة ، ولذلك أتى ببعض الآراء الوهميـة غير المعقولة ، وأتت مؤلفاته صعبة الدرس والفهم ، ومع هذا فقد كانت بين المؤلفات الأولى التي نقلت الى العربية ، ترجمها حنين بن اسحق وولده اسحق وابن اخته حبيش الأعسم .

وكانت مدرسة الاسكندرية جمعت تآليف جالينوس كلها وبوّبتها ووضعتها في ١٦ مجلداً ليسهل درسها ، وذكر ابن أبي أصيبعة أن هذه المجموعة من الكتب المترجمة الى العربية كانت المتداولة بين الناس وفي أيديهم والمعتمد عليها في دراسة الطب (ككتاب الفرق الطبية ، وكتاب الصناعات الصغيرة ، وكتاب النبض الصغير ، وكتاب «غلوقن» الذي معناه الأزرق كتبه في التأني اشفاء

الأمراض ، وكتاب في العظام ، وكتاب في العضل وتشريح العصب ، وتشريح العروق غير الضوارب ، وتشريح العروق الضوارب ، وكتاب الاسطقسات [١] وهو يبين جميع الأجسام التي تقبل السكون والفساد وهي أبدان الحيوان والنبات ، والأجسام التي تتولد في بطن الأرض ، وكتاب المزاج ، وكتاب القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأمراض ، وكتاب تعريف عمل الأعضاء الباطنة « باثالوجيا » ، وكتاب النبض الكبير ، وكتاب أصناف الحميات ، وكتاب البحران ، وكتاب حيلة البرء ، وكتاب علاج التشريح الكبير ، وكتاب فيسيولوجيا الأعضاء ، وكتاب في قوى الأدوية المسهلة ، وكتاب في العادات ، وكتاب في الأدوية المفردة ، وله كتب أخرى في أمور طبية ومسائل تتعلق بالتداوي نظر فيها وفسرها من جاء بعده من الأطباء الاسكندرانيين كاصطفان ، وانقيلاوس ، وجاسيوس ، وماربنوس ، وثادووسيوس ، وديسقوريدس ويحيى النحوي الذي عاش ولحق زمن عمرو بن العاص في مصر وله كتب عديدة ترجمت الى العربية أيضاً مع كتب ديسقوريدس صاحب الفضل في تعليم وتصنيف مفردات الطب) .

وبعد ما انشقت الامبراطورية الرومانية [٢] الى مملكتين واضطهد رؤساء النساطرة السريان الذين كانوا في مدارس أثينا هاجر النسطوريون الى الشرق وكانوا من العلماء والفلاسفة والأطباء وحملوا معهم العلوم اليونانية وثقافتها وسكنوا بلاد الرها وما جاورها وأقاموا فيها مدارسهم .

(١) الاسطقسات : معناها العناصر . وهي عند الأقدمين . (الماء والأرض والهواء والنار) وأصلها مأخوذ من اليونانيه .

(٢) لم يكن العصر الروماني البيزنطي الممتد من عام ٤٧٦ الى ٧٣٢ بعد الميلاد من العصور التي لها أثر كبير على العرب ، بل كانت المدنية اليونانيـــة خلالها في انحطاط وانحصرت تعاليم أبيقراط ، وسوقراط ، وجالينوس في الأديرة .

ومنهم من سكن في نصيبين ، وقنسرين ، وميافارقين ، وأسسوا فيها مدارس علمية وطبية أخرى بلغت خمسين مدرسة ، ومنهم من هاجروا الى جنديسابور من بلاد العجم وأوجدوا أيضاً مدرستهم الشهيرة التي تخرج منها الطبيب العربي الشهير الحارث بن كلدة أول طبيب في الجاهلية قابل كسرى أنوشروان مع وفد من رؤساء العرب وتحدث اليه ووصف له فضائل العرب ومكارمهم وأجابه على عدة أسئلة سأله عنها ليمتحن معرفته .

وكان النساطرة ترجموا العلوم اليونانية الى السريانية ، ولما فتح العرب بلاد سورية والعراق وايران ، وفتحوا قلوبهم للعلم وبذلوا الأموال للحصول عليه وصرفوا حياتهم للحصول على كتبه وترجمتها وسافروا لأجل ذلك الى بلاد اليونان وايران والهند والصين وعملوا على ترجمتها ، واستقدموا العلماء والتراجمة لهذه الغاية وللتعليم والتدريس والتطبيب ، كان هؤلاء النساطرة وغيرهم من خير ما ساعد على ذلك .

والذي نستطيع استنتاجه من كل ما تقدم أن أطباء العرب بدأوا تعلم الطب من الذين كانوا في مدرسة الاسكندرية ابان فتح مصر ، ثم من أطباء النساطرة الذين كانوا يدرسون في مدارس الرها وغيرها مما ذكرنا أسماءها .

(يتبع) عبد الرحمن الكيالي

العلاقات الجوهرية

بين اللغتين العربية والآرامية « السريانية »

في النواحي التاريخية والفنية واللغوية والأدبيـة

— ٤ —

ان المرحلة الطويلة التي عاش فيها العرب الغساسنة متحدين بالسريان في مناطق سورية وغيرها ، أتاحت أعظم فرصة للقاء اللغتين العربية والآرامية السريانية ولاتصالها الطويل ، مما كان له الأثر الفعال في كلتيهما ، وعلى الأخص في بلاد سورية ، وقد بقيت آثاره الى اليوم دائرة على الألسن السورية ، إذ اصطبغت اللغة العربية المحكية فيها بصفات سريانية كثيرة منذ تلك العصور الى يومنا هذا .

وأهم الآثار السريانية الآرامية في اللغة العربية المحكية في بلاد الشام على الأخص هي ما يأتي :

١ — قلب (ميم الجمع) الى نون في ضميري المخاطبين والغائبين مثل (أبو كن ، أخو كن ، بيتكن) ، عوض (أبوكم ، أخوكم ، بيتكم) ، ومثل (أبوهن ، أخوهن ، بيتهن) عوض (أبوهم ، أخوهم ، بيتهم) . وذلك مستمد من السريانية الآرامية اذ يقال (ܐܒܘܟܘܢ ، ܐܚܘܟܘܢ ، ܒܝܬܟܘܢ) كما يقال (ܐܒܘܗܘܢ ، ܐܚܘܗܘܢ ، ܒܝܬܗܘܢ) . وهي صيغة سريانية لا غير .

٢ — اسكان الحرف المتحرك بحركة الاختلاس في وسط الكلمة ، وقد تنقل حركته الى الحرف الذي قبله مثال ذلك : (عِلْتَك ، عَمْتَك . و نحّله ، زلقطه) وما اليها عوض (عِلَتُك ، عَمّتُك . نحمله ، زلقطة) كما هي الحال في بقية البلاد العربية .

٣ — اسكان المتحرك في أول الكلمة وفي مواضع أخرى من ذلك : (كْبيِر ، صْغير ، كْبار ، نْروح) وهذه توجد في لغة الموصل العامية أيضاً ، وهي مستمدة من السريانية لا غير ، لأن هذه الحالة لا توجد إلا في اللغة السريانية .

٤ — استمداد لغة الشام العربية المحكية الى الآن كلمات كثيرة سريانية صرفة من ذلك : دَقَر أي (صدم) ، سكر (أغلق الباب ونحوه) ، دنّق (نظر) ، فقع (انفجر) ، دلف (مشى وكف) ، شمط (استل السيف ونحوه) ، شطح (بسط ، مدّ ، وامتدّ) فلش (هدم) ، (وهذه توجد في عامية الموصل أيضاً) ، شقل (نقل ، أخذ) . ومن الأسماء : شوب (الحر) ، شرش (جذر) ، شكارة (ما يزرع لأجل القوت القليل ، وهذه توجد في عامية الموصل أيضاً) ، القاتول (القاتل) ، الشاقول (ما يستعمله المعمار لوزن استقامة البناء) ، القرطب (نوع من الشوك معروف) .

كل هذه الأفعال والأسماء مستمد من السريانية الآرامية ، وهي فيها في هذه الصيغة . ونحن لا ندعي أنها موجودة من عهد الغساسنة العرب كلها ، فلا بد أن هنالك ألفاظاً واصطلاحات دخلت اللغة العربية منذ انتشارها بعد هروب السريانية من الألسنة السورية ، ومن هذا القبيل أيضاً أسماء كثير من القرى والأنهار والأماكن التي ورثت أسماءها من اللغة الآرامية القديمة .

وهذه الأمور تكفي للدلالة على تأثر اللغتين احداهما بالأخرى في سيرهما جنباً الى جنب كل هذه المدة الطويلة ، وتمازج أهليها في مختلف العصور التأريخية .

والآن ننتقل الى منطقة عربية أخرى هي منطقة نجران في بلاد اليمن السعيدة ، فقد تبوأها العرب المسيحيون منذ أقدم العصور المسيحية ، وكانوا متحدين مع الكنيسة السريانية الآرامية في بلاد سورية وغيرها ، وهو ما جعل اتصالاً آخر مباشراً بين اللغتين العربية والآرامية بعد الاتصالات القديمة التي عرفناها سابقاً .

في مدينة نجران العربية ازدهرت المسيحية [١] ، وأقيمت الكنائس الجليلة فيها وفي بقية المدن اليمنية أمثال مأرب والمجران [٢] ، وأصابتها الشدة بين سنتي ٥١٩ — ٥٢٤ مذ داهمها ذو نواس اليهودي فعاث فيها وفي سائر المدن المجاورة تقتيلاً وتفظيعاً ، واشتهر من الشهداء المسيحيين العرب الشجعان الحارث بن كعب وبضع مئات من الرجال والنساء والأطفال [٣] . وكذلك اشتهرت من الشهيدات عقيلة الحارث الشريفة (رومي) ، وقد أثبت خبر شجاعتها المؤرخ ميخائيل الكبير نقلاً عن رسالة شمعون الأرشمي معاصر هذه الحوادث الدامية [٤] .

ان المسيحية في نجران والمدن المجاورة لها كانت مسيحية عربية آرامية بآن واحد ، كما كانت قبلها الوثنية وثنية عربية آرامية حيث عبد العرب وعلى الأخص قبائل حمير (الشمس) [٥] وهو (شمس) الإله الآرامي القديم ، فتكون القبائل العربية في هذه المنطقة متعلقة بالآرامية في عهديها الوثني والمسيحي ، لأن الفرصة أتيحت في كلا العهدين للقاء اللغتين العربية والآرامية ، غير أنه في العهد المسيحي قويت العلاقة بين هاتين اللغتين الشقيقتين ، لأن أهل حمير أخذوا يكتبون بالقلم الآرامي السرياني بدلاً من الخط المسند الشائع عندهم قبل ذلك [٦] .

ويظهر من سياق حوادث التاريخ أن أهل نجران كان فيهم كثيرون ممن يقرأون اللغة الآرامية ويفهمونها . وقد وجه اليهم العلامة يعقوب السروجي الملفان رسالة ضافية يشجعهم فيها على الثبات في ايمانهم ومكافحة المعتدي الأثيم

(١) الطبري مجلد ١ ص ٩١٨ وابن خلدون ، العبر ٢ ص ٥٩ .
(٢) الدرر النفيسة لغبطة البطريرك أفرام برصوم ص ٣٩٣ و ٤٩١ — ٤٩٢ .
(٣) ميخائيل الكبير ص ٢٧٤ .
(٤) ميخائيل الكبير ص ٢٧٣ — ٢٧٦ .
(٥) ابن العبري مختصر الدول ص ١٥٩ .
(٦) المكتبة الشرقية للسمعاني المجلد ٣ ص ٦٠٣ .

بالصمود في حومة الاستشهاد وذلك في شدة ذي نواس اليهودي سنة ٥١٩ م . وكتبت هذه الرسالة بالسريانية وهذا مطلعها : « الى المجاهدين المختارين ، محبي النصر الحقيقي ، عبيد الله المؤمنين الصادقين . . . . في نجران مدينة الحميريين »[١] وذكر من أساقفة نجران العرب قس بن ساعدة (الخطيب العربي المشهور) كما ذكر من أساقفتها السريان الأسقف فولا الذي كان قد توفي قبل اضطهاد ذي نواس ، فأخرجت عظامه من القبر وأحرقت بأمر هذا الطاغية[٢] .

وعلى ذكر كتابة الحميريين بالخط السرياني الآرامي نعود فنقول مع الأستاذ ولفنسون : إن العرب في عهد جاهليتهم الوثنية كانوا يستعملون الخط النبطي الآرامي المتأخر ، وكانت حضارة العرب الوثنية مرتبطة بالنبط ارتباطاً وثيقاً ، وكان نصارى العرب يستعملون الكتابة النبطية واللغة الآرامية التي كانت لغة العمران والدين عند نصارى الشرق ، وكان أهل نجران على الأخص ، وهم عرب خلص ، يعرفون اللغة الآرامية[٣] ، وعلى الأخص في طقوسهم الدينية ، واتصالهم بالكنيسة الأم في سورية وفي غيرها من الأصقاع الكنسية[٤] ، وهذا كاف لتأييد رأينا في اتصال اللغتين الساميتين ، وتبادل المادة بينهما كما سنرى فيما يأتي :

وكانت في العراق قبائل عربية كثيرة تسير تحت راية الكنيسة السريانية الأرثوذكسية متحدةً معها بالإيمان والعمل ، وأشهرها قبائل تغلب وطي ونمر واياد ، ومن أشهر أساقفتها الأقدمين العلامة الفيلسوف أحودامه ، وكان أسقفاً للمنطقة المعروفة بـ (باعرباي) أي ديار العرب ، وهي الواقعة بين الموصل وسنجار

---

(١) المتحف البريطاني – المخطوطات السريانية رقم ٤٧٢٦ ١١ ورقم الرسالة في هذه المجموعة ١٥ وخمائل الريحان بقلمنا ص ٤٣ – ٤٥ .

(٢) ميخائيل الكبير ص ٢٧٤ .

(٣) ولفنسون ص ٢٠٢ .

(٤) تحقيقات تاريخية ص ٢٧ .

ونصيبين[١] ، وبعد أن قلده مار يعقوب البرداعي مطرانية بلاد المشرق العامة سنة ٥٥٩ م سار بنفسه الى جنوبي العراق ، فدعى بقية العرب الرحل الى النصرانية ، فهدى جماهير كثيرة منهم الى المسيحية ، وأنشأ لهم ديرين وعدة كنائس[٢] . وهذا يدل على أن هذا المبشر كان يتكلم العربية كما كان يتقن لغته السريانية ، ومن المؤكد أنه أنشأ لهم الشعائر الدينية ، هو والكهنة الذين رسمهم لهؤلاء العرب ، باللغة العربية ، كما اشتهر بعده من الأساقفة العرب جرجس أسقف العرب الفيلسوف الذائع الصيت[٣] ، وسنكتب عنه دراسة وافية إن شاء الله .

على أن أشهر القبائل العربية العراقية هي قبيلة تغلب ، وقد حدثنا التاريخ عن وحدتها مع الكنيسة السريانية الأم في العراق ؛ ورسم البطاركة الانطاكيون السريان لها أساقفة كثيرين ، يتصل بعضهم بنسب عربي والبعض الآخر يتحدر من محتد سرياني ، ومن أولئك الأساقفة يوسف التغلبي الذي رسمه البطريرك بوليان الثالث (٦٨٨ — ٧٠٩ م)[٤] . ورسم البطريرك قرياقس التكريتي (٧٩٣ — ٨١٧) ثلاثة أساقفة لهؤلاء العرب ، أولهم الأسقف يوحنا للكوفة ، ثم الأسقف داود ، ورسمه في (دقلا)[٥] عاصمة التغالبة ، والأسقف عثمان العربي ، وهو الخامس والأربعون في عداد أساقفته[٦] ، ورسم البطريرك التلمحري (٨١٨ — ٨٤٥) خمسة أساقفة للعرب التغالبة هم : يوحنا من دير قرقفتـا ، وتوما من دير بيرقوم ، وحبيب من دير كنوشيا ، ويوسف ويسمى (مرزوق) ، وجرجس ، وكذلك رسم لبقية العرب أساقفة آخرين

(١) اللؤلؤ المنثور ص ٩٠٩ الطبعة الأولى ونصته السريانية المخطوطة .
(٢) نصته السريانية المخطوطة .
(٣) اللؤلؤ المنثور ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .
(٤) التاريخ الكنسي لابن العبري ، ترجمة البطريرك بوليان الثالث .
(٥) دقلا كلمة سريانية معناها النخل .
(٦) ثبت البطاركة والأساقفة في تاريخ ميخائيل الكبير ص ٧٥٢ - ٧٦٩ .

أشهرهم يوحنا أسقف العرب الرحل ، ويوحنا أسقف تدمر ، وسبرو من دير أطو [1] . ورسم البطريرك يوحنا الخامس (٨٤٧ — ٨٩٤ م) سبعة أساقفة للعرب من بني معد والتغالبة والنجرانيين (هم بقايا مسيحيي نجران الذين شتتهم ذو نواس اليهودي في اضطهاده لهم سنة ٥١٩ — ٥٢٤ م) وهم : الأسقف يعقوب للتغالبة وأحودامه أسقف بني معد ، وطيبري لبني معد ، وشمعون لبني نجران وبني معد من دير كنوشيا ، وماكوس للتغالبة ، ويوحنا من دير مار زكى لبني معد ، ويوحنا للتغالبة الضاربين في بادية الموصل ، ومثلها فعل البطاركة أغناطيوس الثاني ، وتيودوسيوس ، وديونسيوس الثاني ، ويوحنا السادس ، وباسيل الثاني من سنة ٨٧٨ الى سنة ٩٣٥ م [2] ، فرسموا أساقفة كثيرين لهذه القبائل العربية المتحدة بالكنيسة السريانية في سورية والعراق .

وكان معظم هؤلاء الأساقفة ينتقلون مع قبائلهم من دار الى دار ، يسكنون الخيام ، ويقيمون الشعائر الدينية في بيوت الشعر ، وقد حدثنا الفيلسوف يحي بن جرير التكريتي منهم قال : « وقد كان في العرب نصارى كبني تغلب وقوم من اليمن وغيرهم ، ومعهم أسقف يطوف معهم في الحلل في سفرهم ، وينقل المذبح أعني الدفة المقدسة (الطبليث) [3] من موضع الى موضع ، الى سنة ثلاثمائة للعرب (٩١٢ م) ، فوصل الى تكريت قوم من العرب النصارى وابتاعوا لهم ميرة ليمتاروا بها ، وكان منهم رجل دين حسن الطريقة فقلده مطران تكريت الأسقفية ، وكان يقدس لهم باللفظ العربي ، وكان يقدس لهم على الإنجيل [4] » .

(١) الثبت نفسه ص ٧٥٤ — ٧٥٥ .

(٢) الثبت نفسه .

(٣) هي قطعة من الخشب تكرس ليوضع عليها القربان المقدس .

(٤) كتاب المرشد ليحيى بن جرير التكريتي الباب ٥٤ (مخطوط) .

نستنتج من هذا كله أن العربية والآرامية ، سارتا جنباً الى جنب في جميع العصور منذ عهد الوثنية الى قرون عديدة من عهد المسيحية ، حتى بعد انتشار الاسلام ، مما أثر في كلتيهما تأثيراً عظيماً وعلى الأخص العربية التي أفادت من اختها الآرامية فوائد عظمى . قال الأستاذ محمد عطية الأبراشي : « في الوقت الذي كان للغة الآرامية الغلبة والانتصار أثرت تلك اللغة الآرامية في اللغة العربية تأثيراً عظيماً ، وكلما أمعنا في الفحص والاستقصاء اتضح لنا أن كثيراً من الكلمات العربية التي كانت تستعمل للتعبير عن الأفكار والمواد التي تدل على درجة معينة من المدنية استعيرت من اللغة الآرامية ، ومن هذا نستنبط أن العرب شعروا بالمدنية التي كانت لدى جيرانهم الآراميين في الشمال وأنهم قد تأثروا بها » [1] .

ونختم بحث العلاقات التأريخية بين اللغتين العربية والآرامية بقول الأستاذ الأبراشي أيضاً وهو : « إن اللغة العربية الفصحى . . . نشأت من الآرامية في الشمال والسبئية في الجنوب ، إلا أن آرامية الشمال تغلبت على السبئية في القرون القريبة من الإسلام » [2] . ونضيف عليه قولنا : إن ذلك حديث بفعل الاتصال الدائم الذي رأيناه بين هاتين اللغتين الشقيقتين منذ أقدم عصورهما التأريخية الى العصور المتأخرة .

٥ ــ العلاقات الفنية في الأبجدية

ان العلاقات الفنية في نشوء الأبجدية بين اللغتين الآرامية والعربية هي من الأهمية بمكان عظيم ، بل هي الناحية الأعظم إشراقاً والأرفع شأناً في كيفية

(١) لغة العرب وكيف ننهض بها لمحمد عطية الابراشي طبع مصر سنة ١٩٤٧ ص ١١٤ – ١١٥ والآداب السامية له طبع سنة ١٩٤٦ ص ١٠٨ .

(٢) لغة العرب للأبراشي ص ١٢٢ .

تعاونهما وسيرهما جنباً الى جنب في جميع عصورهما التاريخية ، وتآزرهما على الحياة والنمو والتكامل ، وانبثاق القوى الحيوية وانسكابها من إحداهما في الأخرى ، فما هو الحق التاريخي الذي تحوزه كل من الأبجديتين ؟ وما هو التسلسل الزمني والفني الذي سار فيه كل من القلمين ، كل ذلك سندرسه في سطورنا التالية :

يذهب علماء الساميات الى أن أقدم أبجدية سامية هي الأبجدية الكنعانية (١) ، وعنها نشأت بقية الأبجديات في عصور متفاوتة ، فصدرت الأبجديات الآرامية (٢) والعبرية (٣) ، وفي العصور القريبة من الإسلام انبثقت الأبجدية العربية منحدرةً من الأبجدية النبطية الآرامية (٤) ، ونحن لا يهمنا هذا التدرّج التاريخي في بحثنا هذا وإن كانت فيه هنات لا يصح التغاضي عنها ، إنما تهمنا العلاقة الوثقى بين الأبجديتين الآرامية والعربية ليكون بحثنا حائزاً على كل صفاته الموضوعية الكاملة .

من البديهي أن علماء الساميات أصدروا قرارهم السابق بشأن التدرج التاريخي في نشوء الأبجديات السامية استناداً على الكشوف الأثرية التي وجدت الى الآن ، ولكن الكل يعلم أن هذه الكشوف ما زالت قليلة جداً ـ رغم كثرتها ـ بالنسبة الى ما ستحدثه الكشوف الأثرية القادمة في المستقبل ، لذلك لا يسوغ الركون الى تقرير يستند على مصادر ناقصة ، قد تنقلب رأساً على عقب في لحظة واحدة ، اذا اكتُشف رقيم واحد يضاد معلوماتنا الحاضرة ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية إن تقريراً يستند على مصادر ما زالت آخذة في الازدياد والتكامل يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام لا يسوغ أن تُبنى عليه حقيقة علمية تاريخية

(١) ولفنسون ص ٥٢ .
(٢) فيه .
(٣) فيه ص ٥٣ .
(٤) فيه ص ٢٠١ احمد رضا ص ١٧ و ٣٨

هامة كأصالة الأبجديات وتقديم بعضها على البعض الآخر ، ولذلك نقول إن لدينا نصوصاً تاريخية هامة من القرن السابق للميلاد والقرنين اللذين يليانه تذهب الى أن الآراميين هم أول من اخترع الكتابة ، وبالتالي تجعل الأبجدية الآرامية أول أبجدية سامية ، وتدّعى أن الأبجدية الكنعانية هي الصورة الأولى البسيطة للأبجدية الآرامية ، ونورد هنا نصين من تلك النصوص بتحفظ غير جازمين الآن بصحتها المطلقة . قال ديودروس الصقلي المؤرخ الشهير الذي عاش في القرن السابق للميلاد : « إن اختراع الكتابة يعود الفضل فيه الى الآراميين » . وقال اقليمس الإسكندري في القرن الثاني للميلاد : « ذهب كثيرون من القدماء الى أن الآراميين هم الذين اخترعوا الكتابة »[1] . وعلى هذا الأساس نقول إن لم تكن الأبجدية الآرامية أقدم أبجدية سامية فهي حتماً من أقدمها[2] .

أما العلاقة الفنية بين الأبجديتين الآرامية والعربية فتنحصر في أربع وجوه هامة هي:

١ — انحدار الأبجدية العربية من الأبجدية الآرامية .

اختلف المؤرخون العرب في المصدر الذي انحدرت منه الأبجدية العربية ، فذكر معظمهم أنها منحدرة من الخط المسند[3] . ولكننا لا نستطيع إقامة دليل ملموس على صحة هذا الرأي ، لأننا لا نحوز آثاراً خطية تؤيده ، وقد ظهرت في الآونة الأخيرة رقم حجرية عثر عليها المستشرقون في فترات متفاوتة من الزمن ، وهي تحوي دلائل ملموسة تنير طريق البحث في هذا الموضوع ، وبعد دراسة هذه الرقم الحجرية الهامة قرّر علماء الساميات أن الأبجدية العربية اشتُقت من الأبجدية النبطية الآرامية[4] . ولا نعدم شهادة تاريخية عربية هامة تؤيد هذا

(١) اللمعة الشهية . ليوسف داود . ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢ .

(٢) اللؤلؤ المنثور . لبطريرك أفرام برصوم ص ٢٦ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٨ — مطبعة مصطفى محمد . صبح الأعشى ص ٨٣ .

(٤) وليفنسون ص ٢٠١ واحمد رضا ص ١٧ و ٣٨ .

الرأي . قال البلاذري في فتوح البلدان : «اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقة وهم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن جدوة [١] فوضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ، وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر ابن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم السكوني صاحب دومة الجندل ، يأتي الحيرة ، فيقيم بها الحين ، وكان نصرانياً ، فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب ، فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ، ثم أراهما الخط فكتبا» [٢] .

واذا دققنا هذا النص التاريخي الهام نجد أنفسنا أمام شهادة صريحة تؤيد ما ذهب اليه علماء الساميات وهو أن (النفر) الذين (اجتمعوا) ببقة (وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية) . والأصح أن يقال أن هؤلاء الثلاثة (تعلموه) لا وضعوه .

أما الخط المسند فانه خط حمير [٣] ، ومن المعروف أن الحميريين استبدلوا الخط المسند بالخط السرياني [٤] . والمعروف أيضاً أن الخط المسند الحميري هو خط سبئي ، وقيل إن الخط المسند منقول من الخط الكنعاني مباشرةً [٥] ، إلا أن ثقات المستشرقين ينكرون ذلك ، ويؤيدون أن خطوط شمال بلاد العرب منقولة مباشرةً عن الخط الآرامي اعتماداً على ما كان بين الآراميين وهذه القبائل

---

(١) ذكر ابن خلدون في مقدمته غير هؤلاء (النفر) ص ٤١٨ .
(٢) البلاذري . فتوح البلدان ص ٤٧١ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ٨
(٤) المكتبة الشرقية للسمعاني الجزء ٣ ص ٦٠٣ .
(٥) ولفنسون ص ١٧١ .

العربية من القربى والجوار [١] ، وهذا الرأي نرجحه ، لأن القبائل العربية لم تلتق مطلقاً بالمدنية الكنعانية ، بل امتزجت بالمدنية الآرامية كما رأينا في أوائل بحثنا هذا .

أما صدور الأبجدية العربية من الأبجدية النبطية الآرامية فنرى أنه تمّ على مراحل وفي فترة تُقارب القرنين من الزمن ، وقد ظهرت رقم أثرية هامة أنارت الطريق أمام الباحث في هذا الموضوع .

إن هذه الرقم الأثرية توضح لنا كيف تولدت الأبجدية العربية من الأبجدية النبطية الآرامية ، ويتم لنا ذلك اذا قابلنا بين القلم النبطي المتأخر والقلم العربي القديم ، وأشهر الرقم التي يجب دراستها في هذا المضمار هي خمسة نقلها المستشرقون نيبيه آبوت [٢] وسفجت ووايت [٣] ، وقد حظينا بدراسة وافية لبعضها قام بها سفجت ووايت وهو ما يساعدنا على الافادة منها في موضوعنا ، ونقلها أيضاً وعلق عليها الأستاذ اسرائيل وليفنسون [٤] كما نقلها الأستاذ ناصر النقشبندي في مقاله (منشأ الخط العربي) [٥] .

أما كيفية المقابلة بين هذه النصوص الأثرية فتتم بملاحظة القلم النبطي المتأخر ، والقلم العربي القديم ؛ ويمكن وضع هذين الرقيمين (النبطي المتأخر والعربي القديم) أنموذجاً للملاحظة والمقابلة والاستنتاج ، أما النبطي المتأخر فانه رقيم أم الجمال الأول الذي عُثر عليه في أم الجمال الواقعة في جنوب حوران في شرق الأردن ، وهو يعود الى قبر فهر بن جذيمة ملك تنوخ [٦] ، وتاريخه نحو سنة ٢٥٠ م ،

(١) ولفنسون ص ١٧١ .
(٢) نيبيه آبوت لوح ١ ص ٥ .
(٣) سفجت ووايت ص ١ – ٥ .
(٤) ولفنسون ص ١١٠ و ١٩١ ، ٩٢ .
(٥) مجلة سومر المجلد ٣ الجزء ١ ص ١٣٠ – ١٣٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٧
(٦) درسنا هذا الرقيم سابقاً وترجمناه بحسب نظام اللغة السريانية الحاضرة .

وأما العربي القديم فانه رقيم النمارة الذي عُثر عليه في موقع النمارة بجبل الدروز وتاريخه نحو سنة ٣٢٨ م ، وهو يعود لقبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب في الحيرة [١] ، وملاحظة هذين الرقيمين تعطينا فكرة كاملة في تولد الخط العربي ، فان معظم الحروف متشابهة تقريباً ، وهذا التشابه يظهر في شكل الحروف ، ومن المعروف أن الخط النبطي القديم كانت حروفه منفصلة بعضها عن بعض على ما نراه في رقيمي (مرانا ملك النبط) [٢] و (هجرفس الملك) [٣] . أما هـذا الرقيم وما اليه [٤] فنجد فيه كثيراً من الحروف متصلة بعضها ببعض ، وهو ما يوضح كيفية تطور هذا القلم حتى تولّد منه القلم العربي ، ويظهر لنا هذا التطور اذا وضعنا ازاءه رقيم النمارة الذي يُعد أقدم نص عربي ، فحروفه في معظم الأحوال متصلة على غرار الرقم النبطية المتأخرة ، وهي تتشابه تشابهاً عظيماً .

ولننتقل الى دراسة رقيمين آخرين هما رقيم زبد الذي وجد في خربة كنيسة بين قنسرين والفرات بثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والعربية ، ويعود تاريخه الى سنة ٥١٢ م ورقيم حران الذي وجد في المنطقة الشمالية من جبل الدروز مكتوباً باليونانية والعربية على حجر فوق كنيسة قديمة ، ويعود تاريخه الى سنة ٥٦٨ م ، ويعتبر أول نص عربي كامل في جميع كلماته وأسلوبه ، ففي دراسة هذين الرقيمين نجد تطوراً عظيماً في أسلوب الخط العربي وسيره أشواطاً هامة في الاستقلال عن مصدره الخط النبطي ، فالحروف في جميع الكلمات متصلة تماماً ، وقد اتخذت اتجاهاً مستقلاً خاصاً ، ولم يبق فيها من الشكل النبطي إلا الشيء القليل ، تجده في بعض الحروف فقط وهو الدلالة الباقية على مصدره الأصلي النبطي .

---

(١) درسنا هذا الرقيم سابقاً وترجمناه وعلقنا عليه سابقا .
(٢) وليفنسون ص ١٤٣ .
(٣) وليفنسون ص ١٤٤ .
(٤) وليفنسون ص ١٤١ و ١٤٢ .

واذا تقدمنا في الزمن فاستعرضنا رقيم أم الجمال الثاني ، الذي يعد أحدث نص عربي عُثر عليه حتى الآن ، ويعود تاريخه الى منصرم القرن السادس الميلادي ، نجد أمامنا كتابة عربية مستقلة تمام الاستقلال ، مع الاحتفاظ بأشباح باهتة من الشكل النبطي ، وهذا آخر تطور للخط العربي بعد اتخاذه صبغته الخاصة .

وأقدم صورة للخط العربي المستقل هو الخط الكوفي الذي كان يسمى أيضاً بخط الجزم [1] ، واذا تأملنا هذا الخط نجد فيه الأشباح النبطية لم تزل ماثلة ، ثم انتقل هذا الخط من الحيرة الى مكة ، وقيل وصل من اليمن الى الحيرة والأنبار بوساطة كنده والنبط [2] . وهكذا لم يزل الخط العربي يتطور وينحو جانب السهولة والتبسيط حتى وصل الى حالته الحاضرة ، كما أن الخط الآرامي أيضاً تطور تطوراً محسوساً فاشتقت منه عدة أقلام وأشكال مختلفة ذكر بعضها ابن النديم في فهرسته [3] .

وأجلّ أقلام الخط الآرامي المتأخر الاسطرنجيلي ، ويقال له الخط الرهاوي أو الثقيل ، وقد استنبطه بولس بن عرقا أو عنقا الرهاوي في مطلع القرن الثالث ، وقد تأثر به الخط الكوفي تأثراً عظيماً ، بل قيل إن أصل الخط العربي الكوفي هو الخط الأسطرنجيلي نفسه [4] . إلا أننا نعتقد أن الخط الاسطرنجيلي هذا انتقل في القرن الثالث الى اليمن فاحتلّ كتابات آل نجران [5] ثم وصل الى الحيرة القريبة من الكوفة ، والأظهر أن الخط الكوفي بعد أن

(١) صبح الاعشى جزء ٣ ص ١٤ واحمد رضا ص ١٣ و ٤٣ و ٦٥ .
(٢) اسرائيل وليفنسون ص ١٩٨ واحمد رضا ص ٣٩ و ٥٧ .
(٣) الفهرست ص ١٨ .
(٤) اللؤلؤ المنثور ص ٢٦ الطبعة الاولى . حمص سنة ١٩٤٣ .
(٥) المكتبة الشرقية للسمعاني ص ٦٠٣ الجزء ٣ .

أخذ عناصر من الخط النبطي تأثر بالخط الاسطرنجيلي وأخذ أشكاله عنه ، وذلك عن طريق نجران والحيرة . وقد علمنا أن اليمن والحيرة كانتا مركزين للكتابة والثقافة [1] وتأثر الخط العربي بهذا الخط الآرامى معقول جداً ، بل إنه صواب ، لأن اشكال الخطين المتقاربة تؤيد ذلك ، وقد دام استعمال الخط الاسطرنجيلي عند السريان الى المئة الرابعة عشرة ، على أنه نشأ من خط سرياني آخر في القرن التاسع ، وهو الخط السرياني الغربي الذي تطور نحو السهولة واحتفظ الآن بالخط الاسطرنجيلي كاملاً لتزيين رؤوس الفصول [2] في الكتب الخطية الهامة ، كما نشأ عن الخط الاسطرنجيلي أيضاً ما يسمى بالخط السرياني الشرقي ، ونشأت أشكال أخرى للخط السرياني ما زالت ماثلة في المخطوطات الكثيرة النفيسة التي تملأ خزائن الشرق والغرب .

ولو عدنا مرة أخرى نستعرض هذه النصوص الأثرية الخمسة ، لرأينا أعظم نصر يحققه التعاون الوثيق بين الآرامية والعربية ، فالنص الأول (رقيم أم الجمال الأول) هو آرامي الأبجدية واللغة ، شأنُ عدد كثير من الرقم الأثرية المكتشفة في مواطن الآراميين الأُول . ولكنه ينقل الينا حادثة عربية صرفة . أو بالحري إنه يُعنى بتخليد علم عربي خالص ، والنص الثاني (رقيم النمارة) نجد فيه لوناً جديداً من ألوان الحياة ، فانه آرامي عربي بلغته وأبجديته ، أي ان اللغة التي كُتب فيها وردت فيها مفردات آرامية الى جانب المفردات العربية ، وأبجديته ما زالت محافظة على لونها الآرامي ، إنما ظهرت فيها بوادر أبجدية فتية جديدة هي طلائع الأبجدية العربية ، والنص الثالث (رقيم زبد) يشبه النص الذي سبقه بامتزاج اللغتين الآرامية والعربية مادةً وحرفاً ، إلا أننا نلاحظ زيادة في جنوح الناحية العربية الى التبلور والاستقلال ، أما النص

(١) البلاذري . فتوح البلدان ص ٤٧٧ وصبح الاعشى جزء ٣ ص ١٢ و ١٣ و ١٤
(٢) اللؤلؤ المنثور ص ٢٦ و ٢٧ .

الرابع (رقيم حران) فقد زالت منه المفردات الآرامية ، وبقيت فيه صيغتها الحرفية ماثلةً ، ومثله النص الخامس (رقيم أم الجمال الثاني) نجد فيه تحرر العربية من الآرامية مادةً وحرفاً ، ما خلا ما بقي من الدلائل الشكلية التي تعيد الى أذهاننا صور الأبجدية الآرامية بشكل ضئيل ، وهذا لعمري أعظم دليل على سير اللغتين الشقيقتين في طريق النمو والاكتمال .

وعند انتشار اللغة العربية في مواطن الآراميين في سورية والعراق ، على أثر الفتوحات العربية ، نشأت طريقة جديدة عند الآراميين المسيحيين ، وهم السريان ، لكتابة العربية ، وهي التي تسمى (الكَرشوني ، أو الجَرشوني بالجيم المصرية) وهي أن تكتب اللغة العربية بالحروف السريانية ، وذلك منذ منتصف القرن السابع الميلادي . وكأني بالسريان أرادوا بهذه الطريقة إعادة مجد أبجديتهم التي كُتبت بها اللغة العربية في عهد كتابتها الأولى . وهذه الطريقة ما زالت مستعملة عند عموم طوائف السريان الى يومنا هذا ، فنجد جميع طقوسهم وكتبهم المقدسة الكنسية المترجمة الى العربية تُكتب بالأبجدية السريانية . ولدينا نسخ كثيرة من هذا النوع قديمة وحديثة في جميع كنائسنا السريانية .

أما لماذا سميت هذه الطريقة من الكتابة بـ (الكرشوني) فلم يتصل بنا تعليلها من السلف ، مع أنها قديمة جداً كما علمنا الآن ، والأظهر أنها اتخذت اسمها (الكرشوني) من (قريش) . ونحن نعلم أن القرشيين في مستهل القرن السابع كانوا يؤمون أمصار الشام وغيرها لغايات تجارية ، ومن المعلوم أن التجار يحتاجون الى سجلات ودفاتر حسابية وغيرها في عملهم التجاري ، ولما كانت الأبجدية العربية في مستهل القرن السابع غير شهيرة على الأقل ، يكون من المؤكد أن تجار قريش كانوا يكتبون سجلاتهم بالحرف الآرامي واللغة العربية ، وربما شاعت هذه الطريقة في ربوع الشام قبل غيرها ، ولما كان القرشيون هم الذين روّجوها واستعملوها أكثر من غيرهم نسبت اليهم . ولكن كلمة

(كرشوني) لا تحمل طابعاً عربياً في صيغة النسبة بل تحمل طابعاً سريانياً آرامياً صرفاً ، لأن صيغة النسبة باللغة السريانيـة كثيراً ما تكون بالنون قبل الياء السابقة لألف الإطلاق ، وهكذا وضعت في هذه اللفظـة النون قبل الياء السابقة لألف الإطلاق الملغاة ، فتكون لفظة (كرشوني) والحالة هذه منسوبة الى قريش العربية ، وبذلك عادت الأبجدية الآراميـة السريانية الى معانقة صديقتها القديمة اللغة العربية ، ولما كان حرف (القاف) يُقلب في اللهجات العربية المحكية الى (ج) كالجيم المصرية (مثل القاف في : قلب ، قبر ، قصر ، ويقال فيها : كلب ، كبر ، كصر) ، قيل في نسبة هذه اللفظة (كرشوني ـ لا قرشوني) كما كان يجب أن يقال فيها وهذا أوجه تعليل نراه الآن .

ولما كان في الأبجدية السريانية اثنان وعشرون حرفاً فقط ، وهذه ليست كافية لكتابة اللغة العربية التي تحتاج الى ثمانية وعشرين حرفاً ، عمد السريان الى الطريقة التي اعتمدها العرب أولاً عندما اعتمدوا الأبجدية السريانية الآرامية للغتهم ، فصوروا كل حرفين متجانسين شكلاً بحرف واحـد ، فصوّروا التاء والثاء بحرف (التاو) ، والدال والذال بحرف (الدولث) ، والصاد والضاد بحرف (الصودى) ، والطاء والظاء بحرف (الطيث) ، والجيم والغين بحرف (الجومل ـ بالجيم المصرية) ، والكاف والخاء بحرف (الكوف) . وميّزوا بين هذه الحروف بطريقة الترقيق والتفشية السريانية المعروفة عندهم ، فوضعوا نقطة حمراء فوق الحرف القامي كالدال ، (ونقطة حمراء تحت الحرف اللين كالذال) وهكذا أعادوا الحروف الآرامية السريانية الى سابق عهدها مع اللغة العربية .

(يتبع) (الموصل) غريغوريوس بولس بهنام

بطولات العرب (١)

يا دامي الجرح ، لا جرح ولا ألم الجرح بعد انتفاض العرب ملتئم
امسح دموعك إن ماجت موائجها فكل ثغر على الأيام مبتسم
أسا مجع وبطاح الأرض في لجب كأنما الأرض والأفلاك تصطدم
أتحسب الشمس من أبراجها هبطت فجنّت الشمس والأبراج والنجم
ما صيحة في سواد الليل راعبة كأنما الليل من أصدائها وَجم
الله أكبر هذا الصوت من مضر دوّى فزلزلت الأَطواد والأَجم
في كل غاب ضجيج من مواكبهم وكل طود على هاماته شمم
كأنهم والأعادي نصب أعينهم سيل يفيض على أعدائهم عرم
هل العيون خلال الليل في يقظ أم العيون على أجفانها حلم
كلا وربك ما في العين من حلم وانما العرب ثارت فيهم الهمم

٭ ٭ ٭

(١) القصيدة التي ألقاها الأستاذ شفيق جبري عضو المجمع العلمي العربي وعضو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في مهرجان الشعر في دمشق في ١٦ مايس ١٩٥٩ .

شتان ما حاضر نزهى بغرّته — وغابر فاض فيه الدمع والألم
أتت ليال وعين العرب ساهية — كأنهم في ذرا ذؤبانهـــم غنم
على بصائرهم إن أرشدوا حجب — وفي مسامعهم إِن خوطبوا صمم
تكاد تحسبهم في دارهم رمماً — وهل تثور على أكفانها الرمم
تبجبح العجم في أوطانهم زمناً — لله ما اعتسفوا فيه وما اجترموا
فما اللسان لسان العرب إن نطقوا — ولا الثغور ثغور العرب إن بسموا
أيصبح العرب في أوطانهم هملاً — ويزحم البوم هذا الأفق والرخم

✡ ✡ ✡

هوِّن عليك ، فللايام دولتهـــا — فما تدوم على حالاتها الازم
أما ترى العرب من إغفائهم نهضوا — من كل فجّ لهم زحف ومقتحم
كأنما بعثوا التـــاريخ من أمم — فاليوم مجدهم من عيننـــا أمم
كانوا العماليق والدنيا تساندهم — هيهات ما يستوي العملاق والقزم
هذا ابن حمدان والآثار ناطقة — فما يعفّي على آثاره القـــدم
حمى الديار ديار العرب فانطلقت — له الأناشيد والأوتار والنغـــم
سيوفه من دماء الروم قد رويت — وكاد يشرق منها السيف والقلم
ملّ البطاريق من غاراته وبـــدا — على البطاريق من أهوالها السأم
اضرب بعينك في آيات شاعره — تظل تنطق في آياته الكلم
تكاد تسمع صوت الروم إن صرخوا — وتلمس الخوف إن خافوا وإن وجموا

إمّا قتيل تواري الأرض أضلعه ... أو سالم من سيوف العرب منهزم
لو كان يعبد دون الله من صنم ... ما كان لي غير سيف الدولة الصنم
لولا جهاد بني حمدان في حلب ... ما كان للعرب تاريخ ولا علم

✡ ✡ ✡

تلك البطولات كالأهرام راسخة ... فاين ماطمسوا منها وما هدموا
انهض ورتّل صلاح الدين آيتها ... الأذن مصغية والعين تلتهـــم
جاءوا إليك بجيش يعصمون به ... قبر المسيح فما صانوا ولا عصموا
لو كان همهم قبر المسيح لمـــا ... تهودت منهم ذرية ظلمـــوا
أيمنحون بني صهيون تربتـــه ... ويزعمون التقى ، هيهات ما زعموا
الحقد يأكل أكلاً من جوانبهم ... والحقد نار على الأكباد تضطرم
عيسى بن مريم في الإسلام حرمته ... في كل قلب له من أهله حرم
ما في شريعته إلا السلام فهل ... صمّوا عن الشرع إنكاراً له وعموا
أين السلام وقد هدّوا قواعده ... وانما السلم في أفيائنـــا عَدم
محوتهم وبطون الأرض تكتمهم ... في كل رابية عظم لهم ودم
حطين قد غذيت منهم منابتها ... فاخضوضر الشيح والقيصوم والسلم
أين الحصون وأين النازلون بها ... لم يفتهم عن جماح العرب معتصم
ودّ العباب الذي خاضوا غواربه ... لو كاد يبلعهم من بعد أن هزموا
ليغسل العار عن شنعاء هزمتهم ... وكيف يغسل هذا العار بعدهم

✡ ✡ ✡

يا أمة من تراث الدهر خالدة ... مضت ولم تستبح آثارك الأمم
ظنوا اجتياحك مأموناً عواقبــه ... وما دروا أنهم في ظنهم وهموا
كم غارة لهم في الشام عاصفة ... فلم يصبك على غاراتهم هــرم
في كل غور من الأغوار معترك ... وكل نجد من الأنجاد مصطدم
مضوا وخلوا هشيماً من شبابهم ... نما به العود والغيطان والأَكم
حلوا بأرضك حيناً ثم ما لبثوا ... أن غادروا الأرض لم تثبت لهم قدم

✡ ✡ ✡

لمّا رأوك وقد أعيت جحافلهم ... ولّوا وقد أورثوا الغيظ الذي كظموا
كأن أنسالهم من بعدهم حلفوا ... أن يبعثوا الحقد نيراناً وينتقموا
فأقحموا في ديار العرب شرذمة ... من آل صهيون لا عهد ولا ذمم
هذي حضارتهم والشرّ يملؤها ... ماتت على صرحها الأَخلاق والشيم
يشردون شيوخــاً من ديارهم ... كأنهم في صحــارى تيههم بهم
قوم يموتون من بؤس يشتتهم ... وآخــرون على أظلالهم نعم
خير من العلم جهل تستقرّ به ... حرية الخلق والأنفاس والنسم
هل يبعث الله نوحاً في سفينته ... حتى يعم الورى الطوفان والديم
كأنما الروض من آثامهم يبست ... فما ينضرها ورد ولا عنــم

✡ ✡ ✡

مهلاً فلا تيأسن اليوم ان عبست ... لك الليالي وإن ماجت بك الظلم
ما ضرّ موكبك الجرار إن طرحوا ... صخراً على دربه فالصخر ينحطم
فما يعوق ضياء الشمس إن سطعت ... غيم على جنبات الشمس يزدحم
تمضي الليالي واسرائيل جاثمة ... على فلسطين لا عاشوا ولا جثموا
ذل ومسكنة في كل أعصرهم ... هذا اللباس وهذا الجلد والأدم
أضحوا جراثيم في الأوطان ناخرة ... يشتد منها على أوطاننـــا السقم
تلك الثعابين إن سالت مزاحفها ... سال الذعاف على الأنياب والنهم
فهل تظل سفوح القدس ضائعة ... فأين ما سلبوا منها وما غنموا
إذا ضحكنا فما في جدهم ضحك ... وإن عبثنا بهم فالعـــابثون هم

☆ ☆ ☆

ألهى بني يعرب عن نصر إخوتهم ... شمل على غمرة الأحداث منفصم
على الفـــراتين من آثاره ثلم ... فسل عبابهما هل سدّت الثلم
كأن دجلة قد ثارت أباطحـــه ... أما ترى هـذه الأمواج تلتطم
تخاله معرباً عن نار غضبتـــه ... وللخضمّ لسان معرب وفم
بيني وبينك يا بغداد واشجـــة ... من الأواصر ما تنفك تلتحم
أتصرمين حبالاً حاكها نسب ... من العروبة يا ويح الذي صرموا
ماذا تقولين للمنصور إن لمحت ... عيناه في حلمه الملك الذي قسموا
كانت قصور بني العباس آمنـــة ... واليوم ألوت بها الأحقاد والنقم
دم يسيل على أطرافها دفعـــاً ... وأربع ملء عين الناس تنهـدم

فما تنام عيون تحتهـــا وَسَن	ولا تبين شفاه فوقهـــا لجم
في الليل إن جنحت ظلماؤه ظِنن	وفي الصبـــاح على إشراقه تهم
كأنما الثورة الحمراء ديدنهـــا	ملك على ظله الأَرواح تختزم
فهـــل يثوب رجال بعدما جهلوا	أم هل يثوب رجال بعد ما علموا
متى أرى حمرة الرايات صائرة	الى البياض عليها السلم منتظم

✡ ✡ ✡

سيندم العرب إن طال الشقاق بهم	وليس ينفع عضّ الكف والندم
لم نبن ملكاً ولم نلهج بثورتـــه	ليهدم العرب ما نبني ويختصموا
إن الدماء التي روّت جوانبـــه	يكاد منها يشيب الرأس واللمم
أيذهب اليوم ما ضحوا به هدراً	أما لنا من هدى ايماننـا حكم
أخبثْ بها نزوة أملى وساوسها	إبليس حتى يرى منا الذي يصم

✡ ✡ ✡

هذا فؤادي وقد هاجت هوائجه	فكان مثل لهيب النار يحتدم
ليست قوافي ما غنيتُ سامعهـــا	وانما عـبرات القلب تنسجم
فهل أرى العرب أغصاناً يلفّهم	على الديار بيان العرب والرحم
حتى يعيدوا ضحى التاريخ خافقةً	أعلامه فيرف العز والكـــرم

شفيق جبري

الزجّاجي

حياته وآثاره

ومذهبه النحوي من خلال كتابه « الإيضاح »

(٢)

مؤلّفات الزّجاجي :

ورد في إنباه الرواة ، وبغية الوعاة ، وكشف الظنون ، وكتاب برو كلمان كثير من أسماء الكتب التي ألّفها أبو القاسم الزجاجي في شتى علوم اللغة . ولكن لم يصل إلينا من هذه الكتب إلا القليل ، ولم يُطبع مما وصل منها إلينا إلا كتابان ، وما زال سائرها ينتظر الجهد والعزيمة لينفض عنه الغبار ، ويأخذ مكانه في المكتبات .

وسنتحدث فيما يلي عن هذه الآثار وما يتصف به كل منها ، بادئين بما طبع منها ، ومعقّبين بعد ذلك بالمخطوطات من موجودة ومفقودة .

١ — كتاب « الجُمَل » : وهو أهمّ كتب الزجاجي ، وموضوعه النحو ، تحدثوا عنه أكثر مما تحدثوا عن صاحبه ، وذكروا أنه صنّفه بمكة ، وكان إذا فرغ من باب منه طاف به سبع مرّات داعياً أن يغفر الله له وأن ينفع بكتابه قارئه [١] . وكان عدد الذين انتفعوا به وافراً لا يُحصى ، وكلهم وصفه بالبركة حتى عمّ نفعه بلاد الإسلام [٢] .

(١) إنباه الرواة ٢ : ١٦١ ، وكشف الظنون ١ : ٦٠٣ ، وبغية الوعاة ٢٩٧

(٢) مرآة الجنان ٢ : ٣٣٢ ، وشذرات الذهب ٢ : ٣٥٧

ويبدو أنه كانت لهذا الكتاب قيمة علمية كبيرة في عصره ، حتى انشغل به الناس وجعلوا حفظه همهم . قال الفهري – وهو أحد شرّاح الجُمَل – : « أكثر الناس من استعمال « الجمل » ودراسته ، والزموا أنفسهم حفظه ودرايته ، ... وإنه تصنيف قد أنجد وغار وطار في الآفاق كل مطار »[1] . و « الجمل » هو الكتاب النحويّ الذي عوّل عليه الدارسون حتى جاء الفارسي وابن جني فشغلاهم بكتبهما . قال القفطي : « وهو كتاب المصريين ، وأهل المغرب ، وأهل الحجاز واليمن والشام ، إلى أن اشتغل الناس بـ « اللمع » لابن جني ، و « الإيضاح » لأبي علي الفارسي »[2] .

وقيمة الكتاب هذه ، هي التي تفسر لنا هجوم العلماء على شرحه ، وازدحامهم على الكتابة عنه . قال صاحب مرآة الجنان : « أخبرني بعض فضلاء المغاربة بأن عندهم الكتابه – أي للجمل – مائة وعشرين شرحاً »[3] . وكذلك نقل ابن العماد في شذرات الذهب[4] . وقد طوت الأيام معظم هذه الشروح ، ودرست أسماؤها ، فلم يبلغنا إلا أقلها .

أما كتاب « الجمل » نفسه فقد ذكروا أنه كتاب جيد لولا طوله بكثرة الأمثلة . ولعلّ أحد المتقدمين أطلق هذا الحكم ، بالقياس الى كتب النحويين الأولين ، فتناقل المؤلفون هذا الحكم دون تمحيص ، وهو حكم غير مصيب . فالكتاب جيد ومن تمام الجودة فيه وضوح الأمثلة . وقلّ أن نجد بين كتب النحو القديمة مثل كتاب الجمل وضوحاً وبياناً . وليس عيباً أن يخرج الزجاجي عمّا وضعه سيبويه من منهج في التأليف قائم على الإيجاز والاختصار ، والتكثيف ،

---

(١) مقدمة وشي الحلل .
(٢) إنباه الرواة ٢ : ١٦١
(٣) مرآة الجنان ٢ : ٣٣٢
(٤) شذرات الذهب ٢ : ٣٥٧

والخلل بتوضيح المثال أو إتمامه ، حتى بات «الكتاب» لا يفهمه إلا فقهاء العلم والراسخون فيه .

ثم إن كتب النحو لا توضع كلها لطبقة واحدة من الناس . فلئن كان كتاب سيبويه وأمثاله يصلح للشيوخ الذين تعمقوا في العلم ، ووقفوا على دقائقه وأسراره ، فإن كتاب الزجاجي وأمثاله لينفع المبتدئين في النحو والمتطلعين الى تعلمه ، وذلك لأنه : «كانت طريقته في النحو متوسطة ، وتصانيفه يقصد بها الإفادة» [1] . ولقد شهد له بعض العلماء أنهم بتآليفه فتحوا أنظارهم على النحو ، قال ابن السِّيد البطَلْيوسي : «وإنه ـ أي الزجاجي ـ من أئمة هذه الصناعة ، فإنا بكتابه قد افتتحنا النظر في هذا العلم ، وهو الذي رشّح بصائرنا لما مُنحناه من الفهم .» [2] .

ويجدر بنا ـ ونحن بصدد الحديث عن صعوبة النحو ، وضرورة تيسيره ـ أن نعود إلى مثل كتاب الجمل ، لنرى النحو فيه واضح العبارة ، قريب المتناول ، سخيًّا بالأمثلة ، بعيداً عن التعقيد . وتظهر رغبة الزجاجي في توضيح النحو وتقريبه حين يهجر بعض المصطلحات أو يفسرها ليكون كلامه أقرب الى الفهم ، ويصرّح بذلك فيقول : «وليس هذا من ألفاظ البصريين ، ولكنه تقريب على المبتدئ» [3] . وكذلك ينقل أفكار الكوفيين بغير عباراتهم ، لأن ألفاظهم لا يفهمها إلا من تعوّد النظر في كتبهم» [4] . بل هو يشرح كتاب «الزاهر» ويختصره «لأنه كتاب مقصود به المبتدئون للنظر في علم اللغة ...» [5] .

(١) إنباه الرواة ١ : ١٦٠
(٢) اصلاح الخلل : الورقة ١
(٣) الجمل : ٩٠
(٤) الايضاح
(٥) مختصر الزاهر : الورقة ١

والزجاجي ـ على عادة القدماء ـ يلحق بالنحو في كتاب الجمل بعض ما يتصل بالإملاء كبابي الهجاء ، وهما بحثان مفصّلان في رسم الحروف ، وباب أحكام الهمزة في الخط ، وهو بحث في قواعد الهمزة الإملائية وما دار حولها من خلاف بين البصريين والكوفيين ، الذين امتدّ اختلافهم في النحو حتى شمل قواعد الخطّ فكان لكل منهم رأي فيه ! وتعرّض في كتابه أيضاً للضرورات الشعرية فخصّها بباب عنوانه «ما يجوز للشاعر أن يستعمله في ضرورة الشعر» ؛ ولكنه كان بحثاً موجزاً خالياً من الشواهد والأمثلة على خلاف العادة . وضمّن الكتاب أيضاً بعض البحوث الصوتية كباب الإمالة وباب الإدغام وما يتصل بخصائص الحروف من مهموسة ومجهورة .

ومن كتاب الجمل نسخ خطية كثيرة منتشرة في أكثر مكاتب أوربا [1] . ومن نافلة القول أن نتحدث عن نسخه الخطية بعد أن طبع [2] . وكان طبعه سنة ١٩٢٦ بنفقة كلية الآداب في الجزائر وبتحقيق الأستاذ الشيخ ابن أبي شنب . وجاء في هذه النسخة المطبوعة أن المستشرق الألماني «يوحنس ڤولف» طبع في ليبسغ سنة ١٩٠٤ مقالة لخص فيها كتاب الجمل ، وترجم إلى اللغة الألمانية الأربعة والستين شاهداً الأولى [3] .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٢ : ١٨٣

(٢) من الواجب ان أشير هنا الى وجود نسخة غير معروفة من كتاب الجمل ، فلعلّه ينتفع بها أحد المشتغلين بالعربية أو الطامحين إلى اعادة طبع «الجمل» بعد ان فقدت نسخه حتى من أشهر المكتبات العامّة وهذه النسخة في دار الكتب بالقاهرة مجلّدة مع مخطوطات أخرى ، ورقمها / ٤٨٦ مجاميع / وهي لا تحمل اسم الجمل ، ولكنها تحمل اسم الزجاجي ، وقد تبيّن لي لدى قراءتها ومعارضتها بالنسخة المعروفة للجمل ذات الرقم / ٦٧ ش / أنها نسخة أخرى كاملة من الكتاب نفسه . وقد كتبت في حلب سنة ٨٩٥ هـ . وهي تبدأ من الورقة ٩٦ وتنتهي في الورقة ١٧٠ .

(٣) الجمل : ٣٨٣

وأما الكتب التي أُلفت حول الجمل فكثيرة جداً ، منها الشروح ، ومنها شروح الشواهد ، ومنها في التعقيب عليه أو التعليق .. وقد رأينا أن شروحه بلغت في المغرب وحده مئة وعشرين شرحاً . ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الجمل نسختان : كبرى وصغرى ، وأن أكثر هذه الشروح كانت للكبرى . ومن شروح الصغرى شرح ابن بابشاذ الذي شرح الجمل وألف كتاباً في الزيادة التي بين الصغرى والكبرى [١] . على أن هذه الشروح جميعاً لم يُطبع منها شيء ، فيما أعلم ، وقد ضاع أكثرها ، ولم أستطع أن أعرف منها أكثر من ثمانية وثلاثين كتاباً أقتصر على ذكر أهمها فيما يلي :

أ — شرح الجمل لأبي القاسم الحسين بن الوليد ، المعروف بابن العريف والمتوفى بطليطلة سنة ٣٩٠ [٢] .

ب — عَوْن الجُمل ، وهو شرح لشواهد الجمل ألّفه أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعري المتوفى سنة ٤٤٩ لأبي الفتح محمد بن علي بن أبي هاشم . وهو آخر كتاب أملاه أبو العلاء [٣] . وللمعرّي كتابان آخران يتصلان بجمل الزجاجي ، كما ذكر ياقوت [٤] ، وهما « تعليق الجليس » [٥] و « إسعاف الصديق » .

ج — شرح أبيات الجمل لابن سيده ، علي بن اسماعيل المتوفى سنة ٤٥٨ [٦] .

د — شرح الجمل لأبي الحجاج ، يوسف بن سليمان ، المعروف بالأعلم الشنتمري ، المتوفى سنة ٤٧٦ . وله أيضاً شرح أبيات الجمل .

---

(١) مقدمة الجمل .

(٢) منه نسخة خطية في دار الكتب بالقاهرة . رقمها / ٤٦٤ نحو / وعدد أوراقها ١٠٥ ورقة .

(٣) معجم الأدباء ٣ : ١٦٠ .

(٤) المصدر السابق ٣ : ١٥٧ و ١٥٨

(٥) جاء في إنباه الرواة أنه « تعليق الخلس » ١ : ٦٤

(٦) منه نسخة في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة . رقمها ١٤٩٣

هـ — إصلاح الخلل الواقع في الجمل [١] ، لأبي محمد عبد الله بن السيِّد البطليوسي المتوفى سنة ٥٢١ . قال عنه صاحب كشف الظنون «إنه أحسن شروح الجمل» [٢] .

و — الحلل في شرح أبيات الجمل [٣] ، للبطليوسي أيضاً ، وهو يشرح فيه معاني الأبيات ويعزوها الى قائليها . وجدير بي أن أنبه على سهو القفطي حين عدّ الكتابين السابقين كتاباً واحداً [٤] .

ز — شرح الجمل لأبي الحسن علي بن محمد ، المعروف بابن خروف الأندلسي ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ [٥] .

ح — شرح الجمل لأبي الحسن علي بن محمد بن عصفور الاشبيلي ، المتوفى سنة ٦٦٩ [٦] .

ط — شرح الجمل لأبي الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الاشبيلي ، المعروف بابن الضائع ، المتوفى سنة ٦٨٠ [٧] . وذكر السيوطي أن

---

(١) منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة ، رقمها ١١١٠ نحو . وعدد أوراقها ٧٦ ورقة مكتوبة بخط مغربيّ . وذكر محقق الجمل أن منه نسخة أخرى في مكتبة ليدن

(٢) كشف الظنون ١ : ٦٠٣

(٣) منه نسخة في دار الكتب بالقاهرة ، مجلّدة مع كتاب البطليوسي السابق / رقم ١١١٠ نحو / تبتدىء من الورقة ٧٧ وتنتهي في الورقة ١٥٠ . ومنه نسخة في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة رقمها ١٤٩٤ . وقال ناشر الجمل ان منه نسخة في مكتبة برلين .

(٤) إنباه الرواة ٢ : ١٦٠

(٥) ذكره السيوطي في الأشباه والنظائر ٢ : ٣٠ . وأشار إليه بروكلمن . وقال ناشر الجمل إن منه نسخة في مكتبة برلين .

(٦) نقل السيوطي كثيراً منه في الاشباه والنظائر ١ : ٢٠ و ١٠٧ و ١٤٣ و ١٤٩ و ٢١٤ و ٢٩٨ و ٣٣٨ . ج ٢ : ٧٤ و ٨٠ و ٩٨ . ومنه نسخة في المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة رقمها ١٤٩٢ . وقال ناشر الجمل إن منه نسخة في ليدن وأخرى في ابروزيانه .

(٧) قيل إنه في ثلاثة اجزاء . ورأيت منه جزأين في دار الكتب بالقاهرة . كتبا سنة ٧٣٥ الأول في ٩٨ ورقة والثاني في ٩٧ ورقة .

أبا الحسن هذا ردّ اعتراضات البطليوسي على الزجاجي .

ي- شرح الجمل لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام النحوي ، المتوفى سنة ٧٦٢ .

وقد نقل السيوطي كثيراً من جمل الزجاجي ، وأقوال شارحيه في كتبه ولا سيما الأشباه والنظائر والاقتراح .

٢ — كتاب الأمالي :

طبع هذا الكتاب في مصر سنة ١٣٢٤ هـ ، وحقّقه الأستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطي ، إلا أنه لم يكلّف نفسه عناء التعريف بالكتاب أو بصاحبه ، بل اكتفى بأن ذكر موجزاً لما قاله ابن خلكان عن الزجاجي .

وقد جاء ذكر الأمالي في كل الكتب التي تحدثت عن الزجاجي أو آثاره ، كما جاءت نقول عنه في الأشباه والنظائر [1] وفي خزانة الأدب [2] . إلا أننا بمراجعة هذه النقول ومعارضتها بالنسخة المطبوعة نتبين أن للأمالي أكثر من نسخة واحدة ، فقد نقل البغدادي في خزانة الأدب عمّا أسماه بالأمالي الوسطى ، ونحن لا نجد ما نقله في «الأمالي» التي بين أيدينا . وكذلك نقل السيوطي في الأشباه والنظائر كثيراً من أخبار الأمالي مما لا نجد في النسخة المطبوعة إلا بعضه فقط ، كمناظرة أبي حاتم السجستاني والتوّزي [3] ، ومناظرة ابن الأعرابي والأصمعي [4] . وقد يكون السبب في ذلك ، أن السيوطي كان ينقل عن نسخ الأمالي المختلفة دون أن يشير الى ذلك . فما كان منقولاً عن الأمالي الصغرى وجدناه في هذه المطبوعة وما كان عن غيرها لم نجده فيها . وهكذا

(١) خطبة الكتاب . و ج ٢ : ٢ و ج ٣ : ٢٢ و ٢٣

(٢) ج ٢ : ١٠٩

(٣) الأمالي : ٧٦ والأشباه والنظائر ٣ : ٢٢

(٤) الأمالي : ٣٩ والأشباه والنظائر ٣ : ٢٣

فما دمنا لم نجد في نسختنا ما نقله البغدادي عن الوسطى ، ولا كثيراً مما نقله السيوطي ، فالأرجح أن تكون النسخة الموجودة هي الأمالي الصغرى . وقد أشار بروكلمن الى وجود الوسطى والصغرى ، ولم أعثر على غير النسخة المطبوعة التي رجّحت أنها الصغرى ، فلذلك سأقصر حديثي عليها وحدها .

كتاب الأمالي عبارة عن مجموعة أخبار وقصص متتالية متنوّعة ، لا نظام لها ، ولا رابطة بينها . ينتقل القارئ فيها من تفسير آية من سورة الكهف مثلاً ، وما قيل فيها من أقوال ، إلى خبر وقع بين معاوية بن أبي سفيان وعامله رَوْح ابن زنباع (١) ؛ ومن شعر لابن أبي ربيعة وجميل بثينة الى رثاء قيل في أحمد ابن أبي دُؤاد (٢) .

ولست أدري ، لعلّ ذلك يعود إلى أن الشيخ كان يُملي دروسه على طلابه ، فإذا ما انتهى الخبر انتهى معه الدرس ، ثم يأتي الدرس الجديد فيأتي معه الخبر الجديد على نحو ما كان يدور في الدروس القديمة التي تعرف بالمجالس .

على أن هذا التباين في الأخبار لا يعني أن الكتاب أشتات جُمعت ، فقد تكون الناحية اللغوية هي التي تنظم كل ما ورد في الكتاب من أخبار وحكايات وأشعار . وعناية الزجاجي باللغة تظهر في هذه الأمالي أكثر من أي ناحيـة أخرى ، حتى كأنها هي وحدها الغرض من إملائه ؛ إنه يورد الخبر أحياناً ولا شيء فيه غير اللغة . قال : «أخبرنا أبو عبد الله نفطويه ، عن أحمد بن يحيى ، عن ابن الأعرابي ، قال : الصبر مصدر صبرت . والصَّبْر لغة في الصَّبِر هذا المرّ . والصبر الحبس ، يقال صبرت فلاناً على كذا وكذا أي حبسته عليه . وفي الحديث أن رجلاً أمسك رجلاً فقتله آخر ، فقال : اقتلوا القاتل واصبروا الصابر أي احبسوه . والصبر الاجتراء على الشيء ، ومنه قول الله عزّ وجل :

(١) الأمالي : ٦

(٢) الأمالي : ٥٥ و ٥٦

«فما أصبرهم على النار» أي ما أجرأهم عليها . وقال المبرد تأويله ما دعاهم إلى الصبر عليها (١) . وأنشد ابن الأعرابي :

سقيناهمُ كأساً سقونا بمثلها ولكننا كنّا على الموت أصبرا

أي كنا أجرأ منهم على الموت فاقتحمناه (٢) » . ومثل هذا كثير جداً في الأمالي .

وقد يتعرّض لبعض المسائل النحوية فيورد أقوال النحاة فيها ثم يذكر رأيه ويعلله كما فعل حين أورد في بعض الأخبار قصيدة الأحوص التي يقول فيها :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

فقال : «وأما قوله سلام الله يا مطر عليها فإنه منادى مفرد ونونه ضرورة . فأما الخليل وسيبويه والمازني فيختارون أن ينوّنوه مرفوعاً ويقولون : لمّا اضطررنا إلى تنوينه نوّناه على لفظه . وإلى هذا كان يذهب الفراء ويختاره . وأما أبو عمرو ابن العلاء ويونس بن حبيب وعيسى بن عمر وأبو عمر صالح بن اسحاق الجرمي فينشدونه سلام الله يا مطراً عليها بالنصب والتنوين ، ويقولون : رُدّ التنوين إلى أصله ، وأصله النصب ، وهو مثل اسم لا ينصرف ، فإذا اضطر الشاعر إلى تنوينه نوّنه وصرفه وردّه إلى أصله . قال الشاعر :

ما إن رأيت ولا أرى في مدّتي كجواريٍ يلعبن بالصحراء

ألا ترى كيف نوّنه وخفضه ؟

قال أبو القاسم الزجاجي رحمه الله : القول عندي قول الخليل وأصحابه ، وتلخيص ذلك ان الاسم المنادى المفرد العلم مبنيّ على الضم لمضارعته عند الخليل وأبي عمرو وأصحابها للأصوات ، وعند غيرهما لوقوعه موقع المضمر ، فإذا لحقه التنوين في

(١) قال الفرّاء في هذه الآية وجهان : أحدهما فما الذي صبّرهم على النار ؟ والوجه الآخر : فما أجرأهم على النار . » معاني القرآن ١ : ١٠٣

(٢) الأمالي : ٨

ضرورة الشعر فالعلة التي من أجلها بني قائمة بعد ، فينوّن على لفظه ، لأنا قد رأينا من المبنيّات ما هو منوّن نحو « ايه وغاق » وما أشبه ذلك ، وليس بمنزلة ما لا ينصرف أصله الصرف . وكثير من العرب لا يمتنع من صرف شيء في ضرورة شعر ولا غيره إلا « أفعل منك » وعلى هذه اللغة قرئ قواريراً قواريراً من فضة بتنوينهما جميعاً ، فإذا نوّن فإنما يردّ إلى أصله ، والمفرد المنادى العلم لم ينطق به منوّناً منصوباً في غير ضرورة شعر وهذا بين واضح . (١) »

أما طريقة الزجاجي في هذا الكتاب فهي طريقة من يُعنى بالأسانيد عناية جيدة حتى يكاد لا يخلو من السند خبر من أخبار الكتاب ، كأن يقول : « قال أبو القاسم أخبرنا أبو اسحاق الزجاج قال أخبرنا أبو العباس المبرد عن أبي عثمان المازني عن الأصمعي قال ... » وهذا أسلوب من اعتقد أن اللغة لا يعتدّ فيها بالرأي وإنما هي بنت النقل والرواية وللاسناد فيها المكان الأول ، ولما كان الزجاجي في أماليه لغوياً فقد اتبع منهج اللغويين ، أما في غير هذا الكتاب فقد يكون للزجاجي موقف آخر كما هو في الإيضاح ، حيث يحدثك عن مشاكل النحو وعلله مستغنياً عن السند ، وما ينفعك السند ما دام محدثك يعلّل لك القول حتى يقنعك قوله أكثر مما يقنعك اسم صاحب الخبر وناقله وسلسلة سنده .

وبكتاب الأمالي نختتم الحديث عن آثار الزجاجي المطبوعة لننتقل الى الحديث عن آثاره المخطوطة من موجودة ومفقودة .

٣ — الايضاح في علل النحو :

وهو الكتاب الذي سنعرض مادته ونخصّه بالحديث بعد قليل .

(١) الأمالي : ٥٤ و ٥٥

٤ – شرح مقدّمة أدب الكاتب[1] :

وهو كتاب شرح الزجاجي فيه خطبة ابن قتيبة في كتابه المعروف بأدب الكاتب . وقد جاء في مقدمة هذا الشرح : « هذا كتاب فيه تفسير رسالة ابن قتيبة في أدب الكتاب ، تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي » وممّا قاله الزجاجي في المقدّمة : « وقد رأيت أن أشرح رسالة الكتاب الموسوم بأدب الكتاب لابن قتيبة ، لأنه ذكر فيها جملاً من الآداب غريبة ، وأعرض عن شرحها صفحاً يسوغ المقال فيها ويتسع الكلام . ففسرت ما تضمنته من اللغة باشتقاقه وتصاريفه ، ومن النحو بعلله ومقاييسه ، وأوضحت ما أومأ إليه مما ذكر ، لحاجة الكتّاب إليه من معرفة المصادر والأبنية ، وانقلاب الياء عن الواو ، والواو عن الياء ، والألف عنهما ، وجملاً من التصريف نافعة لمن نظر فيها وتأملها بعين تدبر واستبصار . وفسرت أخبار الرسول ﷺ التي ذكرها ولم يفسرها ووصلت بها ما جانسها . وذكرت معاني الكلام الذي حكاه عن المنطقيين والهندسيين ، وجملاً من المساحة تكفي من نظرها عما سواها .

وجعلت جميع ذلك موجزاً غاية الإيجاز ، ليقلّ حشوه ، وتكثر فائدته . ولم أخل كل فصل فيه من تضمينه خبراً طريفاً يشاكله ، وأبياتاً نادرة ، وبنتَ معنىً ، ليكون هذا الكتاب – باحتوائه على ما ذكرته للمتطلع الى المعرفة بهذه الأشياء – أحضر فائدة ، وأسرع نفعاً من الكتاب المقصود بالرسالة . وبالله التوفيق »[2] .

(انظر صورة الأصل) . ويأخذ الزجاجي بعد ذلك بشرح كلام ابن قتيبة .

(١) ورد ذكر هذا الكتاب في : إنباه الرواة (٢ : ١٦٠) وبغية الوعاة (٢٩٧) وإشارة التعيين (ورقة ٢٦) وكشف الظنون (١ : ٤٨) وفهرسة ابن خير (٣٤٤) وبروكلمن (١ : ١٧١) . ومن هذا الكتاب نسخة خطية في دار الكتب بالقاهرة ، رقها / ٣٩ ش أدب / وهي في ٧٠ ورقة ، كتبت سنة ٥٨٦ هـ بخط عاديّ ، وعليها شهادة بأنها عورضت بنسخة أخرى عليها خطّ ابن الخشّاب النحوي . وهي نسخة كاملة . صورها معهد المخطوطات تحت الرقم ٣٧٧ . ومنه نسخة أخرى في اسطمبول ، صورها المعهد ايضاً .

(٢) شرح مقدمة أدب الكاتب . نسخة دار الكتب رقم ٣٩ ش أدب ، الورقة ٢

٥ — مختصر الزاهر :

« الزاهر في معاني الكلام الذي يستعمله الناس » كتاب لأبي بكر محمد ابن أبي محمد القاسم الأنباري النحوي المتوفى سنة ٣٢٨ . وهو مجلد شرحه واختصره الشيخ الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي[1] » ويحدثنا الزجاجي عن هذا المختصر فيقول : « هذا كتاب جمعت فيه جمل الألفاظ التي ذكرها أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتابه الموسوم بالزاهر ، فشرحتها مختصرة موجزة ، وحذفت منها الشواهد وما يتعلق بهما من كلامه المطوّل . وقد كان المفضّل[2] ، صاحب الفرّاء ، أنشأ كتاباً في هذا المعنى سماه الفاخر[3] ، جمع فيه قطعة من اشتقاق ما يكثر ترداده في المحاورات والمخاطبات ، فعمد أبو بكر محمد بن القاسم لذلك الكتاب ، فنقله نقلاً ، وذلّل صعبه وبسطه ، وكثّره بالشواهد ، وليس للكتاب ترصيف ولا نظم مستخرج يتعب فيه المؤلف ، وإنما هي حروف بأعيانها ، منقولة من كتب المتقدّمين ، معروفة منهـا ، فهما ومن تكلم في هذه الحروف غيرهما سواء . إلا أني تدبرت الكتاب الزاهر ، فوجدت فيه من السهو والغلط شيئاً كثيراً ، فرأيت مع اختصاره وتهذيب ألفاظه

(١) كشف الظنون ٢ : ٩٤٧ . وورد ذكر الزاهر في المزهر (١ : ٨٧) وفهرسة ابن خير (٣٤١) وبروكلمن (١ : ١٧١) وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٢ : ١٨٣) .

ومن مختصر الزاهر للزجاجي نسخة خطيّة في دار الكتب بالقاهرة ، رقمها / ٥٥٧ لغة عربية / كتبت سنة ٦٢٠ هـ بخط مغربي أندلسي . وعدد أوراقها ١٧٩ ورقة ، متوسطة الحجم .

(٢) لعلّ الصواب هو « المفضّل بن سلمة بن عاصم » ثم سقط ما بعد المفضّل ، وذلك لأن سلمة بن عاصم هو صاحب الفراء لا ابنه المفضّل .

(٣) الفاخر كتاب لأبي طالب المفضّل بن سلمة بن عاصم الكوفي ، ألّفه لما دار واشتهر بين الناس وسار كالأمثال . وقد طبعه المستشرق الانكليزي شارلس انبروس ستوري (C. A. Story) في ليدن سنة ١٩١٥ م .

إصلاح ما فيه من الغلط ، وكشفَه وشرحه ، لأنه كتاب مقصود به المبتدئون للنظر في علم اللغة ، فمتى تعلّق المبتدئ بشيء من هذا الكتاب ومن عليه اعتقده ، ورأى أنه الحق دون سواه . فبيّنت للناظر فيه حقيقة الأشياء ليعرفها . ورأيته قد حكى في مواضع كثيرة للفظة الواحدة وجوهاً ، وللمسألة أجوبة ، تكثيراً لذلك ، وانما يرجع جميعه إلى أصل واحد وإن تباينت ألفاظ العلماء فيه ، فنبهت على ذلك ، وأريت كيف رجوعه إلى أصل واحد . ووجدت فيه أيضاً مواضع قد ذكرها من النحو وعلله ومن التصاريف على مذهب الكوفيين ، فذكرتها على مذهب البصريين ، ودللت على صحة مزاعمهم دون مذهب الكوفيين ، ووجدته قد ذكر في بعض الفصول شيئاً يسيراً من اشتقاق أسماء البلدان ، وترك عامة ما يُحتاج إليه منها ، فأضفت إليه باباً ذكرت فيه جمهور اشتقاق أسماء البلدان ، وأسباب تسميتها . ووجدت فيه أيضاً مواضع قد ترك فيها للمسألة وجوهاً متباينة لفظاً ومعنىً قد ذكرها العلماء مشهورة ، وزيادات في الباب من اللغة لم يأت بها ، فذكرت ذلك أجمع ، ليكون الناظر في هذا الكتاب مع إحاطة علمه بما تضمنه الزاهر ، عارفاً بمواقع السهو فيه ، وبهذه الأشياء التي ذكرتها ، مع اختصار هذا الكتاب ، وإنه دون الثلث من مقدار جملة الزاهر .

وقد وقع في شيء يسير من هذا الكتاب تقديم وتأخير ، على ما اتفق من اختصار ، إلاّ أنا قد أتينا عليه أجمع . »[1]

ولم يترك لنا أبو القاسم ما نزيده على وصف مختصره القيم ، إلاّ أن السيوطي نقل لنا كلمة تبين قيمته إذ قال : قال أبو حسن الشاري في فهرسته : كان شيخنا أبو ذر يقول : المختصرات التي فضلت على الأمهات أربعة ؛ مختصر العين

(١) مختصر الزاهر ، نسخة دار الكتب بالقاهرة رقم ٥٥٧ لغة . الورقة ١ .

للزبيدي (١) ، ومختصر الزاهر للزجاجي ، ومختصر سيرة ابن اسحاق لابن هشام ، ومختصر الواضحة للفضل بن سلمة (٢) . » فتأيدت بهذا القول شهادة الزجاجي بنفسه حين جعل مختصره فوق الأصل .

٦ — كتاب اشتقاق اسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل وما يتعلق بها من اللغات والمصادر والتأويل .

جاء في إشارة التعيين أن اسم هذا الكتاب هو « شرح اسماء الله الحسنى » وأكثر الذين تحدثوا عن الزجاجي لم يشيروا الى هذا الكتاب ، وقد عدّ صاحب كشف الظنون واحداً وثلاثين عالماً ممن ألّف تحت هذا العنوان ولم يشر الى الزجاجي بينهم بل لم يذكر بينهم من مات قبل سنة ٣٨٨ ، وعلى هذا فان الزجاجي قبلهم جميعاً في السبق الى هذا النوع من التأليف (٣) .

ويعرّف الزجاجي بكتابه هذا فيقول في خطبته (٤) : « هذا كتاب أفردته لشرح اشتقاق أسماء الله عز وجل وصفاته المذكورة في الأثر أن من أحصاها دخل الجنة حسب ما رواها أهل العلم واستنبطوها بعد الرواية بشواهد من كتاب الله عز وجل فاستخرجوها منه لئلا يعارض فيها شك ، ولا يختلج في الصدور زيغ

(١) كتاب العين المشهور والذي ينسب للخليل ، اختصره اختصاراً حسناً ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي صاحب طبقات اللغويين والنحويين ، المتوفى سنة ٣٧٩ هـ .

(٢) الواضحة في تجويد الفاتحة ، قصيدة داليّة في اثنين وعشرين بيتاً للشيخ برهان الدين بن ابراهيم الجعبري المتوفى سنة ٧٣٢ . وقد اختصرها فضل بن سلمة .

(٣) يجب أن نشير إلى أن ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ قال في مقدمة كتابه « تفسير غريب القرآن » : « نفتتح كتابنا هذا بذكر أسماء الله الحسنى وصفاته العلى فنخبر بتأويلها واشتقاقها ... » وبذلك يكون سابقاً لغيره ولكنه لم يفرد ذلك بالتأليف كما فعل الزجاجي .

(٤) من هذا الكتاب نسخة في دار الكتب المصرية رقمها / ٣ ش لغة وهي في ١٤٩ ورقة وصورتها في معهد المخطوطات (فلم / ٣١٢) وهي من رواية أحمد بن محمد بن سلمة الغسّاني عن أستاذه الزجاجي . وسمعها منه علي بن الحسين الربعي .

في التصديق بها ، على مذاهب (أهل) العربية العلماء باللغة ، العارفين بأساليب كلام العرب واشتقاقه وتصاريفه ، غير عادل عن مذهب العرب في ذلك خاصة . وأختم الكتاب بالفرق بين الاسم والنعت ، ووجوه النعت في كلام العرب ، ومجاري صفات الله عز وجل وموقعها من ذلك ، وذكر من قال بالاشتقاق ومن أبى ذلك والردّ عليه وبالله التوفيق » (انظر صورة الأصل) .

٧ — كتاب الابدال والمعاقبة والنظائر :

وهو كتاب يبحث في تبادل الحروف بعضها مع بعض وتعاقبها وتناظرها [1] .

٨ — كتاب اللامات :

ذكره كثير ممن ترجموا للزجاجي كالسيوطي [2] وبروكلمان [3] وغيرهما ، وهو كتاب جيد يبحث في اللامات ومواقعها في كلام العرب . قال الزجاجي في خطبته : « هذا كتاب مختصر في ذكر اللامات ومواقعها في كلام العرب وكتاب الله عز وجل ومعانيها وتصرّفها والاحتجاج لكل موقع من مواقعها ، وما بين العلماء في بعضها من الخلاف . وبالله التوفيق [4] . » (انظر صورة الأصل) .

٩ — شرح كتاب الألف واللام للمازني :

ذكر السيوطي [2] هذا الكتاب في جملة كتب الزجاجي وأشار اليه صاحب عيون التواريخ [5] كما أشار اليه صاحب كشف الظنون حين تحدث عن كتاب

---

(١) منه نسخة في اسطمبول مصوّرة ضمن مجموع في جامعة القاهرة / ٢٢٩٦٧ وفي معهد المخطوطات (فيلم ٣٥٦ / ٢ نحو) .
(٢) بغية الوعاة : ٢٩٧ والأشباه والنظائر ٢ : ٢٢٨
(٣) G. A. L . الذيل ١ : ١٧١
(٤) من « اللامات » نسخة في اسطمبول وصورتها في معهد المخطوطات (فيلم / ٧٩٢) ونحن الآن بصدد تحقيقه للنشر قريباً ان شاء الله .
(٥) عيون التواريخ . المخطوط . ورقة : ٣١٧

الألف واللام للمازني [١] . ولم أقع على نسخة منه ولا وجدت أحداً وصفه أو تحدّث عنه .

١٠ — المخترع في القوافي :

ذكره السيوطي وقال انه وقف عليه [٢] وذكره صاحبا « عيون التواريخ » و « كشف الظنون » [٣] . وأما ابن النديم فلم يذكر للزجاجي سواه ولكنه اقتصر من عنوانه على « القوافي » فقط فقال « وله ـ للزجاجي ـ من الكتب كتاب القوافي » [٤] وعدّهما محقق الجمل كتابين ثم استدرك فقال عند ذكره كتاب القوافي : « ولعله هو المخترع . » [٥] وهذا هو الأرجح لأنه ما من أحد جمع بين ذكر الكتابين .

١١ — كتاب الهجاء :

لم يشر أحد إلى هذا الكتاب بين مؤلفات الزجاجي سوى بروكلمن . إلا أن الزجاجي نفسه أشار إليه في كتاب الجمل ، فقال في باب الأفعال المهموزة : « وقد ذكرت عامتها في كتاب الهجاء . » ونقل ذلك عنه ناشر الجمل ولم يزد عليه شيئاً .

١٢ — كتاب المجموع في معرفة أنواع الشعر وقوافيه :

جاء اسم هذا الكتاب منسوباً الى الزجاجي في فهرسة ابن خير [٦] . ونقله عنه محمد بن أبي شنب محقق الجمل . ولم يذكره أحد سواهما .

(يتبع) مازن المبارك

---

(١) كشف الظنون ٢ : ١٣٩٦ .
(٢) بغية الوعاة : ٢٩٧ والأشباه والنظائر ٢ : ٢٢٨ .
(٣) كشف الظنون ٢ : ١٦٢٥ .
(٤) الفهرست : ١١٨
(٥) مقدمة الجمل .
(٦) فهرسة ابن خير : ٣١٤ .

كتاب شرح الألفات

لأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري النحوي

- ٢ -

فان سأل سائل ، عن الف الوصل ، فقال همزةٌ هي أم ألف ، قيل له ، قال قطرب (١) ، هي همزةٌ ، كثر الكلام بها فتركت [الورقة الـ ١١/ب] لأنّ الألف ، لا تحتمل الحركة ، وهي ، في قال ، وباع ، وعماد ، وحمار ، ألفٌ لا [يشك] فيها ، فلو كانت في ، اضرب ، ألفا ، ما تحركت ، وردّ أبو العباس (٢) ، أحمد بن يحيى ، هذا القول ، عليه وقال ، لو كانت همزة ، لثبتت في الابتداء ، والوصل ، كما ثبتت ، همزة امر ، وإصر ، وأذن ، في كل حال ·
وقال الفراء (٣) ، وسيبويه (٤) ، ومن أخذ بقولها ، هي ألفٌ ، إذا كانت

---

(١) هو محمد بن المستنير ، المتوفى سنة ٢٠٦ / ٨٢١ م ، له ترجمة في الفهرست (ص : ٧٨) ، والوفيات (رقم ٦٤٦) وبغية الوعاة (ص : ١٠٤) وتاريخ ابي الفداء (ج ٢ ص ٢٨)

(٢) هو ثعلب من مشاهير نحويي الكوفة ، ولد سنة ٢٠٠/٨١٥ م ، وتوفي سنة ٢٩١/ ٩٠٣ م ، روى عنه ابن الانباري . له ترجمة في الفهرست (ص: ١١٠) والوفيات (رقم ٤٢) ومعجم الادباء (ج ٢ ، ص ١٣٣) وغاية النهاية (ج ١ ، ص ١٤٨ رقم ٦٩٢) وبغية الوعاة (ص : ١٧٢) وتاريخ ابي الفداء (ج ٢/ ٦٠)

(٣) هو ابو زكريا ، يحيى بن زياد ، كان ابرع الكوفيين وأعلمهم ، توفي سنة ٢٠٧/٨٢٢ م ، له ترجمة في الفهرست (ص : ٩٨) والوفيات (رقم ٨٠٨) ومعجم الادباء (ج ٢٠ . ص ٩) وبغية الوعاة (ص ٤١١) وتاريخ ابي الفداء (ج ٢ ص ٢٨) وغاية النهاية (ج ٢ ص ٣٧١ رقم ٣٨٤٢) ·

(٤) هو عمرو بن عثمان بن قنبر ، صاحب « الكتاب » ، توفي سنة ١٧٧/٧٩٣ م (مع اختلاف) وله نيفٌ واربعون سنة ، راجع الفهرست (ص : ٧٦) والوفيات (٥١٥) ومعجم الادباء (ج ٦ ص ٨٠) والبغية (ص ٣٦٦) وغاية النهاية (ج ١ ص ٦٠٢ رقم ٢٤٥٩)

صورتها ، صورتها ، وانما دخلت الألف ، في اضرب ، واصنع ، وما أشبههما ، من أجل أن الضاد والصاد ساكنتان [١] ، لايمكن الابتداء بهما ، فدخلت الألف ، ليقع الابتداء بها ، والاعتماد عليها .

وقال البصريون ، كسرت الألف ، في اضرب ، لسكونها ، وسكون [١] الضاد ، وكذلك كل الف للوصل ، تبتدأ مكسورةً ، علةُ كسرها ، أنها ساكنة في الوصل ، لقيها حرفٌ ساكن ، وضمت عندهم ، في أُعبُدْ ، وأُشكُرْ ، لأنَّ عين الفعل مضمومة ، فلما احتيجَ الى حركةَ الألف ، للساكن الذي لقيها ، ضمّوها بضمّ مابعدها ، وتنكبوا الكسرةَ ، كراهيةَ الانتقال من كسرٍ الى ضمٍ .

والف الاستفهام ، تعرف بمجيء أم بعدها ، أو يحسن هل في موضعها ، وهي مفتوحة أبداً ، كقوله تعالى ، أفترى على [٢] الله كذبا ، ألف أفترى ، ألف استفهام ، لقوله ، أم به جِنّة ، فاتيان أم ، بعدها ، يدل على أنها ألف استفهام ؛

وكذلك ، أستغفرت [الورقة الـ ٥ / ظ] لهم أم لم تستغفر [٣] لهم ، أَطّلع [٤] الغيب ، أتخذَ ، أصطفى البنات على [٥] البنين ، (لانه بعد [٦] ،

(١) في العبارة نوع تخليط يجب الانتباه اليه وذلك ان الاصل في همزة الوصل عند نحوي البصرة ان تكون متحركةً مكسورةً ، وانما تضم في أدخُل ونحوه لاستثقال الخروج من كسرٍ الى ضمّ ؛ وعامة الكوفيين ذهبوا الى أنها تتبع عين الفعل وذهب بعضهم الى انها تكسر لالتقاء الساكنين (راجع الانصاف في مسائل الخلاف ص ٣٠٩ – ٣١٢ ، طبعة ليدن . سنة ١٩١٣ م) .

(٢) س ٣٤ ، ع ١ ، الآية الـ ٨ .

(٣) س ٦٣ ع ١ ، الآية الـ ٦

(٤) س ١٩ ، ع ٥ ، الآية الـ ٧٨ .

(٥) س ٣٧ ، ع ٥ ، الآية الـ ١٥٣ .

(٦) ورد فوقه – « صح » – .

أم لكم) سلطن مبين[١] ؟

وقرأ ، نافع[٢] ، لكاذبون[٣] اصطفى ، باسقاط الألف ، في الوصل ، وبكسرها في الابتداء ، يجعلها الفَ وصلٍ ، ويوجّه[٤] ، اصطفى ، الى انه حكاية من أهل الكفر ، الا[٥] انهم من إفكهم ، ليقولون اصطفى البنات ؟

والاستفهام من الله عز وجل ، تقرير ،[٦] وتوبيخ ؟

والأصل ، في هؤلاء الأفاعيل ، أإصطفى[٧] ، أإفترى ، أالشكر[٨] ، أاطّلع ، فذهبت ألف الوصل ، لا تثبت في اللفظ ، إلا [عند الابتداء بها] .

وقوله ، ألم أحسب[٩] الناس أن يتركوا ، الألف في أحسب ، الف استفهام ، تحسن هل في موضعها ، وكذلك ما أشبه هذا .

وكل ألفٍ ، تدخل على حرف عطفٍ ، أو حرف جحدٍ ، في كتاب الله عز وجل ، فهي ألف التقرير ، والف التقرير ، الف الاستفهام ، هي كقوله[١٠] تعالى ، أو آباؤنا الأولون[١١] ، أو لو كان[١٢] آباؤهم ، أو لم يسيروا[١٣]

---

(١) س ٣٧ ، ع ٥ ، الآية الـ ١٥٦ .

(٢) توفى سنة ١٦٩ (على اختلاف الاقوال) انظـــر غاية النهاية (ج ٢ ص ٣٣٠ ، رقم ٣٧١٨) .

(٣) س ٣٧ ، ع ٥ ، الآية الـ ١٥٢ .

(٤) انظر تفسير الطبري (ج ٢٣ ص ٦١) والنيسابوري على هامش المرجع المذكور ، ومفاتيح الغيب (ج ٧ ص ١٦١ ، طبعة الشرفية سنة ١٣٠٨)

(٥) الأولى ان يُحذف .

(٦) انظر التاج (ج ١٠ ص ٤٢٢) .

(٧) الاصل — « اصطفى » — .

(٨) كذا . ولم يرد في ما تقدم .

(٩) س ٢٩ ، ع ١ ، الآية الـ ١ — ٢ .

(١٠) الاصل — « كقولك » — .

(١١) س ٣٧ ، ع ١ ، الآية الـ ١٧ .

(١٢) س ٢ ، ع ٢٠ ، الآية الـ ١٧٠ .

(١٣) س ٢٠ ، ع ١ ، الآية الـ ٩ .

في الأرض ، ألم يأتكم نذير [١] ، ألست [٢] بربكم ، هذا وما أشبهه .

وألف المخبر عن نفسه ، وتُعرف بأنا وغدٍ ، (تُضمّ اذا) كان ماضي فعلها ، على أربعة أحرف وتُفتح اذا كان الماضي على < أقلّ أو > أكثر من أربعة أحرف .

فتبتدئ ، قوله عزّ وجل ، ولكن اعبد [٣] الله ، أعبد ، بالفتح ، لأنها ألف المخبر عن نفسه ، فيقال في امتحانها ، أنا غداً ، وفتحت (لأنّ الماضي ، أقلّ من [٤]) ، [الورقة الـ ٥/ب] أربعة ، وهو عَبَدَ ؛

وكذلك ، استخلصه لنفسي ، ألفه ، ألف المخبر عن نفسه ، يحسن انا وغداً ، في امتحان فعلها ، اذا أتت ، كقول القائل ، استخلصه أنا غداً ، وابتدأت بالفتح ، لأن الماضي ، استخلص ، وعدّة حروفه أكثر من أربعة أحرف ؛

وتبتدئ ، قوله تعالى ، افرغ عليه [٥] قطرا ، بضمّ الألف ، لأنها الف المخبر عن نفسه ، في فعل ماضيه ، أربعة أحرف ، وهي أفرغ ، فألف المخبر عن نفسه ، لا تكون أبداً ، الا أوّل المستقبل ، لأنها احدى دلائل [الاستقبال ، فمحال [٦] ، أن تحل] ماضياً أو دائماً ؛

والف المخبر في فعل ما لم يسمّ فاعله ، لا تكون إلا مضمومة ، قلت حروف الماضي ، أو كثرت ، كقوله ، اكرم ، أو اضرب ، واستخلص ؛

وألف ما لم يُسمّ فاعله ، تكون في أربعة أمثلة ، في افعل ، وافتعل ،

---

(١) س ٦٧ ، ع ١ ، الآية الـ ٨ .
(٢) س ٧ ، ع ١٢ ، الآية الـ ١٧٢ .
(٣) س ١٠ ، ع ١١ ، الآية الـ ١٠٤ .
(٤) ورد فوقه « صح » .
(٥) س ١٨ ، ع ١١ ، الآية الـ ٩٦ .
(٦) ما بين القوسين مخروم والواضح « ان يحل » .

واستفعل ، وانفعل ، وقد تكون في فعل ، غير لازمةٍ له ؛

فأما ألف أفعل ، فألف [١] أخرج ، وأكرم ، وأحسن ؛

وألف افتعل ، ألف أكتسب ، وأصطنع ، وأضطُرَّ [٢] ، وأجتثّ [٣] ، من أجل أنّ الأصل ، في اضطُرّ ، اضطرر ، و < في اجتُثّ > أجتثِث ، فأبدلوا من التاء ، طاءً ، لأنها أشبه بالضاد ، من التاء [٤] فاستثقلوا [الجمع بين حرفين] متحركين ، من جنسٍ واحدٍ وأسكنت الراء الأولى ، وأدغموها في التي بعدها وكذلك سكنوا الثاء [٥] الأولى ، وأدغموها ، في [٦] الثاء ، الثانية ؛

وألف استفعل ، الف استضعف ، واستخرج ، وما أشبهما [الورقة الـ ٤/ظ]

وألف انفعل ، الف انقطع بالرجل ، والف فعل ، ألف أخذ ، وأكل ، و (أمِر ، وليست لازمةً [٧]) هذا المثال كله ، كلزوم أولئك الألفات ، مثلها ، من قبل انك تقول ، ضُرِب ، وشُتِم ، وذُعِر ، فلا تجد فيهن ألفاً ؛

واعلم أن الف استفعل ، وانفعل ، وافتُعِل ، الف ما لم يسم فاعله ، من الف الوصل ، اذا كنت تقول ، في حال تسمية الفاعل ، استفعل ، وافتعـل ، وانفعل ، فلا تحل عليك أنها الف وصلٍ ، مبنيةٌ على عين الفعل .

والف أفعل ، الف ما لم يسمّ فاعله ، من الف القطع ، من قبل انك اذا سميت الفاعل قلت ، اخرج فلان الشيءَ ، فوضح لك الف قطع ؛

والف فُعِل ، الف ما لم يُسَمّ فاعله ، من ألف الأصل ، لأنك [تسمي] الفاعل ، فتقول ، أخذَ ، وأمرَ ، فلا يغمض عليك ، أنها ألف أصلٍ ؛

---

(١) في الاصل « والف » .

(٢) في الاصل « اصطبر » .

(٣) في الاصل « اجتثث » بفك الإدغام .

(٤) في الاصل « الثاء » .

(٥ – ٦) في الاصل « التاء » .

(٧) ورد فوقه « صح » .

وانما ابتدئت ، الف ما لم يسمّ فاعله ، بالضم ، لدلالة الفعل ، الذي هي[١] أوّله ، على فاعل[٢] ومفعول ، اذ ضُرب ، لا يخلو[٣] من دلالةٍ على ضارب ومضروب ، فكان ضمّ أوّله دلالةً على تضمّنه[٤] معنيين ، كما قالوا ، زيدٌ حيثُ[٥] عمرو ، فالزموا حيث[٦] ، الضمة لمقامها مقام محلين ، كقولك في مكان فيه عمرو ، وقالوا ، نحن [قمنا] فضموا نحن في جميع الأحوال ، لتضمنه معنى التثنية ، ومعنى الجمع ، إذ كان الرجلان يخبران[٧] عن أنفسهما ، فيقولان ، نحن قمنا ، ويقول الرجال (مثال ذلك[٨]) .

[الورقة الـ ٤/ب] باب[٩] ذكر الألفات المبتدأة في الأسماء

اعلم أنّ ألفات الأسماء ، أربع ، ألفُ أصلٍ ، وألفُ قطعٍ ، وألف وصلٍ ، وألف استفهام ؛

فألف الأصل ، تعرف بمثل حركاتها في الفعل[١٠] ، ان رفعاً فرفعاً ، وان نصباً فنصباً ، وان خفضاً فخفضاً ، كقوله عزّ وجلّ ، وأخذتم على ذلكم[١١] إصري ، ألف إصري ، الف أصلٍ ، لأنها فاء من الفعل ثابتةٌ في التصغير ، ووزن إصرٍ من الفعل ، فِعْلٌ فاعلم ، ويقال في تصغيره أُصَيْراً ، باستيثاقها بالقطع ؛

---

(١) هامش الاصل « احسبه بُنى » ، قلت هذا التصويب ظاهر الخطأ .
(٢) في الاصل « او » .
(٣) في الأصل « لا يخلوا » .
(٤) حروف مخرومة .
(٥) في الاصل « جثيث » .
(٦) في الاصل « جيث » .
(٧) في الاصل « على » .
(٨) ورد فوقه « صح » .
(٩) نسخة برلين « ذكر الالفات الخ
(١٠) في الاصل — « الوصل » —
(١١) س ٣ ، ع ٩ ، الآية الـ ٨١ .

وكذلك ، قل اذن [١] خيرٌ لكم ، ألف اذن ، ألف أصلٍ تبتدئ بالضم على مثال فُعلٍ ، والألف فاءٌ من الفعل ، ويقال في تصغيرها ، هذه أذينة ، فتثبت الألف فيها ، وكذلك ، وكان [٢] أمر الله ، الف أمر الله ، الف أصلٍ ، تبتدئ بالفتح ، لأنها كالزاي في زيدٍ ، وزن أمرٍ ، من الفعل ، فَعْلٌ ، فالألف فاءٌ من الفعل ، وتصغير أمرٍ ، أُميرٌ ، فالألف ثابتةٌ فيه ، ومثله ، أبٌ ، لأنّ وزنه فَعَلٌ ، وأصله أبوٌ [٣] ، وتصغيره ، أُبَيٌّ ، وأمٌّ ، لأنّ وزنها فُعْلٌ ، وتصغيرها أميمة ؛

وألف القطع في الأسماء ، تكون أوّل الاسم المفرد ، وأوّل الجمع [٤] ، فالتي يبتدأ بها في أوّل الاسم المفرد ، تعرف بثباتها في التصغير ، وبأنها [الورقة الـ ٣ / ظ] فاءٌ من الفعل ، كقولك ، هو أحسن من غيره ، الف أحسن ، الف قطع (في الاسم المفرد ، [٥] لأنّ) وزنه من الفعل ، أفعل ، فألفه غير فاء من الفعل ، وتقول في تصغيره ، أحيسِن ، فتوجد الألف فيه ، ومثله ، أكبر ، وأعقل ، وأنبل وأجمل ، وأحمد ، وأحزم ، وأصبغ ، وما أشبههنّ .

وألف القطع في الأسماء المجموعة ، تعرف بحسن دخول الألف واللام عليها ؛ وانها ليست فاءً من الفعل ، ولا عيناً ، ولا لاماً ، كقوله تعالى ، مختلف [٦]

---

(١) س ٩ ، ع ٨ ، الآية الـ ٦١ .

(٢) س ٤ ، ع ٧ ، الآية الـ ٤٧ .

(٣) في الأصل « الف » .

(٤) جاء في اللسان ما نصه : وقال ابو بكر بن الانباري ، ألف القطع ، في اوائل الاسماء ، على وجهين ، احدهما ان تكون في اوائل الاسماء المفردة ، والوجه الآخر ، ان تكون في اوائل الجمع ، فالتي في اوائل الاسماء ، تعرفها بثباتها في التصغير ، بان تمتحن الالف فلا تجدها فاء ، ولا عينا ولا لاماً ، وكذلك فحيّوا باحسن منها الخ (اللسان : ج ٢٠ ص ٣١٣) .

(٥) ورد فوقه — « صح » — .

(٦) س ١٦ ، ع ٩ ، الآية الـ ٦٩ ، س ٣٥ ع ٤ ، الآية الـ ٢٨ .

ألوانه ، ألف ألوان ألف قطع في الجمع من الأسماء ، لأنّ وزن ألوان ، أفعال ، فالألف غير فاء ، ولا عينٍ ، ولا لامٍ ، وتدخل عليها الألف واللام ، فتقول الأوزان [١] ، وكذلك ، ألسنة والألسنة [٢] ، وأبيات ، والأبيات ، وأثوابٌ والأثواب .

وألف القطع في هذين النوعين ، مفتوحة ، ومتى وردت عليهم مكسورةً أو مضمومةً كانت بمنزلة المفتوحة ، فاذا كانت أول الاسم الاعجمي ، ألفٌ فهي ألف قطع ، وتعرف الاسم الأعجمي [بامتناعه] من الاجراء [٣] ، وبأنه معدوم من عتيق كلام العرب ، الا ان نخلوه عن العجم ، كقولك ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ، وإدريس ، وهي مكسورة في الوصل والقطع ، كسر بناء ، لازمٍ غير محكومٍ عليها ، بأنها ألف أصلٍ ، إذ كان الأعجمي مجهول الاشتقاق ، والف استبرق [٤] أيضاً ، ألف قطع في الاسم الأعجمي ، وان كان مجرى (لأن العرب أخذته [٥]) [الورقة الـ ٣/ب] عن العجم ، وأجرته لتنكيره ، ومنعت ابراهيم ودونه الاجراء [٦] ، للتعريف والعجمة ؛ فان أتت الألف في أول الأعجمي مفتوحة أو مضمومة فهي أيضاً بمنزلة المكسورة ، ألف القطع ؛

(١) كذا ولو كان « الالوان » لكان اوفق بالسباق .
(٢) في اللسان — « السّنَة » — مصحّفا (ج ٢٠ ص ٣١٣) .
(٣) في الاصل : الاجزاء .
(٤) زعم بعضهم انه استفعل من البرق (انظر الملائكة : ص ٢٢ مع الحاشية) ونسبه المرّي الى الزجاج والذي حكى عنه صاحب اللسان ينفيه (انظر اللسان ج ١١ ص ٢٨٥ .
(٥) ورد فوقه — « صح » —
(٦) في الاصل : الاجزاء .

وألفات الوصل ، في الأسماء ، تسعة [1] ، ألف ابن ، وابنة ، واثنين ، واثنتين [2] ، وامرئ ، وامرأة ، واسم ، واست ، والرجل .

فثمانية منها ، تعرف بسقوطها في التصغير [3] ، وتكسر في الابتداء ، فتقول في تصغير <ها> بُنيٌّ ، وبُنيّة ، وثُنيّان ، وثُنيّتان ، ومُرَيٌّ ، ومُرَيْئة ، وسُمَيٌّ ، وسُتيهة .

والتاسعة تعرف بدخولها مع اللام للتعريف ، وسقوطها عند [4] التنكير ، كقولك رجلٌ ، والرجل ، وطفلٌ ، والطفل ، وحمدٌ ، والحمدُ [5] ؛

وأما ألف ابن ، فكسرت لأن أصله أمرٌ من بنيت ، والف اثنين كسرت لأنّ أصله أمر من ثنيت ، اثني [6] على مثال ، اقض من قضيت ، إرم من رميت ، والف اسم كسرت ، لأن أصله أمرٌ من سميت ، وألف امرئ لم يصلح بناؤها على الثالث إذ كان يضم في الرفع ، ويفتح في النصب ، ويكسر في الخفض ، فيقال : قام امرؤ ، ورأيت امرأً ، ومررت بامرئ ، فلما لم يصلح ذلك ، ألحقت بأخواتها من ألف ابن ، وابنة ، واثنين ، واثنتين ، وألف است أيضاً ملحقة بأخواتها .

وألف الرجل تبتدأ بالفتح ، لأنها دخلت مع اللام للتعريف ، فشبّهَ ألْ ،

---

(١) هذه العبارة لخّصها صاحب اللسان والتاج ، فيما حكياه عن ابن الانباري (راجع : اللسان ج ٢٠ ص ٣١٣ ، والتاج ، ج ١٠ ص ٤٢٣)

(٢) اللسان والتاج : ابنين وابنتين ، مصحّفاً .

(٣) اللسان والتاج : « ويحذف في الوصل » .

(٤) في المرجعين : وهي مفتوحة في الابتداء ، ساقطةٌ في الوصل .

(٥) من هذا الباب أيم الله في القسم قال ابن خالويه : وليس في كلام العرب ، الف وصل مفتوحة الا في هذين ، يعني حرف اللام للتعريف وأيم الله (راجع كتاب ليس : ص ١٢ ، ٦٩ طبعة مصر سنة ١٣٢٧)

(٦) في الاصل — التى —

بهَلْ ، وبَل ، ومَن ، وكم ، فان قال قائل ، فهلاّ[١] كسرت وشبّهت بإن [الورقة الـ ٣ / ظ] وإن[٢] ، فقل كرهوا أن يكسروها ، فتلتبس بألف إبن ، وإثنين ، وهي مخالفة (لها من جهة[٣] امتحانها) فآثرنا فتحها[٤] لذلك ؛

وألف الاستفهام ، تمتحن في الأسماء ، بمثل الذي تعرف به في الأفعال ، فان سأل سائل ، عن قوله عز وجل ، قل آالذكرين حرم أم الانثيين[٥] ، قيل له ، الألف في آالذكرين ، ألف استفهام [بدليل] أم بعدها ، وانما زيدت المدّة ليفرّق بها بين الاستفهام والخبر ، من أجل أنهم لو قالوا ، ألذكرين حرّم ، بغير مدّ ، لم يقع بين الاستفهام والخبر فرق ، وكذلك ، «الآن وقد عصيت[٦] ، وءالله[٧] خير <أمّا يشركون> .

فان قال قائل ، فلِمَ لم يزيدوا ، مدّة في قوله ، أفترى ، والفه ، ألف استفهام كألف الذكرين ، قيل له ، ألف الخبر افترى ، مكسورة ، وألف الاستفهام مفتوحة ، فانفتاح الألف فرّق بينهما في الاستفهام والخبر ، فأغنى عن المدّة ، وألف الذكرين ، مفتوحة في الاستفهام والخبر ، فمن أجل ذلك ، فرّقوا بينهما في المدّة ؛

---

(١) في الاصل - فهل -

(٢) ترقيع

(٣) ورد فوقه - صح -

(٤) لفظ ابن خالويه : . . . . فتحت لانها خالفت بدخولها موضعها ، فخالفوا بحركتها حركتها ، لان الف الوصل ، انما تدخل على الافعال وعلى الاسماء ، وهي فيها مكسورة أو مضمومة (كتاب ليس : ص ٦٩ ، ١٢)

(٥) س ٦ ، ع ١٧ ، الآية الـ ١٤٤

(٦) س ١٠ ، ع ٩ ، الآية الـ ٩١

(٧) س ٢٧ ، ع ٥ ، الآية الـ ٥٩

واعلم أن ألف الدعاء (١) ، كألف الاستفهام في اللفظ ، تعرف بأن يحسن في موضعها ، يا ، كقولك ، أزيد أقبل ، معناه ، يا زيد أقبل ، من ذلك ، قرأ نافع ، وغيره (٢) ، أمن هو قانت (٣) بالتخفيف في الميم ، كأنه (٤) يا من هو قانت ؟

باب (٥) الألفات المستأنفات في الأدوات وما تجري في مجراها من المكاني وأسماء الاشارات

اعلم أن الألفات ، المبتدأة ، في الأدوات المحضة ، أصلية ، حظها الكسر ، كقولك (إن ، وإذا ، وإمّا ، وإلا ، وإذ) [الورقة الـ ٢٥/ب] وإذن (٦) وإلى . وقد تأتي ، مفتوحة كقولك ، أمّا ، وأما (٧) ، وأنا ، وتعرف الأدوات ، بافتتاح الكلام بها ، وبأنها لا يصحبها خبرٌ لها يرفعها ، ولا يقع بها خبرٌ تخبر عنه ، فينصبها ولا يدخل عليها حرف خفض ، فيكسرها .

وألف الاسم المحوّل ، من الأداة أصلية ، لا تكون إلا مفتوحة ، كقولك أنّ ، وأنما ، وأن ، ويدلك على أنهن أسماء ، دخول عوامل الرفع والخفض عليهن ، كقولك يعجبني أنك قائم ، وان تقوم ، موضعها رفع بالاعجاب ،

(١) يعني الف النداء

(٢) منهم ابن كثير وحمزة (مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٢٢٨) وانظر تفسير الطبري (ج ٢٣ ، ص ١١٨/٧)

(٣) س ٣٩ ، ع ١ ، الآية الـ ٩

(٤) هذا قول الفرّاء . وفي التخفيف ايضاً ان تكون الالف ، الف استفهام ، داخلة على مَن (انظر مفاتيح الغيب ج ٧ ص ٢٢٨)

(٥) هذا الباب اغفله اهلوردت في فهرسته

(٦) في الاصل : اذا

(٧) في الاصل : إما

واعلم أنك قائم ، وان تقوم ، موضعها نصب بالعلم ، وتقول فكرت في أنك قائم ، وفي أن تقوم فيخفضها بفي يكشف لك أنهن محولات عن الأدوات سقوط الإعراب عنهن ، إذ العوامل لا تؤثر فيهن أثراً من ضم ولا كسر ولا فتح ؛

وألف المكاني الأصلية المرفوعة ، تستأنف بالفتح ، كقولك أنا ، وأنت ، وأنتما ، وأنتم ، وأنتن ، وقد تأتي في مواضع الخفض عند الضرورة ، كقولك إياك أنت موضع أنت خفض بالكاف ، وكذلك أنت كأنا [1] ، الكاف خافضة أنا ، وتأتي أيضاً في موضع النصب ، كقولك ضربتك أنت ، موضع أنت نصب على التوكيد للكاف المنصوبة إلا ان الأكثر فيهن والأغلب عليهن ، الوقوع في موضع اياك نعبد ، ومثله اياكما ، واياك ، واياكن ، وربما وقعت في موضع الخفض كقولهم أنا كإياك ، وأنت كإياي ، قال الشاعر [2] :

[الورقة الـ ٢٢ / ظ]

فاحسن [3] وأجمل في أسيرك انه ضعيف ولم يأسر كإياك آسر [4]

والأغلب عليهن التعرف [5] بالنصب ؛

وألف أسماء الإشارات ، أصلية تستأنف بالضم ، كقولهم أولياء [6] ، وأولئكم ، وأولئكن ، والف وأولي مال ، أصلية تبتدأ بالضم للبناء ، وكذلك

---

(١) الاصل : كأنت

(٢) هذا الشاعر لم يطّلعوا عليه والبيت استشهد به الفراء وهشام عن الكسائي ، وثعلب في اماليه وابن عصفور في كتاب الضرائر (راجع خزانة الادب : ج ٤ ص ٢٧٤)

(٣) في رواية : فاجمل وأحسن

(٤) في الاصل : أسير

(٥) ترقيع

(٦) يُمَدّ ويُقصر ، وهو تصغير أولى

آلف أولات ، وواحد أولي ، ذو[1] ، وواحد أولات ، ذات[2] ، وهذان الحرفان ليسا من أسماء الإشارة ، إذ كان أولو مال بمعنى أصحاب مال وأولات بمعنى صاحبات يقاس[3] على هذا ما يرد من هذا الباب إن شاء الله تعالى ،[4]

تمّ كتاب شرح الألفات اللأنباري النحوي ، رضي الله عنه ، بحمد الله وعونه

(عبارة من كتاب الوقف والابتداء)

هذا نصّ ما ورد ، في حاشية الورقتين الـ ١١/ظ — الـ ١٠/ب ، من نسخة الأصل :

«من كتاب الوقف والابتداء ، لابن الأنباري ، أيضاً : كان الأصل في قولهم ، ابت يا رجل ، ائت[5] يا رجل ، ائتوا[6] يا رجال ، فجعلوا الهمزة الساكنة ياء ، لسكونها وانكسار ما قبلها ، وذلك ان العرب ، تجعل الهمزة ياء ، اذا انكسر ما قبلها وكانت ساكنة ، ويجعلونها ألفاً اذا سكنت وانفتح ما قبلها ، ويجعلونها واواً اذا سكنت وانضمّ ما قبلها ، وأما الهمزة التي سكنت وانكسر ما قبلها ، فنحو الذيب ، كان الأصل فيه الذئب ، فأبدلوا من الهمزة ياء[7] ، لسكونها وانكسار ما قبلها ، وأما حكينا على الذيب بالهمز ،

---

(١) في الاصل : ذووا ، وفي نسخة برلين : ذى

(٢) في الاصل : ذاتى

(٣) في نسخة برلين : يقاس على ما شرحنا ، ما يرد مما يشاكله ان شاء الله تعالى (راجع فهرس اهلوردت ، ج ٦ ص ٢٠٠)

(٤) ورد هنا ما نصه : بلغت المقابلة

(٥) في الاصل : ايت

(٦) في الاصل : ايتوا

(٧) خرق وتغليف

لأنه مأخوذ من تذاءُب الريح و < هو > مجيئُها من كل وجه ، قال ذو [١] الرمة :

فبات يشئزه [٢] ثأد [٣] وسهّده [٤] تذاؤب [٥] الريح والوسواس والهضب [٦]

فمعنى يشئزه [٧] ، يشخصه [٨] ويُقلقه [٩] ، والثأد [١٠] ، الندى ، وتذاؤب الريح مجيئها من كل وجه ، والهضب ، الدفعات من المطر ، وقال ذو الرمة [١١] أيضاً :

غدا كأنّ له جنّا تذاءبه [١٢] من كل أقطاره يُخشى ويُرتَقبُ

فمعناه كأن به جنًّا يأخذه من كل وجهٍ ؛

وأما الهمزة التي جعلت ألفاً ، لانفتاح ما قبلها ، فكقوله ، آمن الرسول ، كان الأصل فيه أأمن الرسول ، فجعلوا الهمزة الساكنة ألفاً ، لانفتاح ما قبلها ، وذلك أنها اذا سكنت ضعفت ، فثقلت الحركة عليها ، وكذلك ، يا بني آدم ، كان الأصل فيه أأدم ، فجعلوا الهمزة الساكنة ألفاً لانفتاح ما قبلها .

(١) ديوانه : ص ٢٢ ، ب ٨٤ ، واللسان : ج ٧ ص ٢٢٨ ، ج ٨ ، ص ١٤١ ، والتاج : ج ٢ ، ص ٣٠٩ ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ ، ج ٤ ص ٤٣
(٢) في الاصل : يشره
(٣) في الاصل : تأد ، وبخط الزبيدي في التـــاج : ثاه (ج ١ ص ٢٤٨) وكلاهما مصحّف
(٤) الرواية السائرة : يسهره
(٥) في رواية : تذوّب
(٦) جمع هاضب مثل تابع وتبع عن ابي عمرو ، ويروى « الهيضب » كعنب (التاج ج ١ ص ٥١٥)
(٧) في الاصل : يشئره
(٨) في الاصل : سحصه ، بلا نقط
(٩) في الاصل : يقلقله
(١٠) في الاصل : التاد
(١١) ديوانه : ص ٢٢ ب ٨٧
(١٢) في الاصل : يذابه

وأما الهمزة التي سكنت ، وانضمّ ما قبلها فكقولك ، يُومن كان الأصل فيه يُؤمن فجعلت الهمزة الساكنة واواً ، لانضمام ما قبلها ،

فان قال قائل ، اذا قلنا في الدرج ، لقائنا ائت ، فما هذه الهمزة ، قيل له ، هذه الهمزة ، هي الساكنة التي في ائت ، وهي فاء الفعل [الورقة الـ ١٠/ب] < وألف[١] الوصل > ساقطة ، وقد أجاز الكسائي ، أن تثبت الهمزة في الابتداء ، فأجاز للمبتدي أن يقرأ ، إئت بقرآن ، بهمزتين محففتين ، قال ابن الأنباري : حدثنا بذلك إدريس[٢] عن خلف[٣] عن الكسائي ، قال أبو بكر ، وهذا قبيح ، لأن العرب لا تجمع بين همزتين ، الثانية منهما ساكنة ، ومع هذا ان أبا العباس حدثنا عن سلمة بن[٤] عاصم عن الفراء ، أنه قال : العرب لا تنطق بهمزة ساكنة إلا بنو تميم ، فانهم يهمزون فيقولون ، الذئب ، والكأس ، والرأس ، من كتاب الوقف والابتداء لابن الأنباري » .

أبو محفوظ الكريم معصومي

---

(١) ما بين المكفين خرق

(٢) هو ادريس بن عبد الكريم الحداد ، المتوفى سنة ٢٦٢/٣ (٩٠٤/٥ م) راجع غاية النهاية (ج ١ ص ١٥٤ ، رقم ٧١٧)

(٣) هو خلف بن هشام البزار المقدم الذكر ، وهو من الملقنين عن الكسائي (راجع غاية النهاية ج ١ ص ٥٣٦)

(٤) في الأصل : سلمة عن عاصم - والصواب ما قدرته وهو صاحب الفراء ، المتوفى بعد الـ ٨٨٣/٢٧٠ م (راجع الفهرست : ص ١٠١ ، وغاية النهاية ج ١ ص ٣١١)

نظرة في

معجم المصطلحات الطبية

الكثير اللغات

للدكتور ا . ل . كليرفيل
نقله الى العربية الأساتذة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط
ومحمد صلاح الدين الكواكبي
(لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطب من جامعة دمشق)

- ٣ -

رقم المصطلح		رقم المصطلح	
٥٦١	غيبة الثدي	561	Amastie
	وأرجح اللاثدييّة (مجمع اللغة) .		
٥٦٢	كُمْنَة، عمى مُطْبِق (بدون تلف طَبَقات العين)	562	Amaurore, cécité (comptète sans alté- (-ration des milieux de l'œil)

الكُمْنَة ظلمة تأخذ في البصر (اللسان) وقد أقرها مجمع اللغة . والغالب أن تطلق على ذهاب البصر من العين الواحدة . أما العمى المطبق وغير المطبق فلا يطلق في اللغة العربية إلا على ذهاب البصر من العينين وإلا فهو عَوَر ، ففي اللسان : العمى ذهاب البصر كله ، وفي الأزهري من العينين كلتيهما الى أن قال رجل أعمى وامرأة عمياء ولا يقع هذا النعت على العين الواحدة لأن المعنى يقع عليهما جميعاً فيقال عَميت عيناه .

564 Amblyopie غَطَش ٥٦٤

وأقر مجمع اللغة كلمة كَمَش ، ودرج كاتب هذه السطور على استعمال كلمة غَمَش ، ففي اللسان : الأكمش الذي لا يكاد يبصر ، والغَمَش ظلام البصر من جوع أو عَطَش ، والغمش سوء البصر ، والغمش عارض ثم يذهب ؛ أما الغَطَش في العين فشبه العَمَش ، الغطش الضعف في البصر كما ينظر ببعض بصره ، ويقال هو الذي لا يفتح عينيه في الشمس . واللفظة الافرنجية تطلق على الضعف العارض على البصر ولا سيما ما كان منه غير متأت عن علة عضوية أو عن زيغ في طبقات العين . لذا أفضل الغَمَش والكَمَش على الغَطَش .

567 Amélie غيبة الأطراف الأربعة ٥٦٧

والأفضل أن يقال اللاطرفية قياساً على ما تقدم في اللفظين المرقومين بـ ٧ و ٥٦١ .

574 Amétropie تيه البصر ٥٧٤

وهو فقد انطباق بؤرة المرئي على الشبكية ، أرجح أن يقال فقد القياس البصري أو اللاقياس البصري ؛ أما تيه البصر فقد جاء في اللسان تاه بصرُ الرجل وتاف اذا نظر الى الشيء في دوام ، وتاف عني بصرك وتاه اذا تخطى كما أن التيه يعني الصَّلَف والكِبْر [١] .

598 Amibe متحول ، متمور ٥٧٨

والأفضل تعريب الكلمة الفرنجية كما فعل مجمع اللغة فيقال آميبا أو أميبة و ج آميبات .

591 Aminoalcools غوليات ٥٩١

الأفضل أن يقال الأغوال الأمينية .

(١) وكذلك يمكن استعمال زيغ القياس . ففي اللسان الزيغ الميل ، زاغت الأبصار مالت عن مكانها كما يعرض للانسان من الخوف .

592 Ammines ٥٩٢ نُشادرينات

وقد عرفت اللفظة بأنه مركب يحوي ذرات الأمونياك (النُشادر) المرتبطة مع أحد المعادن . بينما قد يفهم من نشادرينات المواد أو المادة المستخرجة من النشادر على غرار الكافئين وما اليها . والأفضل أن تبدل بما يفي بهذا المعنى كالنشادر المعدني أو سواه .

600 Amnésie antéro- -grade ou de fixation ٦٠٠ نسيان سابق أو نسيان التثبيت

والأصح أن يقال نسيان لاحق ، لأنه يتعلق بالأمور المستحدثة بعد الإصابة بالعلة . وقد انتبهت اللجنة الى ذلك في ترجمة (Antérograde) رقم ٨٣٢ بقولها نسيان ما بعد الحادث .

600 Amnésie rétrograde ٦٠٠ نسيان لاحق

والصحيح نسيان سابق لأن الأمور المنسية هنا تتعلق بما سبق أن كان متذكَّراً قبل الإصابة بالعلة .

601 Amnios ٦٠١ سابياء

ويطلق على الغشاء الباطن الذي يحوي سائلاً يحفظ الجنين ، وأقر مجمع اللغة السَلَى فقد جاء في اللسان السَلَى لفافة الولد من الدواب والإبل وهو من الناس المَشيمة مما يدل على تخصيص السَلى بالحيوان . والسابياء الماء الكثير الذي يخرج على رأس الولد لأن الشيء قد يسمى بما يكون فيه على المجاز ، ولذلك يصح أن تدعى المشيمة (وهي الدارجة) كما أن السابياء صحيحة وتعريب الكلمة بقولنا أمنيوس (عن الفرنسية) أو أمنيون (عن الانكليزية) ممكن وربما كان أقل عجمة وأخف على اللسان .

602 Amniotique (liquide) ٦٠٢ نُخط

والمشهور عنه السخد . ففي اللسان : دم وماء في السابياء وهو السلى الذي

يكون فيه الولد . وفي اللسان أيضاً ويقال للسُخْد وهو الماء الذي في المشيمة : النُخط . وأرجح السُخْد لأنها دارجة متعارفة وألطف من الثانية .

٦٢٧ نسيان اللحن (أو الموسيقى) Amusie 627

الأفضل أن يقال اللاموسيقية لأن هذه الحالة المرضية تبدو تارة بنسيان اللحن أو النغم وأخرى بفقد قراءة النوطة الموسيقية على غرار الخرَس واللاقراءة واللاكتابة (١) .

٦٤١ مُقوٍّ ، منشط Analeptique 641

وقد عرف اللفظ الفرنجي بأنه الدواء الذي يُصلح التنفس وخوَر الشعور بالضعف ، وفقد الوعي أو السبات . وأرجح أن يقال عنه الناعش ففي اللسان نَعَش الإنسان ينعَشُه نَعْشاً تداركه من هَلَكة . وفي الأساس نعشته فانتعش اذا تداركته من ورطة وانتعش نعشك الله ونعشني نعشة كريم والربيع ينعَش الناس .

وأرى أن تخصص المقويات بـ (Toniques) والمنشطات بـ (Stimulants) وناعشات بـ (Analeptiques) .

٦٤٣ فقد الألم ، لا ألم Analgésie 643

وكذلك بطلان الألم .

٦٥٩ تأق Anaphylaxie 659

وأقر مجمع اللغة التحساس واللاوقاية . ودرج كاتب هذه السطور على استعمال كلمة الاستهداف اقتباساً من معجم شرَف ، ومدلول الكلمة العلمي هو فقد الوقاية (اللاوقاية) وأن يصبح من به هذه الحال عرضة للإصابة بأحد المسببات المرضية ، وبالتالي مستهدَفاً للإصابة .

(١) راجع الشرح الوارد في المقال السابق في رقم ٤٨٩ والصفحة ٣١٤

أما التأق فقد جاء في اللسان : التأق شدة الامتلاء تَئِق السقاء يتأق تأقاً فهو تَئِق امتلأ وأتأق إتآقاً ، إلى أن قال ورجل تَئِق ملآن غيظاً أو حزناً أو سروراً وقيل هو الضيق الخلق ، وقيل تئق اذا امتلأ حزناً وكاد يبكي والخ .

وعلى ذلك فان لكلمة تأق معناها اللغوي الصريح والأفضل أن لا نقحمها في المعنى الطبي البعيد عنها كل البعد ، مما يرجح أن يقال في ترجمة (Anaphylaxie) الاستهداف واللاوقاية دون غيرهما .

661 Anaplasie ترقيع ٦٦١

وأقر مجمع اللغة ارتكاس — ارتداد ، وعرّف هذه اللفظة معجم (M. Garnier)[1] الفرنسي بما يلي : (لفظ استعمله بقراط للدلالة على رد كسر أو خلع) يرادفه (Cataplasie) ، الحَدَث الذي بمقتضاه تفقد بعض الخلايا مميزاتها الخاصة دون أن ترد الى حالة الخلايا البدئية . وعرّفها معجم (Blakiston's)[2] بتراجع الشكل في الخلية أو في الخلايا الى الحالة الجنينيّة مع ازدياد خاصتها على التكثر ، ويغلب أن تطلق هذه اللفظة على تراجع الشكل وحده دون النظر الى خاصة التكثر اهـ . كما ان معجم كليرفيل نفسه ذكر في ترجمة اللفظة الى الانكليزية بـ (anaplasia و reversionary atrophy) أي الضمور التراجعي ، والى الألمانية بـ (Rückschlag) ومعناه التراجع .

وعلى ذلك أرى أن تترجم لفظة (Anaplasie) بالحؤول أو التحول الراجع أو التراجعي أو الارتداد ، ولا أرى لاستعمال ترقيع مسوغاً .

678 Anelectrode قُطب ايجابي (بطارية غلوانية) ٦٧٨

والصحيح منفذ ايجابي ، لأن القطب الايجابي ترجمة لـ (Anode) كما فعلت

(١) M. Garnier & V. Delamare, Dictionnaire des termes techniques de médecine

(٢) Blakiston's new Gould medical Dictionary

اللجنة في ترجمة هذه اللفظة برقم ٨٠٩ والقطب الايجابي غير المنفذ الايجابي ، وينبغي التمييز بينهما .

681 Anémie de déperdi-tion après hémorragie فاقة دم بالانقراض بعد النزف ٦٨١

وهي فاقة الدم المتأتية عن نزف الدم ، وأرجح أن يقال في الترجمة فاقة دم نزفية أو بالنزف ؛ ففي اللسان نزفه الدم اذا خرج منه كثيراً حتى يضعف ، والنُزف الضعف الحادث عن ذلك ، وانقرض القوم درجوا ولم يبق منهم أحد .

690 Anergie تصام ، عدم التجاوب ٦٩٠

وأرجح أن تعرّب هذه اللفظة بـ أنيرجيا على غرار لفظة أليرجيا[1] . في اللسان أصمه الداء ، وتصام عنه أراه أنه أصم وليس به تصام عن الحديث وتصامه أرى صاحبه الصَمَم .

691 Anesthésie, narcose فقدان الحس ، خَدَر ٦٩١

وتطلق لفظة (Anesthésie) على فقد حاسة الحس فقداً تاماً أو جزئياً ، منه ما يتأتى عن حالة مرضيه ويدعى بطلان الحس (شأن ما يكون في بعض علل الجملة العصبية المركزية والمحيطية) ومنه ما يكون محدَثاً بأحد الأدوية سواء أثر هذا موضعياً أو عاماً ، وهذا ما يدعى بالتخدير (التخدير الموضعي والتخدير العام) . ولعلّ القصد من إثبات كلمة (Anesthésie) وبجانبها (Narcose) يقصد منه التخدير . أما الخدر فالأفضل أن تخصص الكلمة (engourdissement)[2] .

714 Anévrisme أمدَمٌ ٧١٤

وأقر مجمع اللغة كلمة انورسما تعريباً . وهي الكلمة ذاتها المستعملة في كتب

(١) الصفحه ٣١٨ من الجزء الثاني من هذه المجلة في الرقم ٥٢٨

(٢) جاء في اللسان والخدر امذلال يغشى الأعضاء : الرجل واليد والجسد ، وقد خدرت الرجل تخدّر والخدر من الشراب والدواء فتور يعتري الشارب وضعف .

الطب القديمة [١] • ودرجنا على استعمال كلمة أم الدم التي استعملها الأقدمون أيضاً ولا أرى حاجة الى هذا النحت •

٧٢٢ ذات العروق الشعرية، التهاب العروق الدقاق Angéite 722

والصحيح ذات العروق أو ذات الأوعية أو التهاب العِرْق أو التهاب الوعاء دون تخصيص بالعروق الشعرية أو الدقاق •

فقد جاء في معجمي غارنيه (M. Garnier) وبلاكستون (Blakiston's) [٢] في شرح لفظة (Angéite) ان قال الأول اسم عام يشمل جميع التهابات العروق (التهابات الشريان والتهاب الوريد والتهاب العروق اللنفاوية وغيره) وذكر الثاني في مادة (Angitis) أنه التهاب عرق الدم أو اللنفا •

٧٢٤ توسع الأوعية الشعرية Angéectasie 724

والأصح توسع العِرْق أو الوعاء

٧٢٥ خُناق Angine 725

وأقر مجمع اللغة كلمتي ذبحة وذُباح •

٧٣١ خناق الصدر، انقباض القلب Angine de poitrine, Angor, Sténocardie 731

اللفظة ذات الرقم ٧٢٥ تطلق على التهاب البلعوم وكلمة الخناق تفيد هذا المعنى وكذلك الذبحة والذباح أيضاً، والكلمات الثلاث قد وردت في كتب الأقدمين ولا ما يميز بينها فيها • وحبذا لو خصصت كلمة خناق وجمعه خناقات بالتهاب البلعوم

(١) كامل الصناعة الصفحة ٣١٢ من الجزء الأول وقد جاءت في جملة مواضع مصحّفة بـ (أبورسا) وعرفت بأنها ورم يحدث من دم وريح وحدوثه يكون من انخراق الشريان مفتوحاً لا يلتئم ولا ينبت عليه الدَشْبذ وعلامة هذا الورم أن يكون موضعه ينبض واذا غمز عليه باليد ذهب أكثر الورم ويسمع له في بعض الأوقات الصرير ويكون لون الورم على مثال لون الباذنجان أو البنفسج .

(٢) وهما المذكور اسمها في الصفحة (٤٦٦)

العادي ، والخانوق بالتهاب البلعوم الدفتريائي (Angine diphthérique) ٠ وجمعه خوانيق (كذا وردت في كتب الطب القديمة ، وهي كلمة دارجة على ألسنة الناس أيضاً)[1] ، وخناق الصدر على الألم الشديد البادي في مقدّم الصدر ، وأن تخصص الذبحة والذباح بالتهاب الحنجرة الدفتريائي (Laryngite diphtérique ou croup) ٠ أما ترجمة اللجنة لـ (Sténocardie) بانقباض القلب فلا أراه في موضعه لأن انقباض القلب ينبغي له أن يدل على (Systole cardiaque) كما جاء في ترجمة لفظة (Systole) في الرقم ١٣١٠٠ والصحيح أن تترجم بضيق القلب وهو ما ينطبق على اشتقاق الكلمة ذاتها ٠

734 Angine pseudo - mem - raneuse خناق غشائي موهم غمامي ٧٣٤

والمشهور عنه خناق غشائي كاذب ، لأن وصفه بالموهم قد يتعدى الكذب ويستدعي الوهم والايهام (بينما الإصابة به سليمة في الغالب) وكثيراً ما استعمل العرب الكذب بالمعنى المجازي كقولهم الفجر الصادق والفجر الكاذب وفي الكتاب العزيز « وجاءوا على قميصه بدم كذب » (سورة يوسف) ٠

735 Angine rouge érythémateuse, catarrhale خُناق أحمر ، حَمامي ، نزلي ٧٣٥

لقد ضبطت صفة حَمامي بالفتح والصواب بالضم حُمامي وهو غلط مطبعي ٠

739 Angiologie, angéiologie مبحث الأوعية ٧٣٩

740 Angiome ورم وعائي ٧٤٠

أرجح أن يستعمل العِرْق مكان الوعاء لأنه أخص ٠

---

(١) لقد جاء ذكر سَنَة الخوانيق (ولولا أن عندي بقية من موسم سنة الخوانيق أتزوق بها وإلا كنت من الهالكين) في دعوة الأطباء لابن بطلان سنة ٤٥٥ هـ (الصفحة ١٥ من كتاب دعوة الأطباء على مذهب كلية ودمنة تحقيق الدكتور بشارة زلزل وطبع المطبعة الخديوية بالاسكندرية سنة ١٩٠١

754 Angoisse, anxiété ضجر ، مَلَل ، ضيق ٧٥٤

وكذلك القَلَق .

759 Anhidrose, anidrose صَلَد ، انحباس العَرَق ٧٥٩

والصحيح أن يقال احتباس العَرَق لأن مطاوع حبس احتبس لا انحبس .

769 Anhydride carbonique, gaz carbonique بلاماء الفحم، غاز الفحم ٧٦٩

سبق أن رجحت كربون على الفحم في هذه الترجمة وأضرابها .

782 Anion شارِسَلبية (آنيون) ٧٨٢

والأفضل أن يقال شاردة سلبية أو آنيون .

784 Ankylose, raideur articulaire جُساْة ، يبوسة المفصل ٧٨٤

وأقر مجمع اللغة القَسَط وهي الكلمة الدارجة على ألسنة الأطباء ولا أرى حاجة الى تبديلها بأخرى قاموسية .

885 Ankylostome duodénal مَلْقوَّة عَفَجيَّة ٧٨٥

789 Ankylostomiase داء الملقوّات، فاقة الدم المعدنية الخ ٧٨٦

وأقر مجمع اللغة تعريب الكلمة بأنكيلوستوما ولا أراها إلا أقل عجمة وألطف من المَلْقوّات .

819 Anox (h) émie, anoxyémie, anoxie عدم تأكسد الدم ٨١٩

والأفضل نقص أوكسيجين الدم ونقص الأوكسيجين، فقد عرفت أنوكسيميا[1] فقد الأوكسيجين من الدم بقصور التهوئة الناجم عن الارتفاع الزائد ، أو نقص الضغط في الأوكسيجين في التخدير أو في قصور القلب أو في الخنق ،

(١) معجم بلاكستون

وعرفت الآنوكسيا بأنها فقد الأوكسجين وهي حالة لا يمكن للحياة أن تدوم معها ، أو قصور النسيج عن ضبط الأوكسجين أو استعمال ما يكفي منه . ويقول صاحب المعجم المذكور أن الأفضل أن تحل الآن كلمة نقص الأوكسجين (Hypopexie) محل (Anoxie) .

أقول : ولا صلة بين نقص الأوكسجين أو فقده ، بحدوث التأكسد أو عدم حدوثه .

832 Antérograde نسيان ما بعد الحادث ٨٣٢

وهو النسيان اللاحق (انظر الرقم ٦٠٠) .

833 Antéversion خَنَث ٨٣٣

884 Antéversion de l'utérus خَنَث الرحم ٨٣٤

اللفظة الأولى تعني الميل أو الانثناء الى الأمام والثانية الانقلاب الأمامي تستعمل الأولى في بعض العلل العصبية التي تمتاز بانعطاف جذع البدن الى الأمام أثناء المشي أو الانتصاب ، والثانية انقلاب جدار الرحم وميله الى الأمام . فالكلمتان اذن ليستا مترادفتين ولا يصح أن يطلق عليهما اسم واحد وهو الخنث . وإني لم أتوصل بمراجعة المعاجم التي بين يدي الى ما يشير فيها الى الميل والانقلاب . فقد جاء في اللسان : الخنثى الذي لا يخلص لذكر أو أنثى ، وخنث الرجل خنثاً فهو خنث وتخنث وانخنث تثنى وتكسر وخنثت الشيء فتخنث ان عطفته فتعطف (ولعلَّ اللجنة أخذت بهذا المعنى) والمخنث من ذلك للينه وتكسره .

أقول ما أغنانا عن استعمال هذه الكلمة التي تفيد المعنى غير المطلوب من اللفظين الآنفين .

835 Anthélix وتيرة ، وترة (الأذن) ٨٣٥

عرّفت اللفظة الفرنجية بأنه الجزء المنحني من عمود الأذن والكائن أمام

الكِفاف (Hélix) والذي يماشيه في معظم أجزائه . وجاء في المخصص الوترة غُضَيرف في أعلى الأذن يأخذ من أعلى الصماخ ، والصماخ هذا الخرق الذي يفضي الى الرأس . كما أن الوَترة والوتيرة الحاجز بين المنخرين (وهو المشهور المتعارف) .

أفضل أن تترجم الكلمة بصَحْن الأذن فقد جاء في المخصص هو جوف الأذن الظاهر المتقعر فنبعد الالتباس بين الأذن ووترة الأنف .

٨٤٤ صادات عن الحياة ، مُرْديات Antibiotiques 844

ومانعات التعايش (Symbiose) لأن تماسها لأحد الجراثيم يجعل هذا يتوقف عن نشاطه الحيوي . ومُرْديات تعني مُهْلكات الجرثوم أو الجراثيم ، وأرجح تخصيص هذه اللفظة لمضادات العفونة .

٨٤٥ ذيل القطب السالبي Anticathode 845

وأفضل أن تترجم اللفظة بنظير القطب السالبي .

فقد عرفت بأنها الصفحة المعدنية أو الهَدَف في مصباح كروكس (Crookes) الشعاعي ، ومقرها مقابل القطب السلبي ، وتتلقى صدمة الأشعة السلبية مولدة الأشعة السينية .

٨٤٧ ضد أُلخثرات Anticoagulants 847

والأفضل مضادات التخثر ، لأن استعمالها الطبي انما يكون لتخفيف وطأة حدَث التخثر لا لكبح جماح مواد مخثرة غير طبيعية .

٨٥١ بادزَهر ، ضد السم Antidote, contre - poison 851

وأقر مجمع اللغة كلمة تِرْياق ولا شك أنها تفضل على بادزهر التي سبق واستعملت في هذا المعنى ولا أرى داعياً الى بعثها .

٨٥٨ ضد الخمج Antiinfectieux 858

وأرجح ضد العفونة أو ضد الانتان[1] .

---

(١) لقد تقدم رأيي في الخمج (الصفحة ٩٥ من الجزء الأول من هذه المجلة) .

873 Antiputride ضد التدعّص ٨٧٣

وأرجح ضد التفسخ باعتبارها دارجة ومعروفة .

875 Antisepsie تطهير ٨٧٥

876 Antiseptique مُطَهِّر ٨٧٦

877 Antiseptiques désin- -fectants مضادات الفساد ، مُطهِّرات ٨٧٧

وأقر مجمع اللغة لفظة مانع المفونة لِـ (Antiseptique) ومطهر لِـ (désinfectant) بينما أطلقت اللجنة على اللفظتين الافرنجيتين كلتيهما مطهر . وعليه أرجح أن يقال للأولى منع الفساد وللثانية مانع المفونة أو الانتان ومانعات المفونة أو الانتان ومُطهِّرات تباعاً .

882 Antitoxique ضد السم ٨٨٢

وكذلك الترياق .

883 Antitragus مقابل الوتدة (الأذن) ٨٨٣

وهي الترجمة الحرفية للفظة الفرنجية . ولعلها المحارة والصَّدَفة كما جاء في المخصص . فالوَتِدة كما جاء في الأخير الناشز في مقدمة الأذن مثل الثؤلول يلي العارض من اللحية ، والمحارة والصَّدَفة هي ما تحت الإطار .

888 Anurie زُرام ٨٨٨

وهو انقطاع البول . ففي اللسان وزَرِم دمعُهُ وبولُهُ وحِلْفَتُهُ وكلامه وازرأمَّ انقطع ، وكل ما انقطع فقد زَرِم . فالزرام اذن ليس خاصاً بانقطاع البول . ألا تفضل الكلمتان البينتان على الكلمة الواحدة القاموسية والغامضة ؟

910 Aphasie حُبْسة ٩١٠

وأقر مجمع اللغة هذه اللفظة ، ودرج كاتب هـذه السطور على استعمال

الخَرَس [1] . فالخَرَس فقد النُطق من جراء إصابة في مركز التكلم الكائن في الدماغ ، والمصاب بهذه العاهة العصبية لا يستطيع الإفصاح عما يجول في خاطره لفظاً ، ويشفى صاحب العلة اذا كان حدثاً ، وعلى ذلك يلازمه فقد النطق دون انقطاع . بينما الحُبْسة بخلاف ذلك فقد جاء في اللسان : الحُبْسة والاحتباس في الكلام التوقف وتحَبَّسَ في الكلام توقَّف قال المبرد في باب علل اللسان الحُبْسة تعذر الكلام عند ارادته . وعليه فان الحُبْسة تنطبق على ما نسميه بالخَرَس الموقَّت والعارض (Aphasie transitoire) وهو أن يتوقف المتكلم في أثناء الكلام مدة من الزمن ويستطيع الكلام بعد ذلك شأنه في السابق .

وكلمة الخَرَس سبق للمجوسي أن استعملها في كامل الصناعة [2] في علل اللسان .

916 Aphrodisiaques مَنْعِظات ٩١٦

ولعلّ اللجنة استعملت هذه اللفظة قياساً . والمشهور عنها مَغْلِمَة . ففي اللسان

---

(١) الجزء الأول من علم الأمراض الباطنة طبع سنة ١٩٣٥

(٢) الصفحة ٣٤٨ من الجزء الأول من كامل الصناعة الطبية . بقوله : وأما ما يعرض للعصب الذي في اللسان من العلل فمنها ما يعرض للعصب الذي يكون به حس المذاق وهي نقصان المذاق وعدمه وهذا يكون اذا لم يحس الانسان بشيء من الطعوم في فمه البتة . ومنها ما يعرض للعصب الذي يكون به الكلام والحركة وهي ثقل اللسان وعدم الكلام الذي يقال له الخرس وهذه الأشياء تعرض : إمّا لسوء المزاج الغالب على العصب ، وإما لسدة تعرض فيه إما من ورم ، وإما من ضعف ، وإما من خلط بلغمي غليظ ينصب الى الأعصاب ، وإما أن يكون من تفرق الاتصال يعرض للعصب بمنزلة الهتك ، أو يكون ذلك من خلط حار ، أو من ضربة أو من صدمة تقع على الدماغ ؛ والعلامات الدالة على كل واحد من هذه الأسباب كالعلامات الدالة على علل الحواس التي ذكرنا قبل وقد يعرض ثقل اللسان وعدم الكلام لعلة تكون في الجزء المقدم من الدماغ الذي ينبعث منه العصب الذي يأتي اللسان وفي الدماغ نفسه اهـ .

الغُلْمة بالضم شهوة الضِّراب غَلِم الرجل وغيره بالكسر يغلَم غَلْماً واغتلم اغتلاماً اذا هاج الى أن قال وقد أغلمه الشيء وقالوا أغلمُ الأَلبان لبن الخِلْفة يريدون أغلمُ الأَلبان لمن شربه وقالوا شرب لبن الإبل مَغْلَمَة أي انه تشتد عنه الغُلْمَة .

919 Aphtongie حُكْلة ٩١٩

عرفت اللفظة الفرنجية بأنها ضرب من اضطراب النطق يمتاز بتشنج العضلات الموكلة باللفظ والمعصَّبة بعصب تحت اللسان كما أنه جاء في الترجمة الانكليزية للمعجم نفسه ما يفيد المعنى المذكور نفسه ؛ أمّا الحُكْلة فقد جاء في اللسان : الحُكْلة كالعُجْمة لا يبين صاحبها الكلام ، والحُكْلة والحَكيلة اللُّثْغة . ابن الأعرابي في لسانه حُكْلة أي عُجْمة لا يبين الكلام .

لذا أرجح في ترجمة هذه اللفظة كلمة العُقْلة ففي اللسان واعتقَل لسانه امتَسَكَ ، مَرِض فاعتُقِل لسانه اذا لم يقدر على الكلام ، أقول : والاعتقال أكثر انطباقاً على التشنج في عضل اللسان من سواه .

923 Aponévrose, fascia غشاء عضلي ، لُفافة ٩٢٣

وأقر مجمع اللغة كلمة الصِفاق وهي الدارجة على ألسنة الأطباء . بينما اللجنة خصّت كلمة الصفاق بالغشاء المعروف بالبريطون ، وسأعود الى النظر في صحة هذه الكلمة عند الكلام على لفظة البريطون . وقد جاء في اللسان الصفاق جلدة رقيقة تحت الجلد الأعلى وفوق اللحم ، وهو ما ينطبق على معنى اللفظ الافرنجي تماماً .

997 Apyroxie عمى البصيرة ٩٩٦

وفي الأصل من المعجم (Apyrexie) ومعناها لا حُمّى ، وهو لا شك غلط مطبعي في اللفظة الفرنجية وغلط ترجمة في اللفظ العربي ، إذ لا محل لعمى البصيرة هنا . ولم تنتبه اللجنة الى تصويب هذا الخطأ .

997 Aquatique ذو ماء ، مائي ٩٩٧

واللفظة تفيد ما هو منسوب الى المستنقع · وتستعمل في الغالب للحيوان أو النبات الذي يعيش في المنافع أو الجداول مما ينبغي أن تميز عن (Aqueux) كأن يقال مستنقعي أو منافعي ·

1030 Aréole du mamelon لُغوة ١٠٣٠

والمشهور عنها السَمدانة ، فقد جاء في المخصص : السَمدانة ما اسود من الثدي حول الحلمة ، وفي اللسان : والسعدانة الشَّنْدُوَةُ ، وهو ما استدار من السواد حول الحَلَمَة ، وقال بعضهم : سعدانة الثدي ما أطاف به كالفلكة · ولم أهتد الى مصدر لُغوة ·

1042 Ariboflavinose داء لاحيين ب ، داء اللاحيين الناجم عن نقض الريبوفلافين ١٠٤٢

وأدعوه عَوَز الريبوفلافين ·

1043 Arithmomanie جنون حسابي ١٠٤٣

وأرجح وَلَع العَدّ ، لأن المصاب بهـذا الخال لا يفتأ يعد الأشياء ، ويشتغل في الأرقام دوماً ·

1056 Arsenal thérapeutique دار صناعة الأدوية ، مصنع الأدوية ١٠٥٦

جاء في تعريف كلمة (Arsenal) مصنع الأسلحة ومدخرها ، على حين أن المراد بـ (Arsenal thérapeutique) ليس مصنع الأدوية كما ذهبت اليه اللجنة ، ولو كان ذلك هو المقصود لجاء بالفرنسية (Usine) أو (Fabrique) · والمراد هو جَعْبَة المداواة أو خزانتها[1] · وعلى ذلك نرى الترجمة الانكليزية

(١) كقولك ليس في جعبة أدويتنا أو مداواتنا أو خزانتها أفضل من العقار الفلاني في معالجة الداء الذي نحن بصـدده (Il est le meilleur médicament dans notre arsenal thérapeutique) .

لهذا المصطلح في المعجم الأصلي هي (Therapeutique Armement) ومعناه السلاح الدوائي ، والترجمة الألمانية (Heilschatz) ومعناها خزانة الشفاء .

1124 Arthralgie, artbydie عُصاب المَفصِل ،ظُلاع ١١٢٤

ويعنى باللفظة الفرنجية ألم المَفصِل ووجعه . وأقر مجمع اللغة البدَل (ألم المفاصل) فقد جاء في اللسان : والبَدَل وجع في اليدين والرجلين ، بَدِل بالكسر يَبْدَل بَدَلاً فهو بَدِل اذا وَجع يديه ورجليه .

أما استعمال اللجنة كلمة عُصاب فقد ذكرت اللجنة في الأسلوب الذي اتبعته في وضع المصطلحات [1] وزن فُعال للداء في حشى أو عضو لكباد وعُصاب وقلاب ، مما ينبغي معه تخصيص عُصاب بالألم العصبي (Névralgie) وألم المفصل لا صلة له بإيلام العصب ، وأما ظُلاع فقد جاء في اللسان : الظَّلْعُ كالغَمْزِ ، ظَلَعَ الرجل والدابة في مشيه يَظْلَعُ ظَلْعاً عَرَج وغمز في مشيه ثم قال : والظُّلاع داء يأخذ في قوائم الدواب والإبل من غير سير ولا تعب فتَظْلَعُ منه ، وطبيعي أن ألم المفصل أو المفاصل لا يشترط فيه أن يكون في الرجلين فكثيراً ما يبدو في اليدين .

1125 Arthrite التهاب المَفصِل ١١٢٥

أقر المجمع الرثية لهذا المصطلح ، والأفضل تخصيص الرثية للروماتيزما ، شأن ما فعلته اللجنة .

1127 Arthritisme, diathèse arthritique,bradytro- -phique ou dystrophique حَرَض ، تأهب حَرَضي اغتذائي أو حَثَلي ١١٢٧

ويقصد من المصطلح الفرنجي (Arthritisme) التأهب المرضي الناجم عن الإبطاء في التطور الاغتذائي والبادي سريرياً بجملة حالات مرضية كالبدانة

(١) الصفحة ٩٣ من الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين من هذه المجلة انها تستعمل .

والداء السكري والرمال البولية والنقرس وغيره ، فهو إذن تأهب للإصابة ببعض العلل لا علة معينة وخيمة . أما الحَرَض فقد جاء في اللسان أحرضه الحرض فهو حَرِض وحارض إذا فسد بدنه وأشرف على الهلاك وحَرَض يحرِضُ ويَحرُض حَرْضاً وحُروضاً هلك . ويقال كَذَبَ كِذْبَة فأحْرَضَ نفسه أي أهلكها وجاء يقول حَرَض هالك الى أن قال : وقال الفراء في قوله تعالى : «حتى تكون حَرَضاً أو تكون من الهالكين» . أقول مما يدل على أن الحَرَض هي حالة الهلاك أو الاشراف عليها ، وليس الأمر كذلك في اللفظة الافرنجية .

لذا أرجح في ترجمة هذا المصطلح : تأهب مَفْصِلي (لأن الآراء الحديثة تكاد تحصر التأهب في الإصابة المفصلية دون سواها وهكذا استبعد الداء السكري منه) إبطاء التغذية (bradytrophie) أو فساد التغذية (dystrophie) .

وبعد كتابة ما تقدم اطلعت على تصحيح ورد لهذه اللفظة لم أنتبه اليه ، وهو تصحيح اللجنة لحَرَض واستبدالها بـ قُفاص الذي لا يفيد المعنى المطلوب فقد جاء في اللسان والقُفاص داء يصيب الدواب فتيبسُ قوائمها .

١١٣١ مَرَض مفصلي Arthropathie 1131

ودرج كاتب هذه السطور على ترجمة اللاحقة (pathie) باعتلال تمييزاً لها عن العلة (Affection) ، والمرض أو الداء (Maladie) فأقول إعتلال المفصل أو الاعتلال المفصلي ، ومن المعلوم أن العلة احدى ظاهرات المَرَض .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

مختارات مما لم يُنشر

من شعر البحتري

- ٤ -

قال البحتري [١] يمدح الفتح بن خاقان [٢] ، واقترح عليه هذا الوزن لأنه قيل له إنه ينتحل أشعار العرب :

أصُدودٌ غلا بِهـا أم دلالُ يومَ زُمَّتْ [٣] بِرامةَ [٤] الأجْمالُ

(١) القصيدة من الخفيف ، عدد أبياتها ٣٧ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٠٦٨ من القسم العربي) الورقة : ٣٣٤ ظ — ٣٣٥ ظ ؛ ومما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري أن عبد القاهر الجرجاني أثبت أحد أبياتها — البيت ١٩ — فيما اختاره من ديوان البحتري (المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام بتحقيق السيد عبد العزيز الميمني : الطرائف الأدبية مصر ١٩٣٧ : ص ٢٧٠) .

(٢) الفتح بن خاقان صاحب المتوكل وأمين سره وقد قتل معه عام ٢٤٧ هـ ، وهو أديب شاعر من كبار مثقفي القرن الثالث ؛ كان يملك خزانة كتب حافلة ، وله ألف البحتري (كتاب الحماسة) على نهج حماسة أبي تمام ، ومدحه بما يقرب من ثلاثين قصيدة (راجع ترجمته في الفهرست ، مصر ١٣٤٨ هـ ص ١٦٩ — ١٧٠ ؛ ومعجم الأدباء لياقوت ، المأمون ١٩٣٦ م ج ١٦ / ١٧٤ — ١٨٦ ؛ وفوات الوفيات ، مصر ١٩٥١ ج ٢/٢٤٦ — ٢٤٧ ؛ وانظر الفصل الرابع من كتاب أخبار البحتري : ٨٣ — ٩٩) .

(٣) زَمَّ البعيرَ : خَطَمه بالزمام .

(٤) موضع بالبادية ، قيل بالعقيق ، وقيل وراء القريتين في طريق البصرة إلى مكة ، وقيل إنه من ديار بني عامر . (راجع المحيط وما على الهامش من تعليقات) .

أعرَضَتْ عطفَةَ القضيبِ وحادَتْ[(١)] من قريبٍ كما يَحيدُ الغزالُ
عَهِدَتني وللشبيبةِ سِرْبا لٌ جديدٌ فأنهجَ[(٢)] السِّربالُ
ورأتني تَداركَ الحِلْمُ مِنّي وتناهَى عن عَذْلِيَ العُذّالُ
إنْ يَعُدْ هجرُها جديداً فقد كا نَ جديداً منها ومنّا الوِصالُ
إذْ حواشي الزمانِ خُضرٌ رِقاقٌ وقَناةُ الأيامِ فيها اعتدالُ
ولَها بالكثيبِ من جنبِ حُزْوى[(٣)] أَنَسٌ[(٤)] قاطنٌ وحَيٌّ حِلالُ
ذكّرتني الرسومُ والأطلالُ صَبَواتٍ ذِكري لهنَّ ضلالُ
قَلَّ الحِلْمِ أنْ يُطاعَ التصابي ورَدَى اللهوِ أنْ يَشيبَ القذالُ[(٥)]
أبرحَ[(٦)] العيشُ فالمشيبُ قذًى في أعينِ البيضِ[(٧)] والشبابُ جمالُ
نَوِّلينا وأينَ منكِ النَّوالُ وَعِدينا ووَعْدُ مثلكِ آلُ[(٨)]

(١) حاد عن الشيء يحيد : صدّ عنه وعدل .
(٢) أنهج الثوب : إذا أخذ في البلى ولم ينشقق .
(٣) حُزوى : موضع بنجد في ديار تميم ، وقيل هو جبلٌ من جبال الدهناء (معجم البلدان ، بيروت : ٢/ ٢٥٥) .
(٤) الأَنسُ : الناسُ والحيّ المقيمون ، والأَنس ضدُّ الوحشة .
(٥) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .
(٦) أبرَحَ : آذى وآلمَ وعذّب .
(٧) كناية عن النساء .
(٨) سرابٌ خادع .

أنا راضٍ بأن تجودي بقولٍ كاذبٍ أو يُطيفَ منكِ خيالُ
أيها المبتغي مُساجَلةَ الفتـــح لحاوَلْتَ نَيْلَ ما لا يُنالُ
أين تلك الأخلاقُ منكَ إذا رُمْـ ـتَ مداها وأين تلك الخِلالُ
لن تُجاريَ البحارُ حينَ يَجيشُ الـــمَدُّ فيها ولن تُوازيَ الجبالُ
يَبْعُـدُ البائنُ (١) المُبَرِّزُ فَوْتاً وتَدانى (٢) الضُّرُوبُ والأَشكالُ
لم تُسَلِّمْ لهُ المَقادَةَ حتى عرفتْ فضلَهُ عليها الرِّجالُ
رفعتْ مجدَها (٣) عليـه تَنُوخٌ فله فوق غـيرِهِ إطلالُ
قائلٌ فاعلٌ وليس يكون الـــقولُ مجداً حتى يكونَ الفَعالُ (٤)
وصحيـحُ السَّماحِ بينَ أُناسٍ في سَجاياهُمُ علينـا اعتلالُ
ثابتٌ في المَكَرِّ إن زاحَ (٥) للفر سانِ عن جانبِ الصريع مجـالُ
ملكٌ يستقِـلُّ في رأيِه المُلْـــكُ ويَحيا في فضله الإفضالُ
وإذا ما حللتَ رَبْعَ أبي الفضـــلِ فثَمَّ السَّماحُ والإبـلالُ
مُتَعَلٍّ على الخطوبِ إذ (٦) العا ثرُ كابٍ في صرفها ما يُقـال

---

(١) الغالب في الفضل والمزية .
(٢) بحذف التاء : تتدانى = تتقارب .
(٣) في الأصل : مجده .
(٤) اختار الجرجاني هذا البيت في مختاره .
(٥) تباعد ، وفي الأصل : راح للفرسان عن جانب الصريع مجال .
(٦) في الأصل : إذا .

ومقيمٌ صَغَا (١) الأمور وفيها حِيَدٌ (٢) عن جهاتها وانفتالُ
مُتَحَرٍّ (٣) عُلَى الخلافة ما ينـ ـقُصُ في حظها ولا يغتالُ
شاهرٌ دونَ حَقِّها عَزَمات تتحامى مكروهَها الأبطالُ
وسيوفاً إيماضُها أوجالٌ للأعادي ووقعُها آجالُ
مرهفات لها ، إذا أظلم النَقْـ ـعُ عليها ، توقّدٌ واشتعالُ
أبداً يَستَجِدُّ منها حديثا نِ : دمٌ من عَدُوِّه وَصِقالُ
كلّما جئتَـهُ تعرّفتَ مَجْداً مُستفاداً للطرف فيه مُخالُ (٤)
حيث لاتَدْفَعُ الحقوقَ المعاذيـ ـرُ ولا يَسْبِقُ العَطاء السؤالُ
أعوزتْ من سواكَ عارفةُ الجو دِ وخابتْ في غيركَ الآمالُ
أنا من بَلَّهُ نداكَ وأعلت منه آلاؤكَ العِراضُ الطِوالُ
وتولَّتْهُ أنعمٌ منكَ يُحمَلْـ ـنَ خفافاً وهُنَّ وِقرٌ (٥) ثِقالُ
مالئاتٌ بذكركَ الأرضَ شكراً وثناءً وسيرُها أرْسالُ (٦)
طالعاتٌ تلكَ النجادَ ففي كُلِّ مَقامٍ لهنَّ فيكَ مَقالُ

* * *

(١) الصغا : الميل .
(٢) جمع حَيْد : اعوجاج والتواء .
(٣) تحرّى الأمر : قصده وتوخاه واجتهد في طلبه وفي الأصل : متحن .
(٤) في الأصل : محال ، ومخال من أخال فيه : تفرّس وتوسّم .
(٥) الوِقر : الحِمل الثقيل .
(٦) أفواج بعد أفواج .

ملاحظات ونظرات

١ — للبحتري في الفتح بن خاقان شعر كثير ، أكثره في ديوانه المطبوع ، والذي لا يزال مخطوطاً منه قليل لا يزيد على ثلاث قصائد ، منها هذه القصيدة التي تنشر لأول مرة .

٢ — أول اتصال للبحتري بالفتح كان في سنة ٢٣٣ هـ ـ كما يذكر الصولي في أخبار البحتري ص ٨٣ ـ وقد لقي الشاعر من ممدوحه تشجيعاً أثار عليه نقمة حسّاده الكثيرين ، فراحوا يكيدون له عنده ، ويتهمونه بانتحال أشعار العرب ، وقد كانت هذه القصيدة امتحاناً لشاعرية البحتري ، ذلك أن الفتح اقترح عليه وزنها ، وقد دلّل الشاعر بنجاحه فيها على أصالة موهبته وامتلاكه لناصية فنه ، وحُقّ له أن يقول في قصيدة أخرى يمدح بها الفتح ، ولا تزال مخطوطة أيضاً :

إذا كساني الفتح أثواب الغنى　　فكسوتي إياه مدحٌ منتخبْ
قصائد تطرب من تهدى له　　ولذةُ النفس من العيش الطرب
لم أستعرْ حليتها يوماً ولا　　أغرتُ حين قُلتُها على الكتب

(مخطوطة باريس : الورقة ٣٩ و — ظ) .

٣ — ولهذا نرجح أن يكون تاريخ نظم القصيدة في الفترة الأولى من اتصال البحتري بالفتح ، عام ٢٣٣ هـ ، وقبل أن يتيقن الفتح من أصالة موهبة البحتري وغنى طاقته الشعرية .

٤ — تقع القصيدة في قسمين متميزين : نسيب ومديح .

أما النسيب فيشغل الأبيات (١ — ١٢) وهو غزل تقليدي يتحدث في رشاقة وبراعة عن صد المحبوبة ودلالها وهجرها وإعراضها عن الشاعر منذ ولّى شبابه ، وأصبحت الصبوات من بعد ذلك ذكريات حلوة تهيجها الأطلال والرسوم ، وأمسى الشاعر يقنع بالوعد الكاذب والخيال الزائر .

وأما المديح فيشغل بقية الأبيات (١٣ — ٣٧) وقد أغناه البحتري بكثرة الصور

وتنوعها ، وفيها يمجّد أخلاق الفتح وسجاياه ، فهو فرد لا نظير له ، عرف الجميع فضله فأسلموا له المقادة ، وهو قوّال فعّال ، سمح شجـاع صائب الرأي ، كريم مضياف ، لا تنال منه الخطوب ، مصلح يقوّم اعوجاج الأمور ، ويحمي أمجـاد الخلافة بعزمائه وجهاده وحروبه ، وهو سخيٌ يسبق عطاؤه سؤاله ، والشاعر غارق في فيض من آلائه وعطاياه ، شاكر حامد ، لا يفتر عن الحمد والثناء .

٥ — الانتقال من النسيب إلى المديح انتقال مفاجئٌ ، وتلك عادة من البحتري ألفناها منـه ، وقد أهمل في المديح تمجيد شرف نسب ممدوحه ، ووفّى المنصرين الآخرين (الكرم والشجاعة) تصويراً وتلويناً ، وأبرز دور الفتح في دعم الخلافة وإسهامه في تدبير أمورها ، ولم يكن الشاعر في كل ذلك مغالياً ، فالفتح بن خاقان كان دون ريب من أخطر شخصيات عهد المتوكل وأشدها وعياً وأحكمها سياسة وتدبيراً .

٦ — تمتاز القصيدة بالصنعة الكثيرة المتأنقة ، ففيها فيضٌ من التشابيه والاستعارات والمحسنات البديعية ، وذلك تأثير أبي تمام في تلميذه البحتري لا يزال غضاً شديد الوضوح ، ولمّا تمض على وفاة (الأستاذ) ـ كما كان البحتري يسمي أبا تمام ـ سنةٌ وبعض السنة ، وسيتحلّل الشاعر كلّما امتد به العمر من طوابع مدرسة أبي تمام ومياسمها حتى يصبح الطبع غلاّباً على الصنعة في فنه .

٧ — تظهرنا القصيدة على مقدار الجهد الفني الذي بذله البحتري في نظمها ، ففي النسيب وحده ثلاثة أبيات مصرّعة (الأول والثامن والحادي عشر) وأكثر القوافي فيه مرشحة ، والصور تزدحم في القصيدة كلها في إحكام متين ، وإيجاز خاطف ، وعرض حي مثير ، وليس هذا عجيباً فهذه القصيدة التي يختبر بها الفتح شاعرية مدّاحه هي أجود ما تستطيع عبقرية البحتري أن تتمخّض عنه آنذاك ، وما كان للشاعر إلا أن يفجّر كل طاقته وإمكاناته التي يمتلكها إلى ذلك اليوم ، وهو يثبت للتحدي ، ويخوض معركته الحاسمة مع حساده ، مناضلاً في سبيل مستقبله ومجده الأدبي في بغداد .

٨ — القصيدة إذاً من جيّد شعر البحتري ومختاره ، وكفى البحتريَّ فخراً أن يقول مثل هذا الشعر وهو شابٌ لمّا يبلغ الثلاثين !

- ٥ -

قال البحتري [١] يرثي أمّ المتوكل [٢] :

غروبُ [٣] دمع من الأجفانِ تَنْهَمِلُ ... وحُرْقةٌ بِغَليل الحُزْنِ تَشْتَعِلُ

وليس يُطفيء نارَ الحزن إذ وَقَدَتْ ... على الجوانح إلا الواكفُ [٤] الخَضِلُ [٥]

إن لَجّ حُزْنٌ فلا بِدْعٌ ولا عَجَبٌ ... وقُلَّ صبرٌ فلا لومٌ ولا عَذَلُ

(١) القصيدة من البسيط ، عدد أبياتها عشرون ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس ، الورقة : ٣٤٩ ظ — ٣٥٠ و ؛ ومما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري أن المعري يذكر الشطر الأول من المطلع والبيت ١٦ منها في عبث الوليد (مطبعة الترقي بدمشق ١٩٣٦ : ص ١٦٩ — ١٧٠) .

(٢) أم المتوكل خوارزمية اسمها شجاع ، كانت أم ولد ، وكانت تدعى السيدة ، ويذكر ابن تغري بردي أنها « كانت صالحة كثيرة الصدقات والمعروف » وقد حزن المتوكل لوفاتها حزناً شديداً ، وكانت وفاتها لست خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٧ ﻫ ، وقتل المتوكل بعد وفاتها بستة أشهر (راجع النجوم الزاهرة : مصر ج ٢/٣٢٣ ومروج الذهب للمسعودي مصر البهية ١٣٤٦ ﻫ ج ٢/٣٦٨ ، ٣٩١ وتاريخ الطبري في حوادث سنة ٢٤٧ ﻫ) .

(٣) جمع غَرْب : الدلو العظيمة ، والدمع ومسيله أو انهلاله من العين أو الفيضة منه .

(٤) الدمع السائل .

(٥) الندي المبتل .

عَمْري لقد فَدَحَ الخطبُ الذي طَرَقتْ ... بِهِ الليالي وجلَّ الحادثُ الجَلَلُ
لِلهِ أيُّ يدٍ بانَ الحِمامُ بهـا ... منّا وأيّةُ نَفْسٍ غالَها الأَجلُ
سيّدة الناسِ[1] حقّاً بعدَ سَيّدهم ... ومن لها المأثُراتُ السُّبّقُ الأُولُ
جرى لها قَدَرٌ حَتمٌ فحلَّ بهـا ... مكروهُهُ وقضاءٌ مُوشِكٌ عَجِلُ
فكُلُّ عينٍ لها من عَبْرَةٍ دِرَرٌ[2] ... وكُلُّ قلبٍ له من حسرةٍ شُغُلُ
عمَّ البكاءُ لها من[3] المُصاب بها ... كما يَعُمُّ سحابُ الدِّيمةِ الهَطِلُ
فالشرقُ والغربُ مغمودانِ من أسفٍ ... باقٍ لفقدانها والسهلُ والجبلُ
مَثُوبةُ اللهِ مِمّا فارقتْ عِوَضٌ ... وجنّةُ الخُلْدِ مِمّا خلّفتْ بَدَلُ
قُل للإمام الذي آلاؤه جُمَلٌ ... وبِشْرُهُ أملٌ وسُخْطُهُ وَجَلُ
لكَ البقاءُ على الأيامِ يُقتَبَلُ[4] ... والعُمْرُ يمتدُّ بالنُّعمى ويتّصِلُ
والناسُ كلُّهمُ في كلِّ حادثةٍ ... فداءُ نَعْلِكَ أنْ يغتالكَ الزَّلَلُ
إذا بقيتَ لِدينِ اللهِ تَكلَؤهُ ... فكلُّ رُزْءٍ صغيرُ القَدْرِ مُحتَمَلُ

---

(١) في النجوم الزاهرة أنّ أمّ المتوكل كانت تُدعى السيدة ، كما قدمنا ، وإلى هـذا يشير البحتري هنا .

(٢) في أساس البلاغة : سحابة مِدرار ولها دِرّةٌ ودِرَرٌ .

(٣) في الأصل : والمصاب ، ولا يستقيم به الوزن .

(٤) يُستأنف ، اقتبل البقاء : استأنفه .

لئن رُزِئْتَ التي ما مثلها امرأة[١] … لقد أُتيتَ الذي لم يُؤْتَهُ[٢] رَجُلُ
صبراً ومعرفةً بالله صادقةً … والصبر أجملُ ثوبٍ حين يُبْتَذَلُ[٣]
عَزَّيتَ نفسَكَ[٤] عنها بالنبيّ وما … في الخُلدِ بعد النبيّ المصطفى أَمَلُ
وكيف نرجو خُلوداً لم يُخَصّ به … مِن قبلنا أنبيـاءُ اللهِ والرُّسُلُ
عَمَّرَكَ اللهُ في النَّعماءِ مُبتهجاً … بها وأعطاكَ منها فوق ما تَسَلُ

* * *

(١) كذا في المخطوطة الباريسية ، وفي عبث الوليد (مَرَة) وتعليق للمعري يقول فيه : (قد جمع أبو عبادة في قوله « مَرَة » بين شيئين ، تخفيف الهمزة التي في قولك « مرأة » ، وحذف الهمزة الأولى التي هي همزة الوصل ، وهذا جائز على قلّته ، ومنه قول بعض اللصوص:
ولستُ أرى مَرْءاً تطول حياته … فتُبقي له الأيامُ خالاً ولا عمّـا)
ومنه أيضاً قول دعبل الخزاعي معاصر البحتري وصديقه :
فاحفظ عشيرتك الأدنين إنّ لهم … حقـاً يفرّق بين الزوج والمَرَهْ
(الكامل للمبرد ، طبعة المبارك وشاكر ١٣٥٥ هـ : ج ١/ ٣٥٤) .

(٢) في الأصل : يأته ، وأثبتنا ما جاء في عبث الوليد ، وقد علّق المعري على قول البحتري (أُتيتَ) بمعنى (أوتيت) فهي كلمة لم تُستعمل لذاك ، وخيرٌ للبحـتري أن يقول (فقد حُبيتَ) .

(٣) ابتذل الثوب : لبسه .

(٤) يشير البحترى هنا إلى قول المتوكل عند وفاة أمه ، فقد ذكروا أنه قال في موتها بيتاً من الشعر ، وهو :
تذكّرتُ لما فرّق الدهرُ بيننا … فعزّيتُ نفسي بالنـبي محمـد
وقد أجازه له بعض من حضر فقال :
فقلت لها إن المنايا سبيلُنـا … فمن لم يمت في يومه مات في غدِ
(انظر النجوم الزاهرة : ٢/ ٣٢٣) .

ملاحظات ونظرات

١ – لم يَرِد لأمّ المتوكل في شعر البحتري ذكرٌ في غير هذه المرثية التي بكاها بها في حياة ولدها ، فأدّى بذلك واجب الشاعر الرسمي للخليفة ، وإن لم يكن للحدث المحزن صلة بقلبه ووجدانه ، على أن أم المتوكل كانت – فيما يحكيه المؤرخون عنها – سيدةً جليلة صالحة ، تبسط يدها في الإحسان إلى الفقراء من مالها ، وكانت أحزان المتوكل لوفاتها عميقةً ، أنطقته بالشعر الحزين بكاءً عليها ، ولهذا كان المأمول من شاعر الخليفة أن يُعَمِّق إحساسه بآلام سيّده وأن يتمثلها وأن يجد السبيل الى قولٍ مغموس بدم القلب ، لولا أن البحتري من طبيعة نفسية مرحة ، تنفر من الكآبة ، وتستعصي على المشاركة الوجدانية الصادقة في مآسي الآخرين .

٢ – تاريخ نظم القصيدة سهل التحديد ، فقد توفيت أم المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، ولحق المتوكل بها بعد ستة أشهر من وفاتها ، وفي خلال هذه الفترة دون ريب نظم البحتري هذه المرثية .

٣ – إذا استثنينا من مراثي البحتري قصيدتين هما رائيته في المتوكل وميميته في أبناء حُميد الطوسي (الديوان : الجوائب : ١/ ٢٨ ، ٢/ ٥٥) لم نجد للبحتري إبداعاً في الرثاء ، ذلك أن الشاعر كان يبكي في هاتين المرثيتين نفسه ويندب أفول مجده بمصرع المتوكل والقادة الطائيين من آل حميدٍ ، فجاء رثاؤه هنا صادق اللوعة ، بفيض وفاء ويتدفق إخلاصاً وجدّةً وأصالة ؛ أما مراثيه الأخرى فهي قصائد يابسة لا تخرج على النهج التقليدي للمرثية ، والبحتري يستهلّها غالباً بتعظيم الرزء ، وذم الدهر الخوّان ، والتوجع من صروفه قبل أن يصل إلى الفقيد فيعدد مناقبه ويصوّر الفراغ الكبير الذي خلّفه بوفاته ويصف الحزن الطاغي لفقده ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى أهل الفقيد فيعزيهم ويمدحهم ، وبذلك يصبح الرثاء جسراً إلى المديح ، ويتخلص الشاعر من كآبة جو الموت ، باحثاً بعينيه النهمتين أبداً إلى المال عن ممدوح جديد سخيٍ ، من أهل الراحل ، يحل محلّه ، ويجزي الحمد بالثمن الربيح .

٤ — ورثاء البحتري لأم المتوكل يجمع هذه الخطوط العامة التقليدية ، ذلك أننا نلاحظ في القصيدة الأقسام الثلاثة التالية :

أ — تصوير الحزن وتعظيم المصاب : ويشغل الأبيات (١ — ٤) فالدمع مسكوب ، والحزن مشتعل الحرقة ، والصبر مفلول عند هذا الحادث الجلل .

ب — تمجيد الفقيدة : ويشغل الأبيات (٥ — ١١) فقد كانت ذات يد كريمة ونفس طيبة ، وكانت سيدة الناس بمآثرها ، فأرداها الموت ، فبكتها العيون والقلوب ، وعمّ الحزن الناس في الشرق والغرب ، والسهل والجبل ، ودعوا أن يثيبها الله الجنة .

ج — تعزية الخليفة ومدحه : ويشغل الأبيات الباقية (١٢ — ٢٠) والبحتري يصف هنا آلاء الخليفة وبشره وهيبته ، ويدعو له بطول العمر ، ذلك أن بقاءه بقاء للدين ، وكل خطب هيّن بعده ، والمتوكل قد أوتي الصبر والإيمان فعزّى نفسه عن أمه بالنبي ، وكيف يرجو لها خلوداً لم ينله قبلها الأنبياء ! ويسأل الشاعر الله أخيراً أن يمد في حياة الخليفة ويزيده نعمة وبهجة ، وأن يعطيه فوق ما يسأل .

٥ — في القسمين الأول والثاني وصف للحزن بلهجة تقريرية جافة ومبالغات يائسة تجعل الحداد شاملاً للشرق والغرب ، والسهل والجبل ! ولم يوفق البحتري إلى أن يخفي بهذا الطلاء فقر انفعاله وقصور عاطفته ونفور وجدانه من الانغماس في الجو الحزين القاتم الذي يرسم خطوطه ؛ أما القسم الأخير فيكاد يكون مديحاً خالصاً للخليفة ، مقطوع الصلة بالإطار الأسود الذي تقدمه ، ذلك أننا نرى الشاعر فيه وقد برقت أساريره ، فذكر البشر والنعماء والبهجة ، وكأنه نسي ما كان يسكبه من (غروب الدمع) وما كان يشعله من (غليل الحزن) .

٦ — هذه القصيدة لا تقع دون الحسن من شعر البحتري وإن لم تلحق بالجيد المختار منه ، ولو لم تكن مرثية ، والرثاء الحق نبعة تفور من أعماق القلب ، لنجت من أكثر المساوئ التي أشرنا إليها .

(يتبع) الدكتور صالح الأشتر

كتاب النفس

لابن باجة الأندلسي

- ٧ -

الفصل السادس

القولُ في الشمّ

والشمّ هو إدراك معنى المشموم كما قلناه قبل ، وهو مرتب في الأنف . وقد يجب أن نسلك ذلك السَّنَن فنفحص عن القابل الأول للمشموم ما هو ؟ فبذلك يتبين لنا ما هو الشمّ بالذات ، وما هو له بالعرض ، كما تبين ذلك في البصر . فإن اللون هو المرئيّ ، والقابل الأوّل هو البسيط . ويشبه أن تكون الحواس الثلاثة الباقية جنساً آخر من الوجود ، كما تبين ذلك ، وإن هذه الحاسة[1] أشد ضرورة في سلامة المغتذي من الأوّلين . وبحقّ [2] كان ذلك ، لأنها أحوال من أحوال الممتزج . فإن اللون والقرع يوجبان تغيّر الممتزج ، لما يوجدان [3] للممتزج لا بالعرض <و> لا بالذات . وان اللون لا يتبع المزاج كما تبين ذلك في مواضع أخر . وقد لخص ذلك الإسكندر الأفروديسي[4] .

---

(١) المخطوطة : الحواس .

(٢) المخطوطة : بحو .

(٣) المخطوطة : كما يوجد .

(٤) ترجمة ابو عثمان الدمشقي ، نسخة جيدة لهذا الكتاب موجودة بخزانة اسكوريال ، ميـــدرد ، رقم ٧٩٤ (راجع : Casiri : Bibliotheca Arabic—Hispana Escurialensis, vol.. I. p. 242, Foll , 69 b—17 a) . ولقد جهدتُ لحصول نسخته الشمسية ولكنهم رفضوا الطلب وقالوا إن الأب مُرَّاتا يريد ان ينشر هذا الكتاب بتحقيقه . ولكن ابن باجة يشير هنا الى تصنيفه المسمّى « مقالة الاسكندر في اللون وأي شيء هو على رأي أرسطو » ، وكان في محتويات نسخة برلين المفقودة الآن : Ahlwardt : Die Handschriften.., vol IV. No. 5060 .

والمشموم الأول هو الرائحة . فلنقل ما الرائحة . فأما أن كل ذي رائحة فهو ممتزج فكذلك تبين عند تصفح الأجسام . فالامتزاج [١] يتقدم الرائحة في الجسم بالطبع . فأما أنه ، مع أنه مقدّم بالطبع ، ذاتيّ فبيّن أيضاً عند تصفح الرائحة وتولدها ، كما عرض ذلك في (ورقة ١٥٨ ب) الألوان ، فإن التصفح انما وقع لبعضها ووقع اليقين في الكل . والأمر في أمثال هذه على ما يقوله أبو نصر ، انها إنما تصير يقينية في زمان وهي مباينة للأزمان في الكثرة والقلة ، فإنا نشاهد في الصيف في بعض البلاد تراباً ليس له رائحة فاذا حدث عليه قطر المطر حدثت له الرائحة عند ملاقاة المطر له ، ولا سيما متى كان المطر من سحاب قريب فانه عند ذلك يكون حارّاً وربما كان ثلجاً .

وكذلك أيضاً يتقدم بالطبع وجود الطعم في ذي الرائحة الرائحةَ فتكاد الرائحة أن تكون هي طعماً ، ولذلك تعرف طعوم أشياء كثيرة من روائحها . وأكثر الحيوان غير الناطق إنما يستعمل هذه الحاسة في معاشه [٢] كما يوجد ذلك في النسر وفي الكلاب وفي الدواب . فإن الخيل تنصرف عن أغذيتها إذا اقتربت بها [٣] رائحة غير رائحتها الطبيعية . ولذلك كانت هذه الحاسة في غير الإنسان قوية وكانت في الإنسان ضعيفة [٤] لأن الحيوان إليها أحوج .

ومن شأن هذه في كثير من الحيوان أن لا يحس [٥] حتى يستنشق [٦] وهو

(١) هذا الرأي أيّده ابن رشد كما يظهر من تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ، ص ٣٩ ، حيدر اباد ، ص ٣٤ .

(٢) راجع أرسطو : De Sensu, 5, 443 b 24 sq; 444 b 1 — 14; '30 — 445 a .

(٣) لعل الصواب : اذا اقترنت بها ، او اذا اقتربت منها . (لجنة المجلة)

(٤) راجع أرسطو : De An. ii. 9, 421 a 9 .

(٥) المخطوطة : لا يحس .

(٦) راجع ارسطو : De An. ii. 7, 419 b 1 .

ما كان له رئة[(١)] . فإنه لو وضع ذا[(٢)] الرائحة على الأنف لما أحس[(٣)] حتى يستنشق . والرائحة قد يحرك بها الهواء على بُعد من المستنشق بقدر لا تحركه[(٤)] هواء النفس وذلك مشاهد .

وهذه الحاسة عليها حجاب[(٥)] لا ينفتح . فاذا وقع الاستنشاق انفتح ذلك الحجاب فوصل ذو الرائحة إلى الحاسة . ولذلك متى أراد الذي يشم إيصال وجود الرائحة لم يتنفس دفعةً بل يتنفس في زمان طويل أو جعل التنفس متلبثاً .

ومما يظهر أن القابل للرائحة هو بالجملة مجانس للهواء وليس هذا فقط بل هو

---

(١) أيضا : De An. ii. 8. 420 b 23; De Sensu. 5. 444 b I sq. .

(٢) المخطوطة : ذي .

(٣) هذه هي حال سائر الحواس فانها لا تدرك كل ما يلاصقها ، راجع ارسطو : De An. ii. 9. 421 b 14 — 19 ، أيضا تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ، ص ١٥١ س ١١ . وايضا المخطوطة الفارسية ، بودليانا ، Ous. 95 ورقة ٤٧ الف س ٢٠ : « واين حواس ديگرراكه وصف كرديم نه چنين باشدكه أن حواس قادرهوادرميان نباشد محسوسات خوردرانيابد ، چون حس بينائى وشنوائى وبويائىكه اگر مردم جيزديدنى رابر حدقه جشم نهدنه بيد ، واگر چيز آواز دهنده برپوست درون گوش نهد اوازآن نتواند شنيد واگر چيز بويارا ظاهر مجراى بينى نهد بوى ان نيابد .

(٤) بقدر لا يحركه . (لجنة المجلة)

(٥) لم يصرح أرسطو أنه هناك غشاء على المناخر يزول وقت الاستنشاق ، ولكنه زعم ان حاسة الشم لها شيء مثل الغشاء كما ان البصر له غشاء في العين يحفظها . (De An. ii. 9. 421 b 29 — 422 a 4) ، ولكن ابن باجة تيقن به ، لعله أخذه مما كتبه أرسطو في كتاب الحاس والمحسوس (5. 444 b 21 — 25) ان الحيوانات التي تتنفس يزول فيهم شيء شبيه بالغشاء من آلة الشم وقت التنفس ، والحيوانات التي لا تتنفس لا يزال هذا المانع فيها مرتفعا ، وراجع تلخيص كتاب النفس ، الأهواني ص ١٥٠ . والمخطوطة الفارسية ، ورقة ٤٧ الف : « واما ديگرجانوران كه راه گذربيني دارند بالاى گذرگاه حجابى بود شانكه هوارا بازدارد ازرسيدن بدان منافذ مگر آنكه بركشند وبجنبا نندوهمچنين نتوانندديد مگر كه جشم بكشايد » .

إنما دخان أو بخار ما يعرض للبخورات والكثير من المطبوخات . وقد فصلت هذه كلها في كتاب الحاس والمحسوس [١] . ولذلك يبقى في كثير من الأجسام الصلدة روائح الأجسام بعد ذهابها ، مثل ما يبقى في أواني النحاس رائحة الخمر والعسل بعد غسلها زماناً طويلاً . فتبقى في الأوعية روائح الأجسام المودعة فيها ، ولذلك قد تشتبه على الشم الأجسام التي لها تلك الروائح كما عرض ذلك في السمع [٢] . فإن هاتين الحاستين تفارق محسوساتها [٣] وقوابلها [٤] ما هي منه . وليس كذلك البصر ولا اللمس . فلذلك تدرك [٥] تانك الحاستان الأطوالَ والأشكالَ أكثر من هذه .

وأما الذوق فسنبين أمره كيف هو . ولما كان الممتزج على ما تبين في مواضع أخر ، وقلناه نحن قبل . إما أن يكون بنضج أو دون نضج ، كما يعرض ذلك في الذهب والفضة ، وما هو ينضج . والنضج يقال (ورقة ١٥٩ الف) بعموم وخصوص ، فإذا قيل بعموم كان كالجنس للشيء والطبخ ؛ وإذا قيل بخصوص كان مرادفاً للطبخ .

وتبين أن النضج إنما يكون في المختلط من رطوبة ويبس . فإذا أنضجته الحرارة نوعاً من النضج حدث عند ذلك في ذلك الجسم المعنى الذي يقال له الطعم . ولذلك كل ذي طعم فهو ذو رطوبة ما . فإذا اتفق لهذا امتزاج آخر من رطوبة ويبوسة اختلطت بهذه ، ونضجت نضجاً ، فما حدث عن ذلك الرائحةُ ، وقد تلخص أمرها في الحاسّ والمحسوس [٦] .

(١) راجع أرسطو : De Sensu. 5. 443 a 21 — 30 .
(٢) راجع النص آخر ورقة ١٥٧ ب .
(٣) المخطوطة : محسوساتها .
(٤) المخطوطة : قوابلها .
(٥) المخطوطة : قابل .
(٦) بيّن ابن باجة غاية الشم في كتاب الحس : De Sensu. 5. 443 a 7 .

وتبين أن الرائحة تكون عندما تغسل[١] الرطوبة اليبوسة ذات الكيفية وتنضج بالحرارة نوعاً من النضج ، ولذلك توجد هذه في النباتات أكثر مما توجد في الحيوان وفي الأحجار .

فذلك الحاصل في تلك الرطوبة الممتزجة باليبوسة التي قد أنضجتها الحرارة — ما كان منها شجراً كان ظاهر الرائحة بنفسه . وما لم يكن ظاهر الرائحة بل كان ذا رائحة للقوة فلذلك يحتاج إلى النار وإلى حرارة . ولذلك متى دُلك ذو الرائحة أو فرك[٢] وبالجملة إذا استحرّ ظهرت رائحته[٣] . فان الرائحة تحتاج إلى حرارة منضجة أوّلاً فقد تكتفي بذلك مثل المسك واللُبنى السائلة[٤] ، وقد لا تكتفي فتحتاج الى حرارة أخرى كعود الطيب[٥] والسندروس وما شاكل ذلك .

ولما كان الشمّ هو إدراك معنى المشموم ، وكان وجود المشموم هو الوجود ، لم يدرك الشم شيئاً من لواحق المشموم من غير الطعم . ولذلك لا [يدرك] الشمّ إلاّ بالعرض . وذلك إذا اتفق أن يكون ورود المشموم من جهة واحدة تميزت له جهة الشم[٦] بالعرض . فتميزت له جهة الشم[٧] بالقصد الثاني .

---

(١) راجع أرسطو : De Sensu, 5. 443 a 1; b 3; 445 a 14; 4. 441 b 18 .

(٢) أيضاً : 4. 441 b 18; 5. 443 b 16 .

(٣) وابن رشد تبع ابن باجة في البيان ، تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ، ص ٤٠ ، حيدر اباد ، ص ٣٤ .

(٤) راجع ابن رشد ، تلخيص ، الاهواني ، ص ٤٠ ، حيدر اباد ٣٤ ، وراجع كتاب النفس ، الاهواني ، ص ١٥٠ ، والمخطوطة الفارسية ورقة ٤٧ ، س ٦ وحس بويائى همان شناسد كه موافق وخوش بود ويا مخالف وناخوش ، ونتواند كه بوى گل را ازبوى ميمه جدا كندونه بوى صبررا ازبوى منزبل كه همين دانيم كدبويهاى ناخوشت يابويهاى ناخوش .

(٥) مشهور بالعود الهندي ، راجع ابن رشد ، تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ص ٤٠ .

(٦) المخطوطة : المشموم .

(٧) المخطوطة : المشموم .

الفصل السابع
القول في الطعْم

وقد تبين وجود الطعم أيّ وجود وجوده [١] ، وإن الطعم لا يمكن أن يكون لا في رطب ، ولا في يابس ، ولذلك لا يوجد للرماد ولا للماء الصرف ولا للهواء . ولذلك يوجد لماء البحر طعمٌ ولماء الآجام لليبوسة التي تخالط تلك المياه .

فهيولى الطعم الرطوبة [٢] ، ولذلك متى يبست آلة الطعم لم تجد طعم الأشياء الغالبُ عليها [٣] اليبس ، وتجد لذلك طعم الرطب . فإن الطعم يحرك رطوبة الفم فيقبلها على نحو ما يقبل الهواء اللونَ . وتحرك الرطوبة حاسة الذوق [٤] . ولذلك متى كان رطباً قامت الرطوبة الحاملة مقام الرطوبة الطبيعية . فالرطوبة يفتقر اليها الطعم أما أولاً ففي [٥] أن يكون موجوداً ، وثانياً لأن يكون محسوساً .

ولذلك جعلت النغانغ [٦] لتصنع الرطوبة الطبيعية التي بها يكون الذوق .

---

(١) راجع النص نفسه ، ورقة ١٥٩ الف ، ... فما حدث عن ذلك الرائحة الخ .

(٢) قال ارسطو إن الجسم المشموم والمطعوم يتعلق بشيء سائل : De An. ii. 10. 422 a 10 .

(٣) المخطوطة : عليه .

(٤) راجع أرسطو .

(٥) المخطوطة : هي .

(٦) خالف ابن رشد رأي الاسكندر الافروديسي الذي كان يرى « ان هذه القوة ليست تحتاج الى متوسط » ، واستدل قائلا « فمن هذه الاشياء كلها قد يظهر ايضا ان هذه الحاسة انما تدرك محسوسها بمتوسط هو هذه الرطوبة ، وقد صرح بذلك ابو بكر بن الصائغ في كتابه في النفس وثامسطيوس » ، الاهواني ، ص ٤١ .

وهي ممتزجة من يبس ورطوبة نحواً من الامتزاج ، ولذلك هي لزجة . وهذه الرطوبة (ورقة ١٥٩ ب) هي غير [١] ذات طعم لئلاً يعوّق طعمها قبول طعوم المتضادة لها [٢] . فلذلك يجد المحموم الطعوم كلها مُرّة [٣] ، لأن الرطوبة التي في فمه مُرة لمخالطة الدخان اياها ، وقد تلخص ذلك في غير هذا الموضع .

والطعم ضروري في الحيوان [٤] ، ولذلك لا يوجد منه ما لا يطعم إلا قليل مثل جنس ذوات الأصداف واسفنج البحر . ويشبه أن تكون هذه تكتفي باللمس في اغتذائها لبعدها عن الاعتدال ، ولأنها تجري مجرى النبات .

ولذلك لا يحسّ الذوق بشيء من لواحق ذي الطعم غير الطعم ، ولذلك يصير الطعم ألذّ وأكره بكونه أرطب وأيبس وأحرّ وأبرد ، وذلك بيّن بنفسه .

* * *

الفصل الثامن

القول في اللمس

واللمس هي القوة على إدراك الملموس . والملموس قد يظن به أنه أصناف كثيرة [٥] ، فتكون قوة اللمس أصنافاً كثيرة ، إلا أنها في موضوع واحد .

---

(١) المخطوطة : تكرّر « هي غير » .

(٢) لعل صحيح التعبير : الطعوم المضادة لها . (لجنة المجلة)

(٣) راجع ارسطو : De An. ii. 422 b 8 .

(٤) ايضا : De An. iii. 12. 434 b 10 — 24; De Sensu. I. 436 b 13 .

(٥) وابن باجة اوضح قوله في كتاب الحيوان (ورقة ٩٥ ب) واللمس فقد يظن به انه اصناف كثيرة ، فان اللمس هو الحار والبارد والرطب واليابس والصلب واللين ، وهذه القوة واحدة كانت او اكثر من واحدة فهي اللحم وما جرى (ورقة ٩٦ الف) مجراه . وهذا الحس يحتاج اللحم اكثر مما يحتاج اليه غيره ولذلك كان الانسان احسن لمسا من ساير الحيوان لان اللحم فيه كثير وليس له شعر ولا ريش ولا فلوس ولا خزف بل الجلد » . وقد أشار الى هـــذا أرسطو حينما قال (De An. ii. 422 b 18) : « إن لم يكن اللمس حاسة بل كان مجموعا لحواس فلا بد من أن يكون الملموس اكثر من واحد » .

وهـذه الحاسة هي شايعة [١] في بدن الإنسان ، وليس لها عضو مخصوص كما لسائر الحواس . بل لها قابل محدود النوع في كل حيوان ، وهو اللحم أو ما يقوم مقامه فيما لا لحم له [٢] . فإن الجلد ليس فيـه الحاس الأول [٣] لأنه اذا كشط أحسّ اللحم ليس بأنقص من إحساس الجلد ، بل هو أحرى أن يظن به أنه أشد لمساً .

وهذه الحاسة على ما تقدم ؛ هي التي لا يخلو [٤] منها حيوان وبها يكون الحيوان حيواناً . ولذلك متى فقدت هذه الحاسة ارتفع معنى الحيوان عن ذلك الشخص . ولا تخلو [٥] < من > أن يكون لها لمسٌ .

ولما كانت الملموسات ، على ما تبين في الثانية من الكون والفساد [٦] ،

(١) وبيّن ابن باجة ايضا ، (ورقة ٩٥ الف) . وهـذه القوة (أي قوة اللمس) ليس لها موضوع منفرد كالعين للبصر والمنخر للشم وثقب الأذن للسمع بل تجدها شايعة في الجسد كله ومحيطة به .

(٢) راجع ابن باجة : ورقة ٩٦ الف : والحس منه ما هو شامل الأعضاء كاللمس وآلته اللحم او ما يقوم مقامه فيوجد في كل عضو له شركة في الحس لحم . وأمّا ان يكـون منفرداً كالحواس الاربع . وانظـر أرسطو : De An. II. 422 b 20; 423 a 13 .

(٣) استدلّ ابن باجّة قائلا : ورقة ٩٦ الف : فجلد الانسان فقد يظن به أنه الحاسّ الاوّل واما انه ليس الحاسّ الأوّل فذلك بيّن لأن اللحم يحس دون الجلد اكثر مما يحس والجلد عليه .

(٤) المخطوطة : لا يخلوا .

(٥) المخطوطة : ولا تخلوا .

(٦) ايضا ابن باجة ورقة ٨٧ الف : : ان كل واحد من هذه (اجسام اربعة) فهو جسم ملموس وذلك معروف بنفسه ، ولما كانت الأجسام المشاهدة ليست البسائط بل ما كانت اقرب الى البسايط ظن بأن المدركة بما نشاهد ليست مكتفية بنفسها على ان تردف بالقول . فنقول ان الحار والبارد والرطب واليابس امور محسوسة فهي موجودة . وهذا علم اول مكتف بنفسه فظاهر قريباً من ذلك انها في موضوع واحد وان قوام جسم وصورته من حيث هو ما هو لست واحدة منها . وانواع الأجسام المشاهدة فكل واحد منها فيه ضرورة اثنان من هذا الاربع لا يخلو جسم منها ؛ ارسطو : 423, 27 .

يرجع كلها إلى الحار والبارد والرطب واليابس ، وكان هذا < ن > التضادّ ان ليس يرجع أحدهما إلى الآخر فإن كل حس فإنه لمتضادّين [1] . وقد يعرض للمتضادين أن يكونا موضوعين لتضاد آخر . مثال ذلك اللون : أطرافه الأبيض والأسود ، والأبيض موضوع البراق والابراق [2] ، والضوء طرفاه الثقل والحدة وهذه موضوعة الأملس والخشن والخفي والجهير .

وكما أن تلك حاسة واحدة تتبعها قوى كثيرة كذلك يشبه اللمس [3] . وبالجملة فإن القوى تتبع الموجودات في ترتيب وجودها . لكن الرطب واليابس والحار والبارد لا تتابع بينها على ذلك الوجه فإنه لا واحد منها [4] موضوع الآخر لكن بينها تتابع آخر بالذات وتلازم ، وقد تلخص ذلك في غير هذا القول . [ورقة ١٦٠ الف] فلما كانت هذه لا تنفصل في وجودها في الموضوع فلذلك كانت القوى اللامسة لا تنفصل وكانت في حاسة واحدة .

ولما كان كل جسم كاين فاسداً فهو ملموس . ولا يخلو [5] الموضوع من هذه المتضادات كما يوجد الموضوع خالياً من سايرها ، فإنه قد يوجد جسم لا لون له [6] ويوجد جسمٌ لا صوت له وذلك في الرايحة والطعم ، فلذلك اتخذت

---

(١) راجع ارسطو : De An. II. 424 a 7 .

(٢) انظر ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الأهواني ص ٤٦ ، حيدراباد ص ٤٠ .

(٣) وصف ابن سينا قوة اللمس في الشفا ورقة ١٦٦ الف : ويشبه ان يكون قوى اللمس قوى كثيرة كل واحد منها يختص بمضادة فيكون ما يدرك به المضادة التي بين الثقيل والخفيف غير التي يدرك به المضادة التي بين الحار والبارد ، فان هذه افعال اولية للحس يجب ان يكون لكل جنس منها قوة خاصة الا ان هذه القوى لما انتشرت في جميع الآلات بالسوية ظنت قوة واحدة .

(٤) المخطوطة : فان ما لاواحد منها .

(٥) المخطوطة : لا يخلوا .

(٦) هذا مخالف لما قال ارسطو في De Sensu. 6. 445 b 12 ، وانظر ايضاً : De An. II. 7. 418 b 27 — 30 .

آلات تلك من أمثال هذه الأجسام . فأما هذه فلما لم يمكن ذلك كانت من المعتدل لأن المعتدل هو بوجه ما ولا واحد من الطرفين بالقوة . فلذلك كانت آلة اللمس معتدلة من الحار والبارد والرطب واليابس . ولذلك لما ظنّ جاليتوس أن اليد هي آلة اللمس حكم بأن جلدة اليد هي المعتدلة بين الأطراف . فنقل ما للجسم الذي فيه القوة اللامسة إلى بعض آلات اللمس . وهذا الجسم هو الحار الغريزي . ولما لم يكن فيه الاعتدال لذلك وصلته الأجسام التي يسميها أرسطو سيلا ويسميها جالينوس عصباً لأنها تأتي بالبرودة النفسانية من الدماغ . ولذلك أيّ عضو لم يتصل به سيل من الدماغ لم يكن فيه لمسٌ ، ولذلك لا يلمس الكبد ولا الكلى ولا العروق الضوارب وهي مملوءة من الروح الغريزي .

فأما كيف تكون برودة نفسانية ؟ وذلك قد تبين خلافه . فإن آلة النفس هي الحار الغريزي . فإن البرودة تقال على الأطراف وعلى الأوساط ، والتي في الدماغ لا يمكن أن تكون طرفاً ، فإنما هي وسط وهو ما بين المعتدل والطرف . وإنما يكون الوسط وسطاً يخالطه الضد ، فتلك البرودة تخالطها حرارة نفسانية . ولذلك تصير الحرارة إلى الدماغ من القلب في الشرائين وتصير عليه الشبكة المشيمية لتسكنه هذه الحرارة المعتدلة لبرودتها ، وبها تكون في تلك الرتبة . فهي نفسانية من جهة ما هي حرارة لا من جهة أنها هي بالرتبة تلقب بالطرف .

وقد يتشكك على حاسة اللمس . منها أن كل حاسة فإنها متحركة عن المحسوس حسب ما تلخص القول المجمل في الحس [1] . والمحرك منه قريب ومنه بعيد ، ومنه بالذات ومنه بالعرض . والبعيد الذي هو المحسوس ، والقريب

---

(١) راجع ارسطو : De Sensu. VI. 446 a 21

الذي هو الخادم كالهواء للبصر والسمع والشمّ ، والرطوبة للذوق . فقد ينبغي أن نطلب (١) هنا مثل ذلك .

وثامسطيوس يسلم أن الهواء تخدم مثل ذلك كله . فانه شيء لا يمكن أن يتماسّ السمك (٢) في الماء < بغير الماء > ، لأن الرطوبة لا يمكن أن تنسلخ جملة عن الأجسام التي في الماء . فإن الهوائي أحس (٣) بذلك .

واللمس قد يكون بتوسط أكثر من واحد وإن كان غير طبيعي ، كما يعرض ذلك إذا غشي بعينه ، فإنه قد يدرك الصلب واللين (ورقة ١٦٠ ب) والحار والبارد ، وكما يحس بتوسط العكاز (٤) مثلاً ، غير أنه وإن كان يحس بذلك فلسنا نحس كل أنواع الملموس ، فإنا لانحس بتوسط العكّاز لا الحار ولا البارد . بل إنما نحس بالصلب واللين . ونلمس الحار والبارد عندما يغشى الجلد ، وليس إنما يكون الغشاء يخدم بل ينفعل من ذلك ويكون هو المحسوس أوّلاً .

وأما هل حاسة اللمس هو اللحم أو في اللحم ؟ فإن ذلك ليس بتبين (٥) ،

(١) والتفت ارسطو الى هذه المسألة في : De An. II. 11. 422 b 23.

(٢) راجع كتاب النفس لاسحاق ، الاهواني ، ص ١٥٣ ؛ والمخطوطة الفارسية ، ورقة ٤٧ ب ١٩ : « جواب گفت حاسه لمس ملموس رابيانجى هوادريابد ليكن هوا پوشيده بودودرين مثل زد گفت : اگر كسى دست بآب فروبرد وبيرون آوردبدست سنگىرابو گيرد چارميان سنگ ودست آب بود ليكن پنهان ازغايت لطافتش پس چون آب بتوسط ميتواند بودميان دست وآنچه بدست گيردبى آنكه نتوان ديداز لطافت هواسزوارتر كه‌در توسط پوشيده ماندكه هوا از آب بسى لطيفتراست » . وابن رشد اقرب الى ابن باجة واظهر في البيان ، تلخيص : الاهواني ص ٥٠ ، وحيدر آباد ص ٤٥ .

(٣) المخطوطة : احسى ، وبالهامش : « احرى » .

(٤) المخطوطة : العار ، وبالهامش : « العكاز » .

(٥) راجع ابن باجة : ورقة ٩٦ الف : على ما نشاهد ان الحس في اللحم ، ولا يبالي ... هل اللحم هو الحاس ام الروح الغريزي ؟ واللحم له آلة » . ايضا ارسطو : Hist. An. I. 489 a 24

لكنه كيف كان فهو متصل باللحم وهو أحد ما به قوام اللحم .

والملموسات ، فقد تلخص أمرها في مواضع كثيرة . فإن لها قوى شايعة في الجسم[١] ، قوامها في الجسم من حيث هو جسم . فلذلك تدرك اللامسةُ الأطوال والأشكال كما يدرك ذلك البصر .

فأما انه لا توجد حاسة غير اللمس ، فذلك قد يبين ما نقوله : وذلك أنه وإن وجدت فسيكون لها محسوس خاص ، وذلك المحسوس يجب ضرورة أن يكون محركاً جسمانياً . ولا محرك جسماني إلا هذه الخمس[٢] ولذلك لا يمكن أن تكون حاسة مفردة للمحسوسات المشتركة تحرك[٣] أشياء . فأمّا الحاس الذي يدركها فسنبين أمره بعد . وأيضاً فإنه إن كان ها هنا حاسة سادسة[٤] وجب ضرورة أن تكون لحيوان مّا ، وذلك الحيوان يكون ضرورة غير الإنسان ، فإنما للإنسان هذه الخمس بالطبع ، فيكون ذلك الحيوان حيواناً ناقصاً[٥] . ومحال أن يوجد للناقص ما لا يوجد للتام . وقد تلخص في أول

---

(١) ايضا ارسطو : DeAn. III. 13. 435 a 20 ; De Part. An.II. 1. 647 a 15 ; Hist An. I. 3. 489 a 18 ابن رشد الاهواني ص ٧ ٤ وحيدراباد ص ٤١ .

(٢) أيضا ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ص ٥٦ ، حيدر آباد ص ٥١

(٣) المخطوطة : لا تحرّك .

(٤) راجع ارسطو : De An. III. I. 424 b 22 ؛ وابن رشد : تلخيص ، الاهواني ص ٥٨ ، حيدرآباد ص ٥٣ .

(٥) وفي المخطوطة زيادة : « تخريجة كانت في الأصل المنقول منه هذه النسخة ، إن هذا القول زيادة ، مثاله اتذكر ها هنا القول الذي التف من الهيولى لأن البصر من ماء والسمع من هواء وكيف يلزم عنه ان لا تكون حاسة سادسة ? ، هذا معنى . »

الحيوان[(١)] كيف يشبه ما يوجد للحيوان الناقص ما لا يوجد من نوعه للحيوان الكامل وهو الإنسان كالجحفلة للحمار والخرطوم للفيل ، وسائر الأعضاء التي يختص بها حيوان حيوان ، وإن كان ذلك موجوداً[(٢)] للإنسان بوجه أكمل ، فإن الجحفلة والخرطوم هي يد ناقصة . واذا كانت الأعضاء إنما تحد بغاياتها وبقوّمها استعدادها لحصول تلك الغايات ، وكان ذلك موجوداً للإنسان أو ما يكون أفضل منها ، فيجب أن توجد للإنسان هذه الحاسة ضرورةً لئلاّ[(٣)] يكون هنا ما هو أفضل . وذلك بيّن مما تلخص من كتاب الحيوان .

* * *

(١) راجع ابن باجة : ورقة ١١٠ ب : « والاكمل هو الذي يوجد له جميع الاعضاء الافضل ، فان العظام لما اعدت افضل من الشوك وكذلك جميع القوى ، والانسان افضل الحيوان لأنه يوجد له جميع أجزاء النفس ولما كانت اجزاء الجسد انما هي آلات نفسانية كالعروق والعضل ، ومنها ما يتم به قوام جميع جسده كالعظام فضرورة يجب حيث كانت اجزاء النفس اكثر ان يكون هناك عدد انواع الاعضاء اكثر ، وحيث كملت اجزاء النفس فهناك يكمل عدد انواع الاجزاء بالجملة ما كان منها عضواً وما كان منها شيا حيوانياً . والانسان ففيه قوى النفس المشتركة ، وفيه قوى يختص بها هو وحده ، فلو كانت نفساً كما يجب ضرورة ان يستعمل آلة فكان يجب ضرورة أن يكون في الانسان نوع من الاعضاء لا يوجد في حيوان اصلاً » .

وانظر ارسطو : Hist. An. I. 2. 488 b 30; 486 b 18 ؛ وابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ص ٥٨ ، حيدر اباد ص ٥٣ .

(٢) المخطوطة : موجود .

(٣) المخطوطة : الا .

الفصل التاسع

في الحسّ المشترك (١)

فأما أن هذه الحواس كلها قوى لحاسّ واحد (٢) هو الأوّل وهو الذي يسمى الحسّ المشترك . فبين ما نقوله : أما وجود هذه القوة فقد تلخص فيما كتبناه في الحسّ مجملاً ، وهو الهيولى الذي تصير به المعاني محسوسة (٣) . (ورقة ١٦١ الف) ولذلك متى التبست باحدى الحواس تحركت مثل حركة هيولى تلك الحاسةُ ، فهي بالموضوع واحدة (٤) وبالقول كثيرة (٥) ، كما يعرض ذلك لمركز الدايرة (٦) فإنه بالموضوع واحد وبالقول كثير .

ولما كانت ها هنا محسوسات مشتركة فهنا ضرورة قوة مشتركة (٧) تقبل تلك (٨). ففي اللمس والبصر ضرورة قوة واحدة مشتركة تقبل ذلك المعنى .

وهذه الحاسة التي كان البحث عنها أيّ شيء هي ؟ وأيضاً فإن هنا محسوسات مشتركة للحواس الخمس . فبين أن هناك قوة مشتركة لها . وتلك القوة تقضي

---

(١) عنوان مستقل في نسخة برلن .

(٢) راجع ارسطو : De An. III. 2. 425 b 11—22 ابن رشد تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ، ص ٥٤ ، حيدر اباد ، ص ٤٨ ، ابن سينا أيضاً يصف الحس المشترك فيقول : (الشفا . ورقة ١٨٢ الف) بل الحس المشترك هو القوة التي تتأدّى اليها المحسوسات كلها .

(٣) المخطوطة : المحسوسة .

(٤) المخطوطة : واحد .

(٥) راجع ايضاً ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ، ص ٥٥ ، حيدرابادص ٤٩ .

(٦) يقول ابن رشد : هذا المثال كثيراً ما يستعمله الفلاسفة ، خصوصاً ارسطو وشراحه : المصدر السابق .

(٧) ايضا ، الاهواني ، ص ٥٤ .

(٨) المخطوطة ، ههنا زيادة : هي اللمس والبصر ضرورة قوة واحدة مشتركة تقبل تلك.

على تغابير أحوال المحسوس[١] وتحسّ له أحوالاً[٢] كثيرة . فتدرك الكل جزء من التفاحة[٣] مثلاً أن له طعماً ورايحة ولوناً وحرارة أو برودة، وتقضي أن كل واحد من هذه غير الآخر . فإنه لو كان في قوابل مضادة لها لما كان ممكناً أن تقضي أن هذا غير ذاك[٤] . فإنه يجب عندما تؤملت المغايرة، كيف وجودها .

وفي هذه القوة تبقى الآثار المحسوسات[٥] عند انصراف المحسوس، كما يعرض ذلك في الألوان، فإن شان هذه القوة الاستمساك بالاحساسات وهي آثار المحسوسات فيها[٦]، فإذا اتفق أن يوثر المحسوس أدرك هذا إدراك الأثر . فالقوى الست التي هي الغاية والخمس التي هي الحواسّ، بين من أمرها أنها أنفس، إذ هي استكمالات للأجسام، والسابعة هي القوة المحركة وسنبين أمرها فيما بعد .

فأما أن وجدت قوة لا تستعمل آلة فتلك ليست نفساً إلاّ باشتراك . فالحس المشترك لما كان ضرورة صورة للحار الغريزي وجب ضرورة أن يكون نفساً . وليس بهذا النحو من النسبة قيل له نفس بل بكونه استكمالاً لا لجملة الجسد المؤلّف لكن وجوده في الجسد إنما هو بوجوده في هيولاه الخاصة به وبه يصير

(١) قارن ارسطو : De An. III. 2. 426 b 10 ؛ ابن رشد : تلخيص كتاب النفس، الاهواني، ص ٥٤ .
(٢) المخطوطة : أحوال .
(٣) ابن رشد : المصدر نفسه . ويُظن أن أولّ من ذكر المثال المذكور الاسكندر الافروديسي .
(٤) وابن سينا ايضاً ذكر هذا الدليل فقال : (الشفا ، ورقة ١٨٢ ، س ٣) « فانه لو لم تكن قوة واحدة تدرك الملوّن والملموس لمّا كان لنا ان نميز بينهما قائلين انه ليس هذا ذاك » .
(٥) المخطوطة : المحسوسات القوة .
(٦) ابن رشد : تلخيص كتاب النفس، الاهواني، ص ٦٣ ، حيدر اباد ص ٥٨ .

بالجملة(١) جزءاً من الجسد ، وبوجوده في ذلك أمكن اتصاله بالحواس وتحرّكها عن تحريكها ما ليس بذي جسم . وليس يتصل بما هو خارجٌ عنه .

وإنما يصير الحسّ المشترك صورة للجسم ذي الآلات بالتباسه للآلات . كالتباسه بالعين مثلاً . ولذلك لا يسمع النائم ولا يبصر . وذلك بيّن في الحيوان الذي لا يطبق عينيه عند النوم لأن تلك الصورة ليست في الجسم . لأن تلك الصورة لا تفارق هيولاها ، فاذا لم يوجد ذلك الجسم الذي له تلك الصورة في الحاسة لا تُحس . ووجود ذلك في الحاسة هو كالصورة لها على مثال ما يكون الربّان(٢) ضرورة (ورقة ١٦١ ب) في السفينة . وقد تلخص أمر هذه الصورة في غير هذا الموضع .

وأما اذا انفرد(٣) الحس المشترك فإنما هو نفس بوجه أنه صورة لجسم ما . ولذلك لا يوجد النوم في جميع الحيوان لأن الحار الغريزيّ لها موجود إنما في الحاسة لأن التقدم(٤) والتأخر(٥) فيها واحد أو كالواحد ، وقد تلخص أمر هذا في كتاب الحيوان .

---

(١) المخطوطة : الجملة .

(٢) وانظر ابن باجّة نفسه ، ورقة ٦٠ الف ، « فان النفس في البدن كالربان في السفينة فان الربان في السفينة صورة الا انهـا مفارقة » ، وراجع ارسطو : De An. I. 3. 406 a 6; II. 1, 413 a 9 .

(٣) قارن ابن باجة : النص نفسه : ورقة ١٥٥ الف : فان القوة اذا انفردت عن الحاسة كانت هي الحس المشترك . وقد قال ابن باجة في كتاب الحيوان : ورقة ٩٥ ب : فالحس ينفرد عن الحركة بالقول كما ينفرد الهيولى من الصورة بالقول الذي يلخص به ما هي بالأسباب المقومة لها وهي فيها .

(٤) المخطوطة : المتقدم .

(٥) المخطوطة : المتأخر .

فإن وجد حيوان (١) له قوة أخرى ليست صورة لجسم أصلاً . فتلك ليست نفساً إلا بنحو من اشتراك الاسم . مثل أن تكون قوة لحضوره (٢) للحس المشترك ويكون الحس المشترك كالهيولى فيها فتكون تلك (٣) صورة لهيولى الحس المشترك لكن ليست أولى . فلذلك تكون هذه القوة قوة واسطة بين النفس وبين القوى التي ليست بأنفس يأخذ كل واحد منها بقسط ، وسنبين ذلك فيما بعد . وهذه القوة هي قوة التخيل .

(يتبع) محمد صغير حسن المعصومي

---

(١) المخطوطة : الحيوان .

(٢) يعني ان الجسم عندما وجد في الحس المشترك يحتاج الى قوة مادتها الحس المشترك وصارت القوة صورة للحس المشترك . راجع ابن سينا ، (الشفا) ورقة ١٨٠ الف ١٨ : « فان الحس المشترك قابل للصورة لا حافظ ، والقوة الخيالية حافظة لما قبلت تلك ، والسبب في ذلك ان الروح التي فيها الحس المشترك انما تثبت فيها الصورة المأخوذة من خارج منطبعة مادامت النسبة المذكور بينها وبين المبصر محفوظة أو قريبة العهد . فاذا غاب المبصر انمحت الصورة عنها ، ولم تثبت زمانا يعتد به » .

(٣) المخطوطة : ذلك .

التعريف والنقد

قضايا الفكر في الأدب المعاصر

الأستاذ وديع فلسطين

« أصدره المكتب الفني للنشر في القاهرة ،
فجاء في ١٣٢ صفحة »

في الأدب العربي الحديث قضايا مهمة كثيراً ما خاض فيها الأدباء والمتأدبون في الجرائد والمجلات ، وكثيراً ما اختلفت فيها آراؤهم ، وتشعبت مذاهبهم . وقد تناول الأستاذ وديع فلسطين هذه القضايا في كتابه ، فحصها تمحيصاً دقيقاً ؛ ووازن بين السمين والغث من آراء الكتاب فيها ، وذكر لكل قضية رأياً شخصياً هو في نظرنا من أرجح الآراء علمياً ومنطقيا .

ومن القضايا المذكورة قضية الفصحى والعامية ، والشعر الصحيح وما يسمى الشعر الحر ، والمصطلحات العلمية ، وتيسير القواعد والكتابة العربية ، وتقليدنا الغربيين في مدارسهم « مذاهبهم » الأدبية الحديثة ، سواء في ذلك ما كان منها معقولاً « كالمدرسة السلفية والرومنسية والواقعية والطبيعية » ، أو كان غير معقول ولا مفهوم « كمدرسة الرمزية وما فوق الواقعية » .

وقد بحث المؤلف في هذه القضايا ، وفي موضوع الالتزام في الأدب أي ما يسميه بعضهم الأدب الهادف ، ثم بحث في الأسلوب العلمي وأسلوب الإثارة في الأدب ؛ وقايس بين الكتّاب في القديم والكتّاب في أيامنا هذه ؛ وانتقل الى ذكر النقد وانحراف رسالته ، والى المسرحية وضيق مجالها عندنا ، والى الترجمة وشروطها ، والى أزمة الكتاب العربي ، والى محنة الأدب في هذا الزمن . وأنهى كتابه بكلام طلي على الفكر بين الأرستقراطية والغوغائية .

وبعد إن قيمة الكتب لا تقاس بعدد صفحاتها ، بل تقاس بما فيها من فائدة للقارئين . وهذا الكتاب ، على صغره ، قد عالج المواضيع المذكورة بأسلوب علمي متزن ، فأحاط بأطرافها ، وجلاها على المطالعين في أفكار نيرة ، ولغة صحيحة ، وبيان مشرق ، وغيرة على لغة الضاد وعلى الأدب العربي .

مصطفى الشهابي

« وجوب التعاون بين المسلمين ، وموضوع الجهاد الديني
وبيان كليات من براهين الدين »
تأليف الأستاذ الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي

هذا الأستاذ أشهر من أن يعرّف ، فهو علاّمة القصيم من نجد لهذا العهد ، وهو صاحب التآليف الجامعة النافعة ، وأوقاته كلها معمورة بالاشتغال بالعلم تعليماً وتدريساً وتأليفا ، ورسالته هذه (وجوب التعاون) يدعو فيها هذه الأمة المسلمة في عامة أقطارها وأمصارها الى التضامن والتعاون على ما فيه مصلحتها ، والى دفع عوادي الشر عنها ، فكل عمل تقوم به للمصالح العامة وسعادة المجتمع ابتغاء لمرضاة الله فهو (في سبيل الله) في نظر الإسلام ، وما قيد الشارع « الجهاد » بهذا الشرط (في سبيل الله) ، إلا للدلالة على هذا المعنى . وقد أنشأ فصولاً كثيرة فيه ، بيّن فيها أقسام (الجهاد) وأنواعه كجمع الكلمة ، ووجوب المشاورة ، والاستعداد للأعداء ، وأخذ الحذر منهم ، وإعداد وسائل الجهاد ، والوقوف التام على أحوال الأمم والشعوب ، والقيام بالقسط والوفاء بالعهود ، وربط الصداقات وعقد المعاهدات بين الحكومات الإسلامية ، وتخير الأكفاء من الرجال في الولايات والأعمال . ثم شذرة من سيرة النبي (ﷺ) وصدقه وصحة دينه ، وما أخبر به من الغيوب المنوّعة ، ومن هذه الفصول : التحدّي بالقرآن ،

وما علّمه الله للإنسان من أصناف المخترعات ، الكهرباء وأعمالها ونتائجها ودلالتها على البعث ، سنة الله في خليقته جارية على مقتضى حكمته ، هداية البشر بالإسلام ، جمعه بين الأمم المتباينة ، حظّ العقلاء منه على قدر عقولهم ، تفسير آيات من القرآن ، أمره بالإيمان بجميع الرسل وما جاءوا به من عند الله ، تفسير شواهد منه ، الشريعة جاءت بالعدل ، وحثت على الإحسان والفضل ، سيرة الرسول من آياته ، وأمته من آياته ، (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته) .

وهذه الفصول مملوءة بالأدلة القرآنية ، ومنها يتبين أن الإسلام خير من هذه السياسات العنصرية والمحلية والحزبية ، وكلها ضغائن وأحقاد ، وشرور وفساد ، كما تقرؤه عنها في الصحف المنشّرة ، وهذا الكتاب من خير ما يهتدي به من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

١ - توضيح الكافية الشافية

٢ - الحق الواضح المبين ، في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين ، من الكافية الشافية .

كلاهما للعلاّمة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي (المطبعة السلفية)

(الكافية الشافية ، في الانتصار للفرقة الناجية) للإمام الرباني شمس الدين ابن قيم الجوزية المحقق الشهير ، وقصيدته هذه قد بلغت مئات الأبيات من السهل الممتنع ، وموضوعها التوحيد وأصول الدين ، والرد على الجهمية والمعطّلة والملحدين ، واثبات ما أثبته تعالى لنفسه من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، والرد على الجبرية من الجهمية ، والقدرية من المعتزلة ، واثبات الكسب للعبد والاختيار ، وفوقها جريان الأقدار ، وكانت طبعت هذه القصيدة منذ سنين ، ولكن بلا شرح

ولا تعليق ، فقام العالم السلفي الشيخ عبد الرحمن آل سعدي بشرحها شرحاً مطوّلاً ، سماه (توضيح الكافية الشافية) ولكنه لم يورد القصيدة ولا استشهد بشيء منها ، فهو شرح مستقل عن الأصل ، وإن كان مبنياً عليه ، وعناوين فصوله تدلّ على المراد منها ، وهذا الشرح يبلغ (١٢٤) صفحة ، وفي آخره فهرس مفصَّل .

في ص ٤٤ س ٦ : و « رحمتي وسعت كل شيء » صوابها : « ورحمتي » .
في ص ٤٦ س ٨ : « هذا مِن » صوابها : « هذا ومن » .

* * *

وأما الكتاب الثاني ، وهو (الحق الواضح المبين) فقد لخّص فيه شرحه الأول ، وطبعه بعده فبلغ نصف حجمه ، مع أنه أورد فيه مائتين وخمسين بيتاً من القصيدة ، وشرحها شرحاً وجيزاً بيناً ظاهراً ، وبدأه بقول ابن القيم :

فاسمع إذاً توحيد رسل الله ثمّ اجعله داخل كفة الميزان
مع هذه الأنواع وانظر أيها أولى لدى الميزان بالرجحان

قال الشارح : « وذلك أنّ الشيء يعرف بضدّه ، والحق يتضح ويظهر نوره بمعرفته ، ومعرفة ما يضادّه من الباطل ، فإنك إذا وزنت - بميزان العقل الحقيقي ، والفطر السليمة التي لم تتغيَّر ، والبراهين الدالة على الحقائق - توحيدَ الأنبياء والمرسلين وتوحيد المعطّلين ، وجدت بينهما من الفروق ما لا يخفى على مَن له أدنى مسكة من عقل » .

أقول : لا يخفى أن هذه الكتب السلفية تبحث في توحيد الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله ، على الوجه الذي أثبته الله لنفسه في كتابه ، أو ورد عن المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى في بيانه ، واذا نظرنا الى كتب التوحيد الدراسية التي تداولتها أيدي الخواصّ والعوام ، في معظم الأمصار الإسلامية ،

وصارت عمدة الدارسين والمدرسين في المدارس الرسمية الحكومية والأهلية نجدها نوعين : (أحدهما) كتب العقائد التي وضعت على طريقة الخلف ، وأولت فيها نصوص الكتاب والسنة تأويلاً صرفها عن مدلولاتها اللغوية والشرعية ، ونفى معانيهـا الوجودية الثابتة بتأويلات جاءت على خلاف الوضع والشرع . (الثاني) كتب الدفاع عن الإسلام وتوحيده ، واثبات أنه دين العقل والفطرة ، وحاجة البشر في كل زمان ومكان ، فهذه الكتب التي تضمنت فلسفة التوحيد وحكمة التشريع هي سلاح علمي يحمله المسلمون في صدورهم لحراسة عقائدهم والدعوة اليها والنضال عنها ، لا لتلقى علم التوحيد وعقائده منها ، فهي على نفاستها وضرورة مدارستها ، ليست كتباً موضوعة في فن التوحيد ، ولا هي قواعد لعقائده المستمدة من نصوصه المبنية هي عليها ، بل هي فلسفة تحوم حول علم التوحيد ، وايضاح لمحاسن الدين ومزاياه .

وهنالك نوع ثالث وهي الكتب التوحيدية السلفية ، التي أثبتت معاني النصوص وحقائقها الشرعية من طريق المعقول ، وردت كلام المؤولة رداً لم يبق حاجة في النفوس ، وهي الطريقة التي جرى عليها شيخا الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية في كتبهما ، ومن حذا حذوهما من أئمة الإسلام وحماته ، ولكن كتب هؤلاء الأعلام الواسعة ، إمَّا كتب مناظرة وحجاج ، وتأييد لمدلولات النصوص وردّ لشبهات الخصوم ، وإما كتب علمية غير تعليمية .

فنرى أن تنشر فصول في التوحيد السلفي ، ملخصة مما كتبه الأئمة الثقات فيه ، وتكون تمهيداً لوضع سلسلة توحيدية تعليمية ، مفرغة حلقاتها بأسلوب مدرسي عصري ، يشرب القلوب حبّ السلف الصالح وآثارهم ، ويطبع النفوس بطابع عقائدهم وأخلاقهم ، ويغذي عقول النشء الإسلامي بلبان التوحيد الخالص المطهر من كل ما يخالطه من أدران الشوائب ، فتصح العقائد وتزكو الأخلاق ، وتتوحد المبادئ والغايات ، والله هو الموفق والمعين .

كتاب البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار

تأليف : الإمام المجتهد المهدي لدين الله أحمد بن يحيى بن المرتضى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ
ويليه : كتاب جواهر الأخبار والآثار المستخرجة من لجة البحر الزخار
للعلامة محمد بن يحيى بهران الصعدي المتوفى سنة ٩٥٧
ولتمام الفائدة ألحقت به تعليقات من مراجع مختلفة ، لمصححه :
القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليماني الصنعاني

تقوم إلى جانب هذه النهضات المباركة في البلدان العربية نهضة دينية اجتماعية تتفجر ينابيعها من سلسبيل الإسلام الصافي ، وتسقى أصولها من معينه الذي لا ينضب ماؤه ، ولا تبلى جدته ، وإن إمام اليمن الراحل يحيى حميد الدين الملقب بأمير المؤمنين تغمده المولى برضوانه ، قد ساهم بقسط كبير في هذه النهضة ، فقد جاء في المقدمة ذكر طائفة من الكتب العربية والدينية النافعة النادرة ، التي أمر بطبعها ، وبعث بأصولها من مكتبته العامرة ، ومنها هذا (البحر الزخّار) .

يقع هذا الكتاب الضخم الذي طبع بمصر - بإشراف الأستاذين عبد الله محمد الصديق ، وعبد الحفيظ أسعد عطية - في خمسة أجزاء ، وهي تبلغ نحو مائة وألفي صفحة بالقطع الكامل ، عدا مقدمته والفهارس ، وهذا المصنف الكبير « الجامع لمذاهب علماء الأمصار » يذكر المسألة وينبه على ما فيها من إجماع أو اختلاف ، ثم يحكي أقوال العلماء من الصحابة والتابعين ، وأئمة أهل البيت وسائر الفقهاء ، ويذكر دليل كل قول وتعليله ، مع الإشارة إلى ترجيح الراجح وتضعيف غيره . وفي أول « البحر » ترجمة لمؤلفه ، وتليها ترجمة لمخرّج أحاديثه ، وقد جرى صاحب البحر على الإشارة لمن يتردد ذكرهم من الفقهاء بحرف أو حرفين ،

وهم طبقات أربع ، الصحابة والتابعون وأهل البيت وسائر الفقهاء ، وهم الأئمة الأربعة ، وإسحاق بن راهويه ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، والليث بن سعد ، والزهري ، وربيعة ، والحسن بن صالح الكوفي ، وأبو ثور ، وداود ، والمزني ، وأبو يوسف ، ومحمد بن الحسن ، وزفر ، والكرخي من فقهاء الحنفية ، وقد ترجم في المقدمة لكل واحد من أهل الطبقات الثلاث الذين ورد ذكرهم ، ولم يترجم لطبقة الصحابة لشهرتهم .

والعلامة بَهران الصعدي مخرّج أحاديث الكتاب . ومورد أدلة أحكامه على كثرتها واختلافهـا ، قد بذل في هذه السبيل جهداً عظيماً ، وإنما يقدره قدره من غاص في بحر السنة نظراً واستدلالاً ، وأمعن في كتبها بحثاً واستقراءاً ، فعاد كليل البصر ، قليل الظفر بمطلوبه ، وهذا الكتاب هو عمـدة المتأخرين من أهل اليمن فيما يحكونه من المذاهب ـ خصوصاً مذهب أهل البيت ـ كالسيد محمـد بن اسماعيل الأمير صاحب سبل السلام ، والشوكاني صاحب نيل الأوطار ، وغيرهما .

وجملة القول : ان هذا البحر الزخار دائرة معارف فقهية إسلامية ، كالمغني للموفق القدمي ، مع الشرح الكبير ، وكالمحلى لابن حزم وغيرهما من الأمهات التي لم تقيد بمذهب واحد ، ومن هذه المراجع الكبرى تتبين سمة الفقه الإسلامي ، وأن اختلاف علمائنا رحمة ، والأخذ من متنوع مذاهبهم نعمة ، وإنما يختار منها في كل عصر ما كان أقوى دليلا ، وأكثر مناسبة لحاجة العصر ، وطبيعة الأمة . وإنك لتجد في الأحاديث الواردة في إقطاع الأراضي ، واستثارة دفائنها ، واستخراج ركازها ومعادنها ، ما يدل دلالة واضحة على أن ما يقوم به علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا Geologie) وعلماء الآثار والعاديات من الحفر والتنقيب عن المعادن في بطن الأرض والجبال والتلال ، هو داخل في عموم

ما أرشد الإسلام إليه ، وحث أهله عليه ، ومثله ما ورد في إحياء موات الأرض (من أحيا أرضاً ميتة فهي له) رواه أحمد والترمذي وصححه ، فإنشاء المزارع والمصانع ، وبناء المستشفيات والمدارس ، وتشييد القلاع والحصون ، هو من باب : إحياء الأرض ، وأما ما يستخرج من البحار كالجواهر واليواقيت واللؤلؤ والمرجان ، فتراه وترى معه ما تقدم من الأحاديث وأقوال العلماء ، في الفصول التي عقدها (البحر الزخار) في المعادن ، والركاز ، والكنوز ، وغنائم البحر (٢/٢٠٨ — ٢١٨) وفي كتاب السبق والرمي (ج ٥/ ١٠١) الترغيب في السبق بالخف أو الحافر (الإبل والخيل) والرمي بالنصل (السهام) أما فقهاء عصرنا فيجب أن يستمدوا من قوى هذا الزمن وحقائقه وعلومه ومعارفه ، وأن يدعوا إلى السبق مثلاً بصنع السيارات والمصفحات والمدرعات والغواصات والمناطيد والطيارات ، وإلى الرمي بالقنابل والقذائف ، وسائر ما أعد من وسائل الكفاح عملاً بالآية الكريمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» وبآية «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه» واستنباطاً من هذه الأحاديث الشريفة ، واهتداء بهدي السلف الصالح ، ومجاراة للأمم الحديثة .

وقد أحسن الأمير الجليل سيف الإسلام عبد الله كل الإحسان ، فأهدى الكتاب الى والده الإمام الذي كان الباعث على طبعه ، الحريص على نشره ، جزاه الله خير الجزاء .

ومن سهو القلم أو غلط الطبع جاء لفظ : حليسها وعورها ، مكان جَلْسِيِّها وغَوْرِيِّها (بتقديم السين في الأولى على الياء وبالغين المعجمة في الثانية لا بالعين المهملة) .

وعزاه (في ٢/٢٠٩) من «البحر» إلى سنن أبي داود ، قلت : والحديث برواياته في (ج ٣/ ١٣٨ و ١٣٩) من عون المعبود شرح سنن أبي داود طبع

الهند ، وفي (ج ٣ / ٤١) من معالم السنن للخطّابي طبع حلب ، ففيها أن الرسول (ﷺ) أقطع بلال بن الحارث معادن القَبَلية جلسيها وغوريهـا ، وفي رواية « جَلسَها وغَورها » وهو ما ارتفع من الأرض وما انخفض منها ، يريد أنه أقطعه وهادَها ورُباها ، والقبلية ناحية من ساحل البحر ، بينها وبين المدينة خمسة أيام .

هذا والمجمع العلمي يهدي إلى من تفضل بالإهداء ، أعطر الشكر والثناء .

فتح الغفّار ، المشتمل على أحكام سنة نبينا المختار

للقاضي العلاّمة شرف الدين الحسن بن أحمد الرُباعي اليمني المتوفّى سنة (١٢٧٦)

أمر بطبعه الإمام احمد بن يحيى حميد الدين ملك المملكة المتوكلية اليمنية

أشرف على تصحيحه عند الطبع القاضي عبد الله بن عبد الكريم الجرافي اليمني ، مندوب وزارة المعارف اليمنية

إن كتب السنة الصحيحة ليست إلاّ مفسِّرة للقرآن الكريم ، مبينَة له ، فهي تفصِّل مجمله ، وتوضح مشكله ، وهل يستطيع مسلم أن يفهم أركان الإسلام البدنية أو المالية كالصلاة والزكاة والصيام والحج على الوجه الصحيح من دون أن يدرس سنة الرسول (ﷺ) في العبادة وسيرته العملية ؟ وهذا هو موضوع هذا الجزء الأول من كتاب (فتح الغفّار) الذي بلغ ستمائة وستين صفحة بفهرسه المفصَّل ، وهو من أجمع الكتب وأنفعها في أبواب العبادات ؛ وقد استمدّ المؤلف هذه الأحاديث في الأحكام من كتاب (منتقى الأخبار) للإمام مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن تيمية الحرّاني المتوفى (سنة ٦٥٢) وهو جدّ شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (م ٧٢٨ هـ) وجعل كتاب (المنتقى) أصلاً لكتابه (الفتح) . ولكنه زاد عليه الشيء الكثير من أخبار الأحكام ،

وضمَّ إليه الجمّ الغفير من جامع الأصول ، وبلوغ المرام ، ومجمع الزوائد ، والترغيب والترهيب ، ومن الجامع الصغير ، وجامع المسانيد ، والمستدرك للحاكم ، وتلخيص الحافظ ابن حجر ، وفتح الباري وغيرها . وقد طبعت هذه الأصول الجوامع في الأمصار الإسلامية ، وهي مشهورة متداولة ، يقرؤها محبو السنة ويتدارسونها رواية ودراية .

ومن مزايا هذا الكتاب الجامع أنه نسب كل حديث إلى أصله المنقول عنه ، وأتبعه بما عليه من الكلام من تصحيح وتحسين ، أو تضعيف وتوهين ، وعزا كلَّ قول الى قائله ؛ وفسَّر ما تضمنته الأحاديث من غريب اللغة ، وضبط بعض أسماء الرجال ، أخذاً من شروح الحديث ، وغريب جامع الأصول ، ومختصر نهاية ابن الأثير ، وصحاح الجوهري ، والقاموس ، ومجمع البحار وغيرها . والمؤلف من أجلَّة تلاميذ الإمام محمد بن علي الشوكاني مجدد السنَّة في القرن الثاني عشر .

ولا يستكثر هذا الجزء الضخم على العبادات فقد أورد ما ورد فيها من الأحاديث وذكر مخرّجيها من الكتب الستة وغيرها ، وهذه العبادات عدا ما ورد فيها من الترغيب والترهيب ، فيها مصالح قومية ومنافع اجتماعية ، (فالصلاة) الروحية البدنية التي هي فرض عامّ على كلّ مكلف تنهى عن الفحشاء والمنكر (ما يفعل سرًّا وعلانية) وأشد الفواحش والمنكرات فتكاً وهتكاً هي تلك الجيوش المعنوية التي غزت بلاد الشرق وهنّ المسكر والميسر والخنا والربا والانتحار ، فكثير من المستهترين وقع في هذا التيار الذي أسلمه الى الجنون أو المنون ، فكان ذلك من أشد المصائب القومية . (والصيام) الذي يدعو الى إمساك المعدة عن الطعام ، وسائر الأعضاء عن الآثام ، وصرف جميع القوى والمواهب فيما خلقت له ، يعلم الثبات على خُلُق قويم لا محيد عنه . (والزكاة) إعطاء

نصيب من المال للفقراء والمساكين وباقي الأصناف الثمانية ، دون الكسالى والمتسولين ؛ فاذا حرمنا الفقراء الأقوياء ، واضطررناهم الى العمل ، كثرت الأيدي العاملة في الصناعة والزراعة والتجارة وهي مواد الثروة الأصلية ، وحفظت الزكوات والمعونات لمستحقيها ، تنفق على إطعامهم وإيوائهم وتعليم بناتهم وأبنائهم . و (الحج) أكبر مؤتمر إسلامي حرّ يبحث في شؤون المسلمين ومصالحهم ، ويوازن بين ماضيهم وحاضرهم ، ويدافع عن حقوقهم وحرّياتهم ، ويؤلف بين شعوبهم وقبائلهم ، فيصبحون بنعمة الله إخوانا .

ومن أفضل خصائص هذا الكتاب أن المؤلف لما رأى ماوقع من الخلاف بين الأئمة ، وأخذ كل طائفة بجانب من السنة ، جمع أحاديث الأحكام القاطعة للخلاف ، والداعية الى الائتلاف ، فأحسن بذلك كل الإحسان . فندعو الأمة الى العمل بما اتفق عليه الأئمة ، والى ترك الخلاف جانباً ، فان الوقت والعمر يضيقان عن استيعابه .

وقد وقع في هذا الجزء هنات مطبعية لم ننقصها لندرتها ، فمنها في (ص ٥ س ٢) وتهوين ، صوابها : وتوهين . ومنها (ص ٤٢ س ١٨) الجند ، صوابها : الجنة .

جزى الله المؤلف ، والآمر بالطبع ، والمشرف على التصحيح خير الجزاء ، وإنا لبقية أجزاء الكتاب لمنتظرون .

محمد بهجة البيطار

نظرة في أعماق الإنسان

(الجزء الأول)

الدكتور محمد صبحي أبو غنيمة

قلّ من العلماء الأدباء في بلادنا العربية من يقدم على التأليف والنشر في الموضوعات العلمية لكساد سوق هذه البضاعة بين القراء ورغبة سواد الناس في مطالعة ما عداها من كتب والاكتفاء في الغالب بقراءة المجلات والصحف التي تعنى بما يروي غليل جمهرة القراء ويسرّي عن أنفسهم ، أما الخوض في البحوث العلمية المحضة فليس لها غير المضطر إما في إبان سني الدراسة وإما في ما يليها من متابعة في بعض الأحيان .

وموضوع تعريفي في هذا الباب يتناول كتاباً ولا كالكتب التي جرت العادة على التعريف بها ، إذ ليس لمن يقع بين يديه من عامة الناس (ولا أستثني إلا بعض خاصتهم) إلا الاكتفاء بتقليب صفحاته والتحديق في عناوين بحوثه الجذابة متجاوزاً عن الاسترسال في قراءة ما يحويه من آراء تسمو على مستوى فهمه وإدراكه ، بالرغم عن البساطة البالغة التي صيغت بها لغة الكتاب وما بذله المؤلف من جهد لتذليل العقبات في سبيل حبك موضوعاته ليستسيغها غير الأطباء ، وجعلها في متناول الكثيرين ، إلا بعض الشذرات الأدبية والشعرية التي تخللتها فكانت بمثابة الأفاويه والمشهيات التي تضاف الى الطعام لا من أجل تحسين طعمه فحسب بل لكي تزيد من الشهوة اليه أيضاً . وذلك لأن ما حواه الكتاب قد صهر في بودقة واحدة الطب وعلوم الأحياء والفلسفة صهراً كان نتاجه ما يستغلق فهمه إلا على الراسخين في تلك العلوم .

وطبيعي أن لا يخوض غمار هذا النوع الخاص من التأليف إلا ذو بسطة في

علوم الطب والأحياء والفلسفة والأدب ، وهذا لعمر الحق ما تحلى به زميلنا الفاضل الدكتور محمد صبحي أبو غنيمة مؤلف (نظرة في أعماق الإنسان) . وإني لأكبر عمله هذا أعظم الإكبار لتجشمه الكثير من الصعاب في سبيل تأليف هذا الكتاب الذي يُعد حقاً نسيج وحده ، وقد خلت من أمثاله المكتبات العربية ونضب معين مصادر ما كان على شاكلته من المؤلفات ، بين أبناء لغة الضاد . وعلى ذلك رأينا المؤلف الفاضل مضطراً في جمع شتات مباحثه الى أن يولي وجهه شطر المؤلفات الأجنبية وقد أربى عددها على المائة والعشرين معظمها من الألمانية وبعضها من الانكليزية والفرنسية في جانب النزر اليسير من المراجع العربية ، فضلاً عما وعته ذاكرته من آراء ومساجلات لأساتيذه في جامعة برلين إبان دراسته الطب فيها . والى جانب هذا الجهد الأدبي الذي لا يقوَّم ، فقد بذل الزميل جهداً آخر مادياً ليس بالقليل لإلباس مؤلفه ما يستحقه من حلة قشيبة بدا فيها بجودة طبعه وكثرة الأشكال والرواسم التي زين بها ناهيك بحسن تبويب بحوثه وتنسيقها وعنايته البادية في اللغة العربية وانتقاء الألفاظ والمصطلحات فيها .

وعندما طلب إلي أن أعرف بهذا الكتاب خلتني في بادئ الأمر أستطيع أن أفيه حقه من التعريف بأهون سبيل ، بأن أكتفي بتصفحه وسرد ما فيه من عناوين ، وما إن حاولت ذلك حتى رأيتني ملزماً بقراءة الكتاب لا قراءة مُعرِّف وناقد بل قراءة مستطلع ومستعلم ومستزيد من ألفه إلى يائه حينما أجد الى ذلك سبيلا ، مما أدى الى التأخر في التعريف في الوقت المضروب فحقت المعذرة وأفدت من مطالعة الكتاب فتمت الفائدة .

يقدم المؤلف كتابه بقوله (يحاول أن يستعرض أمامك قصة الإنسان ، وقصة الإنسان كانت ولم تزل وستظل أعجب وأغرب قصة في هذا الوجود)

ويفتتح بحوث الكتاب بسرد مشاكل الطب في العصر الحاضر ، وإخفاق العلاج في كثير من الأدواء سارداً أقوال أساطين الطب المعاصرين في ما لا يزال إدراك حقيقته من العلل مستغلقاً ، باحثاً بحثاً مستفيضاً في خوارق الطب وأعاجيبه التي يصعب تعليلها تعليلاً علمياً مقنعاً مولياً وجهه شطر أثر العوامل النفسية في الإمراض والشفاء ثم البحث في أسباب الأمراض من داخلية وخارجية ، واضطراب تطور مواد الغذاء الرئيسية (الآحينات وماءات الكربون والأدهان وأشباهها والمعدنيات) ويلي ذلك البحث في النفس وما قيل عنها في القديم وما يقال في العصر الحالي مع البحث المدقق في آلية ظهور الأمراض والعلل ، والتعمق في جهاز الإثارة أو جهاز الطاقة الحياتية وقبول الإثارة وتطوراتها وأهدافها ثم الهبنوزة (النوم المجلوب) منتهياً الى ذكر النكتة وعملها الطبي . ويختتم المؤلف هذا الجزء الأول من هذه التحفة الفريدة بكلمة يقول فيها : بهذه النظرة أردت أن أؤدي قسطاً من واجبي العلمي والإنساني فأنقل إلى قراء العربية أقوال العلماء المجددين في الطب عما يرونه في أعماق الإنسان من غرائب و « الفكر » التي تخطر لهم فيها كما سجلت ما أوحته هذه الفكر من مفاهيم تصح في رأيي أن تتخذ كقواعد علمية فتعرف بها أسرار تلك الغرائب في أعماق الانسان . أما أقوال العلماء فقد أشرت الى مصادرها بالتفصيل وأما ما أستوحي منها فمعروض للبحث والتمحيص ورحم الله امرءاً أهدى إلي عيوبي . ومن الحق أن أؤكد بأن كل ما جاء في هذه النظرة سيظل جزءاً صغيراً من الكون الذي هو الانسان ويكفيني ويكفي القارئ في مثل هذه الحالة أن نتمثل بصادق قول حكيمنا العربي :

دواؤك فيك وما تبصر   وداؤك منك وما تشعر
وتزعم أنك جرم صغير   وفيك انطوى العالم الأكبر

هذا ولا بد من الاشارة الى لغة الكتاب التي قلت عنها في مطلع هذه الكلمة إنها سهلة وهي صحيحة درج المؤلف في اختيار المصطلحات والألفاظ على ما هو مألوف في كلية الطب من جامعة دمشق ، وجنح في بعضها الى التعريب ولكن عن طريق اللفظ في الألمانية حيث يغلب التعقيد والخروج عما هو شائع في اللغات الأجنبية الأخرى بينما المستحسن في هذا المضمار اختيار اللفظ الأهون من احدى اللغات ، كما ان بعض الألفاظ جاءت غير موحدة في بحوث الكتاب فتراه يستعمل تارة الرثية وأخرى الروماتيزما وروماتيزما عن العلة الواحدة مما يوجب الالتباس على القارئ ، وكذلك لفظة التتاني فجاءت في بعض المواضع (الكزاز) وأخرى التكزز وترجم كلمة (Stress) تارة بحادث نفسي وأخرى بانفعال وقد جاءت هذه الكلمة بـ (Effect) في موضع آخر ، وذكر الأزمة الصدرية (وقد يكون لهذه الكلمة دلالة خاصة في اللغة) عن الحالة المعروفة بالربو ، واستعمل الصَّرعة عوضاً عن الصرع ، وغير ذلك من الهنات الطفيفة التي لا تؤثر في جوهر الكتاب مع الأمل أن تصحح في طبعة ثانية .

وصفوة القول اني أهنئ الزميل الكريم على هذه التحفة الفريدة التي أتحف بها المكتبة العربية مع التطلع الى صدور الجزء الثاني لتتم الفائدة .

الدكتور حسني سبح

أعـــلام

قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين

تأليف : خير الدين الزركلي

وهو في تسعة أجزاء ومستدرك يشتمل كل مجلد على نحو (٣٨٠) صفحة من القطع الوسط . طبع الجزء الأول في مطبعة كوستاتسوماس وشركاه بالقاهرة سنة ١٩٥٤ وانتهى الجزء العاشر عام ١٩٥٩

أدت الطبعة الأولى من قاموس (الأعلام) التي صدرت بأجزائها الثلاثة قبل نيف وثلاثين سنة خدمات جليلة للباحثين والمطالعين ، وأجمع العاملون على أنه قد ملأ يومئذ فراغاً كبيراً ونقصاً شديداً في المكتبة العربية التي هي بحاجة الى معجم في سير الأفراد سهل المنال . وقد استقبلته الأوساط العلمية بلهفة ، وهللت له ، وقرظته بما يستحقه الكتاب ومؤلفه الأستاذ الزركلي من تقدير وإعجاب .

ولو كان غير الأستاذ الزركلي لارتضى بما أحرزه من شهرة علمية ، ولطلب الراحة بعد العناء ، وقنع بالقدر الذي أداه لأمته ، وكفى نفسه نصب البحث والاستقراء ، وانصرف الى عالم الخيال ، ميدانه المفضل ، ميدان النظم والقريض ، وهو من فرسانه المجلين . ولكن أبت عليه همته إلا أن يتم شوطه ، ويدرك غايته ، فأضاف الى حسنته الأولى مأثرة جديدة خالدة ، يقصر عنها كل ثناء . فقد عاهد نفسه منذ أن اطلع على عورات طبعة الأعلام الأولى ونواقصها على أن يصلحها في طبعة ثانية ، وها هو يفي بعهده ويخرج لدنيا العرب الطبعة الثانية من قاموسه (الأعلام) ؛ وهي بالحقيقة تأليف جديد ، ارتقى من ثلاثة مجلدات الى عشرة مجلدات .

ومثل هذا السفر لا يحتاج الى تعريف وتقريظ ، فقد سبقته في الطبعة الأولى شهرته وعمت فائدته .

وأبرز ما في الطبعة الجديدة غزارة المادة ووفرة مصادرها ورسوم الرجالات وخطوط المؤلفين ، فالكتاب من المصادر الخالدة التي كتب لها أن لا تبلى مع الزمن ، ودعامة راسخة في بنيان تاريخ العرب ، لا رملة ولا حصاة كما نعته مؤلفه حفظه الله وأمد بحياته .

الوطن العربي
الاتجاه السياسي والملامح الاقتصادية
تأليف الدكتور عزة النص

عدد صفحاته (٢٩٦) صفحة من قطع الوسط ، نشرته دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية ، وطبعته في مطبعة الجمهورية بدمشق عام ١٩٥٩

صدر حديثاً هذا الكتاب ، في أيام تتأجج في صدور العرب جذوة القومية العربية ، وتثور دنيا العرب لنصرتها وبعثها . قدم فيه مؤلفه الدكتور عزة النص للمكتبة العربية مادة دسمة عن أقطار شقيقة ، يجهل أخبارها عامتنا ، ولا تلم الخاصة إلا بالنذر اليسير من أوضاعها . مع أنه لا تتم الألفة والمودة بين الأفراد ، ولا يجتمع شمل ذوي القربى والأخوة ، إلا بالتعارف واللقاء ، وما ينطبق حكمه على الأفراد في بلد واحد ، يشمل أيضاً الجماعات في أقطـار متعددة ، وان اختلفت وسائلها . إن الفرد يملك أسبابها وهي طوع ارادته ، ولكنهـا تتعذر على الجماعات ولا بد لها من وسيط بينها يهديها السبيل ، إن الكتاب في هذه الحالة هو أفضل أداة للتعارف ، وله أبلغ الأثر في محادثة الجماهير ، وسيكون لهذا الكتاب رسالته ، وأثره الطيب في هذا التوجيه ، وهو خير وسيط . وقد أصاب المؤلف هدف غايته ، وأحسن فيه بسط قصة الأقطار العربية ، وسرد موجز تاريخها ، وعرض قضاياها السياسية والاقتصادية عرضاً موفقاً ، تلقفها من أصدق المصادر ، ليقدمها للقارئ العربي جرعة سائغة بأمل أن تثير في نفسه نشوة ذكريات تالدة ، وتوقظ فيه عواطف حنانه الراقد ، فيصبو الى يوم التداني ، وحث الخطى لجمع شمل أبناء الأمة الواحدة .

وحبذا لو ضمن الدكتور كتابه هذا بحثاً عن جمهوريتنا العربية المتحدة ينتفع به بقية الأقطار العربية إنه لو فعل ذلك لتم البحث وانتظم العقد .

نشكر للمؤلف جهده ونكبر فيه علمه ودقة بحثه ، ونرجو لهذه الدراسات النتائج المتوخاة من نشرها ، وأن تقرب يوم جمع شمل العرب بما يعيد اليهم عهدهم الزاهر ويحيي مجدهم الباهر .

العرب والإسلام
في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط
تأليف الدكتور عمر فروخ

في (٢٠٦) صفحة من قطع الوسط ، نشره المكتب التجاري
وطبعه بمطبعة دار الكتب ببيروت سنة ١٩٥٩

يتجلى الوعي القومي عند الأمم في مبلغ انتاجها الثقافي والمادي ، فهما مقياس نهضتها وسلامة وعيها ، وتبشر في البلاد العربية هاتان الناحيتان بمستقبل زاهر ، يثلج الصدور ، وتطمئن له القلوب ، فقد تجارت النهضتان في سيرهما قدماً ، دون أن تطغى الواحدة على الأخرى ، مما جعلنا نؤمن أن وعينا القومي أصبح حقيقة ملموسة ، وأنه سالك السبيل القويم ، على أسس راسخة قوية ، وإن عربي اليوم يتطلع الى مستقبله مستلهماً ماضيه في بناء حاضره ، وما أكثر الشواهد على صحة قولنا ، فإنه في كل يوم يظهر كتاب مفيد ونسمع بمباشرة مشاريع اقتصادية وتطورات اجتماعية ، وما هذا الكتاب الا من هذه الشواهد .

وقد شاء زميلنا الدكتور المؤلف أن يوصل في كتابه ما انفصم بين السلف والخلف ، مذكراً بني قومه بأمجادهم الغابرة ، وما حققوه من إبداع في بناء الحضارة الإنسانية ، لعلهم يدركون ما فات ويلحقون بركب هذا العصر الذي تخلفوا عنه ، أو كما قال في مقدمة كتابه : «وتظل الأمة حية ما دام أبناؤها يشعرون أنهم متصلون بأسلافهم اتصالاً واضحاً ، وما داموا يؤدون رسالة أمتهم تأدية توافق حاجاتهم المتطورة مع الزمن ، وتحفظ عليهم مثلهم العليا سليمة بارزة وبجعل من تراثهم الروحي نطاقاً يحمي وحدتهم ويسدد خطواتهم .» ويحذرهم من مغبة التهاون خوفاً عليهم من : «أن ينتهي بهم الأمر إلى أن يذوبوا في من حولهم ، فتنقرض دولتهم ، وتزول حضارتهم ، ويخلو موكب التاريخ من أمتهم ، ومن اسم أمتهم .»

ويدل على موضوع الكتاب عنوانه ، فقد بحث فيه المؤلف فتوحات العرب

والإسلام في القرن الأول من الهجرة ونصف الثاني لبلاد المغرب والأندلس ، وزحف جيوشهم إلى أواسط حتى بلغوا أبواب مدينتي ليون وباريس ، فخلد المؤلف فيه أروع صفحات التاريخ العربي ، ولخص للقارئ في مجلد واحد ما جمعته المجلدات عن هذه المعجزات .

وأستميح الزميل الكريم الاذن بابداء ملاحظات بسيطة على ما جاء في الصفحة (١٢) عند قوله : (جاء الأتراك العثمانيون الى الشرق الأدنى في القرن الرابع هـ .) صوابه حذف كلمة (العثمانيون) لأن نسبة الأتراك لبني عثمان بدأت في القرن الثامن من الهجرة . وجاء في الصفحة (٢٣) : «ومن أعجب الآثار بها الصنم المنسوب الى هذه الجزيرة» وقد علق المؤلف في الحاشية : «ويقصد جزيرة الأندلس» والأصح انه قصد جزيرة رودس التي اشتهرت بصنمها أحد عجائب الدنيا السبع ، وورد خطأً في ص (١١٠) عام ٨١٧ وصوابه ٧١٨ .

فنشكر الدكتور المؤلف جهده وحسن صنيعه ، ونرجو له دوام التوفيق في خدمة الثقافة العربية .

جعفر الحسني

ديوان ابن الخياط

« من مطبوعات المجمع العلمي العربي وتحقيق رئيسه
العلامة خليل مردم بك »

صنّف رئيس المجمع الجليل مجموعة من سِيَر الأدباء ، وحقّق طائفة من دواوين شعراء الشام المشاهير ؛ عَدّ عن آثاره الأدبية ، ومقالاته القيّمة ، ودراساته الممتعة ، وتتبعاته الفاضلة .

وقد أخرج في هذا الصيف رابع تلكم المجموعة النفيسة وهي ديوان ابن الخيّاط أبي عبد الله ، أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي ، الشاعر ، المتوفى سنة ٥١٧ هـ .

وقد قدّم بين يدي الديوان تصديراً فاخراً قوامه ٤٨ صفحة ، استودعه دراسة

عصر الشاعر وترجمته ، وفصّل القول في أسرته وسيرته وعلمه وأدبه وأخلاقه وصفته .

ثم ألحق بها دراسة انتقادية ثمينة لشعره ، أحاطت بأطراف النقد ، واستوعبت أنواع الدقة ، وجمعت فنون التحقيق .

وقد اتخذ في تلكم الدراسة الرائعة نهجاً محكماً ، أرجو أن يوفق الأدباء إلى سلوك جَدَدِه ، واتباع سَنَنِه ، والاقتداء بهداه . ولعلّ مباحثه الممتعة في شعره (ص ٢٢ — ٣٠) [1] من أحاسن فصول النقد في تأريخ الآداب العربية اليوم ، بَلْه فصل لغته (ص ٣١ — ٣٩) [2] ، فأنه دراسة لغوية سديدة ، ومبحث اشتقاقيّ أصيل ، ومادة علمية مذخورة ، يعتزّ بها مؤرخو اللغة ، وكتّاب المعجم العربيّ التأريخيّ [3] .

والديوان ١٥٧ قصيدة ومقطّعة ؛ عدّتها ٣٣٠٠ بيت . وقد عارضه بثماني نسخ خطيّـة عتيقة (زد عليها طبعة النجف) وفسّر ألفاظه ، وترجم أعلامه ؛ معتمداً على ٣٨ مرجعاً ؛ من أصول التاريخ والأدب واللغة الخطيّـة والمطبوعة . وذيّله بأربعة فهارس : للمراجع والأعلام والبلدان والأمكنة والقوافي .

أهنئ الأدب العربيّ بهذه الطبعة الجديدة ، وذيّاك المجهود المنفّس ، وأبارك للمجمع العلمي العربيّ في آثاره الباقية ، ورئيسه العلاّمة المحقق .

الدكتور حسين علي محفوظ

---

(١) درس فيها خصائص شعره ، وأثر أبي تمام والبحتري والمتنبي وابن حيُّوس فيه . وذكر قوة طبعه ، وكثرة ارتجاله ، وعذوبة ألفاظه ، وصحة معانيه ، مع الإشارة إلى فنون شعره ، وأنّه أوّل من قال الشعر في الحروب الصليبية ، ثم وازن بينه وبين شعراء عصره ، وعيّن منزلته منهم .

(٢) درس فيها الألفاظ التي أغري الشاعر باستعمالها ، وبيّن أخذه بالرخص ، وتساهله في تعدي الحدود اللغوية ، وتجوّزه في الاشتقاق ، وصوغ المشتقات ، والتوسع في القياس . وقد حاسب الشاعر في مواطن كثيرة مجال القول فيها ذو سعة . وكل الظن أنه أراد تنزيه صاحبه من كل ما يخالف المعروف .

(٣) فقد استخرج بعض ألفاظه مثل : روّض ، الهناه ، أغل / جمع أغلة ، الخراد / جمع خريدة ، المُمَنْدَل ، الأخمص ، الأقْمص / جمع قميص ، النضاج ، فتوك ، سحور ، نشير / أي منشور ، عطير ، مُفراد ، استفرس ، استخوص ، استرقص ، استنزر ، استفزع ، استشاد . وأشار إلى شواهد ذلك كلّه .

المنظمات الاقتصادية الدولية

محاضرات في ٢٠٤ صفحات ألقاها الدكتور جابر جاد عبد الرحمن على قسم من طلبة معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة

مما لا ريب فيه أن محاضرات الدكتور جابر التي لخص فيها المعاهدات والاتفاقات الاقتصادية الدولية قد جاءت جامعة ومفيدة ، كيف لا وقد استعان بأكثر من ٢٤ كتاباً قيماً في هذا الموضوع لتكون مرضية .

وقد قدم الدكتور محاضراته ببحث عن التنظيم الاقتصادي ، وعما ينبغي أن تكون عليه حصيلة الانتاج . وأي نوع من السلع التي يجب انتاجها ، وكيفية التوفيق بين عوامل الانتاج وعماله ، وفي توزيع السلع بين الأفراد ، وتحديد الأثمان ، واعطاء كل شخص حاجته ، وبين أن الغربيين قد قالوا بضرورة التنظيم الاقتصادي الدولي ، لأن القيم المشتركة التي تعتنقها الشعوب هناك ، جعلها تقوم في ايجاد أنظمة للتعاون في العمل ، ومنظمات اقتصادية دولية ، في شتى المجالات الاقتصادية .

وقد استعرض الدكتور في محاضراته : التعاون الدولي بين المصارف المركزية ، وبين المنتجين وبين المستهلكين ، والاتحادات العامة الدولية ، وذلك في القرنين : التاسع عشر والعشرين ، وبين الأعمال الضرورية عند ظهور حالة العجز في الميزان التجاري ، ومركز انكلترا المالي الدائنة آنئذ ، وأهمية البنك الاحتياطي الأمريكي ، واتحاد النقد اللاتيني والاسكنديناڤي ، وزوال ذلك الاتحاد ، ثم بحث مؤتمر بروكسل (عام ١٩٢٠) بتأسيس البنوك المركزية وأغراضها ، والتعاون بين المنتجين ، والترست والكارتل التجاري ، مع العلم ان ذلك الكارتل الذي ساهم في الاستقرار الاقتصادي ، وكان لصالح المنتجين الأمر الذي جعل التكتلات بين المستهلكين والجمعيات التعاونية تظهر لعالم الوجود ، وذلك بين ١٨٩٥ — ١٩٤٦ .

وبين أيضاً اتحاد المواصلات الدولية ، وظهور اتفاقات تنظيم الاتحاد العام للبريد (١٨٧٥) واتحاد النقد الدولي (١٨٧٨) والنقـل الجوي والسيارات والقياس المتري ، والتعريفات الدولية ، (١٨٩٠) .

ومما بحثه : بنك التسويات الدولية (١٩٢٩) ومشروع كينز ، وغرفة التجارة الدولية (١٩٢٠) والتدخل الحكومي في الحقل الاقتصادي فيما بين الحربين العالميتين ، والمقاصة الدولية .

وبحث أيضاً مشروع هايت (٥/٤/١٩٤٣) بانشاء صندوق نقـد دولي لتثبيت النقد العالمي وهذا الصندوق كان ضرورياً ولا ريب ، رغم أنه ترك الحرية للدول بتحديد أسعار نقدها .

وبحث اتفاقية بريتون وودز (١٩٤٤) التي تقول بايجاد صندوق دولي برأسمال ٨و٨ مليارات دولار على أن تدفع كل دولة حصتها ، وما هي أهداف ذلك الصندوق .

وبحث مشروع بنك الانشاء والتعمير الذي بدأ أعماله عام ١٩٤٦ برأسمال ١٠ مليارات دولار دفعتها الدول المشتركة فيه ، بنسبة قوتها ، وأوضح أهداف ذلك البنك ، ولكن الدكتور المحاضر لم يبين أن هذا البنك الذي ساهم فيه جل البلاد العربية ، من هي الدول التي استفادت منه ، وما هي حصـة الدول العربية منه ؟ ان هذا البنك قد أقرض حتى اليوم ٣٤٠٠ مليون دولار ، لم ينل منها من الحكومات العربية سوى العراق إذ اقترض ستة ملايين و ٢٩٤ ألف دولار ، ولبنان الذي اقترض ٢٧ مليون دولار ، وهذا دليل كبير على أن هذا البنك كان مسيراً من قبل الدول الكبيرة الاستعمارية ، لذلك لم يكن لصالح العرب .

وبحث أيضاً ميثاق هافانا (١٩٤٨) وأغراضه في تنظيم التجارة ، والاتفاق على التعرفات (وكانت حكومتا سورية ولبنان من الأعضاء ، ثم انسحبتا منه (١٩٥١) ان هذا الاتفاق لم يحقق للجماعة الدولية ما ترجوه من المثل العليا .

وبحث مشروع مارشال الذي وضعه وزير الخارجية الأمريكية الجنرال مارشال في خطابه يوم ٥/٦/١٩٤٧ للانعاش الأوروبي .

وبحث مشروع شومان وزير خارجية فرنسا، الذي ظهر في معاهدة ١٩ / ٣ / ١٩٥١ والذي يهدف إلى إيجاد سوق واحدة للحديد والصلب والفحم؛ ومشروع المجلس الأوروبي الذي وقع عليه في أيار سنة ١٩٤٩ ، كما بحث المجلس الاقتصادي والاجتماعي (من قبل الأمم المتحدة) ومنظمة الأمم المتحدة للغذاء والزراعة ، ومنظمة الطيران المدني الدولية ، والمنظمة البحرية ، ومنظمة الصحة العالمية ، ومنظمة الأمم المتحدة للتعليم والثقافة (اليونسكو) .

وقد وفق الدكتور في عرضه لتلك الاتفاقات والمعاهدات ، التي ينبغي للمرء الاطلاع عليها ، لأنها جديرة بذلك ، بيد أني كنت أتمنى من حضرة الدكتور المحاضر ، أن يبين رأيه بوضوح عن الغاية من تلك الاتفاقات والمعاهدات الغربية ، لأن جلها كان لمصلحة الدول الكبيرة ، وخاصة الولايات المتحدة التي تريد تقوية اقتصادياتها ، وايجاد عمال وأصدقاء وأسواق لها في العالم ، ومقاومة الشيوعية كي تبتعد عن العالم الأوروبي والأسيوي ، وكان معظم هذه الاتفاقات يرمي الى تقوية المستعمر ، دون النظر الى الحكومات والشعوب الضعيفة ، والأمة العربية ، حتى ان منظمة الأمم المتحدة (اليونسكو) التي من أهدافها احترام العدل والقانون وحقوق الأفراد والحريات الأساسية ، كانت رأت ولا تزال ترى بعض الحكومات الغربية تهاجم أقطاراً من البلاد العربية ، وتدفع بعض أفراد في البلاد العربية للعبث بحقوق وحريات الأمة العربية ، وبلبلة السياسة الوطنية هناك ، كما ان منظمة الصحة العالمية ، لم تعمل عملاً يذكر لحماية الأمة العربية من نكبات الأمراض والأوبئة السارية ، التي حملها الحكم الشعوبي والغربي الاستعماري الى بلادها .

وكم كان جميلاً لو أن الدكتور المحاضر نوه في ختام محاضراته عن ضرورة تعاون الحكومات العربية اقتصادياً وسياسياً ، بعد أن استعرض تلك الاتفاقات الدولية التي ولدت السوق الأوروبية الاقتصادية تلك السوق التي هي ضربة على اقتصاديات وسياسة العرب ، على أن ذلك لا ينقص من قيمة محاضراته الهامة وجهوده في وضعها .

منير الشريف

آراء وأنباء



المرحوم الدكتور منصور فهمي
(١٨٨٦ ـ ١٩٥٩)

وفاة الدكتور منصور فهمي

في السادس والعشرين من آذار «مارس» سنة ١٩٥٩ فقدت مصر ، بل فقد الوطن العربي ، علماً من أعلام الفكر ، ورائداً من رواد النهضة الحديثة ، وهو الدكتور منصور فهمي . لقد كان رحمه الله فيلسوفاً عميق التفكير ، وأديباً مرهف الحس والشعور ، وباحثاً واسع الاطلاع على تراث السلف الأدبي والفلسفي ، وعلى وسائل النهضة الأوربية الحديثة ، وداعياً من دعاة الإيمان بالله ، وحب الوطن ، وطلب العلم ، والإصلاح الاجتماعي ، والتحلي بالأخلاق الفاضلة .

ولا يجهل أحد من أدباء الجيل الحاضر تلك الشخصية الفذة التي مثلت أجمل تمثيل جانب النبل والمروءة والصلاح والخير في جيلها .

كان الفقيد ينتسب الى آل البقلي وهي أسرة مصرية قديمة تنتمي الى أسرة نصر الدين بأسيوط . والمعروف أن أصولها مغربية من تلمسان والساقية الحمراء ، ووالد الفقيد علي فهمي البقلي ، وجده عبد العال فهمي البقلي .

ولد الفقيد سنة ١٨٨٦ م في بلدة طلخا التابعة لمديرية المنصورة من أعمال مصر ، ودرس الدراسة الثانوية في المنصورة وفي مدرسة فرنسية في القاهرة . وفي سنة ١٩٠٦ حصل على شهادة الدراسة الثانوية ودخل مدرسة الحقوق في في مصر . وعندما أنشئت الجامعة المصرية الأهلية أوفدته سنة ١٩٠٨ ، هو ورفاقاً له ، في أول بعثة مدرسية الى فرنسة ، ليتلقوا دروساً عالية في مختلف العلوم ، وليكونوا مدرسين في الجامعة بعد عودتهم الى وطنهم .

وكان نصيب الفقيد الفلسفة فانكب على دراستها . ولم يكتف بها ، بل درس أيضاً علوم الفسيولوجية والأجنّة والجغرافية الطبيعية ، فحصل في سنة ١٩١٣ من جامعة باريس على الليسانس في العلوم ، فضلاً عن الدكتوراه في الفلسفة .

ومنذ ذلك الزمن برز ميله الى الإصلاح الاجتماعي في وطنه ، فكان موضوع رسالته الفرنسية للحصول على لقب دكتور في الفلسفة « المرأة في تاريخ الإسلام » . وقد عُد ما اشتملت عليه الرسالة تطرفاً في الرأي في تلك الأيام، فحيل بينه وبين التدريس في الجامعة مدةً من الزمن .

ولكن سرعان ما تجلت مزاياه وآراؤه الإصلاحية النيرة في مقالاته الأدبية والاجتماعية التي كان ينشرها في الصحف ، فدُعي الى التدريس في مدرسة المعلمين العليا ، ثم عُين سنة ١٩٢٧ أستاذاً للفلسفة في كلية الآداب بالجامعة . وتدرج من الأستاذية فكان وكيلاً للكلية سنة ١٩٣٣، ثم كان عميداً لها .

وفي سنة ١٩٣٦ عُين مديراً لدار الكتب المصرية . وفي أواخر سنة ١٩٤٤ كان مديراً لجامعة الإسكندرية .

أما مجمع اللغة العربية فقد عُين فيه عضواً منذ تأسيسه سنة ١٩٣٣ . ولما أوجد في المجمع المذكور منصب كاتب السر « الأمين العام » انتخبه المجمعيون لهذا المنصب ، فظل يضطلع بأعماله الى حين وفاته ، وكلما انتهت مدة عمله فيه جددوا انتخابه مرةً بعد مرة .

ولم يؤلف الفقيد كثيراً من الكتب . ولكن سيرته في الإصلاح طيلة حياته كانت كلها سفراً كبيرا . ولو جُمعت مقالاته في مختلف الجرائد والمجلات العربية ، وخطبه في النوادي العامة ، وبحوثه التي ألقاها في مجمع اللغة العربية لتألف منها كتب ثمينة .

ومما طُبع له ترجمة رواية « هرمان ودوروتيا » وهي للشاعر الألماني غوته ، وبضع رسائل اجتماعية منها « الضعف الخلقي وأثره في حياتنا الاجتماعيــة » ، ومنها « أوقات الفراغ كيف نستثمرها » الخ .

وكتاباه المطبوعان اللذان اشتهرا لدى الأدباء همـا «خطرات نفس» ، و «مي زيادة ، مع رائدات النهضة النسائية الحديثة» وهن عائشة التيمورية ووردة اليازجي وملك حفني ناصف الملقبة بباحثة البادية .

فالكتاب الأول مجموعة من المقالات في أخلاقنا ، وتأملات في نواحي حياتنا الاجتماعية . وقد تميز فيها الفقيد بسلاسة التعبير ، ودقة التصوير ، وضبط دلالة الألفاظ على معانيها ، وتركيز تلك المعاني ، وبذلك عُد في جملة الرواد من الكتّاب الذين أحلوا المقالة مكانها المرموق في عصرنا الحاضر .

أما الكتاب الثاني فما من أديب قرأه إلا وقال فيه إنه يحتوي على بيان رائع ، وتصوير جميل ، وتحليل فلسفي دقيق لحياة رائدات النهضة النسوية الحديثة ، ولمجتمع الزمن الذي عشن فيه .

وسيرة الفقيد ـ على ما ذكرتُ ـ هي التي كانت للجيل الحاضر أجمل كتاب . فقد قضى عمره داعياً الى الاستمساك بما عندنا من عادات وتقاليد حسنة ، وبما في الدين من وصايا خلقية ثمينة ، حتى عده بعضهم من المتزمتين أو الجامدين ، على حين أنه لم يكن عدواً للتجديد ، بل كان عدواً لترك الصالح من مقوماتنا القومية ، ولفكرة اقتباس الصالح والطالح من المدنية الغربية من غير تمييز .

أقام فلسفته على مبدأ الخير والشر ، ونفذ الى نواحي المجتمع ، فتجلت دعوته الدينية القوية في جمعية الشبان المسلمين ، ودعوته الإنسانية في جمعية الهلال الأحمر وغيرها من الجمعيات الخيرية ؛ وبرز نشاطه الاجتماعي في جمعيه الإصلاح الاجتماعي ، ونشاطه العلمي والأدبي والفلسفي في جامعة القاهرة وجامعة الإسكندرية ودار الكتب المصرية ومعهد الدراسات العربية العالية . أما في مجمع اللغة العربية فأعضاء ذلك المجمع يعرفون أن الدكتور منصور فهمي ، وإن لم يكن لغوياً ، قد خلف الشيخ أحمد السكندري رحمه الله في كرهه للإكثار من تعريب

المصطلحات الأعجمية ، وأنه كان يرى عدم اللجوء الى تعريب ألفاظ المعاني خاصة إلا بعد اليأس من العثور على ألفاظ عربية تقابلها في معجماتنا القديمة وفي كتب السلف العلمية والأدبية ، أو بعد العجز التام عن إيجاد ألفاظ عربية لأدنى ملابسة بوسائل الاشتقاق أو المجاز أو التضمين أو النحت .

ولطالما سمعته في جلسات مجلس المجمع أو مؤتمره يجادل أنصار الإكثار من تعريب المصطلحات العلمية ، ويقول لهم إن اللفظ العربي له جاذبيته الخاصة عند أبناء العروبة لأسباب وراثية ، ولأنه يثير في نفوسهم معاني وصوراً يعجز اللفظ الأعجمي المعرّب عن إثارتها .

ولا يعرف إلا قلة من أبناء الوطن العربي أن الفقيد كان يؤمن مثلنا بعقيدة القومية العربية ، وأنه من المصريين الأوائل الذين كانوا يتجاوبون هم والعاملون في شؤون تلك القومية ، فيفتحون لهم صدورهم ودورهم في الأزمات السياسية . والعرب الذين كانوا يلجأون الى مصر فراراً من ظلم الدول الاستعمارية في بلادهم كانوا يعرفون حدب الدكتور منصور فهمي على قضيتهم ، وتردده على جمعياتهم ، ومشاركته لهم في سرائهم وفي ضرائهم .

رحم الله الفقيد وجزاه عن العرب وثقافتهم ولغتهم وقوميتهم جزاء العاملين المخلصين .

مصطفى الشهابي

الدراسات العربية في الاتحاد السوفياتي [1]

موضوع الدراسات العربية في الاتحاد السوفياتي موضوع كبير لا يمكن استيعابه في حديث واحد ، وذلك لأن الدراسات العربية تؤلف جزءاً من علم واسع معروف بعلم الاستشراق ؛ والشرق العربي كان منذ قرون ممتداً من البحر الأطلنطي غرباً إلى الصين شرقاً .

وإذا أردنا التحدث عن الدراسات العربية بالتفصيل كان لا بد من أن نشرح تاريخ فرع كامل من فروع العلم في بلادنا ، وأنا عاجز عن أداء هذه الوظيفة .

أما نشوء الدراسات العربية بمعناها العلمي في روسيا فهو يرجع إلى بداية القرن التاسع عشر ، عندما أصبحت اللغة العربية تُدَرَّس في جامعات خاركوف وقازان وموسكو وبطرسبورغ . ومن بين أبرز العلماء الذين بدأوا الأبحاث العربية العلمية في روسيا في ذلك الحين نذكر المجمعي فرين (١٧٨٢ — ١٨٥١) أستاذ اللغة العربية في جامعة قزان أولاً ، ثم بجامعة بطرسبورغ ، وهو مؤسس المتحف الآسيوي المشهور في بطرسبورغ ، حيث قام بصورة منظمة وعلى أساس علمي بدراسة المخطوطات العربية . ونذكر أيضاً الأستاذ بولديروف ، كان أستاذ اللغات الشرقية بجامعة موسكو من سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨٤٢ . وقد أصدر بولديروف أول كتاب علمي لدراسة النحو العربي باللغة الروسية ، وأول كتاب منتخبات من الأدب العربي مصحوب بمعجم عربي روسي .

وقد كان المستشرقون ، منذ نشوء الدراسات العربية في روسيا ، لا يقتصرون على البحث العلمي أو التعليم في الجامعات ، بل كانوا أيضاً يعملون على إطلاع

---

(١) حديث للمستشرق الروسي الأستاذ عبد الرحمن سلطانوف مدير القسم العربي في معهد الدراسات الشرقية في موسكو . ألقاه في جمعية تعزيز التبادل الثقافي بين سورية والاتحاد السوفياتي .

المجتمع الروسي على الثقافة العربية . فقد قام بولديريف وتلاميذه بترجمة بعض القصائد والأقاصيص العربية الى اللغة الروسية ، واشتهر بهذا النشاط بوجه خاص أستاذ اللغات الشرقية في « بطرسبورغ » الصحفي الروسي المعروف يوسف سينكوفسكي . وقد كان ينشر مقالات في الأدب العربي ، منها مقال رائع في الشعر الجاهلي لم يفقد قيمته العلمية حتى الآن . كما كان ينشر بعض الأقاصيص فيستقي موضوعاتها من الأقاصيص العربية .

وفي أواخر القرن التاسع عشر بلغت الدراسات العربية ، كسائر الدراسات الشرقية في روسيا ، مستوى مرتفعاً جداً . وكان يتقدم العلماء المستعربين في ذلك العهد الأستاذ غيرغاس والمجمعي روزين . أما غيرغاس فقد تخرج من جامعة « بطرسبورغ » ، وقضى ثلاث سنوات في سورية ولبنان وفلسطين ومصر . وبعد رجوعه إلى روسيا تولى تدريس اللغة العربية ، ووضع عدداً من الأبحاث العلمية ، ومعجماً عربياً روسياً ، وكتاباً في تاريخ الأدب العربي ، وكتاباً آخر في تاريخ الدراسات النحوية عند العرب . وفي هذا الكتاب انتقد غيرغاس بعض النواقص الموجودة في الطريقة المعقدة التي اتبعها العرب في شرح قواعد اللغة ، تلك النواقص التي يشكو منها اللغويون العرب المعاصرون حتى اليوم ؛ وذلك إلى جانب تقدير كل ما يوجد في كتب اللغويين العرب القدماء من محاسن .

وأما المجمعي روزين فقد برّز في مضمار دراسة المخطوطات العربية . وله يد بيضاء في تربية جيل من المستشرقين وبينهم تلميذه المجمعي كراتشكوفسكي .

وفي بداية القرن العشرين كانت الثقافة العربية تُدرس في عدة مراكز علمية في روسيا . وكان بين كبار العلماء الذين اشتغلوا بالدراسات العربية الأستاذ قريمسكي والأستاذ كراتشكوفسكي .

وفي العهد السوفياتي اتسعت الدراسات الشرقية في بلادنا إلى حد كبير . ونشأت في لينينغراد مدرسة استشراق فيلولوجية مشهورة كان يشرف على الدراسات العربية فيها الأستاذ العلامة اغناطيوس كراتشكوفسكي المشهور .

لقد وضع الأستاذ كراتشكوفسكي حوالي (٥٠٠) بحث علمي في الأدب العربي القديم والحديث ، وفي العلم العربي والفكر العربي . وكان من أهم خدماته في قضية دراسة الثقافة العربية أنه كان أول من جعل الأدب العربي الحديث موضع الدراسات العلمية ، بينما كان المستشرقون في أوربة الغربية لا يعترفون إلا بالأدب العربي القديم .

وبعد وفاة كراتشكوفسكي (في كانون الثاني سنة ١٩٥١) ، قرر المجمع العلمي السوفياتي إصدار مجموعة مؤلفاته . وقد جاء هذ القرار دليلاً على مبلغ احترام الشعب السوفياتي لثقافة العرب التي وقف الأستاذ كراتشكوفسكي حياته على دراستها وإطلاع الشعب عليها . وتتألف هذه المجموعة من ستة مجلدات صدر منها حتى الآن ثلاثة ، يحتوي الأول منها ذكريات كراتشكوفسكي عن خطواته الأولى في طريق دراسة الثقافة العربية ، وعن زيارته لسورية ومصر ، كما يحتوي مقالاته عن اللغة العربية . ويتضمن المجلد الثاني أبحاث هذا العالم في الأدب العربي القديم ، ويتضمن المجلد الثالث أبحاثه في الأدب العربي الحديث .

وسيصدر عما قريب المجلد الرابع وفيه جمعت أبحاث الأستاذ كراتشكوفسكي في الأدب العربي الجغرافي ، كما سيحتوي المجلد الخامس على مقالاته في تاريخ الدراسات العربية في روسيا ، والسادس على ترجمة كتاب ابن المعتز (في الشعر العربي) ؟ وعلى وصف كراتشكوفسكي للمخطوطات العربية في مكتبات الاتحاد السوفياتي .

وممن يجدر ذكره بين العلماء الذين عملوا في لينينغراد الأستاذ يوشمانوف المتخصص في اللغات السامية والافريقية ؛ وقد وضع عدة أبحاث في اللغة العربية

قيمة للغاية ، وكذلك الأستاذ ڤيلينشك الذي عمل على وضع معجم عربي روسي خاص باللهجة السورية . وقد بذل في هذا السبيل جهوداً تستحق الإعجاب ، ولا سيما إذا علمنا أنه كان مصاباً بالصمم . وقد توفي كلا هذين الأستاذين بُعيد الحرب العالمية الثانية .

وفي أثناء الحرب الأخيرة توفي مستشرق روسي كبير آخر عاش في السنوات الأخيرة من حياته في أكرانيا ، ونعني به المجمعي قريمسكي ، الذي زار سورية خلال السنوات ١٨٩١ – ١٨٩٨ ، وفي المرحلة الأولى من نشاطه العلمي أصدر سلسلة من الكتب للطلبة والمستشرقين ، منها (تاريخ الإسلام) وكتاب (اللغات السامية) و (تاريخ العرب) و (تاريخ الأدب الجاهلي) كما نشر عدداً كبيراً من المقالات عن الشرق في الموسوعات الروسية ، وتجدر الإشارة إلى أن قريمسكي قد أخذ قبيل الحرب العالمية الثانية بوضع كتاب ضخم في عدة مجلدات في تاريخ الأدب العربي الحديث . ولو أتم قريمسكي بحثه هذا لكان أول كتاب من نوعه في الاستشراق العالمي ، ولكن الحرب حالت دون ذلك فلم ينجز إلا المجلد الأول من كتابه . وتتخذ الآن التدابير اللازمة لإصدار جميع مؤلفات هذا العالم .

وأما في وقتنا الحاضر فإنه توجد مراكز كثيرة للدراسات الشرقية والعربية في الاتحاد السوفياتي . فهناك معهد للدراسات الشرقية في موسكو وله فروعه المستقلة في طاشقند وباكو وقزان وتبليسي (تفليس) ولينينغراد حيث يتخصص العلماء بوجه خاص في دراسة اللغة والآداب والمخطوطات العربية . وقد قُدِّم في هذه المراكز في المدة الأخيرة ما يقرب من ثلاثين أطروحة علمية في شتى موضوعات الأدب والتاريخ العربيين .

وقد نشر الأستاذ بيليايف فصلاً كاملاً عن تاريخ العرب في كتاب « تاريخ الشرق في القرون الوسطى وفي العهد الجديد » ، كما ترجم الأستاذ نفسه إلى

اللغة الروسية القسم المتعلق بتاريخ شعوب آسيا الوسطى من تاريخ الطبري . وقدم لهذه الترجمة بشرح مفصل لحياة الطبري ومؤلفاته العلمية .

وقد أعدّ الآن للنشر كتاب وضعه فريق من المستشرقين في معهد الدراسات الشرقية عن تاريخ الحركة الوطنية التحررية في البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية .

ومنذ سنة صدر في موسكو كتاب «تاريخ الشرق الحديث» ، يحوي فصولاً عن تاريخ مصر وسورية ولبنان والعراق وسواها من الأقطار العربية من سنة ١٩١٧ إلى اليوم .

ونشر في طاشقند ترجمة (قانون الطب) لابن سينا . كما صدر في خاركوف بحث في كتاب رحلة ابن فضلان إلى روسيا في القرن التاسع . وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة الروسية الأستاذ كوفاليفسكي مع دراسة ضافية .

وفي هذه السنة ستصدر في موسكو الطبعة الثانية من المعجم العربي الروسي للأستاذ بارانوف من أساتذة جامعة موسكو . ويتميز هذا المعجم بدقة نقل المفردات والمصطلحات العربية إلى اللغة الروسية . وهو يعدّ حقاً خير مساعد في ترجمة النصوص الأدبية والاجتماعية والاقتصادية إلى الروسية .

وقد هيأ القسم العربي لمعهد الدراسات الشرقية (دليل سورية) . وهو كتاب ضخم في خمس وعشرين ملزمة ، يتضمن معلومات مفصلة عن تاريخ سورية وثقافتها في العهد الجديد . وسينشر هذا الكتاب في هذا العام إن شاء الله .

ويشترك المستشرقون عندنا في ترجمة نماذج من الأدب العربي الحديث إلى اللغة الروسية . وقد نشر باللغة الروسية حتى الآن بعض الروايات والقصص لأدباء العرب في مصر وسورية ولبنان والعراق ، بينها كتاب (الأيام) لطه حسين الذي نقله إلى الروسية العلامة كراتشكوفسكي ، ورواية (عودة الروح) لتوفيق الحكيم .

وفي عام ١٩٥٥ صدرت مجموعة قصص الكتاب العرب تحوي نماذج من قصص محمود تيمور ، وعبد الرحمن الخميس ، ويوسف إدريس ، ومحمد صدقي ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، ووصفي البني ، ومحمد إبراهيم دكروب ، واميل يوسف عواد ، وعبد المسيح حداد ، ومواهب الكيالي ، وأحمد السيّد ، وذو النون أيوب .

ونشرت كذلك مجموعة قصص للأدباء المصريين كمحمود تيمور ، وعيسى عبيد ، وبنت الشاطئ ، والشرقاوي ، ويوسف جوهر ، وادريس وسواهم ...

وفي سنة ١٩٥٦ نشر كتاب يتضمن مؤلفات ولي الدين يكن وجبران خليل جبران وأمين الريحاني ومحمود تيمور وشحاتة عبيد وسلمى صائغ وذو النون أيوب .

وأعدت للنشر ترجمات بعض مؤلفات مواهب الكيالي وشوقي بغدادي وميخائيل نعيمة ومارون عبّود وحنا مينة وفاتح المدرس وسواهم .

وكذلك نشر في العام الماضي في موسكو مجموعة تتضمن منتخبات من آثار الشعراء المصريين .

وفي معهد الدراسات الشرقية تصدر شهرياً عدة مجلات علمية ، منها (مجلة الاستشراق السوفياتي) ، و (الرسائل العلمية) ، و (أخبار معهد الدراسات الشرقية) . وعما قريب ستظهر مجلة جديدة اسمها (الشرق الحديث) .

ويوجه القسم العربي في المعهد في الوقت الحاضر اهتمامه الخاص إلى بحث عميق ألا وهو (قضية الوحدة العربية) ، ويحاول دراسة العوامل التاريخية ، الاجتماعية والاقتصادية والثقافية واللغوية التي تنطوي عليها هذه القضية العظمى .

عبد الرحمن سلطانوف

ديوان الحافظ محمد النجار الشامي

دعاني الأديب المؤرخ الشيخ محمد باقر ألفت الاصفهاني إلى زيارة بلدة اصفهان ، مدينة العجائب العامرة بالمدارس والمساجد والخزائن ؛ وقد لبثت في بيته عدة أيام تصفحت في أثنائها خزانته الحافلة بالكتب الخطية والأعلاق العربية النفيسة . وقد عملت لنفسي فهرست ما يهم من نوادر خزانته ، فأتاحت لي فهرست مخطوطاته الاطلاع على طائفة كثيرة من المجموعات الأدبية المحفوظة بخزانته التي تعدّ - والحق أقول - من الذخائر .

ومن تلك الكتب القيّمة نسخة من ديوان الحافظ محمد الشهير بالنجار ؛ كما عبّر هو عن نفسه في الأرجوزة التي أثبتها في أواخر الديوان ، المسماة (لؤلؤة التنزيه للرب النزيه عن التعطيل والتشبيه = نظم كتاب مقامات الأولياء للشيخ عبد الوهاب الشعراني) قال :

قال الفقير حامل الأوزار محمد الشهير بالنجار

وقال - في نظم رموز كتاب الحصن الحصين التي اختارها ابن الجزري :

قال الفقير الحافظ النجار محمد من مضه الأوزار

طول أوراق النسخة ٢١و٥ سنتيمتر في عرض ١٦و٧ ، وجميع أوراقها ٢٤٣ وفي كل صفحة ٢٣ سطراً وهي مكتوبة في عصر الشاعر وربما كانت نسخة الأصل (ظ) فقد أرخ الشاعر الحوادث الى سنة ١١٧٣ هـ وفي أولها : (دخل في ملك أفقر الورى اليه سبحانه وتعالى السيد مصطفى بن السيد أحمد خادم أبي الدرداء - رضي الله تعالى عنه - سنة ١١٧٥) . والصفحة الأوّلة

من الديوان [الورقة ١ ب] بيضاء فارغة لعل الشاعر انتوى كتابة خطبة الديوان فيها ثم أدركه الموت ، وفي أواخر هذه الصفحة :

لما جحـدت مودتي وتعرفي
وضللت في قصد السبيل المقرف
وغددتني ناديت بعـد تلهفي

وتتمته في [الورقة ٢ أ] :

لله في عنقي يمين المصحف وعليّ كل ذنوب أهل الموقف
... الخ

وهذا الديوان حافل بفوائد وحوادث كثيرة مستطرفة ؛ منها :

سنة ١١٥٤ وفاة الشيخ مصطفى المصري الحافظ شيخ القراء بدمشق
١١٥٥ وفاة موسى آغا بن الاردك
١١٥٦ تولية أسعد بشه (كذا - باشا) بن العظم على دمشق وأعمالها
١١٥٩ وفاة السيد محمد فتحي الدفتردار بأمر السلطان عصر نهار الأحد منتصف جمادى الآخرة .
١١٦٧ تاريخ بناء خان الوزير أسعد باشا بن العظم
أواخر ١١٦٧ وفاة المجذوب الشالح الشيخ خليل الملقب بالبيّاض
١١٦٨ وفاة الشيخ محمد الداودي
«سنة ١١٧٠ لعشر خلون من شهر رمضان ، وقع شر بين طائفة الينكشارية وطائفة القول . واستمر في دمشق الى آخر ربيع الثاني سنة ١١٧١»
١١٧١ ولي المولى السيد علي افندي المرادي وظيفة الإفتاء بدمشق
١١٧٣ «في أوائل شهر ربيع الأول ، ليلة الثلاثاء منه ، قبل ليلة المولد الشريف بثلاث ليال ، أو ما يقرب من ذلك ، في منتصف تلك الليلة

المذكورة ، جاء في دمشق ونواحيها زلزال هدم البنيان ، وأيتم ، وخرب المنارات ، وغادر المساجد ، والنواحي ، خرابا ... سقطت أعالي منارة العروس ، وساوت منارة عيسى الأرض ، وسقطت قبة النسر ، وتهدم أعالي الجانب الشمالي من الجامع .. فأمر القاضي بالصيام ثلاثة أيام » .

وفي الديوان مدح لحامد افندي العمادي شيخ الإسلام ، والوزير سليمان باشا بن العظم ، ويحيى آغا بن طالوا ، وأسعد باشا بن العظم .،

ومن طرائفه أبيات « طلبها بعض الأصدقاء لتقرأ يوم ختم درس الحديث ، تحت قبة النسر ، في الجامع الأموي ، والمدرس إذ ذاك - شيخ مشايخنا ؛ علامة القطر الشامي .. الشيخ اسمعيل العجلوني » ، وأبيات قالها لما أكمل نسخ كتاب انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون . واخر نظمها « اجابة لمطلب محمد جربجى القباني يشكر هدية نقيب أفندي السيد علي العجلاني - كتاب الكشكول » . وقد نظم بعض قواعد الرسم والنحو . وله مراسلات مع الشيخ عبد الله الحلبي .

الدكتور حسين علي محفوظ

أغلاط مطبعية

وقعت في هذا الجزء أغلاط مطبعية تصحح كما يلي :

الصفحة	الخطأ	الصواب
٤٢٥	أساجع	أسامع
٤٢٦	من كل فج	في كل فج
٤٢٧	لم يفتهم	لم يغنهم
٤٢٧	لو كاد	لو كان

فهرس الجزء الثالث من المجلد الرابع والثلاثين

التعريف والنقد

آراء وأنبـاء

مجلة
المجمع العلمي العربي

١ تشرين الأول سنة ١٩٥٩ م ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ

مَدى النَّحْت
في اللغة العربية

توطئة :

من المعروف أن النحت في لغتنا الضادية النَّشْرُ والقَشْر والبَرْي . يقال نَحَتَ الخشبَ والحجارة اذا براها . ومن المعروف أيضاً أن النحت في الاصطلاح انتزاع كلمة من كلمتين أو أكثر ، على أن يكون تناسب في اللفظ والمعنى بين المنحوت والمنحوت منه . وقد نحت القدماء من (الجملة) فاشتهر من منحوتاتهم قولهم حَمدَلَ حَمْدَلَةً من الحمد لله ، وبَسْمَلَ بسملةً من بسم الله ، وسبحلَ سبحلة من سبحان الله ، وحسبلَ حسبلةً من حسبي الله ، وجَعْفَدَ من جُعلت فداك ، ودمعزَ من أدام الله عزه ، وحولق من لا حول ولا قوة الا بالله ، وطلبقَ من أطال الله بقاءك ، ومشكنَ من ما شاء الله كان الخ .

ونحتوا أيضاً من المركب الإضافي : فمن مشهور ما قالوه في النسب الى عبد شمس عَبْشَمِي ، والى رأس عين «في الجزيرة» رَسْعَنِي ، والى عبد القيس عَبْقَسِي ، والى حِصن كَيْفا «على دجلة شمالي الجزيرة» حِصْكَفِي ، والى عبد الدار عَبْدَري ، والى دار البطيخ في بغداد دَرْبَخِي .

ولم يتبعوا قواعد ثابتة سواء في الحروف التي تُنتزع من المنحوت منه ، أو في ترتيب حروف المنحوتات . ولكن القاعدة المعروفة أنهم يأخذون من كلمتين كلمة على وزن فَعْلَل ، ويأخذون من كل كلمة فاءها وعينها ، ثم ينسبون الى المنحوتة ، كقولهم عَبْشَمِيّ من عبد شمس ؛ فإنهم انتزعوا العين والباء من كلمة عبد ، والشين والميم من كلمة شمس ، ثم أضافوا الى عبشم ياء النسبة المشددة .

وقد تعتل عين الجزء الثاني من فعلل ، فيتجاوزون عنها الى اللام ، كما في عَبْقَسِيّ من عبد القيس فقد تجاوزوا عن ياء قيس الى سينها .

إلا أننا وجدناهم يشذون عن هذه القاعدة في مثل قولهم دربخي في النسب الى دار البطيخ . فمن مقتضى القاعدة أن يقال دربطي .

وكذلك في النسب الى سوق مازن فقد قالوا سقزني حاذفين فاء الكلمة الثانية أي ميم مازن .

أما موضوع ترتيب الحروف في النحت فقد اختلفت فيه آراؤهم . فعند ابن فارس يقال حَوْقَلَ ، بتقديم قاف حولق على لامها ، مثلما يقال جعفلة باللام ، بدلاً من الدال ، في جعفدة المنحوتة من جعلت فداك . وعَدَّ ابن فارس ذلك تفنناً ؛ ولكن ابن دحية قد خطّأه في الجعفلة هذه ، وقال إن الحوقلة هي مشية الرجل الضعيف لا منحوت «لا حول ولا قوة إلا بالله» .

وذكر الخفاجي في شفاء الغليل الطبلقة بتقديم الباء على اللام في الطلبقة المنحوتة من « أطال الله بقاءك » ، فخطأه بعض العلماء ذاكرين أنه لا بد من ترتيب الحروف في المنحوت ، على حسب ترتيبها في المنحوت منه .

ورأيناهم ، بعد هذا الخلاف ، يتجاوزون في بعض المنحوتات من الجمل عن جميع حروف بعض الكلام ، مثل كلمة دَمْعَز التي ألمعت اليها فليس فيها حرف من حروف لفظ الجلالة .

والخلاصة أن هنالك قاعدة وُضعت للنحت ، ولكن ما شذّ عنها كثير .

وعد القدماء النحت سماعياً ، فلم يجيزوه ، وذكر بعض المتأخرين أن ابن فارس قال بقياسيته في فقه اللغة ، والحقيقة أن ابن فارس لم يصرح بقياسية النحت ، بل ادعى أن الكثير مما زاد على ثلاثة أحرف منحوت ، والكثرة تجيز القول بالقياسية .

النحت في المصطلحات العلمية الحديثة . — كان مجمع اللغة العربية في القاهرة ألّف في سنة ١٩٤٧ ، لجنة من بعض أعضائه ، تنظر في موضوع النحت ؛ فوضع العلامة الشيخ إبراهيم حمروش مقرر اللجنة بحثاً ماتعاً في النحت [١] انتهى فيه الى قوله :

« ونحن نقول بجواز النحت في العلوم والفنون للحاجة الملحة الى التعبير عن معانيها بألفاظ عربية موجزة » .

وقد أقرت اللجنة هذا البحث . وعندما عُرض في الدورة الرابعة عشرة (١٩٤٧ — ١٩٤٨) على المجمع وافق بعد المناقشة على جواز النحت عندما تلجئ اليه الضرورة العلمية [٢] .

---

(١) نشر في الجزء السابع من مجلة مجمع اللغة العربية « ص ٢٠١ — ٢٠٤ » .
(٢) ج ٧ ص ١٥٨ من مجلة مجمع اللغة العربية .

وليس المهم في بحثي هذا التنبيه الى أن النحت من الألفاظ العلمية أصبح جائزاً لنا ، فكل من يعاني وضع المصطلحات بالعربية يعرف أننا في حاجة الى النحت في بعض الأحايين ، والذي يهم بيانه إنما هو مدى الضرورة العلمية الى النحت ، والشروط التي يجب على الناحت أن يتقيّد بها في وضع المنحوتات العلمية ، وأرى أن البحث عن حدود النحت ومداه يشتمل على كثير من الملاحظات التي ذكرتها في بحثي عن حدود التعريب ومداه [1] .

ففي النحت « كما في التعريب » فريقان من العلماء : فريق يرى أن كلمات « عند الضرورة العلمية » التي جعلها المجمع شرطاً في النحت شيء رخو قابل للمط والتأويل ، ولذلك راح رجال هذا الفريق يكثرون من النحت ، على حسب ما جادت به قرائحهم .

وفريق يرى أن تلك الكلمات قوية في دلالتها ، وأنه يجب مراعاتها بدقة في موضوع النحت ، لذلك تزمّت رجال هذا الفريق ، ولم يستسيغوا الا الندرة من المنحوتات الحديثة .

وبين فريق المتهاونين وفريق المتشددين من العلماء برز فريق ثالث ممن لم يختصوا بعلم من العلوم ، ولم يطلعوا على خصائص لساننا ولم يهضموها ، فراحوا ينحتون على حسب ما توحي به اليهم معرفتهم باللغات الأجنبية وتفكيرهم بها ؛ وإذا بهم يأتوننا بمنحوتات عجيبة لا العلم يحوجنا اليها ، ولا الذوق العربي يستسيغها .

ولا بد لكل من يكلف نفسه مشقة النحت ، في نقل العلوم الحديثة الى العربية ، من أن يكون متحلياً بصفتين : الأولى إدراك مدى الحاجة الى منحوت عربي يقابل الكلمة الأعجمية ؛ والثاني التحسس بما يوافق الذوق العربي ولا ينفر منه السمع .

---

(١) نشر هذا البحث في عدد تموز سنة ١٩٥٦ ص ٥٠٩ - ٥١٢ من مجلة المجمع العلمي العربي .

منحوتات لا حاجة اليها . — من الأدلة على جهل مدى الحاجة الى النحت ما أقدم عليه مؤلف معجم إنكليزي عربي من نحت كلمات سقيمة تدل على أسماء شعب وطوائف ورتب من الحيوان ، على حين أن هذه الأسماء في علم الحيوان وعلم النبات لا حاجة فيها الى النحت .

وهاكم نماذج قليلة من هذه المنحوتات العجيبة :

في رتب الحشرات :

اللفظ المنحوت	اللفظ الفرنسي	اللفظ الصحيح
غمجناحيات (من غمد وجنـــاح)	Coléoptères	غِمْدِيّات الأجنحة
غشجناحيات (من غشاء وجناح)	Hyménoptères	غِشائيّات الأجنحة
مسجناحيات (من مستقيم وجناح)	Orthoptères	مُسْتَقيمات الأجنحة
عصجناحيات (من عصب وجناح)	Névroptères	عَصَبِيّات الأجنحة

الخ

وفي السمك :

الشَوْجَنِيّات (من شوك وجناح)	Acantoptérygiens	شائكات الزَّعانف (لا الأجنحة)
الدَّوْفَمِيات (من دائر وفم)	Cyclostomes	حَلَقِيّات الأفواه
اللَّعْنفِيّات (من لين وزعنفة)	Malacoptérigiens	لَيِّنات الزعانف

وفي الرخويات :

البَطْنَجليّات (من بطن ورجل)	Gastéropodes	مَعِديّات الا رجل

وفي الأوالي :

الجَذرِجْليات (من جذر ورجل)	Rhizopodes	جَذْريات الأقدام «أو الأرجل»

الى آخر أمثال هذه المنحوتات العربية التي لا حاجة اليها البتة في علوم المواليد ، وفيها فوق ذلك ضرر بارز للعيان : ذلك بأن الأوربيين عندما ينحتون كلمة علمية واحدة من كلمتين يونانيتين ، كالكلمات الفرنسية المذكورة ، يهتمون بجعل

الكلمة المنحوتة مفهومة على قدر المستطاع ؛ ثم إن الطالب الفرنسي يتعلم مبادئ اليونانية واللاتينية ، وهو يعرف معاني الزوائد اليونانية ، من صدور وكواسع ، التي تضاف الى الكلمة الأصلية فتتألف منها الكلمة الفرنسية المنحوتة . فأنت اذا قلت للطالب الفرنسي إن هذه الحشرة من رتبة الـ Orthoptères مثلاً فهو يدرك على الفور أن حشرات هذه الرتبة لها أجنحة مستقيمة ، لأنه يكون قد درس في علم اشتقاق الألفاظ الفرنسية أن Ortho من Orthos اليونانية أي مستقيم ، وأن Ptère من Pteron أي جناح .

ولكنك اذا ترجمت ناحتاً فقلت للطالب العربي مسجناحيات فهو لا يفهم الا النصف الثاني من هذه الكلمة المنحوتة ، لأنك تركت كلمة جناح على حالها فلم تنزع من حروفها حرفين فقط ، وهما الجيم والنون ، على مقتضى القاعدة . ولو فعلت ذلك لأصبحت المنحوتة مسجنيات ، ولاستغلق المعنى فيها تماماً ، مثلما استغلق في الشوجنيات واللعنفيات والبطجليات وأشباه هذه الرطانات المستقبحة .

ولو ذكرتَ للطالب العربي الترجمة الصحيحة بكلمتين فقلت مستقيمات الأجنحة وشائكات الزعانف ولينات الزعانف الخ ، لفهم معانيها من دون حاجة الى الشرح ، ومتى احتاج الأمر الى بيان أوجه نحت المنحوتات ضاع معظم فوائدها .

ويتبين من هذه الأمثال أن الأسماء الأعجمية الدالة على الشعب والطوائف والرتب في الحيوان والنبات يجب ترجمتها بمعانيها ، سواء أُعبر عن الاسم الأعجمي الواحد بكلمة عربية واحدة ، أم بكلمتين ، أم بأكثر . واللجوء الى النحت في هذا الباب لا فائدة فيه ، ولا حاجة اليه ، أما ضرره فواضح .

ومن الطبيعي أن كلامي هذا لا يشمل علوماً أخرى قد يفيد النحت فيها . ولا بد في جميع الحالات الملجئة الى النحت من إدراك واسع لمدى الحاجة اليه ، ومن تذوّق صحيح لخصائص العربية وبيانها .

وموضوع الذوق في النحت لا يحتاج الى شرح طويل ، فمجمع اللغة العربية في القاهرة كان أجاز مثلاً ، في لغة العلم ، استعمال (لا) مركبةً مع الاسم المفرد (في مثل لا تُوَيجيّ Apétale ، ولا ثمريّ Acarpe ، ولا ساقي Acaule ، ولا مائي Anhydre الخ .) ، ولكنه اشترط أن يوافق هذا الاستعمال الذوق ، وأن لا ينفر منه السمع[1] .

داء النحت . — لقد أصبح النحت داءً عند بعض أساتيذنا ، حتى عند بعض علمائنا ، وكثير منهم يدعون اليه ذاهبين الى أنه من أكبر الوسائل المفضية الى نمو اللغة العربية وتقدمها ، والحقيقة أنه أداة صغيرة الأثر ، اذا قيست بالأدوات السائرة من اشتقاق وتضمين وتعريب ؛ وكأني بالمتساهلين من أنصار النحت لا يبالون بأن تفضي آراؤهم الى خلق لغة نبطية جديدة تحل محل اللسان العربي المبين ، ولذلك وجدنا بعضهم يضربون بقواعد العربية عرض الحائط فيقول أحدهم مثلاً الغُدّيعَضَلي والشبهغدي بدلاً من الغدي العضلي ، وشبه الغدي . ويقول الألفيوَرَقي بدلاً من ألفيّ الورق أو ذي ألف ورقة . وأشباه هذه الغرائب كثيرة في أحد القواميس الأعجمية العربية .

ولا أدري لماذا يخشى بعض الأساتذة استعمال كلمتين عربيتين مقابل كلمة أعجمية واحدة ؟ ففي لغتنا ألوف من الكلمات لا يستطيع الأعاجم نقل الكلمة الواحدة منها الى لغاتهم الا بكلمتين أو أكثر ، ومع هذا لم يهمهم هذا النقص ، ولم يجدوا فيه عاراً عليهم ، ولم يعملوا على تلافيه .

وها كم أمثلة تمثلتُ بها في كتاب « المصطلحات العلمية في اللغة العربية » حيث قلت :

« إذا راجعت مثلاً مادة (Robes et Particularités) في معجمي[2] ،

---

(١) الجزء السادس من مجلة مجمع اللغة العربية ص ١٧٢ .

(٢) معجم الألفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية

وهي الألوان والشيات ، تجد أن لكل شية في الخيل اسماً عربياً مؤلفاً من كلمة واحدة ، يقابلها بالفرنسية كلمتان أو ثلاث كلمات ، ومنها الشيات الآتية :

أَغَرّ	Marqué en tête	الفرس الذي له غُرّة أي بياض في الجبهة
سائِلَة	Liste en tête	الغرة التي تسيل على قصبة الأنف وتعرض في الجبهة
شِمْراخ	Petite liste	الغرة التي دقّت على قصبة الأنف ولم تبلغ الجحفلة
يَعْسوب	Liste incomplète	اذا سال البياض على قصبة الأنف دون أن يبلغ العينين
خاتَم	Principe de balzanes	أقل التحجيل ، وهي شُميرات بيض في قوائم الفرس
إنعال	Trace de balzanes	عندما يكون البياض واضحا
تَخْديم	Petite balzane	عندما يجاوز البياضُ الأرساغ
تَجْبيب	Grande balzane	عندما يصعد البياض في القوائم ولا يبلغ الركبتين أو العرقوبين .
تَسَرْوُل	Blzane haut - chaussée	اذا بلغ التجبيب الركبتين او العرقوبين فالفرس مُسَرْوَل

« ونحن نقول (حديدة) وهي كلمة واحدة ، والفرنسيون يقولون (Un morceau de fer) وهي أربع كلمات ، ونقول (مَشَى) في كلمة ، ويقول الفرنسي (il a marhé) في ثلاث كلمات ، وهل كلمتنا (تَعَدُّد الخلايا) أطول ، أم الكلمة الفرنسية الواحدة وهي (Multicellularité) ؟ »

ومن الواضح أن لكل لغة قوالبها وأساليبها ، وأن العربية لغة اختزال ، فلا يضيرها التعبير عن معنى من المعاني العلمية بأكثر من كلمة ، بل يضيرها ويشوهها أن يُضَمّ اليها عدد كبير من المنحوتات الثقيلة الغامضة من غير معرفة بمدى الحاجة الى تلك المنحوتات ، أو من غير تقدير صحيح لذلك المدى .

وأهم ما يحتج له أنصار الإكثار من النحت كون النسبة الى الكلمة الواحدة

المنحوتة تكون ميسورة ، خلافاً للنسبة الى المركّب الإضافي ؛ ولكن ماذا يجبرنا على ترجمة النسبة بالنسبة اذا تعذرت ؟ فالترجمة لا تكون دائماً ترجمة صيغة بصيغة ، ولا حرف بحرف ، بل تكون بأخذ المعنى وبإفراغه في قوالب اللغة العربية .

فقد اقترح أحد العلماء مثلاً نحت كلمة قَبْتاريخ من كلمتي قبل التاريخ لجعلها أمام Préhistoire ، وعلى هـذا يقال في سهولة قبتاريخي مقابل Préhistorique . ولكن ما هو مبلغ حاجتنا الى هذا النحت ، والى صيغة النسبة في الكلمة الثانية ؟ ولماذا لا نحافظ على أسلوب لغتنا فنقول قبل التاريخ ، كما نقول آثار ما قبل التاريخ ، وزمن ما قبل التاريخ بدلاً من الآثار القبتاريخية والزمن القبتاريخي ؟ وما هو مبلغ الضرر في أن يكون عدد الكلمات في هذه الإضافة أكثر منه في النسبة ؟

ومن المقترحات النحت من ظروف الزمان وظروف المكان لكي تسهل النسبة الى المنحوت ، فيقال مثلاً :

خامَدْرَسي (من خارج ومدرسة) Extrascolaire

فَوْسَوِي (من فوق وسويّ) Surnormal

تَحْشُعوري (من تحت وشعور) Subconsient

قَبْلُوغي (من قبل وبلوغ) Prépubère

الخ .

وواضح أنه من الصعب جداً قبول هذه المنحوتات وأشباهها ، وأننا لسنا ، على ما قلت ، في حاجة الى ترجمة النسبة بالنسبة ، وفي وسعنا ترجمتها بالإضافة فنقول خارج المدرسة وفوق السَّوِي وتحت الشعور وقبل البلوغ وهكذا . ولا ضرر مطلقاً في ترجمة كل كلمة من هذه الكلمات الفرنسية بكلمتين عربيتين .

ففي وسعك أن تقول التعليم خارج المدرسة بدلاً من التعليم الخامدرسي ، مثلما تقول التعليم بعد المدرسة بدلاً من التعليم الغِبْمَدْرسي (من غب ومدرسة Postscolaire) ، وتقول التربية قبل البلوغ بدلاً من التربية القبلوغية الخ .

وعندما يجعل العالم المختص بأحد العلوم منحوتاته على شكل اقتراح متواضع (كما فعل العالم الذي ألمعت اليه) يكون الخطب يسيراً ، ويكون الرجوع الى الصواب ميسورا ؛ أما أن يعمد غير المختص بعلم من العلوم الى وضع معجم أعجمي عربي في جميع العلوم العصرية ، ويحشيه بما يعن على باله من مثل المنحوتات السقيمة التي أشرت اليها في عرض هذا البحث ، فهناك يكون الداء الذي تشق مداواته . فالفرد ، أيا كان ، لا يستطيع معرفة جميع العلوم العصرية ، ولا يدرك مدى الحاجة الى النحت أو الى التعريب في كل علم من تلك العلوم الواسعة . ومما يدعو الى الارتياح أن مجمع اللغة العربية في القاهرة قد سار حتى الآن سيراً حكيماً ومتئداً في موضوع النحت ، فالألفاظ المنحوتة في مجلته قليلة جداً ، ومعظمها في الكيمياء ، والمختصون بهذا العلم يعرفون أنه من أكثر العلوم احتياجاً الى النحت والتعريب جميعا .

مصطفى الشهابي

نفرة إمامين

عن الرواية والقصّـــة

لم يألف الرواية والقصة فريق من أئمة كتّابنا في القرن التاسع عشر وبدء القرن العشرين ، كالشدياق وكردعلي ، فالأول زار « لندن » وشهد فيهـا التمثيل ووصف هذا التمثيل وصفاً يدل على ذوق ، ثم وصف بعض الأنواع الأدبية وسمّاها بأسمائها الافرنجية فقال :

« ثم إن التمثيل عندهم على نوعين ، الأول تمثيل ما يحزن من نحو الحروب وأخذ الثأر ويقال له عندهم : تراجيدي [1] والثاني وهو عكسه ويقال له : كوميدي [2] ، وكلاهما يعدّان من الأدبيات ، غير أنّ النوع الثاني يكثر فيه التوريات والمؤاربات والتجنيس » .

وقد نقد بعض هذا التمثيل ، فنقد طول وقت اللعب فيه ، وانه اني نقد هذا الطول اذ خطر بباله طول الرواية فقال : وهذا كالتزام بعض المؤلفين عندهم لنوع يسمّى : نوفل ، وهو أن يجعلوا الكتاب ثلاثة مجلدات ، فيسفسفون ويدنقون ويأتون بالغث والثمين . » .

وكما نفر الشدياق عن الرواية فقد نفر كردعلي عن القصة وهذا رأيه فيها : «أردت غير مرّة على أن أشارك في القصة ، أكتب فيها أو أنقد ، فما طابت نفسي للدخول في موضوع لم يأخذ منها ، وليس لي يد في القصص التي نشرتها

---

(١) أطلق على هذا النوع بعد ذلك اسم : المحزنات .
(٢) أطلق على هذا النوع بعد ذلك اسم : المضحكات .

أوّل أمري لأنها مترجمة ، وأكبر داعٍ الى عدم عنايتي بالقصة اعتقادي أنها مختلقة » .

هذان رأيان صريحان في زهد كاتبين من كبار كتّاب النهضة الحديثة في الرواية والقصّة ، على أنه كاد هذان النوعان الأدبيان يحلاّن أرفع محل في أدبنا .

أمّا نقد الشدياق لطول الرواية الانكليزية فقد كان على حقٍ فيه لأن الرواية الانجليزية في أيامه كانت طويلة ، فهي ضعف الرواية الفرنسية ، وأمّا نقد كرد علي للاختلاق في القصّة ففيه بعض النظر .

وقد يطول بي الكلام على الرواية واتساعها لموضوعات شتى ، للتاريخ ودراسة الأهواء ووصف الأخلاق وتحليل العواطف واتساعها للطبيعة وواقع الحياة والمذهب الطبيعي والمثل الأعلى كما يطول بي الكلام على القصّة ، على أن موضوعات القصّة ليس من الضروري أن تكون مختلقة ، فقد يكون الموضوع مرّة حادثة من الحوادث تستنبط من واقع الحياة فيجهد القاصّ في التفتيش عن أصولها وفي تصوّر عواقبها ثم في التفتيش عن تأثير هذه الحادثة في رجال آخرين وفي بعض الأوقات في المجتمع نفسه وقد يكون الموضوع مرةً قانوناً من القوانين أو عادةً من العادات أو حالة من الحالات فيجتهد القاصّ في تصوّر ما يمكن أن يعمله هذا القانون أو هذه العادة أو هذه الحالة في أشخاص يخترعهم ذهنه اختراعاً ، وعلى كل حال الاختلاق بمعناه اللغوي ليس من خصائص القصّة وطبائعها ، فالافتراء شيء وتصوّر أمرٍ ممكن الوقوع شيء آخر ، فأصحاب الروايات لا يخترعون أبطالاً فوق الواقع أو خارج الواقع ولكنهم يضعون أبطالهم في هذا الواقع .

وكيف كان الأمر فالظاهر أن بعض الأدباء يميلون في هذا العصر الى أن يجمع المؤلف وثائق شخصية انسانية يعرضها على القرّاء ، فهم قد أخذوا يفضّلون المذكرات على الروايات .

ولم يعن أدبنا في قديم الدهر بالرواية والقصّة العناية كلها ولا ألف هذين

النوعين الألفة كلّها واني أعتقد أن أدبنا كان أدب تركيب لا أدب تحليل ، فاذا رجعنا الى طائفة من كتبه كالعقد الفريد أو كالبيان والتبيين فانّا نجد في أكثر هذه الكتب عبارات وجيزة ، كثيفة في معانيها ، مختصرة في مبانيها تكاد تشتمل على موضوع رواية في هذا العصر ، من هذه العبارات ما ينسب الى عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه : ما تزيّد متزيّد إلاّ لنقص في نفسه ، ولست مستوثقاً كل الاستيثاق من ألفاظ هذه العبارة ولكن هذا هو معناها ، فهذه العبارة قد تكون في عصرنا موضوع رواية من الروايات الفلسفية ، فاذا أراد كاتب روائي شرحها في رواية استطاع أن يبين لنا ما يسمّونه في الفلسفة : مركّب النقص ، أمّا العرب فان أذواقهم تنفر عن مثل هذا الشرح وهذا التطويل ، فقد تغنيهم الإشارة أو اللمح عن كل ذلك وقد أعربوا عن هذا الغناء في كثير من مواضع كتبهم الأدبية ، وليس معنى هذا أن أدبنا يخلو من التحليل فانّا اذا رجعنا الى بعضه وجدنا فيه من التحليل المبني على التجربة والعيان ما يدهش العقل ، من ذلك تحليل الجاحظ للحسد في بعض رسائله ، فقد فطن الى دقائق من الحسد لا يكاد يفطن اليها الاّ الراسخون في علم النفس ، وكما لم يخلُ هذا الأدب من التحليل فكذلك لم يخلُ من القصص ، ومع هذا كله فالتركيب غالب على أدبنا أكثر من التحليل .

إلاّ أنّ الذي أعجب منه بعد هذه المقدمة وبعد هذا الاستطراد نفرة الشدياق عن الرواية وقد اجتمعت له خصائصها وأسرارها ، فالروايات في معظم الأحوال تشتمل على كثير من الوصف والتصوير اشتمالها على تحليل فكر من الأفكار أو مذهب من المذاهب ، فهي لا تستغني عن الوصف ولا عن التصوير ، واذا قرأنا رواية لكاتب راسخ في فنّ الروايات فان أوّل ما يبلغ منّا من هذه الرواية انما هو الوصف والتصوير .

لقد وصف الشدياق في كتبه أموراً كثيرة وصوّر أموراً كثيرة ، لقد وصف الشوارع والآثار والأبنية والمآكل والثياب والسحن والأخلاق والحياة

الاجتماعية ووصف الفنون الرفيعة كالموسيقى والتمثيل ووصف بعض مخترعات عصره كالبرق وسمّاه في رحلته باسمه الافرنجي : التلغراف وفي هذا الوصف كله ظهرت شخصيته وظهرت عبقريته فان له قدرة على الوصف غريبة ، فعينه شديدة البصر وأنفه شديد الشمّ وأذنه شديدة السمع ولسانه شديد الذوق .

نجد في بعض وصفه لعادات أهل مالطة وأحوالهم وأخلاقهم وأطوارهم وصفاً بسيطاً مجرّداً من كل زينة الاّ أن ألفاظه وحدها كافية أن ترينا الأشياء الموصوفة بسبب الصلة القوية بين الاسم والمسمّى ، بين اللفظ ومعناه كما نجده يميل في وصفه الى بعض ألفاظ العامة المتعلقة بالثياب كالبرنيطة والطربوش والصدرية والكفوف ، وشأنه في هذه المسامحة في اللغة شأن أكابر الكتّاب في القديم كالجاحظ الذي نرى في بعض كتاباته ألفاظ العامة لقوة تأثيرها في الأذهان .

وكما قدر الشدياق على الوصف فقد قدر على التصوير فصوّر فضول أهل مالطة وتلهيهم بالإسفاف من القول والعمل تصويراً يطول الكلام على خصائصه وعلى خصائص جمله ، فمرّة تكون هذه الجمل سريعة ومرّة تكون بطيئة وأريد بالسرعة في هذا المقام تصوير الكاتب لفكرته دون التعريج على التفاصيل والدقة غالبة على الأسلوبين ، أسلوب الوصف وأسلوب التصوير .

وكما عجبت من نفرة الشدياق عن الرواية وقد تهيّأت له أسباب فنها فكذلك عجبت من نفرة كرد علي عن القصّة وقد اجتمعت له بعض أسبابها ، لقد روى في مذكراته قصّة : قاضي دومة ، وهي وان كانت بضعة سطور إلاّ أنّا نجد لها عرضاً وعقدة وخاتمة وقد عرضت حوادثها في أوضح معرض وتسلسلت تسلسلاً منطقياً زاد في وضوحها واشتبكت فيها الحوادث اشتباكاً أخّاذاً ، وأسلوب هذه القصة واضح فكل لفظ مناسب لمعناه وفي بعض القصّة حوار ولا شك في أن الحوار ينفخ في القصّة روحاً وحياةً .

فلماذا نفر هذان الكاتبان الإمامان عن الرواية والقصّة ولم تغب عنهما أسرار فنّهما .

شفيق جبري

ثقافة الأطباء عند العرب

- ٢ -

ولما تأسست دار الحكمة في أيام المأمون وانتظم أمر التأليف والترجمة واستكمل جمع الكتب من كل أنحاء العالم ، واتسع نطاق النشر والتعليم أيام جعفر ، والرشيد ، والمأمون ، والمعتصم ، واستوفى العرب حظهم من التحصيل والمعرفة والاطلاع ، انتقلوا الى دور التعمق والتجربة والاستقراء والكشف والاختراع والتأليف وانشاء المعاهد والمشافي ، وساعدهم عليه ظمؤهم الى العلم وتحصيله ، واهتمام الملوك والسلاطين والأمراء والوزراء وأصحاب الغنى به وبالعلماء ، وبذل هؤلاء الأموال لاستكمال ما كانوا يريدونه هم ويريده الأطباء والعلماء . ولم يقتصر الاهتمام على الطب بل تناول الفلسفة ، والفلك ، والرياضيات ، والجغرافيا ، والقياسات والرصد ، والكيمياء ، عدا اهتمامهم ومساعداتهم وبذلهم الهبات والعطايا بسخاء وكرم للشعراء والأدباء ورجال الدين واطلاقهم الحرية لهم في البحث والقول والعمل .

وفي الحقيقة ان الطبابة لم ترتق وحدها بل ارتقت في هذه العهود المستشفيات والبيمارستانات والمؤسسات والملاجئ الخيرية وانتشرت بكثرة في جميع البلاد الإسلامية : في بغداد والقاهرة ودمشق وحلب ومكة والمدينة وفلسطين ، وفي غرناطة واشبيلية وطليطلة والقيروان .

وفي عهد عبد الرحمن الثالث وولده الحاكم الثاني كانت اسبانيا في جامعاتها ومكتباتها ومدارسها وبيمارستاناتها من أرقى ما وصلت اليه الحضارة العربية ، وكان

من أطبائها وفلاسفتها الذين اشتهروا وأثروا في تقدم العلم والطب ابن رشد ، وابن الطفيل ، وبنو زهر ، وأبو القاسم الزهراوي وغيرهم .

ومما يدل على عناية العرب واهتمامهم بتشييد المعاهد العلمية والبيمارستانات والخانقاهات وترتيب ادارتها وتنظيمها ، ووقف الأموال والايرادات الكثيرة لتجهيزها وادامتها :

أولاً — كثرة عددها وانتشارها في جميع المدن والعواصم الاسلامية .

ثانياً — اهتمام العالم العربي ملوكاً وأفراداً ووزراء وشعباً بتمويلها ووقف المزارع والأملاك والمرافق لدوام عملها وترقية شؤونها .

ثالثاً — تنظيمها وحسن ادارتها وبذل العناية في هندستها وأثاثاتها .

رابعاً — تخصيص أهم الأطباء للتعليم والتدريس والتمريض فيها .

خامساً — فتحها للعامة والخاصة ، للذكور والاناث .

سادساً — تقسيمها الى فروع وجعل كل فرع خاصاً بقسم من الأمراض .

سابعاً — ربط المدارس الطبية والمكتبات والصيدليات بها .

ثامناً — تزويدها بكل ما تحتاج اليه من مؤونة وزاد وغذاء وأدوية وألبسة ومفروشات، وأشربة وأدوات ، ومياه نقية ونور وتهوية ، وأسرّة وأغطية، وجعل وظائف أصحابها من أجلّ الوظائف ورتبهم من أرقى الرتب .

تاسعاً — اعطاء أطبائها وناظريها المرتبات الوفيرة عدا تقديم ما يقوم بكفايتهم من الأرزاق والهبات والجراية وعلوفة الدابة .

عاشراً — جعلها مرجعاً للتجارب ، وتدوين المشاهدات والنتائج ، ومركزاً للتأليف والاكتشاف والاختراع ، ودائرة لامتحان الأطباء والصيادلة واعطاء الاجازات .

وفي كتاب تاريخ البيمارستانات في الاسلام للدكتور أحمد عيسى تفصيل هام وأدلـة وافية وصور عن الوقفيات المتعلقة ببيمارستان المنصوري ، والمعتضد ،

والنوري ، وصور عن المراسيم التي كان يصدرها الملوك لمن يتولى الطبابة والادارة والخدمة فيها ، والكل يؤيد ما قلناه عن عناية العرب ومبلغ اهتمامهم بهما وبايصال النفع العام لرعاياهم .

وكمثال على مقدار العناية والاهتمام يقول الدكتور في صحيفة ٨٦ وفي صفر ٦٨٠ هـ الموافق لعام (١٢٨١) م :

« ولما تكامل البيمارستان (يعني المنصوري) الذي أنشأه الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي بخط بين القصرين (هما القصر الكبير الشرقي الذي بناه جوهر قائد الفاطميين عام ٣٦٠ والقصر الصغير الذي بناه العزيز بالله أبو منصور نزار سنة ٤٥٠ هـ) من القاهرة ، وكان ذرعه (١٠٦٠٠) ذراعا . ركب السلطان وشاهده وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء ، وأخبر بعض من شهد السلطان وشهد عليه أنه استدعى قدحاً من الشراب فشربه ، وقال قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني وأوقفه السلطان على الملك والمملوك ، والكبير والصغير ، والحر والعبد ، والذكر والأنثى ، وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة ، ومن مات جهّز وكفّن ودفن . ورتب الحكماء الطبائعية ، والكحالين ، والجرائحية ، والمجبرين لمعالجة الرّمد والمرضى والمجروحين والمكسورين من الرجال والنساء . ورتب به الفرّاشين والفرّاشات والقومة لخدمة المرضى واصلاح أماكنهم وتنظيفها وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام [1] ، وقرر لهم على ذلك الجامكيات الوافرة ، وعملت الفرش والتخوت والطراريح والأقطاع والمخدات واللحف والملاءات لكل مريض فرش كامل ، وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنة تختص بهم ، فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها ،

(١) كان الأوربيون يجهلون الحمام ، وكانت مشافيهم كالزرايب ينام المريضان منهم في فراش واحد ، وكان غسل الجسم بالماء والصابون غير مستحب في نظر أطبائهم ، وفرش المرضى كانت منتنة من الرائحة القذرة والعرق .

وجعلت قاعة للرّمد ، وقاعة للجرحي ، وقاعة لمن أفرط به الاسهال ، وقاعة للنساء ، ومكان حسن للممرورين[١] من الرجال ومثله النساء ، والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن ، وأفردت أماكن اطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات[٢] والسفوفات ، وعمل المراهم والأدهان ، وتركيب الدرياقات (الترياقات)[٣] وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة ، ومكان يفرّق منه الشراب وغير ذلك مما يحتاج اليه ، ورتب فيه مكان يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ينتفع به الطلبة ، ولم يحصر السلطان أثابه الله هذا المكان المبارك بعده في المرضى يقف عندها المباشر ويمنع عداها ، بل جعله سبيلاً لكل من يصل اليه في سائر الأوقات من غني وفقير ، ولم يقتصر فيه على من يقيم فيه من المرضى بل رتّب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج اليه من الأشربة والأغذية والأدوية حتى ان هؤلاء زادوا في وقت من الأوقات على مائتين غير من هو مقيم بالبيمارستان » .

ولا يقل الاعتناء والاهتمام ببقية البيمارستانات أينما كانت عما تقدم بيانه ، ولكن ظروف الزمن وتبدل الحكام ووقوع البلاد العربية تحت حكم الأعاجم والأجانب من مغول وتاتار وصليبيين وعثمانيين جعلها قفرة ، وأضاع أوقافها ووقفياتها ، وبدل معالمها ، وهدم أقسامها ، وشوّه محاسنها ، وكانت في ذلك الحين صورة حية تنطق عن حضارة العرب وما أسدته للعالم من فضل على العلم والطب وخدمة الإنسان وحفظ الحياة والمجتمع .

واذا كنا في استعراضنا لم نستوف المطلوب لبيان سلسلة التطور الطبي والطبابة ، وكان علينا أن نسهب في ذكر الكتب التي ألّفها العرب والمسائل التي فاقوا بها

(١) الممرور : من تهيجت فيه المرّة أي السوداء فأثرت على عقله .
(٢) الشيافات : هي الفتايل . مفردها شيافة أو فتيلة .
(٣) الترياق : هو المركب الذي يشفي من السم .

من تقدمهم والمكتشفات التي اكتشفوها في أسباب العلل والأمراض ، والأدوية التي اخترعوها لمداواتها ، والآلات الجراحية التي توصلوا الى صنعها للقيام بالعمليات الجراحية ، ومن هم الأطباء الذين غدوا نجوماً في سماء العلم والتعليم يضيئون بنورهم على من كان في زمانهم ومن اتى بعدهم ، وما هي الاختراعات التي وصل اليها العرب في الكيمياء والصيدلة ، والمعالجة ، والتشخيص ، والتحليل وبقية العلوم الطبية وغير الطبية ، فلأن استيفاءها والتفصيل فيما يقتضيه الشرح والتفصيل يحتاج الى مجلدات ويخرجنا عن الموضوع ويبعدنا عن النتيجة التي نريد أن نصل اليها . وخير لنا أن نجيب أخيراً على السؤال الذي سألناه : هل من الضروري أن تتغيَّر أخلاقنا وآدابنا الطبية وتراثنا المهني وصفاتنا الاجتماعية التي اتصف بها أجدادنا الذي رفعوا شأن العلم والطب ؟ فأقول كلا ! لأن المقاييس العلمية والطبية والأخلاقية التي رفعت شأنهم وشأن من تقدمهم وحفظت مكانتهم لا تزال ذات المقاييس في قيمتها وصحتها ولو تبدل الزمن ، وتبدلت مناهج التعليم ، وتضاعفت مواد التدريس وعلا شأن الطب في ساحة المعرفة والاكتشاف والاختراع .

أما أماكن التدريس وكيفية التحصيل وأنواع الكتب التي كانت مواد دراساتهم ومناهج تلك المعاهد فيمكن الوصول الى معرفتها مستخلصين ذلك مما قاله ابن أبي أصيبعة ، والقفطي ، وتاريخ الطب للدكتور أمين أسعد خير الله . فابن أبي أصيبعة يقول : « وكان يلحق بالمستشفيات الكبيرة مدارس للطب ، فكان الطلبة يجتمعون في القاعة الكبرى حيث كانوا يراجعون دروسهم وينسخون المخطوطات الطبية التي راجعها أساتذتهم وأصلحوها لهم ، وكان هؤلاء يلقون عليهم الدروس من مؤلفات جالينوس والرازي وابن الجوسي حتى ظهر قانون ابن سينا [1] الذي كسف التعاليم السابقة . »

(١) هو أهم كتاب طبي عربي جمع ما وصل اليه علم الطب والطبابة حتى زمن الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا ، وبقي مرجعاً للدرس والتدريس لكل من أتى بعده مدة ثمانية قرون في الشرق والغرب .

« ولمشاهدة التطبيقات ونتائج النظريات التي يدرسونها كان الطلبة والمساعدون يفحصون المرضى في العيادة الخارجية ويعرضون الحوادث الصعبة على رئيس العيادة ، وكانت الحوادث المهمة تشرح لهم شرحاً وافياً ويوصف لها العلاج اللازم » .

ويصف لنا في كتابه (عيون الأنباء) كيف كان يتلقى هو الطب ، وكيف كانت الأساتذة يلقون دروسهم ويمرنون طلابهم ، قال : « ولما أقام الشيخ مهذب الدين[1] بدمشق شرع في تدريس صناعة الطب واجتمع اليه خلق كثير من أعيان الأطباء وغيرهم يقرأون عليه وأقمت أنا بدمشق لأجل القراءة عليه ، وقبلها كنت أشتغل عليه في المعسكر لما كان أبي والحكيم مهذب الدين في خدمة السلطان الكبير ـ يريد به الملك العادل نور الدين منشئ البيمارستان الكبير في دمشق ـ فبقيت أتردد اليه مع الجماعة ، وشرعت في قراءة كتب جالينوس وغيرها . وكان خبيراً بكل ما يقرأ عليه من الكتب ، وكان طلق اللسان ، حسن التأدية للمعاني ، ثم لازمته أيضاً في وقت معالجته للمرضى في البيمارستان وتدربت معه في ذلك وباشرت أعمال الصنعة . وكان في ذلك الزمن في البيمارستان الشيخ رضي الدين الرحبي وهو من أكبر الأطباء سناً وأعظمهم قدراً وأشهرهم ذكرا فكان يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي الى البيمارستان ويستوصف منه للمرضى أوراقاً يعتمدون عليها ويأخذون من البيمارستان الأشربة والأدوية التي يصفها ، فكنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران

(١) الشيخ مهذب الدين : هو أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار ، انتهت اليه رياسة صناعة الطب ومعرفتها . مولده في دمشق وكان أبوه علي بن حامد كحالاً مشهوراً ثم أخوه حامد بن علي . وجد له مائة مجلد وأكثر بخطه بالطب وغيره من العلوم . خدم الملك العادل أبا بكر بن أيوب بصناعة الطب ، وترأس البيمارستان النوري (نور الدين محمود بن زنكي) ثم في عام ٦٠٤ أصبح طبيب الملك العادل وطبيب المعسكر وكان يتناول مائة دينار كل شهر ورواتب مثلها ، وتولى رئاسة أطباء مصر أيضاً .

من معالجة المقيمين بالبيمارستان وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض وجملة ما يصفه للمرضى وما يكتب لهم وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها » ·

ومما سبق يتضح أنه عدا المحاضرات التي كانت تعطى للطلبة على المرضى كانت تكتب التعليمات اللازمة (الوصفات) وتنفذ بدقة وتدوّن الملاحظات عن كل مريض متتبعة سير المرض · وقد قيل ان الرازي بنى كتابه (الحاوي) على هذه الملاحظات · وكان للأطباء الحرية بالتجربة للأدوية الجديدة التي كانت تدوّن معلوماتها في كتاب خاص تنشر تحت عنوان (المجرّبات) ·

ولم تكن مدارس الطب تابعة للمستشفيات دائماً ، فقد كان هنالك مدارس خاصة ، فالطبيب الغني والمشهور مهذب الدين الدخوار المار ذكره سابقا والذي مات بلا عقب أوقف منزله بدمشق ليكون مدرسة للطب ووقف عليها الممتلكات والقرى ليقوم ايرادها بنفقات المستشفى ·

ويقول ابن أبي أصيبعه : « ولم يكن يصرح لأحد بتعاطي الطبابة إلاّ بعد فحص قانوني · وقد بلغ الخليفة العباسي المقتدر بالله في عام ٩٤٩ أن أحد الأطباء في بغداد أخطأ علاج مريض وتوفي المريض بسبب الخطأ ، فأصدر أمره بفحص جميع الأطباء (ما عدا الأطباء القائمين بخدمته) قبل التصريح لهم بتعاطي الطب وكان عددهم في بغداد وحدها (٨٦٠) طبيباً عدا أطباء الخليفة ·

وكان أطباء المستشفيات يختارون بعناية خاصة دقيقة ، فالرازي انتخب لرئاسة المستشفى العضدي في بغداد من بين مائة طبيب · ويقال ان عضد الدولة لما بنى البيمارستان العضدي قصد أن يكون فيه جماعة من أفاضل الأطباء وأعيانهم فأمر أن يحضروا له ذكر المشهورين ببغداد وأعمالها ، فكانوا متوافرين على المائة فاختار منهم خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم في صناعة الطب ، فكان الرازي منهم · ثم انه اقتصر من هؤلاء أيضاً على عشرة فكان الرازي

منهم ، ثم اختار من العشرة ثلاثة فكان الرازي أحدهم ، ثم ميز بينهم فبان له أن الرازي أفضلهم فجعله (ساعور) البيمارستان العضدي و (الساعور) معناه (عميد الأطباء والمشرف على المستشفى) . وكانت المستشفيات الإسلامية أشهرها المستشفى العضدي في بغداد ، والمستشفى المنصوري في القاهرة ، والمستشفى النوري في دمشق . وكان يوجد غيرها في مختلف العواصم العربية بما يزيد عن ثلاثين مستشفى لم تصل الى ما وصلت اليه من الرقي والروعة والكثرة وضخامة البناء ، واتقان الهندسة ، وحسن الادارة ، ، ووفرة الأطباء إلا بعد أن استكمل العرب نهضتهم ونضوج معارفهم واتساع علمهم » .

ونحن مهما ذكرنا عن فضل العرب في انقاذ الطب والعلوم القديمة المتصلة به من الضياع ، ومهما قلنا عن ترتيبها والاضافة اليها وتسليمها الى أوروبا منسقة واضحة فيكفي أن ننقل ما قاله (لمستون) وغيره عن ذلك كبرهان على صحة قولنا .

يقول (لمستون) : « ان لم يكن للعرب من فضل غير هذا لكفاهم فخرا » .

ويقول الدكتور أمين خير الله : « ولو فرضنا أن العرب لم يضيفوا شيئاً الى معلومات القدماء فمن الأهمية بمكان أنهم أنقذوا تعاليم أبقراط وجالينوس وحفظوها للعلم والانسانية . والواقع أنهم لم يكتفوا بانقاذها فحسب بل أضافوا اليها أشياء كثيرة وقاموا بنقل العلوم اليونانية والهندية والفارسية وعلوم باقي البلدان المتحضرة في زمانهم ، ووعوا وتفهموا المنطق والفلسفة والفلك والهندسة ، والتاريخ ، والآداب ، والموسيقى ، والكيمياء ، والزراعة ، والبناء والعمران ، وتفهموا جميع هذه العلوم وأضافوا اليها دروسهم واختباراتهم وأنشأوا مدنية عربية صحيحة وأعطوها الى العالم » .

ثم يقول : « واذا عدنا الى الماضي القريب لنتفقد عصر التمدن الإسلامي وزهوه في الغرب والشرق نجد أنه من أكبر الأسباب في نهضة أوروبا ، فالمذاهب العلمية فيها وليدة الثقافة والعلوم العربية ، ونهضتها نتيجة تعاليم ابن سينا

والرازي والمجوسي وابن زهر والزهراوي في الطب ، والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي وابن طفيل وابن العربي في الفلسفة ، والطوسي وعمر الخيام وابن يونس والمجريطي والبيروني والخوارزمي في الفلك والحساب ، وابن الهيثم وابن الكندي وابن الصلت في الطبيعيات ، وابن البيطار وابن الصوري وابن وحشية في النبات ، وابن حيان والرازي والزهراوي في الكيمياء .

وللعرب يعود الفضل في رفع مقام الطب وفي اقامة المستشفيات الراقية وفي انشاء وتوسيع الصيدلة ، وجعل الجراحة قسماً منفصلاً عن الطبابه ، وفي التصريح الشرعي لممارسة الطب والصيدلة ، وكان لهم الحظ الأوفر في توضيح المذاهب الفلسفية وحفظها للذرية ، وفي فصل العلم عن الدين ومحاولة التوفيق بين الاعتقاد والبرهان ، وهم الذين أعطوا الروح العلميـة الصحيحة للغرب ، وكانت سبباً لايجاد طريقة (باكسون) العلمية ، وعلّموا العلماء البحث عن أسباب الأشياء ذاهبين من المعلوم الى المجهول ، فلا يقطعوا حقيقة أمر إلاّ بعد التثبت من صحته بالتجربة المكررة أو بالملاحظة الدقيقة . وكانت الكيمياء عند العرب كيمياء تجربة ، فالرازي عرف خواص الزئبق بتجربة استعماله على القرود ، وماسويه شرّح قرداً كبيراً وكتب كتاباً عما وجده ، وكانوا اذا لم توصلهم الملاحظة الى الغاية المطلوبة يلجأون الى طريقة المنطق والتحليل وبها اكتشف ابن نفيس الدورة الدموية الرئوية ، واكتشف ابن الخطيب العدوي في الوافدات . وقبل أن يبدأ باراسلوس اصلاحه الطبي في أوروبا كان العرب قد أدخلوا المنطق والبحث الطبي العلمي وخالفوا التعاليم التى لا تنطبق على منطقهم واختبارهم مهما كان مصدرها » .

وكما استقبل (سقراط) الموت في سبيل عقيدته وعلمه كذلك ثلاثة من أطباء العرب المشهورين استقبلوا الموت بهدوء وشجاعة ، فابن سينا رفض أن

يتعاطى الدواء وباع كل ما يملكه ووزع ثمنه على الفقراء ، وانقطع الى العبادة وكان يتلو القرآن مرة كل ثلاثة أيام . والرازي رفض أن يعالج مقلتيه بعد أن أضنى بصره في التجارب والبحث والكتابة قائلاً بأنه قد رأى من العالم ما يكفيه . وابن زهر رفض أي اسعاف وقال لولده الذي كان يقوم بخدمته أنه اكتفى من الحياة .

وبعد هذا ما هي الكتب التي كانوا يدرسونها ؟ هل هي كتب الترجمة فحسب أم كتب أخرى ألفها العرب ؟

من يدقق فيما قدمناه من الاستعراض يتبين له أن طلاب الطب في المستشفيات والمعاهد العلمية كانوا يدرسون أولاً الكتب الأدبية ، ثم الكتب الدينية ، ثم الكتب الطبيعية ، ثم الكتب الرياضية والفلسفية ، ثم ينتقلون الى الكتب الطبية . وكان الطلاب يتبعون سيرة أساتذتهم الذين يلازمونهم في جميع مراحل الدراسة حتى إذا أتموها ووثقوا من أنفسهم في بلوغ الغاية ، ووثق أساتذتهم من كفايتهم وأخلاقهم وعلمهم تقدموا للامتحان وأخذ الإجازة في البيمارستانات الشهيرة بعد نجاحهم .

أما الكتب فكانت حتى أيام ابن سينا المجموعة المترجمة عن أبقراط وجالينوس وديوسقوريدس[1] ، وقد أتينا على ذكرها ، ثم ما ألفه الأطباء الذين أتى بهم جعفر المنصور والرشيد والمأمون ومعظمهم من السريان النسطوريين ومن الصابئة كجورجيس بن بختيشوع وجبرائيل أخيه وعبد الله بن جبرائيل ، وبختيشوع ابن حنا ، وحنين بن اسحاق ، وحبيش الأعسم ، والكندي ، واسحاق بن

(١) ويحيى النحوي ، وقسطا بن لوقا . اما الكتب فقد ذكرناها وهي لأبقراط وجالينوس وعددها (١٦) كتابا كان يقرأها المتطببون على الولاء ، وهناك كتب أخرى هي من ترجمة حبيش وديسقوريدس واصله من عين (زربى) من أعمال حلب ويقال له السائح في البلاد .

حنين ، وثابت بن قره ، وسنان بن ثابت ، وأبو بشر بن متى ، ويوحنا بن ماسويه . وقد تبين أن معظم الكتب المترجمة كانت بين عام (٧٥٠—٨٥٠) بعد الميلاد .

ومن هذه الكتب المترجمة التي ذكرها ابن النديم في فهرسته وابن أبي أصيبعة في تاريخه طبقات الأطباء : (٤٦ كتاباً طبياً ليوحنا بن ماسويه ، و ٨٤ كتاباً ورسالة طبية لحنين بن اسحاق وهي لابقراط وجالينوس عدا ما ترجمه من غير الكتب الطبية ، ولقسطا بن لوقا البعلبكي ٣٢ كتاباً في الطب و ٢٩ كتاباً في الفلك والمنطق والرياضيات والفلسفة ، وللكندي ٣٢ كتاباً طبياً ، ولثابت بن قرة ٤٥ كتاباً) .

وأما التي ألفت فهي شروح ، أو اختصارات ، أو تعليقات ، أو زيادات على ما ترجم ، ولكن عندما ظهر أبو بكر محمد بن زكريا الرازي عام ٣٢٠ — ٣٦٤ هجري بدأ العرب في اثبات كفايتهم وتدوين ثمار اختباراتهم وتأليف كتبهم الطبية بعد نضوج تحقيقاتهم وتجاربهم وتحرياتهم ، وبذلك يكون الطب والطبابة قد انتقلا من المرحلة القديمة إلى المرحلة الجديدة في تاريخ النهضة العربية والثقافة العلمية الطبية ، مرحلة الاكتشاف ، والاختراع ، والتقرير عن التجارب ، والتأليف .

والرازي طبيب المسلمين غير مدافع ، مسلم النحلة ، مشهور في علم المنطق والهندسة ، كان في ابتداء أمره يضرب بالعود ثم تركه وأقبل على تعلم الفلسفة فنال منها كثيراً ، وألف كتباً كثيرة أكثرها في صناعة الطب ، وسائرها في ضروب من المعارف الالهية والطبيعية . وكان طبيب المارستان في الري ، ثم طبيب المارستان في بغداد ، بقي فيه طويلا ، وكان بينه وبين منصور بن اسماعيل

صداقة وله ألف كتابه « المنصوري »[1] ثم في آخر عمره عمي بماء نزل على عينيه ولم يسمح بقدحها ، وكان في دولة المكتفي وفي بعض زمن المقتدر . والرازي من حيث وصفه وسيرته بقول أحد عارفيه محمد بن الحسن الورّاق : « كان شيخاً كبير الرأس ، مسفطا ، وكان يجلس في مجلسه ودونه تلاميذه ودونهم تلاميذ أخر ، وكان يجيء الرجل فيصف ما يجد لأول من تلقاه فان كان عندهم علم والا تعداهم الى غيرهم ، فاذا أصابوا والا تكلّم الرازي في ذلك وكان كريماً متفضلاً باراً بالناس ، حسن الرأفة بالفقراء والاعلاء ، حتى كان يجري عليهم الجرايات الواسعة ويمرضهم ، وكان لا يفارق المدارج والنسخ ، وما دخل عليه واحد إلاّ وجده ينسخ أو يسوّد أو يبيّض . وقد تلقى الفلسفة عن البلخي ، وكان البلخي يطوف البلاد ويجول الأرض ، حسن المعرفة بالفلسفة والعلوم القديمة » .

ومما هو معروف في كتب الطب أن الرازي كان أول من وصف الحصبة والجدري ولا يزال وصفه معروفاً في جميع الكتب القديمة والحديثة . وصنف كتاباً آخر سماه « الملوكي » قدمه لعلي ابن صاحب طبرستان ، وفي أول أيامه تعلق بالكيمياء وله تصانيف أيضاً فيها .

وكان الرازي يرمي إلى اثبات امكان تحول العناصر ووحدة الجوهر ، وفي سبيل هذه العقيدة قام بتجاربه التي أدت إلى اكتشاف كثير من المركبات

---

(١) «المنصوري» : الّفه الرازي لمنصور بن اسماعيل بن خاقان صاحب خراسان وما وراء النهر . وكتابه «الحاوي» وضعه في ثلاثين مجلداً ويسمى (الجامع الحاصر لصناعة الطب) . وله تآليف وكتب اخرى يبلغ عددها ما يزيد عن مائة وخمسين عدداً ، وكان عمره ثلاثين سنة عندما قدم الى بغداد وفيها تعلم الطب ودرّس . ومن رسائله المشهورة : (كتاب الجدري والحصبة ، كتاب الأدوية الموجودة في كل مكان ، كتاب الفالج ، كتاب القوة ، كتاب النقرس والعرق المدني ، كتاب اوجاع المفاصل ، كتاب الأذنين ، كتاب هيئة العين الخ)

الكيميائية . وكتابه « الحاوي » المشهور بين كتبه الثلاثة ألّفه لابن عباد ولكن الأجل لم يفسح له المجال فلم يخرجه إلى الوجود ولكن أخرج ورتب بعد وفاته ، وأما كتبه الأخرى ورسائله فهي كثيرة تناولت علوم الطب ، والالهيات ، والفلسفة والطبيعيات ، والكيمياء ، وعلم النفس . وفي كل ما كتب وألّف كان علماً لا يجارى في قوة تفكيره ، وسعة احاطته ، ودقة ملاحظته ، وعمق فلسفته ، وصحة منطقه ، وصدق تجاربه .

وبعد الرازي ظهر الفارابي وذلك في عام ٣٣٩ هـ ، وكان الفارابي من مدينة (فاراب) وهي مدينة من بلاد الترك في أرض خراسان ثم سافر إلى بغداد وبقي فيها مدة وانتقل إلى الشام ، ولما دخل بغداد كان يعرف التركية وعدة لغات غير العربية ، فأتقن اللغة العربية وبلغ فيها غاية الاتقان وأخذ المنطق عن أبي بشر بن متى يونس الحكيم المشهور ثم ارتحل إلى مدينة (حرّان) وفيها يوحنا بن حيلان الحكيم النصراني فأخذ عنه طرفا من المنطق أيضاً وبعدها رجع إلى بغداد وقرأ علوم الفلسفة وتناول جميع كتب أرسطاطاليس وتمهر في اخراج معانيها والوقوف على أغراضه فيها . ويقال أنه وجد كتاب النفس لأرسطاطاليس وعليه مكتوب بخط الفارابي أني قرأت هذا الكتاب مائة مرة ولم يزل ببغداد مكباً على الاشتغال بهذا العلم إلى أن برز فيه وفاق أهل زمانه وألّف به معظم كتبه [1] ، ثم سافر من بغداد إلى دمشق ولم يقم بها ثم توجه إلى مصر عام ٣٨٣ هـ .

---

(١) الفارابي لم تطبع كل كتبه ، والمطبوع منها : (١) آثار اهل المدينة الفاضلة (٢) الابانة عن غرض ارسطاطاليس (٣) كتاب ما بعد الطبيعة (٤) الثمرة المرضية في بعض الرسالات الفارابية . (٥) رسائل الفارابي . (٦) شرح الفصوص . (٧) عيون المسائل . (٨) كتاب الموسيقى . (٩) مبادىء الفلسفة القديمة . (عن معجم المطبوعات العربية — للسيد يوسف اليان سركيس) .

ويقول عنه ابن أبي أصيبعة : « كان رحمه الله فيلسوفاً كاملاً ، وإماماً فاضلاً ، قد اتقن العلوم الحكمية ، وبرع في العلوم الرياضية ، زكي النفس ، قوي الذكاء متجنباً عن الدنيا ، مقتنعاً منها بما يقوم بأوده ، يسير سيرة الفلاسفة المتقدمين ، وكان له قوة في صناعة الطب وعلم بالأمور الكلية منها ولم يباشر أعمالها ولا حاول جزئياتها . ولما دخل دمشق كان في أول أمره ناطوراً في بستان ، وهو على ذلك دائم الاشتغال بالحكمة والنظر فيها والتطلّع إلى آراء المتقدمين وشرح معانيها ، وكان ضعيف الحال حتى أنه كان في الليل يسهر للمطالعة والتصنيف ويستضيء بالقنديل الذي للحارس وبقي كذلك مدة ثم عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار أوحد زمانه وعلامة وقته ، واجتمع به الأمير سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي وأكرمه اكراماً كثيراً وعرفت منزلته عنده وكان له مؤثراً . »

« وقيل ان الفارابي لزهده لم يكن يتناول من سيف الدولة من جملة ما ينعم به عليه سوى أربعة دراهم فضة في اليوم يخرجها فيما يحتاجه من ضروري عيشه ، ولم يكن معتنياً بهيئة ولا منزل ولا مكسب . وكان في أول أمره قاضياً فلما شعر بالمعارف نبذ ذلك وأقبل بكليته على تعلمها ، ولم يسكن إلى نحو من أمور الدنيا البته ، وكان يذكر أنه كان يخرج إلى الحراس بالليل من منزله يستضيء بمصابيحهم فيما يقرأه ، وكان في صناعة الموسيقى وعملها قد وصل إلى غاياتها وأتقنها اتقاناً لا مزيد عليه ، وهو الذي صنع آلة غريبة يسمع منها ألحاناً بديعة يحرك بها الانفعالات . »

وقال القاضي ابن صاعد بن أحمد بن صاعد في التعريف بطبقات الأمم : « أن الفارابي أخذ صناعة العلم الحكمي على يوحنا بن حيلان المتوفى في مدينة السلام . وكان يجتمع بابن السراج فيقرأ عليه صناعة النحو وابن السراج يقرأ

عليه صناعة المنطق . وسئل « أبو نصر » من أعلم أنت أو أرسطو ؟ فقال : « لو أدركته لكنت من أكبر تلاميذه » .

ويدلنا على شغفه في أريسطو وكتبه أنه قال : قرأت السماع لأريسطو أربعين مرة وأرى أني محتاج إلى معاودته .

ولأبي نصر من الكتب ما ينوف عن السبعة وتسعين كتاباً ورسالة ومقالة تنوعت مواضيعها في شتى العلوم والأدب والاجتماع ، والفلسفة ، والالهيات ، والرياضيات ، والكيمياء ، والموسيقا ، وعلم العدد وغيرها .

وحياة الفارابي تمثل الانقطاع للعلم ، والتجرد للدرس ، والزهد في الدنيا ، وما في الدنيا من زينة ومفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد . وكان قد لقي الأمير سيف الدولة الحمداني وهو في حلب ثم صحبه الأمير معه إلى دمشق ، وفي عام ٣٣١ ألف كتابه (المدينة الفاضلة) وسافر إلى مصر عام ٣٣٨ ورجع إلى دمشق وتوفي بها في رجب سنة ٣٣٩ عند سيف الدولة في خلافة الراضي وصلى عليه الأمير في خمسة عشر رجلاً من خاصته .

وللفارابي دعاء صوفي شهير وقد جاء فيه هذه الأبيات وهي من شعره تكشف لنا عما انطوت عليه روحه الصوفية من عقيدة وحب آلهي . قال الفارابي :

يا علة الأشياء جمعاً والذي ... كانت به عن فيضه المنفجر
رب السماوات الطباق ومركز ... في وسطهن من الثرى والأبحر
اني دعوتك مستجيراً مذنباً ... فاغفر خطيئة مذنب ومقصر
هذب بفيض منك رب الكل من ... كدر الطبيعة والعناصر عنصري

ومع أنه تعلم الطب ولكن ميله للفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات غلب عليه فكان من أكبر فلاسفة الاسلام ، ولم يزاول الطب الصنعة بل أحاط به احاطة تامة وارتشف من حياضه حتى اطفأ ظمأه ثم انعكف على التبحر في المنطق وما وراء الطبيعة فكان له ما أراد من فهم وعلم واطلاع وتأليف وانتاج ، ومع

ما كتبه من الكتب العديدة التي أشرنا إليها فانه ألّف في الطب كتباً كثيرة ودبّر مارستان الري ثم مارستان بغداد أيام المكتفي . ومن الأسف أن كتبه الطبية ضاع أكثرها ولم ينشر منها ما يذكر ، وأما كتبه الفلسفية فقد نشر منها وطبع : (آثار أهل المدينة الفاضلة ، وما بعد الطبيعة ، والإبانة عن غرض أرسطاطاليس ، وبعض رسالات ترجمت الالمانية ، وكتاب عيون المسائل في المنطق ومبادىء الفلسفة ، وشرح فصوص الحكم ، وكتاب عيون المسائل ، وكتاب الموسيقى) وبقية تآليفه لا تزال في عالم الخفاء كما خفي قبره من الوجود .

وبعد الفارابي يجدر بنا ذكر شيخ الأطباء « جالينوس » عصره الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسين بن علي بن سينا . وهو وان كان أشهر من أن يذكر وفضائله أظهر من أن تسطر ، فانه وصف سيرته وأحواله بما يغني غيره عن وصفه . ولد عام ٣٧٠ وتوفي عام ٤٢٨ .

قال ابن سينا : « ان أبي كان رجلاً من أهل « بلخ » [١] وانتقل منها إلى بخارى أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصرف والعمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها « خرميثن » من ضياع بخارى وهي من أمهات القرى ويقربها قرية يقال لها « أفشنه » وتزوج أمي منها بها ، وقطن بها ، وولدت منها بها ، وولد أخي ، ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن ومعلم الأدب حتى كاد يقضى مني العجب . وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين ويعد من الاسماعيليين ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم وكذلك أخي . وكان ربما تذاكرا بينهما وأنا أسمع منهما وادرك ما يقولانه وابتدءا يدعوانني أيضاً اليه ويجريان على لسانهما ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ يوجهني

(١) بلخ : كانت القصبة السياسية لولاية خراسان ثم أصبحت المركز الثقافي والديني لمملكة طخارستان . وفي عام ٣٣ هـ شدّ عليها الحصار ابن قيس الأحنف حتى فتحها ، وبعد زمن اجتاحتها قبائل جنكيزخان فدمرتها وذلك في عام ٦١٦ هـ و ١٢١٢ م .

إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى أتعلم منه ، ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلي وكان يدعي الفلسفة وأنزله أبي دارنا رجاء تعلمي منه ، وقبل قدومه كنت اشتغل بالفقه والتردد فيه إلى اسماعيل الزاهد وكنت من خيرة السائلين وقد ألفت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على الوجه الذي جرت عادة القوم به ، ثم ابتدأت بكتاب (ايساغوجي) ومعناه (المقولات = أو المقدمة للفلسفة) على النّاتلي ولما ذكر لي حد الجنس أنه المقول على كثيرين مختلفين بالنوع في جواب ما هو ؟ فأخذت في تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله وتعجب مني كل العجب وحذّر والدي من شغلي بغير العلم ، وكان أي مسألة قالها لي أتصوّرها خيراً منه حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبر . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق وكذلك كتاب اقليدس في الهندسة فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ثم توليت حلّ بقية الكتاب بأسره ، ثم انتقلت إلى « المجسطي » (كلمة يونانية معناها الأكبر) وهو كتاب يبحث عن الفلك ، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الاشكال الهندسية قال لي الناتلي تولّ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرض عليّ ما تقرأه لأبيّن لك صوابه من خطئه . وما كان الرجل يقوم بالكتاب ، وأخذت أحلّ ذلك الكتاب . فكم من شكل مشكل ما عرفه إلاّ وقت ما عرضته عليه وفهّمته إياه ، ثم فارقني الناتلي متوجهاً إلى (كركانج = مركز لمقاطعة خوارزم) واشتغلت بتحصيل الكتب من الفصوص والشروح من الطبيعي والالهي ، وصارت أبواب العلم تنفتح عليّ ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه . وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أني برزت فيه في أقل مدة حتى بدأ فضلاء الطب يقرأون عليّ علم الطب .

(يتبع) عبد الرحمن الكيالي

العلاقات الجوهرية

بين اللغتين العربية والآرامية « السريانية »

في النواحي التاريخية والفنية واللغوية والأدبيــة

— ٥ —

٢ — صور الحروف الأبجدية وعددها في اللغتين الآرامية والعربية :

إذا أردنا إيجاد وحدة صورية بين هاتين الأبجديتين يجب علينا الرجوع إلى أقدم صورة باقية لكاتبيها وهما القلم الاسطرنجيلي الآرامي ، والقلم الكوفي العربي فعند مقابلة هذين القلمين يتضح لنا اتحادهما في شكل جميع الحروف تقريباً ، الأمر الذي يؤيد تأثر القلم الكوفي بالقلم الاسطرنجيلي تأثراً قوياً بعد استقلاله عن القلم النبطي الآرامي القديم ، وهذا هو السبب في جعل العلماء الخط الاسطرنجيلي وحده أصلاً للخط الكوفي العربي الذي تولدت منه سائر الأقلام العربية إلى يومنا هذا .

أما عدد صور الحروف في الأبجديتين فانها اثنتان وعشرون صورة ، مع أن اللغة العربية تحتاج إلى أكثر من هذا العدد . وقد أظهر العرب حكمة بالغة وحذقاً عظيماً في تلافي النقص في عدد الحروف المستمدة من الآرامية . وذلك أنهم لم يخترعوا صوراً جديدة للحروف الزائدة عن حاجة السريانية الآراميه ، بل عمدوا إلى الحروف نفسها فاستولدوا ستة منها سبعة أحرف جديدة تفي بحاجة اللغة العربيــة بعد اضافتها إلى الحروف الاثنين والعشرين المعروفة الموجودة في السريانية الآرامية ، وتركوها على صورتها الأصلية ، إنما عالجوا الحرف الجديد بوضع النقط اللازم بحسب الاصطلاح الجديد . وهــذه الأحرف الستة التي ولّدوا منها الأحرف السبعة الجديدة هي د . ح . ط . ع . ص . ت .

فصدرت عنها بالتسلسل سبعة أحرف هي ذ ٠ ج ٠ خ ٠ ظ ٠ غ ٠ ض ٠ ث ٠ وإنك ترى أن كل حرف أصبح حرفين الأصلي بدون نقط ٠ والجديد وضعت له النقط اللازمة ٠ الا (الحاء) وحدها ٠ فقد استولدوا منها حرفين هما (الجيم والخاء) بواسطة نقطتيهما المعروفتين ٠

ومما يجدر ذكره أن العرب سلكوا سلوكاً فيلولوجياً بارعاً في هذه الطريقة لتلافي عجز الحروف القديمة التي استمدوا منها أبجديتهم الجديدة ٠ وهذا ما عمله الآراميون عند عودتهم إلى كتابة العربية بحروفهم الآرامية ٠ وهو الأسلوب المسمى بـ (الكرشوني) الذي أشرنا إليه سابقاً ٠ الا أن هنالك اختلافاً بين الجانبين في بعض الحروف ٠ فان الآراميين استعملوا (الجومل) بوضع نقطة تحتها لكي تصبح (غينا) ، وبوضع نقطة في داخلها لكي تصبح (جيما) في الكتابة الكرشونية ٠ أما العرب فلم يسلكوا هذه الطريقة بل أولدوا الغين من العين بوضع نقطة فوقها ٠ وأولدوا الجيم من الحاء بوضع نقطة تحتها ٠ وهكذا تمّ لهم ما أرادوا ٠

الا أن العرب لم يضعوا النقط لتمييز الحروف المزدوجة صورة الا بعد شعورهم بوقوع التباسات كثيرة في الكتابة ، وهذا هو السبب في لجوئهم إلى هذه الطريقة السهلة مع ابقاء الحرف على صورته الأصلية الممثلة في الصورة الفرعية أيضاً مع العلم أن كتباً عربية كثيرة كتبت بدون استعمال التنقيط حتى بعد اختراع هذه الطريقة ٠ وما خلا ذلك ، فمع تمادي الزمان وكثرة الاستعمال تقاربت صور أحرف أخرى بعضها من بعض فأصبحت كأنها حرف واحد لا يميز إلا بالنقط أيضاً كالزاي والراء (ز ٠ ر) والشين والسين (ش ٠ س) والقاف والفاء (ق ٠ ف) ٠ وتشابهت أيضاً صور النون والباء والياء والتاء في أول الكلمة وفي حشوها ، وهكذا تجد كثيراً من صور

الأحرف كل منها يعبر عن حرفين أو أكثر ، وصارت الحروف العربية ثمانية وعشرين حرفاً ، ولكن يعبر عنها بخمس عشرة صورة فقط .

ان حرف الخاء يولده الآراميون عند كتابتهم العربية بالأحرف الآرامية من (الكوف) أي (ك) ؛ أما العرب ففضلوا أن يتولد من (الحاء) نفسها بوضع نقطة فوقها ، وما تجب الاشارة إليه أيضاً أن صورة (السين والشين) في الأبجدية الآرامية النبطية هي واحدة فقط ، فسلك العرب هذه الطريقة وميزوا بينهما بوضع ثلاث نقط صغيرة فوق السين لكي تصبح (شيناً) .

هذه هي الوحدة الكاملة بين صور الحروف الأبجدية وعددها في اللغتين الآرامية والعربية .

٣ — الخواص العددية في الحروف الآرامية والعربية :

تتفق الأبجديتان الآرامية والعربية بكونهما تستعملان علامات للأعداد عوضاً عن الأرقام العددية . وهذه الطريقة قديمة جداً في الآرامية وربما يرتقي تاريخها إلى العصور السابقة للمسيحية ، مع العلم أن الأمم الآرامية القدمى قد اخترعت علامات خاصة للأعداد ، فقد ظهرت هذه العلامات في الرقم الكنعانية والآرامية القديمة في انقاض مدن سورية المندرسة كما ظهرت أيضاً في نصب تدمر وكتابات الآراميين في ضواحيها [1] ثم استمدت منها طريقة خاصة في عهد المسيحية الأول في الكتب لتأريخ السنين ، ولتصوير عدد آيات فصول الكتاب المقدس ، وعلى الأخص الانجيل ، ولترقيم اعداد كراريس الكتب ، واستمرت هذه الطريقة إلى العصور المتأخرة [2] .

أما الأرقام الهندية المعروفة اليوم في العالم العربي فلم تعرف إلى القرن السابع

---

(١) اللمعة الشهية ليوسف داود الجزء ١ ص ١٥٧ .

(٢) اللمعة الشهية ج ١ ص ١٥٨ .

الميلادي ، قد نبغ في هذا القرن العلامة الفيلسوف والفلكي الرياضي ساويرا سابوخت ، وعلى يده وصلت للمرة الأولى الأرقام الهندية إلى العرب ، ويظهر أن استعمالها لم يشع فبقيت عصوراً أخرى حتى أخرجت إلى الاستعمال ، ويعود الفضل في اعدادها لنا إلى الرياضي السرياني الكبير المشار إليه [1] .

أما طريقة الحروف في العلامات العددية فقد شاعت عند السريان الآراميين اكثر جداً ، فنجد جميع مخطوطاتهم مؤرخة بهذه الطريقة وعنهم أخذها العرب في العصور الأولى لظهور أبجديتهم فاستعملوها كما استعملها الآراميون قبلهم [2] .

وهذه الحروف تنتظم في الأبجديتين للغاية العددية كما يأتي :

ا : ١ د : ٤ ز : ٧ ي : ١٠ م : ٤٠ ع : ٧٠ ق : ١٠٠
ب : ٢ ه : ٥ ح : ٨ ك : ٢٠ ن : ٥٠ ف : ٨٠ ر : ٢٠٠
ج : ٣ و : ٦ ط : ٩ ل : ٣٠ س : ٦٠ ص : ٩٠ ش : ٣٠٠
ت : ٤٠٠

وبقية الاعداد يعبر عنها بتركيب هذه الحروف نحو :

يا : ١١ يز : ١٧ سز : ٦٧
يب : ١٢ يح : ١٨ قمح : ١٤٨
يج : ١٣ يط : ١٩ شصا : ٣٩١ الخ

وإذا رغبت في تأليف عدد بعد الـ ٤٠٠ فاقرن حروف المئات كما يأتي :

تق : ٥٠٠ تت : ٨٠٠ تش : ٧٠٠

ثم تجعل حروف الآحاد نفسها للآلاف وحروف العشرات للمئات التابعة للأربعمئة . ويشترط أن تكون أولاً الآلاف ، ثم المئات ، ثم العشرات ثم

(١) المشرق البيروتية المجلد ١٤ ص ٢٣٩ سنة ١٩١١ .
(٢) استعمل هذه الطريقة العبرانيون أيضاً أخذاً عن الآراميين وكذلك اليونانيون — اللمعة الشهية ج ١ ص ١٥٧ و ٤٣٩ .

الآحاد ، خوفاً من الالتباس نحو (افمو : ١٨٧٦) ، (بعنا : ٢٧٥١) ، (جقمه : ٣١٤٥) . وقد اصطلحوا أن توضع نقطة فوق حروف العشرات الدلالة على المئات ، ومن تحت حروف الآحاد خطيط قائم للدلالة على الآلاف . ومن تحتها أيضاً خطيط للدلالة على الربوات نحو (ع : ٧٠٠) ، (ننج : ٥٥٣) ، (امه : ١٧٤٥ الخ) .

نستنتج من استعمال الحروف الأبجدية علامات للعدد في اللغتين . ان العرب اعتبروا صراحة عدد الحروف الأبجدية ٢٢ فقط . اذ لم يخالفوا السريان الآراميين في هذه الطريقة مطلقاً وهو الذي يؤيد أن الأبجدية الآرامية هي أم الأبجدية العربية بحروفها الاثنين والعشرين الراهنة . وبالتالي اعتبر العرب أيضاً أن الحروف الابجدية الأصلية هي الاثنان والعشرين الآرامية فقط . وأما الحروف الزائدة في اللغة العربية فهي مشتقة من الحروف الأصلية كما بيّنا سابقاً .

٤ — التطور اللفظي في حروف بعض الكلمات المشتركة بين الآرامية والعربية :

من الراهن أن اللغتين الآرامية والعربية باتصالها التاريخي الطويل ، الذي يمتد إلى قلب نشوئها ويرتقي إلى عهد ازدهارهما ونضجها ، تبادلتا مادة غزيرة يصعب حصرها في بضع صفحات ، وذلك من حيث الألفاظ والأساليب وغيرها . وأمامنا الآن الناحية اللفظية من المادة المشتركة بين اللغتين ، وتطور الحروف من حالة إلى حالة من حيث النطق بها في اللفظة نفسها . ولا ندعي أننا سنحيط بجميع تلك الألفاظ المشتركة لأن ذلك يحتاج إلى مجلدات كامنة بل نورد نماذج من ذلك التطور لنقف على حالة الحروف الأبجدية النطقية عند استعمالها في هذه المادة المشتركة بينهما مع العلم أن هناك ألفاظاً تكون الحروف هي عينها في كلتا اللغتين .

قبل أن نستعرض التطور اللفظي في الحروف المشار اليها يجب أن نعلم أن الحروف الأبجدية في اللغتين نوعان حروف علة وهي (الألف والواو والياء) ،

غير أن السريانية قد تضيف (الهاء) إلى أحرف العلة أحياناً لخضوعها في بعض الحالات اللغوية إلى ما تخضع له أحرف العلة في الاعلال والقلب والتغيير . وأما في العبرانية فان (الهاء) ملحقة بأحرف العلة دائماً تقريباً . وسميت أحرف العلة كذلك لأنها تدخل الكلمات إما أصلية أو زائدة فيطرأ عليها تغيير كبير من حذف ، وقلب ، وابدال ، أو يصيب حركاتها أو حركات الحروف التي قبلها شيء من التغيير ، وتشترك اللغتان في هذه الناحية .

ومن المعروف أيضاً أن أحرف العلة كانت تقوم مقام الحركات في اللغتين قبل ظهور الحركات فيها ، كما هي الحالة في كثير من اللغات الحية الآن ؛ ويظهر أنها لم تف بحاجة النطق الصحيح ، لذلك اضطر علماؤهما الى اختراع الحركات .

والنوع الثاني من الحروف هي الصحيحة ، وهي بقية الحروف الأبجدية ؛ وأما التطور اللفظي في حروف بعض الكلمات المشتركة بين اللغتين فنجده كما يلي :

٢ — الألف (ܐ : ا) الألف في السريانية وفي العربية ، اذ لم ترد حرف علة على غرار ما أشرنا اليه الساعة ، تكون حرفاً صحيحاً حلقياً ، ويسميه نحاة العربية (الهمزة) ، ومن المعلوم أنه ليس هنالك اسم خصوصي للهمزة في السريانية كما في العربية ، وليس لها إلا علامة خاصة كما هي الحالة في العربية ، ولذلك فان الهمزة السريانية لا تكتب الا بالألف أينما جاءت .

وتكون الهمزة في اللغتين إما زائدة وإما أصلية ، والأصلية تكون في فاء الفعل وعينه ولامه (ܐܟܠ) أكل (ܫܐܠ) سأل (ܩܪܐ) قرأ . وقد تكون في لام الفعل أحياناً مقلوبة في السريانية الى حرف علة فيقال (ܩܪܐ) قرأ (ܒܪܐ) برأ .

وأما التطور الذي أصاب حرف الألف في بعض الكلمات فقد يكون أحياناً في السريانية عوضاً عن العين في العربية فيقال في قرع (ܩܪܐܐ) عوضاً عن (ܩܪܥܐ) .

وترد الألف في السريانية عوضاً عن التاء المربوطة في الأسماء المؤنثة ويقلب الفتح الذي قبل هذه التاء الى زقاق [1] نحو (ܥܠܬܐ) علة (ܡܕܝܢܬܐ) مدينة (ܡܫܒܚܬܐ) ممجدة ، وقد نجد في العربية الدارجة أمثلة كثيرة لهذه الصيغة فيقال (مدينا ، نعما ، عظما) عوض (مدينة ، نعمة ، عظيمة) وهو ما يدل على تأثير السريانية الآرامية في العربية من هذه الناحية .

٢ — الباء (ܒ : ب) كل الكلمات المشتركة بين اللغتين تستعمل الباء فيهما باء دون تطور ، إلا في كلمة واحدة فتطور الباء الآرامية الى ميم في العربية ، وهي كلمة (ܐܒܕܐ) زمن ، والأظهر أن الميم في هذه اللفظة هي أصح من الباء فقد كانت لغة بابل القديمة تقول (ܐܡܕܐ لا ܐܒܕܐ) وفي اللهجات الآرامية المحكية في قرى الموصل هي الميم لا الباء فيقال (ܐܡܕ) لا (ܐܒܕ) .

٣ — الجومل (ܓ : ج) أو حرف الجيم وهذا يلفظ كالجيم المصرية وهو السبب في أن نحاة العرب اعتبروا الجيم من الأحرف القمرية لا الشمسية ، مع أنه يمكن التلفظ به كالأحرف الشمسية ، وقد أصاب هذا الحرف تطور كبير في بعض الكلمات المشتركة بين اللغتين فما يرد في السريانية (الجومل) ينقلب في العربية الى الضاد فيقال في لفظة (ܓܚܟ) ضحك . ويقلب في العبرية الى الصاد فيقال في (ܓܚܟ) ܨܚܩ . ܣܚܩ صحق ، سحق . بقلب الضاد أو الجومل الى الصاد أو السين .

٤ — الدال (ܕ : د) الدال في السريانية تمثل في العربية حرفين هما الدال والذال ، وكلما كانت هذه الدال ذالاً في العربية انقلبت زيناً في العبرية فتكون دالاً في كلمات خاصة نحو ܕܫ داس ܕܪܫ درس . ܕܢ دان ܕܪ دار ܕܘܪܐ دار ܕܚܩ دحق (طرد) الخ وتكون ذالاً

(١) الزقاق حركة الضم الخفيفة تشبه الهاء الفرنسية .

في كلمات أخرى نحو ܕܪܐ ذرّ ܕܠܠ ذلّ ܕܒܐ ذئب ܕܘܒܐ ذئب ܕܗܒܐ ذهب ܕܐܒܐ ذئب والخ ٠

٥ — الهاء (ܗ : ه) حرف الهاء تتساوى فيه السريانية والعربية ، إلا ان السريانية قد تستغني عنه أحياناً فيحذف لمرونته وينقلب الى ألف وذلك في آخر الأسماء المؤنثة المجزومة وفي جزم التنكير نحو ܡܕܝܢܬܐ مدينة ܥܠܬܐ علة كما أسلفنا ٠

٦ — الواو (ܘ : و) تتساوى فيها العربية والسريانية ٠ وفي بعض الكلمات العربية التي تبدأ بها تمثلها الباء في السريانية نحو وسادة ܒܣܕܬܐ ٠

٧ — الزاي (ܙ : ز) تنقلب الزين السريانية الى الصاد في بعض الكلمات العربية المشتركة باللفظ نحو ܙܕܝܩܐ صديق ܙܦܪܐ صفير وقد تنقلب الى شين في العربية نحو ܐܙܩ شنق الا أن اللغتين تشتركان بمادة غزيرة تبدأ بهذا الحرف عينه ٠

٨ — الحاء (ܚ : ح) ترد في اللغتين مادة غزيرة تبدأ بالحاء إلا أن في العربية ألفاظاً تنقلب فيها الحاء السريانية الى خاء نحو ܚܠܐ خل ، ܚܡܪܐ خمر ܚܡܝܡܐ سخين ܚܒ خاب ܚܘܛܐ خيط ܚܝܛܐ خياط ܚܪܒ خرب ܚܪܘܒܐ خروب (خرنوب) ܚܪܙ خرز الخ ٠

٩ — الطاء (ܛ : ط) الطاء في السريانية تكون تارةً طاء في العربية ، وأحياناً تنقلب الى الظاء نحو ܛܠܠܐ ظل ܛܦܪܐ ظفر ܛܥܢ ظعن ܛܒܝܐ ظبي ܛܗܪܐ ظهر ܛܠܘܡ ظالم ٠

وقد تنقلب الطاء في السريانية الى تاء في العربية ܛܥܘܣܐ تاعس وبعكس ذلك تنقلب التاء العربية الى الطاء في السريانية نحو قتل ܩܛܠ ٠ وتنقلب الثاء العربية أيضاً الى الطاء في السريانية نحو ܩܛܘܬܐ قثاء ٠

١٠ – الياء (ܝ : ي) ان الياء في السريانية تنقلب الى الواو في العربية وذلك في المثال العربي نحو ܝܠܕ ولد ܝܗܒ وهب ܝܕܕ ودد ܝܩܪ وقر ܝܬܪ وتر الخ .

١١ – الكاف (ܟ : ك) الكاف السريانية لا تأتي الا مقاربة للكاف العربية .

١٢ – اللام (ܠ : ل) قد تنقلب اللام السريانية الى النون في العربية نحو ܨܠܡܐ صنم .

١٣ – النون (ܢ : ن) النون في السريانية قد تنقلب الى ميم في العربية وذلك في الضمائر وأمثالها ، وهي كثيرة لا يسعنا ايرادها الآن .

١٤ – السين (ܣ : س) السين أو السمكث السريانية قد تنقلب الى شين في العربية وبالعكس وهذا متأت من عدم التمييز بين الحرفين في الأبجدية الآرامية القديمة ، فقد كانت علامة واحدة لتمثيل الحرفين ، بل بالحري ان الحرفين كانا حرفاً واحداً كما سبق في بحث الأبجدية النبطية .

١٥ – العين (ܥ : ع) العين السريانية قد تمثل ثلاثة أحرف عربية وهي العين والغين والضاد فمن الأول ܫܥܬܐ ساعة ܥܝܢܐ عين ܥܡܠܐ عمل ܪܥܐ رعى . ومن الثاني ܥܪܒ غرب ܥܘܪܒܐ غراب ܥܠܒ غلب ܥܝܡܐ غيم ܡܥܪܬܐ مغارة ܒܥܐ بغى ومن الثالث ܐܪܥܐ أرض ܒܝܥܬܐ بيضة ܥܢܐ ضان ܥܪܬܐ ضرة ܚܒܛ ضرب ܪܥܘܢܐ رضوان .

١٦ – الصاد (ܨ : ص) قد تنقلب الصاد السريانية الى الضاد العربية نحو ܥܨ عض ܥܪܨ عرض ܥܡܨ غمض ܚܡܨ حمض ܢܦܨ نفض .

١٧ — الراء (ܪ : ر) قد تقابل الراء السريانية نون في العربيـة ومن ذلك ܬܪܝܢ اثنين ܒܪܐ ابن ܒܪܬܐ بنت إلا أن الراء السريانية تنقلب الى نون أيضاً فيها عند الجمع فيقول في ܒܪܐ ابن ܒܢܝܐ بنون ܒܢܬܐ بنت ܒܢܬܐ بنات ·

١٨ — الشين (ܫ : ش) قلما تقابل الشين السريانية بشين عربيـة بل تقابلها غالباً السين كما سبق الكلام في السين السريانية نفسها ·

١٩ — التاء (ܬ : ت) تمثل التاء السريانية حرفين في العربية هما التاء والثاء، وهكذا تكون بعض الكلمات المتحركة في اللغتين تارةً تاء عربية نحو ܬܢܘܪܐ تنور ܬܢܝܢܐ تنين ܬܝܫܐ تيس وطوراً ثاء نحو ܬܕܝܐ ثدي ܬܘܪܐ ثور ܬܩܠ ثقل ܬܠܬ ثلاث ·

هذا ما يمكن قوله في تطور الحروف وانقطها في المادة المشتركة بين اللغتين العربية والسريانية الآرامية · ولو عاد المتبصر الى معاجم اللغتين لوجد بحراً خضماً من المادة المشتركة فيهما واهتدى إلى أمثلة كثيرة على غرار ما ألمعنا اليه في بحثنا هذا ·

(الموصل) غريغوريوس بولس بهنام

نسخة تاسعة

من ديوان ابن عُنين

أعارني الحكيم (الطبيب) السيد مظفر حسين بكراجي في ٩ شعبان سنة ١٣٧٨ هـ نسخته من ديوان ابن عنين . وكان طال مُقامُه بحيدرآباد الدكن . ومن غرامه وهواه في الأسفار والآثار اجتمع لديه منها مبلغ لا ينكر قدرُه . فباع منها جملة لخزانة ميرپور وفيها نسخة جليلة من ديوان ابن الساعاتي . وقد بقيت عنده بقايا أكثر من نصفها فيها كل عِلْق مَضِنَّة يشدّ إليه الرحال . والظاهر أنه يبيعها لخزانة دار التُحَف بكراچي .

ولما سرّحت فيها نظري وعارضتها بطبعة الصديق الأستاذ الفاضل خليل مردم بك من ثمان نسخ وجدتُ فيها نحو ٣٤ ما بين مقاطيع وقصائد فاتت النسخ ، وبعض أخبار وروايات لا يخلو تقييدها من فائدة زائدة ، فصحّت عزيمتي على تعليقها ولَمّ شَعَثها وضبط شواردها وعرض فرائدها .

وهي بقطع وسط أميل الى الثمن في ١٠٨ أوراق . والمسطرة تتراوح بين ١٨ الى ١٥ سطراً في الغالب وربما تقلّ وتنزل . بعدّة خطوط لا تقل عن خمسة . مما يدلّ على أن بعض الزوّار أو الحجاج يكون زار الشام ، فأوفزته الرحلةُ عن استنساخ الديوان على وجهه ، فوزّعه على نحو مئة من كاتبين ، وما كانوا كراماً بَرَرة ، فخبطوا وحرّفوا . وكلها بالنسخ . وهي عربية المَنصِب ليست من نتاج الهند أو السند وإنما تهنّدت منذ قديم . وهذا يدلّ على أن

الهند استأنست بزائرها فحافظت على وُدّه كما حفظت نسخة من شعره وإن كان لم ينصفها بعد مغادرته لها إذ قال :

وإذا سقى الله البلاد فلا سقى بلدَ الهنود سوى الصواعق والدما

وقد تعاورت النسخةَ أيدي عدّة من الأصحاب يدلُّ على ذلك خطوطهم التي لم أستطع قراءة بعضها لمحو أصابها . وعليها ختم (اورنگ زيب عالم گير) أو بعض أمراء عهده ، وثبت عليه خط إلهي همداني وتمام اسمه مير عماد الدين محمود وهو من اله آباد من نواحي همذان وهو عصريّ الشفائي المقدسي وصاحب التقي الأوحدي من شعراء الفرس الذين زاروا الهند ومات سنة ١٠٦٤ هـ

وقد لقيت عَرَق القِرْبة وجهداً جاهداً في إصلاحها وردّها الى أصلها . فقد وُفّقتُ في بعض الأماكن كما قد أخفقتُ في بعضها الآخر . وبعض هذه الخطوط مشكول شكلاً أكثره مغلوط وما كان يضرّه لو فقد الشكل والإعجام بالمرّة . هذا إلى ما أحدثته الأرضة من ثقوب وخروق حالت دون قراءتها كما هي ، وإلى أن بعض الأوراق قُلبت فوُضعت في غير أماكنها من الأبواب التي هي منها . والنسخة كاملة على علاّتها ، غير أن المقطوعة التي رقمتُ رقم ٢٥ بطُرّتها قد خلت من عنوان ، وهي في أوّل الورقة ، وهذا مما يوهم بوقوع خَرْم وسقوط ورقة أو أكثر دون جزم وبتّ .

ونسختنا على ترتيب الأبواب الخمسة التي سردها الأستاذ الناشر في ص ٢٤٨ من طبعته سواء .

وقصيدتاه الأوليان في الديوان في مدح صلاح الدين (مخرَفُ وأرسخُ) اللتان طُرّز بهما بابُ المديح قد خلت عنهما النسخ الثمان ، وكُلّل بهما ابن نبهان وجهَ الديوان من صنعته . ولكن سائر المقطوعات ملحقة بآخر الأبواب الزائدة .

هذا وقد أكلتُ العراضَ فأثبتُّ بعض أخبار زادته نسختنا أو خالفت فيها بعضَ ما عند أخواتها ، هذا إلى أنها تُخِلُّ ببعض ما أتينَ به وأثبتنَه .

وأما طريقي التي سلكتها فاني اعتبرت بترتيب نسختنا الأوّل فالأوّل . وقد سهّل عليّ فهرسُ القوافي الملحقة بآخر الطبعة البحثَ عما فيها ، إذ لم يكن لي عنْ ذلك مندوحةٌ . نظراً الى أن مخطوطتنا تخلو عن فهرس يمكِن من فحص باقي المطبوعة عما فيها . وهذا ظاهر . فعذري واضح فيما سلكته .

وها أناذا أنقل مقدمة النسخة بعد الحمد والصلاة :

(قال العبد الفقير الى رحمة الله تعالى أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن عُنين تجاوز الله عن زلته ، وألحقه بمن تغمده بجزيل رحمته وأصله من زرع قرية ببلد حَوْران وهو من بني غالب ووُلد بدمشق المحروسة يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩ وتوفي يوم الاثنين أيضاً العشرين من ربيع الأول سنة ٦٣٠ بدمشق المحروسة . مما عُني بجمعه . . . . محمد بن المسيَّب بن نبهان التغلبي[1] الدمشقي . . . . . . إحياءً لذكره ولما لمحه من بديع شعره الخ) .

وظاهر أن تاريخ وفاته ألحقه ابن نبهان بعده . وهو الذي أراده ابن خلكان بقوله (وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عُشر ما له من النظم) . وكان مُغْرَماً به وبشعره يتردّد إليه ويحضر مجالسه ويسأله عما أشكل عليه منه أو اعتاص ويستوضحه عنه ، ولما رآه ابن عنين حريصاً على ذلك أملى عليه بعض ما تبقى عنده من شعره في هذا الديوان الصغير .

كراتشي عبد العزيز الميمني

(١) كذا جاء بالغين المعجمة ثلاث مرات او اكثر . ولست أرى إعمالها إلا تصحيفاً .

(١) قال يمدح السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبا المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله وذلك في سنة خمس وسبعين وخمس مائة ، وأنشده إياها بالساحل :

ما للأمانيْ عنـك منحرَفُ ولا لها عن ذَراك منصرَفُ
أنصفتَ أهلَ الزمان كلّهم منه ولولا نَداك ما انتصفوا
إني بانعامك الذي امتلأتْ به مُناي الغـداةَ معـترفُ
لذاك شكري الذي غَربْتُ[1] به دَأْبي فماضٍ منه ومؤتَنَفُ
ضاقت [عن] المدح والثناء على بعض الذي قد أتيتَه الصُحُفُ
يا طالـبي العارفات دونكمو ندى مليك الزمانِ فاعترفوا
فما الخِضَمّ الطامي غواربُه ولولا الغيوثُ الهواطل النُطُفُ
عليكمو منه بابنِ مكرمة تنْدَح أموالُه وتغتَرَفُ
ما دونها ذائدٌ ولا حرَس إلى حراها الآمالُ تختلفُ

حراها : نواحيها

ما بين هذا الأنام كلّهم في أنه أكرمُ[2] الورى خُلُف
يوسفُ مصرَ الذي ممالكُه جنّـةُ عدْن فيها لنا غُرَفُ
مشحونةٌ بالنعيم صافيةٌ ظِلالُها بالخـلود متّصِفُ[3]
أبقى على الدهر من حوادثه محوطةً لا ينالها الوَكَفَ

الوَكَف : العيب .

لها من الناصر المليك صلاحِ الـــدّين حامٍ سيوفُهُ رُعُفُ

(٢) وقال أيضاً يمدحه رحمه الله ويذكر فتوح مصر وخطبة بني العبّاس أدام الله أيامهم بها :

---

(١) الأصل عريت به .
(٢) بعضه مأكول الأرضة .
(٣) كذا ولعل الأصل تتصف .

حلومك أرسى من شمام[1] وأرسخ
وجدك أعلى من [جبا[2]]ل وأشمخ

وذكرك ما بين الأنام كأنه
وقد ضاع بالمسك السحيق مضمخ

بقيت صلاحَ الدين فينا مخلّدا
فإنك مهما دمتَ فالردع مفرخ

إذا ذكرت أنباء فضلك في الورى
لدى معشر أثنوا عليك وبخبخوا

حمى الملك من أبناء أيوب ماجد
همامٌ شديد البأس أصيد أبلخ

فضائله تُربي على الرمل كثرة
على أنها تُروى وتُتلى وتُنسخ

عقودُ صلاح الدين فينا أكيدةٌ
أبت أنها ما دامت الارض تُفسخ

مهابته درع عليه حصينة
وبين حماه والحوادث برزخ

إذا الحرب حشّتها الكماة كأنّها
طهاةٌ قدير في الشتاء وطُبَّخ

غدا مطفئا نيرانها بعزائم
تفلّق هامات الملوك وتشدخ

لمجد صلاح الدين يوسف همةٌ
تطول دراريّ النجوم وترسخ

أقام بمصر دعوة الحق فانثنت
تدوّن في أيامه وتؤرخ

وكم أرؤس للأدعياء عداته
تُرضّ بمرداة الهوان وترضخ

يجود بما تحوي يداه تبرعا
ويجزل ما يعطيه طورا ويرضخ[3]

كما سحّت الأنواء طلاّ ووابلا
وجادت بما يروى البلادَ وينضخ[4]

يلام على بذل المواهب والندى
ويلحى على إحسانه ويُربّخ

فيعرض إعراض الكريم بسمته[5]
ويثبت كالطود الأشم ويرسخ

فيا حسنها من سيرة عمريّة
وملّة عدل بينها ليس ينسخ

رعاها الإمامُ المستضيء وولده
وقام لها يزهى كريما ويشمخ

---

(١) كقطام جبل لباهله .
(٢) مأكول .
(٣) يعطى عطاء دون الجزل . ويرضخ في البيت المتقدم يشدخ ويكسر .
(٤) يروى ومنه عينان نضّاختان .
(٥) الأصل بسمه .

قال محمد بن نبهان التغلبي الدمشقي رحمه الله جامع الكتاب فأعطاه الملك الناصر صلاح الدين ألف دينار وأُرسل له من بغداد ألفُ دينار .

ص ٣ س ٣ : وقال يمدح السلطان الملك العادل سيف الدين ابا بكر بن أيّوب رحمه الله وأنشده إيّاها بمدينة دمشق سنة ٥٨٥ ه القصيدة والبيت العشرون ومرنّحين على الرحال كأنما البيت

ص ٩ س ١ زاد : وأنشده إيّاها بمدينة دمشق بالقلمة في شهور سنة ٦٢٦ ه

ص ١٤ س ١٢ زاد : من قصيدة طويلة لم يوجد منها غير هذه الأبيات الثلاثة .

ص ١٨ س ٥ : لا يُشْيِبُها .

ص ٢٢ س ١ : يتقدّم البيت :

ألا أيّها المَلك المعظّم والذي مواهبه ترَجى ويُخشَى عقابه

س ٣ : من نشادور ببلاد العجم إلى دمشق . وهي نيسابور .

س ٩ يتلوه :

ذو مُقلة دعجاء أدمى لحظُها قلبي وأنفذ سهمُها أدراعي

ص ٢٣ بعد س ١ : قال جامع الكتاب محمد بن نبهان التغلبي الدمشقي رحمه الله سألتُ الشيخ شرف الدين رحمه الله يوما بحضرة الشيخ نجيب [1] الدين أبي الفتح نصر الله بن الصفّار المعروف بابن الشُقَيْشقة عن معنى هذا البيت وقد استغربتُه لأن عادة الخمر أن تبدّل الوقار بالطيش فقلت له أهذا المعنى لك مبتكَر ام سمعتَه ؟ فقال لا أعلم أنه لآخر غيري فابتدر الشيخ الامام نجيب الدين وقال بل هو لغيره وأنشد في المعنى لابن وكيع :

(١) المتوفى سنة ٦٥٧ ه كان يُزَنّ برقّة الدين يراعي أرباب الجامات كثيراً ترجمته في ذيل الروضتين ٢٠١ وغيره .

كيف [لي] أن أراك منجمَ المنـــطق سكران استَ توضح حرفا
وأنادي من المسرّة ماتَ الـــسكر فادعوا الى بالكأس صرفا
إنّ للراح مِنّةً استُ أدري شكرَها كلّما أطلتُ الوصفا
ليّنتْ خُلقَ قسْوَر وأعارتـــه سَماحًا وعلّمته العُطفا
كلّما رمتُ قُبلةً قالت النشـــوة مات الغلا نخذ لك ألفا

فتعجّب الحاضرون من حسن استحضاره وعظم اقتداره .

ص ٢٣ س ٢ :

في روضة بالنَّيْرَبَيْن أريضةٍ موْشيّةٍ ببدائع الإبداع
مخاضةٍ (كذا) وشائعَ بُرْدها كفُّ الخضيب وأيَّ كفَّ صَناع

ص ٢٦ س ٣ : جاورتُ (بالراء المهملة) ، هذا عمران بن حِطّان لما خرج على عبد الملك بن مروان وطلبه فهرب منه فلم يجد له ملجأ في الأرض إلاّ رَوْح بن زِنباع فقصده فلما وصل اليه وهو مطمئنّ القلب به لم يُجِرْه وطَرَدَه اهـ الميمنيّ والخبر سرده أبو العباس على طوله ببعض اختلاف في الكامل ٥٣٠ — ٥٣٤ .

س ٥ : أرقتم كي أُسدّدَ .

س ٨ زاد : ونسَجتها على منوال الأفوهِ والأَوْدي في قصيدته المحرّضة اهـ ولعلها داليته في الديوان صنع العاجز برقم (ز) ص ٩ .

ص ٢٨ س ٣ ، دالجة : والدالج الذي يمشي بالدلو من البئر الى الحوض . والسَّفْر القوم المسافرون .

ص ٢٩ س ٦ : أهومّ أو في بطن دَوّيَة أسري

٧ : عن سنا البدر . هذا البيت بقرطس في غرض البلاغة بإصابته وتأنس به الأسماع على غرابته وتعنو لديه الأوصاف والمدائح وتخجل عند سماعه لقصورها طلابات (كذا) القرائح .

ص ٢٩ س ٢ : ولو حاول المرّيخ البيت يتلوه بيتان وعليهما الختام ـ وسائر الأبيات التي تتلوه هنا تتقدّمه عندنا ـ وهما :

من القوم لو جاراهم البحر في النَدَى ... لأصبح قاعًا صفصفًا مُزْبِدُ البحر

إذا استلأموا يوم[1] النزال حسبتهم ... أسودَ العرين الغُلْبَ تَسْبَحُ في غدْر

لقد أصاب شاكلة التشبيه وأصبح فرداً في معناه بلا شبيه اھ .

س ٩ : عندنا سنة ثمان عشرة .

ص ٣١ س ٨ : سَنَاها وللأدنى . وأراه الصواب .

١٠ : وأفرجت . ولا أرى عليه غبارا .

ص ٣٢ س ٥ : ومعها ارتجاسُ .

ص ٣٢ س ٨ : أرضًا تُداسُ .

س ١٠ : يبيت الذئب طاوٍ ، يَزبر وجارُ رَبْربه الكِناسُ .

ص ٧١ س ٤ : بأصلنا الحَوْول من أسماء الدواهي اھ فهو بالفتح .

ص ٣٤ س ٤ زاد : وأنشده إياها بمدينة عدن في سنة ٥٨٩ ﻫ .

س ٧ : وإن بعيدا لا يُرَجّى اقترابُه .

ص ٣٥ س ٨ : لا يناصَبُ .

ص ٣٦ س ٢ : على الرمل في إثر المطيّ .

ص ٣٧ س ٦ : من خلوة الفحل .

ص ٧٢ س ٥ : سنة ٥٨٩ ﻫ .

س ٨ : حنينَ العِطاش .

ص ٧٣ س ٨ : قوله منها يوهم أن هنا شيئًا من القصيدة لم يورد ههنا . ولكنها تظهر تامة في نسختنا .

(١) البيت محرّف في أصلنا .

ص ٧٤ س ١ : سهلة ، ولا يظن سهل ٠

س ٣ : الباب الغياثي ٠

ص ٣٩ س ٨ : قوله ومنها كأنه حذف البيت الآتي من أجل خلل أو تصحيف وهو :

وكأنه في الحرب خِرصان به ذي العز (؟) الملك العزيز قد احتبى

ص ٤٠ س ٣ : وقال يمدحه وأنشده اياها بمدينة عدن في سنة ٥٩١ ﻫ بظاهر البلد ٠

ص ٤٢ س ١ : النَفَل بلا تحريف ٠

س ٥ : لأفصح معجم غزِل ٠

ص ١٠٢ س ١ : عندنا : ولما ملك الملك الناصر صلاح الدين بعض البلاد الساحلية أرسل الى أخيه السلطان الملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن يعرض عليه النزول عن اليمن والحجازَ به ليستلم الساحلَ الفرنجيّ ويحضر الغزاة ٠ فشاور الشيخ شرف الدين بن عنين وكان حاضراً عنده في ذلك ٠ وكان شرف الدين قد سُرق له بمكة قماش اتهم به بعضَ الأشراف الذين بها ممن كان حوله ٠ فأنشد سيفَ الإسلام هذه الأبيات يحرّضه على قتال أهل مكة ويَثني عزمتَه عن الساحل وأوّلها :

ثمّ بعد تمامها : قال جامع الكتاب سألتُ الشيخَ العلاّمة نجيب الدين بن الشُقَيْشقةِ عن هذه القصيدة فقال لم يوجد منها غير هذه الأبيات ولذهابها سبب ٠ فسألته عن السبب فقال حدّثني الشيخ شرف الدين أبو المحاسن محمد بن عنين بداره في ليلة من ليالي الشتاء في ثالث ربيع الأوّل من سنة ٦١٣ أنه لمّا كان باليمن وعمل هذه القصيدة غلظ قلب الملك العزيز على أهل مكة ووصل الى أشرافها شيء من مكروهه ٠ قال فمرضت مرضاً شديداً بلغت فيه الموت

أو كدت فرأيت في إحد[ى] ليالي مرضي كأن مولاتي الستّ فاطمة صلى الله عليها وسلم وهي واقفة بازائي تشير باصبعها الكريمة إليّ وتقول :

حاشا بني فاطمـة كلّهم من خِسّة تَعْرِض أو من خَنا
وإنما الأيام في صَرْفها وفعلها السوء أساءت بنا
لأنْ أسا من ولدي واحد تُلحِقَ هذا الشتمَ عمداً بنا
فتُب الى الله فمن يقترفْ ذنباً بنا يأمن مما جَنَى
وأكرِمْ[1] لأجل المصطفى أحمد وآلِه من أهله أعيُنا
فكلّما نالك منهم أذًى[2] تلقَ به في الحشر معنا[3] هنا

قال فاستيقظت شديدَ الرعب وقد شممتُ رائحة العافية فوثبت الى القصيد فمزّقتُها وعملتُ :

عُذراً ! الى بيت نبيّ الهدى تَقْبَلُه من عبد سَوء جنى
وتوبةً تَقْبَلها من أخي جرم بعيدِ الخير مُرِّ الجنى
والله لو قطّعني واحدٌ منكم بسيف البغي أو بالقنا
لم أرَه في الفعل بي مُحسِنا بل أرَه في ظنّي مُسيئاً به

وكان لا يؤثر أن يحفظ أحد من هذه الأبيات شيئاً حتى إن الملك الأشرف كان[4] اذا أراد أن يغيظه ذكر بيتاً منها .

ص ٥٥ س ٧ : فقُربني أنه حَذِرا .

س ١٠ : اذا استسقَيتُ وابلَه ، على الظماء (كذا) سقاني .

(١) بالتسهيل ضرورة .
(٢) الأصل عزا .
(٣) الأصل معا .
(٤) الأصل وكان اذا أراد مغيضة .

ص ٥٧ س ١٠ : فظلّت تباري الشمسَ .

س ١١ : أزال على الصواب .

ص ٥٨ س ٤ : به مَثَل . وهو الأليط .

س ٥ : ما أحلى قوله الآن أن ظفرت برا . يريد لم أحصل على سوى القافية فانها كقافيته «إنما الشعر لم ألحق فيه من شأوه شيئا اه : الميمني : فاتضح أنه برا أي بحرف الراء وهو رويّ القافية لا غير .

س ٨ : يتلو البيت الأخير : وهذا آخر مدائحـه للملوك اه ثم يتلوه مديح الوزير ابن شكر وهو في ص ٤٥ .

ص ٤٥ س ١ أصلنا : وقال يمدح الوزير صفيّ الدين أبا الحسن علي ابن عبد الله (وفي الفوات ١/ ٢٨٠ ومرآة الزمان عبد الله بن علي) بن شُكر وزير الملك العادل سيف الدين أبي [بكر] بن أيوب وأنشده إياها بدمشق سنة ٥٩٣ ويذكر فيها حصار الأفضل والملك الظاهر العادل (? للعادل) ورجوعهما عنه بحسن تدبير الوزير الممدوح .

ص ٤٩ س ١٣ : ولو مات وجدا .

ص ٥٠ س ١٠ : ألقى .

س ١٢ : فلو عالجتُ حدّا (? جُدّا) .

ص ٥١ س ١٣ : يأتي بالأمس يذهب ردّا .

ص ٥٢ س ٣ : وهو فاعلٌ .

ص ٥٣ س ١ : ألى جنابك ردّا .

س ٢ : والثناء أكرمُ مُهدَي .

ص ٩٤ س ١٢ بأصلنا زيادة : وذلك بمدينة مَرْو في مدرسته التي يُلقي بها الدروس .

ص ٩٥ س ٧ : يمشي بقلب ٠

ص ٥٣ س ٦ : أصلنا فكتب اليه من نيسابور وسيَّرها اليه الى نشادور [1] وذلك في سنة ٦٠٢ ٠

ص ٥٤ س ٨ : رباح الطيش ٠

ص ٩٨ س ٩ : محلَّة الجناح ٠

ص ٩٩ س ٣ : وحُلّة المُزّاح ٠

ص ٧٤ س ٧ : من نشادور ٠

ص ٧٦ س ٢ : جواسق كالدراري ٠

س ١٠: لغياسي وعزمه ٠

ص ٧٧ س ٢ : بين الذئاب ٠

س ٥ زاد : وسيَّرها اليه أيضاً من بلاد [2] العجم إلى دمشق ٠

س ٧٨ س ٦ : يتلوه بيتان وعليها الختام :

عسى عَطفة بدربَّـة تعكِـس النوى ... فألقى قريرَ العين بالأهل والوطنْ

فقد ملَّت النفسُ البِعادَ وَبرَّحتْ ... بها سَعَةُ الشكوى وضاق بها العَطَنْ

ص ٧٩ س ١ : عندنا : وقال يمدح النجيب بن يُمْن العُرْضيّ وكان اجتمعا كلاهما وعاد النجيب الى الشام فكتب بها اليه :

ص ١٠٤ س ١٣ : باتَ عنه غنيّ ٠

ص ١٠٥ س ١ : سجيَّـةٌ ألفت ٠

ص ٥٩ س ٨ : في صفيح الحُدا ٠

ص ٦٠ س ٩ : غُمْر ٠

---

(١) كذا وهي نيسابور نفسها عاميّة ٠

(٢) وفي الأبيات من عدن ٠

ص ٦١ س ٤ : فيها وأصبحتِ الموالي .

١١ : يريد بالأخشاب المجانيق اهـ .

ص ٦٢ س ٥ : بعده بيت وعليه الختام :

فالمُلك عينٌ خاطبتُه كأنْ(١) بها رَمَداً فكان لما عراها إثمِدا

س ١٣ : وجنُوا المعالي . هذا غلط صرفي من ابن عُنين .

ص ٦٣ س ٥ : الخَمِيس . والضم من خطأ الطباعة .

ص ٦٤ س ٤ : با لإرعاد .

س ٨ : زاد : وكانت بينهما صداقة ومودّة أكيدة وكان دُفن بدمشق ثم نقلوه الى قلعة جَعْبَر .

س ١٢ : عن طريق رَشادها .

ص ٦٥ س ٤ : رُزِئَ الكرام الخ كما في صلب المطبوع .

ص ٦٧ س ٧ : بعده وعليه الختام :

لا غبَّ قبرَك مُرجَجِنٌّ زاخرٌ زَجِلُ النواحي مُسْبِلٌ هَدّار

ص ١٤٠ س ١١ : يَنْهَدُّ لو حَمَّلْتَهُ بعضَها ـ الجَبَلُ . أي ينهدُّ الجَبَل (ضدّ السهل) لو حمَّلتَهُ (بالشدّ) الداهيةُ بعضَها . وهذا ظاهر .

ص ١٤١ س ٣ : منتعل في شعر الأعشى رقم ٦ وتمام البيت :

هِرْكَوْلَة فُنُق دُرم مرافقُها كأنّ أخمصَها بالشوك منتعلُ

والتضمينان غير موجودين في نسختنا .

س ٥ : منتفِـخ وكذا نسختنا والصواب : منتفِـج بالجيم لا غير .

س ٦ : في بيضة القَيْظ وأراه الأقعد وفي زائية الشمّاخ :

طوى ظِمْأَها في بيضة القيظ بعدما جرَى في عِنان الشِعْرَيَيْن الأماعزُ

(١) أو بأنْ .

ص ١٤٢ بعد س ١ : يريد بنظام الدين ابن القلانسيّ . فالحظْ أيها المتأمل ما ألطف هذا الاستطراد وما أحلى موقعَه من الفؤاد حتى لو سمعه الذي قيل فيه لشغله استفادة هذا المَخْرَج عن أن يَرْفُل في ثياب المحرج اهـ

الميمني لا أعرف المحرج الآ الحِرْج وهي ثياب تُبْسَط على حبل لتجفّ . فلعل المحرج عامية .

ص ٩١ س ٢ : فيما وقع له من الوقائع والماجَرَيات والمكاتبات والمجاوبات والطَلِبات والشفاعات والأغراض والمُجون والهدايا والاستهداآت والطُرَف والتُحَف واللطف والحنين والأشواق الى بلده وغير ذلك مما يجري مجراه اهـ .

ص ٩٣ س ١٠ : يتلو (مسلّما) : (٣)

رأى صبيًّا مليحًا تركيًّا قد رأى غرابًا على شجرة فرماه بسهم .

من الُخزر العيون رأى غرابًا فأوتَرَ قوسَه ورمى بسهم

فخالُ البدر أرسل عن هلال الى الليل البهيم شهابَ رَجْم

ص ١٠١ س ٨ : عندنا وكتب الى الملك العزيز سيف الإسلام باليمن يطلب منه خمراً على طريق اللُغز .

ص ٤٤ س ٥ : ماقَطَبا لي . . . . أدْ[رِ]يْ عَداكَ الدَمْ

ص ٧٣ س ٣ : عندنا أربعة أبيات من هذه القصيدة وهي في الأسطر ٣ و ٤ و ٦ و ٧

ص ٨٠ س ٩ : يلوح وآذيُّ الدُجنّة .

ص ٨١ س ١١ : من أن تُنالَ وتُلْثَما .

ص ٨٣ س ٤ : على وكز بالزاي المعجمة لا بالمهملة .

س ١٤ : راحلا - وأحداثه بي .

ص ٨٦ س ١١ : بعد (عن ذكر الشذا) زيادة :

أصبحتُ بعد فراقكم متجشّمِ ال بلوى فصبر[1] (كذا) في الخطوب مشتّتا

ص ٨٧ س ٥ : بين النعائم والغفْر . وبالنَّسْر يحصل الإيطاء .

س ٨ يتلوه : يريد بذلك أنّ نَوْء سعد السعود صَحْبُه باقي الأنواء المُمْطِرة إذا لازمها بكثر الغيث ويصير مكان الضبّ وهو البراري المقفِرة كمكان الحوت وهو البحر وربما زاد ماء البحار والأنهار وطفا السمك الى أن يتلاقى به والضبّ في وكره وهذا بليغ حسن .

ص ١١١ س ١ : عَبَثَ السَقامُ .

ص ١١٦ س ٤ : يداه كما قيل فإمّا .

ص ١٤٢ س ٨ : قيد ضيّق .

ص ١٢٢ س ٥ : شعرك الأنجم .

ص ١١١ س ٨ : عند ذاك .

س ١٠ : والبيتان اللذان أنشدهما ابن المجاور :

بالكؤوس المِلاء حُثّا إليّا لا تجريا (كذا) بالمُدام لأعليّا

من يَدَيْ فاتر اللواحظ كالبد ر اذا حَفّه نجوم الثريّا

ص ١٢٠ س ٢ : لقد حصّت قوادمها .

ص ١٢٢ س ٩ : عندنا في الترجمة : وكان لما كتب هذين البيتين (جناحي ص ١٢٠) مريضاً طلب أن يزوره وكتب اليه مع هدية اهـ .

ص ١١٢ س ٢ : لَوْمك عذراً .

ص ١٣١ بعد س ٨ : فلما وقف عليها السلطان أمره أن يستدعي ما يحتاج ضيوفه اليه في كل يوم من سائر الحوائج .

ص ١٢٣ س ٣ : لو كان ما يُهْدَى على مقداركم ، لم يرتض الشمس .

---

(١) لعله بصبر في الخطوب تشتّتا ، على الإيطاء .

ص ٩٠ س ٦ : في أعالي البان .

ص ٨٩ س ٤ : ومَسرْجَتُها :

س ٥ : ضاع يضوع فاح .

ص ٩٠ س ٣ : وقد : أو غاتُ .

ص ١١٢ س ١١ : فكم أشهب .

ص ١٠٠ س ٧ : بإجراري ، والإجرار شقّ لسان الفصيل والقلم أيضاً يُشق لسانه . ثم يتلو الأبياتَ وقال مخاطباً للسلطان الملك المعظّم وقد جرى يوماً حديث قسمة الغنائم شرعاً وكيف تزحزحت الرسوم الشرعية :

(٤) يا أيها المالك المولى الكريم ومن يستحق المُلك والدنيا اذا يَهَبُ

إذا لقيتَ الأعادي يوم معركة فإنّ جمعهم المغرور منتهَبُ

لك النفوس وللطير اللحوم وللـــــوحش العظامُ وللخيّالة السَلَبُ

فضحك الملك المعظّم وقال هذه قسمة على بيت المال فيها حيف .

وكان عند الملك الناصر الخ ما في ص ١٢١ س ٤ ويتلو بيتيها :

فقال الملك المعظم الناصر سمعاً وطاعة ، ثم أمر بنتف لحيته فاستغاث الشاعر وأقسم أنه ليس من القصيدة . ومرّ ذلك اليوم في نوادر الشاعرين .

(٥) وكان مع الملك المعظم في بُحيرة طَبرية فركبا في الزبزب[١] فقال بديهاً :

واني لأعجب من زبزب به بحر (؟) كيف لا يغرَق

فمن تحتــه بحر (؟) واحد ومن فوقه أبحُــر تدفق

وأعجب من ذا وذا أنه يلامسه وهــو لا يرزق (كذا)

(يتبع)

(١) هذه الأبيات معروفة للخلوقي الشاعر في طاهر بن الحسين والرواية :

عجبت لحرّاقة ابن الحسيـــــن كيف تعوم ولا تغرَق

وبحران من فوقها واحد وآخر من تحتها مُطبَق

وأعجب من ذاك عيدانُها وقد مَسّها كيف لا تُورق

والزبزب نوع من السفن .

الزجّاجي

حياته وآثاره

ومذهبه النحوي من خلال كتابه « الإيضاح »

- ٣ -

١٣ — كتاب معاني الحروف :

عدّ بروكلمن بين مصنّفات الزجاجي كتاباً باسم «حروف المعاني» . وأما «معاني الحروف» فلم يذكره أحد غير ابن خير الاشبيلي [١] . إلا أن القفطي قال في الإنباه إن «لأبي علي الفارسي كتاب «الأغفال» فيما أغفله الزجاجي في المعاني [٢] » ! وكلام القفطي هذا ، يمهّد السبيل لوهم القارئ ، إذ يدلّ على أن «أغفال» الفارسي يتصل بمعاني الحروف للزجاجي . والحق ان في كلام القفطي نقصاً وسهواً ؛ أما النقص فلأنه كان ينبغي له أن يشير الى أن «الأغفال» انما هو في معاني القرآن . وأما السهو فلأن «الأغفال» هو تعقيب واستدراك على كتاب «معاني القرآن وإعرابه» لأبي اسحاق الزجاج ، لا على معاني الحروف لأبي القاسم الزجاجي ، ولم يشر محقق الإنباه الى ذلك [٣] .

---

(١) فهرست ابن خير : ٣١٩ .

(٢) إنباه الرواة ١ : ٢٧٤ .

(٣) أقول زيادة في الايضاح : للأغفال نسختان ، احداهما في مكتبة الأوقاف بطرابلس الغرب رقمها (خزانة ١ رف ٤ رقم ٩٤) وهي مكتوبة سنة ٦٧١ . والنسخة الثانية في دار الكتب بالقاهرة تحت الرقم (٥٢ تفسير) ونقلت عن هذه النسخة نسخة أخرى في دار الكتب أيضاً .
وقد ذكر ابن خير كتاب الأغفال بنسبته الصحيحة في فهرسته (ص ٣١٠) كما ذكر كتاب « معاني القرآن واعرابه » للزجاج في ص ٦٤ . —

١٤ — شرح رسالة كتاب سيبويه :

لم يذكر هذا الكتاب أحد ممن ترجموا للزجاجي ولم يشر الباحثون إليه على كثرة عنايتهم بكتاب سيبويه وما يتصل به . والذي ذكر هذا الكتاب هو صاحبه نفسه ، فقد أشار إليه أكثر من مرة فقال في كتابه « ايضاح علل النحو » : وفي ذلك احتجاج ونظر لم نقصد إليه في هذا الكتاب ، لأنا قد شرحناه في كتاب شرح الرسالة بجميع ما فيه . » وقال في موضع آخر « فأما القول فيما قاله سيبويه في كتابه « هذا باب علم ما الكلم من العربية » وما في ذلك من الألفاظ والوجوه ، فقد ذكرته في كتاب أوردته لتفسير رسالة كتاب سيبويه ... » وقال أيضاً « وقد أشبعت المعنى في تفسير كلام سيبويه هذا ، في تفسير رسالته . »

وما ما أراده الزجاجي من هذا الكتاب ، فهو ـ فيما أعتقد ـ شرح الصفحات الأولى من كتاب سيبويه ، تلك التي بحث سيبويه فيها أموراً عامة قبل الدخول في أبواب النحو الجزئية التي تبدأ في الصفحة الثالثة عشرة من الكتاب بباب الفاعل . ويؤيد ذلك :

أ — أنه من عادة الزجاجي أن يستعمل لفظ « رسالة » بمعنى مقدمة الكتاب أو خطبته ، وقد رأيناه يستعملها غير مرة في حديثه عن مقدمة أدب الكاتب لابن قتيبة .

— وبمناسبة الخلط بين الزجاج والزجاجي ، يجدر بي أن أنبه على أن الكثير من فهارس المكتبات العامة ذكرت « كتاب فعلت وأفعلت » منسوباً للزجاجي ، حتى اخذ بذلك بعض المحققين . فعدّه الأستاذ محمد بن ابي شنب ناشر الجمل بين آثار الزجاجي ، زاعماً انه ينقل عن كشف الظنون . والحق ان هذا الكتاب من وضع ابي اسحاق الزجاج ، استاذ ابي القاسم الزجاجي ، كما في كشف الظنون نفسه (٢ : ١٤٤٧) وكما في فهرست ابن خير (٣٥٢) وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٦) ضمن مجموعة باسم « الطرف الأدبية » .

٢ً – من المعروف أن كتاب سيبويه لا مقدمة له ، إلا أن في الصفحات الثلاث عشرة الأولى منه ما يصلح أن يكون مقدّمة للكتاب ، لأنه بحث في أمور عامة يدخل أكثرها في مقدّمات كتب النحو . وأما أبواب النحو بتفصيلها وتفريعها فتبدأ في الصفحة الثالثة عشرة من الكتاب ، حيث يبدأ الكلام على باب الفاعل .

٣ً – قول الزجاجي انه شرح في هذا الكتاب قول سيبويه « هذا باب علم ما الكلم من العربية » يدلّ على أن هذا الباب من « الكتاب » داخل في « رسالة كتاب سيبويه » وهذا يتفق مع ما أشرت إليه في الفقرة السابقة من اعتبار الصفحات الثلاث عشرة الأولى هي مقدمة الكتاب .

١٥ – كتاب غرائب مجالس النحويين الزائدة على تصنيف المصنّفين :

لم يشر الى هذا الكتاب غير اثنين ممن ترجموا للزجاجي هما السيوطي وبروكلمان . أما السيوطي فقد أشار إليه شاكًّا في نسبته حين نقل عنه بعض مجالسه . وأما بروكلمان فقد عدّه في جملة آثار الزجاجي .

قال السيوطي في الأشباه والنظائر : « مجلس الخليل مع سيبويه ، ذكره أبو حيّان في تذكرته [(١)] وأظنه أخذه من كتاب غرائب مجالس النحويين الآتي ذكره » [(٢)] وقال فيما بعد « مجلس أبي إسحاق الزجاج مع جماعة ، ذكره أبو حيان في تذكرته وهو في كتاب المجالس المشار إليه وأظنه تأليف تلميذه أبي القاسم الزجاجي [(٣)] » وأثبت ظنه ثانية فقال « مجلس ذكر صاحب الكتاب

(١) التذكرة في العربية لأثير الدين محمد بن يوسف ابي حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ . وذكر في كشف الظنون ١ : ٣٩٣ .

(٢) الأشباه والنظائر ٣ : ١٦ .

(٣) المصدر السابق ٣ : ١٧ .

المسمى غرائب مجالس النحويين الزائدة على تصنيف المصنفين » ولم أقف على اسم مؤلفه وأظنه لأبي القاسم الزجاجي »[(١)] . وقد نقل عنه ذلك صاحب خزانة الأدب [(٢)] ومع أن السيوطي لم ينر لنا السبيل ولم يذكر ما دفعه إلى هذا الظن إلا أننا نستطيع اذا رحنا نتلمس له الدليل ان نجد بعض ما يؤيده ويوشك ان يرجح ظنه .

إذا عدنا الى ما نقله السيوطي من أخبار هذه المجالس وجدنا :

١ً — ان أسلوب الرواية في هذه المجالس هو نفسه أسلوب أبي القاسم في أماليه فكلاهما أسلوب يعنى صاحبه فيه بالسند عناية كاملة ، رأينا ذلك حين تحدثنا عن الأمالي ونراه هنا في أخبار المجالس الوارد ذكرها في الأشباه والنظائر (٣ : ٣٥ و ٣٦ و ٣٧) .

٢ً — ان الذين يروي عنهم صاحب كتاب المجالس هم أنفسهم أساتذة الزجاجي وزملاؤه الذين روى عنهم في كتبه ؛ فمنهم اليزيدي (أشباه ٣ : ٣٣) والزجّاج (٣ : ٣٤) وأبو جعفر الطبري (٣ : ٣٥ و ٣٩) والأخفش (٣ : ٣٧ و ٣٩ و ٤٠) وابن الخياط وابن شقير (٣ : ٤٦) وهؤلا جميعاً ممن اجتمع الزجاجيّ بهم وصرّح في « الإيضاح » بالأخذ عنهم .

٣ً — ان عنوان الكتاب الذي هو « غرائب مجالس النحويين الزائدة على تصنيف المصنّفين » فيه رغبة ظاهرة في الحرص على ذكر الغرائب التي لم يذكرها المصنفون من قبل ، وهذا يتفق مع ما عرفناه من رغبة الزجاجي وحرصه على أن يذكر في مصنفاته ما لم يذكره غيره ، وأن يضمن تآليفه ما لا يوجد في غيرها ، قال عن كتابه « الايضاح في علل النحو » : « وان أكثر ما أودعته

(١) المصدر السابق ٣ : ٢٩ .

(٢) الخزانة ٣ : ٣٥٣ .

إياه لا يكاد يراه متفرّقاً ولا مجموعاً في غير هذا الكتاب .» وقال عن المسائل التي أودعها كتابه : «منها ما تلقيناه من علمائنا رضي الله عنهم تلقياً ومشافهة مما لم يودعوه كتبهم ولا يوجد فيها البتة .»

وبعد ذلك فأنا لا أدعي أنني أرضيت العلم أو وصلت بالظن الى اليقين ، إذ ينبغي للجزم في معرفة صاحب كتاب المجالس أن نعود الى النسخ المخطوطة من كتب المجالس ونقارن بين مجالسها وننظر في تاريخ أصحابها ... وليس هذا التمهيد الذي أقدّم فيه آثار الزجاجي هو موضع هذا التحقيق العلمي الدقيق .

١٦ — الإذكار بالمسائل الفقهية :

ومما يجب ذكره بين آثار الزجاجي تلك المسائل المتفرّقة التي نقلت عنه في كتب المتأخرين وكان منها ما يتصل بالفقه ومنها ماله صلة بغير الفقه . فما كان منها فقهياً فقد جمعه وأطلق عليه اسم «الإذكار بالمسائل الفقهية» ونقل السيوطي هذه المسائل في الأشباه والنظائر ونحن نذكر مقدّمتها لوضوح دلالتها عليها : «قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي النحوي رحمه الله تعالى : أما بعد حفظك الله وأبقاك ، وهدانا وإياك ، ووفقنا فيما نحاول ديناً ودنيا للرشاد ، ورزقنا علماً نقرن به عملاً يقرّب منه ويزلف لديه ، إنه سميع بصير وعلى ما يشاء قدير . فإنك أذكرتني بالمسألة التي سألتني عنها في البيت الذي سئل الكسائي عنه وهو قوله :

فأنتِ طلاقٌ والطلاق عزيمة ثلاثاً ومن يخرُق أعقّ وأظلم[1]

وتفسيري وجه الطلاق بالنصب في ثلاث مسائل فقهية من العربية يتلاقى بها النحويون ويسأل عنها متأدبو الفقهاء ، وكنت جمعتها قديماً ، منها مسائل ذكر لي

(١) عد الى ما قيل حول هذا البيت في الأشباه والنظائر ٤ : ٢٤٠ .

أبو بكر محمد بن منصور المعروف بابن الخياط النحوي أنه اجتمع هو وأبو الحسن ابن كيسان مع أبي العباس ثعلب على تلخيصها وتقريرها ، ومنها مسائل ذكر لي أن أبا العباس ثعلباً أفاده اياها . ومنها مسائل منثورة جمعت بعضها عن شيوخي شفاهاً ، وبعضها مستنبط من كتبهم ، فأحببت أن أجمعها في هذا الكتاب وأسميه « كتاب الإذكار بالمسائل الفقهية » فاعتمدت ذلك حين نشطني له ، فجمعتها فيه كلها وما اتصل بها وجانسها ومسألة الكسائي التي جرى ذكرها ، وجعلته نهاية في الاختصار ، وموجزاً غاية الإيجاز ، لئلا يطول فيمل ، ويكثر فيضجر ، وبالله التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل »[1] .

ثم أورد بعد ذلك أربع عشرة مسألة كلها في الطلاق .

١٧ — مسائل متفرقة :

ومما تركه الزجاجي مسائل متفرّقة جمعها في كتاب بعث به إلى أبي بكر الشيباني ، وكان هذا قد سأله عن بعضها ، فدفعه السؤال إلى الجمع والتأليف . جاء في الأشباه والنظائر : « هذه إحدى عشرة مسألة سأل عنها أبو بكر الشيباني أبا القاسم الزجاجي في كتاب أنفذه إليه من طبرية الى دمشق فكتب إليه في الجواب :

بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله وأبقاك ، وأتمّ نعمته عليك وأدامها لك . وقفت يا أخي ــ جعلني الله فداك ــ على مضمّن كتابك الوارد مع أخينا حفظه الله ، والجواب عنه يصدر إليك ولا يتأخر بحول الله ومشيئته . ووقفت على ما ضمنته آخرة من المسائل التي اشتبهت عليك ، وبادرت إليك بتفسيرها في هذا الكتاب ، لعلي بتعلّق قلبك بها ، وليعجل أخونا حفظه الله الانتفاع بها .

(١) الاشباه والنظائر ٤ : ٢٣٣ .

وأتبعتها مسائل من عندي منتخبة من ضروب شتى أنت تقف عليها وتذكرني بها ، ومها عرض لك من أمثال هذا فلا تنقبض في مفاتحتي به فإني آمرٌ بذلك ، وأقضي إليك فيه ما عندي على مبلغ ما يتناهى إليه علمي إن شاء الله تعالى . »[1]

ثم يورد المسائل الإحدى عشرة ونحن نكتفي بإيراد المسألة الأولى منها . قال :

«أما قولهم هذا زيد السعدي سعد بكر ، وقولك كيف يعرب سعد وما الاختيار فيه . فإن هذه المسألة يختار فيها الكوفيون الخفض فيقولون زيد السعدي سعدِ بكرٍ ، قالوا لأن معنى قولنا زيد السعدي : زيد من سعد ، ثم نقول سعدِ بكرٍ على الترجمة (يعني البدل) ، لأنّا نريد بهذا الكلام الاضافة ، وليس يمنعون من إجازة نصبه .

فأما أصحابنا البصريون فلا يجيزون خفض هذا البتة ، لأن قولنا زيد السعدي سعد مرفوع وليس بمرفوع وانما الياء المثقّلة في آخره دلت على النسب إليه ، ولا يكون المضاف إليه أولاً والدالّ على الإضافة آخراً . ولعمري ان النسب إضافة ، لأنّا إذا قلنا رجل بكريٌّ وتميميٌّ ، فإنما نضيف إليه ، ولكنه ليس على طريقة المضاف والمضاف إليه . وليس هاهنا لفظ خافض ولا مخفوض ، وقد سمى سيبويه النسب إضافة على الوجه الذي ذكرته لك ، فيقول أصحابنا : أزيد السعديّ سعدَ بكر بالنصب على أعني سعد بكر ، ولا يمنعون من الرفع على معنى هو سعد بكر .

وليست هذه المسألة مسطرة لأصحابنا في شيء من كتبهم البتة ، وهي مسطّرة في كتب الكوفيين ، ولكني سألت عنها أبا بكر بن الخياط وابن شقير فأجاباني بما ذكرته لك ...

(١) الاشباه والنظائر ٣ : ٤٨ .

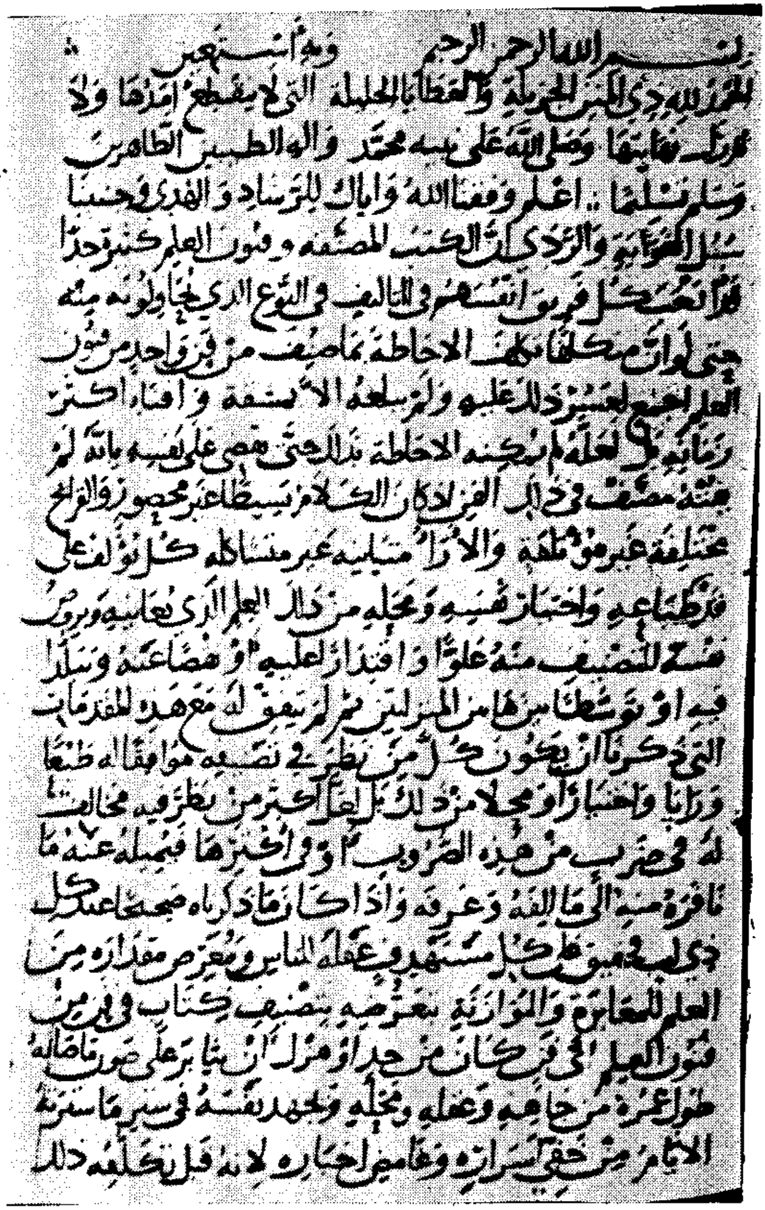
١٨ — الأسئلة الواردة على البسملة وأجوبتها :

أضاف بروكلمان الى ما ذكره من كتب الزجاجي السابقة كتاباً آخر باسم «بيان الأسئلة الواردة على البسملة وأجوبتها» ولم أجد أحداً أشار الى هذا الكتاب سواه .

والخلاصة ان مكتبة الزجاجي هذه لم يبق منها إلا ثمانية كتب الى جانب المسائل الصغيرة التي حفظها لنا السيوطي . وقد طبع من هذه الكتب اثنان هما الجمل والأمالي . ودفعت بالثالث منها وهو «الإيضاح» الى الطبع وبدأت بإعداد كتاب «اللامات» وأنا اسأل الله أن يمدّني بعونه وتوفيقه لأتابع تحقيق سائر آثار الزجاجي فهي نعم الذخر في النحو واللغة والأدب .

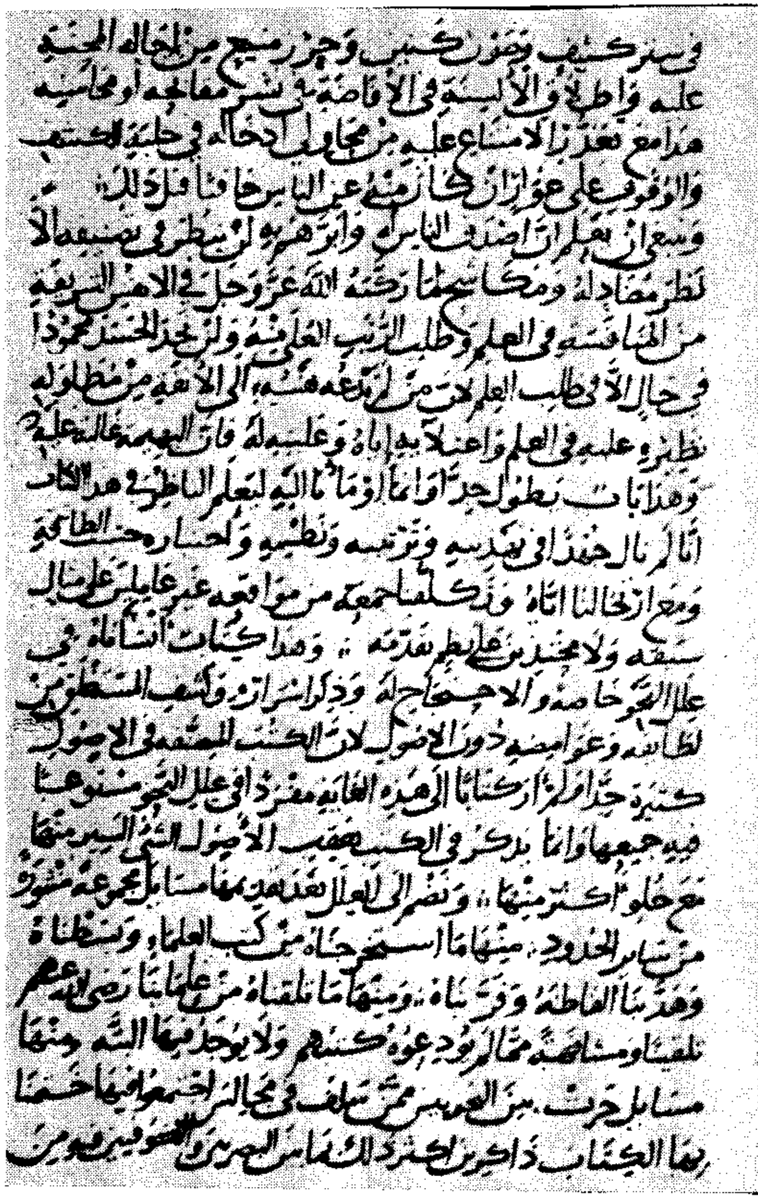
وها كم نماذج عن كتاب «الإيضاح في علل النحو» وشرح مقدمة «أدب الكاتب» وكتاب «اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل وما يتعلق بها من اللغات والمصادر والتأويل» وكتاب «اللامات» للزجاجي :

(يتبع) مازن المبارك



بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين
الحمد لله ذي المنن الجزيلة والعطايا الجليلة التي لا ينقطع إمدادها ولا
تزول فوائدها وصلى الله على نبيه محمد وآله الطيبين الطاهرين
وسلم تسليما . اعلم وفقنا الله وإياك للرشاد والهدى وجنبنا
سبل الغواية والردى أن الكتب المصنفة في فنون العلم كثيرة جدا
لا يحصي كل فريق منهم في التأليف في النوع الذي يحاولونه منه
حتى لو أن متكلفا تكلف الإحاطة بما صنف من فن واحد من فنون
العلم لجميع لتعذر ذلك عليه ولم يبلغه الاستقصاء وإفناء أكثر
زمانه في طلبه لم يمكنه الإحاطة بذلك حتى يقضي على نفسه بأنه لم
يبق مصنف في ذلك الفن لأن الكلام يتسع غير محصور والقرائح
مختلفة غير مؤتلفة والآراء متباينة غير متشاكلة كل يؤلف على
قدر طباعه واختيار نفسه ومحله من ذلك العلم الذي يعانيه ويروض
نفسه للتصنيف منه علوا واقتدارا عليه أو ضعفا عنه وتبلدا
فيه أو توسطا بين هاتين المنزلتين ثم لم يتفق له مع هذه المقدمات
التي ذكرنا أن يكون كل من نظر في تصنيفه موافقا له طبعا
ورأيا واختيارا ومحلا من ذلك بل لعل الأكثر من ينظر فيه مخالف
له في ضرب من هذه الضروب أو في أكثرها فيميله عنه ما
نافره منه إلى ما ألفه وعرفه وإذا كان ما ذكرناه صحيحا عند كل
ذي لب غير موقوف على كل مستشهد بغفلة الناس وتعرض مقداره من
العلم للمعاندة والموازنة بتعرضه بتصنيف كتاب في فن من
فنون العلم أي فن كان من جد أو هزل أن يتأبر على صون ما صانه
طول عمره من جاهه وعقله ونحله ويجهد نفسه في ستر ما ستره
الأيام من خفي أسراره وغامض أخباره لأنه قل يخلفه ذلك

كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي
صورة وجه الورقة الثانية وفيها أول الخطبة

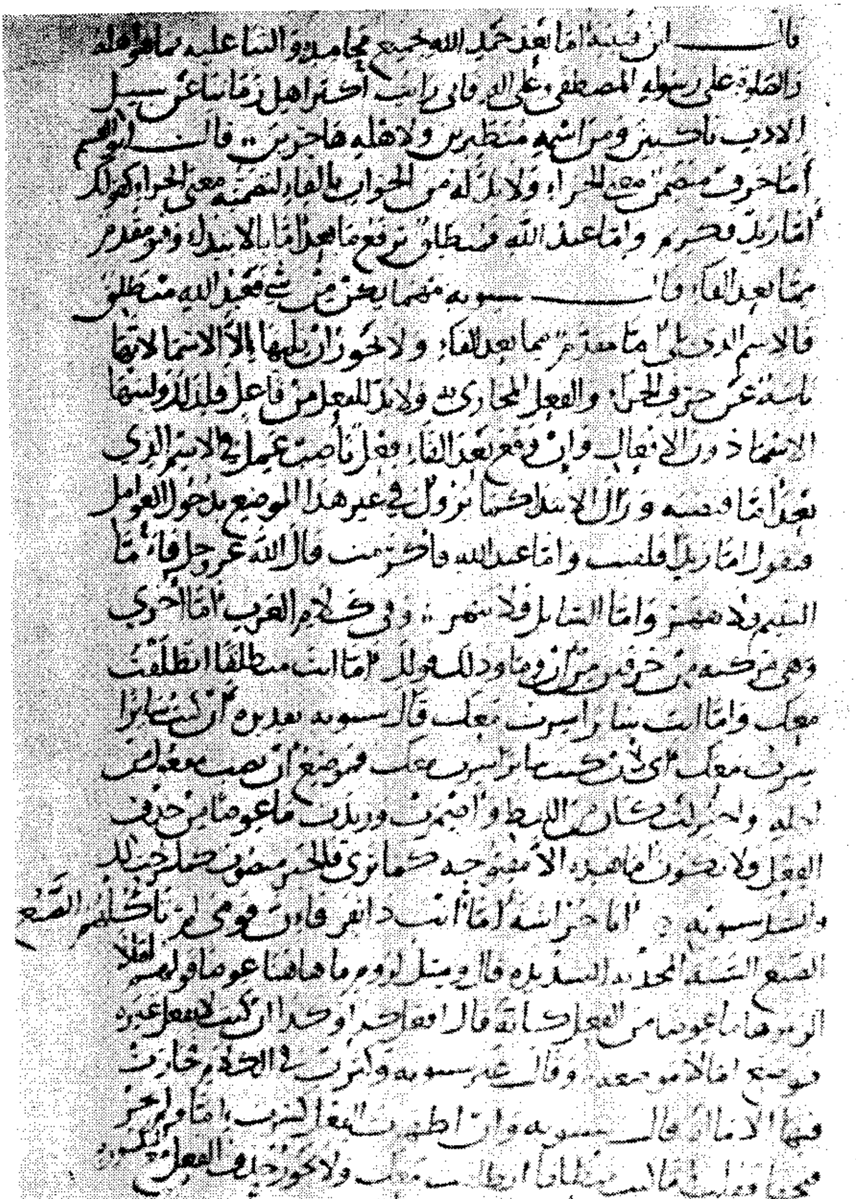

وسير كثيف وصوت كئيب وحجر منيح من إنجاله الجنة
عليه وإطلاق الألسنة في الإفاضة في نشر مقابحه أو محاسنه
مدامع تعذر الاستماع عليه من محاسن إدخاله في جملة الكتب
والوقوف على عوار إن كان فيه عند الناظر فيه فإن ذلك
وسعي أن يعلم أن أصناف الناس وأن همم لن تستطرق تصنيفاً لا
نظير مضادة ومكاشحة رحمهما الله عز وجل في الأمر الشريعة
من المنافسة في العلم وطلب الرتب العلية منه ولن يجد الحسد محموداً
في حال إلا في طلب العلم حتى من أن تتعصب نفسه إلى الأعلى من مطوله
نظيره عليه في العلم واعتلائه إياه وعليه له فإن الهمة الفاعلة
وهذا باب يطول جداً وإنما أومأنا إليه ليعلم الناظر في هذا الكتاب
أنا لم نأل جهداً في تهذيبه وترتيبه وتقريبه وإيضاحه حسب الطاقة
ومع أن ذلك إنا أتاه وتكلفنا جمعه من مواقعه غير عائلين على مثال
سبقه ولا محتذين على نظير تقدمه. وهذا كتاب أنشأناه في
علل النحو خاصة والاحتجاج له وذكر أسراره وكشف المستغلق من
لطائفه وغوامضه دون الأصول لأن الكتب المصنفة في الأصول
كثيرة جداً ولم أر كتاباً إلى هذه الغاية مفرداً في علل النحو مستوعباً
فيه جميعها وإنما يذكر في الكتب عقيب الأصول الشيء اليسير منها
مع خلو أكثرها منها. ونضم إلى العلل التي نعتمدها مسائل مجموعة منثورة
من سائر الحدود. منها ما استخرجناه من كتب العلماء ونسخناه
وهذبنا ألفاظه وقربناه. ومنها ما تلقيناه من علمائنا رضي الله عنهم
تلقيناً ومشافهة مما لم يودعوه كتبهم ولا يوجد فيها البتة ومنها
مسائل جرت بين العلماء ممن سلف في مجالس اجتمعوا فيها فختمنا
بها الكتاب ذاكرين لكثير ذلك مما سمعنا البصريين والكوفيين منه من

كتاب الإيضاح في علل النحو للزجاجي

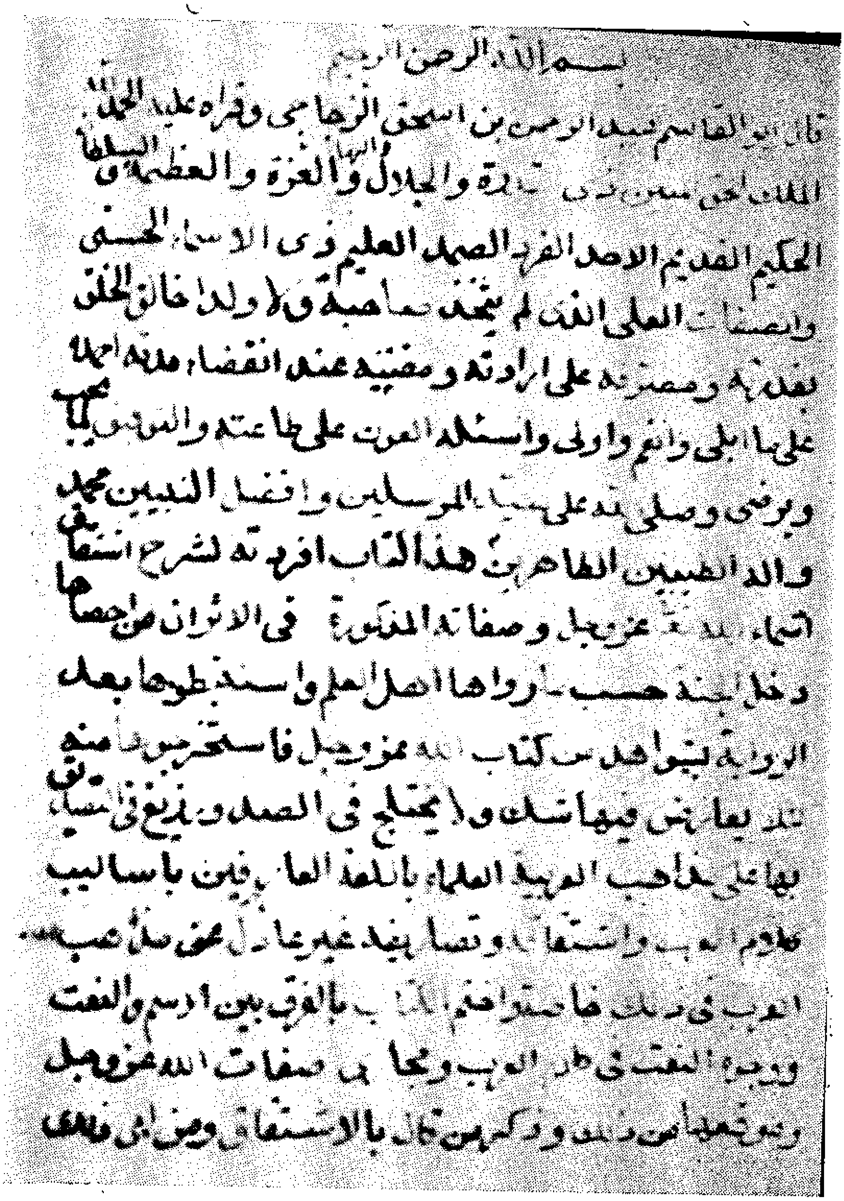
صورة ظهر الورقة الثانية وفيها أول الخطبة



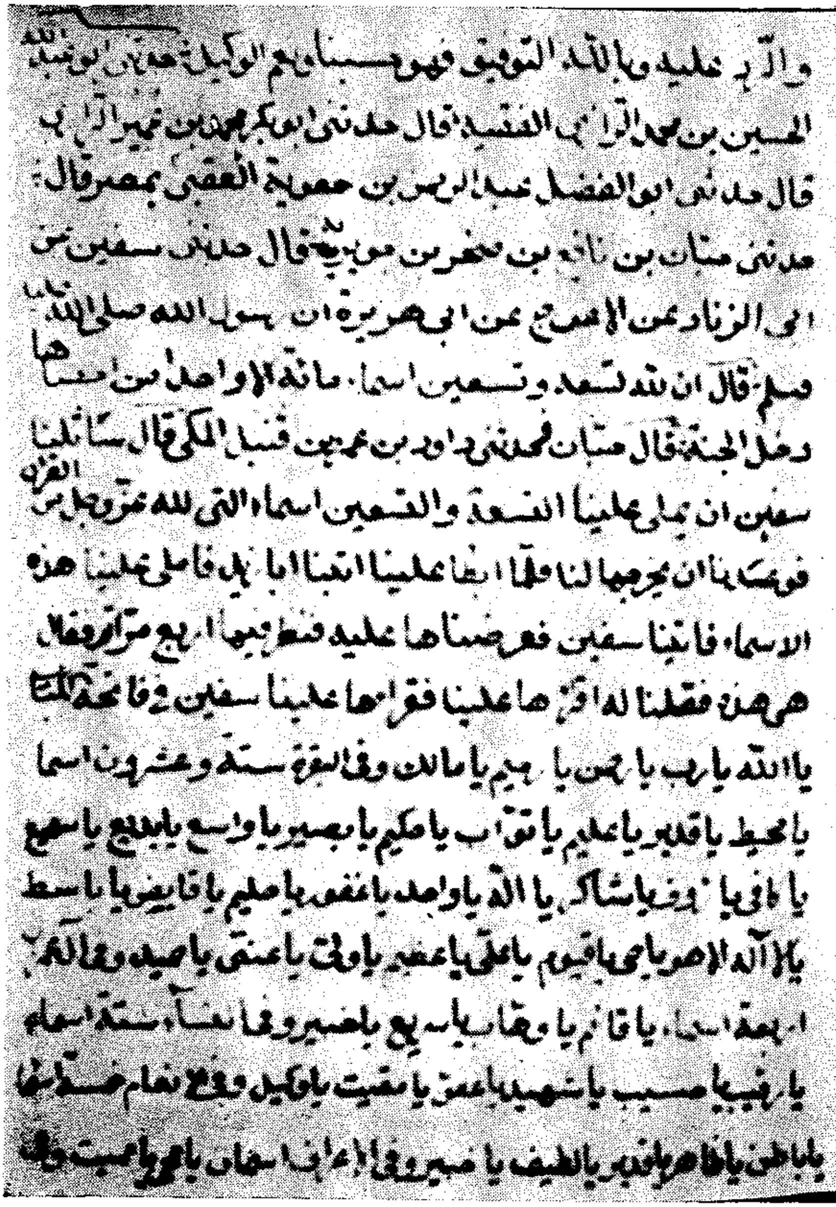
شرح مقدمة « أدب الكاتب » للزجاجي
صورة وجه الورقة الثانية وفيها أوله


قال ابن قتيبة أما بعد حمد الله بجميع محامده والثناء عليه بما هو أهله
والصلاة على رسوله المصطفى وعلى آله فإني رأيت أكثر أهل زماننا عن سبيل
الأدب ناكبين ومن اسمه متطيرين ولأهله هاجرين قال أبو القسم
أما حرف مضمن معنى الجزاء ولا بد له من الجواب بالفاء المتضمنة معنى الجزاء كقولك
أما زيد فكريم وأما عبد الله فمنطلق ترفع ما بعد أما بالابتداء وهو مقدم
مما بعد الفاء قال سيبويه مهما يكن من شيء فعبد الله منطلق
فالاسم الذي يلي أما مقدم مما بعد الفاء ولا يجوز أن يليها إلا الأسماء لأنها
نائبة عن حرف الجزاء والفعل المجازى به ولا بد للفعل من فاعل فلذلك وليتها
الأسماء دون الأفعال وإن وقع بعد الفاء فعل ناصب عمل في الاسم الذي
بعد أما فنصبه وزال الابتداء كما يزول في غير هذا الموضع بدخول العوامل
فتقول أما زيدا فلقيت وأما عبد الله فأكرمت قال الله عز وجل فأما
اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وفي كلام العرب أما أخرى
وهي [illegible] مركبة من حرفين من أن وما وذلك قولك أما أنت منطلقا انطلقت
معك وأما أنت بارا أبرر معك قال سيبويه يعني أن كنت بارا
أبرر معك أي لأن كنت بارا أبرر معك فموضع أن نصب بفعل [illegible]
[illegible] ولحقت [illegible] الشرط [illegible] وزيدت ما عوضا من حذف
الفعل ولا يكون [illegible] الأ [illegible] كما ترى وللخبر [illegible]
وأنشد سيبويه أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع
الضبع السنة المجدبة الشديدة [illegible] ما ههنا عوضا [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible] ولا يجوز [illegible] الفعل [illegible]

شرح مقدمة « أدب الكاتب » للزجاجي
صورة ظهر الورقة الثانية وفيها أوله


بسم الله الرحمن الرحيم
قال ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجي وقراه عليه الحمد لله
الملك الحق المبين ذي القدرة والجلال والبهاء والعزة والعظمة والسلطان
الحكيم القديم الاحد الفرد الصمد العليم ذي الاسماء الحسنى
والصفات العلى الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا خالق الخلق
بقدرته ومصرفه على ارادته ومفنيه عند انقضاء مدته احمده
على ما ابلى وانعم واولى واسأله العون على طاعته والتوفيق لما يحب
ويرضى وصلى الله على خاتم المرسلين وافضل النبيين محمد
وآله الطيبين الطاهرين هذا كتاب افردته لشرح اشتقاق
اسماء الله عز وجل وصفاته المذكورة في القرآن مع جمعها
وما [illegible] رواها اهل العلم واستنبطوها بعد
الرواية بشواهد من كتاب الله عز وجل فاستخرجت ما منه
لم يعارض فيها شك ولا يختلج في الصدر [illegible]
بها على مذاهب العربية العلماء باللغة العارفين باساليب
كلام العرب واشتقاقه [illegible]
العرب في ذلك [illegible] بالفرق بين الاسم والنعت
ووجوه النعت في كلام العرب ونحوها من صفات الله عز وجل
[illegible] بالاشتقاق ومن ابى [illegible]

كتاب اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل
وما يتعلّق بها من اللغات والمصادر والتأويل للزجاجي
صورة وجه الورقة الثانية وفيها خطبته



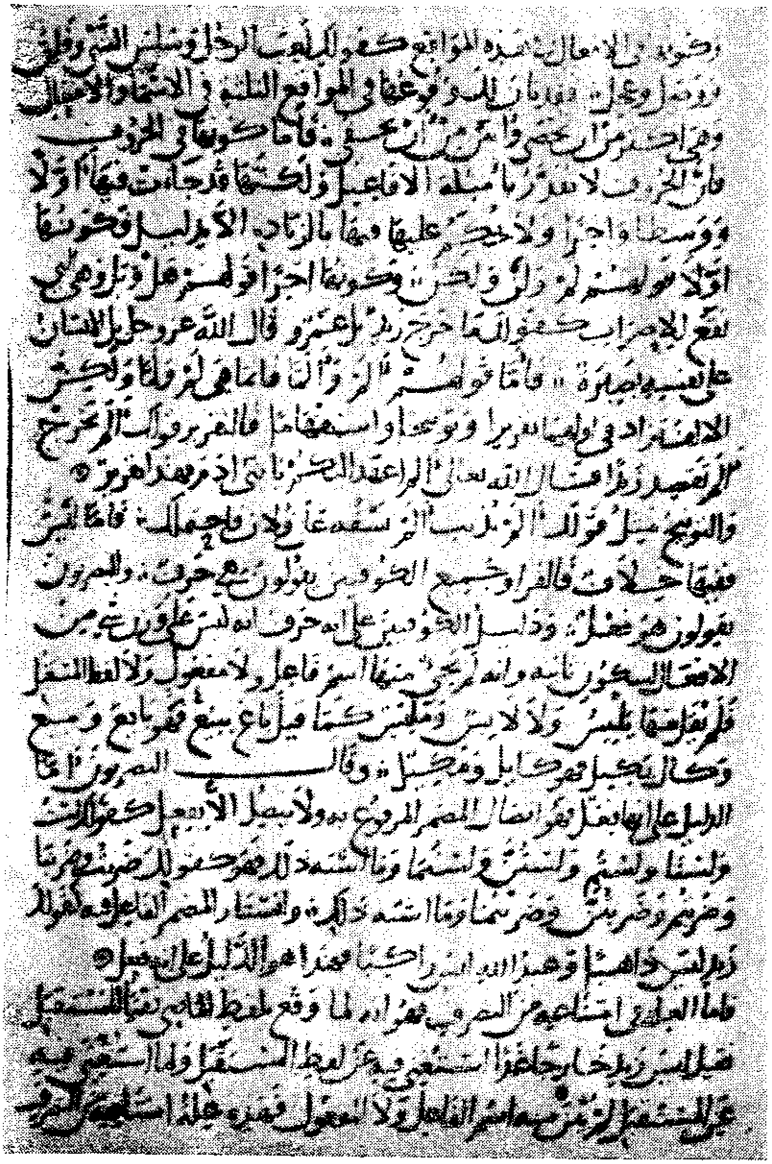
كتاب اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته المستنبطة من التنزيل
وما يتعلّق بها من اللغات والمصادر والتأويل للزجاجي
صورة ظهر الورقة الثانية وفيها خطبته



بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله هو حسبي
قال أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق الزجاجي رحمة الله عليه
هذا كتاب مختصر في ذكر اللامات ومواقعها في كلام العرب
وكتاب الله عز وجل ومعانيها وتصرفها والاحتجاج لكل نوع
من مواقعها وما للناس في بعضها من الخلاف وبالله التوفيق
فاللامات اثنتان وثلاثون لاما
لام الإضافة لام التعريف لام الملك لام الاستحقاق
لام كي لام الجحود لام إن لام الابتداء
لام التعجب لام تدخل على المقسم به لام تكون جواب القسم لام المستغاث به
لام المستغاث من أجله لام الأمر لام المضمر لام تدخل على ...
لام تدخل في النداء بين المضاف والمضاف إليه لام تدخل على الفعل المستقبل
لام مدة في القسم ولا يجوز حذفها لام تلزم إن المكسورة إذا خففت من الثقيلة
لام العاقبة ويسميها الكوفيون لام الصيرورة لام التبيين
لام لو لام لولا لام التكثير لام تزاد في عبدل وما أشبهه
لام تزاد في ذلك لام إيضاح المفعول من أجله لام تعاقب حروفا
وتعاقبها لام تكون بمعنى أن لام الشرط لام توصل الأفعال
إلى المفعولين وقد يجوز وصل الفعل بغيرها باب ذكر اللام الأصلية
اعلم أنها تكون في الأسماء والأفعال والحروف وتكون فاء وعينا ولاما
فكونها فاء قولك لعب ولهو ولحم وما أشبه ذلك كما قال الله عز وجل
إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وكذلك ما أشبهه وكونها عينا قولك
سلم وسلام كما قال تعالى السلام المؤمن المهيمن وكذلك السلم
كما قال تعالى وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وكونها لاما في الفعل قولك
ختل وجبل ونال ... وكذلك ما أشبهه فهذا وقوعها في الأسماء

كتاب اللامات للزجاجي

صورة وجه الورقة الثانية وفيها خطبة الكتاب وأوله



وتكون في الافعال في هذه المواضع كقولك ليذهب الرجل وليلبس الثوب [illegible]
[illegible] وعملها في المواضع الثلاثة في الاسماء والافعال
وهي احسن من [illegible] ان تحصى. فاما كونها في الحروف
فان الحروف لا تقوم بانفسها الا [illegible] ولكنها قد جاءت فيها اولا
ووسطا واخرا ولا يحكم عليها فيها بالزيادة الا بدليل. فكونها
اولا قولهم لم ولن ولكن. وكونها اخرا قولهم هل وبل وهي
تقع للاضراب كقولك ما خرج زيد بل عمرو قال الله عز وجل بل الانسان
على نفسه بصيرة. فاما قولهم ألا وألا فانما هي لا [illegible]
[illegible] تقريرا وتوبيخا واستفهاما فالتقرير قولك ألم اخرج
الم [illegible] قال الله تعالى ألم اعهد اليكم يا بني آدم وهذا تقرير
والتوبيخ مثل قولك [illegible] فلان [illegible]. فاما ليس
ففيها خلاف فالفراء وجميع الكوفيين يقولون هي حرف. والبصريون
يقولون هي فعل. ودليل الكوفيين على انه حرف انه ليس على وزن شيء من
الافعال [illegible] وانه لم يجئ منها اسم فاعل ولا مفعول ولا لفظ المستقبل
[illegible] كما قيل باع يبيع فهو بائع [illegible]
وكال يكيل فهو كائل ومكيل. وقال البصريون [illegible]
الدليل على انه فعل اتصال المضمر المرفوع به ولا يتصل الا بفعل كقولك لست
ولسنا ولستم ولستن [illegible] كقولك ضربت وضربنا
وضربتم وضربتن [illegible] واستتار المضمر [illegible] كقولك
زيد ليس ذاهبا [illegible] الدليل على انه فعل
فاما العلة في امتناعه من التصرف فهو انه لما وقع بلفظ الماضي نفيا للمستقبل
[illegible] عن لفظ المستقبل [illegible]
[illegible] اسم الفاعل ولا المفعول [illegible]

كتاب اللامات للزجاجي

صورة ظهر الورقة الثانية وفيها خطبة الكتاب وأوله

نظرة في

معجم المصطلحات الطبية

الكثير اللغات

الدكتور ا . ل . كليرفيل
نقله الى العربية الأساتذة مرشد خاطر وأحمد حمدي الخياط
ومحمد صلاح الدين الكواكبي
(لجنة المصطلحات العلمية في كلية الطب من جامعة دمشق)

— ٤ —

رقم المصطلح — رقم المصطلح

١١٣٢ مَرَض مَفْصِلي عَصَبي سهامي Arthropathie nerveuse tabétique 1132

وأفضل أن يقال: اعتلال المفصل التابسي (1) .

١١٣٥ فُقاس، مَرَق، داء مفصلي حَثَلي مندن أو مشوّه Arthrose, Arthropathie dystrophique dégénérative ou déformante 1135

ويعني بـ (Arthrose) التبدل الطارئ على أحد المفاصل بسائق الشيخوخة والهرم . وترجم بجمع اللغة بداء المفصليات ، وترجم Deptrophie بسَغَل و (Dégénération) بفساد .

ودرج كاتب هذه السطور على ترجمة الكاسعة Ose بتنكس كما هو الواقع التشريحي في هذه الفئة من العلل فيكون ترجمة (Arthrose) تنكس

(١) سبقت الملاحظة على كلمة تابس و Arthropathie الأولى في الصفحة ٩٨ من الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين ، والثانية في الصفحة ٤٧٨ من الجزء الثالث من المجلد نفسه .

المفصل ، ثم اعتلال المفصل (Arthropathie) بسوء التغذية (Dystrophia) التنكسي (Dégénération) أو المشوه ، وهي الترجمة الكاملة لما جاء في كلمات هذا المصطلح .

أما ما جاء في ترجمة اللجنة : فقاس فقد جاء في اللسان الفقاس داء شبيهٌ بالتشنج ولا أراه يفيد المعنى المطلوب وكذلك كلمة مَرَق ففي اللسان أيضاً ومَرِق الشيءُ مَرَقاً خَفِيَ ، ومَرِقَت مفاصلُه وانمرقتْ ضعفت . وأما حَثَل وسَغَل (١) كلاهما يدل على سوء الغذاء وحريّ بأن يخصص بما يعرض للرضَّع من ضعف وهزال من سوء الغذاء . ولا أظن التنكس إلاّ أفضل من التدني والفساد (٢) في ترجمة (Dégénération) .

1147 Articulation de poli- فَخَخ ، مفصل ارتفاقي ١١٤٧
chinelle, amphiarthrose

وسقط في الطبع من الأصل الفرنسي كلمتان لم تنتبه اللجنة اليهما . ففي الأصل :
Art. ballotante de polichinelle amphiarthrose, articulation mixte

وتكون الترجمة لهذا المصطلح بكامله : مَفْصِل خيال الظل (٣) المهتز

---

(١) لقد جاء في اللسان الحَثَل سوء الرضاع والحال ، وقد أحثلته أمه والمُحْثَل السيء الغذاء الى أن قال احثَلْتُ الصبي إذا أساءت غذاءه وأحثله الدهر أساء حاله . أما سَغَل فقد جاء في اللسان ايضاً السَغِل الدقيق القوائم الصغير الجثة الضعيف والاسم السَغَل ، والسَّغِل والوَغِل السيء الغذاء المضطرب الأعضاء السيء الخُلُق يقال صبيٌّ سَغِلٌ بيّن السَغَل .

(٢) في اللسان التَكْسُ قلب الشيء على رأسه ، وقال وقوله تعالى : ومن نُعمّره نُنكسْه في الخَلْق معناه من أطلنا عمره نكسنا خلقه فصار بدل القوة ضعفاً وبدل الشباب هرماً . وفي اللسان أيضاً والمدنّي من الناس الضعيف الذي إذا آواه الليل لم يَبْرحْ ضعفاً .

(٣) (Polichinelle) عُرف بخيال الظل وتدعوه العامة في ديار الشام كراكوز وفي مصر أراجوز وكلاهما تصحيف لكلمة قره كوز التركية ومعناها العين السوداء .

المفصل المزدوج ، المفصل المختلط . أما الفَخَخُ فقد جاء في القاموس المحيط : الفَخُ استرخاء الرِجْلَيْن كالفَخَخ والفَخة . ولا أراها تفيد المعنى المطلوب والمفصل الارتفاقي أفضل منها .

1156 Arythmie عدم انساق ١١٥٦

والمشهور هو عدم الانتظام وإن شئت اللا انتظام ، وهو ما نراه في كتب الأقدمين الطبية [١] أيضاً كما أن مجمع اللغة أقر عدم النظم ونشوز النظم .

1158 Arythmie perpétuelle, عدم انساق دائم ١١٥٨

delirium cordis ثم هذيان قلبي

والأصح أن يقال عدم الانتظام الدائم وهذيان القلب بسبب حركته اللانظامية ، وقد يفهم من هذيان قلبي هذيان من منشأ قلبي .

1162 Ascaride lombricoïde ، صَفَر ، حيّة البَطْن ١١٦٢

دودة خراطينية

وأقر مجمع اللغة اسكارس لمبريكوئيد والصفر الخراطيني .

وعندي أن يقتصر على اسكارس . فقد جاء في اللسان : والصَّفَر داء في البطن يصفر منه الوجه والصفر حيّة تلزق بالضلوع فتعضها الواحد والجميع في ذلك سواء وقيل واحدته صَفَرَة وقيل الصَّفَر دابة تعض الضلوع والشراسيف ، وقيل الصَّفَر حَنَش البَطْن . أقول ونحن في غنى عن هذا كله باقتصارنا على اسكارس أو اسكاريد ، ولا صلة بين هذه الديدان وصنف الحيّات .

(١) قانون ابن سينا الفن الثاني الفصل الأول كلام كلي في النبض الصفحة ٦٤ من طبعة روما . وكذلك في الصفحة ٢٦٣ من الجزء الأول من كامل الصناعة للمجوسي .

1165 Ascite, bydropéritoine سِقْي (سائل الجن) ١١٦٥

استسقاء الصفاق

وأقر مجمع اللغة استسقاء لكلمة (Ascite) . والأفضل أن تخصص كلمة استسقاء بـ (Hydropisie) أو (Anasarque) شأن ما عملته اللجنة .

أما الصفاق فقد تقدم ترجيحي تخصيصها بـ (Aponévrose)[1] .

1172 Asile d'aliénés مأوى المجاذيب ١١٧٢

وتقدمت ملاحظتي على المجاذيب[2] وأرجح أن يقال مأوى أو ملجأ المجانين .

1184 Assainissement تصحيح ١١٨٤

وأرجح أن يقال اصلاح صحي .

1200 Assourdissement des bruits اصمام الأصوات ١٢٠٠

والأرجح اصمام الدقتين أو خفتهما إذا كان الأمر متعلقاً بالقلب[3] .

1202 Assurance contre les تأمين ضد الطوارئ ١٢٠٢

accidents du travail استمهاد ضد الطوارئ

وأفضل أن يقال تأمين ضد الإصابات .

1205 Astasie غَيَف (عدم القدرة على الوقوف) ١٢٠٥

وأقر مجمع اللغة العجز عن الوقوف . والأفضل أن يقال لا وقوف قياساً على ما تقدم في المصطلح ذي الرقم ٧[4] . لأن المصاب بهذا الخلل لا يستطيع الوقوف بينما حركات رجليه تبقى صحيحة .

---

(١) الصفحة ٤٧٥ من الجزء الثالث من المجلد الرابع والثلاثين .

(٢) الصفحة ٣١٥ من الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين .

(٣) الصفحة ٣٠٥ من الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين في اللفظة ذات الرقم ٦٩

(٤) الصفحة ٣٠٢ من الجزء الثاني من هذه المجلة (المجلد الرابع والثلاثون) .

أما التعيّف وقد جاء على وزن فَعَل الوزن الذي اختارته اللجنة للدلالة على المرض بالاشتقاق من تعيّف فقد جاء في اللسان تعيّف تبختر ، وتعيّف مشي مِشيَة الطوّال ، وقيل تعيف مرّ مراً سهلاً مريماً وتعيّف الفرس اذا تعطف ومال في أحد جانبيه . ولا أرى في هذه الكلمة ما يفيد معنى (Abasie) .

1205 Astasie - abasie, ataxie par défaut de coordination automatique — رَجَز ، خَطَران بنقص الانتظام الانطلاقي ١٢٠٥

وأقر مجمع اللغة كلمة قُماد [1] .

وأرجح أن يترجم هذا المصطلح بلا خطو ولا وقوف والأتاكسيا بفقد الانسجام التلقائي .

أما الرَجز فقد جاء في اللسان داء يصيب الإبل في اعجازها ، والرَجز أن تضطرب رجل البعير أو فخذاه اذا أراد القيام او ثار ساعة ثم تنبسط ، والرَجز ارتعاد يصيب البعير والناقة في أفخاذهما ومؤخرهما عند القيام .

وأما الخَطَران ففي اللسان: خَطَر يَخْطِر اذا تبختر، والخَطِر والخَطَران عند الصولة والنشاط وهو التصاول والوعيد .

ولا أرى في كليهما دلالة على معنى اللفظة المذكورة .

1215 Asthme allergique — رَبْو تجاوبي ١٢١٥

أقول رَبْو آليرجياني [2] .

1216 Asthme cardiaque — رَبْو قلبي ١٢١٦

---

(١) الصفحة ٣٠٢ من الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين ، وقد تقدم فيها رأي كاتب السطور في هذه الكلمة .

(٢) الصفحة ٣١٨ من الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين .

وأرجح رَبْو قُلابي نسبة الى القُلاب وهو علة القلب ، لأن هذا النوع من الربو يبدو في المقلوب (العليل بعلة قلبية) .

1218 Asthme des foins رَبْو الحشائش ، حمى الحشائش ، زكام الحشائش ١٢١٨
fièvre des foins
rhume des foins

أقول رَبْو الكلأ ، حمى الكلأ ، زكام الكلأ . فقد جاء في اللسان الكلأ العُشْب رَطْبُه ويابسه ، وهو المقصود هنا لأن هذا النوع من الربو الآليرجيائي منه ما يتأتى عن الرَطْب من الكلا ومنه ما ينجم عن يابسه .

1221 Asthme symptomatique رَبْو عَرَض ، رَبْو موهم ١٢٢١
أقول رَبْو عرضي ، رَبْو كاذب [1] .

1223 Astigmatisme, astigmie حَرَجُ البَصَر ١٢٢٣

وأقر مجمع اللغة اللابؤرية والاستجمية معرّبة . وهو خلل في طبقات العين من شأنه أن يجعل ارتسام المرئيات على الشبكة لا يتم بشكل نقطي بل بشكل خطي ، مما يجوّز استعمال الابؤرية على هذا الخلل .

أما حَرْج [2] البصر فلا أراه يفي بالمعنى المذكور فقد جاء في اللسان : وحَرِجَت عينُه تحرَجُ حَرَجاً أي حارت ، وقيل معناه أنها لا تنصرف ولا تَطْرِفَ من شدة النَظَر وقال الحَرَجُ أن ينظر الرجل فلا يستطيع أن يتحرك من مكانه فَرَقا وغَيْظاً .

(١) الصفحة ٤٦٩ من الجزء الثالث من هذه المجلة (المجلد الرابع والثلاثون) في اللفظة ذات الرقم ٧٣٤ .

(٢) أرى في ضبط هذه اللفظة غَلَطاً مطبعياً لم تنتبه اللجنة الى تصويبه إذ لم أعثر في اللسان ولا في التاج إلا قوله وحَرَجَ الرجل أنيابه يحرُجُها حَرْجاً حك بعضها الى بعض من الحَرَد .

1232 Ataxique مُتَهَزِّع ، هَزَعي ١٢٣٢

1233 Ataxie تَهَزّع ، اضطراب الحركة ١٢٣٣

وأقر مجمع اللغة تخلّج لكلمة (Ataxie) •

أقول ان الترجمة اللفظية لهذا المصطلح هو اللاانتظام أو عدم الانتظـام ، وتطلق على الاضطراب البادي في حركة العضلات في الطرفين العلويين أو السفليين • وقد درجت على استعمال أتاكسيا • أما تخلج فقد جاء في اللسان : وتخلّج المجنون في مشيته تجاذب يميناً وشمالا والمجنون يتخلج في مشيته أي يتمايل كأنما يجتذب مرة يمنة ومرة يسرة ، وتخالج المفلوج[1] في مشيته أي تفكك وتمايل والتخالج في المشي مثل التخلع • فالتخالج إذن خلل خاص بالمشية وذو صلة بالطرفين السفليين بينما الأتاكسيا ينبغي أن تشمل اضطراب الحركة في عضلات الطرفين العلويين والسفليين على السواء •

وأما التهزع فقد جاء في اللسان أيضاً الهَزَع والتهزع الاضطراب ، تهزع الرمح اضطرب واهتز واهتزاع القناة والسيف اهتزازهما اذا هُزا ، وتهزعت المرأة اضطربت في مشيتها • أقول واذا دلّ التهزع على الاضطراب في الحركة فلا أراه يفي بالمعنى المقصود من أتاكسيا •

1234 Atélectasie, état foetal du poumon, pneumonie marginale; apnematosis هُمُود الرئة ، حالة جنينية للرئة ، ذات الرئة الهامشية ١٢٣٤

---

(١) ودرج كاتب السطور عن استعمال التخلج في المشية أو المشية التخلجية للدلالة على (Démarche en fauchant) وهي المشية البادية في المفلوج •

وأقر مجمع اللغة لا تمدد ترجمة لـ Atélectasie ، ودرجت على استعمال كلمة الخماص[1] فأقول في ترجمة هذه الألفاظ : انخماص ، حالة جنينية للرئة ، ذات الرئة الهامشية واللارئوية (وقد أهملت اللجنة ترجمتها) .

1239 Athymie فتور ، لا سَعْتَرية ١٢٣٩

وأرجح أن يقال لا شعور ولا توتة . فالكلمة الأولى هي الترجمة الحرفية لـ (Athmie) في معناها الأول . أما اطلاق الغدة السَعْترية عن (thymus) فلا أظن الكلمة مشتقة من السعتر ، وهي التوتة وقد أقر مجمع اللغة هذه الكلمة .

1284 Atypique غير مثالي ١٢٨٤

وأرجح لا نموذجي .

1309 Autoinfection خمج ذاتي ١٣٠٩

وأرجح أنتان ذاتي وعدونة ذاتية[2] .

1336 Avitaminose داء لا حَيَميني ١٣٣٦

أقول عوز الفيتامين ولا أرى لزوماً لاستعمال حَيَمين عوضاً عن فيتامين الكلمة الدارجة في جميع اللغات .

---

(١) في اللسان : والخَمْص خماصة البطن وهو دقة خلقته ورجل خُمصان وخميص الحشا أي ضامر البطن إلى أن قال واخمص الجُرحُ وخمص الجرح يخمُص خُموصاً والخمص بالخاء والحاء ذهب ورمه كخمّص وانخمص .

(٢) الصفحة ٥٩ من الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين من هذه المجلة .

حرف B

1383 Bacille du charbon symptomatique عُصيَّة الجَمْرة المُشوَّهة ١٣٨٣

وأرجح عصية الجمرة العرَضية ما دمنا نطلق العرَض على (Symptome) .

1384 Bacille diphtérique (de Klebs - Lœffler) عُصيَّة غِشائية (عُصيَّة كليبس - لوفلر) ١٣٨٤

وأرجح عُصيَّة دفتريائية أو خانوقية ، وأن نخص غشاء الترجمة (Membrane) .

1386 Bacille pseudodiphtérique عصية مشبهة بالغشائية ، عصية شبغشائية ١٣٨٦

وأرجح عصية دفتريائية كاذبة .

1397 Bacille du rouget de porc عُصيَّة حَصْبة الخِنزير ١٣٩٧

والصحيح عصيّة حُمْرة الخِنزير لأن الاسم الفني لهذه العصية هو (Bacillus legripelas mès)

1409 Bacilles anaérobies de la putréfration (provoquant la formation de gaz). عصيات التّدعُّص اللاهوائية (والمولدة للغاز) ١٤٠٩

وأرجح عصيات التفسخ اللاهوائية باعتبار التفسخ كلمة دارجة ومعروفة .

1415 Bacillus botulinus عصيات نَقانِقيّة ١٤١٥

وأقر مجمع اللغة باسيل التسمم المباري ، باسيل التسمم اللقانقي .
ودرجت على استعمال التسمم الوشيقي ترجمة لـ (Botulisme) وهو الانسمام الانسمام الناجم عن أكل اللحوم المقدَّدة (المحفوظة) . فقد جاء في اللسان :

الوَشيقُ والوَشيقةُ لحم يُغلى في ماء ملح ثم يُرفع ، وقيل هو أن يُغلى إغلاءةً ثم يرفع وقيل يُقدَّد ويحمل في الأسفار وهي أبقى قديد .

1418 Bacillus œdematiens عُصيّات خازبة ١٤١٨

وأقر مجمع اللغة لهذه اللفظة باسيل اوديمي . والوَذَمة كلمة شائعة تعريب (Oedeme) استعملت في الكتب القديمة وأرجح ابقاءها فأقول عصيات موذمة .

1420 Bacillus prodigiosus عُصيات شُؤمية ١٤٢٠

وأقر مجمع اللغة الباسيل العجيب . لأن المعروف عن (Prodigieux) أنه العجيب أو الخارق للمادة وللطبيعة ولا أظن أن لهذه الكلمة من صلة بالشؤم . لهذا أرجح أن يقال العُصيّات العجيبة .

1432 Bactériostatique مُثبِتة الجراثيم ١٤٣٢

وأرجح موقفة الجراثيم ، لأن من شأن هذه الفئة من العقاقير أن توقف نمو الجراثيم وتكاثرها لا أن تثبتها ، والتثبيت يخصص لـ (Fixation) .

1485 Balantidiose (balantidiase) داء الزقّيات ١٤٨٥

وأقر مجمع اللغة معرباً هذه اللفظة بالبلانتيدية وهو الأرجح .

1532 Barbe de baleine, baleine لِحْية البال ، بال ١٥٣٢

وأرجح أن يقال ريش الحوت أو البال اذا جنحنا الى التعريب والمقصود من هذه اللفظة كما جاء في معجم لاروس النهايات الدقيقة من الصفحة القرنية البادية في فم الحوت والتي تتخذها لضبط صغار السمك . وجاء في الترجمة الانكليزية لهذه اللفظة (Whobbom) ومعناه عظم الحوت وفي الألمانية (Féochbèn) ومعناه عظم السمك .

1541 Barrière encéphaloliquidienne سد المائع الدماغي ١٥٤١

وأرجح العائقة الدماغية السائلة .

1551 Basané أسمر الى السواد ١٥٥١

أرجح أسْعَر . ففي اللسان والسُّعْرَة والسُّعَر لون يضرب الى السواد فُوَيق الأُدمة ورجل أَسْعَر وامرأة سَعْراء ، وجاء في ترجمة اللفظة الانكليزية (Sunburrned) وهي الوَمْحة فقد جاء في اللسان أيضاً الوَمْحَة الأثر من الشمس .

1629 Béri - béri, Kakke هُزال رُزِّي ١٦٢٩

وأقر مجمع اللغـة البَري ، وأشير هذه اللفظة الى علة مردها الى عَوَز الفيتامين ب ، وقد يفهم من هُزال رزي أن أكل الرز هو الباعث عليهـا وصلتها بالرز هو من الاقتصار على الغذاء به وخلوه من هذا النوع من الفيتامين ليس إلا .

1713 (4) Blocage des arborisations (٤) حصار التَّشجُّرات ١٧١٣

وأفضل حصار الغُصَيْنات .

1756 Botulisme, allantiasis انسمام بالبَخَص ، انسمام فصيدي ١٧٥٦

وأرجح الانسمام الوَشيقي أو الانسمام بالوَشيق (ينظر الى ما ورد في اللفظة ذات الرقم ١٤١٥ آنفاً) بعد أن سبق للجنة أن استعملت الانسمام النقانقي في ترجمة تلك اللفظة .

أما البَخَص فلا أراه يفي بالمراد [١] وكذلك الفصيد [٢] .

---

(١) في اللسان : البَخَص في العين لحم عند الجفن الأسفل ، والبَخَص لحم القدم ولحم فِرْسِن البعير ولحم اصول الاصابع مما يلي الراحة . إلى أن قال : هو لحم يخالطه بياض من فساد يحل فيه قال مما يدل على ان اللحم خالطه الفساد . اقول وهذا لا يدل على انه اللحم المقدد والمحافظ شأن الحال في كلمة الوَشيق .

(٢) في اللسان : والفصيد دم كان يوضع في الجاهلية في معى من فَصْدِ عِرْق البعير ويشوى وكان أهل الجاهلية يأكلونه ويطعمونه الضيف في الأزمة .

1759 Bouche d'égout صُنبور ١٧٥٩

وأرجح الكِرْياس ، ومدلول اللفظة الفرنجية المجرى أو الفتحة البادية في الشوارع والمتصلة بالكنيف (السياق) وعلى ذلك كانت الترجمة الانكليزية لهذه اللفظة (Street - grelly) وترجمتها مجرى الشارع وكذلك اللفظة الألمانية (Strossen eimlauf) أيضاً .

فقد جاء في اللسان : والكِرباس الكَنيف ، وقيل هو الكنيف الذي يكون مُشرفاً على سَطْح بقناة الى الأرض . أما الصنبور فقد جاء في اللسان فم القناة (دون أن تخصص بالكنيف وربما كانت القناة الرمح أو العصا) ، كما أن لهذه الكلمة معانٍ عديدة أخرى .

1781 Bouffée de chaleur هُبُو ١٧٨١

وأرجح هَبيب الحرارة أو فورتها . وهو ما تشعر المرأة القاعد[1] من حس الحرارة المباغت بين حين وآخر في بدء انقطاع طمثها ويعرف بين العامة بـ (الهبلة والهبلات) . وهي ثورة من الحرارة تدوم مدة قصيرة .

ولم أجد في الهُبُو[2] ما يدل على هبيب الحرارة المذكور .

(١) مجمع اللغة وفي اللسان : وقَعَدَت المرأة عن الحَيْض والولد تَقْعُد قُعوداً وهي قاعد انقطع عنها والجمع قواعد .

(٢) في اللسان : الهَباء التراب الذي تطيره الريح ، وما دَقّ من التراب ، وهبا الرَّماد يهبو اختلط وهَمَد ، إذا سَكَن لهَب النار ولم يطفأ جَمْرها قيل خَمَدت فإن طفئت البتة قيل هَمَدت ، فإذا صارت رَماداً قيل هبا يهبو وهو هابٍ ، الى أن قال الهَباء في الأصل ما ارتفع تحت سنابك الخيل ، والشيء المُنبَثّ الذي تراه في ضوء الشمس فشبه بها اتباعه الى أن قال الهَبْو الظليم .

1808 Boule émotive ou hystérique, globe hystérique ١٨٠٨ لُقمة تأثرية أو لُقمة هَرَعية، كرة هَرَعية

أقول لُقمة انفعالية أو لقمة هيسترياية ، كرة هيسترياية [1] .

1811 Boulimie, fringale ١٨١١ سُعار ، ضَوَر

وأرجح أن يقال بوليميا تعريباً أو الشَّهوة الكلبية .

فدلالة اللفظة الشعور بالجوع الشديد الذي لا يشبع به المصاب شأن ما يبدو في بعض العلل العصبية المخية والنفسانية .

واقترح مجمع اللغة الاستجاعة (الجوع البقري ، الجوع الكلبي) هذا ولا شك أن السُعار والضور كلاهما يفضل على الاستجاعة ، إلاّ أن الأمر لا يتعلق في الحقيقة بالجوع الحقيقي بل الأمر جوع كاذب والأحرى شعور بالجوع لا يستند الى أساس يبرره ، لذا أرجح الشهوة الكلبية وبوليميا ، اللفظتين اللتين استعملها من القديم أطباء العرب في مؤلفاتهم [2] .

1894 Bruit cardiaque souffle cardiaque ١٨٩٤ صوت قلبي ، نفخة قلبية

وأرجح دقة القلب [3] ، نغمة قلبية .

1896 Bruit clangoreux ١٨٩٦ صوت رنّان معدني (في التهاب الوتين المزمن)

(١) ينظر الى الصفحتين ٣٠٠ و ٣٠٥ من الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين من هذه المجلة .

(٢) الجزء الأول من كامل الصناعة ٢٣٥ والكتاب الثالث من قانون ابن سينا الصفحة ٣٣٩ (امل في الجوع واشتداده وفي الشهوة الكلبية) .

(٣) الصفحة ٣٠٥ من الجزء الثاني من المجلد الرابع والثلاثين من هذه المجلة في اللفظة ذات الرقم ٦٩ .

ودرجت على استعمال الدقة المُدَوية ما دام الأمر عائداً للقلب مترجماً (Clangor) بالدَّوي وتاركاً الرنين والرنة لترجمة (Résonance) شأن ما فعلته اللجنة في ترجمة هذه اللفظة (رقم ١١٧٦٤) .

1906 Bruit de pot fêlé, صوت الطاجن المشقوق ١٩٠٦

bruit métallique صوت معدني

وأرجح صَوْت الحُق المشقوق ، صوت معدني ، لأن اللفظة تشير الى الصوت الصادر عن الحُق الآنية المصنوعة من الفَخار .

حرف C

1933 Cabinet automatique à la tourbe مِرْحاض يلقي فيه التراب النحمي آلياً ١٩٣٣

وأرجح حُجْرة التراب التلقائية لتخصيص المِرْحاض لبيت الخلاء .

1934 Cabinet de consultation غُرْفة معاينة ١٩٣٤

وأرجح غرفة الاستشارة .

1939 Cachectique حارض ، حَرَضي ١٩٣٩

1941 Cachexie حَرَض ١٩٤١

وأقر مجمع اللغة الدَّنَف وهي الكلمة الشائعة بين الأطباء ، لذلك أرجح ابقاءها ، فأقول في اللفظة الأولى دَنَفي وفي الثانية دَنِف .

1943 Cachexie strumiprive, c. thyréoprive myxœdème opératoire حَرَض سِلْعي ، حَرَض الانجاد الدرقي ، خزب مخاطي بضعي ١٩٤٣

وأرجح دَنَف سِلْعي ، دَنَف حِرْمان الدرق ، وَذَمة مخاطية بضعية .

1961 Caféine, triméthylxanthine بنين ، مثلث المتيل كزانتين ١٩٦١

وأرجح تعريب اللفظة فأقول كافئين أو كفئين شأن ما أقره مجمع اللغة ، ونرى متبل كزانتين ترجيحاً أو متبل كزانتين الثلاثي .

١٩٨٠ الكَلسيوم (فحمات) ، فحمات الكِلْس ، انظر طباشير مهيأ — 1980 Calcium (carbonate de) carbonate de chaux

وأرجح كربونات الكلسيوم وكربونات الكِلْس .

٢٠١٤ حرّة ، سُعْر — 2014 Calorie

وأقر مجمع اللغة السّعور وأرجح تعريب اللفظة فأقول كالوري أو كالوريا .

٢١٢٩ صفة غالبة ، طبع غالب — 2129 Caractère dominant

ودرجت على استعمال صفة سائدة .

٢١٣٠ صفة غالبة أو حاكمة في مرض — 2130 Caractère prédominant d'une maladie

وأرجح هنا الصفة الراجحة في مَرَض .

٢١٣١ صِفة مكوَّنة ، طَبْع مكوَّن — 2131 Caractère récessif

وأقر مجمع اللغة صِفة قَهْرِيه ودرجت على ترجمة (récessif) بمتقهقـر فأقول صفة متقهقرة .

٢١٣٢ صفة شِقية ، طَبْع شِقي — 2132 Caractère sexuel

٢١٣٢ صِفة شِقية بدئية — 2132 Caractère sexuel primaire

٢١٣٢ صِفة شِقية ثانوية — 2132 Caractère sexuel secondaire

وأقر مجمع اللغة صِفة جنسية وهي اللفظة الشائعة بين الناس

٢١٣٣ فحمات التوتياء الطبيعية (مشوبة) — 2133 Carbonate de zinc naturel (impur)

وأرجح كربونات الزنك الطبيعية (مشوبة) .

2135 Carbone فحم ٢١٣٥

وأرجح كربون تعريباً تاركاً فحم لِـ (Charbon) .

2153 Cardia سُدْفَة ٢١٥٣

والمعروف عن اللفظة الفرنجية انها تعني فؤاد المعدة أو الفؤاد ، وهذا ما أقره مجمع اللغة و كتب التشريح قديمها وحديثها تستعمل كلمة فؤاد وهي الفوهة الكائنة بين المرئ والمعدة ، ولم أجد في كتب اللغة التي بين يدي ما يشير الى أن السدفة تعني فؤاد المعدة .

2157 Cardiopathie مَرَض قلبي ، قُلاب ٢١٥٧

وأرجح اعتلال قلبي[1] تاركاً القُلاب لِـ (Maladie cardiaque) .

2158 Cardio - thyréose قُلاب درقي ٢١٥٨

وأرجح انسمام درقي قُلابي ، لأن خلل القلب يتأتى عن الانسمام الدرق لا من الغدة الدرقية بحد ذاتها .

2161 Carence فاقة ٢١٦١

وأرجح عَوَز .

2161 Carence alimentaire فاقة غذائية ٢١٦١

عَوَز غذائي .

2261 (2) Carence en protéines (maladie par) ٢١٦١ (٢) بفاقة الهيولينات (داء)

أقول داء عوز البروتينات .

(للبحث صلة) الدكتور حسني سبح

(١) الصفحة ١٧٨ ، من الجزء الثالث من المجلد الرابع والثلاثين من هـذه المجلة في اللفظة ١١٣١ .

كتاب النفس

لابن باجة الأندلسي

- ٨ -

الفصل العاشر

القول في قوة التخيل

والقوة المتخيلة هي التي تدرك بها معاني المحسوسات [١] . وقد اضطرب بالناظرين نظرهم فيها . فمنهم من رآها حساً [٢] ، ومنهم من رآها ظنا [٣] ، ومنهم من حكم عليها بأنها مركبة من رأي وحس [٤] ، وبيّن أن هذه القوة ليست واحدة من القوى ولا مركبة منها [٥] . لأن [٦] ما يصدق على واحدة منها بالكل

(١) راجع ارسطو : Arist. : De An. III. 3. 427 a 17; II. 12. 424 a 18 ؛ ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، اهواني ص ٦٢ س ١٧ ؛ ١٥٠٦٥ ، حيدر اباد : ٥٧ و ٦٢ .

(٢) المخطوطة : نفسها .

(٣) عرّف ابن سينا الظن ، فقال : الشفا ، ورقة ١٩٢ الف ٣ : والظن هو الاعتقاد المميل إليه مع تجوز الطرف الثاني .

(٤) راجع ارسطو : Arist. : De An. III. 3. 427 a 21 ؛ وابن سينا عرف الرأى بقوله (شفا ، ورقة ١٩٢ الف ٣) : فالرأى هو الاعتقاد المجزوم به .

(٥) أرسطو : Arist. : De An. III. 3.427 b. 6; 428 a 25 ؛ ابن رشد تلخيص ، اهواني : ٥٩ ، حيدر اباد ، ٥٣ ، والمخطوطة الفارسية ، ورقة ٤٩ الف ١١ : پس بايد كرد مردمانی راكه ويم راقوتی پنداشتند ازرای وحس محود مركب ، وگفتنه چنانست ازانكه اگر مركب بودی ازحس ورایء محود بايستی كه حس ورایء محود كار كردندی دريك چيز درسپيدوسياه ومانه چنين يی بينيم . . . »

(٦) المخطوطة : لا ما يصدق .

يكذب على الجزء من الآخر ، ويأتلف في الشكل الثاني من الضرب الرابع منه وينتج الثالث الجزئي [1] .

أمّا الظن مقامه أن يصدق عند من يظنه ، ومن التخيل عند من هو له لا يمكن أن يصدق ، مثل أن يتخيل أنّ هذا الفرس ذو قرنين وهذا ما لا يظن ولا يمكن وجوده عنده [2] .

وأما الحس فإن كل حس فمحسوسه موجود [3] عند ما يحسه . وليس كل متخيل كذلك [4] ، بل قد يتخيل ما قد تلف ، وما لا يمكن أن يحسه .

ولا مركب من هذين . وذلك بيّن بما قلناه مما هذه القوة .

فنقول : أمّا انها [5] قوة تدرك الأمور التي تقدّم الإحساس بها ـ وهيها [6] غايبة عنا إما بفسادها أو بكونها غير معرّضة للمدرك ـ فذلك بيّن بنفسه .

---

(١) ولإنتاج الشكل الثاني من القياس يجب ان تختلف المقدمتان في الكيف (اي في الاثبات والنفي) وأن تكون المقدمة الكبرى كلية ، والأقسام المنتجة منه اربعة . والقسم الرابع يشمل الصغرى جزئية سالبة ، والكبرى كلية موجبة ، وينتج مثل القسم الثالث ، سالبة جزئية ، نحو بعض الانسان ليس بابيض ، وكل الانكليزي ابيض ، فبعض الانسان ليس بانكليزي . او ، بعض الخيالات ليست بثابتة ، وكل الآراء ثابتة ، فبعض الخيالات ليست بآراء .

(٢) راجع ارسطو : Arist. De : An. III. 3 427 b 17 ؛ ابن رشد : تلخيص ، اهواني ، ٦٠ ، حيدر اباد ٥٥ .

(٣) ارسطو : Anist. De An. II. 5. 417 b 20 - 24

(٤) ايضاً : De An.. III. 3 428 a 6 ؛ ابن رشد ، اهواني ٥٩ - ١٠٠ ، حيدر اباد ٥٠٥٤ .

(٥) المخطوطة : أن .

(٦) المخطوطة : وهبه .

وهذه القوة ليست للإنسان فقط بل وفي أكثر الحيوان غير الناطق [1] ، وليس للحيوان غير الناطق قوة أشرف منها ، وسنبين ذلك فيما بعد .

وهذه القوّة تعرض لها أن تصدق وتكذب بل هي في كثير من الأمور كاذبة [2] ، وهذه القوة بالطبع إذا كانت صادقة فإنها ضرورة تدرك الأمر وهو بالحال الذي أدركه الحس . وبيّن أن الأمور التي أدركتها هذه القوة ليست المحسوسات [3] (ورقة ١٦٢ الف) فإنها [4] تدرك محسوسات قد فسدت ، وأيضاً فلا يمكن أن تدرك بالذات المحسوس إلا بعد أن يتقدم إدراك الحس له إلا بعرض . وقد لخص كيف ذلك في الثانية من كتاب الحس [5] . وقد قيل [6] من قبل ان الحسّ المشترك قد يبقى فيه أثر المحسوس بعد غيبته

(١) قارن ابن سينا : الشفا ، ورقة ١٦٠ الف ١٢ : افعال النفس ثلاثة : افعال يشترك فيها الحيوان والنبات كالتغذية والتربية والتوليد ، وافعال يشترك فيها الحيوانات جلها ولاحظ فيها للنبات مثل الاحساس والتخيل والحركة الارادية ...

(٢) راجع ارسطو : De An. III 3. 428 a 11 ؛ ابن رشد : تلخيص ص ٦٠ ، حيدر اباد ٥٤ .

(٣) قارن تدبير المتوحد ، تحقيق أسين پلاسيوز ، ص ٧٢ : واما التي توجد عن العقل الفاعل فكلها صادقة بالذات لا بالعرض ، وكذلك ما يوجد عن الفكر الصادق ، وهذه الصور ليست صور الأجسام بعينها فتكون خاصة ، ولا هي ايضاً مجردة عن الهيولى فتكون معقولات عامة ، وليس توجد لها النسبة الخاصة ولا توجد لها حالات المعقولات العامة ، بل توجد بين الصور الخاصة والمعقولات .

(٤) المخطوطة : فانما .

(٥) قارن ارسطو : Arist. : De Memoria et Rem.. I. 449 b 31; 450 a 10 sq. . وهذه الرسالة قد ظهرت في جوامع ابن رشد العربية وكذلك في النص العربي وفي مخطوطات التراجم العبرية التي نقلت عنها كأنها كتاب ثان من كتاب الحس والمحسوس لأرسطو ، انظر : Averrœs Cordubenisis Compendia Librorum Aristotelis qui Parva Naturalia Vocuntur edd. Shields — Blumberg (The Medieval Academy of America, Cambridge MSS. 1949), P. 47.

(٦) المخطوطة : كان .

عنه[١] . ولكن تبين أن ذلك الأثر الذي قيل هنا هو الإحساس فإن للحس المشترك مع قوته على قبول صورة المحسوس قوةً على التمسك[٢] بها ؛ وبهذه القوة إذا صارت فعلا يعرض لكثير من الناس أن يرى شخصاً من غير أن يكون ذلك الشخص حاضرا[٣] . وهذا بين في المبرسمين الذين يعرض لهم في اليقظة[٤] ، فقد يعرض لبعض الأمزجة أن يكون ذلك صادقاً[٥] ، كما يعرض لذوي الحس المحمود . وذلك أن الحس[٦] المشترك اذا قوي وضعف

(١) قارن ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الاهواني ص ٦٤ ، ١٣٠ ، حيدر اباد ٥٩ .

(٢) راجع ارسطو : De Somniis, 2. 459 b 8—9 ; 460 b 1 ؛ ابن رشد : الاهواني ص ٦٣ .

(٣) ايضا : De Memoria I. 450 b 18 ; De Somniis, 3. 461 b 1

(٤) أيضا : De Somniis. 2. 458 b 26 — 29 ; 3. 460 b 29 — 30 ويقول الفارابي وابن سينا : « الممرورون والمحرورون » في موضع « المبرسمين » واللفظ الآخر شائع في كتب المتأخرين (انظر الهدية السعيدية لفضل الحق الخير ابادي ، ص ١٧١ : ولعل الفطرة السليمة يحكم بانه لايفرق الانسان بين مشاهدة صور يدركها بحواسه الظاهرة وبين مشاهدة صور يشاهدها في الرويا أو عند الابتلاء بالبرسام ، وص ١٧٢ : وكذا الحال في الرويا وبالجملة فحال تلك الصور المشاهدة للبرسم أو النائم كحال الصور المشاهدة لصحيح اليقظان في كونها مدركة جسمانية ، وفي ص ١٧٧ : وفيه ان المشاهدة قد تكون من دون الحضور عند الحواس كما في مشاهدة المبرسم والنائم .) ، والبرسام التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب ، وانظر المدينة الفاضلة تحقيق ديتريصي ، ص ٥٣ ، والشفا (ورقة ١٨٠ ، ١٩٠ : والصورة اذا كانت في الحس المشترك كانت محسوسة بالحقيقة فيها حتى اذا انطبع فيها صورة كاذبة في الوجود احسّه كما يعرض للممرورين .

(٥) لعل ابن باجة اشار الى كيفية « الهذيان » (Hallucination) ، انظر ابن سينا ، الشفا ، ورقة ١٨٣ ب : فإن شغلت المتخيلة من الجهتين جميعا ضعف فعلها ، وإن زال عنها الشغل من الجهتين كلتيهما كما يكون في حال النوم ، او من جهة واحدة كما يكون عند الأمراض ..... وكما عند الخوف .... ووقوع امر جسدانية ..... فتلوح الصور التي في المصورة في الحاس المشترك ، فترى كأنها موجودة خارجاً .

(٦) المخطوطة : محس .

مزاج الحاسة انفعلت الحاسة عن الحس المشترك ، وقبلت الأثر ثم تحرك عنها الهواء الضامّ فقبل الأثر وصار كالشبح [١] ، ثم عاد الأثر فحرك الحاسة ، وحركت الحاسة الحس المشترك ، وقد تلخص ذلك في الثانية [٢] من كتاب الحس [٣] وتبرهن السبب فيه .

وهذه الإحساسات هي معاني المحسوسات ، ومن شأن المعاني كما تبين في الحسّ أن تحرك الهيولى التي هي قابلة بالطبع . فهي اذا كانت احساسات وفارقت [٤] < كانت > أحرى بذلك . وبيّن أن الهيولى [٥] أحرى مجانسة للحس المشترك موجودةً ، فتحركها الإحساسات فندرك معاني المحسوسات . وليس يمكن أن تصير الإحساسات بعينها فيها ، فإن ما لا ينقسم لا يتحرك . وأيضاً فلا يمكّن ذو الهيولى الهيولى إلا على ذلك النحو بأن يحرّك قوة أخرى هي هيولى له . وهذه الأنواع من الهيولى ليست الهيولى الأولى بل هي متباينة لها ، كما تبين ذلك قبل . بل يقال على كل واحد منها هيولى باشتراك . فهذه هي القوة المتخيلة .

والخيال يقال بتقديم منه [٦] وتأخير ، وهو يقال بالجملة على محاكي الشيء . فإذا قيل بتقديم قيل على ما يحاكي شخصها شخصاً من أشخاص المشار اليه . وقد يقال على ما يحاكي النوع ، وقد يقال على شخص النوع من جهة ما يحاكي ذلك

---

(١) راجع ارسطو : De Somniis. 3. 462 a 10 — 14 ؛ وابن سينا ، الشفاء ، ورقة ١٨٣ ب : ولهذا ما يرى الانسان المجنون والخايف والضعيف والنائم أشباحاً قايمة كما تراها في حال السلامة بالحقيقة ويسمع أصواتاً كذلك .

(٢) المخطوطة : الثامنة .

(٣) قارن أرسطو : De Somniis. 2. 460 b 5 — 25 .

(٤) أيضاً : Arist. 2. 459 a 25 — 27 .

(٥) المخطوطة : هيولى .

(٦) المخطوطة : منها .

النوع [١] . ولذلك يسمي فلاطن المحسوسات خيالاً . وقد يقال على غير هذه الانحاء . وبيّن أن الاحساسات خيالات الجسمات ، فالقوة [٢] التي تدرك بها هذه الخيالات هي القوة التي بها تخيل . وهذه الخيالات متى لم تفعل في هذه القوة ولا حركتها لم يوجد الحيوان متحركاً بها ، وان الحيوان يتحرك حركات كثيرة من جهات كثيرة . فان الحيوان يسخن ويجف من جهة أنه من الاسطقسات من طريق أنه ذو كيف [٣] . (ورقة ١٦٢ ب) فبالقوة ينتقل من جهة أنه ذو أين فهو يستحيل بالقوة الانفعالية . وينفعل [٤] بالقوة المنفعلة ، ويبصر بالقوة الباصرة . فبعض هذه في الجسد كله مثل القوة الانفعالية ، وبعضها في عضو خاص مثل القوة السامعة . وكذلك أيضاً يتحرك بالقوة المتخيلة .

ولما كان كل متحرك فله [٥] محرك كانت هذه القوة محركها في الاحساسات الموجودة في الحس المشترك وتحرك هي . فأما الذي عنه يتخيل شيء بعد شيء في وقت بعد وقت فهو [٦] المحرك الأبعد ، وهل هو واحد أو أكثر من واحد فقد تلخص الأمر فيه في الثانية من كتاب الحس [٧] . فقد تبين ما القوة الخيالية ، وما التخيل في الجملة .

---

(١) قارن زيلر (Zeller) : فلاطون (Plato) ، ترجمة الين و گدوين (Alleyne and Goodwin) ص ٢٣٩ ؛ والجمهورية : Republic X. 596 A/ Ritter. II. 306; 303 A 3

(٢) المخطوطة : بالقوة .

(٣) قارن أرسطو : (qualitative Change) De Somniis. 2. 459 b 1—5 .

(٤) المخطوطة : سعل .

(٥) المخطوطة : فانه .

(٦) المخطوطة : وهو .

(٧) قارن أرسطو : Arist. 3. 461 b 16 –24 (The residuary movements are like these)

والخيالات وهي كمال هذه القوة هي في هذه القوة نظير الاحساسات في الحس المشترك ، وبيّن أن صور الموجودات ـ اذا كانت خيالات ـ أشدّ تبرّيا [١] عن المادة من الإحساسات ، وإن القوة المتخيلة نسبتها إلى القوة الحساسة هذه النسبة إلاّ أنها غير متبرية جملةً عن الصور الهيولانية من جهة ما هي هيولانية . ولكنها بعيدة في الرتبة عنها . لأن هذه قد تفعل وإن لم تكن تلك حاضرة موجودة ، لكنها في وجودها مفتقرة إلى تلك ضرورة . فإن كان خيال يوجد عن غير تلك فذلك من غير جنس هذه ، وقد تلخص كيف الأمر فيها في مواضع .

والقوة المتخيلة لا تحرك حتى تحرّكها الإحساسات [٢] ، ومتى لم يكن إحساس لم تحرك هذه القوة ، وإذا لم يوجد ذلك الإحساس لم تفعل فيها ، فلذلك يعرض لها ـ إن قيل فيما لا ينقسم ـ إنتقال [٣] من شيء إلى شيء . فأما كيف ذلك فقد تلخص في الثانيـة من الحس . فلذلك متى شغل الحس المشترك ، أو أنزلناه بطل ، لم تفعله القوة المتخيلة وكانت قوة فقط . على ما يظن أنه يوجد ذلك عندما يحس بالأشياء المائلة في [٤] المشاء [٥] . فلذلك عدّت القوة المتخيلة في جملة القوى الهيولانية . ولذلك صار فعلها في النوم [٦] أظهر فإن النوم هو وجود الحس المشترك بالقوة فقط . وهو عند ذلك حافظ للوجودية الحاضرية ، فهو غير متحرك ، فهو محرّك فقط والقوة المتخيلة متحركة عنه فقط .

---

(١) قارن أرسطو : Arist. : De An. III. 4. 430 a 7 .

(٢) أيضاً : Arist. : De Memoria. I. 450 a 11 - 14 .

(٣) أيضاً : I. 451 a 8 .

(٤) المخطوطة : وفي .

(٥) قارن أرسطو : De Somniis. 3. 462 a 13 — 14 .

(٦) أيضاً : De Somniis et Vigilia, 3. 456 b 10 — 16 ; 457 a q, See Note 17

وأما في اليقظة عندما يحس بالمحسوسات المفرطية [١] فيشبه أن يكون عند ذلك متحركاً فقط ، فعند ذلك إما أن يبطل أو [٢] تصير قوته فقط ولا يشعر بها تحركه ، وقد تلخص هذا في مواضع كثيرة . فلذلك إذا بطلت الحواس بطلت هي . واذا بطل الحس المشترك بطلت . فلذلك تفسد (ورقة ١٦٣ الف) بفساد الحس المشترك ، وتوجد موجودة وهي تابعة له على ما المتحرك [٣] تابع للمحرك [٤] في الحال التي بها يُحرّك . لكنها في وجودها أشرف لأنها كالغاية له .

وعن هذه القوة يتحرك الحيوان حركات مختلفة ، وبها يتحرك الجزء النزوعي [٥] ، وبها يوجد الحيوان كثيراً من الصنائع وبها يرى الحيوان أولاده كالنمل [٦] والنحل [٧] ، وهي أشرف قوة في الحيوان غير الناطق ، ولا يوجد في الحيوان < غير > الناطق قوة أكمل من هذه القوة . فان القوى المحركة للحيوان

(١) قارن ارسطو : De An. III. 4. 429 a 31 – b 4 ; De Somniis , 2. 459 b 10 - 22 ابن رشد : الأهواني ، ص ١٥٤ س ١٧ – ٢٢ .
(٢) المخطوطة : و .
(٣) المخطوطة : المحرك .
(٤) المخطوطة : المتحرك .
(٥) قارن ارسطو : De An. III. 10. 433 a 20 .
(٦) المخطوطة : ويكون كالنمل .
(٧) قارن ارسطو : De An. III. 429 a 5 ؛ ابن سينا : الشفا ، ورقة ١٩١ الف ٢٥ : والحيوانات الأخرى وخصوصاً للطير صناعات ايضاً فانها تصنع بيوتاً ومساكن لا سيما النحل لكن ذلك ليس مما يصدر عن استنباط وقياس بل عن إلهام وتسخير ولذلك ليس مما يختلف ويتنوع واكثرها لصلاح انواعها والضرورة النوعية وليست للضرورة الشخصية .
وايضاً ورقة ١٩١ ب ٥ : وربما وقع هذا العارض في الجبلة ومن الإلهام الإلهي كحب كل حيوان ولده من غير اعتقاد البتة بل على نوع تخيل بعض الإنسان لشيء نافع او لذيذ ونفرته عنه .... ؛ وابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الأهواني ، ص ٧١ .

بالطبع التي هي فيه هي القوة الغاذية والحساسه وعن هذه كلها بوجد الحيوان الأفعال التي يقال لها أنها من ذاته ، لأن المحرك والمتحرك معا فيه ، وقد تلخص كيف ذلك في ثامنة السماع [١] .

فبيّن أن القوة المتخيلة كمال لجسم طبيعي آلي ، فهي اذاً [٢] نفس . وبيّن ما قلنا أنه لا يمكن أن توجد قوة أخرى غير هاتين أعني الحس المشترك والقوة الخيالية . وذلك أن الموجودات هي إما هيولانية وإما منتزعة . والهيولانية هي في [جسم] مشار اليه . والانتزاع حركة ، وكل حركة تغير أو تابع لتغير [٣] . والانتزاع تابع لتغير ، والتابع إما أولاً وإما ثانياً . فالأول هو الإحساس ، كما تبين قبل ، والثاني هو هذا . وإن كان هناك ثالث لزم ضرورة أن تكون في الموضوع حالٌ ينفصل بها الثاني من الثالث اذا كانا معاً من جنس واحد وإلاّ فبماذا يكون الثاني غير الثالث .

وهناك تحريك الموجود في الهيولى ، وهنا التحريك وهو ليس في هيولى أنواع ، والثواني معادة للأنواع ما لا في هيولى ، لكن ما لا في هيولى يقال على أنحاء : إما أن لا يمكن أن يكون في هيولى أن يبرهن وجود شيء بهذه الصفة ، أو ما يمكن أن يكون له هيولى لكنه مأخوذ بالحال التي هو مباين للهيولى وهو بها ما هو بأن يكون مأخوذاً بالوجود الذي يخصه ـ وهذا هو النطق على ما سنبين ـ أو ما هو في هيولى ، غير أنه مأخوذ من جهة ما هو . وهذا الجواز إما أن يكون يمكن فيه المفارقة ، وهذا هو الحس ، أو ما قد فارق ، غير أنه مأخوذ بالحال التي هو بها في هيولى ـ فهذه هي القوة المتخيلة الخيالية . ولذلك كانت

---

(١) قارن ارسطو : Phys. VIII. 256 a 02 .

(٢) المخطوطة : ذا .

(٣) قارن ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، الأهواني ، ص ٧٤ . وقد استعمل « قريب » و « بعيد » في موضع « اول » و « ثاني » .

القوة الخيالية تدرك الأشخاص [(١)] فقط ، فلأن الصور الهيولانية إنما حركت هذه القوى بالقوة التي فيها ، وهي التي تقدم تلخيصها قبل هذا [(٢)] . فصارت الاحساسات موجودة وكان لها قوة تحرك بها ، فحركت القوة الخيالية فصارت الخيالات موجودة . وهذه كلها عن غير الصور الهيولانية وهي هيولانية [(٣)] . ولم يمكن (ورقة ١٦٣ ب) فيها أن تحرك القوة المدركة الأمر الكلي [(٤)] حتى تحرك هذه الهيولانية المشار اليها ما يحركه جميع المشار اليه فتكون تحركها غير متناهية ، لأن التحريك عن وجود ، والوجود يقترن به التناهي . والمتحرك عن الهيولى وعن التناهي هو هيولى من جهة ما هي هيولى . وإنما يحرك الموجود المفارق تحريكاً غير متناه من جهة أنه لا يتحرك . وليس هناك ضد فليس هناك مفارقة . وإن كانت الهيولى قابلة أبداً فهو محرّك أبداً لأنه لو لم يحرك لكان متحركاً ، وكل متحرك فهو منقسم وكل منقسم فهو هيولاني . ولذلك تدرك القوة المتخيلة الصور الهيولانية من أحوالها التي تخصها في الوقت الذي تدركها فيه ولا تدرك منها ما لا يخصها في وقت الإدراك . ولا يمكن أن تدركها بجميع أحوالها التي تلحق الصورة محركة عن الأعراض المفارقة لها . ولذلك تدرك جميع لواحقها الذاتية وغير الذاتية كشيء واحد .

لكن قد يسأل سائل فيقول : كيف يتخيل الشيء الواحد بأحوال مختلفة

---

(١) إدراك الشخص هو إدراك المعنى في هيولى ، انظر ابن رشد : تلخيص كتاب النفس ، ص ٦٧ ، حيدراباد ، ص ٦٢ .

(٢) راجع النص نفسه : آخر الورقة ١٥٤ الف .

(٣) قارن أرسطو : De An. III. 7. 431 a 14 — 19 .

(٤) إدراك الكلي هو ادراك المعنى العام مجرداً من الهيولى ، والحس والتخيل إنما يدركان المعاني في هيولى . انظر ابن رشد : ٦٧ ، حيدراباد ص ٦٣ .

بعضها أدركت وبعضها لم تدرك فيه بل بعضها ممكنة فيه وبعضها غير ممكن . إلاّ أن ذلك في الإنسان فقط . فإنه الذي يركب ويفصل (١) . وهذه الحركة هي من قبل أسباب أخر وقد عددت في الثانية من كتاب أرسطو في الحس (٢) .

ولو كانت الخيالية تدرك المعنى وتدرك ما له أمكن أن يدرك فلا يمكن (٣) ذلك في العقل النظري . وأما في الظن فهو لشيء (٤) ممكن ، إلا أن الظن وقوته سنبين . إذاً بيّن ما القوة الناطقة . فأما في العلم فهو فعل القوة الناطقة ، فلا يمكن ذلك فيه البتة وسنبين لِمَ كان ذلك بعد هذا .

فالقوة الخيالية كالمجور بين الموجودات التي من شأنها أن تفارق الهيولى وبين الهيولانية قد أخذت من كل بقسط على ما من شأن الطبيعة أن تفعل دائماً ، فإنها لا تنتقل من جنس إلى جنس دون متوسط وقد لخص ذلك في مواضع كثيرة . وهذا آخر ما يحركه المحسوس المشار اليه .

ولما كان كل متحرك فهو مجانس للمحرّك على ما تلخص في غير هذا الموضع ، وكان الخيال شخصاً ولم يكن كليا . فان الكلي هو الطرف المقابل للشخص . وليست هاتان القوتان أوساطاً على ما هي الأوساط في الحرارة والبرودة حتى توجدان (٥) في الحس . والخيال جزء من الكلية كما يوجد ذلك فيما بين الحرارة والبرودة وإن الوسط فيه حر وبرد . فإنه ليس في الإحساس ولا في الخيال

---

(١) قارن أرسطو : De An. III. 6. 430 b 5 ؛ وابن سينا ، الشفا ، ورقة ١٨٣ الف : وان الحس المشترك يؤدي الى القوة المصورة على سبيل استخزان ما يوديّ اليها الحواس فتخزنه وقد تخزن القوة المصورة ايضاً اشياء ليست من المأخوذات عن الحس . فإن القوة المفكرة قد تتصرف ..... بالتركيب والتحليل ..... ، وابن رشد : ص ٣٠٦٨ ، حيدراباد ص ٧٠٦٢ .

(٢) قارن أرسطو : De Somniis, 2. 459 a 23 sq. .

(٣) المخطوطة : يدرك ما لا على .

(٤) المخطوطة : بسا .

(٥) المخطوطة : يوجد .

شيء من الكلي ، بل توجد لها[1] أحوال يكون بها بعضها أقرب إليه من بعض . وتلك الأحوال في الخيالات أكثر وأحرى بها[2] ، وأظهر منها[3] في الإحساسات . فإن الشخص ليس بمضاد للكلي (ورقة ١٦٤ الف) بل هو غيره بوجه ما ، وقد لخص أمره[4] أرسطو فيما بعد الطبيعة[5] .

وأما وجود الكلي فهو ضرورة عن أسباب أخر ، ولا يخلو <من> أن يكون الكلي كاينا أو غير كاين . فإن كان كاينا فهناك هيولى أو قوة تجري مجرى الهيولى ، وإن كان غير كائن حتى يكون التعلم تذكراً فقد يلزم إما أن يكون للصور على ما يراه فلاطن وهي التي نصّها سقراط في كتاب فاذن[6] ، فيكون للعقل حسّاً أو مجانساً له ، وإما للعقل قبل أن يعقل فيكون التعلّم تذكّرا .

وإذا نظر في الكلي ، وجدت له أحوال يلزم عنها أن يكون أزليا ، وأحوال يلزم عنها ضرورة أن يكون متكونا . وبالجملة فإن اللواحق الموجودة له توجد فيه على حال مقابلة لوجودها في الصور الهيولانية . وكيف كان وجودها في الصور الهيولانية ، وكيف كان ، فإن وجودها مبائن للوجود الهيولاني مباينة ظاهرة جدا . وأحراها أن تكون موجودة بنحو آخر من الوجود حتى يقال عليها وعلى الهيولانية الموجودة باشتراك ، وأخلق أن يكون الموجود يقال عليها بتقديم ، وإن كان أحرى بالوجود .

(يتبع) محمد صغير حسن المعصومي

(١) المخطوطة : لها .
(٢) قارن أرسطو : De An. iii. 8. 432 a 3 — 10 .
(٣) المخطوطة : عنها ، وبالهامش : منها .
(٤) المخطوطة : امرها .
(٥) قارن أرسطو : Met. Z. VII. 1035 b 29 .
(٦) Arist. Met. A. i. 991 b 3 .

قبور العظماء في دمشق

مقدمــة

درجت جميع أمم الأرض منذ الأزمنة القديمة على تمجيد عظمائها وأبطالها وتخليد ذكراهم بعد موتهم ، حتى بلغ الأمر عند بعض الأمم درجة تقديسهم وعبادتهم .

واليوم تحرص جميع البلدان الراقية على اقامة مقابر خاصة بالعظماء الذين أخلصوا لبلادهم وضحوا في سبيلها بأرواحهم أو سخروا سيوفهم وأقلامهم في سبيل خدمة أمتهم والرفع من شأنها .

ان تخليد ذكرى هؤلاء العظماء يقيم الدليل أمام المواطنين على أن الأمة لا تنسى أبناءها المخلصين العاملين ، وتحفز المواطنين كي يقتدوا بهم ويسيروا على نهجهم . ولا تخلو أمة من أمثال هؤلاء العظماء الذين يجود بهم الزمان من حين لآخر .

وقد عرفت دمشق كثيراً من الشخصيات التاريخية وضم ثراها رفاة عظماء وشهداء أقيمت لبعضهم المدافن اللائقة التي تخلد ذكراهم وأهمل البعض الآخر فاندثرت قبورهم . وشاب بعض هذه الأضرحة مزاعم خاطئة ونسبت لأشخاص دون أساس صحيح ، وقد رأيت من المفيد في هذا الظرف الذي تهتم فيه الدولة باقامة النصب التذكارية والأضرحة لعظماء البلاد أن ألفت الأنظار الى مجموعة من العظماء المدفونين حقاً في دمشق خلال عصور التاريخ . مصنفاً اياهم الى الطبقات التالية :

١ — طبقة الملوك والسلاطين ·

٢ — طبقة الأمراء والولاة ·

٣ — طبقة الصحابة ·

٤ — طبقة آل البيت ·

٥ — طبقة العلماء ·

ذلك ان في التاريخ عهوداً مضيئة تحفل بالأمجاد ومشاهير الرجال وأخرى مظلمة يختفي فيها العظماء ، وما أكثر العهود المظلمة التي عاشتها دمشق وأقساها ، حين كانت فريسة الفوضى والفتن أو طعمة للغزاة أو نهباً للحكام الظالمين ، في عهد الفاطميين وأغلب عهد المماليك ثم في أيام الحكم العثماني والاستعمار الغربي ·

وخلال تلك العصور كلها فترات ثلاث تألق فيها نجم دمشق وغدت مركز اشعاع لسائر العالم العربي والاسلامي بما نالته من نهضة وعزة وحياة حرة كريمة على يد رجالاتها ·

وتكاد هذه الفترات الثلاث تتوزع توزيعاً عادلاً بين القرون الثلاثة عشر من تاريخها العربي ·

كانت الفترة الأولى في فجر هذا التاريخ أيام الدولة الأموية · وكانت الثانية في أواسطه ، أيام نور الدين وصلاح الدين · والفترة الأخيرة هي في هذا العصر الذي نعيشه فترة الثورة على الأجنبي الدخيل والكفاح من أجل الاستقلال والحرية واقامة أسس الوحدة العربية ·

* * *

أ — طبقة الملوك والسلاطين

١ ـ معاوية بن أبي سفيان :

مؤسس الدولة العربية في الشام وأحد صحابة الرسول (ﷺ) وكتبة الوحي ، اشترك في الفتوحات مع أخيه يزيد بن أبي سفيان وأبلى بلاءً حسناً ، ينسب اليه فتح قيسارية أكبر مدن فلسطين عام ١٨ أو ١٩ وولاه عمر الشام بعد وفاة أخيه يزيد عام ١٨ وظل في ولايته لها حتى أصبح خليفة المسلمين بعد معركة صفين عام ٤٨ للهجرة حتى توفاه الله في دمشق سنة ٦١ هـ وكان قد بلغ من العمر ستاً وثمانين سنة .

أما قبره فقد اختلف الناس فيه فبعضهم يقول بأنه ضاع وزال أثره إثر الانقلاب العباسي وانتقام بني العباس من الأمويين أحياء وأمواتاً . وينسب العامة اليوم لمعاوية ثلاثة قبور في دمشق ، إلا أن الثابت في المصادر العلمية والروايات التاريخية أن معاوية دفن في مقبرة الباب الصغير [1] .

ويشاهد اليوم قبره ضمن غرفة صغيرة من الطين حديثة البناء تقع في ركن المقبرة الجنوبي ، تلتصق بها قبور كثيرة بينها عدد قديم لمشاهير الرجال تدل عليها شواهد كتبت بخطوط كوفية .

وإذا صح ما ترويه المصادر عن نبش قبور بني أمية ، فليس ما يمنع أن يحتفظ الناس بمكان قبر معاوية اكراماً لمنزلته ، حتى أتى وقت خف فيه حقد العباسيين وقل نفوذهم في دمشق فأصبح من المتيسر إعادة قبره الى ما كان عليه وأقبلوا يخصونه بالزيارة والتبرك . ثم قدم أحمد بن طولون دمشق عام ٢٧٠ هـ فعمر

(١) راجع التحقيق الذي نشره الأستاذ الأمير جعفر الحسني في مجلة المجمع المجلد ١٩ (١٩٤٤) ص ٤٣٤ .

على قبره قبة عالية ، وزاره بعد ذلك المسعودي عام ٣٣٢ فقال « ان عليه بيتاً مبنياً يفتح كل يوم اثنين وخميس » . وهذا يدل دلالة أكيدة على احتفاظ الناس بقبر معاوية وعلو منزلته في قلوبهم رغم ما قام به العباسيون . ولعل هذا البيت الذي بناه ابن طولون ووصفه لنا المسعودي قد تهدم خلال أحداث التاريخ وتقلبات الدول ، ولكن في كل عصر كان قوم يحرصون على الابقاء عليه والإشارة اليه حتى بقي الى يومنا هذا على هيئته المتواضعة البسيطة . وقد ظهرت محاولات حديثة من قبل الغيورين لبناء ضريح عليه يليق بمكانة صاحبه وعظمته وفضله في إرساء قواعد الدولة العربية في بلاد الشام خاصة وفي العالم الإسلامي عامة .

٢ ـ الخلفاء الأمويون :

تولى الخلافة من البيت الأموي أربعة عشر أميراً مات بعضهم في دمشق ومات البعض الآخر في أماكن متفرقة فعمر بن عبد العزيز دفن في دير سمعان وهشام في الرصافة وسليمان في مرج دابق ... وتذكر الروايات التاريخية عن ابن عساكر والمسعودي أن قبر عبد الملك في مقبرة الباب الصغير وكذلك قبر ابنه الوليد ويزيد بن معاوية . غير انا اذا فتشنا اليوم في هذه المقبرة لا نجد من الأمويين غير قبر معاوية الذي تكلمنا عنه وقبر عبد الملك الواقع على عدة أمتار الى الشمال الغربي من قبر معاوية في غرفة مهدمة من الطين تضم قبرين نسب أحدهما لعمر بن عبد العزيز ونسب الآخر الى عبد الملك . ونحن ننفي نسبة الأول الى عمر بعد أن أكدت الروايات دفنه في دير سمعان قرب حلب . ونرجح أن يكون لأحد خلفاء بني أمية ، ولعله الوليد الذي تذكر الروايات دفنه في هذه المقبرة والأمر يتطلب تحقيقاً أكثر دقة . أما القبر الثاني فيرجح أن يكون لعبد الملك بدليل اشارة المصادر التاريخية الى وجوده في هذه المقبرة ووجود كتابة كوفية على التابوت الحجري يرجع الى عدة قرون ، تؤيد ذلك .

وأي حرج في اعتباره قبره حقيقة والعناية به تخليداً لذكراه بالرغم من احتمال وجود خطأ في تحديد مكان دفنه على وجه الدقة ، لأن تخليد ذكرى العظماء ببناء المقابر اللائقة بهم لن يكون من أجل ما تبقى من عظامهم ورفاتهم البالية بل من أجل أمجادهم وأعمالهم العظيمة .

٣ ـ محمود بن زنكي :

لم تعد دمشق مقراً للخلفاء والسلاطين بعد زوال الدولة الأموية حتى دخلها نور الدين في القرن السادس الهجري ، فهو أول من تسلطن فيها بعد تلك الحقبة الطويلة ولقب بالسلطان الملك العادل نور الدين ، محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر .

وكان تابعاً لخليفة بغداد العباسي من الناحية الاسمية فقط . وكان حاكماً عادلاً مخلصاً لأمته وبلاده وقائداً بطلاً نذر نفسه للجهاد والدفاع عن البلاد من أخطار الصليبيين وعدوانهم ، ولذلك أحبه الناس وأشاد المؤرخون الذين عاصروه بأخلاقه ودينه وعدله وتواضعه وجهاده وحبه للعلم والعلماء وبناء المدارس والحصون .

ولد نور الدين محمود عام ٥١١ هـ بمدينة حلب حيث كان أبوه والياً عليها من قبل سلاجقة بغداد ثم خلف أباه عليها سنة ٥٤١ ثم ضم دمشق وسائر بلاد الشام الى مملكته عام ٥٤٩ وتوفي في قلعة دمشق سنة ٥٦٩ فدفن في تربة كائنة في ركن من أركان المدرسة النورية التي بناها في سوق الخياطين . ويبدو قبره لكل من يمر من هذا السوق من خلال نافذتين في تربة جميلة عالية القبة بسيطة المظهر ، ومن المستغرب أن ينسى الناس هذا الرجل العظيم ولا يحتفون به كما يحتفون بصلاح الدين ، مع أن نور الدين أستاذه ومؤسس دولته وواضع حجر الأساس في تحرير البلاد وتوحيدها .

٤ ـ يوسف بن أيوب :

هو صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شادي الملقب بالسلطان الملك الناصر ، ولد بتكريت عام ٥٣٢ ودخل في خدمة نور الدين محمود بن زنكي مع والده فبعثه مع عمه القائد أسد الدين شيركوه لتحرير مصر عام ٥٦٤ . فصار وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد ثم انفرد بحكم مصر وقضى على الخلافة الفاطمية عام ٥٦٦ ثم ضم الشام الى حكمه بعد وفاة نور الدين وبذلك وحد مصر والشام وأقام دولة تمتد الى ما وراء الجزيرة شمالاً والى البحر الهندي جنوباً وتونس غرباً والعراق شرقاً . وقضى حياته في محاربة الفرنج وتحرير البلاد من أيديهم الى أن توفي في قلعة دمشق عام ٥٨٩ فدفن بها ثلاث سنين ثم نقل الى حيث هو اليوم في تربة بناها له أولاده بعد موته وبنوا الى جوارها مدرسة سميت بالمدرسة العزيزية وقد تهدمت وبقيت التربة ذات القبة العالية وأحيطت في كل العصور بالعناية والرعاية فزينت جدرانها بألواح القاشاني عام ١٠٣٧ هـ .

وضع لقبره ضريح عند وفاته من خشب الجوز مزين بالنقوش الهندسية المحفورة تحيط به آية الكرسي بخط كوفي مزهر جميل ، كما صنع له تابوت جديد من الرخام عام ١٨٧٨ م في عهد السلطان عبد الحميد العثماني ، وقد فرشت دائرة الأوقاف أرضه بالسجاد وعينت له قيماً خاصاً به .

٥ ـ محمد أبو بكر بن أيوب :

هو الملك العادل سيف الدين محمد أبو بكر بن أيوب ، من أكبر شخصيات الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين . اشترك معه في محاربة الفرنج وادارة البلاد . وكان المستشار والعضد الأيمن لأخيه ، ثم تولى السلطنة على دولة العرب في مصر والشام واليمن سنة ٥٩٦ بمعاونه أولاده عندما دب الخلاف بين أولاد

صلاح الدين ، ولم يبق بأيديهم سوى حلب . ثم توفي سنة ٦١٥ في قلعة دمشق فدفن فيها ريثما تم بناء تربته في المدرسة العادلية مقر المجمع العلمي اليوم . ودفن معه بعد ذلك ابن حفيده المغيث عمر سنة ٦٤٢ وكان نائباً لأبيه الصالح أيوب على دمشق حين استولى عليها عمه الصالح اسماعيل فأسر في القلعة ومات فيها .

٦ ــ الملوك الأيوبيون الأخر :

لم يمت في دمشق من أولاد صلاح الدين سوى الملك المنصور حسن الذي توفي في حياة أبيه سنة ٥٧٥ وقبره معروف في التربة النجمية الكائنة في سوق صاروجة غربي المدرسة الشامية . وفي دمشق من أولاد أخيه العادل ثلاثة ملوك ، المعظم والأشرف والكامل .

أما المعظم فهو عيسى بن العادل ولد في القاهرة سنة ٥٧٦ وتولى دمشق لأبيه وحارب الفرنج ثم خلف أباه في السلطنة ومات في قلعة دمشق سنة ٦٢٤ ودفن بها ثم نقل الى مدرسة له تعرف بالمعظمية في الصالحية ، وقد تهدمت ودرست .

وأما الكامل فهو محمد بن الملك العادل تولى مصر في عهد أبيه ثم تسلطن بها ودخل دمشق وضمها الى ملكه ومات بها سنة ٦٣٥ ودفن في القلعة ثم نقل الى تربة أعدت له خلف جدار الجامع الأموي الشمالي شرقي خانقاه السميساطية تعرف بالتربة الكاملية ولها باب من الجامع يؤدي اليها .

وأما الأشرف موسى بن الملك العادل فقد تسلطن في دمشق أيضاً سنة ٦٢٥ ومات في قلعتها سنة ٦٣٥ ودفن بتربة تعرف بالأشرفية كائنة شمالي الجامع الأموي بين المدرسة الجقمقية والمدرسة العزيزية وقد تهدمت وأصبح في مكانها اليوم ملجأ ضد الغارات الجوية ولا يزال القبر ظاهراً .

٧ ــ السلطان بيبرس :

هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري أشهر سلاطين دولة المماليك وأول من وطد حكمهم في الشام بعد زوال دولة بني أيوب بدخول جيش هولاكو دمشق ، كان له فضل في النصر على التتار في معركة عين جالوت التي أدت الى طردهم من الشام وتوحيدها مع مصر من جديد . تولى السلطنة عام ٦٥٨ بعد مقتل سلفه السلطان قطز . فقضى أكثر أيامه في محاربة الفرنج وتخليص ما تبقى من البلاد من أيديهم فحفلت أيامه بالانتصارات عليهم وخلد اسمه على أكثر من حصن وقلعة ومدينة . وقام بأعمال عمرانية كثيرة وتوفي سنة ٦٧٦ في القصر الأبلق الذي كان يقطنه في دمشق حيث تقع التكية السليمانية اليوم ودفن في المدرسة الظاهرية وتربته من أجمل الترب ذات قبة عالية مزينة بأصناف الزخرفة كالفسيفساء الزجاجية الملونة الشبيهة بفسيفساء الجامع الأموي والرخام الملون والكتابات المذهبة وزخارف محفورة على الحجر ، وفيها محراب رائع ، وتعد أجمل تربة في دمشق وأغناها بالزخارف .

٨ ــ السلطان العادل كتبغا :

لم تعرف دمشق بعد السلطان الظاهر سلطاناً أقام أو مات فيها فقد استقر المماليك في القاهرة ولم يقيموا في دمشق إلا أياماً أو يزوروها إلا لماماً ، وكذلك سلاطين آل عثمان . سوى أن في المهاجرين مدرسة وتربة منسوبة الى أحد سلاطين المماليك ، هو الملك العادل زين الدين كتبغا تسلطن في القاهرة سنتين ثم خلع عام ٦٩٦ فالتجأ الى صرخد (صلخد) ثم أعطي حماة فمات بها ونقل ليدفن بتربته بسفح قاسيون الكائنة في الحديقة التي تضم ضريح الشهيد المالكي .

ب — طبقة الأمراء والولاة

كثيرون هم القواد والولاة الذين ماتوا في دمشق ودفنوا في ثراها منذ بداية العهد العربي الى اليوم . وكان لأكثرهم بطولات وأعمال جليلة يستحقون معها أن تحفظ الأجيال ذكراهم ، إلا أننا مع ذلك لا نعرف قبراً واحداً لمن عاش منهم قبل العصر الأيوبي ، ولعل السبب في ذلك عدم اعارة الأوائل أهمية للقبور والمدافن كما حدث في العصور المتأخرة . وقد رأينا كيف تعرفنا بصعوبة زائدة على قبور قليل جداً من خلفاء بني أمية أنفسهم .

لذا لن يكون أمامنا من وفيات هذه الطبقة ممن نتحدث عنه قبل زمن الأيوبيين المليء برجالات الدولة من قواد أبطال وولاة وأمراء . ولا غرابة في ذلك لأن زمنهم بعد الفترة المضيئة الثانية في تاريخ دمشق بعد الفترة الأموية كما ذكرنا في المقدمة .

١ — شاهنشاه بن أيوب : أخو صلاح الدين حارب مع نور الدين محمود بن زنكي واستشهد في احدى المعارك ضد الفرنج عام ٥٤٣ هـ ودفن في تربة أيوبية تعرف اليوم بالتربة النجمية الكائنة في سوق صاروجة الى القرب من المدرسة الشامية .

٢ — توران شاه بن أيوب : أخو صلاح الدين وأكبر قواده فتح اليمن وولي دمشق لصلاح الدين عام ٥٧١ . توفي في الاسكندرية والياً عليها سنة ٥٧٦ فنقل جثمانه ليدفن في تربة أخيه الكائنة في المدرسة الشامية سنة ٥٧٨ .

٣ — فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب : ابن أخي صلاح الدين صار والياً على دمشق سنة ٥٧٦ وكان من كبار القواد والمجاهدين حارب الفرنج وأبلى بلاءً حسناً في موقعة مرج عيون وكان الى شجاعته عالماً كثير الأدب مطبوع النظم

والنثر وله أشعار كثيرة . لقب بعز الدين مات سنة ٥٧٨ والياً على دمشق فدفن في تربة تعرف بالفرخشاهية كائنة شمالي حديقة المنشية .

٤ – الملك الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه : ولاه صلاح الدين بعلبك بعد موت أبيه وكان شاعراً . اغتيل في دمشق ودفن في المدرسة الأمجدية المجاورة لتربة أبيه الفرخشاهية المتقدمة الذكر .

٥ – الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه : زوج ست الشام أخت صلاح الدين توفي سنة ٥٨١ والياً على حمص لصلاح الدين فدفنته زوجته في تربتها الكائنة في المدرسة الشامية في دمشق .

٦ – الأمير عز الدين ايبك : كان والياً على صرخد مدة طويلة توفي في الاسكندرية ونقل جثمانه ليدفن في مدرسته المعروفة بالعزية قرب مدرسة التجهيز الأولى .

٧ – الأمير حسام الدين محمد بن عمر (ابن ست الشام) : توفي سنة ٥٨٧ ودفن في تربة أمه الشامية البرانية المتقدمة الذكر . وهي تربة واسعة مزينة بزخارف ذات طابع أيوبي تضم عدة قبور للأمراء الأيوبيين وبينهم قبر ست الشام صاحبة التربة والمدرسة .

٨ – الأمير فخر الدين سركس أو جهاركس : أحد قواد الجيش الأيوبي كان نائباً على بانياس وتوفي سنة ٦٠٨ ودفن في تربته في المدرسة الجهاركسية الكائنة في العفيف .

٩ – الأمير فخر الدين ابراهيم بن الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم توفي سنة ٥٩٧ وكان والياً على قلعة بارين وعدة حصون توفي بدمشق ودفن بالمدرسة المقدمية خارج باب الفراديس في طريق مقبرة الدحداح ويطلق العامة على ضريحه خطأً ضريح طلحة .

١٠ — الأمير غورلو : تولى نيابة السلطنة في دمشق عام ٦٩٥ هـ في عهد سلطان المماليك العادل كتبغا وتوفي سنة ٧١٩ ودفن في دمشق في تربة لا تزال باقية الى اليوم الى جانب جامع الحنابلة .

١١ — الأمير تنكز : تولى نيابة السلطنة في دمشق من عام ٧١٢ الى ٧٤٠ حيث اعتقل وأخذ الى الاسكندرية فقتل ثم نقل الى تربته التي شيدها الى جوار جامعه المشهور في دمشق .

١٢ — سيف الدين جقمق : تولى نيابة دمشق سنة ٨٢٢ وقتل في القلعة عام ٨٢٤ ودفن بتربته في المدرسة الجقمقية الى جوار باب الجامع الأموي الشمالي وهي من أجمل مدارس العصر المملوكي بهندستها وزخرفتها .

١٣ — درويش باشا : ولي دمشق في عهد السلطنة العثمانيــة عام ٩٧٩ هـ وكانت سيرته حسنة وقام بأعمال عمرانية كثيرة منها جامع الدرويشية الذي بناه سنة ٩٨٢ . توفي عام ٩٨٥ ودفن بتربته التي عمرها الى جوار جامعه .

١٤ — مراد باشا : تولى دمشق سنة ٩٧٦ فعمر الجامع المعروف حالياً باسم جامع النقشبندي في السويقة وتوفي في دمشق ودفن بتربته الى جوار الجامع المذكور .

م — طبقة الصحابة

يتناقل العامة ذكر عدد كبير من الصحابة ماتوا في دمشق أو استشهدوا عند الفتح ويشيرون الى قبور ومزارات نسب أكثرها خطأً اليهم . وكذلك تفعل بعض كتب التاريخ الضعيفة ، وهذا ما يجعل البحث عويصاً يحتاج الى كثير من المطالعة والدرس للوصول الى حقيقة مقبولة ، ولم يتأكد لدينا بعد الاستقصاء والتحقيق أكثر من قبرين لاثنين من الصحابة فقط ثبت موتهما في دمشق وتضافرت أكثر الروايات على تعيين مكان قبريهما وهما :

١ — بلال الحبشي : وهو بلال بن رباح من موالي قريش وأوائل الذين اعتنقوا الإسلام فعذبوا في سبيل الرسالة الجديدة . وهو أول من أذّن في الإسلام ثم خرج الى الشام مجاهداً بعد وفاة الرسول (ﷺ) فتوفي في دمشق ودفن في مقبرة الباب الصغير حوالى ١٧ أو ٢٠ للهجرة ، وما يزال قبره معروفاً الى اليوم تحت قبة عالية عمرت في العهد العثماني ، وله ضريح من الخشب حديث الصنعة ركب فوق قبره الترابي القديم . وتذكر كثير من الروايات خطأ وجود قبره في مدن أخرى .

٢ — أبو الدرداء : عويمر بن عامر الخزرجي الأنصاري ، كان من أفاضل الصحابة ، ولاه عمر بن الخطاب القضاء على دمشق في عهد ولاية معاوية فكان أول قاض فيها ، توفي في خلافة عثمان حوالي سنة ٣٢ للهجرة ودفن في مقبرة الباب الصغير وظل قبره معروفاً يذكره الرحالة الى جانب قبر زوجته أم الدرداء . وقد عثرت دائرة الآثار عام ١٩٣٨ على شاهدتين احداهما تخص قبره والأخرى قبر زوجته مكتوبتين بخط كوفي يرجع الى القرن الرابع أو الخامس عثر عليهما مردومتين على بعد عشرين متراً الى الجنوب الغربي من قبر معاوية ، وهما محفوظتان في المتحف الوطني . ولأبي الدرداء مشاهد ومزارات في أماكن أخرى منها مقامه الكائن في قلعة دمشق الذي ذكره المؤرخ ابن طولون في الشمعة المضيئة في القرن العاشر الهجري .

وهناك قبور أخرى لعدد من الصحابة نشك في صحة نسبتها الى أصحابها ، ولعل السبب في إشاعة ذلك وادعائه التبرك بأكثر عدد من الصحابة وجعل دمشق تتقدم على غيرها في هذا المضمار . ومن هؤلاء نذكر :

١ — صهيب الرومي : له قبر في الميدان يطلق عليه الناس اسم سيدي صهيب ، ويريدون به الصحابي صهيب الرومي . وقد أجمعت أكثر الروايات على وفاته في المدينة سنة ٣٩ هـ .

٢ — أبي بن كعب : مات في المدينة أيضاً وله قبر عند باب شرقي خارج السور ، وقد بني عليه جامع يرجع الى عام ١٠٣٠ هـ .

٣ — شرحبيل بن حسنة : أحد أمراء جيش الفتح الذين قدموا الى الشام مع أبي عبيدة ، مات في طاعون عمواس مع أبي عبيدة بن الجراح عام ١٨ وعمواس قرية بين الرملة والقدس في فلسطين حيث دفن أبو عبيدة ، ولا تشير رواية ما الى مكان قبره وأول من ذكر أن قبره في دمشق صاحب كتاب تحفة الأنام أمين البصروي من القرن العاشر الهجري ، وضريحه وضريح خولة بنت الأزور التي هي أيضاً لم يتأكد وصولها الى دمشق موجودان ضمن تربة واحدة يحويها مسجد بني عام ٩٠٩ هـ خارج باب توما .

٤ — ضرار بن الأزور : أحد الأبطال الكبار في صدر الإسلام اشتهر بجهاده في حروب الردة تحت قيادة خالد بن الوليد وقتل في هذه الحروب في اليمامة كما يذكر بعض المؤرخين أو في أجنادين أو في الكوفة كما يذكر البعض الآخر . إلا أن العمري صاحب مسالك الأبصار المتوفى سنة ٧٤٩ يذكر بأنه قتل أثناء فتح دمشق ، خلافاً لما ذكره الواقدي ، ودفن في القبر المنسوب اليه .

٥ — الصحابة السبعة في جامع الأقصاب : في هذا الجامع غرفة كتب عليها بخط حديث هذا مدفن سبعة من أصحاب رسول الله حجر بن عدي الكندي ورفاقه ، والثابت أن حجراً وأصحابه قتلوا بأمر معاوية وهم قادمون من الكوفة عند قرية عذراء سنة ٥١ هـ وذكرت أكثر الروايات بأن قبورهم هناك في عذراء .

٦ — صحابة جامع الشهداء : في الصالحية مسجد صغير يعرف بالشهداء فيه قبور ثلاثة من الصحابة هم حرملة بن وائل وجابر بن مسعود ومساعد ، ولا نعتقد بوجود أساس لصحة هذا الادعاء .

د ـــ طبقة آل البيت

إن أكثر قبور آل بيت الرسول (ﷺ) رغم شهرتها وفخامتها لا تمت اليهم بصلة ، وهي قديمة في دمشق يذكرها الرحالة ويؤمها الزوار من كل مكان وخاصة الشيعة وأضرابهم . ولعل إقامة هذه المزارات يرجع الى عهد الحكم الفاطمي حيث اشتدت الدعوة لآل البيت والحماس لهم ولا غرابة لأن يتقبل الناس شيعة وغير شيعة مثل هذه البدع نظراً لمكانة الرسول العظيمة وكل ما يمت اليه بصلة ، وأصحاب هذه القبور هم :

١ ــ سكينة بنت الحسين : توفيت في المدينة كما تذكر أكثر الروايات ولكن لها قبراً فخماً في مقبرة الباب الصغير عليه قبة فخمة مفروشة بالسجاد مزينة بمختلف الهدايا والزخارف والضريح قديم مصنوع من الخشب المحلى بالزخارف المحفورة المخرمة والكتابات الكوفية ، ويرجح أنه صنع في العصر الفاطمي .

٢ ــ فاطمة بنت الحسين : لها قبر في مقبرة الباب الصغير أيضاً وعليه قبة وضريح من الحجر عليه اطار من الكتابات الكوفية المزهرة بخط عريض جاء فيها :

« هذا قبر فاطمة ابنة أحمد بن الحسين بن السبطي توفيت رضي الله عنها في رجب سنة ٤٣٩ ، ومعنى ذلك بأن صاحبة القبر ليست بنت الحسين كما يظن عامة الناس وانما هي واحدة تدعى فاطمة ماتت في القرن الخامس ربما كانت من آل البيت اذا صحت نسبتها الى بيت علي بن أبي طالب ، ومهما يكن فان قبرها محاط بالاحترام والتقدير من قبل طائفة الشيعة مما يظن معه بأنه حقاً قبر فاطمة بنت الحسين بن علي .

٣ ــ زينب الصغرى بنت علي : وتلقب بأم كلثوم لها قبران في دمشق الأول في قرية راوية المعروفة حالياً بالست الواقعة الى الجنوب الشرقي من دمشق على بعد عدة كيلومترات .

وهو مزار شهير محتفى به يؤمه الزوار من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ويقدمون عنده النذور وحوله الأبنية لنزول الغرباء وعليه قبة فخمة محلاة بالمرايا ضمن مسجد واسع ، وقد أهدته الحكومة الإيرانية حديثاً ضريحاً ثميناً من الفضة .

والقبر الآخر في مقبرة الباب الصغير في قبة خاصة به تضمه الى مقام الست سكينة . ورغم كل ذلك فنحن لا نعتقد بصحة نسبة هذين القبرين الى زينب بنت علي ابن أبي طالب لأن هذه ماتت في المدينة كما يقول المؤرخ عز الدين بن شداد . ويذكر صاحب كتاب أعلام النساء بأن قبرها بمصر عند قناطر السباع .

٤ — مشهد الحسين : كلنا يعلم بأن الحسين بن علي قتل وهو في طريقه الى الكوفة في معركة كربلاء سنة ٦١ ونقل رأسه الى دمشق ليراه الخليفة يزيد ابن معاوية . ويوجد للحسين مزارات كثيرة يطلق عليها اسم مشهد تشير الى قبره ، ولعل الأصح أن تعتبر نصباً تذكارية ، لأنه لا يعقل أن يدفن رأس الحسين أو جثته في عدة بلدان . له مشهد شهير في كربلاء حيث قتل يرجح أن يكون القبر الذي وارى جثته ، كما أن له مشهداً في جامع بني أمية في دمشق ، في مكان يطلق عليه اسم مشهد الحسين حالياً وقد أطلق عليه في القديم مشهد علي وكذلك مشهد زين العابدين (ابن الحسين) ، وله مشهد آخر في القاهرة . وتؤكد المصادر بأن رأس الحسين نقل الى دمشق ولكنها لا تشير الى مكان دفنه ، ثم تذكر بعض الروايات التاريخية حادثة نقل رأسه من دمشق الى المدينة في عهد يزيد وبعضها يذكر أنه نقل في العهد العباسي ، ويذكر البعض الآخر قصة نقله الى القاهرة في العهد الفاطمي .

٥ — الست رقية : في داخل باب الفراديس مسجد صغير فيه قبة يرجع عهد بنائها الى العصر الأيوبي تضم ضريحاً عليه قفص معدني جميل أهدي اليها من قبل الحكومة الباكستانية منذ سنوات ويظن الناس بأن هذا القبر لرقية بنت

الرسول . ولكن هذه ماتت في المدينة وقبرها هناك ، فنسبة هذا القبر لها خطأ ولعله لواحدة من سلالة علي يهتم بها الشيعة .

٦ — أم حبيبة : هي زوجة الرسول وأخت معاوية بن أبي سفيان لها قبر في مقبرة الباب الصغير عليه قبة صغيرة بنيت في عهد السلطان عبد الحميد العثماني . ولعل ما يجعلنا نقبل نسبة هذا القبر اليها ، ما ترويه المصادر من زيارة زوجة الرسول لأخيها معاوية في الشام ، وما ينقله ابن عساكر عن ابن الأكفاني خبر مشاهدة هذا الأخير قبرها فيما شاهد من قبور الصحابة والخلفاء في مقبرة الباب الصغير وذلك في القرن الخامس الهجري .

ه — طبقة العلماء

كثيرون هم العلماء الذين اشتهروا في دمشق خلال العصور كقضاة أو محدثين أو مؤرخين أو أطباء أو صوفية الخ ... وهم فوق الحصر والتعداد وأخبارهم تملأ كتب التراجم الا أن قبورهم ضائعة لا يعرف عنها سوى أنها في مقبرة الباب الصغير أو في سفح قاسيون أو الروضة أو مقابر الصوفية في الشرف القبلي (يعني منطقة الجامعة والمستشفى) أو مقبرة الدحداح خارج باب الفراديس أو مقبرة الشيخ رسلان ، وقد اخترت من هؤلاء العلماء من تعرفت على قبره على وجه الدقة .

١ — ابن تيمية : هو تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني ثم الدمشقي . لقب بشيخ الإسلام الفقيه العالم المجاهد ولد بحران سنة ٦٦١ ه وقدم مع والده وأهله الى دمشق وهو صغير وتوفي بهـا سجيناً بقلعتها من قبل السلطان المملوكي في أيام ولاية تنكز نائب الشام سنة ٧٢٨ ه . وقد احتفل أهل دمشق بجنازته احتفالاً لا يحظى به إلا العظماء القلائل . لقد خرج أهل دمشق نساءً ورجالاً ومعهم أهـل القرى والأطراف لتشييعه . صلي عليـه في الجامع الأموي

وأخرجت جنازته من باب البريد فلم يتمكن الناس من الخروج وراءها فتوزعوا على أبواب الجامع وضاقت بهم الطرقات فخرجوا من أبواب البلد جميعها ليتمكنوا من تشييع الجنازة الى مقرها الأخير في مقبرة الصوفية ، وقبره هناك معروف ومصان في حديقة تقع خلف دار التوليد .

٢ — ابن عساكر : هو علي بن الحسن بن القاسم الدمشقي محدث الشام ومؤرخها المشهور بمؤلفه التاريخي الضخم الذي وضعه قديماً في ثمانين مجلداً ، ولد عام ٤٩٩ ورحل كثيراً في طلب العلم ثم توفي في دمشق عام ٥٧١ ودفن بمقبرة الباب الصغير شرقي قبر معاوية . وقبره ضائع يحتاج الى شيء من التحريات للعثور عليه .

٣ — ابن كثير : هو عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير الملقب بالحافظ الكبير من أبناء بصرى الشام ، قدم دمشق وعمره سبع سنوات فتعلم ونبغ في الحديث والفقه ، وله كتب كثيرة أشهرها كتاب في التاريخ سماه البداية والنهاية وضعه في أربعة عشر مجلداً ، ويعتبر من المصادر الهامة . ولد سنة ٧٠٠ وتوفي سنة ٧٤٧ ودفن الى جانب أستاذه ابن تيمية وقبره هناك معروف .

٤ — محيي الدين بن عربي : هو أبو بكر علي الحاتمي الطائي الأندلسي المشهور بابن عربي ، ولد بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠ وساح في البلاد ومات في دمشق سنة ٦٣٨ ، وضع عدة مؤلفات في التصوف جعلته من أئمة المتصوفين والفلاسفة الإلهيين ، واختلف الناس فيه فبعضهم من أنكر عليه فلسفته وسفهها ومنهم من رفعه الى مرتبة الأولياء . وقبره مشهور في الصالحية له مزار وقبة أمر ببنائها وبناء جامع الى جانبها السلطان سليم الأول سنة ٩٢٢ هـ ، وتضم تربته قبور عدة أشخاص منهم الأمير عبد القادر الجزائري .

عبد القادر الريحاوي

التعريف والنقد

الإمام محمد بن عبد الوهاب ×

مولده سنة ١١١٥ هـ وفاته سنة ١٢٠٦ هـ

تأليف الأستاذ أحمد عبد الغفور عطّار

لا شك أنّ الإمام محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله تعالى) هو مجدّد أمر الدين في القرن الثاني عشر، في أرض نجد وما جاورها من الأقطار العربية، فقد نشأ المترجَم، ورأى الناس منغمسين في الجهالة والضلالة معا، ووجد أكثر من يقول: لا إله إلاّ الله، منهمكين في دعوة سواه، ممن لا يضر ولا ينفع، لقضاء الحاجات، وتفريج الكربات، وهم ينكرون على مَن دعا إلى عبادة الله وحده، ويزعمون أن ذلك بدعة وضلالة، ويعادون من عمل بالتوحيد وأحبّه، وأنكر الشرك وأبغضه، وبعضهم لا يعدّ التوحيد علماً، ولا يلتفت إليه لجهله به، وعدم محبته له. ونحن نعلم بالضرورة أنّ النبي صلوات الله وسلامه عليه، لم يشرّع لأحد أن يدعو أحداً من الأموات بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، وأنّ ذلك مما نهى عنه الله ورسوله قال تعالى: «فلا تدعوا مع الله أحدا» ولكن لغلبة الجهل وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين لم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يبيّن لهم ما جاء به الرسول ﷺ مما يخالفه. كما جرى للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في ابتداء دعوته فانه كان رحمه الله إذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب رضي الله عنه قال: الله خير من زيد، تمريناً لهم على نفي الشرك بلين الكلام، ونظراً إلى المصلحة وعدم النفرة.

أمامنا الآن هذا الكتاب ، المسمى (محمد بن عبد الوهاب) البالغ (١٣٦ صفحة) المطبوع هذه الطبعة الثانية على نفقة المحسن السيد حسن شربتلي ، (سنة ١٣٧٦ هـ — ١٩٥٦ م) المشتمل على مقدمتي الطبعتين للمؤلف وثالثة الأستاذ محمد جميل شقدار تبين مزية هذا الكتاب من الناحية الفنية على غيره .

وأما مباحثه فأولها : (الحياة في نجد) (ص ١٧ — ٣٢) بين الأستاذ العطار فيه كيف كان الناس يتخبطون في دياجير الجهل والكفر والظلام ، وكيف يقتل الأمراء والحكام — مَن يُذكِّرهم يوم الله ، ويخيفهم عقابه الأليم ، فاغتالوا كثيراً من العلماء الأجلاء ، رحمهم الله ، وفي هذه الصفحات الثلاث (٢٠ — ٢٣) وصف حوادث القتل ، عن تاريخ نجد للشيخ عثمان بن بشر ، وهي مما :

يصمّ السميع ويعمي البصير ويُسأل من مثله العافيه

ثم نقل المؤلف ما ذكره المؤرخ ابن غنام في تاريخه عن فساد الحياة الدينية في القرن الثاني عشر في نجد والأحساء وغيرهما من البلاد العربية ، وعبادة الصالحين والأولياء ، والتبرك بالأشجار والأحجار ، وضرب لذلك الأمثال .

والبحث الثاني في ولادة محمد ونشأته (٣٣ — ٣٧) وكان أكمل ناشىء في قومه . والثالث : حجه البيت وزيارته المدينة . وقد أخذ العلم في المدينة عن أعلامها . والرابع : من المدينة إلى نجد ، ولم يطل به المقام في نجد حتى تجهز للسياحة في جزيرة العرب ، ولما دخل البصرة ، ودعا إلى الله على بصيرة ، لقي من أهلها الأذى والعدوان ، ومكث في الزبير أياما ، ثم عاد إلى نجد ويمّم (حريملا) داعيا ، آمراً ناهيا في كنف أبيه ، ولكنه فجع بموته رحمه الله (سنة ١١٥٣) فوجد عليه أشدّ الوجد ، واستقلّ بأعباء الدعوة في نجد ، صابراً محتسبا ، ولقد تآمر العبيد ، الأنجاس المناكيد ، على حياته ، ولكنّ الله سلّم ، ثم انتقل إلى بلدة العُيينة ، وكان أميرها عثمان بن حمد معمّر ، فأكرمه ، وزوّجه من ابنته جوهرة وكانت امرأة عاقلة فاضلة ، فأعانت الشيخ

في أمر الدعوة ، ثم ناصبه العداء ، الأمراء والسفهاء ، فدخل بلدة الدرعية ، ونزل عند عبد الله بن سويلم ، فنقل خبره إلى أمير الدرعية محمد بن سعود . فجاء الامير بنفسه ومعه بعض رجاله إلى دار ابن سويلم ، ورحّب بالشيخ ، وأنزله عنده ، وتتلمذ له هو وأشقاؤه وكبار الدرعية ، وعمّ العلم جميع الطبقات ، وتتابعت الوفود الى الدرعية ، يستقون من معين العلم الصافي الذي لم تكدره البدع والأوهام .

ولما رأى ابن معمّر أن شأن صهره الذي أخرجه من بلده طريداً قد عظم ، قَصَد الدرعية ودعا الشيخ مؤكداً أنه سينصره نصراً عزيزاً ، فأجابه الشيخ بقوله : إن الفرصة قد ضاعت .

وعاد عثمان بن معمَّر إلى الدرعية مرة ثانية لاسترضاء الشيخ ولكنه لم يفلح ، أمّا أهل العيينة فقد بايعوا الشيخ كأهل الدرعية مبايعة صادقة كان منها : «كما نبايع على عداء كل مَن عادى الشيخ وموالاة من والاه ولو أنه أميرنا عثمان» لكن عثمان لم تكن مبايعته عن صفاء نية وصدق عقيدة . قال ابن بشر : في سنة ١١٦٣ هـ قتل عثمان بن معمَّر في مسجد العيينة بعد صلاة الجمعة ، انتدب لقتله أناس من جماعته ، ذكروا أنهم تحققوا منه نقض العهد وموالاة الأعداء وموالاتهم اهـ ، ثم أقام الشيخ شقيق القتيل شاري أميراً مكانه وأمر أهلها بالطاعة له ما لم يدع الى منكر . واكتظت الدرعية بطلاب العلم وروّاد الحق .

نقلت أخبار الإمام محمد إلى الكبراء ، فخاف الأمراء الأقوياء أن يمتد سلطان المصلح الجديد إلى ممتلكاتهم ورعاياهم ، وكان من ألدّ أعدائه دهام ابن دواس أمير الرياض ، وسليمان أمير الأحساء ، وبنو خالد ، وابن مفلق أمير القطيف ، وابن ثويني أمير البصرة ، وكان أشد الأمراء عداء لدعوة الحق والإصلاح دهّام ، فدارت حروب طاحنة بينه وبين الأمير محمد بن سعود ، وانتصر ابن سعود عليه ، فخادع دهّام ، وكاتب الأمير والشيخ بانضمامه مع

جيشه إليها ، وفي ربيع سنة ١١٧٨ هـ خرج ابن سعود ومعه دهام بأهل الرياض لحرب العجمان الذين استنجدوا بصاحب نجران وغيره من القبائل فأنجدوهم ، وخان دهّام ، فكان على الأمير ابن سعود مع العجمان ، وبسبب هذه الخيانة هزم ابن سعود وقتل رجاله . وأعاد الله له الكرّة بعد ذلك ، وخرج دهام خارجاً على وجهه ، من بعد أن قامت الحرب بينه وبين الأمير سعود نحو سبع وعشرين سنة . وابتلى الأمير والشيخ بعد دهام بعريعر أمير الأحساء ولم يكن أقلّ شرّاً وضرّاً من غيره ، ثم صرفه الله كما صرف ابنه بطين من بعده ، قال المؤلف (ص ٨٩) : ومَن أراد أن يشبع رغبته من الاطّلاع على الوقائع كلها ، فليرجع إلى تاريخي ابن بشر وابن غنام .

ولما شعر الشيخ بدنوّ أجله ، اعتزل السياسة والحكم تاركاً أمر إدارة المملكة إلى الأمير عبد العزيز نجل الأمير محمد آل سعود ، وتفرغ للتدريس والتصنيف ، وذكر له الأستاذ العطار ثمانية عشر مؤلفاً ، قال (ص ٩٧) : وللشيخ رسائل أخرى وفتاوى كثيرة ، لو جمعت لكانت أجزاء عدة الكتاب ضخم .

(المشابهة بين عهدين)

تحت هذا العنوان عقد المؤلف فصلاً في المشابهة بين عصر الضلالة قبيل النبوة ، وعصر الجهالة قبيل قيام الإمام ابن عبد الوهاب بنشر الدعوة . فرفعت راية التوحيد في العهد الأول ، وراية التجديد في العهد الثاني ، وكانت الهجرة والنصرة للموحّدين في العهدين ، فنصر الله عبده وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

(الدعوة الوهابية)

ذكر المؤلف في هذا المبحث الدعوة الوهابية وخلاصتها : الدعوة إلى الدين الخالص ، والكلم الطيّب ، والعمل الصالح . وقد أورد المؤلف طائفة من كلام مشاهير العلماء والكتاب في المذهب الوهابي ، وانه المذهب الحنبلي بعينه ، وجعلوا

محمد بن عبد الوهاب ثالث الرجلين في الإصلاح والتجديد : ابن تيمية وابن القيم الدمشقيين .

وفي جوهر الدعوة الوهابية (ص ١٩) ومبحث القبور والخمور (ص ١٢٥) إلى آخر الكتاب ، أهمُّ المسائل التي دعت إليها الوهابية ، والتي حذّرت منها أو نهت عنها ، فالأولى تضمنت صرف جميع أنواع العبادة لله وحده ، ومنع التوسل بغير العمل والدعاء ، والاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه المخلوق ، وطلب الشفاعة من مالكها ، والغلو في أهل القبور ، وتحريم المسكرات ، ومنع الدخان ، وذكر أدلتها من السنة والقرآن ، ونقل عن بعض من تكلم فيها من الأئمة الأعلام .

ولا يخلو الكتاب من أغلاط قلمية ومطبعية نشير إلى صفحاتها :

الصفحة	الخطأ	الصواب
٧٨	خير	خبر
٧٩	سبعاً وعشرين	سبع وعشرون
٨٠	عن بعضها	بعضها عن بعض
٩١	في عصر	في عصره
١٠٥	حمر النعم	من حمر النعم
١٠٥	هقا	هذا
١٠٨	وابن القيم الجوزية	وابنَ قيِّم الجوزية
١١٦	عمر بن النصر	عمر أبي النصر
١١٦	جزيرة العرت	العرب
١١٩	ولا تخشوهم	(فلا تخشوهم) .
١٢٩	ويخرجاه	ولم يخرجاه

ولعلَّ المؤلف قد سها عن وضع فهرس للكتاب ، والله الموفق وإليه المآب .

× الشيوعية والإسلام

تأليف عباس محمود العقّاد — أحمد عبد الغفور عطّار

كتاب يقع في مائة وستين صفحة . أوله (إلى ص ١٠٨) للأستاذ العطّار . والقسم الثاني عنوانه « الإسلام والشيوعية » وهو فصل كبير من مؤلَّف ضخم ، للأستاذ الشهير العقاد ، سماه « الشيوعية والإنسانية » ، وقد أحسن الأستاذ العطّار بضم هذا الفصل إلى كتابه ، إذ دافع فيه الأستاذ العقاد عن الإسلام في قضايا الرّق وتعدُّد الزوجات ، وحدود العقاب ، وشروط المعاملات الاقتصادية وغيرها دفاعاً مقنعاً لا يحتمل الجدل الباطل ، وبين فيه جناية المذهب المادّي على المرأة والأسرة ، ثم على المجتمع في حاضره ومستقبله ، قال (ص ١٤٢) فلن يكون خلاصها من الاستغلال على يد النظام الذي يرسلها إلى الأسواق ، والمصانع ومعارك السياسة والكفاح ، ولن تخلص من الاستغلال إلاّ إذا ملكت بيتها أمًّا وربة أسرة ، وسيدة للعالم الصغير ، وذكر القيود والشروط لإقامة الحدود والتعازير ، وأوضح حلّ الإسلام لمشكلة الفقر والحاجة بإيجاد العمل على القادرين ، وإسعاف العجزة والعظام النخرة ، من طول السنين . وأما الأستاذ العطّار فقد حارب الشيوعية حرباً لا هوادة فيه ، ولمّا سأله بعض الإخوان عن رأيه فيمن ينقلب شيوعياً من المسلمين ؟ أجاب بأن الشيوعية تنكر وجود الله ورسالة الرسل عليهم السلام (قال ص ٨) وهذا وحده كاف لأن يهدينا الى الحكم على معتنقها ، (قلت) وهذا القدر معرّف بالحكم ، وهو يغني عن كل ما سبقه ولحقه من سب وشتم ، لا سيما بعد أن عادت الشيوعية واعترفت بالأسرة ، وبالملكية الفردية ، وقال (ص ١٠٦) لقد لحق التبديل والتغيير كل قواعد المذهب وأسسه ، فالأسرة قامت من جديد ، والملكية اعترف بها ، واعترفوا بالوطنية والقومية ، ورَفعَ النقدُ الأدبي رأسَه ، فصارت الصحف الروسية تنشر النقد ، ولكن ليس للأداة الحكومية وجهاز الحكم ، ومن بيدهم مقادير البلاد ،

ومع ذلك فهو بشرى خير إن شاء الله ، وكذا تقرأ في الفصل الذي عقده الأستاذ العقاد ، رجوع الشيوعية عن عوامل الهدم والفساد ، في الأسرة والمجتمع ، وإثبات الحرية الشخصية ، والملكية الفردية ، في المزارع ، وهزيمة المذهب القديم (ص ١٥٦ و ١٥٩) . وهذا يدل دلالة صريحة على أن الشيوعية كانت شيوعية أرض لا شيوعية عرض .

وكان لبّى مجمعنا العلمي بدمشق دعوة المجمع الموسكوي سنة ١٣٧٤ هـ = ١٩٥٤م ، واجتمعت هنالك بإخواني المسلمين ، وصليت الجمعة في جوامع موسكو وطاشقند ، وزرنا قُثَم بن العباس (رضي الله عنهما) الذي استشهد في سمرقند ، وشاهدنا جامع لينين گراد الذي بنوه بعد الانقلاب الأخير في عاصمة الروس القديمة ، وكنا نسمع خطب الجمعة بلغة القرآن ، واجتمعنا في طشقند بالشيخ المعمّر المفتي العام رحمه الله ، وتناولنا الطعام على مائدته مع القاضي الفاضل ، وأخبرونا أن أربعة عشر جامعاً في هذه العاصمة تقام فيها الصلاة ، وعدد نفوسها نحو مليون نسمة ، ورئيس جمهوريتها مسلم ، وأكثر أعضاء المجمع العلمي في طاشقند من المسلمين ، وأكثر من ثمانين بالمائة منهم أيضاً ، وهم بزيهم الشرقي وعمائمهم كما رأيناهم في مكة والمدينة وجدّة والطائف من أرض الحجاز ، وفي بلاد الشام ، وشهدنا - في سمرقند - تجديد عمران المساجد القديمة ، ورأينا صورة داعية الإسلام في بلاد الروس الشيخ طنطاوي عيّاد المصري (رحمه الله) الذي توفي من نحو نصف قرن ، مرتفعة على الجدران مع صور مشاهيرهم وأكرم رجالهم ، وإنما ذكرت هذا عملاً بقوله تعالى « ولا يَجرِمنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أن لا تَعْدِلوا : اعدِلُوا هو أقرب للتقوى » (أي لا يحملنكم بغض قوم لكم ، أو بغضكم لهم ، على ألا تعدلوا فيهم : اعدلوا هو أقرب للتقوى) وهذا أمر إلهي لا يستطيع المسلم أن يعدل عنه ، أو يماري فيه ، فاللهم ألهمنا رشدنا .

محمد بهجة البيطار

أسرار العربية

للإمام أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري

بتحقيق الزميل الأستاذ محمد بهجة البيطار من أعضاء المجمع العلمي العربي

عدد صفحاته ٤٢٩ غير الفهارس ، وطبع بدمشق (١٣٧٧ هـ - ١٩٥٧ م)

إن من أظهر صنائع المجمع العلمي العربي الجديرة بوقف الألسنة على شكرها اهتمامه بنشر ذخائر سلفنا العربي الصالح التي تعين على بعث لغتنا وإحياء آثارنا العلمية والأدبية ، ومن أنفس تلك الذخائر الدالة على مبلغ عناية سلفنا بالعربية وعلومها (كتاب أسرار العربية) للإمام عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري الحكم الفصلُ بين المذهبين البصري والكوفي في النحو ، وغير المتحيز لمذهبه البصري إن كان الحق يؤيد الكوفي ، وفي ذلك ما فيه من بث روح الإنصاف في طلاب النحو ، والحث على التزام الحيدة العلمية في التأليف والتعليم ، ولا أُبين لما ذكرتُ ولا أوصف لموضوع هذا الكتاب مما وصفه به في المقدمة مؤلفُه إذ يقول :

« وبعد فقد ذكرتُ في هذا الكتاب الموسوم « بأسرار العربية » كثيراً من مذاهب النحويين المتقدمين والمتأخرين من البصريين والكوفيين ، وصححت ما ذهبت اليه منها بما يحصل به شفاء الغليل ، وأوضحت فساد ما عداه بواضح التعليل ، ورجعت في ذلك كله الى الدليل ، وأعفيتُه من الإسهاب والتطويل ، وسهلته على المتعلم غاية التسهيل ، والله تعالى ينفع به ، وهو حسبي ونعم الوكيل . »

وقد صرف الأستاذ الناشر الفاضل نظره عن إبداء ملاحظاته والمبالغة في التعليق والتعليل تفادياً من الإملال والتطويل ، مكتفياً بإخراج نسخةٍ صحيحة

من النسخ المخطوطة والمطبوعة التي يكمل بعضها بعضاً ، كما عُني بتفسير غامض اللغة وشرح الشواهد وعزوها الى أهلها مع ايراد تراجم لما في الكتاب من العلماء والشعراء ، كما كشفَ عن مكامن فوائده بفهارس مفصّلة تعين على الرجوع الى المسائل التي يحتاج المطالع أو المراجع اليها ؛

وهنالك لأسرار العربية ثلاثة أصول مخطوطة : أجلّها مخطوطة مدينة السلام القديمة القوية التي اعتمد عليها المستشرق الالماني فريدريك سيبولد لكمالها فاعتمد عليها الناشر لذلك ، ولسقوط أبواب كاملة من النسختين المغربيّتين ؛ وقد مضى على طبع أسرار العربية بليدن ثلاثة أرباع القرن ، ففقدت النسخ المطبوعة كلها ، وفي بلادنا العربية خاصة ، وأصبح بذلك هذا الكتاب المطبوع كالمخطوط ، وببعده عن العيون كالمدفون ، مّما دعا مجمعنا العلمي الى إعادة طبعه لتعميم نفعه .

هذا وقد أكمل الناشر المحقّق هذا الكتاب الجليل بترجمة ضافية للمؤلف في حياته العلمية والخلقية وبيّن ما له من مؤلفاتٍ ممتعة أحسن للقراء وصفهــا ، وبذلك أصبح هذا الكتاب المنشور داني القطوف للراغب وقريب المنال للطالب ، لا تشوبه سوى هفوات مطبعية لا يخلو منها كتاب ، فالله يجزي المؤلّف والناشر عن العربية خير الجزاء ، فلقد يقصّر عن حقّهما طويل الثناء .

التنوخي

اقتصاديات العراق

محاضرات الدكتور عبد الرحمن الجليلي في ٢٥٥ صفحة

إن درس الحالة الاقتصادية ، في كل قطر من الأقطار العربية ، من قبل الإخصائيين ، فيه فوائد جمة ، للعرب أجمع ، إذ يعرف بعضهم بعضاً ، ويتفاهمون في الأمور الاقتصادية ، ويتقاربون في الأعمال ، وقد أحسن معهد الدراسات العربية العالية ، في جامعة الدول العربية ، في الطلب الى بعض الاقتصاديين بالقاء محاضرات على طلبة المعهد ، وفي جمعها في كتاب على حدة .

لقد كان الدكتور عبد الرحمن الجليلي من الذين حاضروا عن اقتصاديات العراق .

وقد بحث الدكتور الجليلي في محاضراته هذه ، عن مساحة العراق ، والأراضي القابلة للزراعة هناك ، وحالة الأمطار ، ومقدار الإنتاج ، وعدد السكان والبدو ، وعدد عمال الزراعة ، الذين يبلغون ٦٠ — ٨٠ في المئة من مجموع السكان .

وبين حالة التعليم في المدارس وان عدد التلاميذ قرابة ربع مليون أي ١٢ ٪ من مجموع السكان ، وان عدد المدارس قد ارتفع الى ١١٠٠ مدرسة كما بين أن لكل ٧٠٠٠ شخص طبيباً واحداً ، وان الملاريا تقضي على ما يقرب من ٥٠ الف نسمة في كل عام .

وقدر متوسط دخل الفرد السنوي بحوالى ٣٠ ديناراً للفرد ، على اعتبار ان مجموع دخل العراق العام السنوي هو ١٥٠ مليون دينار ، وهو دخل ضعيف ولا شك مما يدل على أن الحكومة العراقية كانت نائمة عن تحسين اقتصاديات البلاد ، وعلى أنه لولا النفط ؛ الذي بلغ دخل الحكومة منه عام (١٩٥٣) ٥٢ مليون دينار ، ثم ارتفع الى قرابة مئة مليون دينار في عام ١٩٥٨ ، لكانت بقيت اقتصاديات العراق سيئة لزمن طويل .

ثم بحث عن صادرات العراق ، وعدد الجرارات والدراسات الحاصدات ، ومعيشة الفلاح السيئة الذي هو عبارة عن أجير عند صاحب الأرض .

ثم بحث عن الماشية (كل أنواع الحيوانات) التي تبلغ قرابة عشرة ملايين رأس ، وهي قليلة ولا ريب .

وبحث عن الصناعة وقال ان العراقيين لم يعتادوا توظيف أموالهم في الصناعة ، ولام الحكومة عند بيان السبب بقوله : «عدم قيام الحكومة بتوفير الناحية الفنية والإدارية لتشجيع الناس على الدخول في المجال الصناعي لأن مجرد الإعفاء من الضرائب لا يغير الأشخاص الذين لا يعرفون كيف يستثمرون أموالهم في الصناعة (ص ٦٣) .

ثم بين أن الحكومة العراقية قامت ببعض الصناعات ، كصناعة الأقمشة ، والاسمنت ، والسكر ، ولكنها لم تدر مصانعها بمهارة مما جعل الدكتور المحاضر يقول : «ان التبذير في الأعمال الحكومية قضية مسلم بها وعدم وجود الدافع الشخصي والمنفعة الذاتية ، يجعل كفاءة المصانع الحكومية أقل من كفاءة المصانع الفردية» (ص ٧٢) .

وقد انتقد الإقليمية الضيقة في البلاد العربية ، التي لم توجد صناعات ثقيلة ، فقال : «ويكفي أن نشير الى أن صناعات عسكرية كبيرة ، وميكانيكية يمكن أن تنشأ وتنجح في البلاد العربية لو كانت الوحدة بينها حقيقية وصحيحة» (ص ٧٥) وهذا قول حق .

وقال إن إحداث المصرف الصناعي في العراق عام ١٩٥٠ برأسمال مليون دينار ثم ارتفاع رأس المال الى ثلاثة ملايين عام ١٩٥٢ قد أفاد الصناعة في العراق .

وبحث عن التجارة في العراق وبين العجز التجاري المتواصل ، وان المستورد في عام ١٩٥٣ كان بقيمة ٥١ مليون دينار ، بينما لم يكن المصدر إلا بقيمة

٢٠ مليون دينار ، أي ان العجز كان ٣١ مليون دينار وهذا دليل على اهمال الحكومة آنئذ .

ثم بحث النظام النقدي في العراق ، وان المصرف الوطني قد أسس عام ١٩٤٧ ، وبين أن مجموع الودائع التي في حوزة المصارف التجارية في عام ١٩٥٢ كان ٣١و٣ مليون دينار وهو قليل ولا ريب .

وبحث عن النفط العراقي والشركات التي تستثمره وتاريخها ومقدار الانتاج وحصة العراق ، ومساهمة العراق في الشركات والمصافي هناك ، وخط الأنابيب بين كركوك وبانياس وطوله ٥٦ ميلاً ، وسعته ١٤ مليون طن ، وتأثير النفط في الاقتصاد العراقي ، ونسبة الدخل من النفط الذي بلغ عام ١٩٥٣ ٥١ مليون دينار الى الدخل القومي الذي هو قرابة ١٥٠ مليون دينار ، وان حصة الحكومة من النفط هي ٥٠٪ فقط .

ويظهر أن الحكومة العراقية ، قد قصرت في استملاك مقدار كبير من أسهم شركات النفط ، التي تحسب بموجبها حصة العراق ، لأن العراق يحرم من جراء تلك الأسعار ، ما يزيد على ١٠ — ١٥ مليون دينار في كل عام .

وتحدث عن مجلس الإعمار الذي أحدثته الحكومة العراقية عام ١٩٥٠ ، ووزارة الإعمار التي أوجدتها عام ١٩٥٣ وبين الصلاحية الواسعة للمجلس والوزارة ، وقد بلغت واردات المجلس في عام ١٩٥٤ مقدار ٣٨و٨ مليون دينار والنفقات ٢٠ مليون دينار فقط ، وان المجلس أقرض مبلغ ١٤ مليون دينار الى المصالح والدوائر المستقلة ، وان المجلس أوجد برامج للزراعة والصناعة والمواصلات والمباني لمدة خمسة أعوام ، وكل ما خصص لذلك ، هو من موارد النفط .

وختم محاضراته ببحث سياسي اقتصادي ، وهو اشتراك سورية والأردن

ولبنان مع العراق في العمل ليصبحوا منطقة من العالم ، وان لبنان يلقى العنت من سورية (ص ٢٥٠ — ٢٥٥) .

وقد قال في ذلك : « ونجد كيان العرب السياسي والعسكري في هذه المنطقة من العالم ، وفي العلاقات الدولية ، قائمة على تجمعهم في كيان ينتظم أول الأمر ١٤ مليون من السكان ، لهم من الموارد الطبيعية والثروة المستقلة ، ما تساعدهم على سرعة بناء كيانهم السياسي والعسكري على أحسن وجه وأقواه » (ص ٢٥٤) .

وقوله هذا هو من خطة الحكومة العراقية (عام ١٩٥٥) بينما قد رأت سورية مصلحتها واتحدت مع مصر التي تكن لها أجل العواطف ، والتي تربطها بها « روابط اقتصادية وقومية وتاريخية وعسكرية هامة لا انفصام لها ، وما على العراق الشقيق إلا أن يندمج في الوحدة العربية .

في الحق أن الدكتور المحاضر ، قد توسع في استعراض اقتصاديات العراق ، وكان موفقاً في ذلك وقد أفاد طلبة المعهد ، وغير المعهد ، في الاطلاع على اقتصاديات القطر العراقي العربي ، ولو أنه توسع أيضاً في انتقاداته للحكومة العراقية (آنئذ) فيما يتعلق بضعف الاقتصاد القومي ، وعدم أخذها حصة كافية من النفط ، وقلة عدد المدارس والأطباء رغم مواردها العظيمة من النفط ، لكان أسدى الى العراق خدمة جلى ، إذ ينبه الشعب الشقيق الى تسبب واهمال حكومته ، ويدعو الحكومة إلى العمل الجدي .

وصفوة القول : ان هذه المحاضرات قيمة ، وجديرة بالتقدير .

منير الشريف

آراء وأنباء



الأستاذ الرئيس خليل مردم بك

(١٨٩٥ ـــ ١٩٥٩)

خليل مردم بك

(١٨٩٥ ـــ ١٩٥٩)

في صبيحة الثلاثاء الواقع في ١٥ محرم ١٣٧٩ هـ، والموافق لـ ٢١ تموز ١٩٥٩، قضى رئيس مجمعنا العلاّمة الشاعر الأستاذ خليل مردم بك، إثر مرض لازمه شهوراً، فبكته البلاد، وشيعه أعلام العرب، ومشى وراء نعشه رجالات البيان. وكان لنعيه رنة حزن وأسى في القلوب جميعاً، لما كان عليه الراحل الفقيد من مزايا نادرة وصفات باهرة في الخلق والأدب والانتاج. وبموته انطوى علم من أعلام الجيل الماضي ظل خفاقاً منذ أهلّ القرن.

كان الفقيد نموذجاً رائعاً من رجال البيان لصدر هذا العصر في أدبه وانتاجه، يلز بالفحول من الشعراء في مصر والعراق ولبنان، ويلحق بكبار الأدباء من الصفوة المختارة، رفع اسم بلاده عالياً، وقضى حقها كاملاً، وناضل في سبيلها كل حياته، فأصبح منارة يستضيء بها الجيل الصاعد، وغدا أمثولة تحتذى وسيرة تقرأ. فقد كان من الأوائل الذين استساغوا الأدب الضخم والعبارة الفخمة والشعر المتين، عكف على تراثنا الخالد، وأفاد منه، وحببه إلى الناس فخدم الأدب المعاصر خدمة لا تنسى، وكان صلة الوصل بين القديم والحديث، جمع أطايب القول وأحاسن الصور، وعرضها في أجمل ثوب وأحسن حلي، وقاسى في سبيل ذلك ما لا يقاسيه جيلنا من فقد المصادر، وندرة الخزائن، وقلة الثقافة، وضآلة التعليم، وجفاف الينابيع.

كان القرن التاسع عشر يتنفس آخر سنيه، شقياً بما شهد من ظلم وعسف وضيق، وكانت الأنوار تظهر حيناً وتختفي أحياناً. وفي سنيه الأخيرة، قبل

أن يموت هذا القرن ، ولد خليل مردم بك حوالي سنة ١٨٩٨ [١] بدمشق ، لأب هو أحمد مختار مردم بك ، وأم هي السيدة فاطمة الحمزاوي ابنة السيد محمود الحمزاوي مفتي دمشق وعلامتها ، وصاحب التصانيف المعروفة من شعر ونثر . ولم يكن له إخوة من الذكور ، وانما كانت له خمس شقيقات ، فدفع به أبوه إلى التعلّم ، وسلكه في مدارس ذلك الزمان ، وهي ضعيفة الثقافة ، فنشأ الصبيّ كما نشأ أقرانه ، ودرج في مدرسة الملك الظاهر الابتدائية . ولكنه ما كاد يتم الرابعة عشرة من عمره حتى فقد أباه ، ثم فقد أمه بعد أربع سنوات ، فغدا في صدر حياته يتيم الأب والأم ، يسير بين أشواك الدنيا حذراً قلقاً متردداً ، حييًّا خجولاً ، وكأن المصيبة طبعته بطابع الصمت والحذر والسكون ولازمه ذلك طوال حياته .

ومضى الشاب إلى إكمال تحصيله رغم يتمه ، يتم علمه على أساليب تلك الأيام ، فأقبل على الحديث والفقه والنحو والصرف ، فدرس الحديث على المحدث الشيخ بدر الدين الحسني ، والفقه على قاضي الشام الشيخ عطاء الله الكسم ، والصرف والنحو على الشيخ عبد القادر الإسكندراني ، وهم علماء دمشق والمقدمون في مجالي الثقافة والمعرفة ، فأفاد منهم ، وأخذ عنهم ، حتى علقت به أساليب القدماء وطرقهم ، فوقف على العربية وهو ما يزال يزحف نحو العشرين من سنيه ، وراح يقرض الشعر ، ويتلهى بقوافيه ، يقلّد القدماء ويجري على سننهم حتى أصبحت له ملكة في الشعر ، فدار اسمه ولمع صيته في بلده .

وانقضت سنة ١٩١٨ بويلاتها وشرورها ، وجلا الأتراك عن دمشق ، فعيّن الشاب مميزاً لديوان الرسائل العامة ، ينقح ما بين يديه من أوراق ،

(١) ذكر بروكلمن ٣ / ٣٥٦ في ترجمته للفقيد ، أنه ولد سنة ١٨٩٥ ، ولعله نقلها عن كامبفماير الذي استكتب أدباء دمشق سيرهم ، بأقلامهم . ولكننا نتابع في حساب السنين ما كان الراحل يريد أن يجعله سنة لولادته في أوراقه الرسمية .

ويختار أشرف الألفاظ ، ويمارس الوظيفة مترقياً في مراتبها حتى أواخر سنة ١٩١٩ . وقد شهد خلال هذه الحقبة كثيراً من الرجالات الرسميين عن كثب ، واستمع الى أحاديثهم ، ورأى بعينيه تاريخاً جديداً للأمة العربية يسطر ويكتب ، فاهتز قلبه للأمجاد ، وتفتحت نفسه للمناصب ، وظل عمره كله يذكر تلك الحقبة السعيدة من سنيه ، ويتغنى بأنه رأى أمته تنشئ الحياة وتبني العز من جديد بعد ركود طويل . فآمن بعروبته ، وتعشق بطولاتها ، وسحر بتاريخها ، وأحب أن تعود كما كانت تسابق النجوم وتصافح المفاخر ، فمال قلبه إلى الشعر الوطني ، وتغنى لسانه باستقلال العرب .

ولما دخل الفرنسيون دمشق ترك الوظيفة ، وانصرف عن خدمة القوم ، وتغلغل في قلبه كرههم ، وعرف بذلك كل حياته ، وعشق الشعر المهجري ، وأطال صحبته لإنتاج الرابطة في نيويورك ، فكان من ذلك أن أسس مع صحبه « الرابطة الأدبية » ، دخلها معه أدباء ذلك العهد ، وفيهم : محمد الشريقي ، ايفانوس ، شفيق جبري ، حيدر مردم بك ، سليم الجندي ، حليم دموس ، أحمد شاكر الكرمي ، قبلان الرياشي ، عبد الله النجار ، جورج ريس ، نسيب شهاب ، ماري عجمي ، عز الدين علم الدين ، نجيب الريس ، فخري البارودي وغيرهم ...

وعقد أعضاء الرابطة أول اجتماع لها في شهر آذار سنة ١٩٢١ ، ووضعوا قانوناً لجمعيتهم ، وانتخبوا خليل مردم بك رئيساً للجنة الإدارية وعمره ثلاث وعشرون سنة .

وكانت الجمعية تعقد كل أسبوع اجتماعاً ، يلقي فيه أحد الأعضاء محاضرة في موضوع معيّن . ثم أنشأت الرابطة مجلة باسمها « مجلة الرابطة الأدبية » فكانت من خيرة الصحف لذلك الزمان في موضوعاتها وفي أسلوبها ، تختار أطايب القول في الشعر والنثر ، وتترجم عن فحول الغربيين ، وتعنى باللغة ومفرداتها . وقد صدر العدد الأول منها سنة ١٩٢١ ، وفي صدرها شعارها : « انشاء جامعة أدبية تلم شملهم وتوحد قوتهم » .

وفي هذه المجلة نشر الفقيد شعراً ودراسات ، وكان الشعر في الغزل ، وهذه مطالع بعضه :

الهوى يا ميّ صعب فارحمي من لك يصبو

أما ينئك قلبك مستطارا إذا ما البرق أومض واستطارا

هل تذكرين بسفح دمر ساعةً فيها افترشتِ يدي وفضل ردائي

وهذه القصائد مشبوبة العاطفة ، مضطرمة اللوعة ، تمثل الشاب في هذه السن ، وقد تفتح قلبه للهوى وخفقت ضلوعه للحنين ، وسالت في دروب حفظه أشعار البحتري وابن المعتز وقصائد العذريّين ، فكان صورة عنهم في الرقة والأسلوب وفي كثير من معانيه ، فقد سلك الشاب في حب الشعر القديم والتراث الخالد منذ هذه السن مسلكاً عجيباً ، وعكف على المخطوطات ، وأخرج مع زملائه من أعضاء الرابطة كتاب «معاني الشعر» للأشناندانى ، [1] وطبعه بدمشق سنة ١٩٢٢ . وطفق بعد ذلك يكتب مقالات ودراسات في مجلة المجمع العلمي عن المخطوطات ونقد الكتب المحققة ، فكان لأساتيذه القدماء فيما نظن أثر في توجيهه هذه الوجهة ، بل كان للمحققين في زمانه يد في هذا الحب ، وفيهم الشيخ طاهر الجزائري والأستاذ محمد كرد علي .

وظلّ الرجل يعمل للرابطة وحلقاتها ومجلتها حتى شعر المستعمرون أنه محور يقظة ، وموضع بعث فأغلقوا المجلة ، وحلّوا الجمعية ، وانتثر العقد ووقفت الرابطة بعد أن قامت بنشاط منتج ، وأصدرت من المجلة تسعة أعداد سدت بها فراغاً كبيراً .

***

ولا شك في أن هذا النشاط وهذا الانتاج دفعا بالمجمع العلمي العربي إلى تقدير شاعرنا وانتخابه عضواً في المجمع [2] ، فتقدم اليه برسالة عن « شعراء الشام

(١) طبع بنفقة الرابطة سنة ١٩٢٢ في ٢٠٨ صفحات .
(٢) انتخب في ٩ كانون الثاني سنة ١٩٢٥ .

في القرن الثالث» نمت على حذق وفهم وحب عميق للشعر الأصيل ، وعكوف على هذه الطبقة المختارة من شعراء العرب ، ظل فقيدنا يغذيها بقراءاته وبحوثه ، وجهوده في جمع الدواوين طوال عمره حتى كاد يستكمل حلقة الشعر في الشام منذ القرن الثالث حتى السابع . وقد نشر دراسته هذه في مجلة المجمع (١) أولاً ، ثم طبعها على حدة في كتاب صدر سنة ١٩٢٥ .

وهكذا احتل الرجل مقعداً من مقاعد الخالدين . وكانوا خلاصة الأعلام وسادة الثقافة والبيان ، ينظر اليهم العرب في أقطارهم على أنهم معقد الأمل وحصن العربية ومصنعها الضخم ، عنهم تصدر المقالات الرصينة ، وفي دارهم تعقد الندوات الأدبية الرفيعة ، وبيدهم تحرر أوثق مجلة علمية نشأت مع الاستقلال العربي . وما زالت كذلك إلى اليوم نطيف على عالمنا كؤوس المعرفة صافية ، ودراسات الأدب نقية ، خالية من شوائب العصر ، بعيدة عن السياسة كل البعد ، حتى غدت منارة وحدها بين صحف تولد وتموت ، وتظهر وتطوى ، ولكنها كالمجمع نفسه جبلت على الخلود ، والخلود لا يمسه عيب ولا يلحق به نقصان . وكان هذا المجمع مثالاً ناجحاً احتذاه علماء القاهرة وبغداد ، فأنشؤوا في كل من الحاضرتين مجمعاً ومجلة ليسيروا بهما على غرار دمشق .

وفي هذه المجلة نشر الفقيد مقالات يجب أن تجمع ليوم ذكراه ، كما فعل في جمع مقالات غيره ، فقد كان الرجل مثال التواضع والتفاني فصرف همته إلى دواوين غيره ومقالات زملائه ، ولا يصح أن ينصرف زملاؤه عن العمل لمقالاته ودراساته .

وفي هذه السنة نفسها (١٩٢٥) نشر فقيدنا «كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، وكتاب وقف فاطمة خاتون بنت محمد ابن السلطان الملك

(١) انظر مجلة المجمع سنة ١٩٢٥ (ص ٢٩٤ وما تليها) وكتاب شعراء الشام ، طبع دمشق سنة ١٩٢٥ ، في ٩٦ صفحة .

الأشرف قانصوه الغوري » وكتب على الغلاف : « وقف على طبعها خليل بن أحمد مردم بك »[١] .

ولم تكن أعمال النشر والتحقيق والمقالة وحدها هي التي تستبد بوقت فقيدنا ، فقد كان يؤمن بأن للنضال عليه حقاً ، لذلك عاش حياته كلها يعمل للأدب ويتغنى بالثورة ، فهو في برزخين أبداً ، ينتقل من هذا إلى ذاك ، كما ينتقل الطير من فنن إلى فنن ، فكان ينظم الشعر في الجمال كما ينظمه في خير وطنه وفي إثارة الشعب ورد الطغيان ودفع الظلم ، فكانت منه قصائد عامرة نظمها في الوطنية والعروبة وطرد الفرنسيين ، ردّدتها دمشق وتغنت بها ، فلما نشبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ، وقام اللهب والحريق والقتل في جنبات الغوطة الغناء وفي رحاب دمشق الفيحاء أرسل قصيدته المشهورة « يوم الفزع الأكبر » ومطلعها[٢] :

أمدّه الدمع حتى غاض جائده فمن بأدمع عينيه يرافده

فتناقلها الناس ، ونشرتها الصحف العربية ، وتلفت الفرنسيون إلى هذا النور ليطفئوه ، وأرسلوا في اثره يطاردونه ، ففر إلى لبنان ، واستخفى فيه بقرية « المروج » بمساعدة صديقه الشاعر أديب مظهر . وما علمت السلطة بوجوده هناك حتى راحت تلاحقه للقبض عليه ، فهرب الى الاسكندرية سنة ١٩٢٦ ، ونزل عند شقيقته السيدة فائزة زوجة المرحوم الدكتور أحمد قدري (وهو من أعلام الثورة العربية ومن رجال فيصل الأول المقربين) .

ولبث الفقيد في مصر أربعة أشهر كان لها أثر كبير في حياته ، فقد كان يقرأ عن بعد لأعلام المصريين ، ويستمع الى أخبارهم ، ويتلقف آثارهم ،

(١) طبع بدمشق على نسخ قليلة ، سنة ١٩٢٥ في ٣٠٠ صفحة .

(٢) انظر ديوان الثورة ، جمع محمد ياسين عرفة ، مصر ١٩٢٦ ، ص ١٢٤ .

ويشتاق إلى معادن العربية من مكامنها ، فلما بلغ اليهم اتصل بالأعلام ، وعرفهم كما عرف من قبل رجال السياسة العربية في بلده . وقد عرفنا من أحاديثه الشخصية ما كان يلقى من إكرام وما يصيب من ود ، ورجوناه أن يسجلها لجيلنا ، فكان منه مقالتان في ذكرياته مع حافظ ابراهيم بالاسكندرية وحلوان ، نشرهما في مجلة المجمع العلمي العربي[1] ، تحدث فيهما عن شاعر الشعب في أدق عيشه وحركاته .

وتأثر الفقيد من غير شك بجو الاسكندرية وثقافتها ، فعزم على الدراسة في الغرب ، وقرر أن يقصد الى انكلترة ، فسافر اليها وانتسب إلى جامعة لندن ، ولقي فيها آفاقاً رحبة واستمع إلى كتاب الإنكليز ، وظل طوال عمره يذكر أثر ذلك ، وما كان من استماعه إلى ويلز وغيره من الكتاب الغربيين . ولبث في تلك البلاد أربع سنوات درس فيها الآداب وحصل على شهادة تعادل الدكتوراه . وقد كان لوقوفه على الأدب الانكليزي ورحلته في الغرب أثر هام في شعره . وظهر الأثر في قصائده : سكران وسكرى ، والغوطة ، وبردى والرقص ، فجمع جزالة العبارة إلى براعة الصورة ، وأفاد من الشعر الفحل في مصر واللون الغربي ، ووفق في الموسيقى والخيال ، وارتفع بالشعر الشامي المعاصر إلى مراتب الجودة والتوفيق .

وعاد إلى دمشق سنة ١٩٢٩ مشوقاً ظمآن إلى ربوعها ومواطن صباه ، والجراح تحت ردائه لما أصابها من نكبات وهزات ، فاستقبلها بقصيدة لعلها من خير شعره ؛ حيا فيها عاصمة بني أمية ، وجعل عنوانها «سلام على دمشق» قال في مطلعها :

تلاقوا بعد ما افترقوا طويلا فما ملكوا المدامع أن تسيلا

فاهتزت مشاعر قومه ، وصفق له الأدباء ، ورأوا فيه شاعراً ألان القوافي لبراعته ،

---

(١) انظر مجلة المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٦ (ص ٣٥٣ - ٣٧٠) ، (ص ٥٢٩ - ٥٤٣) .

فأكبروه وأحلوه مكانة الود والإكرام . وعيّن مساعداً لرئيس الأدب العربي في الكلية العلمية الوطنية ، وظل فيها تسع سنوات من (١٩٢٩ — ١٩٣٨) وفي هذه الكلية تخرج على يديه أدباء وعلماء سلكوا في دروب المعرفة ، ورفعوا لبلدهم في مختلف الميادين ذكراً لا ينسى .

وفي سنة ١٩٣٣ حنّ من جديد إلى الصحافة الأدبية ، فأصدر مع الدكاترة جميل صليبا ، وكاظم الداغستاني ، وكامل عياد مجلة « الثقافة » جاء في مقدمتها كلام يبين عن بعض أهدافها : « للأدب أبلغ أثر في تكوين هذه الثقافة ، فهو روح النهضات ، ومظهر حياة الأمة ، ولقد طغت عليه جلبة السياسة في هذه الأيام حتى كادت تخفت صوته في ضوضائها ، فأصبح من الواجب إقالته من عثرته والأخذ بيده ، وتقديس حرمه ، وانتهاج طريق واضح له في الدراسة والوضع » . وهذه السطور تغني عن شرح كثير في وصف الحال ورسم البواعث التي أهابت بالفقيد ورصفائه إلى إنشاء هذه الصحيفة .

وكانت « مجلة الثقافة » صورة للصحف الراقية في بحوثها ومقالاتها وصورها الفنية ، تختار الشعر الجميل والقصص البديع والترجمات الحسنة . وكان للفقيد فيها شعر ونثر ، كما كان في مجلة الرابطة من قبل . ولكنه هنا أبلغ وأحسن ، فقد سار الفقيد بخطى نحو الجمال والإتقان ، وأصبح يفهم الشعر على أحسن ما تفهمه الآداب الراقية . وكتب مقالاً نشره في هذه المجلة نتخذه دليلاً على أسلوبه في الكتابة والنثر ، وشاهداً على ما نقول من فهمه لرسالته في الأدب قال [1] :

« الشاعر : مخلوق خالق ، وروح خالد ، يصور من خفقات قلبه وخلجات ضميره وإبداع فكره أشباحاً ينفخ فيها من روحه فإذا هي من الخالدين . ملك أو جني ، هبطت روحه من عالم الغيب ، فتمثلت بشراً سوياً ، فهو مع بني الإنسان ،

(١) انظر مجلة الثقافة بدمشق ، تموز ١٩٣٣ (ص ٣١٧ - ٣١٨) .

ولكنه غريب عنهم ، فما يزال يصيخ إلى هينمة الملائكة في السماء أو عزيف الجن في الصحراء ، ويستشف من وراء الأفق عالماً نورانياً ، ويتبيّن في الجو مسارح أنسه الأولى ، ومعاهد هواه القديم :

لابنة الجني في الانس طلل ....

فهو يقظان حالم ، أنكر الناس أمره وحاروا في شأنه ، وقالوا : شاعر أو مجنون .

« يأنس بالوحدة لأنه من نفسه في عالم ، ويؤثر السكون ليسمع جلجلة الوحي وأصداء الأرواح ، ويسكن إلى الظلام ليشاهد الرؤى والأشباح ، ويغمض عينيه ليرى ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى » .

وهذا أسلوب جميل ، يجري بغير تكلف ، ويقتبس من القرآن الكريم ، ويسمو في فهم الشاعر ، لأن كاتبه يصف نفسه في حال الوحدة والسكون حين يصطاد خفقات قلبه وما يحيك في صدره وما يشع في بصره وما يفيض من عينيه . والذين أطالوا الاستمتاع بحديث الفقيد وسكروا معه بكؤوس الصداقة هم الذين يعرفون كيف كانت تحوم أشباح الشعر حول عينيه وبصره وفمه ، وهم الذين يعرفون نشوة الشاعر حين يحس أضلاعه تهمس همساً ألذ من نسمات الصباح على أوراق الشجر مع أوائل النور ، يجوس خلالها الشعر وتطرق القوافي ، فينشرح صدره وتضحك عيناه .

والأدباء الذين قرأوا الشعر المعاصر يعرفون أن شعر الفقيد كان يحوم حول جمال الكون ، وفتنة المرأة ، وجلال الدين ، وعظمة الحرية ، وكرامة الوطن . ويعرفون أنه كان ينسج من خيوطها قصائده منذ افتر شبابه حتى خبا آخر شعاع في عينيه ، فكانت أغاني وألحاناً أسلمها إلى كراريس دفن فيها أقدس أسراره ، ولم يفضح منها إلاّ ما ارتضى خطبته وإشاعته [1] .

(١) هذه الكراريس يقوم مجمعنا العلمي بطبعها ونشرها إحياء لذكراه .

وفي هذه الكراريس ألوان من الشعر والخيال ، ليس هنا مكان الافاضة فيها ، فهي تلمّ بصور الغزل على ألوانه ، منه اللّيّن ومنه العنيف ، وفيه القبل تترى والأشواق تتسابق ، فتلحق بالرومانسية الأوربية ، وتتصل بالأساليب العباسية ، وهي في كثرتها كشعر العذريين ، أو الغزلين المتعففين يسقط على القبلة ولكنه لا يهوى إلى ما بعدها ، فيقول :

فكأننا إذ ذاك زوج من قطا يتطاعمان بروضة غنـاء

قد كان في طوقي بلوغ مآربي لولا زواجر عفـةٍ وحيـاء

وهذا يذكرنا بالعباس بن الأحنف أو بأبي فراس الحمداني ، حين يقدر العاشق ويعف . وهذه الكراريس تغص بالصور الفاتنة في وصف دمشق وغوطتها وأنهارها وجبالها ، وليلها ونهارها ، وما فيها من مؤذن وأذان ، وما في أعيادها من ضحايا تلمع فيها مدية الجزار ، وما في الجو من فراش ، وما في الأرض من زنبق . وهو في ذلك كله مؤمن أعمق الإيمان بالله ونبيّهِ يقول فيه :

شب أميـًا ولكن نال في العلم الإمامة

وهو وطني مخلص لعروبته وبلاده ، يكرم الأبطال في ميسلون فيناجي « يوسف العظمة » :

غضبتَ لأمة منها « معدٌّ » فأرضيتَ العروبة والإلـهـا

فيالك راقـداً نبهت شعبًا وأيقظت النواظر من كراها

ويكرم دمشق في الثورة التي ألهبتها ويغنيها إثر عودته من لندن :

دمشق ولستُ بالباغي بديلاً وعن عهد الأحبة ان أحولا

ذكرتُك واللهيبُ له وميضٌ ينشّر من شقائقه ذيولا

له وهج إذا وازاه طـير رماه ولو علا في الجو ميـلا

وأمطرتِ الرصاص فكان وبلاً شديد الوكف منهمراً وبيـلا

ولعله في هذا الشعر القليل الذي روينا يشير بنفسه الى طريقته وأسلوبه ، فما يحوجنا إلى دليل أو تحليل ، بل لعله إذا جمع إلى النثر الذي بسطنا وهو قليل كذلك ، يكفي لرسم صورة عن أدبه وقد اشتد عوده واستدّ ساعده ، ونضج فنه ٠

وخلال هذه السنوات السعيدة الخصبة (١٩٣٣ — ١٩٣٩) التي كان يدرّس فيها الأدب العربيّ بالكلية العلمية ـ كما قلنا ـ راح يؤلف الدراسات الأدبية ويترجم لفحول الأدباء القدماء ، فأصدر عدداً من الكتب جعلها بعنوان : « أئمة الأدب » ، ونشر منها خمسة : « الجاحظ ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والصاحب ، والفرزدق »[1] وهي دراسات مبسطة تجمع حياة الشاعر إلى مختار شعره ، وتعرضه عرضاً واضحاً موفقاً تعين طلاب البكالوريا وتفتح باباً للكتب المدرسية في الأدب العربي ببلادنا ٠

***

ووقعت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ، وقد جاوز الفقيد الأربعين من العمر ، وعرفه العالم العربي ، وأكبره قومه ، واحتل بين إخوانه في المجمع مكانة سامية ، فانتخبوه أميناً للسر سنة ١٩٤١ ، وراح يعمل سحابة أيامه مع الرئيس الأسبق المرحوم محمد كردعلي في انسجام وصفاء ٠

وكانت المجالس الصباحية في المجمع أشبه بمجالس القدماء تطوف فيها كؤوس النوادر الأدبية ، والصفحات العلميه ، فكان الصبوح في « دارة الخالدين » أشهى ما يشرب الناشئة وألذ ما يعالج الشيوخ ليومهم ٠ وكأنّ الحرب ما دارت منها رحى ، وكأنّ ظلام الدنيا ما اختلف إلى هذه العقول النيرة ، وعاش الرضي

(١) الجاحظ ٩٦ صفحة — ابن المقفع ٩٦ صفحة — ابن العميد ١٤٤ صفحة — الصاحب ٢٥٦ صفحة — الفرزدق ١١٢ صفحة ، وكلها من القطع المتوسط .

بين جدران « المدرسة العادلية »[1] شهوراً جميلة أعاد إليها جهاد العلم ، وانتصار الثقافة ، وسموّ الانتاج .

وفي سنة ١٩٤٣ ، شاءت الحكومة أن تختطف العلاّمة الأديب من جدران المجمع لتجعله وزيراً للمعارف في ظروف قلقة ، فترك ما بين يديه من دواوين إلى حين . ولكنه عاد بعد ذلك إلى أمانة السر لتقر به عيون الأعضاء ، ويفرح به الرئيس الجليل .

ومنذ سنة ١٩٤٦ ، أصبح العلامة الفقيد يحيا حياة جديدة أحبها منذ صباه ، وهي العكوف على المصادر القديمة ، واحياء الشعر الشامي يترنم به ويتغنى ، ويبحث وينقب ، حتى عرف كل حيّ من أحياء دمشق في قديمه وحديثه ، وأتقن كل لفظة دمشقية جاءت على لسان الشعراء قبله ، فغدا مرجعاً وثقة في هذا ، كما كان رئيسه ثقة في تاريخ الشام وحضارة الإسلام . والذين يتذوقون الأدب القديم ويعشقون الرحلة في مطاويه ، ويصبرون على التجوال في هوامش الكتب يجدون في تعليقات علامتنا سطوراً لا تضاهيها صفحات كثيرة ، ففيها من اللذة والجمال ما ليس في كتابات كثير من المصريين المجددين المتأدبين ، فهي حدائق من الأدب لا يسمو اليها خيالهم ، ولا تحملهم اليها قوائمهم .

وهذه التعليقات نجدها في الدواوين التي حققها فقيدنا واحداً إثر واحد على كالٍ متصاعد ، ما يزال يحسّن فيه حتى يبلغ الذروة . فقد حقق ديوان ابن عنين الدمشقي سنة ١٩٤٦ ، وديوان عليّ بن الجهم سنة ١٩٤٩ ، وديوان ابن حيوس سنة ١٩٥١ ، ثم ديوان ابن الخياط سنة ١٩٥٨ . وطبعها كلّها المجمع العلمي بدمشق ، وصدّرها علامتنا بمقدمات ودراسات تقارب كلّ مقدمة منها خمسين صفحة ، لو جمع بعضها إلى بعض ، ولو جردت من صدور الدواوين

(١) مقر المجمع العلمي العربي منذ نشأته إلى اليوم .

لكانت تاريخاً للأدب في الشام ، يكمل الدراسة التي أنشأها عن القرن الثالث للهجرة في صدر شبابه . فقد كان الفقيد منسجماً مع ماضيه يسير على خط مستقيم في عمله ، يعرف كيف بدأ ويعرف كيف يتم ، لا يصرفه نقد بعض المتطلعين لأعماله وأعمال المجمع ، ولا يغضبه قولهم فيه ، فهم يرون أن التحقيق والنشر من العبث والترف ، ويظنون أن الأدب كل الأدب قصة تنشر وقصيدة تخطر ، ومقالة تروج ، وخطبة تلقى فحسب .

وقد كان الفقيد يلقى عند المستشرقين اكباراً واعجاباً وثناء لو جمع في ذكراه لأغنى القائلين في مدحه ، كما كان يلقى عند رصفائه من أعضاء المجامع العربية والدولية إكباراً وثناء ، فتهافتت عليه المجامع العلمية والمدارس العالية تهدي اليه عضويتها ، وتلتمس اليه قبول الانتساب اليها . فانتخبه مجمع اللغة بمصر عضواً سنة ١٩٤٨ ، والمجمع العلمي العراقي عضواً كذلك سنة ١٩٤٩ ، ومدرسة الدراسات الشرقية بلندن عضواً سنة ١٩٥١ ، ودائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين عضواً في تحريرها سنة ١٩٥١ ، ومجمع البحر المتوسط في بالرمو عضواً سنة ١٩٥٢ ، والمجمع العلمي السوفياتي عضواً سنة ١٩٥٨ .

وفي سنة ١٩٥١ ، عادت اليه الحكومة السورية لتدعوه الى تسنم منصب وزير مفوض لها في بغداد ، فسافر اليها وكان فيها موضع الحب والتقدير ، وغدت دارتنا هناك ملتقى العرب الأعلام .

وفي سنة ١٩٥٣ اختير وزيراً للخارجية .

وفي السنة نفسها ، انتخب رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق ، فبلغ أعلى ما يطمح اليه عالم وأديب ، وقضى أماني قلبه ووثبات روحه واشراقة نفسه ، وأصبح في الذروة تعقد عليه الآمال وترنو اليه الأبصار .

فلما انصرف عن السياسة والمناصب ، عاد الى المجمع العلمي ليسير بمنشوراته العلمية سيرة مجامع الغرب ، فاطرد العمل ومضت المجلة في ثوبها الجديد ، تثب

في قوة وجلاء حتى قطعت إلى اليوم من عمرها قرابة أربعين سنة ، وقد كان فقيدنا يقطعها أجمل ساعاته ويخصها بأخصب عنايته ، يكاد يقرأ مقالاتها كلها قبل النشر ، ويراقب ترتيبها ، ويحث على المضي في طبعها وتصحيحها ، واخراجها في نظام موقوت ، فكأنها قطعة من حياته ، كما كانت قطعة من حياة سلفه قبله .

أما مطبوعات المجمع فكان يعمل لها في جدّ متواصل ينظر فيها ويدققها كأنها بقلمه ، وكم راجع أصحابها وزودهم بما يعرف من أمور ، واشترك معهم في التعليق والتصويب . وكان بهذا الحرص المتواضع والجهد الدائم يدفع الشباب إلى العمل ، ويحبب برسالة المجمع ، ويستزيد من الأصدقاء ، ويجمع حوله القلوب .

ولم يكن يدفع إلى الإنتاج فحسب ، وإنما كان يضرب الأمثال بنفسه ، فيحبر المقالات في دراسة الأدب ونقده وتحقيق نصوصه كما كان يفعل منذ أول نشأته في « الرابطة الأدبية » . فهو في الستين من عمره كما كان في الخامسة والعشرين ، يعشق الأدب ، ويميل إلى التحقيق ، فيقبل على شعره يسجل همسات خاطره ، ويقبل على شعر أهل الشام فيعنى به ، وكان آخر انتاجه « ديوان ابن الخياط » ـ الذي ذكرناه ـ أتمه قبل عام من وفاته على أحسن ما يصنع المحققون في العالم العربي ، فحشد له ثماني نسخ خطية ، جمعها من أطراف الدنيا ، وسار في التعليق عليها وموازنتها سيراً لا انقطاع فيه ، فاذا خلا من زواره انقلب إلى عمله يرمم بخطه الجميل أبيات الشعر ، كما رمم غيره من الدواوين لا يعتمد على ناسخ أو ناقل ، فكأنه في الثلاثين من عمره جداً وجهاداً ، لا يفتر ولا يني ، حتى ملك الإتقان في هذا الديوان ، وكان لنا شرف الحديث عنه في مجلة المجمع [1] ، فألمعنا إلى أياديه على الجيل في هذا الكتاب وفي غيره ، وبسطنا خطته في تأريخ الأدب العربي لإقليمنا ـ كما قلنا ـ ورجونا أن يتم

(١) انظر المجلد ٣٤ ، سنة ١٩٥٩ (ص ١٢٦ - ١٣٣) .

السلسلة إلى القرن السابع الهجري حيث وقف الشعر العربي عن فيض إبداعه .
ولو قد مد الله في عمر الفقيد لعمد إلى طبع ابن منير الطرابلسي وابن القيسراني ، وقد حدثني عنهما ، وأطال في الشوق إلى اخراجهما ، فوفر لهما النسخ والمصادر ولكن المنية بالمرصاد للنفوس الكبيرة الجاهدة التي تستقل ساعات الحياة دون تحقيق مشاريعها الضخمة .

ولعلّ هذا الإجهاد من غير راحة بعد بلوغه الستين قد أضر بجسمه ، فأورده موارد المرض والعلة ، فأقعده عن السعي الى المجمع ، فافتقده إخوانه وصحبه وهم كثر ، ورأوا مكانه خالياً لا يسدّ ، فلا مرجع يرجعون اليه ، ولا مشير يعلقون على رأيه الأمل . فقد كان مستودع الأسرار ، شديد الحرص عليها وفياً لصحبه ، جميل التواضع ، كأنّ الشعر الرفيع سكب عليه برداً من أجمل أبراده ، فكساه بأجمل الحلي وزينه بأنقى الصفات . فقد كان رحمه الله صورة للرقة في حديثه ومجلسه ، ما تنقطع بشاشته عن خدينه ، حتى لكأنه ورد الربيع ينشر العطر ، ويجمّل الذكر ويكسو الحديث أطيب النكهة . فما عرفنا أن لسانه الحييّ المتردد انطلق مرة إلاّ في خير الناس ونفع الأدب ، وخدمة المجمع ومجد العرب . وكانت عيناه الواسعتان تشعان أبداً بنور النبل والحياء الجم والتواضع الجميل تفرحان للجمال ، وتضحكان للنكتة البريئة ، وتسبران غور المحدث ، وكان في حركاته مثالاً للرجل الرصين الرزين الوقور ، على مر السنين : فتى يافعاً ، وأديباً ناشئاً ، ومدرساً نافعاً ، وعضواً عاملاً ، ووزيراً متواضعاً ، ورئيساً مخلصاً ، تقلّب في حياته على الغنى والجاه وتنقل في المراتب والمناصب ، فما أبطرته ولا أسكرته ، لأنه كان فوق ما أعطته ، وكانت دون ما يستحق .

ولهذا غدت سيرته في صحبه ورصفائه من أعضاء المجمع وأصدقائه الأدباء نفحة عطر وأوراق زهر وصفحات خلود وسطور أمجاد ، ما يستطيع قلم مهما أوتي

من قوة أن يرسم مبلغ صفائها ونقائها ، وما يبلغ بيان إلى وفائها حقها . فهي جوانب كثيرة لا يلم بها مقال مهما طال ، لأنها أخذت من كل روض وجمعت من كل أفق فغدت باقة في الاعمار ، كلما كشفنا عن زهرة منها فاح عبق ، وكلما قلبنا ورقة منها ملأت وجه الأفق ، فهي سيرة تفيض على السنين التي عاشها ، ولا تعد الأعمار الكريمة بالأعوام ، ففي كل مرحلة من مراحل عيشه التي ألمنا اليها أثر كبير وخير كريم .

وقد حاولنا في هذه الصفحات أن نوجز في سيرته لنصف فاجعة المجمع العلمي العربي ، وحزن المجتمع ، وثكل الشعر وحداد الأدب ، وألم المحبين والصحب والأهل ، فقد فقدوا شاعراً محلقاً ، وأديباً محققاً ، ورئيساً لا يجارى ، وصديقاً وفياً لا يبارى ، وإماماً في التواضع والنبل لا تنسى محامده على الزمان .

رحمه الله رحمة واسعة ، وألهمنا العزاء والسلوان على فقده .

الدكتور محمد سامي الدهان

ترجمة جديدة
لابن خداويردي

كان ابن خداويردي (واسمه محمد الراعي) من أدباء القرن الثاني عشر ألف كتابه المشهور «البرق المتألـّق في محاسن جلـّق»، وهو كتاب جمع فيه ما قيل في مدح دمشق نثراً ونظماً، وكنا نشرنا له «أرجوزة في محاسن دمشق»، وترجمنا له ترجمة موجزة في مقدّمتها[1]، لم نستطع يومئذ التوسّع بها لعدم وجود مصادر ترجمت له.

وكان من المفروض أن يترجم له المرادي. ولكننا لم نجد شيئاً عنـه في سلك الدرر المطبوع.

ثم صور معهد المخطوطات العربية من مكتبة عارف حكمة بالمدينة المنوّرة نسخة مخطوطة من كتاب البرق المتألّق. فوجدنا في أول صفحة منها ترجمة المؤلف منقولة من تاريخ المرادي. وهي ترجمة لطيفة. فأحببنا أن ننقلها هنا؛ لأنها لا توجد عند المرادي المطبوع:

«هو محمد بن مصطفى بن خداويردي بن مراد بن ابراهيم الشهير بالراعي،
«بفتح الراء، الحنفي الدمشقي الكاتب المنشئ الأديب، أحد الكتّاب الماهرين
«بالفنون. وُلد بدمشق في سنة تسع عشرة ومائة وألف، ونشأ بها، وأخذ
«الكتابة والمعارف عن أربابها، وتخرّج بذلك على يد محمد عاصم بن عبد المعطي
«أحد أعيان الكتّاب بدمشق، ومهر بصناعتَي النظم والنثر، وصار يكتب
«الخطوط المتنوعة كالرقعة، والديواني، والقرمة، والسياقة، والنسخي، وغير
«ذلك. وبرع باللغتين الفارسية والتركيـة. وصار مقاطعجياً بباب الدفتري
«بدمشق، وكاتباً في أوقاف الحرمين المحترمين. وكان يغلب على شعره الهجو.

(١) انظر مجلة المجمع العلمي العربي، المجلد ٢٧ (سنة ١٩٥٢) ص ٢٢٥

« وله أهاجٍ في الناس كثيرة ، ونكتٌ ونوادر مقبولة . وفي آخر أمره تراكمت
« عليه الأمراض والعلل والأكدار ، وقلّ ما بيده ، الى أن مات .

« وله من الآثار البرق المتألّق في محاسن جلّق يحتوي على ذكر دمشق
« ورياضها وغياضها ومياهها . ورسائل أُخَرُ في الأدب . وشعره كثير .

« وكانت وفاتُه في يوم الثلاثاء خامس صفر الخير سنة خمس وتسعين ومئة وألف .

« رحمه الله تعالى .

« انتهى ملخصاً من تاريخ جناب المولى الهمام العالم الإمام السيد محمد خليل أفندي المرادي المفتي بدمشق الشام » .

وهذه الترجمة تبين لنا أطرافاً من أحوال ابن خداويردي ، وتدلنا على أن تاريخ المرادي المطبوع ناقص .

الدكتور صلاح الدين المنجد

هدية مخطوطات

أهدى الى دار الكتب الوطنيـة (الظاهرية) فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ محمد جميل الشطي مجموعة من المخطوطات الثمينة هذا ثبتها :

العدد	
٢	شرح الغاية لعبد الحي بن أحمد بن العماد الدمشقي
٦	شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي المصري
٦	شرح الاقناع بخط مؤلفه منصور بن يونس البهوتي الحنبلي
٣	شرح المنتهى لمؤلفه منصور بن يونس البهوتي الحنبلي
٤	الانصاف في معرفة الراجح من الخلاف لعلي المرداوي
٢١	المجموع

وكذلك أهداها الأمير جعفر والأمير إدريس الحسني الجزائري المخطوطات التالية وعددها ثلاث وسبعون مخطوطاً :

اسم الكتاب	المؤلف
تحفة البررة في المسائل العشرة	أحمد بن علي بن المهذب بن نصر الحواري
شرح الانموذج في النحو	محمد بن عبد الغني الاردبيلي
رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق	محمد سبط الماردبني
الصلاة الأحدية على الذات الهاشمية	
تحفة الأسماع بمولد حسن الأخلاق والطباع	محمد نسيب الحمزاوي
شرح الشجرة النعمانية	الصدر القنوي
مجموع أوله رسالة على رسالة الوضع	محمد الحفناوي
كتاب النجاة في العلوم الحكمية	أبو علي بن سينا
حاوي المختصرات في العمل بربع المقنطرات	الأمير أحمد بن الأمير عبد القادر الحسني
تفسير غريب القرآن	عبيد الله محمد بن أحمد بن جعفر السقطي البغدادي
تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد	محمد بن مالك الطائي
اختيار المختار في كشف الأسرار	
رسائل في العقيدة الدرزية أولها رسالة التنزيه	
شرح الحكم	محمد بن عباد النفري
شرح قصيدة ابن حبيب الصفدي	علي بن عطية الملقب بعلوان الحموي الهيتي
تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس	عبد الوهاب بن محمد بن علي بن أحمد .. ابن سلطان تلمسان
مجموعة رسائل وأشعار	

شرح قصيدة محمد العربي بن يوسف الفاسي في الزكاة عبد العزيز بن الحسن بن يوسف بن مهدي الزياتي .

اسم الكتاب	المؤلف
عيون المذاهب الكاملي المظفري	عبد الرحمن الخبازي
شرح أسماء الله الحسنى	القشيري
الفتح المبين شرح الأربعين	
تذكرة المعجبين في أسماء سيد المرسلين	محمد بن أبي الفضل قاسم المرعي التونسي
مجموع أوله رسالة شرح لامية ابن الوردي	النجم الغزي
شرح حديث أم زرع	القاضي عياض
تلخيص المفتاح (في علم البلاغة) (الأول من مجموع)	
رسالة في الفقه والفروض والواجبات والنوافل	عبد الله بن أبي زيد القيرواني
الدر الحسان في اختصار كتاب التبيان شرح مورد الظمآن (مخرومة في بعض المواضع)	
الطريقة المحمدية	محمد البركوي
مجموع أوله مشتهى العقول في منتهى النقول	
موصل الطلاب الى قواعد الإعراب (شرح القواعد)	خالد بن عبد الله الأزهري
شرح السمرقندية	عصام الدين بن محمد
مجموع أوله أوراد البكري	مصطفى البكري
مجموع أوله سلك طريق العمل وفيه عندليب المناظرة	
إتحاف المريد بجوهرة التوحيد	عبد السلام اللقاني
فرائد العقود العلوية لحل ألفاظ الأزهرية	الشيخ علي الحلبي
تمرين الطلاب في صناعة الإعراب	خالد بن عبد الله الأزهري
مختصر شرح تلخيص المفتاح	سعد الدين عمر التفتازاني
عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات	عبد الله محمد القزويني
اللمعة في حل السبعة (مختصر نزهة الخاطر)	أحمد بن غلام الله الكوم الريشي

اسم الكتاب	المؤلف
كمالات على نظم الصغرى للونكري (البدور الجلية شرح نظم السنوسية)	محمد بدر الدين
تلخيص المفتاح في علم البلاغة	
مجموع أوله شرح السلم المرونق	
كشف السر الغامض شرح ديوان ابن الفارض	عبد الغني النابلسي
صرف العناية في كشف الكفاية	عبد الله بن محمد الكردي البيتوشي
غرة الأبصار على الثلاثة الأذكار	محمد بن ابراهيم التتائي
شرح الزرقاني على متن العزية	عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري
كتاب في النحو (مخروم الأول) أوله . . ان اذا ظرف فيه معنى . .	
حاشية البناني على هوامش الصبان على شرح التلخيص للتفتازاني (الأول)	مصطفى البناني
كتاب في الفقه مخروم الأول والآخر أوله . . المذكورة علمنا معرفة النجس . . .	
كتاب في الحديث مخروم الأول والآخر أوله . . النفس نشيطاً وإلاّ أصبح خبيث النفس كسلان . .	
تجريد البناني من هوامش الصبان على شرح التلخيص	مصطفى بن محمد البناني
القرآن الكريم	
الدرة البهية شرح المقدمة القرطبية	محمد التتائي
كتاب في النحو مخروم الأول والآخر أوله . . وقد علمت بكنه ذلك عدنان وقحطان (وهو شرح قصيدة)	
حواش على عمدة أهل التوفيق شرح عقيدة أهل التوحيد	الحسن بن مسعود اليوسي
حاشية الكمال بن أبي شريف على المحلي (الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع)	
الخامس من القسطلاني أوله فضائل النبي (ﷺ)	

اسم الكتاب	المؤلف
الثالث من صحيح مسلم	
شرح مقصورة أبي الحسن بن حازم الأنصاري	محمد بن احمد بن محمد الحسني الغرناطي
فتح الباري على صحيح البخاري (الأول)	ابن حجـر
المنصف من الكلام على مغـني ابن هشام	أحمد الشمني الحنفي
السيرة النبوية (مخرومة الأول)	
كتاب في الحديث مخروم الأول أوله : ابن الخيار أخبره أن المقداد ...	
اكمال الاكمال (الثالث)	الابي (شارح مسلم)
عنوان النفاسة في شرح ديوان الحماسة (الاول) (مخرمة الأول)	ابن نالكور ؟
كتاب في الفقه كتب عليه الجزء الثامن الاجور	
كتاب في الحديث مخروم الأول أوله .. ان الشياطين تأكل حقيقة ..	
جزء من الجامع الصحيح أوله .. كتاب الحج	البخـاري
شرح مقامات الحريري	أحمد بن عبد المؤمن .. القيسي الشريشي
القواعد الكبرى	ابن عظـوم
كتاب الخيـل	عبد المؤمن الدمياطي
الأول من المناوي الكبير على الجامع الصغير (فيض القدير)	المنـاوي
مولد ابن حجر الهيثمي	

فنقدم إلى المهدين المشار اليهم أطيب الثناء والشكر على هديتهم النفيسة .

الفهرس العام

لمواد المجلد الرابع والثلاثين

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الأعلام

أي أسماء كتّاب المقالات المنشورة في هذا المجلد

منسوقاً على حروف الهجاء

فهرس الجزء الرابع من المجلد الرابع والثلاثين

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء